نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

من رحلات العرب
رواد الشرق العربي في العصور الوسطى
الرحالة العرب

نقولا زيادة
من رحلات العرب
رواد الشرق العربي في العصور الوسطى
الرحالة العرب

من رحلات العرب

أقدم الريادات للبحار الشرقية

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

من رحلات العرب

أقدم الريادات للبحار الشرقية

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
© رائد وباسم زيادة
إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

المحتويات

مقدمة ٩

سليمان التاجر:

أخبار الصين والهند ١٥

أبو زيد السيرافي:

من أخبار الصين والهند ٢٩

بزرك بن شهريار:

عجائب الهند ٤٩

مقدمة

تحدثنا الأسطورة ويروي لنا التاريخ ويكشف لنا البحث الأثري تباعاً أن الإنسان، حتى في العصور المتوغلة في القدم، كان ينقل المتاجر من مكان إلى آخر متبعاً طريقاً بحرياً معيناً، أو سالكاً طريقاً برياً معروفاً. وبلاد الصين والهند وما إليهما من جزر وغيرها كانت تتصل بحراً بالبلاد الواقعة على المحيط الهندي ومتفرعاته مثل بحر الزنوج والبحر الأحمر وخليج عمان والخليج العربي. فقد كانت السفن تحمل الأخشاب والحجارة الكريمة والقطن والعاج والعقيق الأحمر واللازورد من بلاد السند إلى بلاد الرافدين (في الألف الثالث ق.م.)، كما كانت سفن أخرى تحمل اللبان والمر من جنوب الجزيرة العربية إلى هياكل مصر وأرض الرافدين وآسية الصغرى وغيرها. وهذا قليل من كثير من السلع التي كانت تتبادلها البلاد المختلفة.

وكان ثمة طريق بري ينقل الحرير من الصين إلى أرض الرافدين ومن هناك إلى أجزاء من آسية وأوروبة. ولكن نقل الحرير أحدث عهداً من نقل الخشب والنحاس والبخور.

والطرق البحرية في المحيط الهندي، أو جلها على الأقل، أصابها الكساد في أيام الامبراطورية الفارسية وذلك منذ القرن السادس إلى القرن الرابع ق.م. ذلك ان هذه الدولة التي انتشر سلطانها على المنطقة الواقعة بين باكستان الآن (تقريباً) وبين البحر الأبيض المتوسط، أمنت الطرق البرية التي كانت تحت نفوذها، وأفادت منها تجارة ومكوسا وجنت منها الفوائد الاقتصادية المختلفة فأدى ذلك إلى إهمال الطرق البحرية التي لم يكن يفيد الفرس منها مباشرة.

فلما قضى الاسكندر على الامبراطورية الفارسية وتوغل في سيره إلى حوض السند عبر افغانستان الحالية، خطر له، إذ بدأ يعد العدة للرجوع إلى بلاده (سنة ٣٢٦ ق.م.)، أن يعيد إلى الطرق البحرية أهميتها. فقرر البدء باكتشاف الطريق الواصل بين السند والعراق. فأعد لذلك اسطولاً ضخماً وضعه تحت إمرة نيارخوس. فبدأ هذا رحلته من ميناء الاسكندر، قرب كراتشي الحالية، في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ٣٢٦ ق.م وسار مع أسطوله محاذياً للشاطىء، قريباً منه بحيث يمكنه الحصول على الماء والمؤن، وبعيداً عند الحاجة، كي يتجنب الأخطار. وهذه الأخطار كانت تشمل

الشـواطىء الضـحلة والجـزر الصـغيـرة الكثيـرة والسـكان الذين كـانوا على اسـتعـداد للانقضاض على الرجال لأخذهم أسرى.

وأخيراً وصل نيارخوس إلى خليج عمان ومر برأس مسندم واجتاز مضيق هرمز وأجاز بجـزيرة أوركتـا (قشم) وجـزيرة كاتيـا (لعلها قـيس أو قـيش)، وأراح رجـاله في منطقة بوشير، وأخيراً ألقى الأسطول مراسيه على مقربة من الأهواز الحالية وكان ذلك في ٢٤ شبـاط (فبـراير) من سنة ٣٢٥ ق.م. وقد كـانت المدة التي احـتـاجـهـا الأسطول للوصول من ميناء الاسكندر إلى الأهواز ثمانين يوماً.

كانت بعثة نيارخوس هذه ناجحة من حيث إنها كشفت، من جديد، عن الطريق المحاذي للشاطىء الشرقي للخليج العربي وخليج عُمان. لذلك أراد الإسكندر أن يقوم بالتعرف إلى الشاطىء الغربي للخليج العربي. فأعد لذلك ثلاث حملات صغيرة نسبياً، وصلت واحدة منها إلى جزر البحرين وتجاوزت الثانية هذه الجزر قليلاً، أما الثالثة فبلغت رأس مسندم. وكان ينوي أن يتبع ذلك بأسطول ضخم يدور بجنوب الجـزيرة العربية ويعبر إلى البحر الأحمر. لكن الاسكندر توفي سنة ٣٢٣ ق.م. وتوقف كل شيء.

شـهد القـرن الأول قـبل المـيـلاد تطوراً وتبدلاً في الطريق البـحـري بين جنوب الجـزيرة العـربيـة والهند. فـالذي نعـرفه هو أن التـجـار العـرب من اليـمن وحضـرموت وغـيـرهم من تـجـار الأقـوام المـجـاورة، كـانوا يسيـرون بسـفنهم إلى الهند في مـحـاذاة الشواطىء الجنوبية للجزيرة العربية إلى عُمان، ثم تقطع السفن بحـر (أو خليج) عمان وتعود إلى محاذاة الشواطىء الإيرانية والهندية حتى تصل سواحل الهند الغربية.

أمـا التبـدل الذي حـدث في القـرن الأول ق.م. فـهـو أن هيبـالوس اكتشف مـواعيـد الرياح الموسمية بالنسبة إلى كل من الهند، من جهة، وجنوب الجزيرة العربية وشرق إفريقية، من جهة أخرى. وهذه الرياح تهب في اتجاه الهند صيفاً، وتهب في الاتجاه المعاكس شتاءً. ومنذ ذلك الوقت أصبحت السفن التي كبرت حجماً واتسعت شراعاً تفيد من هذه الرياح. وبذلك أمكنها أن تخرج من عدن أو من قنا (أواسط السـاحل العربي الجنوبي) أو من رأس التوابل (في افريقية) وتتجه إلى موانىء السند أو غيرها في غرب الهند رأساً. وكانت السفن تحتاج إلى نحو أربعين يوماً لتجتاز المسافة من مخرج البحر الأحمر إلى ساحل ملبار في غرب الهند.

وقد وصلت إلينا أخبار بعثة نيارخوس من أريان الذي عاش في القرن الثاني ق.م. وأرخ للاسكندر. ويبـدو أنه نقل معلومـاته عن جـريدة دونـت فيـهـا الأخـبـار الخـاصـة بحملات الاسكندر في الشرق.

أما أخبار هيبالوس فقد زودنا بها كتاب اسمه «دليل البحر الأحمر» وضعه تاجر يوناني لم يصل اسمه إلينا ولكننا نعرف انه كان يعيش في مصر في أواسط القرن الأول للميلاد.

على ان هذين المصدرين ليسا كل ما نملك من مصادر لمعرفتنا عن البحار المحيطة بجزيرة العرب وصلات هذه الجزيرة ببلاد أخرى ولو نائية. فهناك أغاثر خيدس اليوناني الإسكندري وسترابون صاحب كتاب الجغرافية وبليني صاحب كتاب التاريخ الطبيعي. وهؤلاء، مع أريان ومؤلف دليل البحر الأحمر، عاشوا في الفترة الممتدة بين القرن الثاني ق. م. والقرن الأول للميلاد.

هذا النشاط الذي ذكرناه بالنسبة إلى الكتابة عن الطرق البحرية والموانىء والمتاجر، مع اشارات مختصرة إلى الشعوب، وقف فجأة في القرن الأول للميلاد. وكأن ستاراً أسدل على تلك الجهات.

لكن التاريخ كان ينتظر.

كان ينتظر خروج العرب من جزيرتهم وما إليها ميممين شطر المشرق والمغرب يحملون الإسلام واللغة العربية، فتدين لهم رقعة من الأرض تمتد من أواسط آسية إلى الأندلس، ويقيمون فيها دولة عربية اسلامية، وينشؤون فيها حضارة عربية إسلامية تترك آثارها فيما بعد، لا في حدود الامبراطورية التي أقاموها فحسب، ولكن في الأجيال التي تلت في أوروبة وغيرها.

ونحن لا نقصد هنا أن نؤرخ للعرب والإسلام. ولكننا نود أن نشير إلى أمرين فقط: أولهما هذا النشاط التجاري الذي عاد إلى الطرق البحرية في المحيط الهندي وما إليه في أيام العرب. وثانيهما هو هذا الأدب الجغرافي البحري الذي رافق النشاط، والذي ورثناه عن الرحالين والدارسين.

فالمعروف أن الأجزاء الجنوبية من آسية وشرق إفريقية عرفت منذ أواخر القرن الثالث للهجرة (أي القرن التاسع للميلاد) وإلى نحو قرن بعد ذلك، فترة نشاط تجاري ليس لها مثيل في تاريخ المنطقة. ويذكرنا جبرائيل فران بأن هذه الفترة شهدت قيام أو وجود دول منظمة قوية، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في هذا الذي نشاهده من النشاط التجاري. ففي الصين كانت دولة تانغ القوية (٦١٨ ـ ٩٠٦). وفي سومطره كانت توجد أسرة شيلفوتشه (أو سريبوزا كما يسميها العرب). وكانت الخلافة العباسية في بغداد وعلى رأسها الرشيد وإبناه وخلفاؤهم. ولم يقتصر النشاط على التجارة أو الحياة الاقتصادية، بل ان العلوم والفنون والآداب تقدمت أيضاً. وهذا ما حدا الأمم المختلفة المتعاصرة أن تتبادل سلعها وعلومها وآدابها وفنونها.

وكان من حسن حظنا أن خلّف لنا تجار وقصاص ونواخذة من أهل القرن الثالث والرابع (التاسع والعاشر) أخباراً عن البلاد التي زاروها أو سمعوا قصصها أو أبحروا إليها. وكانوا أول من عرّفنا، وعرّف العالم، بالبحار الشرقية وشواطئها وأهلها ومتاجرهم وعاداتهم ورسومهم، بحيث نحصل على صور اجتماعية انثربولوجية اقتصادية حية، وفي أكثرها، صحيحة.

الكتاب الذي نضعه بين أيدي القراء هو مجموعة من ثلاثة كتب تناولت الرحلة إلى البحار الشرقية، أولها «أخبار الصين والهند» للتاجر سليمان، والثاني «من أخبار الهند والصين» يكاد يكون تعليقاً وتوضيحاً مفصلين للكتاب الأول، وهو من وضع أبي زيد السيرافي، والثالث «عجائب الهند» لبزرك بن شهريار.

والذي خلص إليه البحث هو أن سليمان كان تاجراً وأنه سافر إلى الهند والصين أكثر من مرة بقصد التجارة، متخذاً من سيراف نقطة انطلاق لرحلاته، عابراً الخليج العربي وخليج عمان، مريحاً ومتاجراً في كلم على ساحل ملبار في الهند وفي كله على ساحل الملايو الغربي حتى وصل خانفو (كنتون الحديثة) في الصين. والرجل لم يكن عالماً ولا أديباً، ولكن هذا التنقل في تلك الجهات أتاح له التعرف إلى عالم واسع مليء بالمتناقضات، فأراد أن يدون أخباره. وقد اتفق الباحثون في أخبار الصين والهند على أن هذه الروايات أو الأخبار جمعت حول سنة ٢٣٧ للهجرة أي ٨٥١ للميلاد. ويرى فيران أن سليمان هو الذي دون الروايات بنفسه.

أما أبو زيد السيرافي فلم يكن من أهل الرحلة أو السفر أو التجارة، لكنه كان كثير الاتصال بالرحالة والمسافرين والتجار في مسقط رأسه سيراف. وقد جمع طرفاً من الأخبار عن الهند والصين ودوّنها. ويقول أبو زيد في مطلع كتابه إنه قرأ الكتاب الأول (أي كتاب التاجر سليمان) الذي كلف بتفحصه، وإنه وجده صحيحاً. ثم يسير في ذكر ما عنده. وأبو زيد كان يعيش في أواخر القرن الثالث ومطلع الرابع للهجرة (التاسع والعاشر للميلاد).

ضم أبو زيد أخبار ابن وهب القرشي إلى كتابه، وابن وهب مواطن بصري قام برحلة طويلة من سيراف إلى عاصمة الصين خمدان مروراً بخانفو (كنتون). ويبدو أن رحلته كانت في عام ٢٥٧ هـ (٨٧٠ م).

أما بزرك بن شهريار فقد كان رباناً من رامهرمز على الشاطىء الفارسي للخليج العربي. ولعل هذا هو الشيء الوحيد المعروف عنه. والقصص التي يرويها تشمل بالإضافة إلى الهند، شرق افريقية وجنوب الجزيرة العربية. وتعود هذه القصص إلى الفترة الممتدة بين ٢٢٨ و٣٤٢ للهجرة (٩٠٠ ـ ٩٥٣ للميلاد).

وإذن فالكتب الثلاثة تضع بين أيدينا ما توفر لدى أصحابها من معلومات وأخبار وقصص وعجايب للفترة الواقعة بين ٢٣٧ و٣٤٢ هـ (٨٥١ ـ ٩٥٣م) وهي فترة النشاط التجاري البحري، والرواية عنه.

وسيرى القارىء أن اسم سيراف يتردد كثيراً في هذه القصص والأخبار، ولا غرابة في ذلك. فقد كانت هذه المدينة محط رحال التجار ومرسى السفن.

كانت الموانىء الرئيسة في الخليجين (العربي وعُمان) البصرة وسيراف وعُمان. وكانت سيراف، في أيام هذه الأخبار والقصص التي وضعناها بين يدي القارىء، الميناء

التي تمر به متاجر فارس. وقد أجمع جغرافيو القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) العرب من الاصطخري إلى المقدسي، على أن سيراف كانت فرضة عظيمة و«هي مدينة عظيمة ليس بها سوى الأبنية شيء... وليس بها ماء يجمد ولا زرع ولا ضرع... وأهل سيراف... يسيرون في البحر حتى ربما غاب أحدهم عامة عمره في البحر» (الاصطخري). ويقول المقدسي كانت «سيراف دهليز الصين... وعلى الجملة، ما رأيت في الإسلام أعجب من دورها ولا أحسن. وقد بنيت من خشب الساج والآجر، شاهقة تشتري الدار الواحدة بفوق المئة ألف درهم».

وكانت البصرة في الشمال وعمان في الجنوب تؤلفان المركزين الآخرين الكبيرين. ويبدو من هذا الذي ورد في كتب الجغرافيين وفي أخبار الرحالين وفي قصص أهل البحر، أن الرحلة البحرية إلى الصين أو إلى شرق إفريقية كانت تبدأ من الإبلة في منطقة البصرة، وتمر بسيراف ثم تنحدر إلى المحيط الهندي.

وكتابا سليمان وأبي زيد السيرافي وصلانا في نسخة فريدة موجودة الآن في المكتبة الوطنية بباريس. لكنها كانت ملكاً للوزير الفرنسي كولبر الذي حصل عليها سنة ١٦٧٣ ثم انتقلت إلى صهره قبل أن تصل إلى المكتبة الملكية (وهي المكتبة الوطنية الآن).

وقد لفتت نظر رنودو، الذي كان صديقاً لصهر كولبر، فاهتم بها وكانت النتيجة أن ظهرت ترجمة فرنسية لها سنة ١٧١٨. ويرجح غبريل فران أن رنودو هو الذي نقلها إلى الفرنسية. وفي سنة ١٨١١ نشر النص العربي في باريس وطبع «بدار الطباعة السلطانية» على ما يظهر في النسخة التي بين أيدينا، وكان ذلك على يد رينو، أحد كبار المستشرقين في القرن التاسع عشر، الذي علق عليها بالفرنسية تعليقات هامة. وفي سنة ١٩٢٢ نشر غبريل فران ترجمة فرنسية جديدة. وفران هو الذي اهتم بدراسة الرحلات البحرية العربية في المشرق. وكان آخر من أعاد نشر كتاب سليمان مع ترجمة فرنسية له المستشرق الفرنسي جان سوفاجيه (١٩٤٨).

أما كتاب عجايب الهند فقد نشره محققاً فان درلث الهولاندي، مع ترجمة فرنسية قام بها مارسل دفيك. وطبع الأصل والترجمة معاً في ليدن بهولاندا (١٨٨٣ ـ ١٨٨٦).

وليس بغريب أن يعنى هؤلاء العلماء بمثل هذه الكتب، فهي أقدم ما وصلنا عن البحار الشرقية. ومع أن في بعض القصص مبالغات وخوارق، فإن جماع ما نحصل عليه منها فيه من الدقة الكثير الكثير.

ومن أجل ذلك قدَّمنا هذه الكتب مجتمعة إلى القارىء العربي.

بيروت ١٩٧٤

سليمان التاجر، **أخبار الصين والهند**

١ ـ البحار الشرقية

في البحر الذي يقع بين الهند والسند وبلاد يأجوج ومأجوج وجبل قاف وسرنديب وما إليها سمك ربما ظهر ونبت على ظهره الحشيش والصدف، وربما أرسى عليه أصحاب المراكب يقدرون أنه جزيرة. فإذا فطنوا أقلعوا من عنده. وربما نشر هذا السمك أحد جناحيه الذي في صلبه فيكون مثل الشراع وربما رفع رأسه عن الماء فتراه كالشي العظيم. وربما نفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة. فإذا سكن البحر اجتمع السمك فحواه بذنبه، ثم يفتح فمه فيرى السمك في جوفه يغيص كأنه يغيص في بئر. والمراكب التي تكون في البحر تخافه، فهم يضربون بالليل بنواقيس مثل نواقيس النصارى مخافة أن تتكىء على المركب فتغرقه.

وفي هذا البحر سمكة اصطدناها يكون طولها عشرين ذراعاً. فشققنا بطنها فأخرجنا منها أيضاً سمكة من جنسها. ثم شققنا بطن الثانية فإذا في بطنها مثلها، وكل هذا حيٌّ يضطرب يشبه بعضه بعضاً في الصورة. ولهذا السمك الكبير الذي يدعى الوال، مع عظم خلقه، سمكة تدعى اللشك طولها قدر ذراع، فإذا طغت السمكة وبغت، وآذت السمك في البحر، سلطت عليها هذه السمكة الصغيرة فصارت في أصل أذنها ولا تفارقها حتى تقتلها. وتلتزق بالمركب فلا تقرب إلى المركب هذه السمكة الكبيرة فرقاً من الصغيرة.

وفي هذا البحر أيضاً سمكة يحكي وجهها وجه الإنسان، تطير فوق الماء واسم هذا السمك الميج. وسمك آخر من تحت الماء يرصده حتى إذا سقط إبتلعه ويسمى هذا السمك العنقتوس. والسمك كله يأكل بعضه بعضاً.

البحر الثالث بحر هركند (بحر الهند) وبينه وبين بحر لاروي جزائر كثيرة، يقال إنها ألف وتسع مائة جزيرة وهي فرق ما بين هذين البحرين لاروي وهركند. وهذه الجزائر تملكها امرأة. ويقع في هذه الجزائر عنبر عظيم القدر فتقع القطعة مثل البيت ونحوه. وهذا ينبت في قعر البحر نباتاً فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره مثل الفطر والكمأة. وهذه الجزائر التي تملكها المرأة عامرة بنخل النارجيل. وبعدما بين الجزيرة والجزيرة فرسخان وثلثة وأربعة وكلها عامرة بالناس والنارجيل. ومالهم

الودع، وهذه الملكة تدخر الودع في خزائنها. ويقال إن أهل هذه الجزائر لا يكون أصنع منهم، حتى أنهم يعملون القميص مفروغاً منه نسجاً بالكمين والدخريصين[١] والجيب، ويبنون السفن والبيوت ويعملون سائر الأعمال على هذا النسق من الصنعة. والودع يأتيهم على وجه الماء وفيه روح فتؤخذ سعفة النارجيل فتطرح على وجه الماء فيتعلق فيها الودع وهم يدعونه الكستج.

وآخر هذه الجزائر سرنديب في بحر هركند وهي رأس هذه الجزائر كلها، وهم يدعونها الديبجات[٢] وبجانب منها مغاص اللؤلؤ، وبحرها كله حولها. وفي أرضها جبل يدعى الرهون وعليه هبط آدم (عم)، وقدمه في صفا رأس هذا الجبل منغمسة في الحجر: في رأس هذا الجبل قدم واحدة، ويقال إنه (عم) خطا خطوة أخرى في البحر. ويقال إن هذه القدم التي على رأس الجبل نحو من سبعين ذراعاً. وحول هذا الجبل معدن الجوهر: الياقوت الأحمر والأصفر والآسمانجوني. وفي هذه الجزيرة ملكان، وهي جزيرة عظيمة فيها العود والذهب والجوهر، وفي بحرها اللؤلؤ والشنك وهو هذا البوق الذي ينفخ فيه مما يذخرونه.

وفي هذا البحر، إذا ركب إلى سرنديب، جزائر ليست بالكثيرة غير أنها واسعة لا تضبط. منها جزيرة يقال لها الرامني فيها عدة ملوك، وسعتها يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ، وفيها معادن الذهب، وأخرى تدعى فنصور يكون الكافور الجيد منها. ولهذه الجزائر جزائر تليها: منها جزيرة يقال لها النيان. لهم ذهب كثير وأكلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدهنون. وإذا أراد أحد منهم أن يتزوج لم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم. فإذا قتل اثنين زوج اثنتين. وكذلك إذا قتل خمسين زوج خمسين امرأة بخمسين قحفا. وسبب ذلك أن أعداءهم كثير فمن أقدم على القتل أكثر كان رغبتهم فيه أوفر. وفي هذه الجزيرة ـ أعني الرامني ـ فيلة كثيرة وفيها البقم والخيزران وفيها قوم يأكلون الناس. وهي تشرع على بحرين هركند وسلاهط.

وبعد هذا جزائر تدعى لنجبالوس، وفيها خلق كثير عراة، الرجال منهم والنساء، غير أن على عورة المرأة ورقا من ورق الشجر. فإذا مرت بهم المراكب جاءوا إليها بالقوارب الصغار والكبار وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد وما يحتاجون من كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد.

ومن وراء هؤلاء جزيرتان، بينهما بحر، يقال لهما أندامان وأهلهما يأكلون الناس أحياء. وهم سود مفلفلو الشعور مناكير الوجوه والأعين طوال الأرجل. فرج أحدهم ـ يعني ذكره ـ مثل الذراع، عراة. ليست لهم قوارب ولو كانت لهم لأكلوا كل من مر بهم. وربما أبطأت المراكب في البحر وتأخر بهم المسير بسبب الريح فينفذ ما في المراكب من الماء فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء وربما أصابوا منهم، ويفلتون أكثر.

وبعد هذه الجزائر جبال ليست على الطريق يقال إن فيها معادن فضة وليست

بمسكونة. وليس كل مركب يريدها يصيبها، وإنما دل عليها جبل منها يقال له الخشنامي. مر به مركب فرأوا الجبل فقصدوا له فلما أصبحوا انحدروا إليه في قارب ليحتطبوا وأوقدوا ناراً فانسكبت الفضة فعلموا أنه معدن. فاحتملوا ما أرادوا منه فلما ركبوا اشتد عليهم البحر فرموا بجميع ما أخذوا منه. ثم تجهز الناس بعد ذلك إلى هذا الجبل فلم يعرفوه. ومثل هذا في البحر كثير لا يحصى من جزائر ممنوعة لا يعرفها البحريون، فمنها ما لا يقدرون عليه.

وربما رؤي في هذا البحر سحاب أبيض يظل المراكب فيشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر. فيغلي له ماء البحر: مثل الزوبعة فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته. ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطراً فيه قذى البحر. فلا أدري أيستقي السحاب من البحر أم كيف هذا. وكل بحر من هذه البحار تهيج فيه ريح تثيره وتهيجه حتى يغلي كغليان القدور فيقذف ما فيه إلى الجزائر التي فيه، ويكسر المراكب، ويقذف السمك الميت الكبار والعظام، وربما قذف الصخور والجبال، كما يقذف القوس السهم. وأما بحر هركند فله ريح غير هذه ما بين المغرب إلى بنات نعش، فيغلي لها البحر كغليان القدور ويقذف العنبر الكثير. وكلما كان البحر أغزر وأبعد قعراً كان العنبر أجود. وهذا البحر ـ أعني هركند ـ إذا عظمت أمواجه تراه مثل النار يتقد. وفي هذا البحر سمك يدعى اللخم وهو سبع يبتلع الناس.

٢ ـ الطرق البحرية

وبسبب هذا يفت في أيديهم فيقل المتاع. ومن أسباب قلة المتاع حريق ربما وقع بخانفو، وهو مرقا السفن ومجتمع تجارات العرب وأهل الصين. فيأتي الحريق على المتاع. وذلك أن بيوتهم هناك من خشب ومن قنا مشقق. ومن أسباب ذلك أن تنكسر المراكب الصادرة والواردة أو ينهبوا أو يضطروا إلى المقام الطويل، فيبيعون المتاع في غير بلاد العرب. وربما رمت بهم الريح إلى اليمن أو غيرها فيبيعون المتاع هناك. وربما أطالوا الإقامة لإصلاح مراكبهم وغير ذلك من العلل.

وذكر سليمان التاجر أن بخانفو، وهو مجتمع التجار، رجلاً مسلماً يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية. وإذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين. وإن التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئاً في أحكامه وعمله بالحق وبما في كتاب الله عز وجل وأحكام الإسلام.

فأما المواضع التي يردونها ويرقون إليها فذكروا أن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف، وأن المتاع تحمل من البصرة وعمان وغيرها إلى سيراف. فيعبى في السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه. والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء مائة وعشرون فرسخا. فإذا عبي المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء وخطفوا ـ وهذه لفظة يستعملها أهل البحر، يعني يقلعون

ـ إلى موضع يقال له مسقط وهو آخر عمل عُمان. والمسافة من سيراف إليه نحو مائتي فرسخ. وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف بني الصفاق. وفي هذا البحر جبال عمان وفيها الموضع الذي يسمى الدردور وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية. وفيها الجبلان اللذان يقال لهما كسير وعوير، وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير. فإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له صحار عمان. فنستعذب الماء من مسقط من بئر بها. وهناك فئة غنم من بلاد عمان.

فتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند وتقصد إلى كولم ملي والمسافة من مسقط إلى كولم ملي شهر على اعتدال الريح. وفي كولم ملي مسلحة لبلاد كولم ملي تجبي السفن الصينية وبها ماء عذب من آبار. فيؤخذ من الصينية ألف درهم ومن غيرها من السفن ما بين عشرة دنانير إلى عشرين دينار. وبين مسقط وبين كولم ملي وبين هركند نحو من شهر. وبكولم ملي يستعذبون الماء. ثم تخطف المراكب ـ أي تقلع ـ إلى بحر هركند فإذا جاوزوه صاروا إلى موضع يقال له لنجبالوس، لا يفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجار من اللغات. وهم قوم لا يلبسون الثياب، بيض كواسج (مرد). وذكروا أنهم لم يروا منهم النساء وذلك أن رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة في زواريق منقورة من خشبة واحدة ومعهم النارجيل وقصب السكر والموز وشراب النارجيل، وهو شراب أبيض، فإذا شرب ساعة يؤخذ من النارجيل فهو حلو مثل العسل، فإذا ترك ساعة صار شراباً، وإن بقي أياماً صار خلا. فيبيعون ذلك بالحديد، وربما وقع إليهم العنبر اليسير فيبيعونه بقطع الحديد، وإنما يتبايعون بالإشارة يداً بيد إذ كانوا لا يفهمون اللغة. وهم حذاق بالسباحة فربما استلبوا من التجار الحديد ولا يعطونهم شيئاً.

ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كله بار: المملكة والساحل كل يقال له بار. وهي مملكة الزابج متيامنة عن بلاد الهند. يجمعهم ملك، ولباسهم الفوط: يلبس السري والدني منهم الفوطة الواحدة. ويستعذبون هناك الماء من آبار عذبة، وهم يؤثرون ماء الآبار على مياه العيون والمطر. ومسافة ما بين كولم ملي وكلاه هي قريبة: من هركند إلى كله بار شهر. ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له تيومة وبها ماء عذب لمن أراده، والمسافة إليها عشرة أيام. ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كندرنج: عشرة أيام وفيها ماء عذب لمن أراده. وكذلك جزائر الهند إذا احتفرت فيها الآبار وجد فيها الماء العذب. وبها جبل مشرف وربما كان فيه الهراب من العبيد واللصوص.

ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له صنف: مسيرة عشرة أيام وبها ماء عذب، ومنه يؤتى بالعود الصنفي، وبها ملك، وهم قوم سمر يلبس كل واحد منهم فوطتين.

فإذا استعذبوا منها، خطفوا إلى موضع يقال له صنف فولاو، وهي جزيرة في البحر والمسافة إليها عشرة أيام وفيها ماء عذب. ثم تخطف المراكب إلى بحر يقال له صنخي إلى أبواب الصين، وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة تمر فيها المراكب. فإذا سلم الله من صنف فولاو خطف المراكب إلى الصين في شهر، إلا أن الجبال التي تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام. فإذا جازت السفينة الأبواب ودخلت الخور صارت إلى ماء عذب إلى الموضع الذي ترسى إليه من بلاد الصين وهو يسمى خانفو: مدينة. وسائر الصين فيها الماء العذب من أنهار عذبة وأودية ومسالح وأسواق في كل ناحية.

٣ ـ بعض من الغرائب

وفيها مد وجزر مرتين في اليوم والليلة. إلا أن المد يكون فيما يلي البصرة إلى جزيرة أبركاوان إذا توسط القمر السماء. ويكون الجزر عند طلوع القمر وعند مغيبه. والمد يكون بناحية الصين إلى قريب من جزيرة أبركاوان إذا طلع القمر فإذا توسط السماء جزر الماء فإذا غاب كان المد فإذا كان في مقابله وسط السماء جزر.

وذكروا أن في جزيرة يقال لها ملجان، فيما بين سرنديب وكله وذلك من بلاد الهند في شرقي البحر، قوم من السودان عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكساً وقطعوه وأكلوه نياً. وعدد هؤلاء كثير، وهم في جزيرة واحدة، وليس لهم ملك، وغذاؤهم السمك والموز والنارجيل وقصب السكر، ولهم مواضع يأوون إليها شبيه الوحوش بالغياض والآجام.

وذكروا أن في ناحية البحر سمكاً صغيراً طياراً يطير على وجه الماء يسمى جراد الماء. وذكروا أن بناحية البحر سمكاً يخرج حتى يصعد على النارجيل فيشرب ما في النارجيل من الماء ثم يعود إلى البحر. وذكروا أن في البحر حيواناً يشبه السرطان فإذا خرج من البحر صار حجراً قال: ويتخذ منه كحل لبعض علل العين.

وذكروا أن بقرب الزابج جبلاً يسمى جبل النار لا يقدر على الدنو منه. يظهر منه بالنهار دخان وبالليل لهب نار ويخرج من أسفله عين باردة عذبة وعين حارة عذبة.

٤ ـ عادات أهل الصين

ولباس أهل الصين الصغار والكبار الحرير في الشتاء والصيف. فأما الملوك فالجيد من الحرير ومن دونهم فعلى قدرهم. وإذا كان الشتاء لبس الرجل السراويلين والثلثة والأربعة والخمسة وأكثر من ذلك على قدر ما يمكنهم. وإنما قصدهم أن يدفئوا أسافلهم لكثرة الندى وخوفهم منه. وأما الصيف فيلبسون القميص الواحد من الحرير ونحو ذلك. ولا يلبسون العمائم.

وطعامهم الأرز، وربما طبخوا معه الكوشان (يخنة من اللحم أو السمك) فصبوه على الأرز فأكلوه. فأما الملوك منهم فيأكلون خبز الحنطة واللحم من سائر الحيوان ومن الخنازير وغيرها. ولهم من الفاكهة التفاح والخوخ والاترج والرمان والسفرجل والكمثرى والموز وقصب السكر والبطيخ والتين والعنب والقثآء والخيار والنبق والجوز واللوز والجلوز والفستق والإجاص والمشمش والغبيرآء والنارجيل. وليس لهم فيها كثير نخل، إلا النخلة في دار أحدهم. وشرابهم النبيذ المعمول من الأرز. وليس في بلادهم خمر، ولا تحمل إليهم ولا يعرفونها ولا يشربونها. ويعمل من الأرز الخل والنبيذ والناطف وما أشبه ذلك.

وليس لهم نظافة ولا يستنجون بالماء إذا أحدثوا بل يمسحون ذلك بالقراطيس الصينية. ويأكلون الميتة وما أشبهها مما يصنعه المجوس، فإن دينهم يشبه دين المجوس. ونساؤهم يكشفن رؤوسهن ويجعلن فيها الامشاط فربما كان في رأس المرأة عشرون مشطاً من العاج وغير ذلك. والرجال يغطون رؤوسهم بشيء يشبه القلانس. وسنتهم في اللصوص أن يقتل اللص إذا أصيب.

٥ ـ حالة الهند السياسية

أهل الهند والصين مجمعون على أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة. فأول من يعدون من الأربعة ملك العرب، وهو عندهم إجماع لا اختلاف بينهم فيه. إنه ملك أعظم الملوك وأكثرهم مالاً وأبهاهم جمالاً وإنه ملك الدين الكبير الذي ليس فوقه شيء. ثم يعد ملك الصين نفسه بعد ملك العرب، ثم ملك الروم، ثم بلهرا ملك المخرمي الآذان.

فأما بلهرا هذا أشرف الهند، وهم له مقرون بالشرف: وكل ملك من ملوك الهند متفرد بملكه، غير أنهم مقرون لهذا. فإذا وردت رسله على سائر الملوك صلوا لرسله تعظيماً له. وهو ملك يعطي العطاء كما تفعل العرب، وله الخيل والفيلة الكثيرة والمال الكثير. وماله دراهم تدعى الطاطرية وزن كل درهم درهم ونصف بسكة الملك. وتأريخه في سنة من مملكته (أي سنة) وفاة من كان قبله: ليس كسنة العرب من عصر النبي (عم) بل تأريخهم بالملوك. وملوكهم يعمرون. وربما ملك أحدهم خمسين سنة. وتزعم أهل مملكة بلهرا إنما يطول مدة ملكهم وأعمارهم في الملك لمحبتهم للعرب، وليس في الملوك أشد حباً للعرب منه، وكذلك أهل مملكته. وبلهرا اسم لكل ملك منهم ككسرى ونحوه وليس باسم لازم. وملك بلهرا وأرضه أولها ساحل البحر هي بلاد تدعى كمكم متصلة على الأرض إلى الصين وحوله ملوك كثيرة يقاتلونه غير أنه يظهر عليهم.

فمنهم ملك يدعى ملك الجرز وهو كثير الجيش: ليس لأحد من الهند مثل خيله. وهو عدو العرب غير أنه مقر أن ملك العرب أعظم الملوك وليس أحد من الهند أعدى

للإسلام منه. وهو على لسان من الأرض وأموالهم كثيرة وإبلهم ومواشيهم كثيرة ويتبايعون بالفضة التبر ويقال إن لهم معادن. وليس في بلاد الهند آمن من السرق منها.

وإلى جانبه ملك الطاقى وهو قليل المملكة، ونساؤهم بيض أجمل نساء الهند. وهو ملك موادع لمن حوله لقلة جيشه وهو يحب العرب كحب بلهرا.

ويلي هؤلاء ملك يقال له دهرم يقاتله ملك الجزر وليس له شرف في الملك، وهو أيضاً يقاتل بلهرا كما يقاتل ملك الجرز. ودهرم هذا أكثر جيشاً من ملك بلهرا ومن ملك الجرز ومن ملك الطاقي. ويقال إنه إذا خرج إلى القتال يخرج في نحو من خمسين ألف فيل، ولا يخرج إلا في الشتاء لأن الفيلة لا تصبر على العطش، فليس يسعه إلا الخروج في الشتاء. ويقال إن قصارى عسكره نحو من عشرة ألف إلى خمسة عشر ألفا. وفي بلاده الثياب التي ليس لأحد مثلها: يدخل الثوب منها في حلقة خاتم دقة وحسنا، وهو من قطن وقد رأينا بعضها. والذي ينفق في بلاده الودع وهو عين البلاد يعني ماله. وفي بلاده الذهب والفضة والعود والثياب الصمر الذي يتخذ منه المذاب.

وفي بلاده البشان المعلم وهو الكركدن، له في مقدم جبهته قرن واحد وفي قرنه علامة صورة خلقه كصورة الإنسان في حكايته. القرن كله أسود والصورة بيضاء في وسطه. وهذا الكركدن دون الفيل في الخلقة إلى السواد ما هو ويشبه الجاموس: قوي ليس كقوته شيء من الحيوان. وليس له مفصل في ركبته ولا في يده وهو من لدن رجله إلى إبطه قطعة واحدة. والفيل يهرب منه. وهو يجتر كما تجتر البقر والإبل، ولحمه حلال قد أكلناه. وهو في هذه المملكة كثير في غياضهم، وهو في سائر بلاد الهند، غير أن قرون هذا أجود. فربما كان في القرن صورة رجل وصورة طاووس وصورة سمكة وسائر الصور. وأهل الصين يتخذون منها المناطق وتبلغ المنطقة ببلاد الصين ألفي دينار، وثلثة الآف وأكثر، على قدر حسن الصورة. وهذا كله يشترى من بلاد دهرم بالودع وهو عين البلاد.

وبعده ملك داخل ليس له بحر يقال له ملك لكشميبر وهم قوم بيض مخرمو الآذان ولهم جمال وهم أصحاب بدو وجبال.

وبعده بحر عليه ملك يقال له التلونج وهو ملك فقير فخور يقع إليه العنبر الكثير وله أنياب فيلة وعنده فلفل يؤكل رطباً لقلته.

وبعد هذا ملوك كثيرة لا يعلم عددهم إلا الله تبارك وتعالى: منهم الموجه وهم قوم بيض يشبهون الصين في اللباس، ولهم مسك كثير وفي بلادهم جبال بيض ليس شيء أطول منها. وهم يقاتلون ملوكاً كثيرة حولهم. والمسك الذي يكون في بلادهم جيد بالغ.

ومن ورائهم ملوك المادبد: مدائنهم كثيرة وهم إلى حيث الموجه وهم أكثر من الموجه، غير أن المادبد أشبه بالصين منهم. ولهم خدم خصيان مثل الصين عمال عليهم وبلادهم تتصل ببلاد الصين، وهم مصالحون لصاحب الصين غير أنهم لا يسمعون له. وللمادبد في كل سنة رسل إلى ملك الصين وهدايا وكذلك ملك الصين يهدي اليهم. وبلادهم واسعة وإذا دخلت رسل المادبد بلاد الصين حفظوا مخافة أن يغلبوا على بلادهم لكثرتهم وليس بينهم وبين بلاد الصين إلا جبال وعقاب.

٦ ـ الحكومة في الصين

ويقال إن لملك الصين من أمهات المدائن أكثر من مائتي مدينة، ولكل مدينة ملك وخصي، وتحت كل مدينة مدائن. فمن مدائنهم خانفو وهي مرسى السفن تحتها عشرون مدينة. وإنما تسمى مدينة إذا كان لها جادم والجادم مثل البوق ينفخ فيه، وهو طويل وغلظه ما يجمع الكفين جميعاً وهو مطلي بدواء الصينيات، وطوله ثلثة أو أربعة أذرع، ورأسه دقيق ما يلتقمه الرجل ويذهب صوته نحو من ميل. ولكل مدينة أربعة أبواب فعلى كل باب منها من الجادم خمسة تنفخ في أوقات من الليل والنهار وعلى باب كل مدينة عشرة طبول، تضرب معه. وإنما يفعل ذلك لتعلم ساعتهم للملك. وبه يعرفون أوقات الليل والنهار ولهم علامات ووزن للساعات.

ومعاملتهم بالفلوس وخزائنهم كخزائن الملوك وليس لأحد من الملوك فلوس سواهم وهي عين البلاد. ولهم الذهب والفضة واللؤلؤ والديباج والحرير: كل ذلك كثير عندهم غير أن ذلك متاع، والفلوس عين. وتحمل اليهم العاج واللبان وسبائك النحاس والذبل من البحر، وهو جلود ظهور السلاحف. وهذا البشان الذي وصفناه وهو الكركدن، يتخذون من قرونه مناطق. ودوابهم كثيرة. ليس لهم خيل عربية بل غيرها، ولهم حمير وابل كثيرة لها سنامان. ولهم الغضار (أي الطين الأخضر) الجيد ويعمل منه أقداح في رقة القوارير يرى ضوء الماء فيه وهو من غضار. وإذا دخل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم وصيروه في البيوت وضمنوا الدرك إلى ستة أشهر إلى أن يدخل آخر البحريين. ثم يؤخذ من كل شعرة ثلثة ويسلم الباقي إلى التجار. وما احتاج إليه السلطان أخذه بأغلى الثمن وعجله ولم يظلم فيه. ومما يأخذون الكافور المنا بخمسين فكوجا والفكوج ألف فلس. وهذا الكافور إذا لم يأخذه السلطان يساوي نصف الثمن خارجاً.

وإذا مات الرجل من أهل الصين لم يدفن إلا في اليوم الذي مات في مثله من قابل، يجعلونه في تابوت، ويخلونه في منازلهم، ويجعلون عليه النورة (الجير أو الكلس الحي) فتمص ماءه ويبقى. والملوك يجعلون في الصبر والكافور. ويبكون على موتاهم ثلث سنين، ومن لم يبك ضرب بالخشب كذلك النساء والرجال. ويقولون «إنه لم يحزنك ميتك؟». ويدفنون في ضريح كضريح العرب. ولا يقطعون عنه الطعام

ويزعمون أنه يأكل ويشرب. وذلك انهم يضعون عنده الطعام بالليل فيصبحون ولا يجدون منه شيئاً فيقولون «قد أكل». ولا يزالون في البكاء والاطعام ما بقي الميت في منزلهم، فيفتقرون على موتاهم فلا يبقى لهم نقد ولا ضيعة إلا أنفقوه عليه. وقد كانوا قبل هذا يدفنون الملك وما ملك من آلة بيته ومن ثياب ومناطق، ومناطقهم تبلغ مالاً كثيراً وقد تركوا ذلك الآن. وذلك أنه نبش بعض موتاهم وأخذ ما كان معه.

والفقير والغني من أهل الصين والصغير والكبير يتعلم الخط والكتابة.

واسم ملوكهم على قدر الجاه وكبر المدائن. فما كان من مدينة صغيرة يسمى ملكها طسوشي ومعنى طسوشي أقام المدينة. وما كان من مدينة مثل خانفو فاسم مالكها ديفو. والخصي يدعى طوقام وخصيانهم منهم مسلولون. وقاضي القضاة يقال له لقشي صامكون شي ونحو هذا من الأسماء مما لا نضبطه.

وليس يملك أحد منهم لأقل من أربعين سنة. يقولون «حنكته التجارب». والملوك الصغار إذا قعد أحدهم يقعد في مدينته على كرسي في بهو عظيم وبين يديه كرسي، وترفع إليه الكتب التي فيها أحكام الناس. ومن وراء الملك رجل قائم يدعى لنجون: إذا زل الملك في شيء مما يأمر به وأخطأ رده. وليس يعبئون بالكلام ممن يرفع إليهم دون أن يكتبه في كتاب. وقبل أن يدخل صاحب القصة على الملك ينظر في كتابه رجل قائم بباب الدار، ينظر في كتب الناس، فإن كان فيها خطأ رده. فليس يكتب إلى الملك إلا كاتب يعرف الحكم ويكتب الكاتب في الكتاب «كتبه فلان بن فلان» فإن كان فيه خطأ رجع إلى الكاتب اللوم فيضرب بالخشب. وليس يقعد الملك للحكم حتى يأكل ويشرب لئلا يغلط. وأرزاق كل ملك من بيت مال مدينته.

فأما الملك الأكبر فلا يرى إلا في كل عشرة أشهر. يقول «إذا رآني الناس استخفوا بي، والرئاسات لا تقوم إلا بالتجبر، وذلك ان العامة لا تعرف العدل فينبغي أن يستعمل معهم التجبر لنعظم عندها».

٧ ـ المجتمع الصيني

وليس على أرضهم خراج، ولكن عليهم جزية على الجماجم الذكور حسبما يرون من الأحوال. وإن كان بها أحد من العرب أو غيرهم أخذ منه جزية ماله ليحرز ماله. وإذا غلا السعور أخرج السلطان من خزائنه الطعام فباعه بأرخص من سعر السوق، فلا يبقى عندهم غلاء. والذي يدخل بيت المال إنما هو من الجزية التي على رؤوسهم. وأظن أن الذي يدخل بيت مال خانفو في كل يوم خمسين ألف دينار على أنها ليست بأعظم مدائنهم.

ويختص الملك من المعادن وحشيش يشربونه بالماء الحار ويباع منه في كل مدينة بمال عظيم ويقال له الساخي (الشاي). وهو أكثر ورقاً من الرطبة وأطيب قليلاً

وفيه مرارة. فيغلى الماء ويذر عليه فهو ينفعهم من كل شيء. وجميع ما يدخل بيت المال: الجزية والملح وهذا الحشيش.

وفي كل مدينة شيء يدعى الدرا وهو جرس على رأس ملك تلك المدينة، مربوط بخيط ماد على ظهر الطريق للعامة كافة، وبين الملك وبينه نحو من فرسخ فإذا حرك الخيط الممدود أدنى حركة تحرك الجرس. فمن كانت له ظلامة حرك هذا الخيط فيتحرك الجرس منه على رأس الملك. فيؤذن له بالدخول حتى ينهي حاله بنفسه ويشرح ظلامته وجميع البلاد فيها مثل ذلك.

ومن أراد سفراً من بعضها إلى بعض أخذ كتابين من الملك ومن الخصي. أما كتاب الملك فللطريق-باسم الرجل واسم من معه وكم عمره وعمر من معه ومن أي قبيلة هو. وجميع من ببلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لا بد لهم أن ينتموا إلى شيء يعرفون به. وأما كتاب الخصي فبالمال وما معه من المتاع وذلك لأن في طريقهم مسالح ينظرون في الكتابين فإذا ورد عليهم الوارد كتبوا «ورد علينا فلان بن فلان الفلاني في يوم كذا وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا» لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شيء ضياعاً. فمتى ما ذهب منه شيء أو مات علم كيف ذهب ورد عليه أو على ورثته من بعده.

وأهل الصين ينصفون في المعاملات والديون. فإذا كان لرجل على رجل دين كتب عليه كتاباً، وكتب الذي عليه الدين أيضاً كتاباً وعلمه بعلامة بين أصبعيه الوسطى والسبابة. ثم جمع الكتابان فطويا جميعاً ثم كتب على فصلهما، ثم فرق فأعطي الذي عليه الدين كتابه باقراره. فمتى جحد أحدهما غريمه قيل له «احضر كتابك». فإن زعم الذي عليه الدين أنه لا شيء له أو دفع كتابه بخطه وعلامته وذهب كتاب صاحب الحق قيل للجاحد الذي عليه الحق «احضر كتاباً بأن هذا الحق ليس عليك فمتى ما بين عليك صاحب الحق الذي جحدته-فعليك عشرون خشبة على الظهر وعشرون ألف فكوج فلوس». والفكوج ألف فلس، يكون ذلك قريباً من ألفي دينار. والعشرون الخشبة فيها موته. فليس يكاد أحد ببلاد الصين يعطي هذا من نفسه مخافة تلف النفس والمال. ولم نر أحداً أجاب إلى ذلك. وهم يتناصفون بينهم وليس يذهب لأحد حق ولا يتعاملون بشاهد ولا يمين.

وإذا أفلس رجل بمال قوم فحبسه الغرماء بأموالهم عند السلطان أخذ إقراره فإن لبث في السجن شهراً أخرجه السلطان فنادى عليه «إن هذا فلان بن فلان أفلس بمال فلان بن فلان». فإن يكون له عند أحد وديعة أو كان له عقار أو رقيق أو ما يحيط بدينه أخرج في كل شهر، فضرب خشبات على أسته لأنه أقام في الحبس يأكل ويشرب وله مال. فهو يضرب أقر له أحد بمال أو لم يقر له فهو يضرب على كال حال. يقال له «ليس لك عمل إلا أخذ حقوق الناس والذهاب بها؟» ويقال له «احتل

حقوق هؤلاء القوم». فإن لم يكن له حيلة وصح عند السلطان أنه لا شيء له دعي الغرماء فأعطوا من بيت مال البغبور ـ وهو الملك الأعظم وإنما يسمى البغبور ومعناه ابن السماء ونحن نسميه المغبور ـ ثم ينادى «من بايع هذا فعليه القتل» فليس يكاد يذهب لاحد مال. وإن علم أن له عند أحد مالاً ولم يقر المودع بالمال قتل بالخشب ولم يقل لصاحب المال شيء. فيؤخذ المال ويقسم على الغرماء ولا يبايع بعد ذلك.

ولهم حجر منصوب طوله عشرة اذرع مكتوب فيه نقراً في الحجر ذكر الأدوية والأدواء. داء كذا دواؤه كذا. فإن كان الرجل فقيراً أعطي ثمن الدواء من بيت المال.

وليس عليهم خراج في ضياعهم وإنما يؤخذ من الرؤوس على قدر أموالهم وضياعهم. وإذا ولد لأحد ذكر كتب اسمه عند السلطان فإذا بلغ ثماني عشرة سنة أخذت منه الجزية، فإذا بلغ ثمانين سنة لم يؤخذ منه جزية، وأجري عليه من بيت المال ويقولون «أخذنا منه شاباً ونجري عليه شيخاً».

وفي كل مدينة كتاب ومعلم والفقراء (من المعلمين) وأولادهم من بيت المال يأكلون.

ونساؤهم مكشفات الشعور والرجال يغطون رؤوسهم. وبها قرية يقال لها تايو في الجبل فيهم قصر، وكل قصير ببلاد الصين ينسب إليها. وأهل الصين أهل جمال وطول وبياض نقي متشرب حمرة وهم أشد الناس سواد شعور ونساؤهم يجرين شعورهن.

٨ ـ المجتمع الهندي

وأما بلاد الهند فإنه إذا ادعى رجل على آخر دعوى يجب فيها القتل قيل للمدعي «أتحامله النار؟» فيقول «نعم». فتحمى حديدة احماء شديداً حتى تظهر النار فيها ثم يقال له: «أبسط يدك». فتوضع على يده سبع ورقات من ورق شجر لهم، ثم توضع على يده الحديدة فوق الورق، ثم يمشي بها مقبلاً ومدبراً حتى يلقيها عن يده فيؤتى بكيس من جلود فتدخل يده فيه ثم يختم بختم السلطان. فإذا كان بعد ثلاثة أيام أتي بأرز غير مقشر فيقال له «أفركه». فإن لم يكن في يده أثر، فقد فلج ولا قتل عليه، ويغرم الذي ادعى عليه منا من ذهب يقبضه السلطان لنفسه. وربما أغلوا الماء في قدر حديد أو نحاس حتى لا يقدر أحد يدنو منه ثم يطرح فيه خاتم حديد ويقال «أدخل يدك فتناول الخاتم». وقد رأيت من أدخل يده وأخرجها صحيحة. ويغرم المدعي أيضاً منا من ذهب.

وإذا مات الملك ببلاد سرنديب صير على عجلة قريباً من الأرض وعلق في مؤخرها مستلقياً على قفاه يجر شعر رأسه التراب عن الأرض وامرأة بيدها مكنسة تحث التراب على رأسه وتنادي «أيها الناس هذا ملككم، بالأمس قد ملككم وكان أمره نافذاً فيكم، وقد صار إلى ما ترون من ترك الدنيا. وأخذ روحه ملك الموت فلا تغتروا

بالحياة بعده» وكلاماً نحو هذا ثلثة أيام. ثم يهيأ له الصندل والكافور والزعفران فيحرق به ثم يرمى برماده في الريح. والهند كلهم يحرقون موتاهم بالنار. وسرنديب آخر الجزائر وهي من بلاد الهند. وربما أحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه وإن شئن لم يفعلن.

وببلاد الهند من ينسب إلى السياحة في الغياض والجبال وقل ما يعاشر الناس: يأكل أحياناً الحشيش وثمر الغياض، ويجعل في أحليله حلقة حديد لئلا يأتي النساء. ومنهم العريان ومنهم من ينصب نفسه للشمس مستقبلها عرياناً إلا أن عليه شيئاً من جلود النمور. فقد رأيت رجلاً منهم كما وصفت ثم انصرفت وعدت بعد ست عشرة سنة فرأيته على تلك الحال فتعجبت كيف لم تسل عينه من حر الشمس.

وأهل بيت المملكة في كل مملكة أهل بيت واحد لا يخرج عنهم الملك، ولهم ولاة عهود. وكذلك أهل الكتابة والطب أهل بيوتات لا تكون تلك الصناعة إلا فيهم.

٩ ـ مجمل أخبار الهند والصين

وليس تنقاد ملوك الهند لملك واحد بل كل واحد ملك ببلاده. وبلهرا ملك الملوك بالهند. فأما الصين فليس لهم ولاة عهود.

وأما الصين فأهل ملاه وأهل الهند يعيبون الملاهي ولا يتخذونها، ولا يشربون الشراب، ولا يأكلون الخل لأنه من الشراب. وليس ذلك دين ولكن أنفة ويقولون «أي ملك شرب الشراب فليس بملك». وذلك أن حولهم ملوكاً يقاتلونهم فيقولون «كيف يدبر أمر ملكه من هو سكران؟».

وربما اقتتلوا على الملك وذلك قليل: لم أر أحداً غلب أحدا على مملكته إلا قوم تتلو بلاد الفلفل. وإذا غلب ملك على مملكة ولى عليها رجلاً من أهل بيت الملك المغلوب ويكون من تحت يده: لا يرضى أهل تلك المملكة إلا بذلك. فأما بلاد الصين فربما جار الملك الذي من تحت يد الملك الأكبر فيذبحونه ويأكلونه. وكل من قتل بالسيف أكل الصينيون لحمه.

وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانئوا بينهم ثم تهادوا ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول. وهديتهم من المال على قدر الامكان. وإذا أحضر الرجل منهم امرأة فبغت فعليها وعلى الباغي بها القتل في جميع بلاد الهند. وإن زنى رجل بامرأة اغتصبها نفسها قتل الرجل وحده. فإن فجر بامرأة على رضى منها قتلا جميعاً.

والسرق في جميع بلاد الصين والهند في القليل منه والكثير القتل. فأما الهند فإذا سرق السارق فلساً فما فوقه أخذت خشبة طويلة فيحدد طرفها ثم يقعد عليها على أسته حتى تخرج من حلقه.

وأهل الصين يلوطون بغلمان قد أقيموا لذلك بمنزلة زواني البددة.

وحيطان أهل الصين الخشب، وبناء أهل الهند حجارة وجص وآجر وطين، وكذلك ربما كان بالصين أيضاً.

وليس الصين ولا الهند بأصحاب فرش، ويتزوج الرجل من الصين والهند ما شاء من النساء.

وطعام الهند الأرز وطعام الصين الحنطة والأرز وأهل الهند لا يأكلون الحنطة.

ولا يختتن الهند ولا الصين.

وأهل الصين يعبدون الأصنام ويصلون لها ويتضرعون إليها ولهم كتب دين.

والهند يطولون لحاهم. ربما رأيت لحية أحدهم ثلثة أذرع ولا يأخذون شواربهم. وأكثر أهل الصين لا لحى لهم خلقة لأكثرهم. وأهل الهند إذا مات لأحدهم ميت حلق رأسه ولحيته.

والهند إذا حبسوا رجلاً أو لازموه منعوه الطعام والشراب سبعة أيام وهم يتلازمون.

ولأهل الصين قضاة يحكمون بينهم دون العمال وكذلك أهل الهند.

والنمور والذئاب ببلاد الصين جميعاً فأما الأسد فليست بكلتي الولايتين.

ويقتل قاطع الطريق.

وأهل الصين والهند يزعمون أن البددة تكلمهم وإنما يكلمهم عبادهم.

والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه، فيضربون هامته حتى يموت. ولا يغتسل الهند ولا الصين من جنابة. وأهل الصين لا يستنجون إلا بالقراطيس، والهند يغتسلون كل يوم قبل الغذاء ثم يأكلون. والهند لا يأتون النساء في الحيض ويخرجونهن عن منازلهم تقززا منهن، والصين يأتونهن في الحيض ولا يخرجونهن. وأهل الهند يستاكون ولا يأكل أحدهم حتى يستاك ويغتسل وليس يفعل ذلك أهل الصين.

وبلاد الهند أوسع من بلاد الصين وهي أضعافها وعدد ملوكهم أكثر وبلاد الصين أعمر. وليس للصين ولا للهند نخل ولهم سائر الشجر وثمر ليس عندنا. والهند لا عنب لهم وهو بالصين قليل وسائر الفواكه عندهم كثيرة والرمان بالهند أكثر. وليس لأهل الصين علم وإنما أصل ديانتهم من الهند وهم يزعمون أن الهند وضعوا لهم البددة وأنهم أهل الدين وأهل كلا البلدين يرجعون إلى التناسخ، ويختلفون في فروع دينهم. والطب بالهند والفلسفة ولأهل الصين أيضاً وأكثر طبهم الكي، ولهم علم بالنجوم وذلك بالهند أكثر. ولا أعلم أحداً من الفريقين مسلماً ولا يتكلم بالعربية. وللهند خيل قليلة وهي للصين أكثر. وليس للصين فيلة ولا يتركونها في بلادهم تشاؤماً بها. وجنود ملوك الهند كثيرة. ولا يرزقون، وإنما يدعوهم الملك إلى الجهاد فيخرجون ينفقون من أموالهم ليس على الملك من ذلك شيء. فأما الصين فعطاؤهم

كعطاء العرب. وبلاد الصين أنزه وأحسن. وأكثر الهند لا مدائن لها وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة. وبلاد الصين أصح وأقل أمراضاً وأطيب هواء: لا يكاد يرى بها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة، وهكذا كثير ببلاد الهند. وأنهار البلدين جميعاً عظام. فيها ما هو أعظم من أنهارنا والأمطار بالبلدين جميعاً كثيرة. وفي بلاد الهند مفاوز كثيرة والصين كلها عمارة. وأهل الصين أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب في اللباس والدواب، وهم في هيئتهم وفي مواكبهم شبيهون بالعرب: يلبسون الأقبية والمناطق وأهل الهند يلبسون فوطتين ويتحلون بأسورة الذهب والجوهر الرجال والنساء.

ووراء بلاد الصين من الأرض التغزغز وهم من الترك وخاقان تبت: هذا مما يلي بلاد الترك. فأمّا ما يلي البحر فجزائر السيلا (كوريا) وهم بيض يهادون صاحب الصين، ويزعمون أنهم إن لم يهادوه لم تمطرهم السماء. ولم يبلغها أحد من أصحابنا فيحكي عنهم. ولهم بزاة بيض.

الهوامش

(١) الدخريص قطعة القماش التي تكون في الثوب تحت الإبط فتكون وصلة بين الأكمام وجسم الثوب. وهي مثلثة الشكل غالباً.

(٢) الديبة بالسنسكريتية جزيرة والديبجات جمعها على طريقة لغة الفرس (الفهلوية).

أبو زيد السيرافي، من أخبار الصين والهند

١ ـ مقدمة

قال أبو زيد الحسن السيرافي إنني نظرت في هذا الكتاب يعني الكتاب الأول، الذي أمرت بتأمله وإثبات ما وقفت عليه من أمر البحر وملوكه وأحوالهم وما عرفته عن أحاديثهم، مما لم يدخل فيه. فوجدت تاريخ الكتاب في سنة سبع وثلثين ومايتين، وأمور البحر في ذلك الوقت مستقيمة، لكثرة اختلاف التجار إليها من العراق. ووجدت جميع ما حكي في الكتاب على سبيل حق وصدق، إلا ما ذكر فيه من الطعام الذي يقدمه أهل الصين إلى الموتى منهم، وأنه إذا وضع بالليل عند الميت أصبحوا فلم يوجد، وادعوا أنه يأكله. فقد كان بلغنا هذا حتى ورد علينا من ناحيتهم من وثقنا بخبره، فسألناه عن ذلك فأنكره وقال هي دعوى لا أصل لها كدعوى أهل الأوثان انها تكلمهم.

٢ ـ تغير أمر الصين

وقد تغير بعد هذا أمر الصين خاصة، وحدثت فيه حوادث انقطعت لها الجهاز إليهم، وخرب البلد وزالت رسومه وتفرق أمره. وأنا أشرح ما وقفت عليه من السبب في ذلك ان شا الله.

السبب في تغير أمر الصين عما كان عليه من الأحكام والعدل وانقطاع الجهاز إليه من سيراف، أن نابغاً نبغ فيهم من غير بيت الملك يعرف ببابشوا وكان مبتدأ أمره الشطارة والفتوة وحمل السلاح والعيث واجتماع السفهاء إليه. حتى اشتدت شوكته وكثر عدده واستحكم طمعه، فقصد خانفو من بين مدن الصين وهي المدينة التي يقصدها تجار العرب. وبينها وبين البحر مسيرة أيام يسيرة، وهي على واد عظيم وماء عذب. فامتنع أهلها عليه فحاصرهم مدة طويلة وذلك في سنة أربع وستين ومايتين، إلى أن ظفر بها. فوضع السيف في أهلها فذكر أهل الخبرة بأمورهم أنه قتل من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس سوى من قتل من أهل الصين ماية وعشرون ألف رجل كانوا تبؤوا بهذه المدينة فصاروا بها تجارا. وإنما عرف مقدار عدد هذه الملل الأربع لتحصيل أهل الصين بعددهم. وقطع ما كان فيه من شجر التوت وساير الأشجار، وذكرنا شجر التوت خصوصاً لاعداد أهل الصين ورقه لدود القز

حتى يلف الدود. فصار سبباً لانقطاع الحرير خاصة عن بلاد العرب. ثم قصد بعد تخريب خانفو إلى بلد بلد فأخربه. وعجز ملك الصين عنه. إلى أن قارب مدينة الملك وتعرف بخمدان فهرب الملك منه إلى مدينة بمذو متاخمة لبلاد التبت فأقام بها.

ودامت أيام هذا النابغ وعظم شأنه، وكان قصد ووكده خراب المدن وقتل أهلها إذا لم يكن من بيت ملك ومن يطمع في اتساق الأمر له. فبلغ من ذلك مبلغاً فسد به أمر الصين إلى وقتنا هذا. ولم تزل حال النابغ إلى أن كتب ملك الصين إلى ملك التغزغز من بلاد الترك، وبينهم مجاورة ومصاهرة، ووجه إليه رسلاً يسأله كشف هذا الرجل عنه، فانفذ ملك التغزغز ابناً له إلى هذا النابغ في عدد كثير وجموع وافرة فأزاله بعد حروب متصلة ووقايع عظيمة. فزعم قوم أنه قتل وزعم آخرون انه مات، وعاد ملك الصين إلى بلده المعروف بخمدان وقد أخربه عليه وعلى سبيل ضعف في نفسه ونقص في أمواله وهلاك قواده وصناديد رجاله وكفاته وغلب مع ذلك على كل ناحية متغلب منع من أموالها، وتمسك بما في يده منها. فدعت ملك الصين الضرورة لقصور يده إلى قبول العفو منهم بإظهار الطاعة والدعا له، دون السمع والطاعة في الأموال وما كان من الملوك ينفذ فيه. فصارت بلاد الصين على سبيل ما جرت عليه أحوال الأكاسرة عند قتل الاسكندر لدارا الكبير وقسمته أرض فارس على ملوك الطوايف، وصار بعضهم يعضد بعضا للمغالبة بغير إذن الملك ولا أمره. فإذا أتاح القوي منهم على الضعيف تغلب على بلاده واجتاح ما فيه وأكل ناسه كلهم، وذلك مباح لهم في شريعتهم لأنهم يتبايعون لحوم الناس في أسواقهم. وامتدت أيديهم مع ذلك إلى ظلم من قصدهم من التجار، ولما حدث هذا فيهم التأم إليه ظهور الظلم والتعدي في نواخذة [1] العرب وأرباب المراكب فالزموا التجار ما لا يجب عليهم، وغلبوهم على أموالهم، واستجازوا ما لم يجر الرسم به قديماً في شيء من أفعالهم. فنزع الله جل ذكره البركات منهم جميعاً، ومنع البحر جانبه، ووقع الفناء بالمقدار الجاري، من المدبر تبارك اسمه، في الربابنة والادلاء بسيراف وعمان.

٣ ـ مجتمع الصين

وذكر في الكتاب طرف من سنن أهل الصين ولم يذكر غيره، وهو سبيل المحصن والمحصنة عندهم إذا زنيا القتل، وكذلك اللص والقاتل. وسبيلهم في القتل ان تشد يدا من يريدون قتله شدا وثيقاً ثم تطرح يداه في رأسه حتى يصيرا على عنقه ثم تدخل رجله اليمنى فيما ينفذ من يده اليمنى ورجله اليسرى فيما ينفذ من يده اليسرى، فتصير قدماه جميعاً من ورايه، ويتقبض ويبقى كالكرة لا حيلة له في نفسه، ويستغني عن ممسك يمسكه. وعند ذلك تزول عنقه عن مركبها، وتتزايل خرزات ظهره عن بطنها وتختلف وركاه، ويتداخل بعضه في بعض، وتضيق نفسه،

ويصير في حال لو ترك على ما هو به بعض ساعة لتلف. فإذا بلغ منه ضرب بخشبة لهم معروفة على مقاتله ضربات معروفة لا تتجاوز، فليس دون نفسه شيء، ثم يدفع إلى من يأكله.

وفيهم نساء لا يردن الاحصان ويرغبن في الزنا، وسبيل هذه أن تحضر مجلس صاحب الشرط، فتذكر زهدها في الأحضان، ورغبتها في الدخول في جملة الزواني، وتسأل حملها على الرسم في مثلها. ومن رسمهم فيمن أراد ذلك من النساء أن تكتب نسبها وحليتها وموضع منزلها، وتثبت في ديوان الزواني، وتجعل في عنقها خيطاً فيه خاتم من نحاس مطبوع بخاتم الملك ويدفع إليها منشور يذكر فيه دخولها في جملة الزواني، وان عليها لبيت المال في كل سنة كذى وكذى فلسا. وان من تزوجها فعليه القتل. فتؤدي في كل سنة ما عليها ويزول الإنكار عنها.

فهذه الطبقة من النساء يرحن بالعشيات عليهن ألوان الثياب من غير استتار، فيصرن إلى من طرأ إلى تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد وأهل الصين فيقمن عندهم وينصرفن بالغدوات. ونحن نحمد الله على ما طهرنا به من هذه الفتن.

أما تعاملهم بالفلوس فالسبب فيه إنكارهم على المتعاملين بالدنانير والدراهم أن لصاً لو دخل منزل رجل من العرب المتعاملين بالدنانير والدراهم لتهيأ له حمل عشرة ألف دينار ومثلها من الورق على عنقه فيكون فيها عطب صاحب المال. وإن لصًا لو دخل إلى رجل منهم لم يحمل أكثر من عشرة ألف فلس، وإنما ذلك عشرة مثاقيل ذهب.

وهذه الفلوس معمولة من نحاس واخلاط من غيره معجونة به. والفلس منها في قدر الدرهم البغلي، وفي وسطه ثقب واسع ليفرد الخيط فيه. وقيمة كل ألف فلس منها مثقال من ذهب. وينظم الخيط منها ألف فلس على رأس كل ماية عقدة، فإذا ابتاع المبتاع ضياعاً أو متاعاً أو بقلاً فما فوقه دفع من هذه الفلوس على قدر الثمن وهي موجودة بسيراف وعليها نقش بكتابتهم.

وأما الحريق ببلاد الصين والبناء وما ذكر فيه فالبلد مبني على ما قيل من خشب ومن قنا مشبك على مثال الشقاق القصب عندنا. ويليط بالطين وبعلاج لهم يتخذونه من حب الشهدانج فيصير في بياض اللبن، تدهن به الجدر فيشرق إشراقاً عجيباً. وليس لبيوتهم عتب لأن أملاكهم وذخايرهم وما تحويه أيديهم في صناديق مركبة على عجل تدور بها. فإذا وقع الحريق دفعت تلك الصناديق بما فيها فلم يمنعها العتب من سرعة النفوذ.

٤ ـ صناعة الصين

وأما أمر الخدم فذكر مجملاً وإنما هم ولاة الخراج وأبواب المال. فمنهم من قد سبي من الأطراف فخصي ومنهم من يخصيه والده من أهل الصين ويهديه إلى الملك

تقرباً به إليه، فأمور الملك في خاصته وخزاينه. ومن يتوجه إلى مدينة خانفو التي يقصد إليها تجار العرب هم الخدم. ومن سنتهم في ركوب هؤلاء الخدم وملوك ساير المدن إذا ركبوا أن يتقدمهم رجال بخشب تشبه النواقيس يضربون بها، فيسمع من بعد فلا يقف أحد من الرعية في شيء من ذلك الطريق الذي يريد الخادم أو الملك أن يمر فيه. ومن كان على باب دار دخلها وأغلق الباب دونه حتى يكون اجتياز الخادم أو الملك المملك على تلك المدينة وليس في طريقه أحد من العامة ترهيباً وتجبرا، ولئلا يكثر نظر العامة إليهم، ولا يمتد لسان أحد إلى الكلام معهم، ولباس خدمهم، ووجوه قوادهم فاخر الحرير الذي لا يحمل مثله إلى بلاد العرب عندهم، ومبالغتهم في أثمانه. وذكر رجل من وجوه التجار ومن لا يشك في خبره أنه صار إلى خصي كان الملك أنفذه إلى مدينة خانفو لتخير ما يحتاج إليه من الأمتعة الواردة من بلاد العرب. فرأى على صدره خالاً يشف من تحت ثياب حرير كانت عليه، فقدر أنه قد ضاعف بين ثوبين منها. فلما ألح في النظر قال له الخصي أراك تديم النظر إلى صدري فلم ذلك. فقال له الرجل عجبت من خال يشف من تحت هذه الثياب، فضحك الخصي ثم طرح كم قميصه إلى الرجل وقال له أعدد ما علي منها، فوجدها خمسة أقبية بعضها فوق بعض والخال يشف من تحتها. والذي يلبسه ملوكهم أرفع من هذا وأعجب.

وأهل الصين من أحذق خلق الله كفا بنقش وصناعة وكل عمل لا يقدمهم فيه أحد من ساير الأمم. والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر ان غيره يعجز عنه فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع. فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة فإن لم يخرج أحد فيه عيباً جازاه وأدخله في جملة صناعه، وإن أخرج فيه عيب اطرحه ولم يجازه. وإن رجلاً منهم صور سنبلة عليها عصفور في ثوب حرير لا يشك الناظر اليها انها سنبلة وان عصفوراً عليها. فبقيت مدة وانه اجتاز بها رجل أحدب فعابها. فادخل إلى ملك ذلك البلد وحضر صانعها فسئل الأحدب عن العيب، فقال المتعارف عند الناس جميعاً انه لا يقع عصفور على سنبلة إلا امالها، وان هذا المصور صور السنبلة قائمة لا ميل لها، وأثبت العصفور فوقها منتصباً فأخطأ. فصدق ولم يثب الملك صانعها بشيء، وقصدهم في هذا وشبهه رياضة من يعمل هذه الأشياء ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز وأعمال الفكر فيما يصنع كل منهم بيده.

٥ ـ عباسي في الصين

وقد كان بالبصرة رجل من قريش يعرف بابن وهب من ولد هبار بن الأسود، خرج منها عند خرابها فوقع إلى سيراف وكان فيها مركب يريد بلاد الصين فنزعت به همته بالمقدار الجاري على أن ركب في ذلك المركب إلى بلاد الصين. ثم نزعت به

همته إلى قصد ملكها الكبير، فسار إلى خمدان في مقدار شهرين من المدينة المعروفة بخانفو. وأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب. فأمر الملك بعد هذه المدة بإنزاله في بعض المساكن وإزاحة علته فيما يحتاج إليه وكتب الملك إلى الوالي المستخلف المقيم بخانفو يأمره بالبحث ومسيلة التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبي العرب ﷺ، فكتب صاحب خانفو بصحة نسبه، فأذن له ووصله بمال واسع، عاد به إلى العراق. وكان شيخاً فهما فأخبرنا انه لما وصل إليه وسايله عن العرب وكيف أزالوا ملك العجم فقال له بالله جل ذكره وبما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس وللقمر من دون الله. فقال له لقد غلبت العرب على أجل الممالك وأوسعها ريفاً وأكثرها أموالاً وأعقلها رجالاً وأبعدها صوتاً. ثم قال له فما منزلة ساير الملوك عندكم، فقال ما لي بهم علم. فقال للترجمان قل له أنا نعد الملوك خمسة: فأوسعهم ملكا الذي يملك العراق لأنه في وسط الدنيا والملوك محدقة به، ونجد اسمه عندنا ملك الملوك، وبعده ملكنا هذا ونجده عندنا ملك الناس، لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا، ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا، ولا رعية من الرعايا أطوع لملوكها من رعيتنا، فنحن ملوك الناس. ومن بعدنا ملك السباع وهو ملك الترك الذي يلينا. وبعدهم ملك الفيلة وهو ملك الهند ونجده عندنا ملك الحكمة لأن أصلها منهم. وبعده ملك الروم وهو عندنا ملك الرجال لأنه ليس في الأرض أتم خلقاً من رجاله ولا أحسن وجوهاً، فهؤلاء أعيان الملوك والباقون دونهم.

ثم قال للترجمان قل له أتعرف صاحبك إن رأيته، يعني رسول الله ﷺ فقلت وكيف لي برؤيته وهو عند الله جل وعز، فقال لم ارد هذا إنما أردت صورته [٢]، فقال أجل. فأمر بسفط فأخرج فوضع بين يديه فتناول منه درجاً وقال للترجمان أره صاحبه فرأيت في الدرج صور الأنبياء فحركت شفتي بالصلاة عليهم، ولم يكن عنده إني أعرفهم فقال للترجمان سله عن تحريك شفتيه، فسألني فقلت أصلي على الأنبياء. فقال من أين عرفتهم فقلت مما صور من أمرهم، هذا نوح في السفينة ينجو بمن معه لما أمر الله جل ذكره الماء فغمر الأرض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه. فضحك وقال أما نوح فقد صدقت في تسميته وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه، وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا، ولا أرض الهند. قال ابن وهب فتهيبت الرد عليه واقامة الحجة لعلمي بدفعه ذلك. ثم قلت هذا موسى وعصاه وبنو إسرائيل فقال نعم على قلة البلد الذي كان به وفساد قومه عليه. فقلت وهذا عيسى على حمار والحواريون معه فقال لقد كان قصير المدة إنما كان أمره يزيد على ثلثين شهراً شيئاً يسيراً. وعدد من أمر ساير الأنبياء ما اقتصرنا على ذكر بعضه، وزعم انه رأى فوق كل صورة لنبي كتابة طويلة قدر ان فيها ذكر اسمايهم ومواقع بلدانهم وأسباب نبواتهم. ثم قال رأيت صورة النبي ﷺ على جمل وأصحابه محدقون

به على ابلهم في أرجلهم نعال عربية، وفي أوساطهم مساويك مشدودة. فبكيت فقال للترجمان سله عن بكايه فقلت هذا نبينا وسيدنا وابن عمي عليه السلام. فقال صدقت لقد ملك هو وقومه أجل الممالك، إلا أنه لم يعاين ما ملك، وإنما عاينه من بعده. ورأيت صور أنبياء ذوي عدد كثير، منهم من قد أشار بيده اليمنى وجمع بين الإبهام والسبابة كأنه يومي في إشارته إلى الحق، ومنهم قايم على رجله مشير بأصابعه إلى السماء وغير ذلك زعم الترجمان أنهم من انبيايهم وأنبياء الهند. ثم سألني عن الخلفاء وزيهم وكثير من الشرائع ووجوهها على قدر ما أعلم منها. ثم قال كم عمر الدنيا عندكم فقلت قد اختلف فيه فبعض يقول ستة آلاف سنة وبعض يقول دونها وبعض أكثر منها إلا أنه بيسير. فضحك ضحكاً كثيراً ووزيره أيضاً واقف دل على إنكاره ذلك. وقال ما أحسب نبيكم قال هذا فزللت وقلت بلى هو قال ذلك، فرأيت الإنكار في وجهه. ثم قال للترجمان قل له ميز كلامك فإن الملوك لا تكلم إلا عن تحصيل، أما ما زعمت انكم تختلفون في ذلك فإنكم إنما اختلفتم في قول نبيكم، وما قالته الأنبياء لا يجب أن يختلف فيه بل هو مسلم فاحذر هذا وشبهه أن تحكيه. وذكر أشياء كثيرة قد ذهبت عني لطول العهد. ثم قال لي لم عدلت عن ملكك وهو أقرب إليك منا داراً ونسباً فقلت بما حدث على البصرة ووقوعي إلى سيراف ونظري إلى مركب ينفذ إلى الصين وما بلغني من جلال ملك الصين وكثرة الخير به. فاحببت الوقوع إلى تلك الناحية ومشاهدتها وأنا راجع عنها إلى بلادي وملك ابن عمي ومخبره بما شاهدت من جلال هذا الملك، وسعة هذه البلاد، وسأقول بكل حسن واثني بكل جميل فسره ذلك، وأمر لي بالجايزة السنية وبحملي على بغال البريد إلى مدينة خانفو. وكتب إلى ملكها باكرامي وتقديمي على جميع من في ناحيته من ساير الملوك وإقامة النزل لي إلى وقت خروجي. فكنت في أخصب عيش وأنعمه إلى أن خرجت من بلاد الصين.

٦ ـ مدينة خمدان

فسألناه عن مدينة خمدان التي بها الملك وصفها، فذكر سعة البلد وكثرة أهله وأنه مقسوم على قسمين يفصل بينهما شارع طويل عريض. فالملك ووزيره وجنوده وقاضي القضاة وخصيان الملك وجميع أسبابه في الشق الأيمن منه، وما يلي المشرق لا يخالطهم أحد من العامة ولا فيه شيء من الأسواق، بأنهار في سككهم مطردة، وأشجار عليها متنظمة، ومنازل فسيحة. وفي الشق الأيسر مما يلي المغرب الرعية والتجار والميرة والأسواق. وإذا وضح النهار رأيت قهارمة الملك وأسبابه وغلمان داره وغلمان القواد ووكلايهم من بين راكب وراجل، قد دخلوا إلى الشق الذي فيه الأسواق والتجار فاخذوا وظايفهم وحوايجهم. ثم انصرفوا فلم يعد أحد منهم إلى هذا الشق إلا في اليوم الثاني. وإن بهذا البلد من كل نزهة وغيضة حسنة وأنهار مطردة إلا

النخل فإنه معدوم. ومما حدث في زماننا هذا ولم يعرفه من تقدمنا انه لم يكن أحد يقدر أن البحر الذي عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام، ولا يقوم في أنفسهم، حتى كان في عصرنا هذا. فإنه بلغنا أنه وجد في بحر الروم خشب مراكب العرب المخروزة التي قد تكسرت بأهلها، فقطعها الموج وساقتها الرياح بأمواج البحر، فقذفته إلى بحر الخرز ثم جرى في خليج الروم ونفذ منه إلى بحر الروم والشام. فدل هذا على أن البحر يدور على بلاد الصين والسيلا وظهر بلاد الترك والخرز ثم يصب في الخليج ويفضي إلى بلاد الشام. وذلك ان الخشب المخروز لا يكون إلا لمراكب سيراف خاصة ومراكب الشام والروم مسمورة غير مخروزة. وبلغنا أيضاً أنه وجد ببحر الشام عنبر، وهذا من المستنكر، وما لم يعرف في قدم الدهور ولا يجوز ان كان ما قيل حقاً أن يكون العنبر وقع إلى بحر الشام إلا من بحر عدن والقلزم، وهو البحر الذي يتصل بالبحار التي يكون فيها العنبر لأن الله جل ذكره قد جعل بين البحرين حاجزاً بل هو إن كان صحيحاً مما يقذفه بحر الهند إلى ساير البحار واحداً بعد واحد حتى يفضي به إلى بحر الشام.

٧ ـ مدينة الزابج

ثم نبتدىء بذكر مدينة الزابج إذ كانت تحاذي بلاد الصين وبينهما مسيرة شهر في البحر وأقل من ذلك إذا ساعدت الرياح. وملكها يعرف بالمهراج، ويقال إن تكسيرها تسع ماية فرسخ. وهذا الملك مملك على جزاير كثيرة يكون مقدار مسافة ملكه ألف فرسخ وأكثر. وفي مملكته جزيرة تعرف بسربزة تكسيرها على ما يذكرون أربع ماية فرسخ. وجزيرة أيضاً تعرف بالرامي تكسيرها ثمانماية فرسخ، فيها منابت البقم والكافور وغيره. وفي مملكته جزيرة كله، وهي المنصف بين أراضي الصين وأرض العرب، وتكسيرها على ما يذكرون ثمنون فرسخاً. وبكله مجمع الأمتعة من الأعواد والكافور والصندل والعاج والرصاص القلعي والأبنوس والبقم والأفاويه كلها وغير ذلك مما يتسع ويطول شرحه. والجهاز من عمان في هذا الوقت إليها ومنها إلى عمان واقع، وأمر المهراج نافذ في هذه الجزاير. وجزيرته التي هو بها في غاية الخصب وعمارتها منتظمة. وذكر من يوثق بقوله ان الديكة إذا غردت في الأسحار للأوقات كتغرديها عندنا تجاوبت إلى ماية فرسخ وما فوقها يجاوب بعضها بعضا، لاتصال القرى وانتظامها، وإنه لا مفاوز فيها ولا خراب. وان المتنقل في بلادهم إذا سافر وركب الظهر سار إذا شاء فإذا مل وكل الظهر نزل حيث شاء. ومن عجيب ما بلغنا من أحاديث هذه الجزيرة المعروفة بالزابج ان ملكاً من ملوكهم في قديم الأيام، وهو المهراج وقصره على ثلاج يأخذ من البحر ومعنى الثلاج واد كدجلة مدينة السلام والبصرة يغلب عليه ماء البحر بالمد، وينضب عنه الماء العذب بالجزر، ومنه غدير صغير يلاصق قصر الملك. فإذا كان في صبحة كل يوم دخل قهرمان الملك ومعه لبنة

قد سبكها من ذهب فيها أمنان قد خفي عني مبلغها. فيطرحها بين يدي الملك في ذلك الغدير. فإذا كان المد علاها وما كان مجتمعاً معها من أمثالها وغمرها، فإذا كان الجزر نضب عنها فاظهرها، فلاحت في الشمش والملك مطلع عليها عند جلوسه في المجلس المطل عليها. فلا تزال تلك حاله يطرح في كل يوم في ذلك الغدير لبنة من ذهب ما عاش ذلك الملك من الزمان لا يمس شيء منه فإذا مات الملك أخرجها القايم من بعده كلها فلم يدع منها شيئاً. واحصيت ثم أذيبت وفرقت على أهل بيت المملكة رجالهم ونسايهم وأولادهم وقوادهم وخدمهم على قدر منازلهم ورسوم لهم في كل صنف منهم. فما فضل بعد ذلك فض على أهل المسكنة والضعف. ثم دون عدد اللبن الذهب ووزنه وقيل إن فلاناً ملك من الزمان كذا وكذا سنة وخلف من لبن الذهب في غدير الملوك كذا وكذا لبنة، وإنها فرقت بعد وفاته في أهل مملكته. فالفخر عندهم لمن امتدت أيام ملكه وزاد عدد الذهب في تركته.

٨ ـ حرب الزابج والقمار

ومن اخبارهم في القديم إن ملكاً من ملوك القمار وهي الأرض التي يجلب منها العود القماري وليست بجزيرة بل هي على ما يلي أرض العرب وليس في شي من الممالك أكثر عدداً من أهل القمار. وهم رحالة كلهم يحرمون الزنا والأنبذة كلها فلا يكون في بلادهم ومملكتهم شي منه. وهي مسامتة لمملكة المهراج والجزيرة المعروفة بالزابج وبينهما مسافة عشرة أيام إلى عشرين يوماً عرضا في البحر إذا كانت الريح متوسطة. فقيل إن هذا الملك يقلد الملك على القمار في قديم الأيام وهو حدث متسرع. وانه جلس يوماً في قصره وهو مشرف على واد يجري بالماء العذب كدجلة العراق وبين قصره والبحر مسيرة يوم، ووزيره بين يديه، إذ قال لوزيره وقد جرى ذكر مملكة المهراج وجلالتها وكثرة عمارتها وما تحت يده من الجزائر في نفسي شهوة كنت أحب بلوغها. فقال له الوزير وكان ناصحاً، وقد علم منه السرعة، ما هي أيها الملك. قال: كنت أحب أن أرى رأس المهراج ملك الزابج في طست بين يدي. فعلم الوزير أن الحسد أثار هذا الفكر في نفسه فقال: أيها الملك ما كنت أحب أن يحدث الملك نفسه بمثل هذا إذ لم يجر بيننا وبين هؤلاء القوم لا في فعل ولا في حديث ترة [٣] رأينا منهم شرا. وهم في جزيرة نائية غير مجاورة لنا في أرضنا ولا طامعين في ملكنا وليس ينبغي أن يقف على هذا الكلام أحد ولا يعيد الملك فيه قولاً. فغضب ولم يسمع من الناصح، وأذاع ذلك لقواده ومن كان يحضره من وجوه أصحابه. فتناقلته الألسن حتى شاع واتصل بالمهراج وكان جزلاً متحركاً محنكاً قد بلغ في السن مبلغاً متوسطاً. فدعا بوزيره وأخبره بما اتصل به، وقال له ليس يجب مهما شاع من أمر هذا الجاهل وتمنيه ما تمناه بحداثة سنه وغرته وانتشار ذلك من قوله أن نمسك عنه، فإن ذلك مما يفت في عضد الملك وينقصه ويضع منه. وأمر بستر ما

جرى بينهما وأن يعد له ألف مركب من أوساط المراكب بآلاتها، ويندب لكل مركب منها من حملة السلاح وشجعان الرجال من يستقل به، وأظهر أنه يريد التنزه في الجزاير التي في مملكته. وكتب إلى الملوك الذين في هذه الجزاير، وهم في طاعته وجملته، بما عزم عليه من زيارتهم والتنزه بجزايرهم حتى شاع ذلك، وتأهب ملك كل جزيرة لما يصلح للمهراج. فلما استتب أمره وانتظم دخل المراكب وعبر بها وبالجيش إلى مملكة القمار، وهو وأصحابه أهل سواك [٤] دايم، يفعل الرجل منهم ذلك في اليوم مرات، وسواك كل واحد منهم معه لا يفارقه أو مع غلامه. فلم يشعر به ملك القمار حتى هجم على الوادي المفضي إلى دار ملك القمار وطرح رجاله، فأحدقوا به على سبيل غرة، فأخذه واحتوى على داره وطار أهل المملكة من بين يديه. فأمر بالنداء بالأمان وقعد على السرير الذي كان يجلس عليه ملك القمار وقد أخذه أسيراً فاحضره وأحضر وزيره. فقال لملك القمار ما حملك على تمني ما ليس في وسعك، ولا لك فيه حظ لو نلته، ولا أوجبه سبب يسهل السبيل إليه، فلم يحر جواباً. ثم قال له المهراج أما انك لو تمنيت مما تمنيته من النظر إلى رأسي في طست بين يديك، إباحة أرضي وملكها أو الفساد في شي منها، لاستعملت ذلك كله فيك. لكنك تمنيت شيئاً بعينه، فانا فاعله بك وراجع إلى بلدي، من غير أن أمد يدا إلى شي من بلادك مما جل ودق، لتكون عظة لمن بعدك، ولا يتجاوز كل قدره، وما قسم له وان يستغنم العافية من لبسته. ثم ضرب عنقه. ثم أقبل على وزيره فقال له جزيت خيراً من وزير فقد صح عندي انك أشرت على صاحبك بالرأي لو قبل منك، فانظر من يصلح للملك من بعد هذا الجاهل وأقمه مقامه. وانصرف من ساعته راجعاً إلى بلاده من غير أن يمد هو ولا أحد من أصحابه يده إلى شي من بلاد القمار. فلما رجع إلى مملكته قعد على سريره وأشرف على غديره ووضع الطست بين يديه وفيها رأس ملك القمار وأحضر وجوه مملكته وحدثهم بخبره والسبب الذي حمله على ما أقدم عليه. فدعا له أهل مملكته وجزوه خيراً ثم أمر بالرأس فغسل وطيب وجعله في ظرف ورده إلى الملك الذي قام بالأمر ببلاد القمار من بعد الملك المقتول. وكتب إليه ان الذي حملني على ما فعلناه بصاحبك بغيه علينا وتأديبنا لأمثاله، وقد بلغنا منه ما أراد بنا، ورأينا رد الرأس إليك، إذ لا درك لنا في حبسه ولا فخر بما ظفرنا به منه. واتصل الخبر بملوك الهند والصين فعظم المهراج في أعينهم وصارت ملوك القمار من بعد ذلك كلما أصبحت قامت وحولت وجوهها نحو بلاد الزابج فسجدت وكفرت للمهراج تعظيماً له. وساير ملوك الهند والصين يقولون بالتناسخ ويدينون به. وذكر بعض من يوثق بخبره ان ملكاً من ملوكهم جدر. فلما خرج من الجدري نظر في المرآة فاستقبح وجهه. فابصر ابناً لأخيه فقال له ليس مثلي أقام في هذا الجسم على تغيره، وإنما هو ظرف للروح متى زال عنه عاد في غيره، فقم بالملك فإني مزيل بين

جسمي وروحي إلى أن انحدر في جسم غيره، ثم دعا بخنجر له مشحوذ قاطع فأمر به فحز رأسه ثم أحرق.

٩ - خراساني في الصين

كان أهل الصين من شدة التفقد لأمرهم في قديم أيامهم وقبل تغيره في هذا الوقت على حالة لم يسمع مثلها. وقد كان رجل من أهل خراسان ورد العراق، فابتاع متاعاً كثيراً، وخرج إلى بلاد الصين. وكان فيه بخل وشح شديد. فجرى بينه وبين خصي للملك كان أنفذه إلى خانفو، وهي المدينة التي تقصدها تجار العرب، لاخذ ما يحتاج إليه مما يرد في المراكب. وكان هذا الخصي من أجل خدم الملك، وإليه خزاينه وأمواله. فشاجره في أمتعة العاج وغيره امتنع من بيعها حتى شرق الأمر بينهما وحمل الخصي نفسه على انتزاع خيار الأمتعة التي كانت معه، واستهان بأمره. فشخص مستخفياً حتى ورد خمدان، وهو بلد الملك الكبير، في مقدار شهرين من الزمان وأكثر. فخرج إلى السلسلة التي وصفت في الكتاب، وسبيل من حركها على الملك الكبير أن يباعد إلى مسيرة عشرة أيام على سبيل النفي، ويؤمر بحبسه هناك شهرين. ثم يخرجه ملك تلك الناحية ويقول إنك تعرضت لما فيه بوارك وسفك دمك إن كنت كاذباً. وإذ كان الملك قد قرب لك ولامثالك من وزرايه وملوكه من لا يعوزك الانتصاف بهم فاعلم انك متى وصلت إلى الملك، ولم يكن ما تظلمت منه مما يجب في مثله الوصول إليه، فليس دون دمك شيء، ليلا يقدم على ما أقدمت كل من يهم بمثله، فاستقل نقلك وامض لشانك. فإن استقال ضرب خمسين خشبة ونفى إلى البلاد التي منها قصد، وإن اقام على تظلمه وصل. ففعل ذلك بالخراساني فأقام على ظلامته والتمس الوصول فبعث به ووصل إلى الملك. فسايله الترجمان عن أمره فأخبره بما جرى عليه من الخادم وانتزاعه من يده ما انتزع. وكان الأمر فيه قد شاع بخانفو وذاع. فأمر الملك بحبس الخراساني وإزاحة علته في مطعمه ومشربه، وتقدم إلى وزيره في الكتابة إلى العمال بخانفو بالفصح عما ادعاه الخراساني وكشفه والصدق عنه. وأمر صاحب الميمنة والميسرة وصاحب القلب بمثله وهؤلاء الثلثة عليهم يدور بعد الوزير أمر جيوشه، ويثق بهم على نفسه، وإذا ركب بهم بحرب أو غيره كان كل واحد منهم في مرتبته. فكتب كل واحد منهم وقد كشف عن الأمر مما وقف به على صحة الدعوى من الخراساني فتتابعت به الأخبار عند الملك من كل جهة. فأشخص الخصي فلما ورد قبض أمواله ونزع خزاينه من يده وقال له كان حقك القتل إذ عرضتني لرجل قد سلك من خراسان، وهي على حد مملكتي، وصار إلى بلاد العرب ومنها إلى ممالك الهند، ثم إلى بلدي طلبا للفضل، فأردت أن يعود مجتازاً بهذه الممالك ومن فيها فيقول إني ظلمت ببلاد الصين وغصب مالي. لكني أتجافى عن دمك لقديم حرمتك، وأوليك تدبير الموتى إذ عجزت عن تدبير الأحياء. وأمر به فجعله في مقابر الملوك يحرسها ويقوم بها.

١٠ ـ القضاء في الصين

ومن عجيب تدبيرهم في قديم الأيام دون هذا الوقت، أمر الاحكام وجلالها في صدورهم واختيارهم لها من لا يخالج قلوبهم الشك في علمه بشرايعهم، وصدق لهجته وقيامه بالحق في كل أحواله وتجنبه الاغماض عمن جل مقداره، حتى يقع الحق موقعه ويكون عفيفاً عن أموال أهل الضعف وما يجري على يده. فإذا عزموا على تقليد قاضي القضاة انفذوه قبل تقليده إلى جميع البلدان التي هي أعمدة بلادهم، حتى يقيم في كل بلد شهراً أو شهرين، فيبحث عن أمر أهله وأخبارهم ورسومهم، ويعلم من يجب قبول قوله منهم معرفة يستغني بها عن المسيلة. فإذا سلك به هذه الأمصار ولم يبق في المملكة بلد جليل إلا وطيه، رحل إلى دار المملكة، وولي قضاء القضاة، وجعل إليه اختيارهم فيليهم وعلمه بجميع المملكة، ومن يجب أن يقلد في كل بلد من أهله أو غيرهم، علم من يستغني بعلمه عن الرجوع إلى من لعله أن يميل فيه، أو يقول بغير الحق فيما يسأل عنه. ولا يتهيا لأحد من قضاته أن يكاتبه بشيء قد علم خلافه أو يزيله عن جهته. ولقاضي القضاة منادي في كل يوم على بابه يقول هل من متظلم على الملك المستور عن عيون رعيته، أم من أحد من أسبابه وقواده وساير رعيته، فإني أنوب في ذلك كله عنه لما بسط به يدي وقلدني. يقول ذلك ثلثا لأن الملك في عقدهم ان الملك لا يزول عن موضعه حتى تنفذ الكتب من دواوين الملوك بالجور المصرح وان يهمل أمر الحكم والحكام. وانه متى تحفظ من هذين الأمرين فلم تنفذ الكتب من الدواوين إلا بالعدل، ولم يل الحكم إلا من يقوم بالحق فالملك منتظم.

١١ ـ المسك

فأما خراسان ومتاخمتها لبلاد الصين فالذي بينها وبين الصغد مسيرة شهرين، إلا أنه في مفازة ممتنعة ورمال منتظمة لا ماء فيها ولا أودية لها ولا عمارة بقربها. فهو السبب المانع من هجوم أهل خراسان على بلدهم. واما ما كان من الصين يلي مغرب الشمس وهو الموضع المعروف بمذو فهو على حدود التبت والحروب بينهم متصلة. وقد رأينا ممن دخل الصين ذكر أنه رأى رجلاً حمل على ظهره مسكاً في زق، وورد من سمرقند راجلاً يقطع بلداً بلدا من مدن الصين حتى صار إلى خانفو، وهو مجتمع التجار القاصدين من سيراف. وذلك أن الأرض التي بها ظباء المسك الصيني والتبت أرض واحدة لا فرق بينهما فأهل الصين يجتذبون ما قرب منهم من الظباء وأهل التبت ما قرب منهم. وإنما فضل المسك التبتي على الصيني بحالتين: احديهما أن ظبي المسك يكون في حد التبت رعيه من سنبل الطيب، وما يلي أرض الصين منها رعيه ساير الحشايش. والحالة الأخرى ترك أهل التبت النوافج [٥] في

حالها وغش أهل الصين لما وقع إليهم منها، وسلوكهم أيضاً في البحر، وما يلحقهم من الأنداء. فإذا ترك أهل الصين المسك في نوافجه وأودعت البراني، واستوثق منها وورد أرض العرب كالتبتي في جودته. وأجود المسك كله ما حكه الظبي على أحجار الجبال إذ كان مادة تصير في سرته ويجتمع دماً عبيطا، كاجتماع الدم فيما يعرض من الدمامل، فإذا أدرك حكه وأضجره، فيفزع إلى الحجارة حتى يخرقه، فيسيل ما فيه. فإذا خرج عنه جف واندمل وعادت المادة تجتمع فيه من ذي قبل. وللتبت رجال يخرجون في طلب هذا ولهم به معرفة فإذا وجدوه التقطوه وجمعوه وأودعوه النوافج، وحمل إلى ملوكهم وهو نهاية المسك. إذ كان قد أدرك في نوافجه على حيوانه وصار له فضل على غيره من المسك، كفضل ما يدرك من الثمار في شجرة على ساير ما ينزع منه قبل إدراكه. وغير هذا من المسك فإنما يصاد بالشرك المنصوب أو السهم وربما قطعت النوافج عن الظبي قبل إدراك المسك فيها. وعلى أنه إذا قطع عن ظبايه كان كريه الرايحة مدة من المدد، حتى جف على الأيام الطويلة. وكلما جف استحال حتى يصير مسكاً. وظبي المسك كساير الظباء عندنا في القد واللون ودقة القوايم وافتراق الأظلاف وانتصاب القرون وانعطافها، ولها نابان دقيقان أبيضان في الفكين قايمان في وجه الظبي طول كل واحد منهما مقدار فتر. ودونه على هيئة ناب الفيل. فهو الفرق بينها وبين ساير الظباء.

١٢ ـ عادات صينية

ومكاتبات ملوك الصين لملوك أمصارهم وخصيانهم على بغال البريد مجهزة الأذناب على سبيل بغال البريد عندنا على سكك معروفة. وأهل الصين معما [مهما] وصفناه من أمرهم يبولون من قيام وكذلك ساير رعيتهم من أهل بلادهم. فأما الملوك والقواد والوجوه فلهم أنابيب من خشب مدهونة طول كل خشبة منها ذراع وفي الطرفين ثقبتان تتسع العليا للحشفة. فيقف على رجله إذا أراد البول ويباعدها عن نفسه ويبول فيها ويزعمون أن ذلك أصح لأجسامهم. وان ساير ما يعترى من وجع المثانة والبول من الاستحجار فيها إنما هو من الجلوس للبول، وان المثانة لا تطفو بما فيها إلا مع القيام لذلك. والسبب في تركهم الشعور على رؤوسهم أعني الرجال امتناعهم من تدوير رأس المولود وتقويه كما يستعمل العرب. وقولهم إن ذاك مما يزيل الدماغ عن حاله التي خلق عليها وانه يفسد الحاسة المعروفة. فرؤسهم مضطربة يسترها الشعر ويعفى عليها. فأما المناكح ببلاد الصين وهم شعوب وقبائل كشعوب بني إسرائيل والعرب وبطونها يتعارفون ذاك بينهم. ولا يزوج أحد منهم قريباً ولا ذا نسب، ويتجاوزون ذلك حتى لا تتزوج القبيلة في قبيلتها. مثال ذلك ان بني تميم لا تتزوج في تميم وربيعة لا تتزوج في ربيعة وإنما تتزوج ربيعة في مضر ومضر في ربيعة ويدعون ان ذلك أنجب للولد.

١٣ ـ بعض أخبار الهند

في مملكة بلهرا وغيره من ملوك الهند من يحرق نفسه بالنار، وذلك لقولهم بالتناسخ وتمكنه في قلوبهم وزوال الشك فيه عنهم. وفي ملوكهم من إذا قعد للملك طبخ له أرز ثم وضع بين يديه على ورق الموز وينتدب من أصحابه الثلثماية والأربعماية باختيارهم لأنفسهم، لا باكراه من الملك لهم، فيعطيهم الملك من ذلك الأرز بعد أن يأكل منه. ويتقرب رجل رجل منهم فيأخذ منه شيئاً يسيراً فيأكله. فيلزم كل من أكل من هذا الأرز إذا مات الملك أو قتل أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن اخرهم في اليوم الذي مات فيه، لا يتأخرون عنه حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر، وإذا عزم الرجل على إحراق نفسه صار إلى باب الملك، فاستأذن ثم دار في الأسواق وقد اججت له النار في حطب جزل كثير عليها رجال يقومون بايقادها حتى تصير كالعقيق حرارة والتهابا. ثم يعود وبين يديه الصنوج دايرا في الأسواق وقد احتوشه[٦] أهله وقرابته وبعضهم يضع على رأسه أكليلاً من الريحان يملأه جمراً، ويصب عليه السندروس [٧]، وهو مع النار كالنفط ويمشي وهامته تحترق، وروايح لحم رأسه يفوح، وهو لايتغير في مشيته ولا يظهر منه جزع حتى يأتي النار فيثب فيها فيصير رماداً. فذكر بعض من حضر رجلاً منهم يريد دخول النار انه لما أشرف عليها أخذ الخنجر فوضعه على رس فؤاده، فشقه بيده إلى عانته ثم أدخل يده اليسرى فقبض على كبده، فجذب منها ما تهيأ له وهو يتكلم ثم قطع بالخنجر منها قطعة فدفعها إلى أخيه استهانة بالموت وصبرا على الألم ثم زج بنفسه في النار إلى لعنة الله. وزعم هذا الرجل الحاكي أن في جبال هذه الناحية قوماً من الهند سبيلهم الكنيفية والجليدية عندنا في طلب الباطل والجهل. بينهم وبين أهل الساحل عصبية وأنه لا يزال رجل من أهل الساحل يدخل الجبل فيستدعى من يصابره على التمثيل بنفسه وكذلك أهل الجبل لأهل الساحل. وإن رجلاً من أهل الجبال صار إلى أهل الساحل لمثل ذلك فاجتمع إليه الناس بين ناظر ومتعصب فطالب أهل العصبية بأن يصنعوا مثل ما يصنع، فإن عجزوا عنه اعترفوا بالغلبة. وانه جلس عند رأس منابت القني وأمرهم باجتذاب قناة من تلك القني وسبيله سبيل القصب في التفافه، وأصله مثل الدن وأغلظ، وإذا حط رأس القناة استجابت حتى تقارب الأرض فإذا تركت عادت إلى حالها. فجذب رأس قناة غليظة حتى قربت منه ثم شد بها ضفايره شداً وثيقاً، ثم أخذ الخنجر، وهو كالنار في سرعتها، فقال لهم إني قاطع رأسي به فإذا بان عن بدني فأطلقوه من ساعته فسأضحك إذا عادت القناة برأسي إلى موضعها وتسمعوا قهقهة يسيرة. فعجز أهل الساحل عن أن يصنعوا مثل ذلك. ولقد أخبرنا بهذا من لا نتهمه، وهو اليوم متعارف إذ كانت هذه البلاد من الهند تقرب من بلاد العرب وأخبارها متصلة بهم في كل وقت. ومن شأنهم إذا أخذت السن من رجالهم ونسايهم

وضعفت حواسهم أن يطالب من صار في هذه الحال منهم أهله بطرحه في النار، أو تغريقه في الماء، ثقة منهم بالرجعة. وسبيل موتاهم الإحراق. وقد كان بجزيرة سرنديب، وبها جبل الجوهر ومغاص اللؤلؤ وغيره، يقدم الرجل الهندي على دخول السوق ومعه الجربي وهو خنجر لهم عجيب الصنعة مرهف، فيضرب بيده إلى أجل تاجر يقدر عليه ويأخذ بتلابيبه ويشهر الخنجر عليه ويخرجه عن البلد في مجمع من الناس، لا يتهيأ لهم فيه حيلة. وذلك أنه متى أريد انتزاعه منه قتل التاجر وقتل نفسه. فإذا خرج عن البلد طالبه بالفدية وتبع التاجر من يفتديه بالمال الكثير. فدام ذلك بهم مدة من الزمان حتى ملكهم ملك أمر بمن فعل ذلك من الهند أن يؤخذ على أية حال كان. ففعل ذلك فقتل الهندي التاجر وقتل نفسه. فجرى هذا على جماعة منهم وتلفت فيه أنفس الهند وأنفس العرب. فلما وقع البأس انقطع ذلك وأمن التجار على أنفسهم.

١٤ ـ جزيرة سرنديب

والجوهر الأحمر والأخضر والأصفر مخرجه من جبل سرنديب وهي جزيرة، وأكثر ما يظهر لهم في وقت المد. قد يدحرجه الماء عليهم من كهوف ومغارات ومسايل مياه لهم عليها أرصاد للملك. وربما استنبطوه أيضاً كما تستنبط المعادن فيخرج الجوهر ملصقاً بالحجارة فيكسر عنه. ولملك هذه الجزيرة شريعة ومشايخ لهم مجالس كمجالس محدثينا، يجتمع إليهم الهند فيكتبون عنهم سير أنبيائهم وسنن شرايعهم وبها صنم عظيم من ذهب أبريز يفرط البحريون في مبلغ وزنه، وهياكل قد أنفق عليها أموال عظيمة. وبهذه الجزيرة جمع من اليهود كثير ومن ساير الملل وبها أيضاً ثنوية[٨] والملك يبيح لكل فريق منهم ما يتشرع به. ومحاذى هذه الجزيرة أغباب واسعة، ومعنى الغب الوادي العظيم إذا أفرط في طوله وعرضه، وكان مصبه إلى البحر. يسير المجتازون في هذا الغب المعروف بغب سرنديب شهرين وأكثر في غياض ورياض وهواء معتدل، وفي فوهة هذا الغب البحر المعروف بهركند. وهو نزه المكان: الشاة فيه بنصف درهم وما يشرب جمع من الرجال من الشراب المطبوخ من عسل النحل بحب الداذي الرطب مثل ذلك. وأكثر أعمالهم القمار بالديكة والنرد. والديكة عندهم عظيمة الأجسام وافرة الصياصي[٩] يستعملون لها من الخناجر الصغار المرهفة ما يشد على صياصيها ثم ترسل. وقمارهم في الذهب والفضة والأرضين والنبات وغير ذلك، فيبلغ الديك الغالب جملة من الذهب. وكذلك لعبهم بالنرد دايم على خطر واسع، حتى ان أهل الضعف منهم ومن لا مال له ممن يذهب إلى طلب الباطل والفتوة ربما لاعب في أنامله. فيلعب وإلى جنبه شيء قد جعل فيه من دهن الجوز أو دهن السمسم إذ كان الزيت معدوماً عندهم، وتحته نار تحميه وبينهما فاس صغيرة مشحوذة فإذا غلب أحدهما صاحبه وضع يده على حجر

وضرب القامر بالفاس أنملة المقمور فأبانها ووضع المقمور يده في الدهن وهو في نهاية الحرارة فيكويها ولا يقطعه ذاك عن المعاودة في اللعب. فربما افترقا وقد بطلت أناملهما جميعاً. ومنهم من يأخذ الفتيلة فينقعها في الدهن ثم يضعها على عضو من أعضائه ويشعل النار فيها فهي تحترق ورايحة اللحم تفوح وهو يلعب بالنرد لا يظهر منه جزع. والفساد في هذا الموضع فاش في النساء والرجال غير محظور، حتى أن تجار البحر ربما دعا الواحد منهم ابنة ملكهم فتأتيه إلى غياضهم بعلم أبيها. وكان مشايخ أهل سيراف يمنعون من الجهاز إلى هذه الناحية، وخاصة الأحداث.

١٥ ـ نبذ اجتماعية

وأمر اليسارة التي تكون ببلاد الهند وتفسيرها المطر فانهم يدوم عليهم في الصيف ثلثة أشهر تباعاً ليلاً ونهاراً، لا يمسك الشتاء عنهم بتة، وقد استعدوا قبل ذلك لاقواتهم. فإذا كانت اليسارة أقاموا في منازلهم لأنها معمولة من خشب مكنسة السقوف مظللة بحشايش لهم فلا يظهر أحد منهم إلا لمهم. على أن أهل الصناعات يعالجون صنايعهم في هذه الأماكن هذه المدة وربما عفنت أسافل أرجلهم في هذا الوقت. وبهذه اليسارة عيشهم وإذا لم تكن هلكوا، لأن زراعتهم الأرز لا يعرفون غيره ولا قوت لهم سواه، إنما يكون في هذا الوقت في حرامات لهم طريحاً لا يحتاجون إلى سقي ومعاناة. ومعنى الحرامات منابت الأرز عندهم. فإذا انكشفت السماء عنهم بلغ الأرز النهاية في الريع والكثرة ولا يمطرون الشتاء. وللهند عباد وأهل علم يعرفون بالبراهمة وشعراء يغشون الملوك ومنجمون وفلاسفة وكهان وأهل زجر للغربان وغيرها. وبها سحرة وقوم يظهرون التخاييل ويبدعون فيها، وذلك بقنوج خاصة، وهو بلد عظيم في مملكة الجوز. وبالهند قوم يعرفون بالبيكرجيين عراة قد غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب إذ كانت لا يقص إلا ما ينكسر منها. وهم على سبيل سياحة، وفي عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الأنس. فإذا اشتد به الجوع وقف بباب بعض الهند فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ مستبشرين به فيأكل في تلك الجمجمة. فإذا أشبع انصرف فلا يعود لطلب الطعام إلا في وقت حاجته. وللهند ضروب من الشرايع يتقربون بها زعموا إلى خالقهم جل الله وعز عما يقول الظالمون علوا كبيراً. منها ان الرجل يبتني في طرفهم الخان للسابلة ويقيم فيه بقالاً يبتاع المجتازون منه حاجتهم، ويقيم في الخان فاجرة من نساء الهند يجري عليها لينال منها المجتازون وذاك عندهم مما يثابون عليه. وبالهند قحاب يعرفون بقحاب البد. والسبب فيه أن المرأة إذا نذرت نذراً وولد لها جارية جميلة أتت بها البد، وهو الصنم الذي يعبدونه، فجعلتها له. ثم اتخذت لها في السوق بيتاً وعلقت عليه ستراً وأقعدتها على كرسي لتجتاز بها أهل الهند وغيرهم من ساير الملل، ممن يتجاوز في دينه فتمكن من نفسها بأجرة معلومة. وكلما اجتمع لها شيء من ذلك دفعته إلى

سدنة الصنم ليصرف في عمارة الهيكل. والله جل وعز نحمده على ما اختار لنا وطهرنا من ذنوب الكفرة به.

فأما الصنم المعروف بالمولتان وهو قريب المنصورة فإنه يقصد من مسيرة أشهر كثيرة ويحمل الرجل منهم العود الهندي القامروني، وقامرون بلد يكون فيه فاخر العود، حتى يأتي به الى هذا الصنم، فيدفعه إلى السدنة لبخور الصنم. ومن هذا العود ما قيمة المنا منه مايتا دينار، وربما ختم عليه فانطبع الخاتم فيه للدونته. فالتجار يبتاعونه من هؤلاء السدنة. وبالهند عباد في شرايعهم يقصدون إلى الجزاير التي تحدث في البحر فيغرسون بها النارجيل ويستنبطون بها المياه للآجر، وأن يجتاز بها المراكب فتنال منها. وبعمان من يقصد إلى هذه الجزاير التي فيها النارجيل ومعهم آلات النجار وغيرها فيقطعون من خشب النارجيل ما أرادوا، فإذا جف قطع ألواحاً، ويفتلون من ليف النارجيل ما يخرزون به ذلك الخشب ويستعملون منه مركبا، وينحتون منه أدقالا [١٠] وينسجون من خوصه شراعاً، ومن ليفه خرابات وهي القلوس[١١] عندنا. فإذا فرغوا من جميعه شحنت المراكب بالنارجيل فقصد بها عمان فبيع وعظمت بركته ومنفعته، إذ كان جميع ما يتخذ منه غير محتاج إلى غيره.

١٦ ـ بلاد الزنج

هي بلاد واسعة وكل ما ينبت فيها من الذرة وهو أقواتهم وقصب السكر وساير الشجر فهو أسود عندهم، ولهم ملوك يغزو بعضهم بعضا. وعند ملوكهم رجال يعرفون بالمخزمين قد خزمت أنوفهم، ووضع فيها حلق وركب في الحلق سلاسل. فإذا كانت الحرب تقدموا وقد أخذ بطرف كل سلسلة رجل يجذبها ويصده عن التقدم، حتى تسفر السفراء بينهم. فإن وقع الصلح، وإلا شدت تلك السلاسل في أعناقهم، وتركوا والحرب فلم تقم لهم قايمة ولم يزل أحدهم عن مركزه دون أن يقتل. وللعرب في قلوبهم هيبة عظيمة. فإذا عاينوا رجلاً منهم سجدوا له وقالوا هذا من مملكة ينبت بها شجر التمر، لجلالة التمر عندهم وفي قلوبهم. ولهم الخطب وليس في الأمم كخطبايهم بالسنتهم. وفيهم من يتعبد فيستتر بجلد نمر أو جلد قرد ويأخذ بيده عصا ويقبل نحوهم فيجتمع إليه منهم جمع فيقف على رجله يوماً إلى الليل يخطب عليهم ويذكرهم بالله جل ذكره، ويصف لهم أمور من هلك منهم. ومن عندهم تحمل النمور الزنجية وفيها حمرة وهجانة ولها كبر وسعة. وفي البحر جزيرة تعرف بسقوطرا وبها منابت الصبر الاسقوطري، وموقعها قريب من بلاد الزنج وبلاد العرب. وأكثر أهلها نصارى. والسبب في ذلك أن اسكندر لما غلب على ملك فارس كان يكاتب معلمه أرسطوطاليس، فيعرفه ما وقع عليه من الأرضين. فكتب إليه يؤكد عليه في طلب جزيرة في البحر تعرف بسقوطرا وان بها منابت الصبر، وهو الدوا الأعظم الذي لا تتم الايارجات [١٢] إلا به. وان الصواب أن يخرج من كان في هذه الجزيرة

ويقيم فيها من اليونانيين من يحوطها ليحمل منها الصبر إلى الشام والروم ومصر. فبعث اسكندر فاخرج أهلها عنها وأنزل جمعاً من اليونانيين فيها. وتقدم إلى ملوك الطوايف، إذ كانوا عند قتله دارا الكبير طوع يده بالاحتفاظ بهم، فكانوا في صيانة حتى بعث الله عيسى عليه السلام فبلغ من بهذه الجزاير من اليونانية أمره فدخلوا في جملة ما دخلت فيه الروم من التنصر. وبقاياهم بها إلى هذا الوقت مع ساير من سكنها من غيرهم.

١٧ ـ بحر العرب والبحر الأحمر

ولم يذكر في هذا الكتاب، يعني الكتاب الأول، ما تيامن من البحر عند خروج المراكب من عمان وأرض العرب وتوسطهم للبحر الكبير. وإنما شرح فيه ما تياسر منها إذ كان فيه بحر الهند والصين وفيه كان مقصد من كتب ذلك الكتاب عنه.

ففي هذا البحر الذي عن يمين الهند الخارج عن عمان بلاد الشحر وهي منابت اللبان، وأرض من أراضي عاد وحمير وجرهم والتبابعة، ولهم السنة بالعربية عادية قديمة لا يعرف أكثرها العرب. وليست لهم قرى. وهم في قشف وضيق عيش إلى أن تنتهي أرضهم إلى أرض عدن وسواحل اليمن وإلى جدة ومن جدة إلى الجار إلى ساحل الشام ثم تفضي إلى القلزم وينقطع البحر هناك. وهو حيث يقول الله جل ذكره وجعل بين البحرين حاجزاً. ثم ينعرج البحر من القلزم على أرض البربر ثم يتصل بالجانب الغربي الذي يقابل أرض اليمن حتى يمر بأرض الحبشة التي تجلب جلود النمور البربرية منها، وهي أحسن الجلود وأنقاها، والزيلع وفيها العنبر والذبل وهو ظهور السلاحف.

ومراكب أهل سيراف إذا وصلت في هذا البحر المتيامن عن بحر الهند فصارت إلى جدة أقامت بها ونقل ما فيها من الأمتعة التي تحمل إلى مصر في مراكب القلزم، إذ كان لا يتهيأ لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر لصعوبته وكثرة جباله النابتة فيه، وإنه لا ملوك في شيء من سواحله ولا عمارة، وان المركب إذا سلكه احتاج في كل ليلة إلى أن يطلب موضعاً يستكن فيه خوفاً من جباله، فيسير النهار ويقيم الليل. وهو بحر مظلم كريه الروايح لا خير في بطنه ولا ظهره، وليس كبحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعنبر، وفي جباله الجوهر ومعادن الذهب، وفي أفواه دوابه العاج، وفي منابته الأبنوس والبقم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبوا والقرنفل والصندل وساير الأفواه الطيبة الذكية، وطيوره الففاغي يعني الببغاوات والطواويس، وخرشات أرضه الزباد وظباء المسك وما لا يحصيه أحد لكثرة خيره.

١٨ ـ العنبر

فاما العنبر وما يقع منه إلى سواحل هذا البحر فهو شيء تقذفه الأمواج إليه ومبدأه من بحر الهند على أنه لا يعرف مخرجه. غير أن أجوده ما وقع إلى بربر أو حدود بلاد الزنج والشحر وما والاها، وهو البيض المدور الأزرق، ولاهل هذه النواحي نجب يركبونها في ليالي القمر ويسيرون بها على سواحلهم قد ريضت وعرفت طلب العنبر على الساحل فإذا رآه النجيب برك بصاحبه فأخذه. ومنه ما يوجد فوق البحر ويزن وزناً كثيراً وربما كان كفية الثور، ودونه، فإذا رآه الحوت المعروف بالتال ابتلعه فإذا حصل في جوفه قتله وطفا الحوت فوق الماء. وله قوم يراعونه في قوارب قد عرفوا الأوقات التي يوجد فيها هذه الحيتان المبتلعة العنبر، فإذا عاينوا منها شيئاً اجتذبوه إلى الأرض بكلاليب حديد فيها حبال متينة تنشب في ظهر الحوت فيشقوا عنه ويخرجوا العنبر منه. فما كان يلي بطن الحوت فهو المند الذي فيه سهوكة [١٣] وسمكته موجودة عند العطارين بمدينة السلام والبصرة. وما لم تصل إليه سهوكة الحوت كان نقياً جداً. وهذا الحوت المعروف بالتال ربما عمل من قفار ظهره كراسي يقعد عليها الرجل ويتمكن. وذكروا أن بقرية من سيراف على عشرة فراسخ تعرف بالتاين بيوت عادية لطاف سقوفها من اضلاع هذا الحوت. وسمعت من يقول انه وقع في قديم الأيام إلى قرب سيراف منه واحدة فقصد للنظر إليها فوجد قوماً يصعدون إلى ظهرها بسلم لطيف. والصيادون إذا ظفروا بها طرحوها في الشمس وقطعوا لحمها وحفروا له حفراً يجتمع فيها الودك[١٤]، ويغرف من عينها إذا اذابتها الشمس الودك بالحرارة، ويجمع فيباع على أرباب المراكب ويخلط بأخلاط لهم يمسح بها مراكب البحر يسد به خرزها ويسد أيضاً ما ينفتق من خرزها فيباع ودك هذا الحوت بجملة من المال.

١٩ ـ اللؤلؤ

بدو خلق اللؤلؤ بلطيف تدبير الله تبارك اسمه وهو عز وجل يقول سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون. فاللؤلؤ يبتدي في مثل قدر الانجدانة وعلى لونها وفي هيئتها وصغرها وخفتها ورقتها وضعفها فيطير على وجه الماء طيراناً ضعيفا ويسقط على جوانب مراكب الغاصة. ثم يشتد على الأيام ويعظم ويستحجر فإذا ثقل لزم قعر البحر ويغدو بما الله أعلم به، وليس فيه إلا لحمة حمراء كمثل اللسان في أصله ليس لها عظم ولا عصب ولا فيها عرق. وقد اختلفوا في بدء اللؤلؤ فقال قوم الصدف إذا وقع المطر ظهر على وجه البحر وفتح فاه حتى يقطر فيه من المطر فيصير حباً. وقال آخرون انه يتولد من الصدفة نفسها وهو أصح الخبرين لأنه ربما وجد في الصدفة وهو نابت لم ينقلع فيقلع. وهو الذي تسميه

تجار البحار اللؤلؤ القلع والله أعلم. ومن عجايب ما سمعنا من أبواب الرزق أن اعرابياً ورد البصرة في قديم الأيام ومعه حبة لؤلؤ تساوي جملة مال. فصار بها إلى عطار كان يألفه، فأظهرها له وسايله عنها وهو لا يعرف مقدارها فأخبره انها لؤلؤة فقال وما قيمتها قال ماية درهم. فاستكثر الاعرابي ذلك وقال هل أحد يبتاعها مني بما قلت، فدفع له العطار ماية درهم فابتاع بها ميرة لاهله. وأخذ العطار الحبة فقصد بها مدينة السلام فباعها بجملة من المال واتسع العطار في تجارته. فذكر العطار أنه سأل الأعرابي عن سبب اللؤلؤة، فقال مررت بالصمان، وهي من أرض البحرين بينها وبين الساحل مديدة قريبة، فرأيت في الرمل ثعلباً ميتاً على فيه شيء قد أطبق عليه. فنزلت فوجدت شيئاً كمثل الطبق يلمع جوفه بياضاً ووجدت هذه المدحرجة فيه. فأخذتها فعلم أن السبب في ذلك خروج الصدفة إلى الساحل تستنشق الريح، وذلك من عادة الصدف، فمر بها الثعلب فلما عاين اللحمة في جوفها وهي فاتحة فاهاً وثب بسرعته فادخل فاه في الصدف وقبض على اللحمة فأطبقت الصدفة على فيه. ومن شأنها إذا أطبقت على شيء وأحست بيد تلمسها لم تفتح فاها بحيلة حتى تشق من اخرها بالحديد ضناً منها باللؤلؤ وصيانة لها كصيانة المرأة لولدها. فلما أخذت بنفس الثعلب أمعن في العدو يضرب بها الأرض يميناً وشمالاً إلى أن أخذت بنفسه فمات وماتت. وظفر الأعرابي برزقا.

٢٠ ـ المجوهرات الملكية

وملوك الهند تلبس الاقراط من الجوهر النفيس في آذانها المركب في الذهب، وتضع في أعناقها القلايد النفيسة المشتملة على فاخر الجوهر الأحمر والأخضر واللؤلؤ ما يعظم قيمته ويجل مقداره. وهو اليوم كنوزهم وذخايرهم وتلبسه قوادهم ووجوههم. والرئيس منهم يركب على عنق رجل منهم وعليه فوطة قد استتر بها وفي يده شيء يعرف بالجترة، وهي مظلة من ريش الطواويس، يأخذها بيده فيتقي بها الشمس وأصحابه محدقون به. ومنهم صنف لا يأكل إثنان منهم في غضارة [١٥] واحدة ولا على مايدة واحدة يجدون ذلك عيباً فاحشاً. فإذا وردوا سيراف فدعاهم وجه من وجوه التجار وكانوا ماية نفس أو دونها أو فوقها احتاج أن يضع بين يدي كل رجل منهم طبقاً فيه ما يأكله لا يشاركه فيه سواه. وأما ملوكهم في بلادهم ووجوههم فإنه يتخذ لهم في كل يوم موايد يسف خوص النارجيل سفاً ويعمل منه كهيئة الغضار والصحاف، فإذا أحضر الغداء أكلوا الطعام في ذلك الخوص المسفوف فإذا فرغوا من غدايهم رمي بتلك المايدة والغضار والمسفوف من الخوص مهما بقي من الطعام إلى الماء، واستأنفوا من غدهم مثله. وكان يحمل إلى الهند في القديم الدنانير السندية فيباع الدينار بثلثة دنانير وما زاد، ويحمل إليهم الزمرد الذي يرد من مصر مركباً في الخواتيم مصوناً في الحقاق، ويحمل البسد وهو المرجان وحجر يقال له الدهنج ثم

تركوه. وأكثر ملوكهم يظهرون نساهم إذا جلسوا لمن دخل إليهم من أهل بلدهم وغيرهم لا يحجبن عن النظر إليهن.

فهذا أجمل ما لحقه الذكر في ذلك الوقت على سعة أخبار البحر مع التجنب لحكاية شيء مما يكذب فيه البحريون ولا يقوم في نفس المرء صدقه والاقتصار من كل خبر على ما صح منه وإن قل أولى.

والحمد لله رب العالمين وصلواته على
خيرته من خلقه محمد وآله أجمعين وهو
حسبنا ونعم الناصر والمعين.

الهوامش

(١) جمع ناخوذا وهو الربان.
(٢) هذا الحديث عن صور الانبياء وابراز حالة تميزهم في الصورة انما وقع في بلد غير اسلامية، وصور الانبياء والرسل والملائكة امر غير معترض عليه الا في بلاد الاسلام والمسلمين.
(٣) مكروه.
(٤) تنظيف الأسنان بالمسواك وهو عود خاص بذلك.
(٥) جمع نافجة وهي وعاء على جسم الظبي يحتفظ فيه بالمسك.
(٦) احتوش احاط بـ.
(٧) نوع من الزيت الصمغي.
(٨) مذهب ماني وأتباعه القائل بوجود قوتي الخير والشر في العالم.
(٩) مخالب واحدها صيص.
(١٠) دقل ساري السفينة.
(١١) قلس حبل ضخم للسفينة.
(١٢) ايارجة معجون مسهل.
(١٣) رائحة كريهة
(١٤) الشحم.
(١٥) إناء من الفخار.

بزرك بن شهريار، عجايب الهند

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي

الحمد لله ذي العزة والجلال، والإنعام والإفضال، خالق الأمم أطواراً والأجيال، ومنوعهم بفطرته في الأخلاق والأشكال، ومصرفهم بقدرته من حال إلى حال، ومعلمهم بحكمته ما يصنعون من غرايب الأعمال. فاتقن وأحكم وسدد وقوم، وقال وهو أصدق القايلين ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾. شهدت آياته المختلفة في الأقطار، وعجايب مصنوعاته في البراري والبحار، وبدايع محكماته في الآفاق والديار، إنه تبارك وتعالى فرد صمد أحد قهار، فاعتبروا يا أولى الأبصار، أرسل محمداً بالهدى ودين الحق إلى كافة الخلق، صلى الله عليه وعلى آله ما لمع برق، وأشرقت شمس من شرق.

وبعد فإن الله تبارك اسمه وجل ثناؤه خلق العجايب عشرة أجزاء. فجعل تسعة منها في ركن المشرق، وجزءاً في ثلثة أركان الأرض التي هي المغرب والشمال والجنوب. ثم جعل في الصين والهند ثمانية أجزاء منها وجزءاً في باقي المشرق.

١ ـ الهند

فمما في الهند ما حدثنا به أبو محمد الحسن بن عمرو بن حمويه بن حرام بن حمويه النجيرمي بالبصرة قال كنت بالمنصورة في سنة ثمان وثمانين ومائتين وحدثني بعض مشايخها ممن يوثق به ان ملك الرا، وهو أكبر ملوك بلاد الهند، والناحية التي هو بها بين قشمير الأعلى وقشمير الأسفل، وكان يسمى مهروك بن رايق كتب في سنة سبعين ومائتين إلى صاحب المنصورة، وهو عبدالله بن عمر بن عبد العزيز، يسأله أن يفسر له شريعة الإسلام بالهندية. فاحضر عبدالله هذا رجلاً كان بالمنصورة، أصله من العراق، حد القريحة، حسن الفهم، شاعراً قد نشأ ببلاد الهند وعرف لغاتهم على اختلافها. فعرفه ما سأله ملك الرا، فعمل قصيدة وذكر فيها ما يحتاج إليه، وانفذها إليه. فلما قرئت على ملك الرا استحسنها. وكتب إلى عبدالله يسأله حمل صاحب القصيدة، فحمله إليه وأقام عنده ثلث سنين ثم انصرف عنه. فسأله عبدالله عن أمر ملك الرا. فشرح له اخباره، وانه تركه وقد أسلم قلبه ولسانه، وانه لم يمكنه إظهار الإسلام خوفاً من بطلان أمره وذهاب ملكه. وكان فيما حكاه عنه

أنه سأله أن يفسر له القرآن بالهندية ففسره له. قال فانتهيت من التفسير إلى سورة يس ففسرت له قول الله عز وجل قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. فلما فسرت له هذا وهو جالس على سرير من ذهب، مرصع بالجوهر والدر لا تعرف له قيمة، قال لي أعد علي فأعدت. فنزل عن سريره ومشى على الأرض، وكانت قد رشت بالماء وهي ندية، فوضع خده على الأرض وبكى حتى تلوث وجهه بالطين. ثم قال لي هذا هو الرب المعبود والأول القديم الذي ليس يشبهه أحد. وبنى بيتاً لنفسه وأظهر انه يخلو فيه لمهمة، وكان يصلي فيه سرا من غير أن يطلع على ذلك أحد، وانه وهب له في ثلاثة دفعات ستمائة منا من ذهب.

وحدثني أن لأهل قشمير الأعلى يوم عيد في كل سنة يجتمعون فيه، ويصعد خطيبهم على منبر ومعه جرة من طين غير مطبوخ، فيخطب ثم يقول وقوا أنفسكم وأموالكم واحفظوها. ويعظهم. ثم يقول انظروا إلى هذه الجرة من طين وقيت وحفظت فبقيت. وإن لتلك الجرة على ما يقولون أربعة آلاف سنة.

وحدثني أبو عبدالله محمد بن بابشاد السيرافي، وكان وجه النواخذة الذين سافروا إلى بلاد الذهب، واعرف خلق الله بأمر البحر، ومن جلة البحرين ومشهوريهم، ان بأغباب سرنديب ببلاد يقال لها أبرير بلد عظيم فيه نيف وثلثون سوقاً، كل سوق منها طولها نصف ميل، وبه الثياب الغبية المرتفعة الحسنة. وهو بلد راكب على نهر كبير يصب في بحر الأغباب. ولأهل هذه البلد نحو من ستمائة بد جليلة سوى الصغار، وهو نحو أربع مائة بريد. وبظاهر البلد جبل يجري تحته عين ماء، وإلى جانب الجبل شجرة من نحاس وصفر عظيمة، فيها شوك مثل السفافيد أو المسال، وبإزائها صنم عظيم في صورة زنجي، عيناه من زبرجد. ولهم يوم عيد في كل سنة عند ذلك الصنم. فيخرجون إليه ويصعدون فوق الجبل، فمن أحب التقرب إلى ربه، شرب وغنى وسجد للصنم مراراً ورمى بنفسه على دماغه فوق حجر عظيم يجري عليه ماء العين تحت الصنم الأسود، فيطحن فوق الحجر إلى نار الله.

وحدثني أن بقنوج من بلدان الهند من تأخذ القوفلة بين شفريها فتكسرها قطعاً من شدة ما تضغطها.

وحدثني انه سمع في حداثته إن مردويه بن زرابخت، وكان أحد ربانية الصين وبلاد الذهب، ذكر أنه كان مجتازاً بناحية حزيرة الزابج وأنه سلك في بعض الأيام بين قرنين ظاهرين في البحر، قدر أنهما جبلان في الماء، وإنه لما جاوزهما غاصاً في البحر فقدر انهما ظفرا سرطان. فقلت لأبي محمد إحكي عنك هذه الحكاية، فقال لي قد سمعت بها وهو شيء عظيم ما أدري ما أقول فيه إلا أن السرطان يعظم في البحر جداً.

وحدثني إسماعيل بن إبراهيم بن مرداس الناخذا، وكان من بقية نواخذة[1] بلاد

الذهب، وهو المعروف باسمعيلويه ختن اشكنين، انه في بعض سفراته إلى بلاد الذهب كان قرب من البر بقرب لامري لعيب لحق المركب احتاج معه إلى أن يمسك المركب، فإنه رمى بالإنجر[٢] الكبير في البحر فلم يقف به المركب ومضى على حاله فلم يعرف السبب في ذلك. فقال للغايص تنزل مع حبل الأنجر وتعرف خبره وإن الغايص لما أراد النزول نظر وإذا الأنجر بين ظفري سرطان، وهو يجر المركب، ويلعب بالأنجر، فإنهم صاحوا وطرحوا في الماء الحجارة ورفعوا الأنجر، ثم طرحوه في موضع آخر وان وزن الأنجر ستمائة منا أو أكثر.

وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو ان بعض النواخذة حدثه أنه جهز مركباً له إلى الزابج فوقعوا إلى قرية من قرى جزاير الواقواق، لأن الريح طرحتهم إليها. فلما رآهم أهل القرية هربوا في الصحارى بما أمكنهم أن يهربوا به من أموالهم، وإن أهل المركب أيضاً تهيبوا النزول، لأنهم لم يعرفوا البلد ولا عرفوا سبب هرب القوم ما هو. ومكثوا في مركبهم يومين لا يجيهم أحد، ولايخاطبهم على وجه ولا سبب. واحدروا رجلاً من أهل المركب يعرف لغة الواقواقيين ومضى مغرراً وخرج من القرية إلى الصحارى فوجد رجلاً قد صعد شجرة واخفى نفسه فيها. وكلمه ورفق به فاطعمه قطعة تمر كانت معه، وسأله عن سبب هرب أهل القرية، وآمنه على نفسه ووعده بشيء يهبه له ان صدقه. فقال له ان أهل القرية لما بصروا بالمركب قدروا أنهم يريدون أن يغيروا عليهم، وهربوا مع ملكهم في الصحارى والغياض. قال فجاء بالرجل إلى المركب وانفذوه مع ثلاثة نفر من أهل المركب إلى ملك القوم برسالة جميلة، وآمنوه على نفسه وأهل بلده، وحملوه إليه ثوبين وشيئاً من التمر والقسط[٣] هدية. وطابت نفسه وعاد مع ساير أهل البلد وأقاموا معهم وتسوقوا بما في المركب من الأمتعة. ولم يمض عشرون يوماً حتى وافى أهل قرية أخرى مع ملكهم لمحاربة هذا الملك. فقال لهم الملك اعلموا ان هؤلاء القوم قد جاءوا لمحاربتي وأخذ مالي لأنهم قدروا أنه قد صار إلي من هذا المركب جملة، فعاونوني عليهم ودافعوا عن أنفسكم وعني. قال وصبحنا القوم على باب القرية، وخرج إليهم هذا الملك وساير أهل القرية مع بانانية المركب ومقاتلته ومن نشط للحرب من تجاره وأهله. وكان في جملة أهل المركب رجل أصله من العراق خبيث. فلما اشتد الحرب بين القوم أخرج الرجل من حجرته ورقة كبيرة فيها حساب له، ونشرها ورفعها بيده إلى السماء وتكلم بكلام يرفع به صوته. فلما رآه القوم تركوا الحرب، وجاءت طايفة منهم إليه وقالوا لا تفعل هذا ونحن ننصرف عنكم ولا نأخذ شيئاً. وجعل بعضهم يقول لبعض لا تحاربوا فإن القوم قد رفعوا أمرهم إلى ملك السماء، والساعة يغلبونا ويقتلونا ولم يزالوا يضرعون إلى الرجل حتى رد الرقعة إلى حجرته، وانصرفوا بعد ان اثخنوا القول، كأني والقوم يملكون القرية وما فيها. قال هذا الناخذاة ولما كفينا أمرهم رجعنا إلى بيعنا وشراينا

وتسوقنا على الرسم واستخدمنا ملك القوم. ولم نزل نحتال على أهل القرية، ونسرق أولادهم ونشتري بعضهم من بعض بالفوطة والتمر والشيء اليسير، حتى صار معنا في المركب نحو مائة رأس من الرقيق كباراً أو صغاراً، فلما مضت علينا أربعة أشهر وقرب وقت الرجوع قال لنا القوم الذي اشتريناهم لا تحملونا واتركونا في بلدنا لا يحل لكم ان تستعبدونا وتفرقوا بيننا وبين أهلنا. فلم نلتفت إليهم وكانوا في المركب منهم مقيد ومنهم مشدود، وصغارهم مطلقون، وفي المركب البانانية خمس أنفس يرون أمر المركب ويقومون بإطعامهم. وبقية أهل المركب في القرية فعمدوا إلى البابانية في بعض الليالي فشدوهم بالحبال ورفعوا الأنجر والشروع وسرقوا المركب في جوف الليل، وأصبحنا فلم نجد المركب فبقينا وقد طلع بنا ليس معنا شيء. ولا لنا حيلة إلا الشيء اللطيف الحقير الذي في القرية مما يخلف في الأيام. ولم يجئنا أحد بخبر للمركب، فأقمنا ضرورة شهوراً إلى أن بنينا قارباً لطيفاً يحملنا وخرجنا على أقبح صورة فقراء.

٢ ـ عجائب الطير والسمك

وحدثني أحمد بن علي بن منير الناخذا السيرافي، وكان أيضاً من بقية النواخذة الذين سافروا البحار ومضى لهم الاسم والصيت في البحر، ان بعض شيوخ الهند حدثه بسندنيب أن مركباً كسر له فسلم نفر من أهله في القارب، ووقعوا إلى جزيرة بقرب الهند. فبقوا بها مدة إلى أن مات أكثرهم وبقي منهم سبعة. وكانوا في مدة مقامهم قد رأوا طيراً عظيماً يقع في الجزيرة ويرعى، فإذا كان وقت العصر طار فلا يدرون إلى أين يمضي. فاجمع رأيهم على أن يتعلق واحد منهم برجليه ليحمله لما ضاقت صدورهم وعلموا أنه لا بد من الموت وتعلقت نفوسهم بأمر الطاير، وإن كان يطرحهم بقرب بلد فهو الذي يتمنونه، وإن قتلهم فهو الذي يتوقعونه. فطرح واحد منهم بنفسه بين الشجر. وجاء الطاير على الرسم فرعى. فلما جاء وقت انصرافه تلطف الرجل في الدنو منه وتعلق بأحد رجليه وشد نفسه مع ساقيه بقشور الشجر. فطار به في الهواء وهو متعلق بفخذيه وقد جعل رجليه مشتبكة برجليه. فعبر بحراً، وطرحه وقت غروب الشمس على جبل. فحل نفسه وسقط كالميت مما تعب وكل ما مر به وما عاين من الأهوال. فمكث لا يتحرك إلى أن طلعت الشمس من غد، فقام ينظر فإذا راعي غنم فسأله بالهندية عن الموضع فذكر قرية من قرى الهند، وسقاه لبنا فتحامل حتى دخل القرية. ولم يزل الطاير ينقل القوم من تلك الجزيرة على تلك الصورة حتى اجتمعوا بأسرهم في تلك القرية، وتسببوا إلى النفوذ إلى بعض بلاد الهند التي يوجد فيها المراكب. وركبوا في مركب وانهم حدثوا بأمر كسر مركبهم والجزيرة التي وقعوا إليها ومقدار مسافة ما حملهم الطاير إلى تلك القرية فوجدوه زيادة على مائتي فرسخ.

وحدثني أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر السيرافي أنه رأى بعُمان في سنة ثلثمائة سمكة وقعت ببعض سواحل عمان وجزر الماء عنها فصيدت فسحبت إلى البلد. فركب أحمد بن هلال الأمير والعسكر معه وحضر الناس للنظر إليها. وكان الفارس يدخل من فكها ويخرج من الجانب الآخر وهو راكب لعظمها. فإنها ذرعت فكان طولها زيادة على مائتي ذراع وارتفاعها نحو خمسين ذراعاً، وإنه بيع من دهن عينها على ما قيل ببضعة عشر آلاف درهم. وحدثني اسمعيلويه الناخذا ان هذا السمك كثير ببحر الزنج وبلجة سمرقند ويقال له الوال، وهو بكسر المراكب مولع. فإذا تعرض للمركب ضربوا الخشب بعضه ببعض وصاحوا وضربوا الطبول. وإنه ربما نفخ الماء فيرتفع مثل المنار ويبين من بعد مثل شرع المراكب وإنه ربما لعب بذنبه وأجنحته فيرى من بعد أيضاً مثل شرع القوارب.

وحدثت عن بعض العراقيين من يضبط أنه رأى باليمن عند بعض إخوانه رأس سمكة قد ذهب لحمه وبقي عظمه صحيحاً فدخل الرجل من إحدى حدقتيها وخرج من الجانب الآخر وهو قايم من غير أن ينحني. وكان حمل في سنة عشر وثلثمائة من عمان إلى المقتدر من ذلك السمك، وان فك سمكة رفع من الروشن ولم يدخل من الأبواب. وحدثني ان هذه السمكة التي حمل فكها إلى بغداد نزف من عينها خمس مائة جرة أو زيادة عليها دهنا.

وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو انه سمع بعض البحريين يحكي أنه خرج في مركب من عدن إلى جدة، وان سمكة نطحت بحذاء زيلع المركب نطحة منكرة لم يشك أهل المركب انها قد كسرته. وانحدر البانانية إلى الجمة فلم يجدوا الماء قد زاد على رسمه فعجبوا من ذلك، إذ كانت هذه النطحة العظيمة لم تؤثر. فلما وصلوا إلى جدة نجلوا المركب وأنزلوه وتركوه إلى البر، ووجدوا رأس السمكة في جوف المركب قد سجن وسد الموضع، حتى ليس فيه خلل. وإذا هي نطحت المركب ولم يمكنها الخلاص فانقطعت من حلقها وبقي رأسها في موضعه. وذكر لي أنه لم يزل يرى السمك الكبار والصغار يصاد فيشق جوفه فيوجد فيه سمك فيشق جوف فيوجد فيه سمك وهذا يتفق أن يأكل السمكة سمكة قد أكلت سمكا.

ومن ظريف ما حدثني به محمد بن بابشاد بن حرام انه كان بسيراف وقد خرج منها مركب إلى البصرة، ووقع فيها خب بعد خروجه بأيام، فانقطعت المراكب وتعلقت القلوب بأخبار البحر وتأخر المراكب. وكان في ذلك المركب خلق من الركاب وغيرهم وامتعة لها قدر. وإن امرأة اشترت سمكاً وكانت تنظفه فوجدت في واحدة منهم خاتماً فنظرت إليه فإذا هو خاتم أخيها، وكان ممن ركب في ذلك المركب. فارتفع الصراخ وشاع الخبر فصارت منازل جميع من كان في المركب قريب أو حميم أو صديق مأتما. ثم جاء الخبر بعد أيام أن المركب انكسر ولم يسلم منه أحد.

وحدثني بعض الربانية ان سمكة سارت مع مركبه بنواحي اليمن يوماً وليلتين وبعض يوم لم تفارقه، ولم تتقدم عنه ولم تتأخر عنه قدر مسيرهم معها زيادة على مائة وسبعين فرسخا، وانها كانت بطول المركب سواء. وكان طول مركبه خمسين ذراعاً بذراع العمل، من مشعر الأبط إلى طرف الإصبع الوسطي. فسألته عن السبب في ملازمة دواب البحر الجزيرة مع المراكب ومحاذاتها. فقال ذلك يختلف فمنها ما يحاذي المراكب ليسقط منها شيء فتتلقفه، أو تكون قد وقعت قبل ذلك بمركب قد أعطب فنالت منه، فصارت إذا رأت مركباً حاذته، طمعاً أن يحدث منه ما حدث من غيره، وظنا منها ان المراكب كلهم يكونون كما وجدت في الأول، فصارت كأنها ضارية على ذلك. ومنها ما يرى المركب فيتعجب من شكله ويظنه حيواناً بعضه في الماء وبعضه في الهواء فيمرح معه ويجاريه عشقاً له وتأنساً به لمعرفة قوته واستفراغ نشاطه إلى أن يعيا فيفارق، ولا صبر لكل الحيوان على مضاهاة الحمار. ومنها ما يجاري المركب على سبيل المغايرة والمعاندة والمقاواة فإذا أعيا وقصر ورأى المركب تتقدمه، رجع إليه فحمل عليه حملة واحدة، فإن سلم وإلا فنسأل الله العفو، ومنها ما إذا رأت المركب لا يحول بينها وبينه شيء لشدة ضراوتها وجسارتها ودربتها على المراكب فتحمل عليه حملات حتى تغلبه فتلتقط ما فيه لعادة واستمرار نسأل الله العافية. ومنها ما إذا رأى المركب يفر منه، هرب وذعر خوفاً على نفسه واستيحاشاً منه. واخلاقها تختلف باختلاف مواضعها المسلوكة المعهودة بعبور السفار والصيادين وقرب السواحل المعمورة والبحار المنقطعة المهجورة والبعد من السواحل المعمورة وعمق البحار وعدم البر والجزاير والسواحل. وهو عالم آخر تبارك الله أحسن الخالقين.

٣ ـ جزيرة النساء

وحدثني أبو الزهر البرختي الناخذا وكان من عظماء أهل سيراف وكان مجوسياً على دين الهند. وكان عندهم أميناً يقبلون قوله ويستودعونه أموالهم وأولادهم فاسلم وحسن إسلامه وحج بمخاطبته امرأة من جزيرة النساء. وذلك انه سافر رجل في مركب له عظيم ومعه فيه خلق من اخلاط التجار من كل بلد، وهم يسيرون في بحر ملاتو، وقد قربوا من أطراف أرض صين، وأبصروا بعض جبالها. فلم يشعروا إلا وريح قد خرجت عليهم من الجهة التي يقصدونها فلم يسعهم إلا الانصراف معها حيث توجهت، وركبهم من هول البحر ما لا طاقة لهم به، ومرت بهم الريح إلى سمت سهيل. ومن اضطر في ذلك البحر إلى أن يصير سهيل على قمة رأسه فقد دخل بحراً لا رجعة له منه، وتنكس في لجة هابطة إلى الجنوب مصوبة إلى تلك الجهة. فكلما مرت المركب علا ما وراءها من جهتنا، وهبط ما بين يديها من تلك الجهة. فلا تستطيع الرجوع بريح عاصف ولا غيره وهوت في لجج البحار المحيطة. فلما رأوا أمرهم

يؤدي إلى الدخول تحت سهيل ودخل عليهم الليل واظلم وادلهم، وحال بخار البحر ودجنته ونداه وزخره بينهم وبين النجاة فلم يروا ما يهتدون به، وهول البحر وأمواج ترفعهم إلى السحاب، وتخفضهم إلى التراب، وهم يجرون في قار [٤] وضباب طول ليلهم، وأصبح عليهم فلم يشعرو به لشدة ظلمة ما هم فيه، واتصال قار البحر مع ضباب الجو وغلظ الريح وكدورته. فلما طال عليهم الليل وهم يجرون في قبضة الهلكة قد حكم عليهم الريح العاصفة والبحار الزاخرة والأمواج الهايلة، ومركبهم ينط ويأن ويتقعقع ويتتعتع، توادعوا وصلى كل منهم إلى جهة على قدر معبوده لانهم كانوا شيعا من أهل الصين والهند والعجم والجزاير واستسلموا للموت. وجروا كذلك يومين وليلتين لا يفرقون فيهن بين الليل والنهار. فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل رأوا بين أيديهم ناراً عظيمة قد أضاء أفقها فخافوا خوفاً شديداً وفزعوا إلى ربانهم وقالوا له يا ربان ما ترى هذه النار الهايلة التي ملأت الآفاق ونحن نجري إلى سمتها وقد أحاطت بالأفق، والغرق أحب إلينا من الحريق. فبحق معبودك الا قلبت بنا المركب في هذه اللجة والظلمة، لا يرى أحد منا الآخر ولا يدري ما كانت ميتته، ولا يتجرع لوعة صاحبه. وأنت في حل وبل مما يجري علينا، فقد متنا في هذه الأيام والليالي ألف ألف ميتة، فميتة واحدة أروح. فقال لهم اعلموا أنه قد يجري على المسافرين والتجار أهوال هذا اسهلها وأرحمها. ونحن معشر الربانية علينا العهود والمواثيق أن لا نعرض سفينة إلى العطب، وهي باقية لم يجر عليها قدر. ونحن معشر ربانية السفن لا نطلعها إلا واجالنا وأعمارنا معنا فيها فنعيش بسلامتها ونموت بعطبها. فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذي يصرفهم كيف يشاء. قال الراوي فلما ايسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعويل، وندم كل منهم شجوه. وصار الربان إذا أمر مناديه أن ينادي رجاله بجذب حبل أو أرخايه، يصلح شأن المركب فلا تسمع الرجال ذلك من دوي البحر وحس تلاطم الأمواج وهدير الرياح في القلوع والشرع والحبال وضجيج الخلايق. فأشرف المركب على التلاف بعطلة الرجال وعدة المركب من غير حادث عليهم من بحر أو ريح. وكان في المركب شيخ مسلم من أهل قادس من الأندلس قد طلع إلى المركب في ازدحام الناس عند طلوعهم ليلة السفر، ولم يشعر به ربان المركب. وكان في زاوية من المركب مهجورة وهو مختفي فيها خوفا ان يعلم به فيوبث ويوبخ. فلما رأى القوم وما نزل بالناس وما هم عليه من الأخطار بأنفسهم ومركبهم، وأنهم قد صاروا عوناً مع أهوال البحار على أنفسهم مسرعين لهلاكهم، رأى أن يخرج إليهم فيكون من حاله معهم ما كان. فخرج إليهم وقال لهم ما شأنكم انفتح المركب قالوا لا قال فانكسر السكان قالوا لا، قال فركبكم البحر قالوا لا، قال شأنكم قالوا له كأنك ليس معنا في المركب ما تنظر هول هذا البحر وأمواجه وظلمة الهواء الذي لم نر معه نهاراً ولا شمساً ولا قمراً ولا نجوماً نهتدي بها. وقد دخلنا تحت سهيل وحكمت

البحار والرياح علينا وأشد ما علينا هذه النار التي نحن نجري إليها وقد ملأت الأفق. والغرق أهون علينا من الحريق. وقد سألنا الربان أن يقلب المركب بنا في البحر والظلمة لا يرى واحد منا إلى صاحبه ونموت غرقاً ولا نموت حرقاً يرى بعضنا بعضا ونسمع ما تفعل النار فيه. فقال أوصلوني إلى الربان فاطلعوه إليه فسلم عليه بالهندية فرد عليه ويعجب منه لانظاره له، وقال له من أنت من التجار أم من أتباعهم فلا نعرفك في رجال المركب. قال له ما أنا من التجار ولا من أتباعهم. قال فمن اطلعك وما بضاعتك. قال له أما من أطلعني فإني طلعت في جمهور الناس ليلة الاسراء وأويت إلى مكان في المركب. قال من أين تأكل ومن أين تشرب. قال كان بانيان المركب يضع كل يوم قريب مني صحفة أرز بسمن لملايكة المركب ومنشل المركب ماء، فكنت أتقوت بذلك، وأما بضاعتي فقربة عجوة. فتعجب الربان منه واشتغل الناس بسماع حديثه عن ما كانوا فيه من الضجيج، وأصلح الرجال أدوات المركب، ومشا فيهم منادي بتدبير الاقلاع واهتدى المركب. فقال الشيخ يا ربان ما لهؤلاء القوم كانوا يبكون ويعولون، قال له أما ترى ما نزل بهم من هول البحار والرياح والظلمة وأشد من ذلك ما نحن مدفوعون إليه من هذه النار التي ملأت الأفق. والله لقد ركبت هذا البحر وأنا دون البلوغ ومع أبي وكان قد أذهب عمره في ركوبه، وهانا اليوم قد رميت ثمانين سنة ورائي. فما سمعت بمن سلك هذا المكان ولا خبر عنه. فقال يا ربان لا بأس عليك ولا خوف، نجوتم بقدرة الله. هذه جزيرة يحيط بها ويكتنفها جبال يكسر عليها الأمواج بالبحار المحيطة بالأرض، فتنظر في الليل نارًا هايلة مرجفة يخافها الجاهل. فإذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد ماء. وهذه النار ترى في بلد الأندلس وقد عبرت عليها مرة وهذه الثانية. فتباشر الناس وسكنوا إلى قول الشيخ وتناولوا طعامهم وشرابهم وذهب عنهم ما كانوا فيه من الغم والخوف، وتناقص الريح وصار البحر رهواً والريح رخواً، وقدموا على الجزيرة مع شروق الشمس وأصحت السماء وأشرفوا على الجزيرة، وتخيروا مرساً كنيناً[٥]، ووردوا الجزيرة بجملتهم ويطرحون أرواحهم على الرمال ويتمرغون على الأرض شوقاً إليها، ولم يبق منهم في المركب أحد فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم نسوان من داخل الجزيرة لا يحصي عددهن إلا الله تعالى فوقع على كل رجل منهم ألف امرأة أو أكثر فلم يلبثوا أن حملوهم إلى الجبال وكلفوهم الاستمتاع بهن. فلم يزالوا على ذلك وكل من قويت على صاحباتها أخذت الرجال منهن والرجال يتماوتون من الاستفراغ أولاً فاولا. وكل من مات منهم يتواقعن عليه... فلم يبق منهم سوى الشيخ الأندلسي. فإنه جاءته واحدة فكانت تزوره في الليل فإذا أصبح أكنته [٦] في موضع قريب من البحر، وجاءت له بشيء تقوته به. فلم يزل كذلك إلى أن انقلب الريح من تلك الجزيرة إلى الجهة التي خرج المركب منها من الهند. فأخذ الشيخ قارب المركب الذي يسمى الفلو ورفع فيه في الليل ماء وزاد. فلما فطنت

به المرأة أخذت بيده وجاءت به إلى موضع فنبشت التراب بيديها عن معدن تبر فنقلت هي وهو منه ما صبر به القارب، وأخذها معه واسرى عن عشرة أيام وهو بالبلد التي خرج المركب منها. فأخبرهم الخبر وأقامت المرأة معه. إلى أن تفصحت وأسلمت ورزق منها الأولاد. وسألها عن تلك النسوان التي في الجزيرة وانفرادهم دون الرجال. فقالت له نحن أهل بلاد واسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة، ومسافة ما بين كل بلد من جميع بلادنا وبين هذه الجزيرة ثلاثة أيام بلياليها، وكل من في اقاليمنا ومدننا من الملوك والرعايا يعبدون هذه النار التي تظهر لهم في الليل في هذه الجزيرة، ويسمونها بيت الشمس، لأن الشمس تشرق من طرفها الشرقي، وتغرب في جانبها الغربي، فيظنون انها تبيت في هذه الجزيرة، فإذا أصبح وشرقت الشمس من جانبيها الغربي وأمسى ظهرت النار فيقولون هي هي، فيعبدونها ويقصدونها بصلواتهم وسجودهم من ساير الجهات. ثم ان الله سبحانه وتعالى جعل المرأة في بلدنا تلد أول بطن ذكراً وثاني بطن انثيين، وكذلك باقي عمرها. فما أقل الرجال في بلادنا وأكثر النسوان. فلما كثروا وأرادوا يغلبون على الرجال، صنعوا لهم المراكب وحملوا منهم الافا وطرحوهم في هذه الجزيرة. ويقولون للشمس يا ربهم أنت أحق بما خلقت، وليس لنا بهم طاقة. فأبقوا فيها ويتماوتوا فيها بعضهم على بعض. وما سمعنا ولا مر بنا أحد من الناس غيركم، ولا يطرق بلادنا أحد على مر الأزمنة. وان بلادنا في البحر الأعظم تحت سهيل، لا يقدر أحد يجيء إلينا فيرجع، ولا يجسر أحد يفارق الساحل والبر، خوفاً من أن تشربه البحار وذلك تقدير العزيز العليم تبارك الله أحسن الخالقين.

٤ ـ جزائر الحوت

وحدثني أبو الزهر البرختي الناخذاة عن جده لامه قال أسريت في مركب لي كبير ونحن طالبين جزيرة فنصور. فاسقطنا الريح إلى جون أقمنا فيه ثلثا وثلثين يوماً في ركود لا ريح فيه. ونحن متخليين على وجه البحر ولا تلحق سباكنا [٧] قرار البحر على عمق ألف باع، والتيار يصبي بالمركب ونحن لا ندري، إلى أن ادخلنا التيار بين جزاير. فاسندنا المركب إلى واحدة منهن على ساحلها نسوة يعومون ويسبحون ويلعبون، فأنسنا بهم وأسندنا إليهن. فلما قربنا منهن تهاربوا في الجزيرة، وجاءنا رجال ونساء عقال عارفون، فلم ندر لغتهم فأشرنا إليهم وأشاروا إلينا ففهمنا عنهم وفهموا عنا. فأشرنا إليهم أعندكم طعاماً تبيعونا قالوا نعم فجاءونا بالأرز الكثير والدجاج والغنم والعسل والسمن والادم وأشياء كثيرة من المأكولات والفواكه. فاشترينا منهم بالحديد والنحاس والكحل والخرز والسقط والثياب. وأشرنا أعندكم بضايع نشتريها منكم، فقالوا ما عندنا إلا الرقيق. فقلنا لهم مبارك احضروا الرقيق فأتونا بالرقيق ما رأينا أحسن منه: ضحوك السن يغنوا ويلعبوا ويتهارشوا ويتداعبوا بأبدان

عبلة وأجسام كأنها الزبد نعومة، ويكادون يطيرون خفة ونشاطا. غير أن رؤوسهم صغار وتحت كشح كل منهم جناحين كجناحي السلحفاة لا تغادر. فقلنا لهم ما هذا، فتضاحكوا وقالوا أهل هذه الجزاير كلهم كذلك، وما عليكم من ذلك، وأشاروا إلى السماء أي الله تعالى خلقنا كذلك. فاغضينا عن ذلك وقلنا هذه فرصة ورأيناها غنيمة فاشترى كل منا بجهد ما عنده من الأمتعة ومعظمه، وفرغنا المركب من البضائع وشحناه رقيقا وزادا، وكلما اشترينا شيئاً جاءونا بما هو انظف منه وأحسن، فشحنا المركب بخلق ما رأى الراؤون أحسن منه ولا أجمل. فلو أتم لنا الاستغناء إلى عقب العقب. فلما حان السفر وعصفت لنا الرياح من صوب الجزاير إلى نحو بلادنا وشيعونا وقالوا لنا من قبل إن شاء الله. وطمعنا وطمع ربابنا في العودة بمركبه وحده بغير تجار، فكان ليله كله هو ورجاله يوقفهم على النجوم ويثبتهم على منازل الكواكب، وجهات الآفاق وطريق الإقلاع في المجيء والعودة. وفرحنا غاية الفرح والسرور وسرينا من الجزيرة بريح عاصف من أول النهار فلما غابت الجزيرة بكى بعض الرقيق الذي معنا فضاقت صدورنا على بكايهم. ثم قام بعضهم لبعض وقالوا تبكوا لأي شيء قوموا بنا نرقص ونغني، فقام الرقيق جميعه يرقصوا ويغنوا ويتضاحكوا فأعجبنا ذلك منهم، وقلنا هذا أصلح من البكاء. واشتغلنا كل واحد منا بشأنه فما لهؤلاء إلا أن أصابوا منا غفلة، وتطايروا والله في البحر تطاير الجراد والمركب يجري في موج كالجبال كالبرق الخاطف. فما أشرفنا عليهم حتى تعدتهم المركب بنحو فرسخ ونحن نسمعهم يغنون ويصفقون ويتضاحكون. فعلمنا أنهم ما فعلوا بنفوسهم ذلك إلا باقتدار لهم على هول ذلك البحر. ولم يمكنا الرجوع إليهم، وأيسنا منهم، فلم يبق منهم إلا واحدة عند أبي في بلنج [٨] كبير. فلما مضوا هؤلائك نزل أبي إلى البلنج فوجدها تريد أن تنقب وتطرح نفسها في البحر فضبطها وقيدها. وسرنا إلى أن دخلنا بلاد الهند فبعنا الأزواد التي كانت معنا، وتقاسمنا أثمانها فصح لكل أحد عشر رأس ماله. فلما سمعوا الناس باخبارنا، جاءنا رجل من أهل الجزاير بعينها قد أخذ صغيراً وبقي في الهند إلى أن هرم، فقال لنا أنتم وقعتم إلى جزاير تسمى جزاير الحوت، وهي بلدي ونحن قوم نزل رجالنا على إناث حيوان البحر، واضجعت نسواننا لذكران الحيوان بالبحر، فتنتج بينهم خلق مشتبهون بين هؤلاء وهاؤلائك، وذلك في قديم الدهور، فجئنا صابرين على طول المقام في البحار وعلى طول المقام في البر للسر المشترك فينا. وأما المرأة التي بقيت مع أبي فاستولدها ستة أولاد أنا سادسهم وأقامت عنده ثمانية عشر سنة مقيدة. وكان هذا الشيخ الجزايري الذي أخبرنا عن سر الذي فيهم قد قال لوالدي لا تحل عنها فتطرح نفسها في البحر، وتمضي فلا تراها أبداً، فانا نحن لا صبر لنا عن الماء، ففعل بها كذلك. ولما كبرنا نحن وتوفي والدنا وكنا نلومه في تقييدها بغير علم. فلما مات ما كان لنا بعده عملاً إلا أن

أطلقناها من القيد رحمة لها وإبراراً وحنوا عليها. فخرجت كأنها الفرس السابق، وانطلقنا خلفها فلم ندركها فقال لها بعض من قرب إليها تمضي وتخلي أولادك وبناتك فقالت انشرتوا معناه ما أعمل لهم. وطرحت نفسها في البحر وغاصت كأقوى حوت يكون. سبحان الخالق البارىء المصور تبارك الله أحسن الخالقين.

قال أبو محمد الحسن بن عمرو وشاهدت من أضلاع السمك ضلعاً حمله إلينا بعض أرباب المراكب فقطع منه قطعة من جانبه الغليظ نحو خمسة أذرع فطرحناه على نهر على باب بستان لنا بالجزيرة فقام مقام القنطرة، وكان طول ما بقي منه نحو عشرين ذراعاً. وفي البحر سمك تحارب السمك ولا يثبتون له، وله خراطيم تعمل كالمناشير إلا أنه من الجانبين مثل أسنان المنشار، فإذا ضرب السمك قطعه. فإذا مات هذا السمك أو صيد أخذ أهل تلك الناحية هذه الخراطيم التي كالمناشير يستعملونها في الحرب بينهم فتعمل عملاً عظيماً أحد من السيف.

٥ ـ عجائب البحر

وحدثني بعض أهل المراكب العارفين عن شيخ من شيوخ الربانية أنه كان خارجاً من سيراف وكان معه في الكنبار [٩] رجال في مطيال [١٠]، فخاصم في بعض الأيام رجلاً من أهل المركب، وافترى عليه، وأفرط. وأمسك الرجل عنه لأنه كان غريباً لم ينصره أحد، ولم يعاونه. وكان المفتري قد ركب معهم بوسيلة شفاعة وعناية قوية. فما مضى بعد الخصومة ثلث ساعات حتى طفرت من البحر كنعدة [١١] فبقرت برأسها بطن الرجل الجالس في المطيال، وتخلصت من الجانب الآخر فسقط في البحر، وكفنوا الرجل ورموا به إلى الماء.

وكنت أسمع بأمر السلاحف فاستظرفه وانكره لما يحكى مما لا يقبله العقل. فحدثني أبو محمد الحسن ابن عمرو انه سمع بعض شيوخ المراكب يحدث ان مركباً خرج من بلاد الهند إلى بعض النواحي فذهب من يد صاحبه بقوة الشرتا[١٢] وعاب المركب. فقدموا إلى جزيرة صغيرة لم يجدوا فيها ماء ولا شجرا، ودفعتهم الضرورة إلى المقام فيها. ففرغوا حمولة المركب إلى الجزيرة وأقاموا مدة حتى أصلحوا العيب وردوا الحمل إلى المركب وعزموا على الخطوف. فاتفق لهم يوم نوروز فجمعوا من خشيبات معهم وخوص وقماش وأوقدوه فتحركت الجزيرة من تحتهم. وكانوا بقرب الماء فرموا أنفسهم إلى الماء، وتعلقوا بالقارب والدونيج، وغاصت الجزيرة. فلحقهم من اضطراب البحر بحركاتها ما أشرفوا على الغرق. وسلموا بعد تعب شديد وهول عظيم. وإذا بها سلحفاة قايمة على وجه الماء. ولما أحست بحر النار ولدغها هربت. وسألت عن السبب في ذلك فقال إن السلحفاة لها أيام في كل ما تطفو فيها على وجه الماء على سبيل الاستراحة من طول مقامها في كهوف الجبال. وفي البحر غابات وشعاري وأشجار هايلة، أهول وأعظم من شجرنا فوق الأرض، فتخرج على وجه الماء

وتمكث أياماً، وتسدر كالسكران. فإذا رجعت إليها نفسها وسئمت ما هي فيه غاصت. وربما اجتمع الذكر بالأنثى فيكون بينهم السفاد وهم طايفين على وجه الماء.

وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو عن من حدثه من شيوخ البحر أنه دخل الأغباب وجالس بعض ملوك الأغباب، فقدم إليهم طعاماً يأكلونه وكان فيما قدم غضارة[١٣] فيها ألوان مطبوخة برؤوس وأيدي وأرجل تشبه رؤوس الصبيان وأيديهم وأرجلهم. قال فعفت نفسي ذلك الطعام ورجعت عن أكل طعامه بعد أن كنت قد انبسطت. ففطن الملك لذلك فأمسك فلما كان من الغد حضرت عنده فكلم أصحابه بشيء فوافوا بسمك يحملونه لولا اني رأيته يضطرب اضطراب السمك وعليه صدفه ما شككت في أنه ابن آدم. فقال لي الملك الذي كرهت بالأمس أن تأكله هو هذا. هو أطيب من سمكنا وأعذب واخف وأقل ضراً فكنت آكله بعد ذلك.

وحدثني بعض من دخل الزيلع وبلاد الحبشة أن في بحر الحبشة سمكاً له وجه كوجه بني آدم وأجسامهم لها الأيدي والأرجل. وان الصيادين المتغربين الفقراء المتطرقين في أطراف السواحل المهجورة والجزاير والشعاب والجبال التي لا تسلك، المعالجين فيها طول أعمارهم، إذا وجدوا ذلك السمك المشابه لبني آدم اجتمعوا به فتوالد بينهم نسلاً شبيهاً لبني آدم يعيش في الماء والهواء. وربما كان الأصل في هذا السمك من بني آدم اجتمعوا بجنس من أجناس السمك، ويتوالد بينهم هذا السمك الشبيه لبني آدم، ثم كذلك على مر الدهور والأزمنة. كما يجتمع الآدمي ببعض الوحش مثل الضبع والنمرة وغيره من الحيوان البري فيتوالد بينهم القردة والنسانيس وغير ذلك مما يشبه ابن آدم. وكما تجتمع الخنازير والجواميس وكان بينهما الفيلة. وكما يجتمع الكلاب والمعز وكان بينهما الخنازير. وكما يجمتع الحمير والخيل وكان بينهما البغال. ولو ذهبنا نعد ما تنتج من الاجتماع للأجناس لعددنا من ذلك ما يبهت القارىء، ويخرج عما قصدنا إليه من عجايب الهند خاصة.

ويقال إن سمكاً يقال له الظلوم على صورة الآدمي، وله فرج كفرج الناس الذكر والأنثى، يصاد وله جلد اثخن من جلد الفيل يدبغ ويستعمل للاخفاف.

ويقال إن كل طاير في الهواء وعلى وجه الأرض في البحر من السمك مثله أو ما يشبهه. ولقد رأيت في جون إيلة[١٤] من البلاد الشامية سمكاً صغيراً لونه يشبه لون الشقراق[١٥] لا يغادر يطير من الماء ويغوص فيه.

ومن عجيب أمر بحر فارس ما يراه الناس فيه بالليل. فإن الأمواج إذا اضطربت وتكسرت بعضها على بعض انقدح منه النار، فيخيل إلى راكب البحر أنه يسير في بحر نار.

وحدثت ان في البحر حيات يقال لها التنين عظيمة هايلة. إذا مرت السحاب في كبد الشتاء على وجه الماء خرج هذا التنين من الماء ودخل فيه لما يجد في البحر

من حرارة الماء، لأن ماء البحر في الشتاء يسخن كالمرجل فيسجن هذا التنين ببرودة السحاب فيها. وتهب الرياح على وجه الماء فترفع السحاب عن الماء ويستقل التنين في السحاب، وتتراكم وتسير من أفق إلى أفق إلى أفق. فإذا استفرغت مما فيها من الماء خفت وصارت كالهباء، وتفرقت وقطعتها الرياح، فلا يجد التنين ما يتحامل عليه فيسقط إما في بحر وإما في بر. فإذا أراد الله تعالى بقوم شراً أسقطه في أرضها فيبتلع جمالهم وخيلهم وأبقارهم ومواشيهم ويهلكهم ويبقى حتى لا يجد شيئاً يأكله فيموت، أو يهلكه الله سبحانه عنهم. ولقد حدثني أهل البحر والسفارة من تجار وربانية أنهم أبصروه غير دفعة في السحاب، يعبر على رؤوسهم أسود ممدود في السحاب، كلما تراخى هبط إلى أسفلها ورسب وربما تدلى طرف ذنبه في الهواء فإذا أحس ببرد الهواء زج وتحامل في السحاب وغاب عن الأبصار فتبارك الله أحسن الخالقين.

٦ ـ أخبار الحيات

وحدثني أبو الزهر البرختي عن حيات بلاد الهند فقال حدثني رجل طبيب هندي من أهل سرنديب فقال لي هذه الحيات في أرض الهند ثلثة آلاف ومائة وعشرين جنساً. أخبثها جنس في أرض تكاد إذا هبت الريح من جهتهم قتلت من تمر به من جميع الحيوان الطاير والداب والمنساب عن ثلثة فراسخ. ولذلك إن أرض تاكا لا يعمرها الأقوام للرياح إلا أياماً معلومة إن هبت الريح لهم أقاموا أيامها، وإن جاءت هبوب الرياح من جهة أرض تلك الحيات تبادروا وركبوا الدونيج ودخلوا إلى جزائر البحر. فإذا انقضت أيام تلك الرياح تنادوا وعادوا وحرثوا وزرعوا واستخرجوا المعادن. وذلك أن أرض تاكا هي معادن الذهب والفضة. وفي كل عام يأتيهم من داخل البرية الشرقية سيول تحمل إليهم طيباً. وحدثني علامة أن ريحاً عاتية ضربت مركبه فأفرغ من حمولته سوى بني آدم فرمته الرياح إلى بعض المراسي من بلاد البخم. فصعد هو وأصحابه إلى غيضة من تلك الجزائر فيها أخشاب قد مضت عليها الدهور مطروحة، قد وقع بعضها على بعض. فطاف في الغيضة يطلب دقلا لمركبة فوقع اختياره على دقل أملس حسن في نهاية الاستقامة والغلظ، والخشب فوقه مشوش كما قد وقع في طول الأيام. فقدره فوجده زايداً على حاجته فأحضر المنشار ليقطع منه خمسين ذراعاً بمقدار حاجته. فلما وضع المنشار عليه وابتدأ ينشر تحرك وانتساب. وإذا هو حية فتبادروا إلى الماء فألقوا نفوسهم فيه ولحقوا المركب وسلموا منها.

وحدثني محمد بن بابشاد عن علامة هذا أنه سافر من الهند إلى الصين. فبينما هو يسير في بعض البحار فحان وقت صلاة الأولى. فهبط إلى المتوضأ ليجدد الوضوء إلى الصلوة. فنظر إلى البحر فلم يلبث أن قام وعاد ولم يتوضأ وكان كالمذعور. فقال يا رجال سوء أرخوا الشراع ففعلوا فقال اطرحوا كلما على ظهر

المركب في البحر. ثم نزل إلى قريب من الماء ثم طلع مذعوراً، وقال يا تجار أي شيء عندكم أحب لكم أموالكم التي منها ألف عوض أو نفوسكم التي لا عوض لها. فقالوا وأي شيء جرا علينا حتى تقول لنا هذا القول، ريحنا رخو وبحرنا رهو ونحن سالمين في كنف رب العالمين. فقال لهم ليشهد بعضكم على بعض وليشهد لي رجال المركب على هؤلاء التجار إني قد نصحت لهم قبل الكون فلم يقبلوا، وأنا أستودعكم الله تعالى. وقال لصاحب القارب قدمه لي فنزل فيه وانزل معه فيه ماء ورجالاً وزادا. فلما عزم على مفارقتهم قالوا له ارجع ونحن نفعل ما تأمرنا به فقال والله ما أرجع حتى تطرحوا كلما معكم في البحر عن طيب أنفسكم بأيديكم. فرموا بأيديهم ما عز عليهم وهان، ولم يبق في المركب سوى بني آدم وزادهم ومالهم فقط. فرجع وطلع المركب وقال لهم لو علمتم ما يجري لكم وللمركب في جوف هذه الليلة. فتطهروا وصلوا واخلصوا التوبة إلى ربكم وسلوه العفو ففعلوا. فلما كان الليل فتح الله سبحانه أبواب السماء بريح سوداء ملأت ما بين السماء والأرض، ورفعت أمواج البحر إلى السحاب، وحطتها إلى التراب، وطمرت من السفن في البلاد والسواحل وفي وسط البحر، وقل من سلم منها. ومركب القوم قد الهمهم الله أن خففوا وطرحوا ما عليه من ثقل وغيره. وكان كلما جاش البحر عليه خف وعلا على الأمواج وطفا على البحر، وهم يقرأون ويدعون ويبتهلون ولا يأكلون ولا يشربون ثلثة أيام بلياليها. فلما كان اليوم الرابع أمر الله عز وجل الرياح فسكنت والبحار فهدأت، وأذهب الله ذلك كما عرف من عوايد قدرته سبحانه. فطرحوا قارب المركب من جوفه وجعل فيه الربان المجاديف وقدمه بين يدي المركب يبحرونه يوماً وليلة. فأشرفوا على جزيرة قد طرح إليها البحر كلما أفسده ذلك الخب من المراكب والأزياء والبضايع والمتاجر من آفاق البلاد. فأرسوا بمركبهم فيها، ووجدوا عدة مركبهم فيها بعينها، فرفعوها وردوها إلى مواضعها من مركبهم، واختاروا على أعينهم ما أحبوا من البضايع السالمة، ووارو من وجدوه من الغرقاء واستقوا. فلما استوى لهم الاقلاع وهبت بموافقتهم الريح أشرعوا نحو ديارهم وساروا معافين ووصلوا سالمين. فوجدوا فيما معهم من البضائع للدرهم عشرة، وربحوا الغنى والعافية. والحمد لله رب العالمين.

وخبرني شيخ من شيوخ البحر أن قرية كبيرة من أعمال الصنف، انتقل أهلها من أجل حية كانت بالقرب منهم، أكلت مواشيهم وجمعا من أهلها، وأن الحيل أعيتهم فيها. فانتقلوا أهلها عنها وخربت القرية ولم يعد إليها أحد. وخبرني أبو محمد الحسن بن عمرو عن بعض النواخذة أنه كان يسير في مركب فاشتدت عليه الريح وأخذه الخب، فلجأ إلى خور لاح له فدخله فأقام به يومه وليلته. فلما كان من غد اجتازت لهم في البر حية هايلة المنظر عظيمة لا تقاس بشيء لكبرها. ثم نزلت إلى الخور فعبرت إلى الجانب الآخر كأنها البرق لسرعتها. ثم صعدت إلى الناحية الأخرى

فلما كان بعد العصر عادت فعبرت الخور على رفق. فلم نزل على هذا خمسة أيام، تجيء في كل يوم غدوة فتعبر وتعود بعد العصر. فلما كان في اليوم السادس قال الناخذاة للبانانية انزلوا إلى البر وانظروا إلى أين تمضي هذه الحية. فنزلوا بعد انصرافها في السادس إلى البر ومشوا في تلك الأرض نحو ميل، فإذا هم بأجمة وغيضة ومستنقع ماء مملؤ بأنياب الفيلة كباراً وصغارا. فجاءوا بالخبر إلى الربان فنزل معهم في غد ووقف عليه وعادوا إلى المركب ولم يزالوا في نقل الأنياب بعد أن تنصرف الحية وإلى وقت مجيئها، حتى عملوا شيئاً كثيراً يعظم مقداره، ورموا من المركب بمقدار ما حملوا مما لا يسئل عنه ولا قيمة له. وخرجوا من الخور بعد أن أقاموا فيه نحواً من عشرين يوماً. وإذا بتلك الحية كانت تأكل الفيلة وتبقي أنيابهم. وسألت اسمعيلويه الناخداة عن هذا الحديث في سنة تسع وثلثين وثلثمائة وقد كنت سمعت به فحدثني به وقال بلغني وهو صحيح. وفي البحر ألوان الحيات إلا أن فعلها في الماء ضعيف. وأشد الحيات ما كان في الجبال والفيافي والأرض المعطشة والبعد عن المياه. وفي جبال عمان حيات تقتل لوقتها. وفيما بين صحار، وهي قصبة عمان، وبين جبال اليحمد موضع لا يسلكه أحد فيه واد يسمى وادي الحيات، قيل ان فيه حيات مقدارها شبر ودون ذلك، تجمع الواحدة رأسها مع ذنبها وترتفع إلى الفارس فإن نهشت قتلت للوقت، وإن نفخت أعمت وقتلت. فإذا سلك المسافر تلك الطريق تقافزن عليه من كل جهة فلا تخطيه وذلك طول الطريق، فترك سلوكها والسلام.

وحدثني بعض المنصوريين من سلك إلى ماركين وهي مدينة بينهما وبين ساحل بلاد الاومئون فرسخا، وبها لهلوا ملك الهند، ان ببعض جبالها حيات صغاراً رقطاء وغبراء. إذا نظرت الحية إلى إنسان قبل أن ينظر إليها ماتت، وإذا نظرها الإنسان قبل أن تنظره مات، وإذا نظر بعضهما إلى بعض ماتا، وهي أخبث الحيات.

وحدثني محمد بن بابشاد أن بناحية الواقوق عقارب تطير كالعصافير إذا ضربت الإنسان ورم جسمه واعتل وانقشر جلده ومات.

٧ ـ بلاد الزنج

وحدثني اسمعيلويه وجماعة من البحريين انه خرج من عُمان في مركبه يريد قنبله في سنة عشر وثلثمائة، فعصفت الريح وطرحت المركب إلى سفالة الزنج. قال الناخذاة فلما عاينت الموضع علمت أنا قد وقعنا إلى بلاد الزنج الذين يأكلون الناس. فإذا وقفنا في هذا الوضع ايقنا بالهلكة. فتغسلنا وتبنا إلى الله تعالى وصلينا على بعضنا بعضا صلوة الموت، وأحاطت بنا الدوانيج فادخلوا بنا المرساة. فدخلنا وطرحنا الأناجر ونزلنا مع القوم إلى الأرض. فحملونا إلى ملكهم فرأينا غلاماً جميل الوجه من بين الزنج حسن الخلق. فسألنا عن أخبارنا فعرفناه أنا قد قصدنا بلده فقال كذبتم أنتم قصدتم قنبله غيرنا، فحملتكم الريح وطرحتكم في أرضنا. فقلنا

هذا كان وإنما أردنا بقولنا التقرب إليك. فقال حطوا الأمتعة وتسوقوا فلا بأس عليكم. فحللنا الأمتعة وتسوقنا أطيب تسويق ولم يلزمنا ضريبة ولا مؤنة إلا ما أهديناه إليه وأهدى إلينا مثله وأكثر منه. وأقمنا في بلاده شهوراً. فلما حان وقت خروجنا استأذناه فأذن لنا فحملنا الأمتعة، وفرغنا أمورنا. فلما عزمنا على رواح عرفناه ذلك فقام ومشى معنا إلى الساحل مع جماعة من أصحابه وغلمانه، ونزل في الدوانيج، وسار معنا إلى المركب، فصعد هو وسبعة أنفس من وجوه غلمانه. فلما حصلوا في المركب قلت في نفسي هذا الملك يساوي في عمان في النداء ثلاثين دينارا، ويساوي السبعة مائة وستين ديناراً، وعليهم ثياب تساوي عشرين دينارا. قد حصل لنا على الأقل منهم ثلاثة آلاف درهم، ولا يضرنا من هذا شيء. فصحت بالبانية فشالوا الشرع ورفعوا الأناجر وهو مع ذلك يسلم علينا ويؤنسنا ويسألنا الرجوع إليه، ويعدنا بالإحسان متى عدنا إلى بلده. فلما رفعت الشروع ورآنا قد سرنا تغير وجهه، فقال أنتم تسيرون استودعكم. وقام لينزل إلى دوانيجه فقطعنا حبال الدوانيج وقلنا له تقيم معنا فنحملك إلى بلدنا، ونجازيك على إحسانك إلينا، ونكافيك ما فعلت بنا وصنعت. فقال يا قوم لما وقعتم إلي قدرت ثم ان أهلي أرادوا أن يأكلوكم ويأخذوا أموالكم كما قد فعلوا بغيركم، فأحسنت إليكم وما أخذت منكم شيئاً. وجئت معكم لاودعكم في مركبكم إكراماً مني لكم. فاقضوا حقي بأن تردوني إلى بلدي. فلم نفكر في كلامه ولم نعبأ به. واشتد الريح فما مضت ساعة حتى غابت بلدته عن عيوننا وظللنا الليل ودخلنا اللج، وأصبحنا والملك وأصحابه في جملة الرقيق، وهم نحو مائتين رأس. وعاملناه بما نعامل به ساير الرقيق وأمسك فما أعاد علينا كلمة، ولا خطبنا بشيء. تغافل عنا كأنه ما عرفنا ولا عرفناه. ووصلنا إلى عمان فبعناه مع ساير أصحابه في جملة الرقيق، فلما كان في سنة خمس عشرة وثلثمائة خرجنا من عمان نريد قنبله. فحملتنا الريح إلى سفالة الزنج ولم نكذب ان وردنا ذلك البلد بعينه. ونظرونا فخرجوا وأحاطوا بنا الدوانيج وإذا الذي نعرفه في تلك الكرة. فأيقنا على الهلكة حقيقا. ولم يكلم أحد منا صاحبه من شدة الرعب. فاغتسلنا وصلينا صلوة الموت وتوادعنا. فوافونا وأخذونا فساقونا إلى دار الملك وادخلونا وإذا بذلك الملك بعينه جالس على سرير كأنا فارقناه الساعة. فلما رأيناه سجدنا وذهب قوانا ولم يكن بنا حركة للقيام. فقال لنا أنتم أصحابي لا شك فلم يستطع أحد منا يتكلم، وارتعدت فرايصنا. فقال لنا ارفعوا رؤوسكم فقد امنتكم على أنفسكم وأموالكم فمنا من رفع ومنا من لم يستطع يرفع ضعفاً وحياء. فلطف بنا حتى رفعنا رؤوسنا جميعاً ولم ننظر إليه حياء وخوفاً وخجلاً. فلما رجعت إلينا نفوسنا بأمانه قال لنا يا غدارين فعلت لكم وصنعت لكم فكافيتموني بما فعلتم. فقلنا له أقلنا أيها الملك واعف عنا. فقال قد عفوت عنكم فتسوقوا كما كنتم تسوقتم في تلك الكرة فلا اعتراض عليكم. فلم نصدق من السرور فظننا ان

ذلك على طريق المكر حتى تحصل الأمتعة في الساحل فحملنا الأمتعة إلى البر، وحملنا إليه هدية بمال له مقدار فرده علينا فقال ليس مقداركم عندي ان أقبل لكم هدية ولا أحرم مالي بما أخذ منكم، فان أموالكم كلها حرام. فتسوقنا وحان وقت خروجنا فاستأذنا في الحمل فأذن لنا. فلما عزمنا على الرحيل قلت له أيها الملك قد عزمنا على الرحيل فقال أمضوا في حفظ الله تعالى. فقلت له أيها الملك قد عاملتنا بما لا قدرة لنا عليه، غدرناك وظلمناك فكيف خلصت ورجعت إلى بلدك. فقال لما بعتموني بعمان فحملني الذي اشتراني إلى بلد يقال له البصرة، من صفتها كذا وكذا، وتعلمت بها الصلوة والصيام وشيئاً من القرآن. ثم باعني مولاي لآخر حملني إلى بلد ملك العرب الذي هو في بغداد، ووصف لنا بغداد. فتفصحت بتلك البلد وتعلمت القرآن وصليت مع الناس في الجوامع، ورأيت الخليفة الذي يقال له المقتدر. وبقيت ببغداد سنة وبعض أخرى حتى وافى قوم من خرسان على الجمال. فنظرت إلى خلق كثير فسألت عنهم في أي شيء جاءوا فقالوا يخرجون إلى مكة. فقلت ومكة هذه ما هي فقالوا فيها بيت الله الحرام الذي يحج إليه الناس. وحدثوني حديث البيت فقلت في نفسي سبيلي أن اتبع هؤلاء القوم إلى هذا البيت. فعرفت مولاي ما سمعت فرأيته ليس يريد أن يخرج ولا يدعني أخرج. فتغافلت عنه حتى خرج الناس فلما خرجوا تبعتهم وصحبت رفقة كنت أخدمهم طول الطريق، واكل معهم ووهبوا إلي ثوبين، فاحرمت فيهما وعلموني المناسك فسهل الله تعالى إلي الحج. وخفت أن أرجع إلى بغداد فيأخذني سيدي فيقتلني. فخرجت مع قافلة أخرى إلى مصر، فكنت أخدم الناس في الطريق فحملوني واشركوني في زادهم إلى مصر. فلما دخلت مصر ورأيت البحر الحلو الذي يسمونه النيل، فقلت من أين يجيء فقالوا أصله من بلاد الزنج. فقلت من أي ناحية فقالوا من ناحية في مصر تسمى أسوان في تخوم أرض السودان. فلزمت ساحل النيل أدخل بلداً وأخرج من أخرى وأطلب من الناس فيطعموني وكان ذلك دأبي. فوقعت عند قوم من السودان فأنكروني فقيدوني وذهبوا يكلفوني من بين الخدم ما لا أطيق. فهربت ووقعت عند قوم آخرين فأخذوني وباعوني، وهربت فلم أزل كذلك من خروجي حتى وصلت إلى البلاد الفلاني من أطراف بلاد الزنج. فتنكرت وأخفيت نفسي. ولم أخف على نفسي من حين خروجي من مصر، مع ما جرى علي من الأهوال، كخوفي لما قربت من بلادي وقلت إن بلدي قد جلس فيها بعدي ملك استولى على الملك وطاعته الجند، ونزع الملك منه صعب عسر. فإن أنا ظهرت أو علم بي أحد حملت إليه فيقتلني، أو يجسر بعض المتنصحين علي فيأخذ رأسي فيتنصح إليه به. فداخلني من الرعب ما ضقت به ذرعا فكنت أسعى في الليل وأمشي نحو بلدي واختفي في النهار، إلى أن جئت في البحر فركبت مركباً وأنا متنكر إلى بلد كذا. ثم ركبت في البحر إلى بلد كذا. فرماني المركب في الليل إلى ساحل بلدي فاستخبرت

من امرأة عجوز هل ملكهم هذا الذي جلس عادل. فقالت والله يا ولدي ما لنا ملك إلا الله تعالى. وقصت علي قصة الملك وأنا أتعجب كأني لا أعلم بذلك ولا كأني إياه، ثم قالت اتفق أهل المملكة أن لا يملكوا بعده عليهم أحدا حتى يعلموا ما كان من أمره، وييأسوا من حياته. فقد بلغتهم الأخبار من الكهنة أنه بأرض العرب حي سالم. فلما أصبحت مضيت إلى بلدي هذه فدخلتها، واتيت قصري هذا فدخلته، ووجدت أهلي على ما تركتهم، غير أنهم مقيمين على بساط الحزن وأهل دولتي. فاعدت عليهم قصتي فتعجبوا وفرحوا ودخلوا معي فيما دخلت فيه من دين الإسلام. فعدت إلى ملكي قبل مجيئكم بشهر. وأنا اليوم فرح مسرور لما من الله علي به وعلى أهل دولتي من الإسلام والإيمان ومعرفة الصلوة والصيام والحج والحلال والحرام، وبلغت ما لم يبلغه أحد في بلاد الزنج، وعفوت عنكم لأنكم السبب في صلاح ديني. ولكن بقي علي شيء اسئل الله الخروج من اثمه فقلت ما هو أيها الملك. قال مولاي الذي خرجت من بغداد إلى الحج من غير إذنه ورضاه ولم أعد إليه. ولو لقيت ثقة كنت أبعث له ثماني واستحللته. ولو كان فيكم خير ولكم أمانة لدفعت إليكم ثمني تردوه عليه ووهبت له عشرة أضعافه بدلاً من صبره علي. ولكنكم أهل غدر وحيل. فودعناه فقال امضوا فإن رجعتم فهذه المعاملة أعاملكم وازيد في الإحسان إليكم. فعرفوا المسلمين أن يأتونا فانا نحن قد صرنا إخواناً لهم، مسلمون مثلهم وأما تشييعكم إلى المركب فما لي إليه سبيل فودعناه وسرنا.

وقيل إن بلاد الزنج القافة [١٦] الكهنة قافة حداق فهماء. وحدثني اسمعيلويه عن بعض النواخذة أنه قال له دخلت بلاد الزنج في سنة اثنين وثلثين وثلثمائة، فقال لي بعض القافة كم أنتم مركبا. فقلت ستة عشر مركبا فقال يسلم منها إلى عمان خمسة عشر مركبا، وتتكسر واحدة ويسلم منها ثلاثة أنفس، وتمضي عليهم شدة عظيمة، ويتخلصون إلى بلدهم. قال فخرجنا كلنا في يوم واحد، وكنت آخر من خرج منهم فاغذذت السير لالحق من خرج منهم أولاً. فلما كان في اليوم الثالث رأيت من بعد مثل الجزيرة السوداء. فلرغبتي في سرعة السير لم انقص الشراع لأعدل عنها، لأن السير في ذلك البحر شديد جداً. فما كذبت أن وصلت إليها فضربتني، وإذا هي دابة من دواب البحر، فلما لمست المركب ضربته بذنبها فانكسر. فسلمت أنا وابني والكارين[١٧] في الدونيج، ووقعنا إلى بعض جزاير الديبجات فاقمنا بها ستة أشهر إلى أن امكننا الخروج. ووصلنا إلى عمان بعد شدايد عظيمة مرت بنا، وسلمت الخمسة عشر مركباً بأسرها بإذن الله تعالى.

٨ ـ عجائب الطيور

وحدثني الحسن بن عمرو وغيره عن جماعة المشايخ بالهند من أمر طيور الهند الزابج وقمار والصنف وغيرها من نواحي الهند بأمر عظيم. وأكبر ما رأيت من ريش

الطيور قطعة من ريش طاير أسفل ريشه أرانيها أبو العباس السيرافي طولها نحو ذراعين، قدرنا أنها تسع قربة ماء. وحدثني اسمعيلويه الناخوذا أنه رأى أسفل ريشة ببعض بلاد الهند عند رجل من كبار تجارهم كانت إلى جانب داره، يصب فيها كالدن العظيم. فتعجبت من ذلك فقال لي لا تعجب من هذا حدثني بعض نواخذة الزنج أنه رأى عند ملك سرة أصل ريشة يسع خمسة وعشرين قربة ماء.

وحدثني أبو الحسن علي بن شادان السيرافي قال إن بعض أهل شيراز حدثه ان بالقرب من شيراز قرية خربها الطاير. فقلت له كيف خربها. فقال حدثنا إن طايراً سقط في بعض الأيام على سطح دار في القرية فخسف السطح، وسقط إلى أسفل الدار. فصاح من في الدار وهربوا منه. فاجتمع أهل القرية فدخلوا فوجدوا الطير قد ملأ الدار فلم يتمكنوا من أخذه، فاثخنوه بالضرب، وكان ثقيلاً في الأصل فلا يمكنه النهوض. ثم ذبحوه وقطعوه في الدار واقتسموا لحمه، وأخذ كل من كان في القرية من الرجال نحو سبعين رطلاً إلى نحو ذلك. وعزلوا من لحمه نحو مائة رطل لوكيل القرية، وهو نازل في تلك الدار التي وقع فيها الطاير. وكان قد خرج عنها قبل ذلك بيوم مع ثلثة نفر من أهلها، ومضوا في حاجة لصاحب القرية. وطبخ أهل القرية اللحم في بقية يومهم وأكلوه مع عيالهم وصبيانهم فأصبح جميعهم مرضى. ووافى الوكيل فعرف الصورة فتوقى هو ومن كان معه أكل اللحم. فلما مضت أربعة أيام أو خمسة ماتوا حتى لم يبق منهم أحد ممن أكل لحم الطاير إلا مات. وفرغت القرية وخرج الوكيل عنها وخربت. فلم يعد إليها أحد فوقع لنا أن هذا الطاير من طيور الهند أكل حيواناً من ذوات السموم فاشتعل السم في جسمه فحمل نفسه في الجو وسار في ليل فوقع إلى هذه القرية وقد ثخن ولم يبق فيه نهوض فسقط.

وحدثني غير واحد من الربانية أنه سمع ان بسفالة الزنج من الطيور ما يأخذ الوحش بمنقاره أو بمخاليبه ويحمله إلى الهواء ثم يرمي به ليموت وينكسر ثم ينزل عليه فيأكله. ولقد سمعت أن في بلاد الزنج طايراً ينقض على السلحفاة الكبيرة، فيخطفها ويرفعها إلى الجو ويرمي بها إلى الأرض على جبل أو صخرة فتنكسر، فيسقط عليها فيأكلها، فيأكل منها إذا وجد في النهار الخمسة والستة. وإن هذا الطاير إذا رأى الإنسان هرب منه وفر من صورته لبشاعة خلق الناس في تلك الأرض.

وحدثني اسمعيلويه الناخوذا ان بأعلى بلاد الزنج معادن الذهب وهي خوارة [١٨] ـ وأكثر المعادن خوارة ـ وان الرجال يحفرون فيها لطلب الذهب. فربما نقبوا على أرض منحرقة، مثل أرض النمل، فيخرج عليهم نمل مثل السنانير كثير فيأكلونهم ويقطعونهم قطعا. وقد كان أحمد بن هلال، أمير عمان، حمل في سنة ست وثلثمائة في جملة هدية حملها الى المقتدر نملة سوداء في قفص من حديد مشدودة بسلسلة، في قدر السنور. وماتت هذه النملة في الطريق بناحية ذي جبلة، فجعلت في الصبر،

وحملت إلى مدينة السلم صحيحة، ورآها المقتدر وأهل بغداد. وذكروا أنهم كانوا يطعمونها كل يوم منوين شرايح غدوة وعشاء.

٩ ـ أخبار القرود

وحدثني محمد بن بابشاد عن من حدثه ممن دخل الوقواق ان هناك شجراً كبارا له ورق مدور ومنه ما هو إلى الطول يحمل حملاً على مثال القرع إلا أنه أكبر منه، وصورته صورة الناس تحركه الرياح فيخرج منه صوت. وان داخله منفوخ مثل حمل العشر فإذا قطع عن الشجر خرج الريح منه من ساعته وصار مثل الجلد. وان بعض البانانية رأى الحمل فتعشق صورة من الصور فقطعها ليحملها معه فلما قطعها خرج الريح منها فبقيت كالغراب الميت.

وذاكرت محمد بن بابشاد في حديث القردة وما يحكى عنها فحدثني بصفات كثيرة من أحاديثها. فمما حدثني به أن بنواحي صنفين وبوادي لامري وبوادي قاقلة قردة في نهاية الكبر، وان لكل فرقة منها أمير خلقته أعظم من خلق باقيها. وانهم ربما خرجوا من الغياض إلى الطرق والمسالك فتضرب السفارة فتمنعهم السبيل دون أن يعطوهم شيئاً من الحيوان مثل الغنم والبقر وغير ذلك من المأكولات. وذكر محمد ابن بابشاد انه حدثه غير واحد انه اجتاز على قطعة منهم مع جماعة معه فمنعوهم من المشي، فحاربوهم فمزقوا ثيابهم وتواثبوا عليهم من كل مكان وقطعوا قربهم، وهم في مفازات بعيدة عن الماء فأعطوهم شيئاً فتركوهم ولا ماء لهم فمات أكثر القوم عطشاً ولم يصل منهم إلى الماء الثاني إلا القليل.

وحدثني ان رجلاً من بانانية مركب كان له حدثه انه خرج في سنة تسع وثلثمائة في مركب لبعض النواخذة إلى قاقلة. فإنهم وصلوا بالسلامة ونجلوا امتعتهم إلى البر، وحملوا بعض الأمتعة إلى بلد بينه وبين البحر مسيرة سبعة أيام ونحوها. فلما حملوا تلك الأمتعة إلى ذلك البلد رفعوا المركب في خور صغير على ثلثة فراسخ من قاقلة أو أربعة وسدوا بينه وبين البحر وجللوه وأقاموا الخشب حوله وسندوه. قال هذا البانانى وتركوا معي من الزاد حاجتي ومضوا بأسرهم إلى تلك المدينة، فأقاموا في بيعهم وشرايهم. فلما بعدوا عني جاءني عدة من القردة فطافوا حول المركب وراموا الصعد إلي فرميتهم بالحجارة. ولاحقت المركب قردة لها خلق وجثة فطردتها فلم تبرح فسارقتني من بعض جوانب المركب فصعدت إلي. فلما حصلت معي في المركب، وكنت اكل، فطرحت لها كسرة من خبز فأكلته، وأقامت عندي ساعة ثم نزلت فغابت عن عيني إلى العشي ثم وافت وفي فمها قنو صغير فيه نحو من عشرين موزة. فصاحت فتطلعت إليها فصعدت إلى المركب فوضعت الموز بين يدي فأكلت. وأقامت عندي بعد ذلك فكانت تغيب وتجيء بالموز والفاكهة التي في تلك الغوطة. وصارت تبيت معي في المركب وإلى جانبي، فشاقت نفسي إليها فوطيتها. فما مضت ثلثة أشهر في مقامي

في الموضع حتى ثقلت وجعلت تمشي متحاملة، وأومت إلى بطنها. فعلمت انها قد حملت مني، فورد علي من ذلك أمر عظيم، وخفت الفضيحة متى جاء القوم وشاهدوا الأمر. فحملني الحياء إلى أن أخذت دونيج المركب وعملت لها دقلاً وشراعاً وانجرا، وجعلت فيه قرب ماء وزادا، وأخذت ثيابي وما كان معي وحملته فيه. وتعمدت وقتاً تغيب فيه القردة فنزلت إلى الدونيج ودخلت البحر على غرر عظيم وخطر شديد، وتركت المركب ليس معه أحد. فسرت نيفاً وعشرين زاما[١٩] ووقعت إلى جزيرة من جزاير اندمان بعد أن كدت إلى أن اتلف لعظيم ما مر بي من الشدة. فأقمت في تلك الجزيرة أياماً حتى استرحت. وأخذت من ماء عذب كان فيها ملء قربة، ومن ثمار فيها وموز، وأصلحت أمري. ولم أكن رأيت بالجزيرة أحداً إلا الصيادين في قوارب ينزلون بين الشجر. فسرت في البحر لا أدري أين اخذ ولا أهتدي نحو سبعين زاما. فوقعت في جزيرة يقال لها بدفاركله، فاقمت بها إلى أن خرجت منها إلى كله، فخرجت منها فلقيت بعد ذلك بزمان صاحب ذلك المركب، وقوم راكبون فيه. فقلت ما شأنكم فقالوا انهم وردوا الموضع فوجدوا في المركب قردة قد وضعت قرداً أو قردين وجوههم تشبه وجوه بني آدم سواء، وصدورهم لا شعر عليها وأذنابهم فيها قصر عن أذناب القرود، وظنوا أن القردة حملت من ذاك البانائي وأنه هرب في الدونيج. لأنهم ما فقدوا شيئاً غير الدونيج والته. وان بعضهم ظن أن القردة قتلته وإن الدونيج سرقه مجتاز أو صياد ورجموا الظنون ورموا بالقردة وأولادها. قال لي محمد بن بابشاد وكان هذ البانائي الذي حدثني ضعيف البصر جداً فسألته عن ذلك فقال ضعف بصري لما كنت أجامع القردة وزاد في ضعفه طول مكثي في البحر.

وحدثني بعض البحريين ان مركباً كان يمضي إلى صنف من عمان فاصيب، وسلم من أهله نحو عشرة في قارب، فحملتهم الرياح إلى جزيرة مجهولة لا يعرفونها فرموا بنفوسهم على ساحلها وليس لهم حركة لشدة ما لحقهم في البحر من الأهوال والشدايد. فمكثوا هنالك بقية يومهم ثم قاموا فاحتالوا في القارب إلى أن جروه إلى الساحل وباتوا ليلتهم معه. فلما أصبحوا مشوا في الجزيرة فوجدوا فيها ماء عذباً كثيراً وغوطة حسنة وأشجاراً متكاثفة، فيها ثمار شتى وموز كثير وقصب سكر. ولم يروا فيها أنسيا فأكلوا مما اشتهوا من الثمار وشربوا من ذلك الماء. وانصرفوا إلى قاربهم فجروه إلى البر، وسندوه بالخشب، وجمعوا من ورق الموز والشجر فظللوه واحمكوا أمره، وأصلحوا لأنفسهم إلى جانبه موضعاً يسترهم. فلما مضت عليهم خمسة أيام أو ستة فإذا هم بقطعة قرود قد اقبلوا يقدمهم قرد كبير جسيم فوقفوا على القارب، وفزع القوم منهم فصعدوا إلى القارب فلم يعرضوا لهم. وأقاموا رئيسهم بمكانه فجعل يفرقهم يميناً وشمالاً كما ينفذ العامل رجاله. ثم عادوا إليه وجعل بعضهم يومىء إلى بعض كأنهم يتحدثون بشيء، فلما أمسوا انصرفوا. فورد على القوم

من هذا أمـر عظيم وخـافـوا على نفـوسـهم أن تقـتلهم القـردة، وجـعلوا يفكرون في الخـلاص ليلهم، وهم بسوء حال، لا زاد معهم ولا يعرفون الطريق ولا يهتدون لحيلة. فلمـا أصبـحوا جاءتهم قـردة فطافت بهم ثم مضت، ثم عادت ومعـها قـردة أخرى فـأومت إليـهـا بشيء. قـال هذا الرجل فـحـدثت عن واحد من القوم انه قال فـتبـعت القـرود إلى أن دخلوا الغوطة، ثم خفت على نفسي فرجعت بعد مدة مضت من النهار إلى أصحـابي. فسألوني فاخبـرتهم. فلما كان من غد عاودت القرود على تلك الصورة الأولى، وجلس رئيسهم مع القـارب ونفذهم في حوايجه على الرسم. فلما مضت ساعة من النهار جاء قردان مع كل واحد منهما قطع ذهب في نهاية الجودة فطرحوها بين يديه ثم عـادوا بأجـمـعـهم. فـأومـأ بـعـضـهم إلى بعض فـانصـرفـوا. ونزلنا إلى الأرض فـاخذنا الذهب فـإذا هو مثل العـروق الغلاظ في نـهاية الجـودة. فورد علينا من السـرور بذلك ما نسينا معه بعض مـا نحن فيه. فلمـا أصبح جاءت قـردة طافت بنا ثم مضت، فـمضيت خلفـهـا إلى أن امعنت فـي الغوطة، وخـرجت من الغوطة إلى صـحـراء أرضـهـا رملة سوداء. فحفرت القردة بين يدي ووقفت. فجلست فحفرت في الموضع فوجدت عـروق الذهب متشبكة. فلم أزل أقلع إلى أن أدميت أصـابعي وجمعت مـا قلعته وحملته ورجعت، فضللت عن الطريق لاشتباك الشجر. فتعلقت ببعض ذلك الشجر وبت ليلتي. فلما أصبحت وإذا بالقردة وقد وافت على الرسم فتركتها حتى مضت، ثم تبعتها إلى أن رأيت البـحـر، وتعلقت بشـجرة من الشـجـر، فـأقمت عليـهـا إلى الليل. فلمـا انصـرفت القرود نزلت فوافيت أصحابي فتلقـوني وهم يبكون، وقالوا انا لم نشك انك قد تلفت. فحدثتهم بالصورة وطرحت الذهب بين أيديهم فتجدد لنا هم وغم لأنا لما استغنينا لم نجد سبيـلاً إلى حمل ذلك، ولا طريقاً ولا معنا ما نحـمله فيـه. لأنا متى مـا حملناه في القـارب لم نأمن الغـرق لصغره. وإذا حملناه لم نهتد الطريق. ثم اجمع رأينا على أن نمضي إلى تلك الصـحـراء، ونقلع الذهب ونحـمله إلى نحـو قـاربنا، ونتوكل على الله عز وجل. فكنا نمضي في كل غدوة من الغدوات التي لم يجر للقـرود أن يجونا فيـهـا، فنقلع الذهب ونحـمله. وحفرنا عند القـارب ودفنا الذهب. ولم نزل نقلع الذهب وننقله مدة سنة إلى أن حصل لنا شيء عظيم، لا يعرف مقداره. والقـرود مع ذلك تجيء يوماً ويوماً لا تجيء ونأكل من ثمار تلك الجـزيرة ونشـرب من ذلك الماء. فبينمـا نحن على حالنا تلك إذ مـر بنا مركب مـاضي إلى عمـان أو إلى سيـراف، قـد اسقطـه الريح وركبه البـحـر، فـرمـى كل مـا في جوفه، ومـات أكـثـر رجـاله غـرقاً وشـرقاً من شـدة مـا ركبـهم البـحـر. فلما رأوا الجـزيرة وارادوا الانحـيـاز إليـهم فلم يقـدروا فبـقـوا متمـاسكين. فلمـا أحـدوا النظر إلى البـر رأونـا ورأوا الدونيج فـوق البـحـر فـتطارح لنا رجـلان من رجـاله بحـبـل. ولم يزالوا يعـانون فلمـا رأيناهم أخـذنا حـبـالنـا وتطارحنا إليـهم في البـحـر، فالتقيناهـم وربطنا حبـالنا مع حبـالهم. فلما صـارت الحبـال في البر استوثق بهـا حتى

مضى إلى المركب منا إثنان. فاشرفوا على المركب فإذا بالبانانية والربان وبعض التجار قد اشرفوا على الموت من شدة الهول، وقد كلوا مما يمتحوا الماء، وهم حينئذ في وسط اللجة. فقالوا لأصحابنا اجذبونا إلى البر وخذوا ما بقي معنا من البضائع والمتاجر. وقال الربان يا إخواننا اجذبونا الى البر وخذوا المركب لكم ملكا. فقال أصحابنا مانفعل شيئاً من ذلك، بل نجذبكم إلى البر، ولنا نصف هذا المركب ملكا. قالوا حباً وكرامة وتعاقدوا على ذلك. وشهد بعضهم على بعض. ثم قال لهم أصحابنا ولنا عليكم شرط قالوا وما هو قالوا نشحن نصف هذا المركب لنا بملكنا، لا يشاركنا فيه أحد، لا يعترضنا فيه أحد. قالوا لكم ذلك. قال أصحابنا ونوسقه وسق المتعارف لا يحيف عليه فيغرق. قال أصحاب المركب هذا شيء قد جربناه وما تخلصنا منه إلى الآن، فنناشدكم الله الا ما خلصتم حشاشنا من هذا الهول الذي نحن فيه. فتطارح أصحابنا إلى البر وجاءت القرود فلما رأونا نجذب حبل المركب جذبوا معنا فجاءت المركب في أسرع وقت. فتطارحت رجال المركب إلى البر شوقاً إليها لما جرى عليهم. فلما أصبحنا عرفناهم موضع الثمار فأكلوا وشربوا ورجعت لهم نفوسهم. فجاءت القرود من الغد بالذهب على الرسم فاثرناهم به على نفوسنا لأنا اكتفينا منه. وقدمنا المركب فاوسقنا وشحنا نصف المركب ذهباً واوسق الربان النصف الثاني له ولتجاره ذهبا. وتزودنا مما في الجزيرة وواتت الرياح وأسرينا فدخلنا بلد الهند، ونقل كل واحد منا نايبه إلى موضعه. فكان الذي وقع لكل رجل منا ألف ألف مثقال ومائة وأربعة وأربعون ألف مثقال. فلم نعد نركب بحراً إلى هلم. وهذا من أغرب ما سمعناه من نوادر القردة.

وحدثني من رأى قرداً في منزل بعض التجار يخدمه، يكنس منزله، ويفتح الباب لمن دخل، ويغلقه خلفه، ويقد النار تحت القدر وينفخ فيه حتى يقد، ويطاعمه الحطب وينش الذبان على المائدة ويروح على مولاه بالمروحة.

وحدثت انه كان بظفار من مداين اليمن حداد عنه قرد ينفخ على الكور طول نهاره، أقام عنده كذلك نحو خمس سنين وترددت إلى البلد سفرات وأنا أبصره عنده.

وحدثت أن قرداً كان في منزل رجل ببعض بلاد اليمن وان الرجل اشترى لحماً وجاء به إلى منزله فأومأ إلى القرد أن احفظ اللحم. فجاءت حدأة فنشلت اللحم فبقي القرد متحيراً وكان في الدار شجرة فصعد إلى رأسها ورفع أسته إلى السماء ودلى رأسه إلى أسفل، وجعل يديه إلى جانبي أسته فظن الحدأة ان استه من جملة اللحم الذي اختطفه. فانقض الطاير عليه فضربه فتلقاه القرد بيديه فقبضه، وأنزله إلى الدار فوضعه تحت الجفنة، وغطاه بشيء ثقيل. فجاء صاحب المنزل فلم يجد اللحم فقام إلى القرد ليضربه، فقام القرد إلى الجفنة وأخرج الحدأة. فعلم الرجل وفطن لما جرى وأخذ الحدأة فنتف ريشها وصلبها على الشجرة.

وللقرود أحاديث ظريفة. حدث عن رجل من أهل أصبهان شيخ كثير الأسفار انه سار إلى بغداد وكان معه رفقه كثيرة فيهم شاب كأنه بغل من الشباب والقوة. وكان الشيخ يسهر على الأمتعة ولا ينام إلا إذا سار الناس على جمله. فبينما هو ساهر كالعادة إذ نظر إلى الشاب قد سرى إلى واحد جمال. فلما جلس الشاب بظهره ليجتمع به استيقظ له الجمال، وأحنى عليه فداسه دوس الأديم، فلم يعد الشاب إلى مكانه إلا وقد سكر من اللكم واللطم. فأقام الشاب بمقدار ما تراجعت إليه نفسه ثم أخذ الجمال النوم ثم عاد إليه. فاستيقظ له فاحنى عليه فداسه أشد من الأولى فعاد الشاب ولا حركة فيه. ثم استجم وعاد إلى الجمال الثالثة ففعل الجمال به في الثالثة ما عاد منه وهو يسحب نفسه على الأرض يميناً وشمالاً. وقال له الجمال والله إن عدت لافقرن بطنك. فلما رأيت ذلك مراراً وسمعت قول الجمال عذرته، وشفقت على مثل ذلك الشاب أن يقتل. فدعوت الشاب إلي بعد أن تراجعت إليه نفسه وقلت له يا ولدي ما حملك على ما رأيت منك في هذه الليلة، ولقد سلمت من هذا الجمال، فاحذر أن يقتلك واصبر. فقال يا عم والله إن لي ليال لا أستطيع الغمض من شدة الشبق والنار، وكلما هاج بي الأمر يهون علي ما يفعل بي لشدة ما أنا أقاسي. فقلت يا ولدي بقي بيننا وبين مدينة السلام مرحلتين، وندخل إلى بلد نجد فيها ما يسكن هيجانك. فلم أزل أهديه وأشفق عليه بقية تلك المسافة. فلما وصلنا إلى بغداد اخذني عليه خوف كثير وقلت في نفسي هذا غريب وشاب وما دخل بغداد قبلها ربما يرى أحداً من دور الخليفة والوزراء فيتهاجم عليه كما فعل مع الجمال فيهلك. فلزمته وأخذت منزلاً وضممته إلي ولم يكن لي شغل بعد إن حصل متاعنا في حرز، إلا أني أخذته ومضيت به إلى الدلالة انظر له امرأة تسكن غمته. فما هو إلا أن عبرت به من بعض الأزقة، وإذا به وقف وقال لي يا عم قد رأيت الساعة في تلك الطاق وجها كالشمس ولا بد لي منه فدافعته عن ذلك. فقعد على الأرض وقال هنا أموت. فقلت في نفسي قد حفظته في البرية أتركه هنا وبغداد دار البلايا. فلما لم أجد منه موافقة نظرت في الحارة فإذا دار تنذر ان أصحابها صعاليك. فقرعت الباب فكلمتني عجوز فاستخبرت عن الدار التي نظر الشاب المرأة فيها. فقالت هذه دار الوزير فلان والتي بصرها الشاب زوجة الوزير. فقلت للشاب يا ولدي ارجع عن هذا الرأي وامض معي أعرض عليك بنات بغداد، فإنك ستجد أحسن مما رأيت. فقال والله لا برحت إلى أن أصل إلى هذه أو أقتل. فقالت العجوز للشاب ان أوصلتك يا شاب ما يكون لي عليك. فبادر الشاب وحل كيساً كان على وسطه وعد لها منه عشرة دنانير. ففرحت العجوز والتحفت وخرجت، فدقت باب الوزير ففتح لها الأستاذ فدخلت ثم خرجت فقالت له قد قضيت حاجتك بعد الشروط. قال وما الشروط. قالت خمسون مثقالاً لها وخمسة لمقامها[٢٠] وخمسة لاستاذ الدار. فانقدها ستين مثقالاً. فدخلت ثم خرجت فقالت

امض أدخل الحمام وغير هذه الحالة فإذا كان بين صلاتي المغرب والعشاء قف عند بابي هذا حتى يؤذن لك. فدخل الشاب الحمام وأصلح شأنه ووقف عند باب العجوز في الوقت فخرج الأستاذ فأذن له فدخل إلى مجلس قد كمل من كل شيء تكمل به المجالس. فقدم له طعام حسن فأكل ثم الشراب فشرب فلما انتهى مجلس الشراب قام وقامت إلى السرير فلما تجردا من ثيابهم وإذا بقرد قد خرج من وراء ستر فضرب الشاب بأظافره فجرحه في أفخاذه ومخاصيه، وسالت دماه من كل مكان. فأعاد ثيابه عليه واثقله السكر فنام في ثيابه فلما أصبح نبهه الأستاذ وقال له قم فاخرج قبل أن تتراءى الوجوه. فخرج حزيناً كئيباً. ولما أصبح الشيخ قال امضي إلى الشاب فانظر ما صنع لعله نال مناه وحسنت عقباه. فلما جاءه الشيخ، وجده جالساً عند باب العجوز ورأسه في طوقه. فسأله عن أخباره فاعلمه بقضيته. فاستدعى العجوز وأعلمها القضية فدخلت على المرأة وسألتها عن السبب في ذلك فقالت اعلم ان نحن نسينا قرطاس قرد صاحب الدار ورسمه، وهو قرطاس حلوى فيه رطل. ولكن ان أحب المعاودة فنحن نأخذ منه الليلة شطر ما أخذناه البارحة. فأعطاها ثلاثين دينارا. فقيل له إذا اتيت الليلة في الوقت المعلوم احمل معك قرطاساً فيه رطل من الحلوا لقرد صاحب الدار. فأخذ معه قراطيس فأذن له فدخل وقدم الطعام فأكل، والشراب فشرب. فلما انحرف إلى المرأة وثب القرد إليه فرمى له بقرطاس فأخذه القرد ورجع إلى مكانه فقضى الشاب حاجته. ثم أراد الشاب المعاودة فخرج له القرد فرمى له بقرطاس ثان فرجع إلى مكانه. وكذلك دفع له عدة دفوع فلما تعب الشاب واثقله السكر خرج إليه القرد وانبهه، وصار القرد يقبض على الشاب ويجذبه إلى المرأة، ويجعل القرد أصبع نفسه في كف نفسه. المعنى في هذا الحديث ان مصانعة الخدم تقضي الحوايج على رغم أنف الموالي، أعني القرد وهو يقول للشاب بالإشارة اعمل كذا، فلم يدع الشاب ينام مما يحثه على الفعل بالمرأة إلى الصباح. فخرج الشاب ومضى لسبيله.

١٠ ـ عبهرة الربان

ومن أحاديث البحريين والنواخذة ما يحكى عن عبهرة الربان وأصله من كرمان وكان ببعض قراها يرعى الغنم ثم صار صياداً ثم صار أحد بانانية مركب يختلف إلى الهند ثم تحول إلى مركب صيني ثم صار بعد ذلك ربانا. وله في البحر طرايف وسافر إلى الصين سبع مزار ولم يكن سلك قبله إلى الصين إلا من غرر. ولم يسمع أن أحداً سلكه وسلم وعاد قط. فإن سلم في المضي فهو عجب فلا يكاد يسلم في العودة. وما سمعت أن أحداً سلم في الذهاب والمجيء سواه. فإنه جلس في مطياله وأخذ معه قربة ماء فمكث في البحر أياماً. فحكي عن شهرياري الربان وكان أحد ربانية الصين انه قال كنت أمضي من سيراف إلى الصين، فلما صرت بين الصنف

والصين بالقرب من صندل فولات - وهو رأس بحر صنجي وهو بحر الصين - ووقفت الريح فلم تتحرك وسكن البحر وطرحنا الأناجر وأقمنا بمكاننا يومين. فلما كان في اليوم الثالث رأينا بالبعد شيئاً في البحر. فطرحت الدونيج إلى البحر وانفذت فيه أربعة من البانانية وقلت اقصدوا ذلك السواد فانظروا ما هو، فمضوا وعادوا. فقلنا ما ذلك الشيء فقالوا عبهرة الربان على مطياله ومعه قربة ماء. قلت لهم فلم لم تحملوه فقالوا قد اجتهدنا به فقال لا أصعد إلى المركب إلا بشرط أن أكون الربان فادبر المركب وآخذ أجرتي عن قيمة ألف دينار متاعاً بشرى سيراف، وإلا لم أصعد. فلما سمعنا هذا الكلام تعلقت نفوسنا بقوله ونزلت وجماعة من المركب إليه وهو في البحر ترفعه الأمواج وتضعه فسلمنا عليه وتضرعنا إليه في الصعود. فقال حالكم أقبح من حالي وأنا إلى السلامة أقرب منكم. فإن دفعتم لي بقيمة ألف دينار متاعاً بشرى سيراف ورددتم إلي أمر المركب صعدت. فقلنا هذا مركب فيه أمتعة وأموال عظيمة وخلق من الناس ولا يضرنا أن نعرف ما عند عبهرة من الرأي بألف دينار. وصعد والدونيج والقربة معه إلى المركب فلما حصل فيه قال سلموني متاعاً بألف دينار فسلمناه إليه. فلما أحرزه قال للربان اجلس إلى ناحية فتباعد ذلك عن موضعه. وقال ينبغي أن تجدوا في أمركم ما دام عليكم مهلة. فقلنا فيما ذا قال ارموا الثقل كله إلى البحر. فرمينا نحواً من نصف حمولة المركب أو أكثر. ثم قال اقطعوا الدقل الأكبر فقطعناه، ورمينا به إلى البحر. فلما أصبح قال ارفعوا الأناجر واتركوا المركب يسير لنفسه، ففعلنا. فقال اقطعوا الانجر الكبير فقطعناه وبقي في البحر. ثم قال ارموا بالأنجر الفلاني فلم يزل كذلك حتى رمينا في البحر ست أناجر. فلما كان في اليوم الثالث ارتفعت سحابة مثل المنارة ثم تفرقت في البحر، وأخذنا الخب فلولا انا كنا قد رمينا بالحمولة وقطعنا الدقل لكنا قد غرقنا من أول موجة أخذتنا. ولم يزل الخب ثلثة أيام بلياليها والمركب يصعد وينزل بغير أنجر ولا شراع لا ندري كيف نمضي. فلما كان في اليوم الرابع أخذت الريح في السكون وتم سكونها وصلاح أمر البحر في آخر النهار. وأصبحنا في اليوم الخامس والبحر طيب والريح مستقيمة فاصلحنا دقلاً ورفعنا الشرع وسرنا وسلم الله. ووردنا الصين وأقمنا إلى أن بعنا واشترينا وأصلحنا المركب ودقلا بدل الدقل الذي رمينا به في البحر. وخرجنا من الصين نريد سيراف، وقاربنا الموضع الذي قدرنا أنا رأينا فيه عبهرة اجتزنا بجزيرة وجبال فقال عبهرة اطرحوا الأناجر، ففعلنا ثم طرحنا القارب إلى البحر ونزل فيه خمسة عشر رجلاً. وقال لهم امضوا إلى تلك الموضع واومأ إلى بعض الجبال فهاتوا الأنجر الفلاني. فعجبنا من ذلك ولم نخالفه فمضوا وعادوا وهو معهم. ثم قال امضوا إلى ذاك الجبل الآخر واومأ إليه فهاتوا الأنجر الفلاني فمضوا وعادوا والأنجر معهم. ثم ارفعوا الشرع فرفعنا وسرنا فقلنا له كيف عرفت أمر هذه الأناجر. فقال نعم لقيتكم في

هذا الموضع في رأس الثلثين، وهو مد الماء، وقد نقص الماء صدراً صالحاً وكنتم في وسط الجبال والجزيرة. فأمرتكم بطرح الثقل من الأمتعة ففعلتم. ثم فكرت في أمر الأناجر فإذا حاجتنا إليها في الصين غير ماسة ولم يبق في المركب من الأمتعة إلا ما قيمة وزن الأناجر منه أضعاف قيمة الأناجر، فرميت بها كذلك، لأنه لم يكن بد من تخفيف المركب، فحصلت هذه الأناجر الثلثة فوق الجبل، والجزيرة ظاهرة وحصلت الثلاثة تحت الماء. قلنا له كيف استدليت على هذا النقصان والخب. فقال نعم قد جرب هذا البحر قبلي وجربته، فوجدنا في رأس كل ثلاثين ينقص نقصاً عظيماً حتى تنكشف هذه الجبال، ويكون في وقت هذا النقصان خب عظيم أصله في قعر البحر. فانكسر المركب الذي كنت فيه على رأس جبل من هذه الجبال لأن النقصان لحقني وأنا أسير عليه ليلاً، وسلمت في ذلك المطيال. ولو بقيتم في موضعكم لما بقيتم في البحر أكثر من ساعة لم ينجح مركبكم قبل الخب لأنكم كنتم على الجزيرة ان جنحتم عليها انكسرتم. وعبهرة هذا له طرايق وأخبار في البحر وهذا الخبر من أطرف أخباره.

١١ ـ قصص البحارة

وقد كان محمد بن بابشاد حدثني انه كان يمضي في مركبه من فنصور يريد عمان. فلما قطع بحر هركند ودخل في بحر الهند وعزم على أن يعبر إلى بلاد الغرب قال له ربان مركبه أي مرسا تعلق من مراسي الغرب قال اعلق ريسوت أو فوقها بفرسخ أو دونها بفرسخ. فقال له الربان نحن نعلق المرسا الفلاني دون ريسوت بخمسين فرسخاً. فتخاطروا[٢١] عشرين ديناراً يتصدقون بها، وبين الموضع الذي هم فيه وبين ريسوت على الأقل أربع مائة فرسخ. فساروا خمسة عشر يوماً إلى أن قدروا أنهم قد قاربوا جبال الغرب، وأخذوا يتكلمون فيما كانوا تخاطروا فيه إلى الليل، وساروا إلى غد ذلك اليوم فلما أصبحوا صعدوا بالديدبان[٢٢] إلى رأس الدقل، فلم ير شيئاً. فنزلوا فلما صلوا العصر قال محمد بن بابشاد أرى آثار الجبال فقالوا ما نرى شيئاً فقال للديدبان اصعد فلما صعد الديدبان واستقر على رأس الدقل صاح رحم الله من كبر فكبروا واستبشروا وبكوا من شدة الفرح والسرور. وساروا طول ليلتهم إلى قرب السحر. فلما كاد الفجر أن يطلع قال محمد بن بابشاد اطرحوا الانجر فطرحوه وحطوا الشراع. وقال للربان أين نحن فقال في موضع كذا وذكر موضعاً بينه وبين ريسوت أربعون فرسخاً. فقال له محمد بن بابشاد نحن على ريسوت سواء اما أن تكون بين أيدينا برمية سهم أو بحذاء المركب أو دوننا برمية سهم. فاصبحوا وهم على ريسوت سواء. وقال محمد بن بابشاد إذا كنت في البحر واحببت أن تعرف هل أنت بقرب أرض أو جبل فانظر بعد العصر إذا انحطت الشمس، فإنها إذا انحطت وكان في وجهها جبل أو جزيرة تبينت.

وقال لي بعض البحريين إن بين خانفو، وهي قصبة الصين الأصغر، وبين خمدان، وهي قصبة الصين الأكبر وهو أجل الصينين، وبها بغبور الأكبر، نهر يجري جرياناً شديداً بماء عذب، وعرضه أكبر من عرض دجلة البصرة، وفي مواضع منه جبال المغناطيس. وانه لا مسير في ذلك النهر بمركب فيه حديد لئلا تجذبه الجبال المذكورة لقوتها. وإن الفرسان الذين يسلكون تلك الجبال لا ينعلون دوابهم ولا يكون في سروجهم حديد وركبهم ولجم خيلهم خشب.

وحدثني بعض الربانية يقال له عمران الأعرج أنه خرج من عمان في مركب مع عدة مراكب إلى جدة في سنة خمس وعشرين وثلثمائة، فوقع علينا في بعض الأيام ريح عظيم. فرمينا بعض الحمولة، وتخلف بعض المراكب، وأصيب البعض، وسرنا فلما صرنا بين كمران و.... وقع بنا خب عظيم وريح عظيم هايل مختلف، فقطعت الأناجر، ولم يضبط المراسي، وحملتنا الرياح. وكان معنا عدة مراكب من عدن وغلافقة وعثر، ومنها جلبة[٢٣] جديدة حسنة من غلافقة. فرأيتها وقد طرحتها الريح والأمواج على جبل في البحر، ونزلت الأمواج عنها فانقلبت. فعهدي بالأمتعة والناس يتساقطون إلى البحر من فوق الجبل وغرقت فما سلم منها أحد.

ومن طريف أخبار البحريين ما هو مشهور معروف ما حدثني به عن مردانشاه أحد نواخذة بلاد الفلفل وغيرها، وعاش سبعين سنة ولا ولد له. ثم ولد له ولد فسماه المرزبان. فاشتدت محبته له وسروره فكان يحمله معه في المركب مع والدته. فإنه في بعض الأيام يسير في بحر لاريان يريد كولم، إذا التمس من والدة المرزبان وهي في البلنج[٢٤] ابنه. فدفعته إليه فلم يزل يرقصه ويقبله إلى وقت المغرب. ثم اشتدت الريح واندق دقل القنو فدهش، وأراد أن يدفع الصبي إلى أمه فسقط من يده في البحر. واشتدت الريح واشتغل بأمر المركب إلى صلوة الغداة. فلما أسفر الصبح سكن البحر واستوى أمر المركب وجلس. فقال لأم الصبي ناوليني المرزبان فقالت هو معك منذ أول الليل. فنتف لحيته ودق رأسه بالخشب، وشاش المركب. فقال صاحب السكان اعلم ان السكان ثقيل على يدي من أول الليل فانظروا فيه، فنظروا في سورة السكان مثل مسمار ليس يبرح. فهبط رجل واصعد الصبي فإذا هو صحيح لم يصبه شيء. فدفعه إلى أمه فسقته لبنا فشرب وله من العمر خمسة عشر شهراً. فقال لي اسمعيلويه رأيت المرزبان هذا وقت نيف على السبعين سنة، وقد تقدم إلى قاضي عمان في يوم واحد ثلثة عشر كرة يحلف الناس على أموالهم إيماناً كلها كاذبة. وحدثني خلق من الناس انه لم يكن في ربانية البحر أظلم من المرزبان هذا، وانه كان يعامل التجار في مركبه ما يعامل به أصحاب الشروط.

وحدثني جماعة من البحرين بأمر سعيد الفقير العدني وكيف كان سبب غنى أولاده، واجمعوا كلهم على ما أصفه. ذكروا ان سعيد الفقير كان رجلاً صالحاً من أهل

عدن يسفر أي يضفر القفاف والخوص، ويلزم مسجداً يصلي فيه ساير الصلوات. وكان له ثلثة بنين يعيشون في معاش قريباً من معاشه. وان بعض البحريين جهزوا مركباً إلى كله، وكان صديقاً لسعيد. فلما عزم على المسير وقال له اسألك أن تسألني حاجة. فاشترى بنصف درهم جرة خضراء، وبدانق ملحاً جريشاً، وجعله فيها وطبها ودفعه إليه، وقال له هذه بضاعتي. قال له فما اشتر لك، قال اشتر لي بركة كما تقول الناس. وخطف المركب ووصل إلى كله ونجل وباع ما فيه، وانسي صاحب المركب الجرة. فبينما هو ذات يوم في سوق كله، وقد قارب الخروج منها وحمل المركب، إذ رأى رجلاً يجر سمكة في حبل وينادي: من يشتري بركة. فلما سمع ذلك ذكر جرة سعيد الفقير، فدعا صاحب السمكة وسأله عنها فقال هذا جنس من السمك يسميه الصيادون بركة. فقال في نفسه لعل الرجل أراد هذه السمكة بعينها فاشتراها، على أن يعطيه بالثمن وزن اوقيتين ملح. وأجلسه وارسل بعض أصحابه إلى المراكب فجاء بالجرة كهيأتها، وأعطى الرجل من الملح ما وافقه عليه، وأمر بحمل السمكة إلى المنزل الذي يسكنه، ووضعت السمكة لتملح ببقية الملح. وهم يخرجون ما في جوفها إذ وجدوا عدة صلبة فشقوها فوجدوا فيها صدفة فيها درة. فقال الرجل هذا رزق ساقه الله إلى سعيد، وملح السمكة ببقية الملح ورفع الدرة. وساروا من كله وسلموا إلى عدن، ورفع الرجل الدرة إلى سعيد. فعاش بعد حصولها في يده مدة يسيرة، ثم مات. فأخذها ابنه الأصغر وخرج إلى سر من رأى إلى الخليفة وهو يومئذ المعتمد، فباعها عليه بمائة ألف درهم. وكان قيمتها أضعاف ذلك. وقد قيل إن بعض ملوك الهند صور محمد بن بابشاد لحالته في النواخذة ومضي اسمه في البحر. ومن رسمهم ان يصوروا كل من له نباهة وقدر ومحل من ساير أصناف الناس.

وان بعض السيرافيين ممن سافر البحار حدثه انه ركب في بعض المراكب من سيراف إلى كله فأصيب في اللج، وتخلص على خشبة. فمكث نيفا وعشرين يوماً في البحر ووقع إلى جزيرة كثيرة الشجر والفواكه والموز. فصعد وأقام بها يأكل من فواكهها، ويشرب من ماء عذب فيها، ثم ضاق صدره فمشى على وجهه أياماً، حتى وقع في أرض عامرة فيها زرع ذرة وارز وغير ذلك. وانه رأى كوخة فقصد نحوها، فوجد فيها حباً للماء فارغاً. فنام في الكوخة ليستريح، فإذا هو برجل يسوق ثورين عليهما إثنا عشر قربة مملوءة ماء، فصبها بأسرها في ذلك الحب حتى امتلأ. وجلس الرجل يستريح فقام الرجل (الأول) يشرب من الماء، وتأمل الحب فوجده أملس حسن الصقال لا يشبه الخزف ولا الزجاج. فسأل الرجل عنه فقال هذا أصل ريشة طاير فلم يصدق الرجل حتى قام فمسح الحب من داخل وخارج فوجده يشف، ووجد في جنبيه اثار أسافل ريشة، وان ذلك الرجل حدثه ان في الطيور ما ريشه أكبر من هذا بكثير.

ومما أجمع عليه جماعة البحريين ولم (نجد) أحدهم ينكرون شيئاً منه وهو ان بعض المراكب الخارجة إلى الصين أصيب في اللج، وسلم منه ستة أنفس أو سبعة على الشراع، ومكثوا أياماً في البحر. ثم وقعوا إلى الجزيرة وأقاموا بها شهوراً حتى كادت نفوسهم تتلف من ضيق الصدر. وإنهم في بعض الأيام يتحدثون على ساحل البحر إذ سقط طاير في قد الثور أو نحوه فقالوا قد ضاقت صدورنا من الحيوة فقوموا بنا نجتمع على هذا الطير فنصرعه ونذبحه ونشويه ونأكل من لحمه، فاما أن يعطف فيقتلنا بمخاليبه ومنقاره واما أن نظفر به فنأكله. فقاموا إليه وتعلق بعضهم برجليه وبعضهم بعنقه وبعضهم يضرب ساقه بالخشب، وجاهدوا حتى صرعوه. فعمدوا إلى حجارة فضربوا بعضها ببعض حتى تكسرت وصارت كالسكاكين وذبحوه، ونتفوا ريشه واوقدوا ناراً عظيمة، وطرحوه فيها وقلبوه حتى استوى. ثم جلسوا فأكلوا منه حتى شبعوا وأكلوا منه بالعشي فلما كان في اليوم الثالث وأصبحوا قاموا إلى البحر ليتطهروا للصلوة، فجعلوا لا يمسون شيئاً من أبدانهم إلا تساقط الشعر عنه، حتى لم يبق على واحد منهم شعرة واحدة في ساير جسده، وصاروا مرداً جردا. وقد كان فيهم ثلثة شيوخ فورد عليهم ما حيرهم وقالوا كان لحمه مسموماً وقد تساقط الشعر واليوم نتلف كلنا ونستريح. فأمسوا وهم في عافية وأصبحوا وهم كذلك فلما مضت عليهم خمسة أيام ابتدت شعورهم وخرجت. ولما مضى عليهم شهر كمل الشعر في نهاية السواد والبريق ولم تبيض بعد ذلك. فمكثوا شهراً أو نحوه حتى اجتاز بهم مركب فلوحوا إليه فجاء إليهم فحملوا وسلموا وتفرقوا في البلاد وحدثوا بحديثهم. وكان بعضهم يعرف وهو شيخ فلا يصدقه حتى يعطيهم العلامات التي لا يعرفها سواه وعاشوا بقية أعمارهم وشعرهم مسودة.

وحدثني بعض الربانية أنه رأى في لجة سمرقند ـ وهو البحر الذي يلي هركند ويقال إن مصب ماء نهر سمرقند في هذا البحر وإنه سمى سمرقند لذلك ـ خلقاً كثيراً من الفال وهو أكبر سمك في البحر. وإنه رأى سمكة منه قدر أن طولها نحو مائتي ذراع، وارتفاعها مائة ذراع. وانهم رأوها من بعد، وقد رفعت اجنحتها، فظنوها شرع مراكب، إلى أن حاذوها. وان على ظهر هذا السمك مثل حجارة الأرحية مما قد تراكب عليه طول السنين من الحشور والطين فاستحجر، وصار لا يعمل فيه الحديد ولا غيره. وإنه يسير في البحر يمنة ويسرة ووراءه وبين يديه فراسخ سمك لا يفارقونه. والذكر والأنثى منه على ما قيل يحمل البيض فيعظم في بطونها إلا أن الذي يحمله الذكر لا يكون منه شيء والذي تحمله الأنثى يكون منه الأولاد.

ومن عجيب أمر البحر أن طايراً بناحية مايط، وهي جزيرة في البحر بالقرب من الصنف وسريرة، قيل إنه يجمع عشاً غل الماء في خور من تلك الأخورة، وتبيض عليه، وتحضن البيض أربعين يوماً. فإذا كان بعد أربعين يوماً رمى البيض في الماء

وجلس على الساحل بازايه لا يبرح عشرين يوماً يأكل السمك. فإذا مضى عشرين يوماً خرج إليه من فراخه من ذلك البيض فيجتمعون حول أبويها، فيلفونهم في ريشهم ثم يزقونهم إلى أن ينبت لهم ريش. فإذا تحاملوا وأكلوا تركاهم وأكثر ما يكون فراخها ثلثه. واهل مايط... هذه الجزيرة على ما ذكروا لا يدخلها مركب سالم لأن المركب تمضي إليها في وقت واحد من السنة فيتفق مجيء المركب إليها في وقت خب عظيم. فإذا حصل المركب بازاء البلد طرح أهله نفوسهم إلى البحر على الخشب وما يحملهم، ولا يزال الموج يضربهم حتى يلقيهم على الساحل، ويحمل الموج المركب ولو كان في مائة أنجر حتى تلقيه على الساحل فتكسره، وتقذف بالأمتعة إلى الساحل. فيأخذ الناس أموالهم ويستأنفوا مركباً للرجوع. فجميع ما يحمل إلى ذلك البلد يجعل في الجلود، ويحكم صونه لئلا يهلك بالماء وقت انكسار المركب. وهي جزيرة فيها ذهب وقطي وعسل.

وحدثني الحسن بن عمرو انه رأى بالمنصورة أهل قشمير الأسفل، وبينهم وبين المنصورة مسيرة سبعين يوماً في البر، ينحدرون في مهران من قشمير وهو يجري كما يجري دجلة والفرات في وقت المدود على أعدال القسط. وقال لي إنهم يعبون القسط في الأعدال، في كل عدل سبع مائة وثمان مائة منا، ويجلدونه، ثم يجعلون فوق الجلد القار، فلا ينفذه ماء ولا غيره. ويقرنون الاعدال ويشدونها ويوطئون عليها ويجلسون فيها، ويتحدرون في مهران فيصلون إلى فرضة المنصورة في أربعين يوماً. ولم يلحق القسط شيء من الماء البتة.

١٢ ـ من أخبار الهند

وحدثني من أقام بالهند زماناً ان فيهم كهنة، وان فيهم من يخرج إلى الصحراء، فيرى الطيور تطير في الهواء، فيخط في الأرض دارة تحت الطيور فلا تزال تدور في جو الخط إلى أن تقع فيه، ثم لا تخرج عنه البتة. فيدخل إلى جوف الخط ويأخذ منها ما يريد ويطلق عن بقيتهم. وكذلك أيضاً يرى في الصحراء طيوراً ترعى فيخط حولها خطاً بعيداً يدور عليها فما تبرح منه البتة. ويدخل إليها فيأخذ منه حاجته.

وحدثني من رأى بعض هذه الطبقة بصندابورة. وهو يجيء إلى خورها ومعه خشبة فيتكلم عليها بشيء ثم يرمي الخشبة في الخور. فتمضي الخشبة إلى موضع ثم تقف فلا تبرح، فيطلع في دونيج ويمضي هو إلى موضع الخشبة، فيخرج تمساحاً فيقتله. وخور صندابور فيه أمر عظيم من التماسيح. وقيل إن التماسيح لا تعقر بين الدور أحدا، فإذا خرج الإنسان إلى خارج لا يقدر أن يضع اصبعه في الماء إلا اختطفه التمساح. وأهل سريرة يقولون إن معهم طلسم للتمساح.

وحدثني من رأى ببلاد الهند خلقاً كثيراً يزجرون (الطير). وان بعض التجار من أهل سيراف حدثه أنه أراد الخروج من صيمور إلى سوبارة طريق البر، فقال لصاحب

السلطان يضم إليه رجلاً يخفره في طريقه فضم إليه أحد من كان بين يديه من الباتك وهو الرجالة. قال فخرجنا فلما صار بظاهر صيمور جلسنا عند ثلاج وهو بركة ماء، وجرام وهو البستان، نأكل شيئاً وفي جملته أرز. فنعق غراب فقال الهندي للسيرافي تعرف ما يقول الغراب قال لا قال يقول لا بد ان اكل من هذا الأرز الذي اكلتموه. فعجب من قوله، لانا كنا قد أكلناه جميعه حتى لم يبق منه شيء. ثم نهضنا وأخذنا نمشي فما سرنا فرسخين حتى لقينا خمسة أنفس أو ستة من الهند. فلما رآهم الهندي اضطرب وقال لي أن أقاتل هؤلاء قلت ولم قال لأن بيني وبينهم عداوة. فلما كلمني بما أراد جردوا خناجرهم واجتمعوا عليهم فقتلوه وشقوا بطنه، حتى خرج ما فيه ووقع علي من الفزع ما لا يمكني معه المشي. فسقطت كالباهت العقل فقالوا لي لا تفزع فإن هذا بيننا وبينه عداوة، وأنت لا بأس عليك. ومضوا وتركوني فيما تباعدوا حتى سقط غراب لا أشك في أنه ذاك الغراب فجعل يلتقط الأرز الذي خرج من جوفه.

ومن طريف أخبار تجار البحر ومن ركبه واستغنى فيه ما حدث عن إسحق بن اليهودي، وكان رجلاً يتصرف مع الدلالين بعمان. فوقع بينه وبين رجل من اليهود خصومة، فهرب من عمان إلى بلاد الهند، ومعه نحو مائتي دينار، لم يملك سواها. وغاب عن البلد نحو ثلاثين سنة لا يعرف له خبر فلما كان في سنة ثلثمائة ورد عمان. فحدثني غير واحد من إخواننا البحريين انه ورد عمان من الصين في مركب لنفسه، وجميع ما فيه له. وانه قاطع أحمد بن هلال، صاحب عمان، عن المركب لئلا يحصي ما فيه ويعشر عليه، على ألف ألف درهم ونيف. وانه باع على أحمد بن مروان دفعة واحدة مائة ألف مثقال من المسك الفايق. وقدر ابن مروان ليس معه غير هذا المقدار. فباع على أحمد بن مروان برداً بأربعين ألف دينار دفعة أخرى. وباع على رجل آخر بعشرين ألف دينار دفعة أخرى. فاستقاله أحمد بن مروان فنقصه في كل مثقال درهماً نقرة[٢٥]، فكانت الحطيطة مائة ألف درهم. وكانت معه طريفة من طرف التجار فطار اسمه في البلاد وحسده الخلق. وطلب منه بعض أهل الشر شيئاً فلم يعطه، فخرج قاصداً إلى بغداد. وكان أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات وزيراً فسعى باليهودي فلم يلتفت إليه فتسبب إلى بعض الأشرار من خواص المقتدر بالله وتنصح في اليهودي، وحكى أن رجلاً خرج من عمان ولا شيء معه وعاد ومعه مركب به مسك بألف ألف دينار، وثياب حرير وصيني بمثلها، وجواهر وأحجار طريفة بمثلها، ومن غرايب نوادر الصين ما لا يحصى وهوشيخ لا ولد له، وان أحمد بن هلال أخذ منه من الأمتعة خمس مائة ألف دينار. فرفع الخبر إلى المقتدر فاستعظمه وانفذ في الوقت خادماً يقال له الفلفل أسود مع ثلاثين غلاماً إلى عمان، وكتب إلى أحمد بن هلال يأمره بحمل هذا اليهودي مع الخادم ورسول من جهته. فلما وصل الخادم إلى

عمان فقرأ أحمد بن هلال الكتاب فأمر أحمد بالاحتياط على اليهودي، وقطع مصانعته لنفسه على أن يدافع عنه على مال جليل. ثم دس إلى التجار من عرفهم ما في حمل اليهودي عليهم ودخول اليد، وطمع الفقراء فيهم وأهل الشر وغلقت الأسواق، وكتبت المحاضر وشهد فيها الغرباء والقاطنون بأنه متى حمل اليهودي انقطعت المراكب عن عمان وهرب التجار وانذر الناس بعضهم بعضا أن لا يطرق أحد ساحلاً من سواحل العراق ولا يأمن ذو مال على ماله وانه بلد فيه وجوه التجار وذوو اليسار من أقطار الآفاق. وإنما سكنت نفوسهم إلى المقام بعدل أمير المؤمنين وعدل أميره وحسن سيرته ورعايته للتجار، وكف الطامع عنهم والباغي. فشغبوا على أحمد بن هلال وصاحوا عليه واختصموه حتى همت نفس الخادم، يعني فلفل، وأصحابه بالخروج عنهم وتمنوا الخلاص. وكتب أحمد بن هلال بذكر ما جرى وانه قد قامت نفوس التجار وقدموا مراكبهم وأعادوا أمتعتهم التي جاءوا بها ليردوها، وان التجار القاطنين في البلد توغرت صدورهم وقالوا إن بقينا انقطعت معايشنا وارزاقنا بانقطاع المراكب عنا. وإنما هذا بلد رزق أهله من البحر، وانه متى تم هذا على أصغرنا جرى على الكبير أعظم. والسلاطين نار أين ما توجهت أحرقت، ولا طاقة لنا بذلك والخروج من بين يديه أمثل. وأخذ الخادم ومن معه من اليهودي نحو ألفي دينار وانصرفوا. فخبثت نفس اليهودي ولم يزل يحتاج ويجمع ماله، وبنى مركباً وخرج إلى الصين ومعه جميع ماله، حتى لم يخلف درهماً بعمان. فلما صار بسريرة التمس منه صاحب سريرة عشرين ألف دينار مصانعة ليتركه يجوز إلى الصين ولا يعوقه، فلم يعطه شيئاً. فدس عليه من قتله ليلاً وأخذ مركبه وجميع أمواله وكان مقامه بعمان ثلاث سنين. وخبرني من شاهده بعمان في يوم مهرجان وقد أهدى إلى أحمد بن هلال برنية [٢٦] صيني سوداء مضيئة الرأس بالذهب. فقال له ما في هذه البرنية فقال سكباج أصلحتها بالصين لك. فتعجب من هذا وقال سكباج يطبخ بالصين وقد مضى عليل سنتين كيف يبقى. فكشف الرأس، وفتحت البرنية، فإذا فيها سمك من ذهب عيونه من الياقوت وقد عبي في البرنية، وفي خلله المسك الفايق. وإذا قيمة ما في البرنية خمسون ألف دينار.

١٣ ـ يهودي في الصين

ومما حدث به اليهودي انه قال دخلت إلى بلد يقال له لوبين من بلدان الصين، والمسلك إليه بين جبال وعلى جبال شاهقة، ويحمل المتاع إليه على الغنم، لأنه صعود جباله مثل الدرج لا يستطيعه إلا الغنم. فوجدت بهذا البلد ملكاً كبيراً له قدر وجلالة عظيم الشأن. فدخلت إليه وهو جالس على سرير من ذهب مرصع باليواقيت، وعليه حلي مثل حلي النساء. وزوجته إلى جانبه عليها أكثر مما عليه، وفي رقبته أطواق من ذهب وزبرجد لا تقوم بقيمة، ولا يكون مثلها عند ملك من ملوك المشرق ولا المغرب.

وعلى رأسه نحو من خمس مائة جارية من كل لون، عليهم أنواع الحرير والحلي. فسلمت عليه فقال لي يا عربي هل رأيت أحسن من هذا، يعني طوقاً مرصعاً من أطواقه. فقلت نعم قال وكيف ذلك قلت معي واحدة اشتريتها بمال عظيم قصدتك أيها الملك بها. فقالت له امرأته بقي لك شيء هو ذا قد جاءتك واحدة فرد علي هذه. فقال لي عجل لنا بها الساعة. فقلت بسببها جئت والليلة أجيكما بها. فقال لا إلا الساعة الساعة، وهو فرحاً مستبشراً. قال اليهودي وكان عندي عشرة فبادرت إلى الموضع الذي نزلته فأخذت تسعة فدققتها بحجر حتى صيرتها كالسويق، ودفنتها في التراب. وأخذت الواحدة فلفيتها في المنديل، فظاهرت عليها المنديل، وجعلتها في تخت وشددتها واحكمته. ثم حملته وقصدت الملك ولم أزل أفتح وأنشر وهو يزحف إلي وزوجته قايمة تستعجلني حتى اخرجت المنية. فسجد من ساعته لها وسجدت امرأته ووهبا لي عليها مكافأة لها قدر عظيم.

١٤ ـ البحار الصعبة

واجمع البحريون على أن بحر بربرا ـ وهو سبع مائة فرسخ وهو في الطريق إلى بلاد الزنج ـ من أعظم البحار خطرا. وللزنج في هذا البحر جزاير عظيمة من جانب واحد، والماء فيه على ما يقال يجري جرياناً شديداً. والمركب تقطعه في سبعة أيام وفي ستة أيام. وإذا وقع المركب إلى بربرا اخذوا أهل المركب وخصوهم. وإذا قصد التجار بربرا كان مع الواحد منهم، بحسب مقداره وكثرة ماله، جماعة يخفرونه لئلا يأخذه بعضهم فيخصيه. والواحد منهم يجمع بيض من يخصيه ويحفظها فإذا تفاخروا اخرجوا ما عندهم ليقع الرغبة فيه لأن الشجاعة هو أن يخصي الرجل منهم الرجل من الغرباء.

ومن البحار الخبيثة الصعبة الشديدة التي يقل السلامة فيها بحر أغباب سرنديب، وهو ثلثمائة فرسخ وفيه من التماسيح أمر عظيم. وفي ساحل هذا البحر النمور والبوارج [٣٧] الذين يقطعون في هذا البحر. إذا ظفروا بمركب أكلوا أهله وهم أشر قوم. وليس في ساير الأماكن من يقطع البحار مثلهم. فالمركب الذي يقطع هذا البحر متى أخذه البوارج أكلوا أهله. وإن غرق لم يمض عليه ساعة حتى يأكل أهله التماسيح. وإن انكسر بقرب البر وصعد أهله إلى الساحل قطعهم النمور في ساعة واحدة.

١٥ ـ قصص من الهند

ومن أخبار الهند في سننهم الظريفة ما حدثني به الحسن بن عمرو أنه سمع شيخاً عالماً بسير الهند يقول إن بعض ملوك الهند الكبار كان جالساً يأكل، وبإزائه ببغا في قفص معلقة، فقال لها تعالي فكلي معي فقالت له أنا أفزع من السنور فقال لها أنا

بلاوجرك، وهو بكلام الهندي إني أفعل بنفسي مثل ما يصيبك. وتفسير هذه اللفظة ومعناها هو ما أذكره وذلك ان الملك من ملوك الهند يجيء إليه من الرجال عدة على حسب محله وجلاله قدره، فيقولون له نحن بلاوجرك فيطعمهم الأرز بيده، ويعطيهم التانبول بيده. فيقطع كل واحد منهم الخنصر من أصابعه ويضعها بين يديه ثم يكونون معه حيث سلك يأكلون بأكله، ويشربون بشربه، ويتولون اطعامه، ويستقضون ساير أحواله. فلا تدخل إليه حظية ولا جارية ولاغلام إلا فتشوه، ولا يفرش له فراش إلا فتشوه، ولا يقدم له طعام ولا شراب إلا قالوا للذي أحضره كل منه أولاً. وما أشبه هذا من ساير الأشياء التي يخاف على الملوك منها. فإن مات قتلوا أنفسهم، وإن أحرق نفسه احرقوا أنفسهم، وإن مرض عذبوا نفوسهم لمرضه، وإن حارب أو حورب كانوا حوله ومعه. ولا يجوز أن يكون هؤلاء البلاوجرية إلا من علية أهل الموضع، ومن يرجع إلى نجدة وبسالة وشهامة وله رواء ومنظر. فهذا معنى البلاوجرية. فلما قال لها الملك أنا بلاوجرك أكل الرز عنها فلما رأته قد أكل الرز عنها وقال لها أنا بلاوجرك نزلت من القفص وجاءت فجلست على الخوان لتأكل. فقصد السنور فقطع رأسها فأخذ الملك بدن الببغا فجعله في صينية، وجعل عليه الكافور وحوله الهيل والتانبول والنوره [٢٨] والفوفل (الفلفل). وضرب الطبل ودار في البلد وفي عسكره والصينية على يده. ثم كان يوجه بالصينية كل يوم فيطوف بها في البلد مدة سنتين. فلما طال ذلك اجتمع عليه البلاوجرية وغيرهم من أهل مملكته فقالوا له هذا قبيح وقد طال الأمر فيه فإلى كم تدافع. اما أن تفي وإلا فعرفنا حتى نعزلك ونلقب ملكاً غيرك. لأن في الشرط انه إذا قال أنا بلاوجرك ثم وجب عليه حكم فدافع به أو نكل عنه فقد صار بهندا. والبهند عندهم هو الذي لا يجوز عليه الحكم لقلته ومهانته وسقوطه مثل المغني والزامر وما أشبه ذلك. والملك ومن دونه في ذلك سواء إذا نكل عن واجب. فلما رأى هذا جمع العود والصندل والسليط [٢٩] وحفر حفيرة وجعل ذلك فيها وأحرقه بالنار ثم رمى بنفسه فيها فاحترق، واحترق بلاوجريته، ثم بلاوجرية البلاوجرية، يعني أتباع الأتباع. فارموا نفوسهم معه فاحترق في ذلك اليوم نحو ألفي نفس معه. وكان أصل ذلك قوله للببغا أنا بلاوجرك.

وحدثني ان الملوك بسرنديب ومن يجري مجراهم يحملون في الهندول، وهو مثل محفة على أعناق الرجال، ومعه كرندة[٣٠] من ذهب فيه ورق التانبول وحوايجه يحملها غلام آخر، والغلمان والأصحاب معه ويطوف في البلد، أو يمضي في حاجة، وهو يمضغ التانبول ويبصق في المبصقة. فربما جاء البول وهو في مسيره ذاك فيخرج من الهندول ويبول في الطريق أو السوق أو حيث اتفق له. وهو مع ذلك ساير ليس يقف فإذا فرغ من بوله رد إلى ثيابه ولم يمسحه.

وحدثني قال رأيت بسندان رجلاً من الهند قد اجتاز بدار، فانصب عليه وعلى

ثيابه بول من تلك الدار. فوقف وصاح بهم هذا الذي صب علي ماء من غسل اليد أو غسل الفم، وهو عندهم أقذر ما يكون. فقالوا له هذا بول صبي بال الساعة. فقال كنا بمعنى جيد ومضى وعندهم أن البول أنظف من الماء الذي غسل به اليد والفم.

وحدثني ان الواحد من الهند يتغوط وينزل إلى الثلاج، وهو بركة الماء المنصب من الجبال والصحارى في أوان الأمطار والسيول، حتى يغتسل فيه ويستنجي. فإذا تنظف تمضمض بالماء وخرج من الثلاج، فمج الماء من فيه إلى الأرض لأنه عنده أنه اذا مج الماء من فيه إلى الثلاج أفسده.

وحدثني عن من دخل سرنديب وخالط أهلها ان من رسوم سلطانها في معاملته أشياء منها أن له منظرة على الشط يضرب فيها على الأمتعة.

وحدثني بعض البحريين من أمر الحيات بكولم ملي ما يدهش. وذكر ان منها حية تسمى الناغران منقطة على رأسها مثل الصليب أخضر. ترفع رأسها من الأرض مقدار ذراع وذراعين على قدر كبرها ثم تنفخ رأسها وأصداغها وتصير مثل رأس الكلب. وإذا سعت لم تلحق، وإذا طلبت لحقت ما أرادت، وإذا نهشت قتلت. وإن بكولم ملي رجل مسلم يسمى بالهندية ينجي، وهو صاحب الصلوة، يرقي نهشة هذه الحية. فربما كان قد تمكن سمها فيه فلم ينفع. وفي الأكثر يعيش من يرقيه. ويرقي أيضاً من نهشتها وغيرها من الأفاعي والحيات بهذه الناحية جماعة من الهند يرقون إلا أن رقية هذا المسلم لا تكاد تخطىء. قال لي هذا الرجل وشاهدته وقد جاءوه برجل قد نهشته هذه الحية وحضر رجل من الهند موصوف بالحذق بالرقية ليبرا. وجعل المسلم يرقية ليموت فمات. وإنه شاهده أيضاً وقد رقا غير واحد ممن قد نهشته هذه الحية وغيرها فبرأ وسلم. وإن ببلاد كولم ملي خاصة حية صغيرة ولها رأسان أحدهما الأصغر صغير يقال لها بطر وإنما إذا فتحت فمها الأصغر كان مثل منقار العصفور إذا نهشت بأيهما لم يمهل طرفة عين.

وحدثني أبو الحسن قال حدثني محمد بن بابشاد قال رأيت بغب سرنديب من الحيات أشياء ظريفة، ومن أصحاب الرقى أمر عجيب. وشاهدتهم في بعض البلاد القريبة إذا نهشت أحدهم أفعى أو حية رقوه فإن نفعت الرقيا وسلم وإلا جعلوه في سرير من خشب فتركوه على وجه الماء مع الجزر في نهر لهم يجري إلى البحر ودورهم أو دار أكبرهم على ذلك النهر طوله، وقد علموا أنه لا يوضع في مثل ذلك السرير إلا ملسوع. فمن كان منهم يحسن الرقي أخذ السرير ورقي من فيه. فإن نفعت رقيته قام الملسوع ورجع إلى منزله برجليه وإن لم تنفع تركه مع الماء. ولا يزال بطول البلد يأخذه واحد بعد واحد فيرقيه من يحسن الرقي. فإن نفعت رقيته قام الملسوع، وإن لم تنفع سرحه. فلا يزال كذلك مع الماء حتى يبلغ إلى آخر البلد فإذا لم تنفع الرقية فيه حمله الماء حتى يرمي به في البحر ويغرق، أو ينفق قبل أن يصل

إلى البحر. لأنه ليس في الأمر أن يتركوه على الأرض، ولا يتمسك به أهله رجاء أن يصلح فإن سلم رجع برجليه وإن لم ينفع فيه الرقي فقد مضى.

وحدثني محمد بن بابشاد أيضاً انه قال رأيت في نهر من أنهار الأغباب التي تجري إلى البحر تجري في الجزر جرياً عظيما، والمد يجري كذلك. فمررت في بعض الأيام بذلك النهر والماء قد نزل عن أكثره وظهرت حافتاه وإذا بعجوز عليها ثيابها متربعة قاعدة على الرمل مع صفة الماء. فقلت لها ما الذي يقعدك ها هنا فقالت لي أنا عجوز كبيرة وقد عشت مدة طويلة، وأكلت من الدنيا قطعة، واحتجت أن أتقرب إلى خالقي لانجو. فقلت فما الذي يقعدك ها هنا فقالت انتظر الماء حتى يجيء فيحملني. فما زالت قاعدة في موضعها حتى جاء الماء فحملها وغرقها. وقد ذكرت في هذا الجزء في غير موضع من أخبار الهند في قتلهم أنفسهم بضروب القتل ما فيه كفاية.

حدثني بعض من دخل الهند أنه رأى بكنبايت الواحد بعد الواحد يجيء إلى الخور ليغرق نفسه، فيعطي الأجرة لمن يغرقه يتخوف أن يدركه الخوف أو الجذع أو يبدو له في تغريق نفسه. فيعطي الأجرة لمن يضع يده في قفاه ويغطه في الماء حتى يتلف وإن صاح أو استعفى أو سئله أن يطلقه لم يفعل.

وحدثني بعض من دخل بلاد السهال أنه رأى بجزيرة البقر ـ وهي بين جزيرة سرنديب وبين مندورين وهي من الجزر التي حوالى جزيرة سهيلان ـ بدا[٣١] للهند عظيماً وان الهند يقولون ان هذا البد كان بجزيرة سهيلان فعبر البحر حتى صار بجزيرة البقر. وانه يقيم في كل جزيرة منها ألف سنة ثم يعبر إلى أخرى.

وحدثني محمد بن بابشاد قال رأيت بسريرة عند امرأة بها دابة على صورة بني آدم إلا أن وجهها أسود مثل وجوه الزنج ورجليه ويديه طوال أزيد مما عليه الأدمي وله ذنب طويل وعليه شعر مثل شعر القرد وهو جالس في حجر المرأة قد تشبث بها فقلت لها ما هذا فقالت من أهل الغياض والأشجار. وكان يصيح صياحاً ضعيفاً لا يفهم ما هو وهو قريب من القرد إلا أن وجهه وجه بني آدم وخلقته مثل بني آدم.

وحدثني أن بجزيرة لامري من الزرافة ما لا يوصف كبره. وحكى عن من حدثه من أهل المراكب الذين كسرهم البحر أنهم اضطروا إلى المشي من ضواحي فنصور إلى لامري وكانوا لايمشون بالليل، خوفاً من الزرافة لأنها لا تظهر بالنهار. فإذا أقبل الليل صعدوا على شجرة عظيمة خوفاً منها. فإذا كان الليل احسوا بها تدور حولهم ويروا بالنهار آثار وطيها على الرمل. وإن بالجزيرة من النمل ما لا يوصف كثرة وخاصة بجزيرة لامري فإن النمل فيها عظيم.

وحدثني أنه سمع بعض البحريين يحكي أن بلولوبيلنك ـ وهو جون في البحر ـ فيه قوم يأكلون الناس، لهم أذناب وهم فيها بين أرض فنصور وأرض لامري.

١٦ ـ أكلة البشر

وحدثني محمد بن بابشاد ان بجزيرة النيان ـ وهي جزيرة في البحر الخارج بينها وبين فنصور مقدار مائة فرسخ ـ قوم يأكلون الناس أيضاً، ويجمعون رؤوس الناس عندهم. ويفتخر الواحد منهم بكثرة ما يجمع من الرؤوس. ويشترون سبايك صفر بالثمن الوافر، ويدخرونه مكان الذهب، ويبقى في بلادهم الدهر الطويل، كما يبقى الذهب عندنا. والذهب عندهم لا مقام له، بل يكون منه ما يكون من الصفر عندنا. فتبارك الله أحسن الخالقين.

وبعد جزيرة النيان ثلث جزاير يقال لها براوة أهلها أيضاً يأكلون الناس ويجمعون رؤوسهم فيتعاملون بها ويقتنونها.

وحدثني أن جميع أهل فنصور ولامري وكله وقاقله وصنفين وغيرهم يأكلون الناس، إلا أنهم لا يأكلون إلا أعداءهم، من طريق الغيظ عليهم وليس يأكلونهم من طريق الجوع. ويقددوا من لحم الإنسان ويصنعونه من أنواع الصنعة والألوان، ويتنقلون به إلى الخمر.

١٧ ـ جزائر لجبالوس

وحدثني ان أهل جزاير لجبالوس، وهي جزاير كثيرة طولها ثمانين فرسخاً يقصدون المركب ويشترون منهم المتاع يداً بيد. وانه متى حصل مع أحدهم شيء قبل أن يعطي بدلاً منه مضى، ولم يقدر على استرجاعه منه. وربما انكسر المركب ووقع إليهم رجل أو امرأة فيسلم معه شيء من ماله أو ثيابه. فإن كان الذي سلم معه بيده لم يأخذوا منه شيئاً كايناً ما كان، لأنهم لا يأخذون من يد أحد يقع لهم شيئاً. ثم يقعدونه في منازلهم ويطعمونه مما يأكلون. ولا يأكل الواحد منهم حتى يطعم ضيفه. فإذا أكل الضيف أكل ما يفضل عنه. ولا يزال عندهم من هذه صورته حتى يجتاز بهم مركب. فإذا جاءهم مركب حملوهم إليه وقالوا لأهل المركب أعطونا شيئاً وخذوه منا. فلا بد لأهل المركب أن يعطوهم شيئاً عنه ويأخذونه. وربما كان الذي يقع لهم شيئاً فيخدمهم ويفتل الكنبار[٣٢]، ويبيعه عليهم بالعنبر، ويجمع شيئاً إلى وقت اجتياز المراكب. فيجمع شيئاً في مقامه عندهم.

١٨ ـ الماس

وحدثني بعض من دخل الهند انه سمع أن الأدماس[٣٣] الجيد النادر المرتفع يجلب من نواحي قشمير، وان هناك واد بين جبلين فيه نار توقد طول الدهر، ليلاً ونهاراً وشتاءً وصيفاً، والأدماس فيه. وليس يطلبه إلا طايفة من الهند سفلة يحملون أنفسهم على المهالك. فتجتمع الجماعة منهم ويقصدون هذا الوادي ويذبحون الغنم الهزلة ويقطعونها قطعاً ويقذفون بالقطعة بعد القطعة في كفة منجنيق يعملونه. لأن

التقرب من الموضع لا يمكنهم لجهات شتى: منها ان وهج النار يمنع من ذلك ومنها ان حول النار من الأفاعي والحيات ما لا يوصف، وفيها ما لا يمهل حتى يتلف. فإذا قذفوا باللحم انحدرت عليه النسور، وهي كثيرة، فتخطفه ان وقع بعيداً من النار فترفعه. فإذا رأوا النسر قد أخذ اللحم اتبعوه حيث يمضي، فربما سقط من القطعة التي أخذها شيء من الأدماس وربما انحدر في موضع فيأكلها، فيجدون في ذلك الموضع الأدماس. وربما سقطت القطعة اللحم في النار فتحترق. وربما وقع النسر على قطعة لحم بقرب النار فيحترق ويتشيط. وربما اخطتفها النسر قبل سقوطها إلى الأرض على حسب ما يتفق. فهكذا يأخذ الأدماس. وفي أكثر يتلف طالبه بالأفاعي والحيات والنار. وملوك الناحية يطلبون الأدماس ويشددون في طلبه وطلب من يلتمسه، ويفتشونهم أشد تفتيش لجلالة الأدماس وعظم خطره.

١٩ ـ قصص

وحدثني إسمعيلويه الناخذاة قال اجتمع لي في كرة واحدة وردت فيها من كله إلى عمان وذلك في سنة سبعة عشر وثلاث مائة ما لم يجتمع لناخذا قبلي. خطفت من كله فلقيني في طريقي سبعون بارجة فحاربتهم ثلاثة أيام متوالية. واحرقت عدة منها، وقتلت جماعة وتخلصت. وقطعت من كله إلى أن وصلت إلى شط العرب، يعني شحر لبان في أحد وأربعين يوماً. فأخذ السلطان بعمان من عشور الأمتعة التي في مركبي ستمائة ألف دينار، وترك على الناس من العشور في بضايع وغير ذلك، مما سامحهم فيه، ما لعله يكون نحو مائة ألف دينار، سوى ما سرق من العشور ولم يوقف عليه. وهذه ثلاثة أشياء اجتمعت في كرة واحدة تتفق لم تجتمع ولا متفرقة لأحد ورد من هذه الناحية قط.

وحدثني البلوجي المتطبب بعمان قال كنت بالتيز، وقعنا إليها بالتواهية. فتركنا المركب، ونجلنا الحمولة، وأقمنا ننتظر الشرتا [٣٤]. فبينما نحن كذلك يوماً من الأيام إذ وافت امرأة لها قد وتمام وجسم حسن، ومعها شيخ أبيض الرأس واللحية، ضعيف الجسم نحيف، فقالت أشكو إليكم هذا الشيخ وكثرة مطالبته لي وإني ليس أطيقه. فلم نزل نرفق بها إلى أن وفقناه أن يصطلح في اليوم دفعتين وفي الليل مثله فلما كان بعد أيام عادت إلينا فشكت مثل ما شكت أولاً. فقلنا له يا هذا الرجل أمرك عجيب فما خبرك. قال كنت في مركب فلان في سنة كذا فأصيب، وتخلصت مع جماعة من أهل المركب على الشراع. فوقعنا بجزيرة فمكثنا أيام لم نطعم شيئاً حتى أشرفنا على التلف. ثم وقعت سمكة ميتة قد قذفها الموج إلى الساحل. فتحامى القوم أكلها خوفاً أن تكون أكلت شيئاً من السموم. فحمل نفسي الجهد الذي بي على أكلها. وقلت ان تلفت استرحت مما أنا فيه وإن عشت كنت قد شبعت لوقت آخر. فأخذتها والقوم يمنعوني وجعلت آكلها غير مشوية فلما حصل لحمها في جوفي التهب في ظهري مثل

النار، ثم صار بطول ظهري كعمود من نار، وانتشر على بدني واتعبني. فأنا منذ ذاك الوقت وإلى يومي هذا على هذه الصورة قال وكان له منذ أكله السمكة سنين كثيرة.

وتذاكرنا أمر اسمعيلويه بن إبراهيم بن مرداس فقيل لي إنه وصل في سنة سبع عشرة وثلاثمائة وكان وصوله منذ خطف من كله وإلى أن دخل بكلاء عمان ثمانية وأربعين يوماً. وورد في تلك السنة كاوان من سرنديب وبلغ عشور مركبه ستمائة ألف دينار، لا مركب اسمعيلويه.

حدثني عن كاوان هذا انه قال ادخلني بغبور ملك الصين إلى بستان بخانفو مقدار عشرين جريبا فيه نرجس ومنثور وشقايق وورد وساير الأنوار. فعجبت من اجتماع الأنوار الصيف والشتاء في وقت واحد في بستان واحد. فقال لي كيف ترى فقلت ما رأيت حسنة إلا وهذا أحسن، ولا طرفة إلا وهذا أطرف منها. فقال لي جميع ما ترى من الأشجار والأنوار معمولة من الحرير. فتفقدته بعد أن قال لي هذا فوجدت الورق والأنوار من الحرير الصيني قد عمل وضفر وحبك ونسج وسوي. ومن رآه لم يشك فيه انه شجر ونور لا يغادر شيئاً.

وباندمان الكبير بيت كبير من الذهب فيه قبر يعظمه أهل اندمان. ولشدة تعظيمهم إياه بنوا عليه بيتاً من الذهب وأهل الجزيرتين يزورونه. فاندمان لم يقع إليها أحد عاد إلينا. وإنما حكى لي بعض من دخل بلاد الذهب انه رأى بصنفين رجلا ذكر انه وصل إلى اندمان في جملة أهل مركب كانوا فيه، وأكلوا ولم يتخلص غيره، وانه حدثه بهذا الحديث.

وحدثني غير واحد من البحريين بأمر الدرة المعروفة باليتيمة. وإنما سميت اليتيمة لأنه لم يوجد لها أخت في الدنيا. وأجودهم شرحاً للقصة حدث انه كان بعمان رجل يقال له مسلم بن بشير، وكان رجلاً مستوراً جميل الطريقة. وكان ممن يجهز الغواصة في طلب اللؤلؤ. وكانت بيده بضاعة، فلم يزل يجهز الرجال للغوص ولا يرجع إليه فايدة حتى ذهب جميع ما كان يملكه، ولم يبق له حيلة ولا ذخيرة ولا ثوب ولا شيء يجوز بيعه، إلا خلخال بمائة دينار لزوجته. فقال لها اقرضيني هذا الخلخال لأجهز به فلعل الله تعالى يسهل شيئاً. فقالت له يا هذا الرجل لم تبق لنا ذخيرة ولا شيئاً نعول عليه، وقد هلكنا وافتقرنا. فلأن نأكل بهذا الخلخال أصلح من أن نتلفه في البحر. فتلطف بها وأخذ الخلخال وصرفه، وجهز بجميعه الرجال إلى الغوص، وخرج معهم. ومن شرط الغوص أن يقيم الغواصة فيه شهرين لاغير وعلى هذا يتشارطون. فأقاموا يغوصون تسعة وخمسين يوماً ويخرجون الصدف ويفتحونه فلا يحصل لهم شيء. فلما كان في يوم الستين غاصوا على اسم إبليس لعنه الله، فوجدوا فيما أخرجوه صدفة، استخرجوا منها حبة لها مقدار كبير، لعل ثمنها يوفي بجميع ما كان يملكه مسلم منذ كان والى وقته. فقالوا هذا وجدناه على اسم إبليس لعنه الله. فأخذها

وسحقها ورمى بها في البحر. فقالوا له يا هذا الرجل لم فعلت أنت هذا قد افتقرت وهلكت، ولم يبق لك شيء يقع بيدك مثل هذه الحبة التي لعلها تساوي آلاف دنانير فتسحقها. فقال سبحان الله كيف استحل أن انتفع بمال استخرج على اسم إبليس، وأنا أعلم ان الله تبارك وتعالى لا يبارك، وإنما وقعت هذه الحية بأيدينا ليختبرنا الله تعالى بها، ويعلم من يعرف خبرها اعتقادي ولئن انتفعت بها ليقتدين كل واحد بي فلا يغوصون إلا على اسم إبليس لعنه الله. فاثم ذلك يعظم على كل فايدة وإن عظمت. ووالله لو كان مكانها كل لؤلؤ في البحر ما تلبست به. امضوا فغوصوا وقولوا باسم الله وببركة الله. فغاصوا على ما رسم لهم. فما صلى صلوة المغرب من ذلك اليوم، وهو آخر يوم من الستين، حتى حصل بيده درتان إحداهما اليتيمة والأخرى دونها بكثير فحملهما إلى الرشيد، وباع اليتيمة بسبعين ألف درهم والصغرى بثلاثين ألف درهم وانصرف إلى عمان بمائة ألف. فبنا بها داراً عظيمة واشترى ضياعاً واعتقر عقاراً وداره معروفة بعمان، فهذا ما كان من خبر الدرة اليتيمة.

حدثني يونس بن مهران السيرافي التاجر وقد كان دخل الزابج، قال رأيت في البلد الذي فيه مهراجا، الملك بالزانج، من الأسواق العظيمة ما لا يحصى وعددت في سوق الصيارف بهذا البلد ثمان مائة صيرفي سوى ما في البلد من الصيارف المتفرقين في الأسواق وحكى من أمر جزيرة الزابج وعمارتها وكثرة البلدان والقرى فيها ما لا يقع عليه وصف.

ومن ظريف الأخبار ما حدثني به بعض أصحابنا. قال ركبت سفينة من الابلة أريد بيان. فاخذتنا الرياح والأمواج وزاد الأمر علينا، حتى نزعنا ثيابنا ولم يكن عندنا شك في أنا تالفون. وكان في السفينة معنا امرأة معها صبي وكانت ساكتة قبل ذلك. فلما اشتد بنا الأمر أخذت ترقص الصبي وتضحك. ولم يكن فينا فضل لخطابها، لأنا يئسنا من الحياة. فلما صرنا في الشط وأمنا الغرق قلت لها يا هذه المرأة ما تتقين الله عز وجل. أنت ترين ما حل بنا من البلاء، وأنا قد يئسنا من الحياة ترقصين الصبي وتضحكين. أما خفت الغرق كما خفنا. فقالت لو سمعتم حديثي لتعجبتم وما انكرتم علي صبري وتهاوني بالغرق. قلنا لها حدثينا. فقالت أنا امرأة من أهل الابلة، وكان لوالدي صديق من بانانية المراكب المختلفة من عمان إلى البصرة. وكان إذا ورد المركب الذي هو فيه من عمان نزل إلينا وأقام عندنا أياماً، وأهدى إلينا. وإذا أراد الخروج فعلنا مثل ذلك وأهدينا إليه ما يمكننا، وكان رجلاً مستوراً. فزوجني أبي به وما مضت غير ثلاث سنين حتى توفي أبي فقال لي قومي حتى أحملك إلى عمان، فإن لي بها والدة وأهلاً. فخرجت معه إلى عمان والبصرة. ثم توفي بعمان بعد أن ولدت هذا الصبي بخمسة أشهر. فلما قضيت العدة لم يطب لي المقام بعمان لأن مقامي إنما كان بسببه. فقلت لوالدته وأهله أريد أن ارجع إلى أهلي

بالإبلة. فقالوا لي إن أقمت عندنا قاسمناك حياتنا، فليس لنا في الدنيا غير هذا الصبي. وسألوني فأبيت فلما عزمت على الخروج اشتريت للصبي سريراً وثيقاً من خيزران وجعلت فيه ثياباً كنت قد جمعتها لي وللصبي، وذخيرة كنت قد اذخرتها. وغطيت ذلك كله واحكمته، وجعلت الصبي فوقه، وخرجت في مركب يريد البصرة. فبينما نحن إذ أخذنا الخب فانكسر المركب نصف الليل، وتفرقت الركاب والبانانية في البحر، فلم يرا أحد منا صاحبه. وتعلقت بلوح من الألواح فضبطته ولم أزل عليه إلى الغد نصف النهار، حتى رآنا صاحب مركب مجتاز فجمع من رأس الماء نحو عشرة أنفس كنت أنا أحدهم. وحملنا إلى مركبه ونكسوا رؤوسنا حتى قذفنا الماء الذي شربناه في البحر، وسقونا أدوية وعالجونا إلى من الغد بالغداة، حتى رجعت نفوسنا إلينا. وأنا قد نسيت ابني لما أنا فيه وزال الفكر فيه عن قلبي. فلما كان من الغد قال صاحب المركب ـ وأنا أسمع ـ انظروا هذه المرأة الها لبن، فإن هذا الصبي الذي وجدناه يموت. فقالوا لي ألك لبناً فذكرت الصبي فقلت قد كان لي لبن ومع ما مر بي فما أعلم أنه قد بقي منه شيء. فقالوا ابصري هذا الصبي قبل أن يموت فجاءوني بالسرير وفيه الصبي بحاله ما فتحوه ولا أخذوا منه شيئاً فلما رأيته وقعت على وجهي، وصرخت وغشي علي فرشوا علي الماء وقالوا ماتت فافقت بعد ساعة، واقبلت أبكي وأضم الصبي فقالوا يا هذه المرأة مالك. فقلت هذا الصبي ابني فقام صاحب المركب علي، وقال هذا ابنك فأي شيء الذي تحته فاقبلت أعد عليهم ما تحته، وجعلوا يخرجون شيئاً بعد شيء كأنه إنما وضع الساعة. فما منهم أحد إلا بكى بكاء عظيماً، وحمدوا الله وشكروه. فأنا غرقت في ذلك البحر وفرق بيني وبين ابني فجمع الله بيني وبينه. على تلك الصورة أخاف من هذه الرحلة. وإن كتب الله علي الغرق لم ينفعني الحذر.

وحدثني بعض تجار سيراف قال ركبت في مركب من عمان يريد البصرة. وكان في المركب جارية منصورية جميلة الوجه فارهة. ورأيت أحد بانانية المركب يومي إليها في الوقت إذا قرب من البلنج ولم يكن يقدر عليها لكونها في البلنج. فلما قربنا من خارك تغير البحر وأخذنا الخب، فأصيب المركب. واتفق أن تعلقت بالشراع، وقد تعلق به قبلي جماعة فيهم الجارية المنصورية وذلك البانائي، الذي كان يولع بها. فجعل يراودها عن نفسها وهي ترفسه برجلها وتمنعه بقية نهارها والأمواج ترفعنا وتضعنا إلى أن وقعت الجارية وتمكن منها فوطئها، وأنا أرى وليس فينا فضل للقيام ولا خطابه، ولا قدرة على منعه ولا الفكر أيضاً فيه، لأنا هالكين في البحر. وأصبحنا وقد تلفت الجارية وسقطت عن الشراع في البحر مع أكثر من سلم على الشراع.

وحدثني انه كان بصيمور رجل من أهل سيراف يقال له العباس ابن ماهان. وكان هذا من المسلمين بصيمور، ووجه البلد، والمنضوي إليه من المسلمين. فدخل بعض

بانانية المراكب، وكان من أهل الفجر، فمر بصيمور، فرأى فيه صنماً على صورة جارية في نهاية الحسن. فطلب غفلة من القوم وتقدم إليها فانزل بين أفخاذها. واجتاز به أحد من القوم ففزع وتباعد. وفطن به القيم فتقدم إلى الصنم فوجد بين أفخاذه ماء. فتعلق بالرجل ورفع من ساعته إلى الملك بصيمور وعرف الصورة. وأقر الرجل بما فعل. فقال ما ترون فقالوا يطرح للفيلة حتى تدوسه وقال آخر يقطع قطعا. فقال لا يجوز هذا فإنه من العرب، وبيننا وبينهم شروط. ولكن يمضي واحد منكم إلى العباس بن ماهان هنرمن المسلمين فيقول له ما حكم الرجل منكم إذا وجد في مسجد من مساجدكم بامراة وانظروا ما يقول فافعلوا به. فمضى إليه أحد الوزراء واستفتاه. فأحب العباس بن ماهان أن يعظم أمر الإسلام عندهم، فقال إذا وجدنا أحد على هذه الصفة قتلناه فقتلوا الرجل. فاتصل الخبر بالعباس وكيف جرت هذه القضية. فخرج عن صيمور سراً من الملك خوفاً أن يمنعه من الخروج عن بلده لمحله وموضعه.

وحدثني داربزين السيرافي، وهو أخو امرأة عبيد الله بن أيوب وعبيد الله خال عبدالله بن الفضل القاضي، قال كنت بخانفو ـ وهي قصبة الصين الأكبر ـ يوماً إذ قيل في غد يدخل البلد أحد من حجاب بغبور قد وافى من بعض النواحي. فجلس الناس من غد في الطريق الذي يجتاز للنظر إليه. وابتدأ أصحابه يدخلون طلوع الشمس قطعة إلى وقت العصر. ثم أدخل الحاجب نفسه وإذا معه من الرجال نحو مائة ألف فارس.

ومن الأخبار الظريفة ما حدثني به العباس بن ماهان هنرمن صيمور ان بعض التجار أخبره عن نفسه انه جهز مركباً من سندان أو صيمور (الشك مني) إلى عمان. وانه سلم إلى وكيله في المركب خشبة طويلة من الساج عليها علامة. وقال له بع هذه واشتر بثمنها كذا وكذا من السقط. وكتب له بذلك تذكرة وخطف المركب. فلما كان بعد شهرين أو زيادة عليها وأنا جالس في منزلي وإذا برجل قد وافا فقال لي قد دخلت الخور خشبة طويلة عليها اسمك، فقمت أعدو، وليس عقلي معي. فانظر فإذا الخشبة بعينها فلم أشك ان المركب انكسر في البحر لأنها خشبة طويلة تحت الخشب، فلم يمكن إخراجها من المركب في وقت الخب وطرح المتاع إلى البحر. وزال الشك عني في أن المركب أصيب، فجاء الناس فعزوني. وتعزيت عن المركب وما فيه وعدت إلى شغلي وليس عندي البته شك في أنه تلف، لأنه ما جاءنا من البحر أحد عنده خبر. فما مضى إلا شهران أو نحوهما حتى جاءني البشير فقال مركبك قد طلع. فقمت مبادراً فإذا بالمركب قد شارف البلد ونزل الوكيل منه وجاءني، فسألته عن الخبر فقال سلامة وعافية. فقلت هل ذهب منكم شيء أو طرحتم إلى البحر شيئاً. فقال لم يذهب منا خلالة. فحمدت الله كثيراً فقلت له ما فعلت بتلك الخشبة

الفلانية. فقال بعتها بنيف وثلاثين دينارا واشتريت لك بالثمن وكثر تعجبي من ذلك. ثم تحاسبنا فحاسبني على ثمنها. فقلت لا بد أن تصدقني عن هذه الخشبة وعزمت عليه. فقال لي اني لما حولت جميع ما في المركب إلى الساحل وقع بعمان خب عظيم في البحر، فحملت الأمواج الأخشاب إلى البحر. وقلب البحر الرمل على الساحل فغطا ما شاء الله أن يغطيه من الأخشاب. فلما كان من الغد جمعت الرجال وطلبنا الأمتعة فلم نفقد شيئاً غير الخشبة الطويلة فقلت لعل الرمل قد سفا عليها فغطاها. فاستأجرت من حفر في الساحل ليطلبها فما وقعنا لها على خبر. وإذا الأمواج قد قذفتها إلى البحر، فعادت إلى صاحبها. وهذا من أطرف ما سمعته في هذا المعنى.

وخرج في سنة اثنين وأربعين وثلاث مائة مركب لبعض التجار بالبصرة من عُمان إلى جدة، ولحقه الخب في بعض نواحي شحر لبان، وطرحوا إلى البحر شيئاً من الحمولة. وفيما طرح خمسة أعدال قطن حليج وسلم المركب. واتفق أن خرج مركب لهذا التاجر في هذه السنة أيضاً من البصرة يريد عدن وغلافقة. فلما صار إلى تلك الناحية من شحر لبان انقطع القارب أو الدونيج من خلف المركب، وأخذته الأمواج فطرح البانانية نفوسهم في القارب أو الدونيج ومضوا خلفه ليأخذوه. فدخل موضعاً شبيه البطن في البحر فدخلوا خلفه فإذا على الساحل خمسة أعدال قطن حليج بعلامة صاحب المركب. فحملوها في القارب ورزق الله السلامة، وقد كانوا قدروا ان مركباً انكسر فيه الاعدال فعرفوا بعد ذلك الخبر ان هذه الأعدال من جملة ما طرح من ذلك المركب.

٢٠ ـ عادات هندية

وحدثني من أثق لقوله انه شاهد ببعض بلاد الهند رجلين منهم حفر كل واحد منهما بئراً وملاها بعد أن قام فيها على رجله سرجينا، وجعل فيه نار، ووسطا بينهما نرداً جعلا يلعبان بها، ويمضغان التانبول، ويغنيان، والنار تعمل فيهما من أسفل إلى أن بلغت النار إلى قلوبهما فطفيا، ولم يظهر منهما تألم ولا تغير. وقال إنه لا يعلم هل حدثه هذا الرجل أنهما ماتا في اليوم الأول أو جلسا يلعبان إلى اليوم الثاني وماتا فيه.

وحدثني عبد الواحد بن عبد الرحمان الفسوي ـ وهو ابن أخي أبي حاتم الفسوي وقد سافر سنين كثيرة في البحر ـ ان الهند كانت تشد شعورها مثل القلانس على الرؤوس، وكانت سيوفها مستقيمة قايمة. فوقع بين طايفة منهم وبين طايفة أخرى حرب فاستظهرت إحداهما على الأخرى فتحكموا عليهم وقالوا ما نرجع عنكم إلا أن تجعلوا شعوركم ساجدة لشعورنا وسيوفكم ساجدة لسيوفنا. فصارت الفرقة المستظهر عليها تشد شعورها منكوسة وسيوفهم مقوسه، وهو القراطل، فالرسم باق إلى اليوم على هذا في تلك الطوايف.

وحدثني علي بن محمد بن سهل المعروف بسرور وقد دخل تتبه ودبابد وهذه

الدور بها راكبة على الماء، وساير أهلها بهم الشبكرة، صغيرهم وكبيرهم، لكثرة أكلهم الغيلم، وهو ذكر السلاحف. وإن كل واحد منهم يشد من باب منزله إلى الماء حبلاً في وتد. فإذا اصفرت الشمس أخذتهم الشبكرة، فيخرج الواحد من بيته ويمسك الحبل إلى الماء ليقضي حاجته ويتطهر ويعود إلى منزله. فلا يزال كذلك إلى من الغد ضحوة النهار حتى تنبسط الشمس ويضيء النهار. وإن مجان الغرباء إذا دخلوا بلادهم أخذوا حبل هذا فجعلوه مشدوداً على باب هذا، وحبل هذا على باب هذا، فيخرج الواحد منهم إلى الماء ويعود إلى منزل الآخر، فيدخله فيقع بينهما الشر ويقول له دخلت بيتي متعمداً.

وحدثني عن رجل يقال له أبو طار البغدادي أنه قال دخلت الزابج، ومن بلاد جزيرة الزابج بلداً يقال له مرفاويد فيه عنبر كثير جداً. وانه ما حمل أحد قط من ذلك العنبر في مركبه وخرج عن البلد إلا رجع إليه. وانهم يحتالون في بيع العنبر على الغرباء ومن لا يعرف خبر العنبر باع بأرخص سعر وأقل ثمن. وان لأبي طاهر هذا كان في المركب شيء من العنبر قد حمل سرا من صاحب المركب، فرجعت الريح عليهم وردتهم إلى البلد.

وحدثني يزيد العماني ناخذة الزنج قال رأيت في نواحي بلاد الزنج جبلين عظيمين بينهما واد، وفيه اثار النار وعظام نخرة وجلود محترقة. فسألت عنه فقيل لي هذا واد يجري فيه وقتاً في السنة نار. فربما جاءت النار وفي الوادي غنم ومواشي ترعى، ولم تشعر أربابها ورعاتها. لذلك فتحرقهم. وان النار تجيء في الوادي أياماً مثل السيل إذا جرى في الأودية.

وببلاد الهند لصوص يجيء منهم جماعة من بلد إلى بلد فيعبثون على التجار الموسرين، إما غريب وإما هندي، فيقبضون عليه في بيته أو في السوق أو في الطريق، ويجردون في وجهه السكاكين ويقولون له أعطنا كذا وكذا وإلا قتلناك. فإن تقدم إليهم أحد يمنعهم من الرجل أو سلطان قتلوه ولم يبالوا عنده أن يقتلوا هم أنفسهم بعده، كل ذلك عندهم سواء. إذا طالبوا الإنسان لم يسع أحداً أن يكلمهم ولا يتعرض لهم خوفاً من نفسه، ويمضي معهم فيجلس حيث شاءوا من سوقه أو داره ودكانه أو في بستانه، فيجمع لهم المال الذي قد قاطعوه عليه، والمتاع وهم مع ذلك يأكلون ويشربون وسكاكينهم مجردة. فإذا جمع ما وافقوه عليه أحضر من يحمله معهم، ومضى وهم محيطون به حتى يبلغوا أماكنهم التي يأمنون فيها على أنفسهم فيطلقونه من هناك ويأخذون المتاع والمال.

وحدثني محمد بن مسلم السيرافي، وكان مقيماً بتانه نيفاً وعشرين سنة، وقد سافر إلى أكثر بلاد الهند وعرف أحوال أهلها ومعاملتهم معرفة جيدة، ان إثني عشر نفساً جاءوا إلى صيمور وتانه، فقبضوا على رجل من التجار هندي، له أب يملك مالاً

عظيماً. والأب شديد المحنة به لا ولد له سواه فقبضوا عليه في وسط منزله، وطالبوه بعشرة آلاف دينار أو نحو ذلك. وكان هذا بعض ما يمكله أبوه فوجه إلى أبيه يعرفه ما نزل به ويسأله أن يشتريه ويخلصه منهم. فجاء إليهم فكلمهم ورفق بهم ليأخذوا منه ألف دينار أو نحو ذلك فأبوا وقالوا لم نأخذ إلا عشرة آلاف دينار. فلما رآهم على هذه الحالة مضى إلى الملك وعرفه القضية وقال هذا شيء لا دواء له ومتى لم يقع بهؤلاء القوم نكاية لم يكد أحد أن يقيم عندكم. فقال له كيف نصنع وإن كلمناهم قتلوا ابنك فقال له كيف العمل. قال قتلهم سهل علي، وإنما أخاف أن يقتلوا ابنك ولا ولد لك غيره. فقال ما أبالي هؤلاء يطلبون مالاً عظيماً، ولا يجوز لي أن أفقر نفسي وأخلص ولدي بأي وجه. أيها الملك نجمع الخشب حول الدار ونسد بابها ونضرمها بالنار عليهم فقال له يحترق ابنك وعيالك فقال احتراقهم أهون عندي من ذهاب مالي فوجه الملك وسد باب الرجل وضرم الباب بالنار، فاحترق القوم وولده وعياله وجميع ما كان في الدار.

قيل ان في بلاد الهند الأعلى الرسم في إحراق الشيوخ والعجايز باق.

وكان من رسم ملوك بلاد الذهب والزابج أن لا يجلس أحد بين أيديهم، من المسلمين والغرباء كايناً من كان وساير أهل ممالكهم، إلا مربعاً ويسمى ذلك البرسيلا. فمن مد رجليه أو قعد غير تلك القعدة فعليه غرامة كله ثقيلة بحسب ما يملك. فاتفق ان كان عند ملك من ملوكهم يقال له سرناتا كله رجل من النواخذة، يقال له جهود كوتاه، له موضع ومحل، وكان شيخاً مسناً. وجلس بين يديه فطال عليه الأمر، ولم يقم سرناتا وكانوا في حديث لهم. فأخذ جهود كوتاه يحدثهم بحديث آخر، فادخل في حديثه ذكر الكنعد. فقال وعندنا بعمان سمك يقال له الكنعد، تكون الواحدة كذا ومد رجله وقبض على نصف فخذه، ومنه ما يكون مثل هذا ومد الرجل الأخرى وقبض على حقوه. فقال لوزيره ان لهذا الرجل سبباً، فإنا كنا في حديث وخرج منه إلى حديث السمك فما السبب في ذلك. فقال أيها الملك هذا رجل شيخ قد أسن وضعف ولا يحتمل أن يجلس هكذا فلما تعب جعل لاستراحته سبباً ووجهاً. فقال الصواب أن نرفع هذا الرسم عن المسلمين الغرباء خاصة. فرفع عنهم فهو إلى اليوم رسم أن يجلس المسلمون بين أيديهم كما يشتهون ويجلس غيرهم على الرسم الأول برسيلا، فإن غير جلسته كانت عليه الغرامة.

ذكرت في فصل قبل هذا أمر عباد الهند وزهادهم، وهم عدة أصناف منهم البيكور وأصلهم من سرنديب، وهم يحبون المسلمين ويميلون إليهم ميلاً شديداً. وهم في الصيف عراة لا يستترون بشيء، وربما جعل الواحد منهم على سوءته خرقة أربع أصابع في مثل ذلك، مشدودة بخيط في الوسط. وفي الشتاء يتشحون بالحصر الحشيشية. ومنهم من يلبسون الازار مرقعاً من كل لون على لون المرقعة للشهرة،

ويلوثون أبدانهم برماد عظام الموتى من الهند الذين احرقوا، ويحلقون رؤوسهم وينتفون لحاهم وشواربهم ولا يحلقون شعر العانة ولا شعر الإبطين، وفي الأكثر يقصون أظفارهم. ومع الواحد منهم قحف رأس إنسان ميت فيه يأكل ويشرب على سبيل الاتعاظ بذلك والتواضع. وكان أهل سرنديب وما ولاها لما بلغهم خروج النبيﷺ فارسلوا رجلاً فيهما منهم وأمروه أن يسير إليه فيعرف أمره وما يدعو إليه. فعاقت الرجل عوايق ووصل إلى المدينة بعد أن قبض رسول اللهﷺ وتوفي أبو بكر رضه، ووجد القايم بالأمر عمر بن الخطاب رضه. فسأله عن أمر النبيﷺ فشرح له وبين ورجع. فتوفي الرجل بنواحي بلاد مكران. وكان مع الرجل غلام له هندي فوصل الغلام إلى سرنديب وشرح لهم الأمر وما وقفا عليه من أمر النبيﷺ وأبي بكر رضه وإنهم وجدوا صاحب النبيﷺ عمر بن الخطاب رضه. ووصف لهم تواضعه وانه كان يلبس ثياباً مرقعة، ويبيت في المساجد. فتواضعهم لأجل ما حكا لهم ذلك الغلام، ولبسهم الثياب المرقعة لما ذكره من لبس عمر رضه المرقعة. ومحبتهم للمسلمين وميلهم إليهم لما في قلوبهم مما حكاه ذلك الغلام عن عمر رضه. وفي مذهب أهل الهند ان الشراب على الرجال حرام وللنساء حلال ومن الهند من يشربه سراً.

وبالهند كهنة وسحرة أمرهم مشهود. وقد ذكرت بعض ذلك في هذا الجزء. وحدثني أبو يوسف بن مسلم قال كنت عند صاحب صندابور يوماً ما أتحدث إذ ضحك فقال أتدري لم ضحكت قلت لا فقال على الحايط وزغة، وتقول الوزغة الساعة يجيء ضيف غريب. فعجبت من حماقته وأردت الانصراف بعد ساعة فقال لاتبرح حتى تنظر آخر أمر هذه. فانا لفي حديثنا إذ دخل بعض أصحابه فقال وافى الخور من عمان مركب. ثم لم نلبث إلا ساعة حتى دخل جماعة ومعهم أقفاص فيها اسقاط وقماش وماورد. ففتح منها قفص فيه ماورد فقفزت منه وزغة كبيرة وصعدت إلى الحايط تعدو إلى الوزغة الأولى، فصارت الوزغة وزغتين وأنا أرى.

وحكي أن هذا هو الذي رقى التمساح في خور صندابور فهو إلى الساعة لا يؤذي أحداً البتة في خور صندابور. وكذلك خور سريرة لا يؤذي فيه التمساح اليوم أحداً، وقد كان قبل هذا لا يتمكن أحد أن يدنو من الماء إلا أثبته التمساح. وقد كان في الخور منه شيء عظيم يجاوز الحد، فوقع إليهم رجل هندي فقال لملك سريرة أنا أرقي التمساح لا يؤذي أحداً في الخور. فقال له افعل حتى أعطيك كذا وكذا ثم هرب الرجل فلم يقدر عليه. فلما كان بعد مدة دخل إلى سريرة رجل هندي صاحب رقي وكهانة وسحر. فصادف بسريرة صديقاً فقال له أريك شيئاً ظريفاً فقال نعم فجلس على الخور وتكلم بكلامه ثم قال شئت فادخل الخور فإن التمساح لا يؤذيك وإن شئت فاحضر من يدخل وإن شئت دخلت أنا. فقال له تدخل أنت فدخل هو ثم دخل الآخر ثم دخل آخر فجعل التمساح يطوف بهم ولا يؤذيهم. ثم صعدوا فقال له تحب أن

أخلي عنهم فقال افعل وطرحوا كلباً فقطعه التمساح. فبلغ الملك خبره فاحضره وقال عندك كذا وكذا فقال نعم. فركب الملك إلى الخور فاحضر معه رجلين يريد قتلهما. فقال له تكلم على الخور فتكلم فادخل أحد الرجلين الخور فأطافت به التماسيح فلم تؤثر فيه البتة، ولم تعرض له. ثم قال له اطلق بينهم فتكلم فقطعت التماسيح الرجل عضواً عضوا ثم قال له قد فعلت فعلاً حسناً، ووجبت مجازاتك، فخلع عليه ووهب له شيئاً ووعده ومناه. فلما كان من غد قال له أحب أن تفعل اليوم مثل ما فعلت أمس فقال نعم ثم ادعى الملك بغلام من غلمانه جلد جسور ولم يكن معه مثله. فقال له إذا أومأت إليك بضرب عنق هذا الهندي الكاهي فاضرب عنقه من ساعتك. ومضى إلى الخور وتكلم الهندي على الخور وطرح فيه أحد الرجلين فطافت به التماسيح ولم تعرض له. ثم لم يزل يعوم من موضع ويتحول إلى اخر حتى لم يبق في الخور ناحية إلا دخلها ذلك اللص، والتماسيح تطوف به ولا تعرض له. فلما علم الملك أنه قد رقى جميع لخور أومى إلى غلامه فضرب عنقه من ساعته. فخور سريرة إلى هذا الوقت لا يؤذي التمساح فيه أحدا.

والسرقة عند الهند عظيمة. فإذا سرق الهندي في بلاد الهند قتله الملك، إن كان الهندي وضيعاً أو لا مال له، وإن كان له مال أخذ الملك ماله بأسره أو غرمه غرامة عظيمة. وكذلك ان اشترى شيئاً مسروقاً بعد علمه بذلك غرم الغرامة العظيمة. ومجازاة السرقة عندهم القتل. وإن سرق مسلم ببلاد الهند رد الحكم في أمره إلى هنرمن المسلمين ليعمل فيه بما يوجبه حكم الإسلام. والهنرمن هو مثل القاضي في بلاد الإسلام ولا يكون الهنرمن إلا من المسلمين.

قال لي راشد الغلام بن بابشاد كنت سايرا من سيراف أريد البصرة في ذي القعدة سنة خمس وثلثمائة في قارب لطيف، فوقع علينا الخب بناحية رأس الكاملا، وطرحنا بعض الحمولة إلى البحر. فكنت أرى الأمواج تظل على القارب حتى يقع لي أنها قد ظللته بأسره، ثم تنكسر الأمواج تحته. وتفقدت غير مرة السماء إذا ظللتنا الأمواج فلا أراها لأن الأمواج قد حالت بيننا وبين السماء وغشينا من الأمواج ما يستر السماء عنا.

وحدثني (راشد) ان الجليل من تجار الهند والجند وغيرهم أو الجليلة من النساء، وإن كانت حظية الملك، يجتاز بروث البقر والجواميس. فإن كان معه من يحمله وإلا جعل علامة، ليعلم أن ذلك قد صار في حيز آخر، فإذا وجد من يحمله أخذه. والهند يأكلون الميتة، وذلك انهم يأخذون الشاة أو الطير فيضربون رأسه حتى يموت فإذا مات أكلوه. وقيل عن بعض كبارهم بصيمور وسوبارة اجتاز بفأرة ميتة، فاخذها بيده ودفعها إلى ابنه أو غلامه وحملها إلى منزله وأكلها. والفأر عندهم من أنظف ما يؤكل.

ومما يحكى لي عن بعض ملوك الصين ـ وهو من الحكايات ـ ان له بركة عظيمة

يجيئها الماء من فرسخ. ثم يفتح الماء عنها فينضب كله وهي فارغة. فإذا أحب أن تملىء ماء أمر بفتح الماء عليها من الموضع الذي يجيء منه، ثم تطرح اللؤلؤ مع الماء فيجري الماء إلى البركة في نهاية الصفاء واللؤلؤ فيه إلى أن تمتلىء البركة من اللؤلؤ، ويفيض الماء على جوانبها. ثم يقطع الماء عنها ويبقى اللؤلؤ مثل الحصى.

وقد ذكرت في بعض هذه الأجزاء طرائف من أخبار ديبجات الدم ـ وهي جزاير أولها بالقرب من ديبجات الكستج وآخرها عرضاً بالقرب من جزاير الوقواق ـ ويقال انهم نحو من ثلثين ألف جزيرة، والتجار يقولون إن العامر منها اثني عشر ألف جزيرة، وطول الجزيرة من نصف فرسخ إلى عشرة فراسخ، وبين كل جزيرتين فرسخ فما دونها وكلها رمال.

٢١ ـ فيلة هندية

وأخبرني بعضهم أنه شاهد ببعض بلدان الهند فيلة تتصرف في حوايج أربابها، وان الفيل يدفع إليه الوعاء الذي يشتري فيه الحوايج، وفيه الودع وهو نقد القوم، وانموذج الحاجة كاينا ما كانت. فيكون معه في الوعاء شيء من ذلك الجنس والنقد. ويمضي إلى البقال فإذا رآه البقال نزل من جميع شغله، ولو كان على رأسه من يشتري منه كاينا من كان، وأخذ الوعاء من الفيل، فعد الودع الذي فيه، ونظر ما يريد بأنموذج متاعه، ودفع إليه أجود ما عنده من ذلك النوع بأرخص سعر، ويستزيده فيزيده. وربما عد البايع الودع فغلط فيه، فيشوشه الفيل بخرطومه فيعد البقال عدة ثانية. ويمضي الفيل بما اشتراه. فربما استقله صاحبه فيضربه، فيعود إلى البقال فيشوش متاعه، ويخلط بعضه ببعض، فاما ان يزيده أو يرد عليه الودع. وإن الفيل الذي هذه صورته يكنس ويرش ويدق الأرز بمدقة يأخذها بخرطومه فيدق ورجل يجمع عليه الأرز ويطحن الأرز ويستقي الماء. وذلك أنه يأخذ الوعاء الذي يستقي فيه الماء وفي الوعاء حبل مشدود يدخل خرطومه فيه ويحمله. ويقضي جميع الحوايج ويركبه صاحبه في حوايجه البعيدة ويركبه الصبي ويمضي عليه إلى الصحراء. فيقطع الحشيش وورق الشجر بخرطومه ويدفعه إلى الصبي فيجمعه في وعاء معه ويحمله، فيكون ذلك طعامه. وانه إذا كان على هذه الصفة يبلغ مالاً عظيماً وقيل عشرة آلاف درهم.

٢٢ ـ مصايب البحر

ومن مصايب البحر المشهورة التي أثرت إلى يومنا هذا ما حدثني به بعض التجار. قال خرجت في مركب من سيراف في سنة ست وثلاث مائة يريد صيمور، وكان معنا مركب عبدالله بن الجنيد ومركب سبا. وكانت هذه الثلثة مراكب في نهاية الكبر ومن المراكب الموصوفة في البحر، ونواخذتها مشهورون، لهم قدر ومنزلة في

البحر. وفي المراكب ألف ومائتان رجل من التجار والنواخذة والبانانية وغيرهم من صنوف الناس، وفيها من الأموال والأمتعة ما لا يعرف مقداره لكثره. فلما سرنا أحد عشر يوماً رأينا آثار الجبال ولوايح أرض سندان وتانه وصيمور، وما سار هذا السير السريع قبلهم أحد فيما سمعنا. فاستبشرنا وسررنا وبشر بعضنا بعضاً بالسلامة، وأخذنا في الاستعداد لانا قدرنا أنا نصبح من غد الأرض. ثم جاءتنا الريح من الجبال فلم يضبط الشرع وأخذنا الخب والمطر والرعد والبرق. فقال الربانية والبانانية نطرح الأمتعة، فمنعهم أحمد وقال لا أطرح إلا بعد أن يخرج الأمر عن يدي، وأعلم أني هالك. ونزل الرجال ينزفون الجمة[٣٥] من الجانبين، والمركبين على مثل حالنا، كل واحد منها ينتظر صاحبه ما يفعل من طرح أو غيره، فيفعل مثله. وضج التجار وقالوا له اطرح الأمتعة وأنت في الحل فانا نهلك. فقال لا أطرح البتة ولم يزل الأمر يتزايد إلى أن مضت ستة أيام. فلما كان في اليوم السادس، وكاد المركب أن يغوص في البحر، قال اطرحوا الحمولة. فلم يمكن طرح شيء لأن الخوابي والأعدال ثقلت بالمطر. وكان ما فيه خمس مائة منا فقد صار فيه ألف وخمس مائة منا بالمطر. وعاجلهم الأمر وطرحوا القارب إلى الماء ونزل فيه ثلاث وثلثون رجلاً. وقيل لأحمد قم فانزل في القارب، فقال لا أبرح من مركبي فإنه أرجا في السلامة من القارب، وإن تلف تلفت معه فلا حظ لي في الرجوع بعد تلف مالي. قال لي هذا التاجر فمكثنا في القارب خمسة أيام ليس معنا لا ما يؤكل ولا ما يشرب، إلى أن لم يبق فينا فضل أن نتكلم بكلمة من الجوع والعطش والشدة التي مضت علينا في البحر، والقارب تقلبه الأمواج والرياح ولا ندري هو في البحر أو لا. ولشدة الجوع وما نحن فيه أومينا إلى بعضنا بعضا أن نأكل واحداً منا. وكان معنا في القارب صبي سمين لا يبلغ وكان أبوه في جملة من تخلف في المركب، فعزمنا على أكله. فأحس الصبي بذلك، فرأيته وهو ينظر إلى السماء ويحرك شفتيه وعينيه تحريكاً خفياً فما مضت ساعة حتى رأينا آثار الأرض ثم لاحت لنا الأرض، ثم جنح القارب على البر، وانقلب القارب ودخله الماء، وليس لنا قوة للقيام ولا لحركة. وإذا برجلين قد نزلا إلى القارب فقالا لنا من أين أنتم فقلنا نحن من مركب فلان. فأخذوا بأيدينا وأخرجونا إلى الأرض، فوقعنا على وجوهنا مثل الموتى. ومضى واحد منهما يعدو على وجهه. فقلت للآخر أين نحن، فقال هذا الدخان الذي تراه من التيز، وقد راح صاحبي إلى القرية، فعندنا الزاد والماء والثياب. فحملونا إلى البلد وهلك جميع أهل المراكب الثلاثة، فلم يسلم منهم أحد، إلا نفر من الذين كانوا في القارب، وكان في جملتهم ربان المركب أحمد، وكان اسمه بقي. وكان قد زاد تلف هذا المركب وما فيها من المعايش في اختلال سيراف وصيمور، لعظيم ما كان فيها من الأموال ووجوه النواخذة والربان والتجار.

ومن أعجب العجايب ما حدثني به بعض البحريين ممن أقام ببلاد الهند وغيرها

سنين كثيرة، انه سمع غير واحد ممن دخل تخوم الهند أن بنواحي قشمير الأعلى، في موضع يقال له ترنارايين، وادي فيه بساتين وأشجار ومياه تجري فيه سوق للجن يسمع فيه ضجيجهم في البيع والشراء. ولا ترى أشخاصهم، وان ذلك لم يزل يعرف على دوام الأيام بذلك الموضع. فقلت للرجل سمعت أن بها سوقاً قايم أبداً، أو في وقت دون وقت، فقال ما سألت عن هذا.

٢٣ ـ من العجايب

وقال لي بعض من دخل الصين أنه رأى هناك حجارة منها حجر يجذب الرصاص من وراء طست. وانه إذا جعل تحت الحامل سهل عليها أمر الولادة. ومنها حجر يجذب الصفر. ومنها حجر يجذب الذهب، وحجر المغناطيس المشهور الذي يجذب الحديد، وحجر يطفىء النار وفي جوفه آخر يتحرك. وقال لي انه رأى بناحية أغباب سرنديب حجر قد كسر فخرج منه دودة، فلما ظهرت دبت مقدار عشرة أذرع ثم ماتت، وانه كان على رأسها وذنبها زغب مثل زغب الفرخ.

ومن العجايب جبل باليمن يقطر من رأسه ماء، فإذا صار في الأرض جمد فصار هو هذا الشب اليماني.

وقال لي من رأى شجر اللبان ـ وهو الكندر ـ وهو نابت في أودية ومسايل الماء، وليس له بزر، وهو على قدر واحد منذ كان لا يعرفه أربابه إلا على صورة واحدة. وهو مع هذا يتفاضل في الحسن، وليس يوجد منه شجرة في الأرض إلا من حد حاسك إلى حدود حاريج، والجميع نحو مائة وخمسين فرسخا.

وقال لي من دخل الهند انه رأى في عنقية بنواحي مانكير، وهي قصبة بلاد الذهب، وبها شجرة عظيمة غليظة الساق تكون مثل شجر الجوز، لها ورد أحمر فيه بياض مكتوب لا إله إلا الله ومحمد رسول الله.

وفي بحر الصنف جزيرة إذا وقعت السرطانات إلى أرضها صارت حجارة، وهو حجر معروف يجلب إلى العراق وساير الدنيا وهو من الأدوية في جلاء البياض من العين، والصيادلة يسمونه السرطان النهري.

وحدثني رجل من الرجال أن بالبجة عينا غزيرة عليها حجر من زبرجد عظيم يحمله أربعة أصنام من ذهب. فإذا طلعت عليه اخضرت العين كلها بخضرته. وان عبر، وهو ملك من الملوك المقاربة لتلك النواحي، غزاهم لأجل هذا الحجر طمعاً أن يظفر بهم فيأخذه، فلا يقدر عليهم أحد وأنهم قد جربوا. وقال انهم ما زالوا يستبقون، وإن بعض ملوكهم عزم على أخذ الحجر فلحقه سوء منعه أو نحو هذا.

وقال لي بعض أصحابي ان بناحية أغباب سرنديب طايراً كبيراً، إذا أفرخ على شاطىء البحر لم تهب الرياح في تلك الناحية إلا بعد أربعة عشر يوماً.

وحدثني العماني محمد قال رأيت بيريين من بلاد الهند غلاماً من الهند قد

أخذه الملك في سرق أو غير ذلك، وقد أمر بسلخه وهو يتكلم ويغني ولا يتأوه، إلى أن بلغ السلخ إلى سرته فلما قطعها طفى.

وحدثني أن بجزيرة من جزاير الوقواق طيراً ملوناً بحمرة وبياض وخضرة وزرقة، على لون الشقراق، وفي قد الحمام الكبار، يسمونه سمندل. يدخل النار فلا يحترق ويمكث الأيام لا يطعم إلا التراب. فإذا احضن بيضه لم يشرب الماء إلا حتى يفقس. فإذا خرجت فراخه تركه أياماً لا يدنو منه، ويطوف بالفراخ الذباب والبق، إلى أن يخرج ريشهم فإذا ريشوا وتحركوا زقهم حينئذ.

وحدثني أن بجزيرة من جزاير الوقواق دابة تشبه الأرنب تصير الذكور منها مرة أنثى ومرة ذكراً، والأنثى كذلك. والذي حكى لي ذكر أن بعض الهند قال إن أهل سرنديب يحدثون بهذا. وما أدري ما أقول في هذه الحكاية. وقالوا إن الأرانب على هذه الصورة وهو عندي يستحيل والله أعلم.

وقال لي بعض من سلك البحر انه رأى بسفالة الزنج حيواناً قدر الضب إلا أنه على نحو صورته ولونه، للذكر منه ذكران والأنثى لها فرجان. وإن هذه الدابة تعض فلا تبرأ عضتها، ولا يزال الجرح ينتقض على صاحبه يعالجه فلا يبرأ أبدا. وان هذه الدابة أكثر ما يكون في مزارع قصب السكر والذرة. وأكثر مضار أهلها الحيات والأفاعي وإذا اجتمع منها على رجل واحد ثلاثة أو أربعة قطعوه ولم يطرقهم، وهم يثبون في وجه الإنسان.

وحدثني جعفر بن راشد المعروف بابن لاكيس - وهو أحد ربانية بلاد الذهب، ونواخذته المشهورين فيه - ان حية جاءت إلى خور صيمور، فابتلعت تمساحاً كبيراً. وبلغ صاحب صيمور الخبر، فوجه من يطلبها وأنه اجتمع عليها زيادة على ثلاثة آلاف رجل حتى ظفروا بها، وشدوا في عنقها الحبال. واجتمع عليها جماعة من أصحاب الحيات، فقلعوا أنيابها وشدوها بالحبال، وحصل لها شجة من رأسها إلى أذنها وذرعوها وكانت أربعين ذراعاً. وحملها الرجال على اعناقها، وكان تقديرها آلاف أرطال. وكان ذلك في سنة أربعين وثلاثمائة.

٢٤ - الواق واق

وقد حكى لي قوم انهم رأوا من دخل الوقواق واتجر، فوصف سعة البلاد والجزاير - وليس أعني بسعة البلاد ان البلدان كبار ولكن أهل الوقواق كثير - وفيهم مشابه من الترك. وهم أحذق خلق الله بالصنايع، ثم إنه يتخرج في جميعها. وهم أهل مكر وحيل وخديعة وخبث وشدة بأس في كل شيء.

وحدثني ابن لاكيس انهم شاهدوا من أمر أهل الوقواق ما يدهش. وذلك أنهم وافوهم في سنة أربع وثلثين وثلاث مائة في نحو ألف قارب فحاربوهم حرباً شديداً، ولم يقدروا عليهم. لأن حول قنبله حصن وثيق، وحول الحصن خور فيه من ماء

البحر، وقنبله في ذلك الخور مثل القلعة الحصينة. وإنه وقع إليهم قوم منهم فسألوهم عن مجيئهم إليهم دون ساير البلاد، فذكروا انهم إنما جاءوهم لأن عندهم من الأمتعة ما يصلح لبلادهم والصين، مثل العاج والذبل والنمور والعنبر، ولأنهم يريدون الزنج لصبرهم على الخدمة وجلدهم، وانهم جاءوهم من مسيرة سنة، ونهبوا جزاير بينها وبين قنبله مسيرة ستة أيام، وظفروا بعدة قرى ومدن من سفالة الزنج ما عرف خبره سوى ما لم يعرف. فإذا كان قول هؤلاء وحكايتهم صحيحة انهم جاءوا من مسيرة سنة، فهذا يدل على صحة ما ذكره ابن لاكيس من أمر جزاير الوقواق. وانها قبالة الصين والله أعلم.

٢٥ ـ سريرة

وقد ذكرت أمر سريرة وانها في آخر جزيرة لامري. وبين سريرة وكله مسيرة مائة وعشرين زاماً والله أعلم. وبلغني أن خور سريرة يدخل في الجزيرة خمسين فرسخاً، وهو نهر أوسع من دجلة البصرة بكثير. ماؤه عذب مثل ماء دجلة البصرة، وليس في أخوار بلدان هذه الجزيرة أطول منه. والمد فيه اثني عشر ساعة. وفيه التماسيح إلا ما كان منه بين الدور لا يضر، لانه فيما قد حكي أنه قد رقي، وما كان خارج الدور فليس يمكن أحداً يدنو منه بسبب التمساح. ودور سريرة بعضها في البر، وعظمها في الماء، مبني على خشب ملفق مثل الأطواف ويبقى طول الدهر. وكل ذلك بسبب النار، فإن الحريق يقع كثيراً عندهم لأن الأبنية من خشب. فأدنى شيء يقع من النار فتحترق ساير الدور. فقد جعلوا هذه الدور في الماء استظهاراً. فإن وقع حريق أمكن صاحب المنزل أن يقطع الأناجر من منزله، ويتحول إلى ناحية أخرى، فيهرب من النار. وربما كره بعضهم جوار بعضهم فيتحول عنه إلى حارة أخرى. والدور صفوف في الخور مثل الشوارع، والماء بين الدور غزير جداً، وهو عذب لأنه من فوق إلى أن ينصب في الخور ويخرج إلى البحر على هيئة دجلة من البحر.

٢٦ ـ الزنج

وحكي لي انه سمع بعض الربانية يقول إن المركب إذا مضت إلى سفالة الزنج فأكثر ما يبلغون إلى بلد فيه زنج يأكلون الناس. وإنما يقع المركب إليهم على سبيل الغلط، لأن الماء والريح يحدرانه فلا يقدر الربان على ضبطه، ويغلبهم فيقع إليهم. وبين قنبله وبين هذا الموضع الذي فيه الزنج الذين يأكلون الناس نحو ألف وخمس مائة فرسخ والله أعلم. فأما الموضع الذي تمضي إليه المركب فهو بعد قنبله بنحو ألف فرسخ وأقله ثمان مائة، وهو مسيرة اثنين وأربعين زاما ونحوها.

وحدثني ابن لاكيس انه كان بسفالة عند بعض ملوك الزنج إذ جاءه رجل فقال له أيها الملك إن فرخاً من فراخ طيور كذا ـ ونسي ابن لاكيس اسم الطير ـ قد وقع في

الغوطة الفلانية، وكان قد اقتنص فيلاً وكسره وهو يأكل فيه، وقد صيد. فقام ملك الزنج وخرج إلى الغوطة ومعه خلق كنت أنا فيهم. فوقفنا على الطاير وهو يضطرب والفيل مطروح قد أكل منه نحو ربعه. فأمر الملك بأخذ ريش جناحيه. فإذا بالكبار منها اثني عشر ريشة، في كل جناح ست، وأخذ من ريشه شيء غير ذلك. وأخذ منقاره وشيء من مخاليبه وشيء من جوفه، وحمل معه. وكان في ذلك الريش الذي أخذ شيء قطع أسفله تسع قربتين ماء وأكثر. وحكوا انه من فراخ طيور يكون بسفالة الزنج وأنه اجتاز بالغوطة فرأى الفيل فأخذه بمخاليبه ورفعه إلى الهواء ورمى به فقتله، ثم نزل عليه فأكله. وأحس به قوم كانوا هناك فاثخنوه بالسهام المسمومة والحراب حتى صرعوه وقتلوه.

٢٧ ـ سرنديب

وقال لي ابن لاكيس إن بين ثبيه وجزيرة الغيلمي بحر صغير يقال له بحر صفيو طوله مسيرة ستة أيام. ويحتاج المركب إذا سلكه أن يأخذ ماء ثلاثين باعا، فانه إن كان في عشرين باعاً غاص. وذلك ان في هذا البحر وحلا رقيقاً إذا وقع فيه المركب أتلفه. وقليل أن يسلم منه أحد.

ومن الجزاير الموصوفة التي ليس مثلها في البحر جزيرة سرنديب وتسمى سهيلان. وطولها نحو مائة فرسخ ودورها ثلثمائة فرسخ وفيها مغاص اللؤلؤ النقي، إلا أنه صغار، ومهما كان منه كبار فهو ردي. وجبلها حصين وهو جبل الياقوت والأدماس. ويقال إن هذا الجبل هو الذي هبط عليه آدم (عم)، وفيه أثر قدمه طوله نحو سبعين ذراعاً. وأهل الجزيرة يقولون إن هذا الأثر هو رجل آدم (عم) وانه وضع رجلاً هاهنا والرجل الأخرى في البحر. وفيها تراب أحمر وهو هذا السنبادح الذي يخرط به البلور والزجاج. وقشور اشجارها القرفة المرتفعة وهي القرفة السهيلانية الموصوفة. وحشيش هذه الجزيرة أحمر يصبغ به الثياب والغزل، وهو صباغ يفوق البقم والزعفران والعصفر وكل صبغ أحمر. وبها من غرايب النباتات مما يطول شرحه ويتعجب منه. وقيل ان بجزيرة سرنديب نحو مائة ألف قرية.

٢٨ ـ حكايات

وسمعت من حكى أن رجلاً من أهل البصرة كان ينزل في وسط سكة قريش، خرج من البصرة قبل الزابج أو ما قاربه... فتخلص ووقع إلى جزيرة، قال فصعدت تلك الجزيرة وتعلقت بشجرة كبيرة، فواريت شخصي بين أوراقها وبت ليلتي. فلما أصبحت رأيت غنماً قد اقبلت نحو مائتي رأس في قدر العجاجيل، يسوقها رجل لم أر مثله، عظيم الخلقة طويل عريض بشع المنظر ومعه عصاه يسوق بها الغنم. فقعد على ساحل البحر ساعة والغنم ترعى بين ذلك الشجر. ثم طرح نفسه على وجهه

فنام إلى حدود نصف النهار ثم قام فرمى بنفسه في الماء واغتسل، وخرج وهو مع ذلك عريان ليس عليه إلا ورقة تشبه ورق الموز، إلا انها أعرض منه، قد جعلها في وسطه كالميزر. ثم عمد إلى شاة فقبض رجلها وأخذ ضرعها في فيه ومصه إلى أن شرب ما فيه، ثم فعل ذلك بعدة من الغنم. ثم استلقى في ظل شجرة. ففي تأمله الشجرة وقع طاير على الشجرة التي أنا فيها فأخذ حجراً ثقيلاً وحذف الطاير فلم يكذب. فسقط الطاير بين أغصان الشجر بالقرب مني فأومى إلي بيده أن أنزل فلخوفي منه بادرت، وأنا ضعيف ميت خوفاً وجوعا. وأخذ الطاير ورمى به إلى الأرض، فقدرت أن وزن الطاير نحو مائة رطل. ثم نتف ريشه وهو حي يضطرب فلما نتفه أخذ حجراً قدر عشرين رطلاً فضرب به رأسه وتركه حتى مات. ثم لم يزل يضربه بالحجر حتى فسخه، ثم جعل ينهشه بأسنانه ويأكل كما تأكل السباع، حتى أتى عليه ولم يبق إلا عظامه. فلما اصفرت الشمس قام وأخذ العصا وساق الغنم بعد أن صاح صيحة وافزعني. فاجتمعت الغنم إلى موضع واحد وأوردهم خليجاً في الجزيرة فيه ماء عذب فسقاهم وشرب وشربت وقد ايقنت بالموت. ثم ساقنا أجمعين حتى جئنا موضعاً قد علمه بين الأشجار وحوله الخشب طولاً وعرضاً وله شبه باب. ودخلت الغنم ودخلت معها وإذا في وسط تلك الموضع مثل الغزالة في ارتفاع نحو عشرين ذراعاً على خشب وثيق، والغزالة شبه بالبيت. فما عمل شيئاً دون أن أخذ شاة كانت من أصغر الغنم وأهزلها فدق رأسها بحجر ثم أجج ناراً وجعل يقطع بيديه وأسنانه كما تفعل السباع ويرمي اللحم مع الجلد والصوف في النار فأكل كل ما في جوف الشاة نياً. ثم عمد إلى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وهذه حتى شرب من عدة كبيرة. ثم أخذ شاة من أكبر الغنم فقبض بيديه على وسطها فسخمها وهي تصيح، ثم أخذ أخرى ففعل بها مثل ذلك ثم صعد فأخذ شيئاً كان يشربه ثم نام. فجعل يغط كما يغط الثور. فلما انتصف الليل، جعلت أدب قليلاً قليلا إلى موضع النار وتتبعت ما بقي من اللحم فأكلت ما يمسك رمقي. وخفت أن تنفر الغنم فينتبه فيجعلني مثل الطاير أو كالشاة. وبقيت مطروحاً إلى الغد فلما أصبح نزل وساق الغنم وساقني معهم. ويوحي إلي بكلام لا أفهمه فاتكلم بما أعرف من اللغات فلا يفهم عني. وقد صار علي شعر عظيم وأظنه لما رآني على الصورة عافتني نفسه وكان ذلك سبب تأخير أكلي ولم أزل معه في تلك الحالة عشرة أيام، يفعل كل يوم مثل ما يفعل قبله، ولا يمضي يوم إلا ويصطاد فيه الطير والطيرين. فإن حصل له من الطيور ما يشبعه لم يأكل شيئاً من الغنم، وإن اقتصرت الطيور أكل شاة. وصرت أعاونه في وقيد النار وجمع الحطب وأخدمه وأدبر الحيلة لنفسي إلى أن مضى لي عنده شهرين، وصلح جسمي ورأيت في وجهه آثار السرور وفهمت أنه عزم على أكلي وكان يأخذ من شجر في الجزيرة له ثمر ينقعه في الماء ثم يصفيه ويشربه فيسكر طول ليلته حتى لا

يعقل. وكنت أرى في تلك الجزيرة طيوراً كبارا كالفيل والجاموس وأكبر وأصغر ومنها شيء قد أكل بعض غنمه. وإنما يبيت هو وغنمه في تلك الحظيرة خوفاً من تلك الطيور لأنها بين شجر كبار وقد جعل تحت الشجر مثل السراديب من وثاقة ما قد عمل. والطير يفزع أن ينزل إلى هناك فيتعوق في الأشجار. فلما كان في ليلة من الليالي صبرت حتى سكر ونام. فقمت وتعلقت بشجرة ودليت غصن من اغصانها إلى الأرض ومضيت على وجهي اطلب صحراء قد كنت اشرفت عليها من تلك الشجرة فلم ازل امشي إلى الصباح. ثم خفت وتعلقت بشجرة عظيمة الساق ومعي خشبة قد اعمدتها وعملت على انه ان لحقني ضربت رأسه، فاما ان ادفع عن نفسي، واما ان يقتلني ـ فالموت لا بد منه. فمكثت يومي في شجرة فلم اره. وقد كنت اخذت معي قطعة من اللحم فلما امسيت اكلتها ونزلت فمشيت ليلتي إلى الصباح فوجدت نفسي في صحراء وفيها اشجار متفرقة فمشيت وما أرى أحداً إلا الطيور ووحشاً لا اعرفها وحيات. ورأيت ماء عذباً فأقمت بمكاني وجعلت آخذ من تلك الثمار والموز فآكل واشرب والطيور تطوف بالغوطة. فعاينت طيراً منها فأعددت شيئاً من قشور الشجر مثل الحبال ولم ازل ارصد ذلك الطاير حتى سقط يرعى ودرت من خلفه فتعلقت بساقه، وهو مشغول يرعى، فشددت نفسي. فلما فرغ من أكله شرب ماء وتحلق في الهواء، فاشرفنا على البحر فاستبسلت للموت على أي حال كان لا محالة. فانحط على جبل في الجزيرة. فحللت نفسي من ساقه وانا ضعيف فجعلت اجر نفسي خوفاً منه. ونزلت من الجبل فتعلقت بشجرة واخفيت شخصي فيها، فلما اصبحت رأيت دخاناً، فعلمت ان الدخان مع الناس، فنزلت امشي إلى ناحية الدخان، فما مشيت قليلاً حتى استقبلني جماعة، فاخذوني وكلموني كلاماً لم اعرفه. فحملوني إلى القرية فأدخلوني إلى منزل وحسوني مع ثمانية انفس فسألوني عن خبري فحدثتهم، وسألتهم فخبروني انهم اهل مركب فلان، وكان قد خرج من الصنف إلى الزابج. فوقع عليهم الخب فتخلصوا في قارب المركب نحو عشرين رجلاً، فوقعوا إلى هذه الجزيرة. فاخذهم قوم فاقتسموهم فأكلوا منهم جماعة إلى هذا الوقت. فنظرت وإذا مقامي عند صاحب الغنم كان اصلح. فجعلت اتأسى بالقوم، وان كنت أوكل، فقد هان علي الوقت وبعضنا يتأسى ببعض. فلما كان من الغد جاءونا بسمسم او شيء يشبهه وموز وسمن وعسل وضعوه عندنا. فقالوا هذا طعامنا منذ وقعنا هاهنا فأكلنا مقدارا ما يمسك رمقنا. ثم جاءوا فنظروا إلينا وأخذوا احسننا حالاً في جسده فودعناه. وقد كان بعضنا اوصى ببعض فاخرجوه إلى وسط المنزل ودهنوه من رأسه إلى قدمه بالسمن ثم اقعدوه في الشمس مقدار ساعتين. ثم اجتمعوا عليه فذبحوه وقطعوه قطعاً ونحن نرى. ثم شووه واكلوه وطبخوا بعضه، واكلوا بعضه نيا مملوحاً، ثم شربوا شراباً وسكروا فناموا. فقلت قوموا فنقتل هؤلاء فانهم سكارى ونخرج على وجوهنا

فان سلمنا فالحمدلله، وان هلكنا فهو اسهل من هذا البلاء الذي يحل بنا، وان لحقنا اهل القرية فهي موتة واحدة. فاختلف رأينا بقية يومنا واظلنا الليل. واصبحنا فجاءونا بما نأكل على الرسم المعتاد، ومضى أول يوم وثاني يوم وثالث ورابع يوم ونحن على تلك الحالة. فلما كان في اليوم الخامس جاءونا فاخذوا منا واحداً ففعلوا به مثل الأول فلما سكروا وناموا قمنا اليهم فذبحناهم بأسرهم، واخذ كل واحد منا سكيناً وشيئاً من العسل والسمن والسمسم. فلما اظلمت الدنيا خرجنا من المنزل، وقد كنا ميزنا بالنهار، فمشينا نطلب ساحل البحر من جانب آخر، لا من شط القرية. ودخلنا غوطة فتعلقنا بالشجر ونحن سبعة او ثمانية خوفاً من القوم. فلما جن الليل نزلنا ومشينا ونحن نأخذ الطريق على الكواكب. واخذنا نمشي الساحل الساحل يومنا، ثم امنا القوم. فكنا الان نمشي ونستريح ونأكل من ثمار الغيط، وهي كثيرة الموز، زماناً طويلاً إلى ان وقعنا في غوطة حسنة، وفيها ماء عذب طيب. فعزمنا على المقام بها ابداً إلى ان يقع الينا مركب او نموت فيها. فمات منا ثلاثة وبقينا اربعة. فبينما نحن في بعض الايام نمشي واذا بقارب خلق قد قذف به الموج وفيه جماعة موتى، قد تقطعوا، والقارب جانح في الطين، والموج يضربه وهو مطروح. فاحتلنا في رميهم إلى البحر وغسلنا القارب، واخذنا معنا طينا من طين الجزيرة مثل الغري، واصلحنا فيه دقلا من الشجر، وسوينا حبالاً من خوص النارجيل، وشراعا ليفا، وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة، وملأنا معنا ماء، وبعضنا يدري سفر البحر. وسرنا نحو خمسة عشر يوماً، ووقعنا بقرية من قرى الصنف بعد اهوال وعجايب مرت بنا. وسرنا من تلك القرية إلى ان وصلنا الصنف، وخبرنا الناس باخبارنا. فجمعوا لنا زوادا وخرج كل واحد منا يقصد بلدا. ورجع إلى البصرة بعد اربعين سنة من غيبته. وقد مات اكثر اهله ووجد لوالده ولدا فأنكروه. وقد كانوا لما انقطع خبره قسموا ماله وكان موسراً وحاله حسن. فلم يصل من ماله إلى شيء ثم مات بعد ذلك.

وحدثني بعض البحريين انه كان ماضياً بين سريرة والصين في سنبوق[٣٦] قال فلما سرنا من سريرة مقدار خمسين زاما، وقع علينا الخب. ثم وقعت علينا الريح ولم يمسك المركب، واشرفنا على الهلاك. واردنا ان نرمي نفوسنا في البحر ونتعلق بجزيرة. فرمينا الاناجر ونحن لا نصدق انا نتخلص. وسكنت الامواج ولم تمض عنا ساعة حتى لاح لنا من الجزيرة جماعة فانتظرنا ان يخرج الينا قوم منهم، فلم يخرج الينا احد. فأومانا اليهم فلم يكلمونا ولم نعرف الموضع. وحققنا انا نحن متى نزلنا اليهم اذونا او يكون وراءهم قوم فيقعوا بنا فلا نطيق لهم. فمكثنا في موضعنا اربعة ايام لا ينزل منا احد إلى الجزيرتين ولا يعبر منهم احد الينا. فلما كان في اليوم الخامس اجتمع رأينا على النزول اليهم لأنا احتجنا إلى الماء، وإلى مسألتهم عن الموضع، ونحن لم نعرف الطريق. فنزل منا مقدار ثلثين رجلاً بالسلاح في القارب

والدونيج. فلما صعدنا اليهم تهاربوا كلهم، ولم يبق منهم الا رجلاً واحداً فكلمنا، فلم نعرف لغته الا رجل واحد منا، قال لنا هذه جزيرة من جزاير الوقواق. فسألناه عن الجزيرتين فحكى انها من جزاير الوقواق وان ليس بقربها بلد الا على مسيرة ثلاثة مائة فرسخ. وهي جزيرة ليس فيها احد سواهم وعدتهم اربعين نفسا. وسألناه عن طريقنا إلى الصنف فعرفنا ودلنا وملأنا الماء وشرعنا نحو الصنف على ما قال. فاقمنا خمسة عشر زاما واشرفنا سالمين إلى الصنف، والسلام وحسبنا لله ونعم الوكيل،،

تم الكتاب
والحمدلله وحده وصلوته على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم. غفر الله لمن قرأ في هذه النسخة المباركة
ودعا لكاتبها بالرحمة والرضوان ولجميع
الملسمين وكان الفراغ سابع عشر
من جمادي الأولى سنة ٤٠٤
كتبه محمد ابن القطان

الهوامش

(١) جمع ناخذة وهو ربان السفينة.
(٢) المرساة.
(٣) المتاع الرخيص.
(٤) القار الزفت واستعمل هنا مجازاً بمعنى السواد.
(٥) محمي من الرياح.
(٦) خبأته.
(٧) المراسي.
(٨) القمرة.
(٩) السفينة.
(١٠) قارب صغير ملحق بالسفينة.
(١١) نوع من السمك له منقاد حاد.
(١٢) ريح عاتية تهب في تلك المياه.
(١٣) قصعة.
(١٤) ميناء يقع على شمال خليج العقبة.
(١٥) الشقراق طائر كالحمام منقط بخضرة وحمرة وبياض.
(١٦) القافة جمع قائف وهو الذي يتكهن عن المستقبل.
(١٧) كاتب السفينة.
(١٨) أرض رخوة.
(١٩) الزام قياس للمسافات البحرية يعادل ستة فراسخ والفرسخ نحو ثلاثة أميال بحرية.

(٢٠) أي للخدمة.
(٢١) أي وقع بينهم شرط.
(٢٢) الدليل.
(٢٣) سفينة.
(٢٤) قمرة السفينة.
(٢٥) درهم نقرة أي من الفضة.
(٢٦) إناء من خزف.
(٢٧) سفن القرصان.
(٢٨) الكلس.
(٢٩) الزيت.
(٣٠) صحن.
(٣١) البد هو التمثال وأصله تمثال لبوذا.
(٣٢) الحبل المفتول من ليف النارجيل.
(٣٣) الماس.
(٣٤) الريح القوية المؤاتية.
(٣٥) الجمة الماء الكثير المتجمع.
(٣٦) زورق.

رواد الشرق العربي

في العصور الوسطى

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

رواد الشرق العربي

في العصور الوسطى

المحتويات

مقدمة: العالم العربي في العصور الوسطى ١١٥

القسم الأول: الرحلة والرحالون في العصور الوسطى ١٣٧

١ ـ الرحالة والحج ١٣٩

٢ ـ الحجاج المسيحيون ١٤٥

٣ ـ الجغرافية والرحلات في الإسلام ١٥٤

٤ ـ الرحالون المسلمون ١٦٠

٥ ـ الرحالون الاوروبيون في زمن الصليبيين ١٧٦

٦ ـ أدب الدعاية ١٨٨

٧ ـ رحالو القرن الرابع عشر ١٩٣

٨ ـ الرحالون في القرن الخامس عشر ٢٠٣

القسم الثاني: صور للحياة في الشرق العربي ٢١١

١ ـ الشرق العربي عند المقدسي وناصري خسرو ٢١٣

٢ ـ الشرق العربي في القرن الثاني عشر ٢١٨

٣ ـ الأحوال الاجتماعية في الشرق العربي في القرن الثاني عشر ٢٣٣

٤ ـ الشرق العربي في القرن الثالث عشر ٢٤٤

٥ ـ الشرق العربي في القرن الرابع عشر ٢٥٥

٦ ـ الشرق العربي في القرن الخامس عشر ٢٦٨

٧ ـ الأسفار في العصور الوسطى ٢٧٧

المصادر ٢٨٦

مقدمة: العالم العربي في العصور الوسطى

الفتوح العربية الاسلامية

امتدت الفتوح العربية الاسلامية قرنا وبعض القرن بعد وفاة النبي، وكانت متعددة النواحي منوعة النتائج، فقد كانت فتحا عسكرياً امتد إلى الهند والصين شرقاً، وبحر الظلمات غرباً. وكانت فتحا عنصرياً بمعنى أن الجنس العربي تغلب على الأجناس الأخرى وتمثلها في بعض الأقطار دون الأخرى. وكلما قرب القطر من بلاد العرب نفسها، كان استيطان العرب فيه أكثر وتأثره بالعنصر العربي أكبر. وكانت فتحا لغوياً. فقد انتشرت اللغة العربية في الأقطار المفتوحة انتشاراً سريعا. وإذا كان ثمة من يجب أن يذكر بالخير في هذه المناسبة، فالفضل يعود إلى عبد الملك بن مروان والمأمون. فالأول عرَّب الإدارة، فجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية. والثاني نقل العلوم إلى العربية فعرَّب الحركة الفكرية والعقلية. على أنه يجب أن نذكر فتحا رابعاً تم في هذه الفترة، هو الفتح الديني. فقد انتشر الاسلام في الأقطار المفتوحة لأسباب كثيرة لا يتسع المجال لبحثها الآن.

وهذه الأمور هي التي عيّنت إتجاه الأمم والشعوب التي خضعت للعرب. فتلك التي خضعت لسلطان العرب السياسي وحده حاولت الثورة أو الخروج، فلما واتتها الظروف استردت حياتها الأولى. وبعض هذه الشعوب استقلت سياسياً، لكنها احتفظت من الفتوح العربية بالفتح الديني، إذ كان الإسلام قد تغلغل فيها. أما البلاد التي أصبحت عربية دماً ولغة وفكراً وعقلاً، فهي التي تحدها جبال فارس شرقاً وجبال طوروس شمالاً ثم تمتد غرباً فتشمل مصر وشمال أفريقية كله. وهذه الحدود اللغوية تتفق مع حدود طبيعية كان اجتيازها صعباً على عدد كبير من العرب. فلم يقطنوا وراءها جماعات كبيرة ولذلك اقتصر تأثيرهم فيها على الدين أو السياسة.

وإذا نحن عرضنا لتاريخ العرب إلى نهاية العصر العباسي الأول، ألفيناه وحدة زمانية يصح أن ينظر إليها نظرة واحدة. فقد تم فيها الفتح الذي ذكرناه، واتجهت شؤون الامبراطورية الاسلامية نحو الاستقرار. ولقد كان يغلب على فترة منها دون الأخرى رأي، أو تسيطر عليها فكرة خاصة، ولكن الوحدة هي الرابط الرئيسي بينها. فقد كان دور الخلفاء الراشدين يغلب عليه الدين لقرب عهد الناس بالبعثة ولتأثرهم

بحياة الرسول والصحابة. وكان عهد الأمويين تغلب عليه العروبة. وعهد العباسيين الأول سيطرت عليه نزعة فارسية في إدارته. لكن في كل حال كان الخليفة مصدر السلطان الحقيقي، وإليه يرجع في حل المعضلات، وشخصيته هي التي تفرض إرادتها على شؤون الدولة وتلونها بلونها. ولا ريب عندنا في أن انتقال عاصمة الخلافة من المدينة إلى دمشق، ثم إلى بغداد، كان له دلالة كبيرة. ففي الحالتين الأوليين كانت الدولة العربية تتجه إلى بلاد العرب نفسها وترتكز عليها. أما في الحالة الثالثة فقد اعتمدت العاصمة على جبال فارس وارتكزت عليها. لكن خلفاء العصر العباسي الأول كانوا على درجة من قوة الشخصية وعلو الهمة تجعل السيطرة الأجنبية تقف عند حد.

تفكك الوحدة السياسية

على أننا نلحظ أن هذه الوحدة السياسية لم تلبث أن تضعضعت، ولم يمض قرن من الزمان حتى كانت الرقعة التي رفرف عليها علم العروبة والاسلام قد تجزأت. وقد أكثر المؤرخون من التحدث عن هذه الناحية من التاريخ الإسلامي وأفاضوا في معناها ودلالتها. ولكننا نعتقد أنه لم ينظر إليها بعد نظرة صحيحة بعيدة عن الهوى. فالواقع أن هذا الانقسام السياسي كان أمراً طبيعياً ونتيجة محتومة. فقد كانت رقعة العالم العربي عندئذ واسعة شاسعة متباعدة الأطراف، وكانت المسافة بين جزئها الشرقي وطرفها الغربي يحتاج في قطعها إلى عشرة أشهر على ما قدره المقدسي. وما كان من المتيسر أن تدار هذه الرقعة كلها من مركز واحد في القرن الثالث أو الرابع للهجرة، وقد كانت المواصلات على ما نعرف. ومن ثم فقد كان من الطبيعي أن تتخذ الشكل السياسي الذي اتخذته في تلك الايام وكان انقسامها الى ثلاث وحدات ـ تتمركز احداها حول العراق، وأخرى حول مصر، والثالثة حول الاندلس ـ حلاً لمشكلاتها. لكن الذي نأسف له، ونحن نشير إلى هذا الأمر، هو أن هذه الوحدات السياسية لم تلبث أن وقع بينها الخلاف واستحكمت بينها العداوة، فاختصمت واحتربت وكان بعضها عوناً للاجنبي على البعض الآخر. وثمة أمر آخر يؤسف له وهو التجزؤ الموضعي لهذه الوحدات الكبيرة. ولسنا نطمع في أن نؤرخ للعالم العربي في هذه العجالة، ولكننا نريد أن نضع بين يدي القارىء صورة موجزة لما كان عليه هذا العالم في العصور الوسطى، تمهيداً للتحدث عن الرحالة.

ونحن واجدون أن دولة الطولونيين ٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥م كانت أولى الدول التي انسلخت عن الخلافة العباسية في الجهة الغربية من المنطقة التي نريد أن نشرف عليها الآن. أنشأها أحمد بن طولون وأدارها عشرين سنة، ثم ولى شؤونها ابنه خمارويه. وفي عهدها ازدهرت شؤون مصر، لكن الضعف تسرب إلى الدولة فعادت مصر إلى الخلافة. ولعل السر في انحلال هذه الدولة يرجع إلى أن مؤسسها كان غريباً عن مصر، وكذلك ظلت أسرته من بعده.

فتوحات أحمد بن طولون

ضم أحمد بن طولون سورية إلى ملكه، إذ حمل عليها سنة ٨٧٧ ـ ٨٧٨م، فسلمت دمشق والمدن السورية الكبيرة حتى طرسوس، وقاومت انطاكية، لكنه تغلب عليها في النهاية، ووصل ملكه إلى حدود الفرات. وإلى هذه المدة يرجع اهتمامه ببناء ميناء عكاء. وأرسل ابن طولون حملتين ضد البزنطيين من طرسوس، كان النصر حليفه فيهما سنة ٨٨١ وسنة ٨٨٣ م، ثم سار بنفسه لمعاقبة قائده خلف، لما عصى عليه واستأثر بالأمر. ولما مات ابن طولون وخلفه خمارويه اتفق حاكم الموصل والانبار على رد سورية لسلطة الخلافة، فحملا على سورية واحتلا دمشق سنة ٨٨٥ م، لكن خمارويه عاد بعد أقل من عام واسترد البلاد ودخل دمشق سنة ٨٨٦ م. وتدخل في شؤون حكام شمال العراق، وأقام سنة في تلك الجهات بسبب حروب الأمراء. وانتهى الأمر بخمارويه أن حسنت علاقته بالمعتضد العباسي، فتزوج هذا ابنة حاكم مصر على أن الدولة انحلت بعده كما ذكرنا قبلاً، ولم تلبث أن شقت مدن سورية الشمالية عصا الطاعة وهاجم القرامطة سورية سنة ٨٩٨ م وأنزلوا بالجيوش المصرية خسائر فادحة. ولم تلبث دولة ابن طولون أن انتهى أمرها بعد ذلك ببضع سنوات.

على أن ابن طولون له في مصر آثار عمرانية منها الجامع المنسوب إليه، ومنها الطرق، ومنها مدينة القطائع والبيمارستان والقناطر المعروفة باسمه، وقصر ابنه خمارويه يدل على درجة كبيرة من الترف.

ومرت على مصر ثلاثون سنة وهي تابعة للخلافة العباسية مباشرة، حتى جاء الأخشيد فأعاد إليها استقلالاً انفصالياً على نحو ما فعل ابن طولون.

الدولة الأخشيدية ٣٢٣ ـ ٣٥٧ هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م أنشأها محمد بن طغج ولم يلبث أن تلفت نحو سورية. وكان يعتبرها تابعة له على غرار ما فعل ابن طولون من قبل. وكان مزاحمه في شؤونها ابن رائق حاكم حلب، فهاجم هذا حمص ودمشق واحتلهما... فجاء الأخشيد يقود جيشاً للدفاع عن البلاد. وبعد معارك دامية اتفقَ الاثنان سنة ٩٤٠م على أن تكون البلاد إلى الشمال من الرملة لابن رائق. ولما توفي الأخير بعد نحو سنتين، استرد الأخشيد سورية بكاملها، ثم منحه الخليفة ولاية مكة والمدينة، فعظم شأنه واشتد نفوذه. وهناك شخص آخر يستحق الذكر في هذه الدولة هو أبو المسك كافور صاحب المتنبي.

الدولة الأخشيدية في سورية

على أن الدولة الأخشيدية لقيت في سورية خصوماً أشداء في الدولة الحمدانية ٣٣٢ ـ ٤٠٧ هـ ٩٢٩ ـ ١٠١٦م. نشأت هذه الدولة التغلبية العربية في الموصل. لكن في سنة ٩٤٤م تقدم سيف الدولة إلى حلب فاستخلصها من أيدي الأخشيديين ثم أتبعها

بحمص، واتخذ الأولى عاصمة له وأنشأ هذه الدولة الضخمة في شمالي سورية، التي عرفت عزها في ايام سيف الدولة نفسه، وخليفته سعد الدولة. أما بعد هذا فقد كانت الدولة كلها تابعة للفاطميين، ذلك لأن الحمدانيين كانوا شيعة، ولأنهم فضلوا محالفة الفاطميين والخضوع لهم على الخضوع للبزنطيين الذين كانوا يغيرون على شمالي سورية غارات قوية آنئذ.

كان بلاط سيف الدولة ملتقى جماعة من رجال الشعر والأدب والعلم... فالمتنبي وأبو فراس والفارابي وأبو الفرج الاصفهاني وابن نباته كانوا في بطانته، هذا إلى عدد كبير من الأطباء.

لكن شهرة سيف الدولة ترجع من ناحية أخرى إلى الحملات التي شنها ضد البزنطيين عشرين سنة متوالية منذ ٩٤٧م. احتل سيف الدولة مرعش، ولكن الحرب كانت سجالاً، فقد حاصر نقفور حلب واستولى على انطاكية (بقيت بأيدي البزنطيين من ٩٦٩ إلى ١٠٨٤م). ومع أن الحمدانيين خسروا كيليكيا وانطاكية فإن قيامهم في تلك الفترة اوقف تقدم البزنطيين عند حد، مع أنهم كانوا في هذه الفترة ينعمون بقيادة إدارية وعسكرية حازمة على يد نقفور ويوحنا تسيمسكز وباسيل الثاني ٩٦٣ ـ ١٠٢٥م. وهذا هو فضل الحمدانيين على الوطن العربي.

أما الجزء الشرقي من المنطقة التي نعنى بها، فقد حكمها البويهيون ٣٣٤ ــ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٥ ـ ١٠٥٥م، الذين كانوا حكام الدولة العباسية الفعليين، فكانوا يولون الخلفاء ويخلعونهم كما يشاؤون، والبويهيون كانوا شيعة، وقد اعتنوا بالحياة العلمية فازدهرت في أيامهم حلقات الدرس الفلسفية. وإلى عصرهم ترجع «رسائل اخوان الصفا».

على أن الدولة التي تولت شؤون الدولة العباسية بعد البويهيين والتي قيض لها أن يغزو الغرب سورية في أيامها كانت دولة السلاجقة ٤٤٧ ــ ٦٥٦ هـ/ ١٠٥٦ ـ ١٢٥٨م. وقد كان الثلاثة الأوائل من السلاجقة عظاماً بالمعنى الواسع للكلمة وهم طغرل (١٠٣٧ ـ ١٠٦٣م) والب ارسلان (١٠٦٣ ــ ١٠٧٢م) وملكشاه (١٠٧٢ ــ ١٠٩٢م). ولم يقم من هؤلاء في بغداد إلا الأخير، وكان ذلك في السنة الأخيرة من سلطنته.

السلاجقة العظام

ونحن نسمح لأنفسنا بأن نتناول هؤلاء السلاجقة العظام والأسر المحلية التي تفرعت عنهم ونشأت منهم بشيء من التفصيل، لأن هذه الفترة كبيرة الشأن في تاريخ العالم العربي الإسلامي. فإن الب أرسلان استولى سنة ١٠٦٤م على أرمينيا، التي كانت ولاية بزنطية، وضمها إلى سلطنته. وفي سنة ١٠٧١م تغلب على جيش بزنطي في معركة ملازكرد (منزيكرت) شمالي بحيرة فان، ونقل جماعة من قومه إلى آسيا الصغرى. وولى أمر هذه المنطقة سليمان بن قطلمش الذي أنشأ فيما بعد (١٠٧٧م)

سلطنة عرفت باسم سلاجقة الروم. وفي سنة ١٠٩٤م أنشأ ططش بن الب ارسلان دولة السلاجقة السورية واتخذ حلب [١] عاصمة له.

ويعد زمن ملكشاه دوراً من أدوار الرخاء الاقتصادي والأمن الداخلي والعمران في الطرق والتقدم العلمي... فقد كان من الممكن أن يسافر المرء من تركستان إلى سورية دون أن يحتاج إلى حماية أو حراسة. وقد أعانه في اعماله نظام الملك مؤسس المدارس في الاسلام. وهذا العصر هو الذي ظهر فيه ناصري خسرو الرحّالة والشاعر عمر الخيام.

وقد اقتسم موالي السلاجقة وقوادهم سلطنتهم بعد موت ملكشاه، فتفرقوا وذهبت ريحهم. ومن ثم كانت سورية لقمة سائغة للجموع الصليبية التي دهمتها بعد ذلك ببضع سنوات.

وفي الوقت الذي كان فيه البويهيون يتخلون عن دولتهم للسلاجقة ويؤسس فيه هؤلاء سلطنتهم، كانت مصر قد أصبحت مركزاً لخلافة لها في تاريخ الاسلام السياسي وتاريخ الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية خطرها وقيمتها... تلك هي الخلافة الفاطمية.

الخلافة الفاطمية

بدأ الفاطميون ملكهم في المهدية، وفي سنة ٣٥٨هـ ـ ٩٦٩م انتزع جوهر الصقلي مصر من بني الأخشيد وأنشأ القاهرة، التي أصبحت عاصمة الفاطميين، وقبلت مكة والمدينة سلطان الخليفة الفاطمي (المعز) [٢] ودعي له على المنابر فيهما. وكذلك دخل الحمدانيون (في حلب) في طاعته. أما جنوب سورية، فقد كلف الفاطميين حملة بقيادة جعفر بن فلاح، فحارب حسن (وكيل الأخشيديين) الذي كان عاصياً بالرملة فانتصر عليه، ثم اتجه نحو دمشق واحتلها ٩٦٩م. لكن قبل أن يتيسر لجعفر أن ينظم شؤون دمشق، جاءها حسن القرمطي فاحتلها وأخرجه منها. وقد أعانته على ذلك قبائل العرب السورية مثل طي وعقيل. وتوجه حسن إلى الرملة وحصر جيشاً فاطمياً في يافا ثم هاجم مصر وحاصر القاهرة واخترق خنادقها، لكنه صدّ عنها وهزم. ففر من حيث أتى حتى وصل إلى دمشق، وهناك أخذ يجمع أموره من جديد. وكانت هذه الحادثة كافية لحمل المعز على المجيء إلى القاهرة ٩٨٣م، وفي السنة التالية عاد القرمطي إلى مصر، لكن المعز كان مستعداً فرده، بعد أن فرّق بني طي عنه، واتبعه بجيش تغلب على فلول جيش حسن، واحتل قائد الفاطميين طرابلس وبيروت من البزنطيين، لكن دمشق صمدت لأن افتكين كان قد نظمها، وتعاهد هذا مع تسيمسكز البزنطي الذي جاء ليستعيد الميناءين، لكن جيوش الفاطميين غلبت البزنطيين فعادوا ادراجهم. أما دمشق فلم تخضع نهائياً للفاطميين إلا في سنة ٩٨٨م. وهكذا كانت طرابلس على الساحل ودمشق في الداخل، أقصى حد وصلت إليه سلطة الفاطميين

التامة في سورية. أما انطاكية فكانت بأيدي البزنطيين، وأما حلب فقد ظلت عاصية إلى أيام سعيد الدولة الذي وضع نفسه تحت حماية الفاطميين لينصروه ضد البزنطيين.

كانت سورية ميدانا لحروب عنيفة بين الفاطميين وأباطرة بزنطية، وكلا الفريقين يحاول التقرب من العناصر القبلية الثائرة ويسترضيها لتؤيده. وفي مقدمة هذه كانت أسرة الجرّاح في الرملة وبنو عقيل وطي في الداخل وبنو عمار في طرابلس. وكانت هذه الحال تتجدد عند قيام كل خليفة جديد، فقام بنو مراد في حلب، على أن الثلث الأول من القرن الحادي عشر الميلادي انتهى بتركيز السلطان الفاطمي في سورية كلها على يد أنوشتكين، فأصبحت البلاد كلها راضية بالحكم الفاطمي، وصار اسم الخليفة يذكر على المنابر حتى في الرقة على الفرات. لكن هذه الحالة لم تدم أكثر من عشر سنوات.

كان السلاجقة قد تقدموا غرباً على نحو ما رأينا فاحتلوا القدس سنة ١٠٧١م ودمشق ١٠٧٦م. لكن جيوش بدر الجمالي استرجعت عكا وصور وجبيل للفاطميين.

أما مصر فقد استمتعت في زمن الفاطميين بمركزها الذي هي أهل له في العالم العربي الاسلامي، وخاصة في ايام الخلفاء. فكانت مركزاً للفكر والحياة العلمية على ما نعرف من مختلف المصادر. وقد زار ناصري خسرو مصر في أيام المستنصر، وترك لها وصفا وافياً نستدل منه على ما بلغته من ثروة وعظمة. على أن تلاعب الوزراء في شؤون الخلافة، وتوليتهم خلفاء صبيانا ليكونوا آلة في أيديهم، أديّا إلى اضعاف مصر. وتوالى عليها، فضلاً عن ذلك قحط وجوع ووباء. فأدت هذه الأسباب كلها مجتمعة إلى اضعاف البلاد. فهيأت بنفسها الجو الذي مكّن لصلاح الدين من القضاء على الخلافة المضطربة، وإنشاء دولته الأيوبية على انقاضها وعلى انقاض الدولة النورية في سورية.

ظلت الأندلس وشمالي افريقية جزءاً من الامبراطورية العربية الواحدة حتى انتهاء الحكم الأموي، لكن مجيء العباسيين كان ايذانا بالتصدع. ففي سنة ٧٥٤م أنشأ عبد الرحمن الداخل إمارة أموية بالأندلس هي التي حولها عبد الرحمن الناصر سنة ٩٦١ م إلى خلافة أموية. وقد استمرت وحدة إلى القرن الحادي عشر، حيث اخذت بالتفسخ، مما افسح في المجال للاسبان في استعادة البلاد تدريجاً، حتى تم لهم الاستيلاء على آخر مركز للعرب هناك وهو غرناطة سنة ١٤٩٢.

وفي العصر العباسي الأول ظهرت في المغرب دولتان استقلتا فعلاً عن الامبراطورية العباسية، أولاهما دولة الادارسة (٧٨٨ ـ ٩٧٤م) في مراكش وقد أنشأها ادريس الأول. وإلى خليفته (ادريس الثاني) يرجع الفضل في انشاء مدينة فاس (٨٠٨) التي أصبحت إحدى مراكز الحركة الفكرية في المغرب بسبب إنشاء جامع القرويين فيها. وأما الثانية فهي دولة الأغالبة (٨٠٠ ــ ٩٠٨) في تونس. فقد عين هارون

الرشيد إبراهيم ابن الأغلب والياً على تونس، فاستقل هذا داخلياً وأسس إمارة وراثية، ازدهرت في عهدها احوال البلاد الاقتصادية في زراعتها وصناعتها وتجارتها، واتسعت الفتوح بحيث شملت صقلية. وقد اهتمت الدولة بالعمران سواء في ذلك بناء المساجد الكبرى ــ وفي مقدمتها مسجد القيروان ــ والأسوار والحصون والصهاريج لخزن المياه (مثل صهريج الاغالبة في القيروان).

الدولة الصنهاجية

زالت دولة الادارسة بقيام الدولة الفاطمية في المهدية ٩٠٩ م، لكن هذه انتقلت سنة ٩٦٩ إلى القاهرة، وأصبح المغرب العربي تابعاً إما للأندلس أو تحت امارات صغيرة مستقلة، ولكن لم يعرف وحدة سياسية. ولعل أكبر دولة ظهرت إلى الوجود في هذه الفترة هي الدولة الصنهاجية (٩٧٢ ـ ١١٤٨م) وتعرف بالدولة الزيرية، وقد انتشرت إلى الجزائر أولاً، شأن الاغالبة، لكنها لم تلبث أن تقلصت بحيث اكتفت بالديار التونسية. وقد قلد الصنهاجيون الاغالبة باهتمامهم بتنمية موارد الحياة الاقتصادية والأدب والعمران.

جاءت الغزوة الهلالية في أواسط القرن الحادي عشر، فنتج عنها ازدياد التعرب والتعريب، لكنها أدت إلى تقويض الكثير من معالم الحضارة والعمران في تونس والجزائر، وقامت على انقاض ذلك دويلات كثيرة.

وهكذا نرى أن القرن الحادي عشر الميلادي شهد ظهور دويلات صغيرة في أنحاء المغرب، كما عرف ظهور دويلات مماثلة في المشرق، واحتلت بعض أجزائه على أيدي الصليبيين، كما أخذت تحتل بعض أجزاء مغربه في اسبانية وصقلية وحتى إن النورمان استولوا على معظم السواحل بما في ذلك المهدية (في القرن الثاني عشر).

في مثل هذا الجو المضطرب المفكك جاء الصليبيون إلى الشرق...

ولو كنا نؤرخ للحملات الصليبية، لكان لزاما علينا أن نتناول العوامل التي أدت بهذه الجموع الكبيرة العدد المتباينة الأجناس إلى ترك بلادها، والهجوم على بلادنا. لكننا نرى أن نترك هذا كله، ونعنى بناحية واحدة من تاريخ الحروب الصليبية، وهذه الناحية هي كون هذه الحملات جزءاً من تاريخ الشرق العربي في العصور المتوسطة. وعلى هذا الأساس يمكن حسبانها أول محاولة من جانب أوروبة لاستعمار الشرق العربي.

الصليبيون يحتلون سورية

لما وصل الصليبيون إلى سورية لافتتاحها، كانت طرابلس مستقلة يحكمها بنو عمار منذ سنة ١٠٨٩م، وشيزر يحكمها بنو منقذ منذ سنة ١٠٨١م، وكانت القدس وعسقلان وعكا وصور وجبيل قد عادت إلى ملك الفاطميين الذين انتزعوها من السلاجقة. وفي

سنة ١٠٩٤م فرض طغتكين سلطانه على حلب والرها والموصل. ولما قتل في العام التالي اختلف ابناء رضوان ودقاق وايدهما القواد الطامعون في الملك، واستأثر رضوان بحلب ١٠٩٥ ـ ١١١٣م اما دقاق فاختار دمشق ١٠٢٥ ـ ١١٠٤م، واستمرت الخصومات بينهما فلم يكن غريباً والحالة هذه أن يحتل الصليبيون سورية بهذه السهولة وبهذه السرعة، فإنهم خرجوا من بلادهم سنة ١٠٩٦م ومرت الحملة الأولى بالقسطنطينية وقاتلوا السلاجقة في تركية ثم استولوا على الرها وانطاكية سنة ١٠٩٨م واتجهوا نحو المعرة فاحتلوها ودمروها وقتلوا من اهلها عدداً كبيراً، يقدره بعض الرواة بالآلاف. ومنها ساروا إلى طرسوس بطريق وادي البقيعة وحصن الأكراد. وكانت الرملة أول ما احتل من فلسطين، لأن غودفري رأى أن يتجه الجيش نحو القدس فتركت طرابلس وصور وعكا موقتاً. وحاصر الصليبيون القدس ثم احتلوها يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩م [٣].

وبعد نحو شهر انتصروا على جيش مصري قرب عسقلان، لكن المدينة نفسها ظلت فاطميّة[٤] واستمرت مركزاً من مراكز الاسطول الفاطمي الذي اخذ يضايق الصليبيين بعض المضايقة.

ولّي غودفري أمر القدس... وكان بلدوين قد رأس الرها، وبوهمند قد استقر في انطاكية. ووجه غودفري همته الآن نحو الموانىء السورية. وتقدمت المدن الإيطالية بالمساعدة العسكرية والبحرية لقاء امتيازات تحصل عليها في هذه الموانىء. فأعانه البيزيون على احتلال يافا سنة ١١٠٠. ومات غودفري والاسطول البندقي على حصار حيفا. أما عكا وارسوف وقيسارية، فقد عقدت معاهدات على اساس دفع جزية للعدو. وفي زمن بلدوين الأول ١١٠٠ ــ ١١١٨م أصبحت القدس عاصمة مملكة تمتد من بيروت إلى العقبة. وسقطت طرابلس ١١٠٩م وجعلت إمارة مستقلة.

هكذا نجد أنه في سنة ١١١٨م كانت سورية الساحلية، مع امتداد إلى الشرق من نهر الأردن، قد أصبحت في أيدي الصليبيين وصارت أربع وحدات سياسية ـ هي امارات الرها وانطاكية وطرابلس ومملكة القدس. وكانت الامارات تعتبر نفسها تابعة للمملكة.

لكن في سنة ١١٤٤ بدأ رد الفعل من الجانب العربي الاسلامي.. فاحتل عماد الدين زنكي اتابك الموصل الرها (١١٢٧ ــ ١١٤٦م) في تلك السنة. وكان عماد الدين أول واحد من جماعة القواد الكبار الذين عملوا تدريجاً على اخراج الصليبيين من هذه البلاد، وهم نور الدين وصلاح الدين والملك العادل والملك الكامل والملك الظاهر وقلاوون وابنه.

وجه نور الدين همه إلى توحيد املاكه، فانتزع اجزاء من إمارة انطاكية واحتل دمشق من حاكمها السلجوقي وأتم فتح إمارة الرها. ثم تدخل في شؤون مصر إثر خلاف بين وزيري الخليفة الفاطمي، وانتهى التدخل الذي اشترك فيه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين بأن تولى الأول شؤون مصر نائباً عن نور الدين ثم تولاها الثاني

بعده. وألغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية نهائياً سنة ٧٦٥ ـ ١١٧١م، وأعاد مصر لسلطان الخليفة العباسي المستضيء.

وفي سنة ١١٧٤م أصبح صلاح الدين سيد مصر وسورية معاً، وكانت الحجاز تتبع مصر، وكان أخوه قد استولى على اليمن. وولّى الخليفة العباسي صلاح الدين سنة ١١٧٥م حكم مصر والمغرب والنوبة وغربي شبه الجزيرة وسورية وفلسطين. وبذلك تمّ استعداده للعمل الذي كرس حياته ونفسه له. وهو اخراج الصليبيين من هذه البلاد.

وكانت معركة حطين ٥٨٣ ـ ١١٨٧، نتيجة هذه الجهود النورية الصلاحية. وانتصر فيها صلاح الدين. ومعركة حطين ليست انتصاراً عادياً في معركة، ولكنها كانت في الواقع نهاية للنجاح الصليبي في هذه البلاد وإن تأخر اخراجهم من سورية قرناً وبعض القرن. وبعد أن استولى صلاح الدين على القدس سلمت له حصون الأفرنج دون مقاومة تذكر.. فاللاذقية وجبلة وصهيون في الشمال، والكرك والشوبك في الجنوب، والشقيف (ارنون) وصفد وكوكب[٥] وعكا اصبحت كلها في قبضته. ولم يبق من المدن التي تستحق الذكر في أيدي الافرنج إلا انطاكية وطرابلس وصور.

وجاء حصار عكاء سنة ١١٨٩ ـ ١١٩١م الذي كان نتيجة للحملة الثالثة، بقيادة ريكاردوس وفردريك بربروسا وفيليب. فأوقف تقدم الجيوش الصلاحية، وانتهى بصلح الرملة[٦] بين صلاح الدين وريكاردوس، وبعد ذلك ببضعة اسابيع مرض صلاح الدين في دمشق وانتقل إلى رحمته تعالى.

القرن الثالث عشر

يمثل القرن الثالث عشر في تاريخ الشرق العربي فترة من فترات الخطر. فقد كان الافرنج لا يزالون في سورية، وقد اخذت مصر تغريهم بفتحها أيضاً. كما أن جموع التتار التي جاءت من الشرق وصلت إلى قلب العالم العربي فاحتلت بغداد سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م ودمرتها، وهاجمت سورية وكادت تحتلها وتسير إلى مصر لولا أن كُسرت في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م. على أن القرن نفسه ما كاد ينتهي حتى كان الخطران، الأوروبي والتتاري، قد دُفعا عن سورية ومصر، وكان للمماليك ودولتهم فضل كبير في ذلك، وهذا ما نريد أن نعرض له الآن.

أن جزءاً كبيراً مما افتتحه صلاح الدين استعاده الصليبيون. فبيروت والناصرة والقدس وبيت لحم وصفد وطبرية وعسقلان عادت لهم. ولم يقاتلوا في سبيل واحدة منها. ولكنها اعيدت بمعاهدات مع العادل والكامل واسماعيل وايوب في سنوات ١١٩٨ و١٢٠٤ و١٢٤٠ و١٢٤١م. ومن الثابت أن الحملات الغربية نفسها لم تنجح نجاحاً حربياً يشرفها. وخير الحملات أثرا في استعادة شيء هي حملة ١٢٢٨ ـ ١٢٢٩م، فإن فردريك الثاني نال ما نال بالمفاوضة وبتأثير شخصيته لا بتأثير جيشه وأسلحته.

ولا شك في أن السلاطين سلموا له لأنهم لم يريدوا أن يجرد الغرب عليهم جيوشه الجرارة وعندهم في بلادهم ما يكفيهم من المتاعب. ولو دروا ان الغرب وهنت منه القوى، وخارت النفوس، وانعدمت الموارد، وخلت الجيوب، لما تساهلوا هذا التساهل، وتراخوا هذا التراخي.

أما لاتينيو سورية فقد كان السعيد منهم من يمتد حكمه إلى الأراضي المجاورة لقلعته دون أن يلاقي من يناهضه دونها ويقاتله في سبيلها.

تركة صلاح الدين

مات صلاح الدين فانقسم ملكه بين ابنائه الثلاثة.. فكان «للملك الأفضل نور الدين علي» دمشق وجنوبي سورية، و«للملك العزيز عماد الدين عثمان» مصر، و«للملك الظاهر غيّاث الدين غازي» حلب وشمالي سورية. وقد أدى هذا الانقسام إلى ضعف ظهر في القوة الواحدة المجتمعة، كما فتح امام الأخوة باب الخصام. وقد بدأ ذلك بحرب بين الأفضل والعزيز، ونصر الملك العادل، أخو صلاح الدين، العزيز وناب عنه في سلطنة دمشق، في سنة ٥٩٢ هـ/ ١١٩٦م، وكان على شيء كبير من الاستقلال. فلما مات العزيز في سنة ١١٩٨م، خلفه العادل ملكاً على البلاد، ثم ناوأ الظاهر العداء فاعترف به هذا أخيراً سنة ١٢٠٢ فصار الملك العادل ملك القطرين ولقب نفسه «بالسلطان».

وفي سنة ١٢١٨م قرر الصليبيون في «عتليت» أن يهاجموا مصر، لأن جماعة من الغرب واسطولاً قدما عليهم، فساروا إليها واحتلوا «دمياط» وتقدموا في البلاد وانكسر امامهم جيش العادل الذي مات متأثراً من هزيمته، فخلفه ابنه «الملك الكامل ناصر الدين محمد» في مصر، وابنه الثاني «الملك المعظم شرف الدين عيسى» في دمشق. فشدد الأول عزيمة الجند وحمل على الصليبيين حملات صادقات، وقاتلهم حتى اضطرهم إلى التقهقر والخروج من مصر ٦١٨هـ/ ١٢٢١م.

اقسم فردريك أن يعين الصليبيين ويحارب الى جانبهم لما توج سنة ١٢١٥م، وبدأ بذلك في الحملة المصرية، فحاول إيجاد روح معاضدة في أوروبة، وبعد حين تزوج ابنة ملك القدس وادعى لنفسه الحق بهذا اللقب، ثم أخذ يهيىء نفسه لاحتلال القدس. وفي سنة ١٢٢٧م كان على اهبة السير لكن عاقه تأخر في صحته. فاعتبر البابا ذلك تقصيراً وحرمه. ولما أعلن رغبته واستعداده للسير منعه البابا، لكنه سار غير مبال ماراً بقبرص، وألقى مراسيه في عكا ١٢٢٨م.

جاء فردريك بعدد قليل من جنده الخاص.. ولما صار في البلاد، ادرك أنه لا يمكنه الاعتماد على لاتينيي سورية في قتال أو صدام مع الأمراء الوطنيين، لأن البابا أمر بعدم الاعتراف به، فلم يعنه الفرسان. وكل ما قام به تحصين يافا. لكن فردريك بدأ بمفاوضة امراء المسلمين دون أن يستشير رؤساء الفرق الدينية ولا القاصد الرسولي (نائب البابا في فلسطين).

الملك الكامل

كان الملك الكامل قد علم بما اخذ به فردريك نفسه من غزو الشرق، وكان على استعداد لأن يفاوضه ويصالحه ويعيد إليه بعض الأماكن المقدسة. وفي أثناء ذلك مات الملك المعظم، وصار نفوذ الكامل كبيراً. ثم جاء فردريك وأدرك الكامل ضعف جيشه وما بينه وبين البابا من النفور، فأراد أن يستفيد من ذلك في تقليل الجزء المعاد. ودامت المفاوضات خمسة أشهر، ثم علم فردريك أنه يتحتم عليه أن يعود إلى بلاده ليدفع عن عرشه شراً مستطيراً كان على وشك القضاء عليه. وكانت المفاوضات على جانب من الكياسة واللطف. وفي ١٨ (شباط) فبراير سنة ١٢٢٩م عقدت بين الفريقين معاهدة لعشر سنوات، وأكبر ما يلفت النظر في هذه المعاهدة تنازل الملك عن القدس للامبراطور فردريك، على أن تبقى المساجد للمسلمين ويسمح لهم بالزيارة دائماً. كذلك اعيدت بيت لحم والناصرة وبعض القرى الواقعة بينهما لتأمين الاتصال التام مع القدس.

كانت آخر الحملات الصليبية نتيجة لعاملين: حماسة دينية اشتعل بها صدر لويس التاسع ملك فرنسا، ومال كثير كان في خزائنه. بدأ هذا يفكر في الأمر سنة ١٢٤٤م، فجمعت الأموال الكثيرة بمساعدة البابا ورجاله، وكادت أوروبا تنهض ثانية لنصرة هذه الفكرة ومعاودة احتلال الأراضي المقدسة، لكن العداء الشديد بين البابوية والامبراطورية حال دون ذلك. فلما بدأ لويس عمله سنة ١٢٤٨م كانت الحملة «فرنسية» محضة يقوم بها الملك وحده، فشتى الملك في قبرص ثم حمل على مصر فنجح في احتلال دمياط سنة ١٢٤٩م، لكن الأمر انتهى، بعد قتال طويل، بأسر الملك لويس ونبلائه. على أن الأمراء المماليك تمكنوا من التفاهم مع لويس وعقد الصلح معه. فكان على لويس أن يدفع نفقات حربية وفدية، عن أسراه ونفسه، ففعل. وعاد اكثر من كان معه إلى بلادهم. أما هو فجاء إلى فلسطين، وهنا سمح لاخوته بالعودة إلى فرنسا. وأرسل يطلب من رجال الدين والحرب المساعدة قائلاً لهم إن سورية ومصر المسلمتين تكادان تقتتلان.

دامت اقامته في سورية الجنوبية أربع سنوات. لكنه لم يتمكن من المهاجمة بالألف والأربعمائة الذين كانوا لديه، فكان يفاوض ويعمر القلاع والحصون، ثم ترك البلاد آسفاً عليها.

تمكن الصليبيون من أن يقيموا في البلاد نحو أربعين عاماً بعد عودة لويس ويعود ذلك إلى:

(١) وجود مملكة دمشق.

(٢) قيام التتار وهجومهم على سورية في هذه الأثناء.

فهذان الأمران منعا المماليك من القيام بطرد الصليبيين حالاً. ولما فرغ

المماليك من أمورهم الأخرى، طاردوا الصليبيين حتى اجلوهم عن البلاد جلاءً تاماً حربياً. وقد اعانوهم هم على أنفسهم بما أصابهم من تفرق وانقسام.

خلفاء بغداد

اتخذ خلفاء بغداد منذ أجيال عدة، عادة سيئة هددت عرش خلافتهم بالزوال وهي جلب الألوف من العبيد ذوي الأسماء الحوشية، من قبائل التركمان والمغول، واستخدامهم حرساً لهم، ومادة لجيشهم، ليناهضوا بهم الجنود العربية. فاستفحل أمرهم، وأصبحوا سدى الجيش ولحمته. فكانوا يأتون عبيداً، فلا يلبثون أن يصبحوا ذوي الأمر والنهي، في بيت الملك، يشعلون نيران الفتن والقلاقل، حتى عجلوا في اجل الخلافة المنهوكة المنحلة.

وسلك سبيلهم في ذلك خلفاء الفاطميين... فأصابهم مثل ما أصاب من قبلهم. وقد نحت دولة الايوبيين (وهي الدولة التي انشأها صلاح الدين وانتهت بطوران شاه) بعدهم هذا النحو. وقد أسكن امراء الايوبيين مماليكهم من الترك والمغول في جزيرة في النيل (جزيرة الروضة) ليكونوا بعيدين عن المدينة، ولذلك سموا بالمماليك البحرية. وأول أسرة من المماليك ١٢٦٠ ـ ١٣٨٢م كانت من هذه الطائفة. أما المماليك الآخرون، فانهم جلبوا إلى البلاد بعد ذلك وسموا «البرجية» نسبة إلى الأبراج التي كانوا يقطنونها في القلعة أو في أرجاء المدينة ومعظمهم ينتسب إلى الجنس الجركسي، ومن هؤلاء كانت أسرة المماليك الثانية ١٣٨٢ ـ ١٥١٧م.

دولة المماليك

انقرضت الدولة الأيوبية سنة ١٢٥٠م، وتولى الأمر بعدها دولة المماليك. وهم يرجعون بتاريخهم إلى الملك الصالح الأيوبي الذي جلب عدداً كبيراً منهم، فكانت لهم اليد العليا في أمور الدولة وشؤونها وجيوشها، مما أدى بهم إلى الطمع بالاستقلال وتولي زمام الأمر. فقام «عز الدين أيبك» التركماني، واضعاً نفسه بدل الأشرف موسى الأيوبي الذي كان بعد صبيا. وكان أيبك هذا ثاني ملوك هذه الدولة. وأولهم «شجرة الدر» الملكة. تزوج أيبك شجرة الدر هذه، وسلبها كل سلطة. فانتقمت لنفسها بقتله، فقتلها ابنه المنصور انتقاماً لأبيه، وتولى الأمر بعده. وعقبه على الملك بعد أن عزله «سيف الدولة قطز» وفي عهد هذا وقعت النكبة العظيمة، نكبة تخريب بغداد على يد التتار، وانقراض الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م.

تقدم التتار إلى بغداد، فاستولوا على شمالي العراق والموصل وحلب وشمالي سورية، ومالوا إلى الجنوب، وأوفد قائدهم «هولاكو» رسولاً إلى مماليك مصر، يطلب منهم تسليم البلاد، ويهددهم إن لم يفعلوا ذلك بالزحف عليهم. فلم يعبأ قطز بهذا الانذار، بل جمع الجيوش، وكانت مؤلفة من عرب وكرد وترك وعجم، وولى أمرهم «ركن

الدولة بيبرس» الذي لقب فيما بعد بالظاهر بيبرس. فالتقى هذا القائد سنة ١٢٦٠ بجند التتار، وكانوا تحت قيادة «كتبغا»، بالقرب من بيسان على نهر «الجالود» الذي يصب في الأردن، فكانت واقعة من اشهر مواقع التاريخ، ومن مواقعه الحاسمة، انتصر فيها بيبرس على التتار انتصاراً باهراً، وبذلك حفظ بقية البلاد السورية والمصرية من غارة الأقوام البربرية. ومن بعدها جهز جيوشه ليقضي على آمال الصليبيين وبقية جنودهم التي كانت مبعثرة في هذه البلاد. فتولى أمر الملك بعد قطز وانتصر على الصليبيين في محاربته لهم وهدم عليهم يافا وانطاكية، ووصل بفتوحاته إلى آسيا الصغرى. وبذلك أعاد إلى العالم الاسلامي وحدته.. وجاراه خلفاؤه في هذا الأمر، وفي هذه الخطة. فكان منهم «قلاوون» الذي جهز الجيوش ليضرب الصليبيين ضربة قاضية في عكاء، آخر حصونهم وقلاعهم. وكذلك فعل ابنه الأشرف خليل الذي أصلى اللاتين حروباً حامية، وطردهم نهائياً من البلاد.

حكم بيبرس

تعتبر سنة ارتقاء بيبرس العرش بدء عهد جديد في اصطدام الشرق بالغرب، إذ عادت إليه روح صلاح الدين وهمته. وكان بيبرس الرجل الذي يحسن اغتنام الفرصة، ويعرف كيف يستفيد من الظروف. احتل بيبرس دمشق سنة ١٢٦١م، وكان قد عصى بها واليها وأبى الاذعان للسلطان الجديد. ثم اخذ السلطان على عاتقه تنظيم الأمور، وترتيب الجيوش، وتقوية القلاع والحصون. وجاء بيبرس في تلك السنة بأحد ابناء العباسيين من بغداد واقامه «خليفة عباسياً» في القاهرة. واعترف بسلطانه الديني، بل حمله على محاولة استعادة بغداد من أيدي التتار، لكنه لم يعنه اعانة كافية.

وعاد بيبرس في السنة التالية إلى مصر. وكانت له على الخصوص علاقات ودية مع «ميشيل الثامن» امبراطور القسطنطينية الذي كان قد استردها من اللاتين في سنة ١٢٦١م، لما كان بين هذا والصليبيين من العداء والنفور والوحشة. وفي سنة ١٢٦٣ م تعرف بيبرس إلى كل الساحات الحربية، وتفهم حالة جيشه تماماً، ودخل فلسطين وجعل معسكره في جبل الطور (قرب الناصرة). وحضرت إليه الوفود من اللاتين، فلم تسفر المقابلات عن شيء سلمي. وفي السنة نفسها احتل الكرك ثم عاد إلى مصر، وصرف جزءاً كبيراً من السنة في الاهتمام بأمور داخلية وأخصها الأمور العلمية والدينية، فبنى في القاهرة «المدرسة الظاهرية».

في سنة ١٢٦٥م عاود التتر الهجوم على سورية. فقام بيبرس لمناهضتهم ودخل جنوب سورية. فلما ارتدوا، بدأ يهاجم القلاع والمدن اللاتينية. فاحتل قيسارية وهدمها، ثم استولى على عتليت وحيفا وارسوف. ولما رأى أن اتمام هذه الحملات يقتضي استعدادات خاصة، انتظر حتى السنة التالية ليدبر أمره. ثم هاجم صور وصيدا وطرابلس وعكا واخذ يستعد لمهاجمة صفد، التي أعمل فيها تخريباً وتدميراً

حتى سلمت حاميتها، على أن تحفظ أرواحهم، في ١٨ شوال سنة ٦٦٤هـ/ ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٢٦٥، ولكن بيبرس قتلهم كلهم بعد الاستيلاء على القلعة. وقد الح سكان المدن اللاتينية الآن في عقد محالفات، لكنه رفض طلب كثير من المدن ومنها عكا.

وفي سنة ١٢٦٧ اتخذ السلطان صفد مركزاً له، وأغار على عكا وما اليها، دون أن يحتلها. ثم وجه همته نحو شمال سورية، فانتصر في معاركه لما ساد الصليبيين من الانقسام بين انفسهم وتمكن من احتلال انطاكية التي كانت حاميتها ٨٠٠٠ وكان عدد سكانها ١٠٠,٠٠٠ وكانت الثروة فيها إلى درجة ان الغنائم من النقود كيلت للناس بالأكواب، وبيع العبد الواحد من أولاد أنطاكية بـ «١٢» والبنت بخمسة من الدراهم، ثم احرق الجند كل ما بقي. ولما كان السلطان عائداً من الشمال من دمشق، طلب إليه لاتينيو عكا الصلح... فرضي على أن يقتسم أراضي عكا وصيدا وحيفا مع الصليبيين فرفض اللاتين ذلك وظلت العلاقات علاقات غزو وهجوم.

وفي سنة ١٢٧٠م عاد بيبرس إلى مصر ليستعد لمصادمة حملة لويس التاسع ملك فرنسا الثانية، لكن ملك فرنسا القى مراسيه في تونس فأصيب هناك بالطاعون ومات، فانفض القوم بعده كأن لم تكن حرب أو حملة.

ولما جاء عكا الأمير ادوارد الانكليزي وجنده سنة ١٢٧١م رضي بيبرس بعقد الهدنة مع المدينة لعشر سنين.. فوجه السلطان همه إلى قلعة القرين التي احتلها في تلك السنة، وبذلك أراح نفسه وجنده في صفد من غزوات فرسانها الدائمة.

وعقب ذلك عقد معاهدات مع كل المدن اللاتينية الأخرى. ومن المهم ان نلاحظ أن هذه المعاهدات كانت تعتبر لاغية بموت احد المتعاهدين. وهذا ما حدث لما مات بيبرس في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦هـ، أول تموز (يوليو) سنة ١٢٧٧م، وقد صرف بيبرس المدة بين عقد محالفته مع اللاتين وموته في هجوم متواصل على قلاع الحشاشين في شمال سورية وعلى مملكة أرمينية.

خلف الملك الظاهر ابنه الملك السعيد، لكنه لم يبق في الملك إلا مدة قصيرة فخلع نفسه وسكن الكرك على أن تكون خاصة به. ولم تطل مدة ملك أخيه الصغير إلا ثلاثة أشهر فخلعه سيف الدين قلاوون (وسمى نفسه الملك المنصور) سنة ١٢٧٩م. وكان عليه أن يهدىء اضطراباً داخلياً في شمال سورية، فقام إليها بنفسه، فنجح. ثم هاجمه التتار وقام عليه صليبيو الشمال، فعاهد الآخرين وقاتل الأولين بقيادة «منجو تيمور» (ابن هولاكو) في سهل حمص فانتصر عليهم انتصاراً مبيناً.

اما الصليبيون فقد اغتنموا فرصة عقد الصلح مع قلاوون، فاقتتلوا فيما بينهم وسهلوا له مهمة الانتصار عليهم.

ولن نطيل التحدث عن الغزوات التي شنها الملك المنصور سيف الدين قلاوون على اللاتين، تحاشياً للتفصيل، ولكننا نسهب بعض الاسهاب في احتلال عكاء، لأن سقوط هذا الحصن كان الضربة القاضية على الاطماع اللاتينية في سورية.

احتلال عكاء

كان الصليبيون في سورية تحت رحمة السلطان، وقد كان أملهم الوحيد أن تلبي أوروبا دعوة البابا، فتلتفت إليهم.. لكن شيئاً من ذلك لم يكن، لأن الناس ملوّا الحروب التي ارهقتهم واضنتهم وملكت عليهم نفوسهم، فتحرروا من ربقتها، ووجهوا همهم نحو مصالحهم التجارية وغير التجارية.

لكن جماعة، يتراوح عددها بين الألف والألفين، أثر فيها نداء البابا، وكانت مزمعة الحج وزيارة بيت المقدس، فجاءت الشرق، وحلت في عكاء في سنة ١٢٩٠ م فكانت نتيجة نزولهم أن حملوا السلطان على الإسراع في الاستعداد لمهاجمة عكاء، لأنهم نقضوا العهد وأضروا ببعض من كانوا يقطنون حول عكاء، لكن السلطان مات في سنة ١٢٩٠م، في ليلة العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ٦ من ذي القعدة ٦٨٩ هـ ولما يقم بالهجوم على البلاد. فخلفه ابنه الملك الأشرف خليل الذي اخذ يتم ما بدأ به أبوه من استعداد بقصد الهجوم على عكاء.

كان جيش الملك الأشرف الذي تجمع أمام عكاء في ربيع سنة ١٢٩١م مجهزاً بالكثيرين من رجال الحصار المختصين... وكان معه من آلات الحصار تسع وعشرون، وكان عدد الجيش كبيراً جداً.

أما عكاء، فقد كانت حصونها منيعة لكن حاميتها ليست على ما يرام. وكان عدد جند الحامية يتفاوت بين ١٤٠٠٠ و١٨٠٠٠ رجل وبين ٧٠٠ و٩٠٠ فارس.

وصلت أول فرقة من فرق الجيش المحاصِر حول أواخر آذار (مارس) ١٢٩١م، ووصلت آلات الحصار في ٧ نيسان (ابريل) ورتبت في ١١ منه وبدأ الحصار الجدي في آيار (مايو)، إذ بدأت الجيوش تطلق قذائفها على المدينة ودامت على ذلك عشرة أيام، وقد كان أثر هذا الأمر شديداً حتى ان المحاصرين خامرهم الريب في انفسهم واستسلموا لليأس والقنوط. وأرسل بعضهم عيالهم وأموالهم إلى قبرص، والفرسان الذين لم يكونوا مجبرين على البقاء هجروا المدينة... لكن بقي من الحامية ١٢٠٠٠.

وعقب هذا الاطلاق المتواصل استعداد لنسف المدينة.. فرد المحصورون الهجوم الأول في ١٥ ايار (مايو)، ويوم ١٦ ايار كان فيه القتال شديداً.

ولما تمكن المسلمون من الاستيلاء على بعض جهات من الأسوار، احدثوا في السور فتحة ليسهل دخولهم.. لكن «متى كلرمون» مارشال فرقة القديس يوحنا تمكن من اخراجهم من المدينة.

وفي تلك الليلة بني سور موقت خلف الثغرة، ووضعت خلفه المجانيق لحراسته.

صرف جند الملك الأشرف ليلتهم واليوم التالي يستريحون ويستعدون للهجوم النهائي، الذي قاموا به في اليوم الثامن عشرَ من شهر ايار (مايو)، وبدأوا قبل شروق الشمس وتمكنوا من الدخول إلى المدينة من الثغرة الأولى والباب المجار وثغرات

أخرى اخترقوها. وقتل في هذا اليوم المارشال متى وجرح رئيس فرقة فرسان المستشفى، وهرب الملك هنري وبعض القواد الباقين. واعتصم من لم يفر بالابنية الكبيرة التي في المدينة ثم اضطروا إلى التسليم. وعندها أمر الملك الأشرف بهدم التحصينات وحرق البيوت.

في هذه الفترة التي كان الشرق العربي يتلقى هذه الضربات ويتحملها أولاً ثم يردها، كان المغرب العربي يجتاز ادواراً هامة في تاريخه. فقد ظهرت فيه دولتان من الدول الكبرى في تاريخ العرب والاسلام، هما دولة المرابطين ودولة الموحدين.

ودولة المرابطين (١٠٥٣ ــ ١١٤٧) كانت أصلاً حركة دينية سلفية تطهيرية بزعامة عبد الله بن ياسين، وبعد أن كانت محدودة في الصحراء المراكشية الجنوبية، اتسعت شمالاً، وخاصة بقيادة يوسف بن تاشفين الذي بنى مدينة مراكش ووسع فتوحه بحيث امتدت إلى الجزائر، وقد استنجد به عرب اسبانيا فأنجدهم وانتصر على الاسبان في معركة الزلاقة المشهورة (١٠٨٦م).

تم القضاء على المرابطين على يد دولة الموحدين (١١٣٠ ــ ١٢٦٩م). وهي أيضاً قامت كحركة دينية اصلاحية بدأها ابن تومرت. والفرق بين المرابطين والموحدين هو أن الأولين كانوا بدوا من الصحراء الجنوبية، أما الموحدون فهم من جبال الاطلس. كان ابن تومرت قد درس في الأندلس والمشرق قبل أن يأخذ نفسه بدعوة الناس إلى التوحيد وطهارة الاخلاق، وجاء خلفه فوسع رقعة الدعوة فضم مراكش والجزائر وتونس وليبيا وأعاد بعض عدوة الأندلس إلى سلطان المغاربة. ولعل الموحدين أول من وحد المغرب العربي وليبيا في ظل دولة واحدة.

وقد كان للموحدين اسطول كبير سيطر على الحوض الغربي للبحر المتوسط، وهذا جعل للموحدين قيمة عالمية كبيرة، فضلاً عن انه يسر للمغرب حماية لتجارته وازدهاراً لأسفار ابنائه، واسواقاً لمصنوعاته.. فليس غريباً أن يعرف المغرب عصراً مزدهراً في ذلك الوقت. ولكن هذه الدولة التي بدت قوية متينة، لم تلبث أن عصفت بها أيدي الخطوب فتمزقت اطرافها أولاً ثم عدا عليها الدهر.

الشرق العربي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

تشمل دراسة تاريخ الشرق العربي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ثلاثة أمور:

أولاً ــ المماليك الذين استمروا في سياسة توحيد مصر وسورية والذين جعلوا همهم توسيع املاكهم في الشمال، فحاربوا مملكة ارمينية طويلاً حتى قضوا عليها.

ثانياً ــ محاولة التتار أن يستولوا على سورية وهجومهم عليها المرة بعد المرة، وما كان من رد المماليك لهم.

ثالثاً ـ ما قامت به أوروبا في سبيل احتلال سورية ومصر، مما يصح أن نسميه الحملات الصليبية المتأخرة. وهذا ما سنحاول التعرض له الآن.

حكم الملك الناصر محمود ثلاث مرات بين ١٢٩٣ و١٣٤٠م. وكان عليه ان يتلقى احدى هجمات المغول، إذ إن «غازان» هاجم سورية (١٢٩٩) وانتصر على جيش مصر شرقي حمص واستمر في سيره جنوباً حتى احتل دمشق في السنة التالية. ومع أن دمشق لم ينلها تدمير أو تخريب، فقد لقيت بقية المدن في شمال سورية الأمرين على يدي التتارى. وانسحب غازان من دمشق لكنه عاد بعد ثلاث سنوات فلقيه الناصر في مرج الصفر (جنوبي دمشق) ورده على اعقابه. وانصرف بعدها إلى معاقبة الجماعات التي اعانت غازان من شمال سورية وإلى مهاجمة أرمينية.

على أن الناصر يذكره المؤرخون بأعماله العمرانية اكثر مما يذكرونه بحملاته العسكرية، إذ بلغت مصر في زمنه ذروة حضارتها في عصر المماليك البحرية... فقد انشأ ترعة الاسكندرية، وبنى المساجد والمدرسة الناصرية. وشجع التجارة مع أوروبا والشرق، ولكن القحط والوباء[٧] اللذين أصابا مصر في أيامه حدا من نشاطه وأديا إلى إضعاف الروح المعنوية في مصر موقتاً.

وخلفاء الناصر الذين حكموا من ١٣٤٠ إلى ١٣٨٢ كانوا من أسرته، وقد شغلوا أنفسهم بخصومات ومشاحنات داخلية، فأدى ذلك إلى زوالهم، وقيام المماليك البرجية (١٣٨٢ ـ ١٥١٧م).

المماليك البرجية

وأوسع المماليك البرجية شهرة هم: برقوق، وفرج والمؤيد شيخ وبرساي، وجقمق واينال وخشقدم وقايتباي وقونصوه الغوري. ولعل حكم قايتباي (١٤٦٨ ـ ١٤٩٥) كان أهم دور في المدة كلها. ولعل أهم الحوادث التي يجدر بنا أن نتعرف إليها في أيام هؤلاء المماليك هي غزو تيمور واحتلال قبرص والفتح العثماني.

في سنة ١٣٨٠ بدأ تيمورلنك[٨] حملاته العسكرية التي انتهت باستيلائه على أفغانستان وفارس وكرديستان. وفي سنة ١٣٩٣ احتل بغداد. وفي السنة التالية وقع العراق كله تحت سلطانه. وقد روى مؤرخوه انه اقام في تكريت[٩] هرما من جماجم قتلاه. وفي سنة ١٣٩٥ وصل موسكو وأقام فيها ما يزيد على السنة، ثم وصلت فتوحه إلى دلهي بعد سنوات قليلة.

وفي سنة ٨٠٤ هـ/ ١٤٠١م ظهر تيمور في شمال سورية. وكانت حلب أولى ضحاياه، إذ أباحها للنهب ثلاثة أيام وقتل من أهلها عشرين ألفاً اقام من جماجمهم اكواماً متعددة، ارتفاع الواحد منها عشرة اذرع. وهدم جوامعها ومدارسها النورية والصلاحية.

ثم سقطت حماة وحمص وبعلبك في يديه، وانكسر جيش السلطان فرج وانهزم،

فاحتل المنتصر دمشق التي نهبت وتركت طعاماً للنيران وحمل خيرة علمائها ومهندسيها وصناعها إلى سمرقند ليعينوه في تزيين عاصمته. واضطر تيمور إلى العودة إلى بغداد لينتقم لبعض رجاله الذين قتلهم أهل المدينة، فعاقبها بأن أقام مائة وعشرين برجا من جماجم القتلى فيها.

وفي سنة ١٤٠٢ اقتتل تيمور مع بايزيد العثماني في ٢١ تموز (يوليو) في انقرة، واسر بايزيد وحمل مع جيش تيمور. وكان انتصار التتار هذا ايذانا بالشر المستطير الذي كان المماليك يتوقعونه على يدي تيمور لولا أنه توفي سنة ١٤٠٤م، فكان ذلك فرجا لهم، خاصة وأن خليفة تيمور، شاه رخ (١٤٠٤ ـ ١٤٤٧) لم يشن حروباً على سورية.

أما الذين جاءوا بعده، فقد اضاعوا قوتهم في خصومات عائلية... فلم يخرجوا من ديارهم. وكان هذا الخصام بينهم فرصة أدت إلى قيام الدولة الصفوية من الجهة الواحدة، وساعدت العثمانيين على تنظيم شؤونهم من الناحية الثانية. واستراح المماليك قرنا من الزمان من غزوات التتار العنيفة المخربة.

وقد تم فتح المماليك لقبرص في حملة ١٤٢٤ ـ ١٤٢٦م في سلطنة برسباي، وكانت غايته من ذلك القضاء على القرصان الذين كانت قبرص ملجأ لهم بالاتفاق مع حكامها من آل لوزنيان[١٠] وقد نجحت قوى برسباي البحرية والبرية في الاستيلاء عليها، وأسر ملكها جانوس. وحمل هذا إلى القاهرة، ولم يطلق سراحه بعد مدة إلا بفدية قدرها ٢٠٠,٠٠٠ دينار وجزية سنوية قيمتها عشرون ألف من الدنانير. وعقد برسباي معاهدة مع فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس. وبهذين العملين أمن للتجارة طرق البحر المتوسط الشرقي.

بعد سقوط عكاء سنة ١٢٩١، اصبحت قبرص مركز الصليبيين في الشرق، وكان ملكها يحمل لقب ملك القدس. على أن أوروبا ظلت تفكر في استعادة الشرق، ولكن المجال الذي اصبحت ترمي بنظرها إليه اتسع في القرن الرابع عشر. فتقدُّم الأتراك العثمانيين في آسية الصغرى، وثروة مصر، كانا عاملين رئيسيين في توجيه التفكير في الحملات وفي الحملات نفسها. أما ان اوروبا لم تقم في القرن الرابع عشر بحملات واسعة النطاق، فيعود إلى أن دولها كانت مشغولة بشؤونها الداخلية. فامبراطور المانيا كانت خزائنه خالية، والفرق الدينية فيها اتجهت نحو بروسيا. أما فرنسا وانكلترا فكانتا في شاغل بحروب المائة سنة عن أي حملة إلى الخارج. هذا بالإضافة إلى انشغالهما بالتطور السياسي الداخلي. فانكلترا كانت منهمكة بالخصومة حول قوة البرلمان، وفرنسا كانت معنية بتطور السلطة الملكية. ومن ثم فكل ما عمله ملوك فرنسا في سبيل الحملات هو تمني النجاح لها. واسبانيا كانت منصرفة إلى استعادة بلادها من العرب وتنظيم شؤونها الداخلية. اما المدن الايطالية، فكانت علاقتها التجارية مع الشرق تحول دونها والاشتراك في حملات عسكرية ضده.

ومع ذلك، فقد ظلت الفكرة حية. وساعد على بقائها الرحّالون والحجاج الذين

كثر ترددهم على الشرق لدرسه، والأمراء المخلوعون الذين كانوا يتنقلون في اوروبا آملين أن تهب أوروبا لنصرتهم لاستعادة اماراتهم مثل ليون السادس ملك ارمينية وبطرس الأول لوزنيان ملك قبرص. ومما اعاد إلى الفكرة نشاطها في القرن الرابع عشر فرق الفرسان مثل اخوة الهيكليين وفرقة السيف وفرقة التيوتون.

جردت اوروبا حملات ضد الشرق في القرن الرابع عشر. ونحن مضطرون إلى الاكتفاء بالإشارة إليها في هذه المناسبة، على أن نحيل القارىء إلى الكتاب الجامع الذي وضعه الدكتور عزيز سريال عطية مؤرخاً فيه للحروب الصليبية في العصور الوسطى المتأخرة[١١].

والحملات هذه ست هي:

(١) حملة ضد أزمير ١٣٤٤[١٢].

(٢) حملة همبرت الثاني الفرنسي ١٣٤٥ ــ ١٣٤٧م لتعضيد الحملة الأولى وقد انتهت بالفشل.

(٣) حملة بطرس الثاني لوزنيان على الاسكندرية، ١٣٦٥م.

(٤) حملة أميديو السادس امير سافوي ضد الاتراك، ١٣٦٥ ـ ١٣٦٧م.

(٥) حملة لويس الثاني بربون على المهدية في شمال افريقية ١٣٩٠م.

(٦) حملة نيكوبوليس ١٣٩٦م.

ولعل الحملة اتي وجهت ضد الاسكندرية سنة ١٣٦٥ هي الوحيدة التي تستحق عرضاً خاصاً في هذه العجالة[١٣] فقد استنجد بطرس بأوروبا فأنجدته، وجمع قواه في رودس واتخذها نقطة ابتداء. واحتفظ بخطته سراً، فلم يدع بأنه ينوي الهجوم على الاسكندرية حتى صارت المراكب في عرض البحر. ومن الطريف أن بطرس كان يخشى الوحدات الايطالية كثيراً، فقد حسب أنها قد تفضل مصالحها التجارية على مصلحته وحملته، فتوعز بالخبر إلى سلطان مصر فيستعد. وصلت الحملة الاسكندرية في ٩ تشرين الأول (اكتوبر) ١٣٦٥، وفي اليوم التالي هاجم الجند المدينة واحتلوها وأعملوا فيها نهباً وسلباً وتحريقاً، ثم رحل أكثر الجيش بعد أن حملوا سبعين سفينة بالغنائم[١٤] فلما رأى بطرس نفسه في اليوم السادس عشر من الشهر وحيداً مع بعض رجاله المخلصين وقد اقترب الجيش المصري الآتي لانقاذ المدينة منها، انسحب مع اتباعه، وهكذا فقد دامت الحملة أسبوعاً واحداً فقط.

وكانت نتيجتها المباشرة اضعاف الاسكندرية وتعطيل تجارتها موقتاً.

ابن خلدون يصف واقعة الاسكندرية

وقد روى ابن خلدون خبر واقعة الاسكندرية قال[١٥] : «واستنفر (ملك قبرص، من سائر الافرنج ووافى مرساها (الاسكندرية) في السابع عشر من المحرم سنة سبع وستين وسبعمئة في اسطول عظيم يقال بلغ سبعين مركباً مشحونة بالعدة والعدد ومعه الفرسان

المقاتلة بخيولهم. فلما أرسى بها قدمهم إلى السواحل وعبأ صفوفه وزحف، وقد غص الساحل بالنظارة. برزوا من البلد على سبيل النزهة.. لا يلقون بالا لما هو فيه ولا ينظرون مغبة أمره لبعد عهدهم بالحرب، وحاميتهم يومئذ قليلة، واسوارهم من الرماة المناضلين دون الحصون خالية. ونائبها القائم بصالحها في الحرب والسلم، وهو يومئذ خليل بن عرام[١٦] غائب في قضائه فرضه. فما هو إلا أن رجعت تلك الصفوف على التعبية ونصحوا العوام بالنبل. فأجفلوا متسابقين إلى المدينة، واغلقوا أبوابها وصعدوا إلى الاسوار ينظرون. ووصل القوم إلى الباب فأحرقوه واقتحموا المدينة واضطرب اهلها وماج بعضهم في بعض. ثم اجفلوا إلى جهة البر بما امكنهم من عيالهم وولدهم وما اقتدروا عليه من أموالهم، وسالت بهم الطرق والاباطح ذاهبين في غير وجه. حيرة ودهشة. وتوسط الافرنج المدينة ونهبوا ما مروا عليه من الدور ودكاكين الصيارفة ومودعات التجار وملأوا سفنهم من المتاع والبضائع والذخيرة والصامت. واحتملوا ما استولوا عليه من السبي والأسرى واكثر ما فيهم الصبيان والنساء. ثم تسايل إليهم الصريخ من العرب وغيرهم. فانكفأ الافرنج إلى اساطيلهم وانكمشوا فيها بقية يومهم واقلعوا من الغد. وطار الخبر إلى كافل الدولة بمصر الامير بيبقا فقام لركائبه وخرج لوقته بسلطانه وعساكره ومعه ابن عرام نائب الاسكندرية منصرفة من الحج. وفي مقدمته خليل بن قوصون وقطلو بغا الفخري من امرائه، وعزائمهم مرهفة، ونياتهم في الجهاد صادقة حتى بلغهم الخبر في طريقهم باقلاع العدو، فلم يثنه ذلك واستمر إلى الاسكندرية وشاهد ما وقع بها من معرة الخراب وآثار الفساد فأمر بهدم ذلك واصلاحه ورجع ادراجه إلى دار الملك. وقد امتلأت جوانحه غيظاً وحنقاً... على أهل قبرص».

وليس من شك في أن الحملة التي قام بها برسباي لغزو قبرص كانت انتقاماً لهذه الحادثة.

هذه الفترة في تاريخ المشرق يقابلها في الأندلس استمرار التوسع الاسباني وانسحاب العرب امامه حتى تم له القضاء عليهم نهائياً سنة ١٤٩٣م. أما في المغرب نفسه، فإن هذه الفترة رأت قيام دول ثلاث كانت متعاصرة هي: دولة المرينيين في فاس ودولة الزيانيين في تلمسان، ودولة الحفصيين في تونس.

دولة بني مرين

امتد سلطان دولة بني مرين المراكشية (١١٩٥ ــ ١٤٧٠م)، في أول أمرها إلى الجزائر وتونس وليبيا. ولكنها انسحبت امام الحفصيين والزيانيين. وقد عرف المرينيون ايام عزهم في عهد يعقوب وابنه يوسف وأبي سعيد عثمان وأبي الحسن علي، فكان لهم اسطول هزم الاسبان غير مرة، وانشأوا دور صناعة وخططوا فاس الجديدة وتطوان وغيرهما، واهتموا بالاقتصاد الزراعي والصناعي والتجاري. وقد ضعف أمرهم في أواخر عهدهم حتى استطاع البرتغاليون الاستيلاء على الكثير من

المدن الساحلية المراكشية. ولولا قيام الدولة السعدية في القرن السادس عشر، لكانت مراكش مزقت شذر مذر، خصوصاً وأن الاتراك، كانوا قد احتلوا تونس والجزائر، واصبحوا يهددون المغرب الأقصى، الذي وقع بين نارين.

والزيانيون (او بنو عبد الواد) عاصروا المرينيين. فقد قامت دولتهم في تلمسان سنة ١٢٣٥ واستمرت الى عام ١٣٩٣. وقاومت هذه الدولة هجمات الحفصيين والمرينيين وغزوات القبائل من الجنوب، وان كانت لم تستطع أن تقف في وجهها جميعاً. فقد احتل المرينيون تلمسان نفسها سنة ١٣٣٧، لكنها استردت حريتها منهم، وكذلك احتلها الحفصيون. ومع أن بني عبد الواد فقدوا وجودهم كدولة في أواخر القرن الرابع عشر، فقد ظلت فتات دولتهم من القرصان الى ان سقط القطر الجزائري في أيدي الاتراك في القرن السادس عشر.

الدولة الحفصية

قامت الدولة الحفصية (١٢٢٨ ــ ١٥٣٤م) في تونس على أيدي أبي زكريا، ثم وسعها خليفته المستنصر بحيث ضمت طرابلس والجزائر ومراكش، إذ قدم ملوكها المرينيون فروض الولاء للمستنصر، كما بايعه أمير مكة وأهل الحجاز سنة ١٢٦٠. وفي سنة ١٢٧٠ أغار لويس التاسع ملك فرنسا على تونس في الحملة الصليبية الثامنة، ولكن نزول الطاعون بجيشه افنى اكثره، وأصيب الملك نفسه ومات في تونس. ومع أن هذه القوة تلتها فترة ضعف وانقسام واضطراب، فان الحفصيين عادت وحدتهم في أوائل القرن الخامس عشر على ايدي أبي العباس وأبي فارس، اللذين اعادا للدولة بناءها ونشاطها ووحدتها بحيث استطاعت أن تستولي على الجزائر وعلى قسم كبير من مراكش. لكن الضعف عاد فاستحوذ على الدولة، وظلت كذلك حتى الاحتلال العثماني.

هذا عرض موجز للعالم العربي بين عهد الفتح العربي والفتح العثماني، وضعناه بين يدي القارىء تسهيلاً لتتبع حركات الرحالين العرب الذين تنقلوا في أجزائه ونواحيه على الغالب، وإن كان بعضهم تجاوز رقعته، على اتساعها، إلى بقاع أخرى على ما سنرى.

الهوامش

(١) احتل ألب ارسلان حلب سنة ١٠٧٠ م واتخذها قاعدة لصد تقدم الفاطميين في الشمال. دامت دولة السلاجقة السورية الى سنة ١١١٧م.

(٢) ٣٤١ ــ ٣٦٥ هـ (٩٥٢ ـ ٩٧٥م).

(٣) قام الصليبيون بمذبحة كبيرة في القدس لما دخلوها قدرت الضحايا بعشرات الآلاف.

(٤) لم تسقط عسقلان بأيدي الصليبيين إلا في سة ١١٥٣م.
(٥) كوكب الهوا إلى الشمال من بيسان في فلسطين.
(٦) صلح الرملة ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٩٢م.
(٧) لعله المعروف بالموت الأسود (الطاعون) في تاريخ اوروبا.
(٨) راجع فيليب حتي: «تاريخ العرب» بالانكليزية، لندن ١٩٣٧، صفحة ٦٩٩.
(٩) ولد فيها «صلاح الدين».
(١٠) راجع فيليب حتي صفحة ٦٩٩.
(١١) Atiya, A.S., *The Crusade in the Later Middle Ages*, London, 1938.
(١٢) انتهت باحتلال ازمير التي بقيت في أيدي الأوروبيين إلى سنة ١٤٠٢.
(١٣) Atiya, *Crusades*, CXV
(١٤) Atiya, *Crusades* P. 265-7
(١٥) المجلد الخامس ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥.
(١٦) في ابن خلدون «ابن عوام» لكننا قبلنا رواية الدكتور عطية «ابن عرام» وقد نقلها عن مخطوطة للنويري.
Atiya, *Crusades* P. 349.

القسم الأول

الرحلة والرحّالون في العصور الوسطى

١ ـ الرحلة والحج[١]

كانت الرحلة من الظواهر الرئيسة في حياة العصور الوسطى، وكانت دوافعها متعددة وغايات الرحّالين مختلفة. ونحن إذا استعرضنا زيارات الأوروبيين لفلسطين خاصة وللشرق العربي عامة، خرجنا بفهم صحيح لهذه البواعث والمقاصد. ويجدر بنا أن نتناول هذا البحث على أساس زمني. فبواعث السفر والتنقل ورغبات الناس اختلفت باختلاف الأزمنة والأحوال التاريخية. ولعلَّ من الخير لنا وللموضوع أن نعرض له على التقسيم التالي: (١) من القرن الرابع إلى القرن العاشر، (٢) في زمن الحروب الصليبية، (٣) في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

والذي نستطيع أن نقرره قبل كل شيء أن الحج كان الباعث الأول والرئيسي في الفترة الأولى، وإن كان ثمة باعث آخر فقد جاء عفواً، أو كان قليل الأثر في توجيه الرحلة.

فالمسيحيون كانوا يرون لزاماً عليهم، ولو لم تفرض ذلك المبادىء الدينية، أن يزوروا البلاد التي عاش فيها المسيح، ويتبركوا بلمس ترابها ومشاهدة آثاره وآثار أصحابه. ومع أن الكنيسة لم تهتم بالحج بادىء ذي بدء، فإنها لم تلبث أن قبلت بما قام به الناس وجعلته جزءاً أصليّاً من أعمال التوبة، وسبيلاً لغفران الخطايا. وقد بقي الحج إلى فلسطين عاملاً رئيسيّاً في الرحلة إلى الشرق في الفترتين الأخريين، ولذلك سنكتفي الآن بتقرير هذا، على أن نعود إلى درس الحج بتفصيل في آخر الفصل.

أما في فترة الحروب الصليبية، وحتى قبلها بقليل، فقد دخلت التجارة إلى جانب الحج في البواعث على الأسفار. ويكفي أن نذكر ما كان للجنويين والبنادقة والبيزيين وغيرهم من الأوروبيين من مصالح تجارية منذ القرن العاشر الميلادي في موانىء سورية ودولة البزنطيين[٢] لنستوثق من هذا الأمر. والعامل التجاري في التنقل والأسفار قوي كثيراً بعد خروج الصليبيين من سورية ونشط التجار في توطيد العلاقات مع سورية وتجديدها مع مصر. وجميع الرحّالين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر يشيرون إلى البيوت التجارية والفنادق التي كانت للأوروبيين في الاسكندرية والقاهرة وعكاء وبيروت ودمشق وغيرها[٣].

على أن الاوروبيين في زمن الحروب الصليبية كان منهم من أتى إلى الشرق ليقيم ويستعمر، إما لأنّه لم يجد في بلاده قوتاً أو رزقاً، أو لأنه أراد أن يتحرر من الرق

السياسي والاقتصادي هناك، أو لأنه رغب في التخلص من خصومات سياسية[٤]، فحاول أن يجد مكاناً جديداً بعيداً عن هذه الأمور كلها.

والفروسية الأوروبية كانت عاملاً هامّاً في شحذ الهمم للرحلة. فالفارس كان يرغب في أن يلمس سيفه القبر المقدس[٥] في كنيسة القيامة بالقدس لأن ذلك يزيده شرفاً وقدراً. والفارس العاشق كان يقوم بالرحلة إرضاءً لحبيبته[٦] التي أظهرت مثل هذه الرغبة. والفارس المغامر كانت تثيره إلى الرحلة القصص التي كان يسمعها من العائدين من الشرق عن سحره وغرائبه[٧]، فقصة «برستر يوحنا»[٨] شاعت في أوروبة بعيد احتلال الصليبيين لفلسطين. وقصص يوحنا مندفيل انتشرت انتشاراً كبيراً في أوروبة في القرن الرابع عشر ومثلها قصة الملوك الثلاثة[٩] والروايات الكثيرة عن شعوب أفريقية والهند.

وكان التبشير من عوامل السفر والرحيل الهامة. ذلك أن الأوروبيين اهتموا في زمن الصليبيين بنشر المسيحية، واستمروا في هذه المحاولة بعد ذلك لأغراض سياسية واستعمارية. ومع أن محاولاتهم الأولى اقتصرت على العالم الإسلامي في حوض البحر المتوسط، فقد اتجهت رغبة الباباوات وأمراء أوروبة وملوكها نحو تنصير المغول (التتار) تمهيداً لعقد محالفات معهم ضد المماليك في مصر وسورية. ويؤسفنا أن المجال لا يتسع هنا لدرس هذه الناحية من النشاط الأوروبي درساً وافياً، لذلك نكتفي بالإشارة إليها[١٠].

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر نتعرَّف إلى نوع جديد من الرحَّالين هم السفراء السياسيون المعروفون والمتنكرون بزيّ الحجاج أو التجار. ومن هؤلاء من كان يقوم بمهمته بناءً على طلب البابا أو أحد الملوك، ومنهم من كان يفعل ذلك بدافع شخصي لكنه يقدم ثمرة اختباراته إلى الرجال المسؤولين. وفي هذه الحالات كان الباعث التعرُّف الى نواحي الضعف في الشرق العربي والوقوف على خير الطرق لاحتلاله والقضاء على سلطان أهله السياسي وضمه إلى المجال الاقتصادي الأوروبي[١١].

ومع أننا نجد حتى في أيام الصليبيين رحالين زاروا الشرق للدراسة العلمية ولنقل ما فيه، مثل ادلارد[١٢] في القرن الثاني عشر، إلاّ أن هذا النوع من الرحَّالين جاء متأخراً في أواخر القرن الخامس عشر والسادس عشر[١٣]. ففي تلك الأزمنة أصبحت الرحلة ينظر إليها على أنها عامل تهذيبي يوسع الأفق العقلي ويحمل المسافر على التفكير والتعلم.

ولنعد إلى الحج فنوليه بعض العناية لأنه ظلَّ طيلة العصور الوسطى أحد العوامل الرئيسة في الرحلة إلى فلسطين وما جاورها من الشرق العربي.

حجَّ مسيحيو أوروبة إلى فلسطين منذ أن استطاعوا الوصول إليها[١٤] وقد

وصلتنا بعض أنباء حجاج القرن القرن الرابع مكتوبة[١٥] وكان قصدهم زيارة الأمكنة التي ولد السيد المسيح وعاش فيها، واقتصرت هذه في أول الأمر على بيت لحم والقدس والناصرة، وبعضهم كان يزور نهر الأردن (الشريعة) وبحيرة طبرية. لكن عدد الأماكن أخذ يتزايد وصارت القصص والروايات تتراكم حول بقاع متعددة في فلسطين فتجعل منها مراكز متصلة بحياة المسيح أو رسله أو غيرهم من القديسين[١٦]؛ وأنكر آباء الكنيسة قيمة الحج بادىء الأمر لكنهم منذ القرن الخامس، أو حتى منذ القرن الرابع، رأوا أنه من الخير لهم أن يعترفوا بالقيمة الدينية لمثل هذه الأسفار، فأقروها وانتهى الأمر بأن أصبحت الكنيسة تطلب إلى الخطاة من أتباعها أن يكفروا عن خطاياهم بالحج إلى فلسطين. وهكذا بعد أن كان الحج في أشكاله المختلفة نتيجة لدافع شخصي لتمجيد الله وتقديم الشكر له وطلب المعونة ووفاء لنذر[١٧] والحصول على آثار شخصية للقديسين[١٨]، جعلت الكنيسة منه نظاماً أساسه تكليف المرء القيام بالحج إلى أمكنة معينة وزيارتها بشكل خاص لتغفر له خطاياه لسنة واحدة أو سبع سنوات أو للحياة. والذي نعرفه أن مثل هذه الفروض كانت أو قد أصبحت واضحة الحدود في سنة ١٠٥٩[١٩]. ويحدِّثنا الرحالون المختلفون عن عدد سني الغفران الكثير من الأماكن المقدسة في فلسطين في القرن الثالث عشر والرابع عشر، ويذكر كل من فابري[٢٠] وواي[٢١] أمام كل مكان قيمته من الغفران بالسنين.

ونستطيع أن نشير هنا إلى أن الحجاج الأوروبيين لقوا كل تشجيع من السلطات والهيئات الرسمية في زيارتهم للأراضي المقدسة. هذا، إذا استثنينا ما كان ينال بعضهم من اساءة أو يتعرض له البعض الآخر من النهب أو السلب كنتيجة، لاضطراب حبل الأمن[٢٢]. وحتى بعد سقوط عكاء شجع الحكام الحجاج على الزيارة[٢٣]. ففي سنة ١٣٠٤ دعا حاكم صفد التجار البنادقة لزيارة الأماكن المقدسة والاتجار مع سورية وأمنهم على أرواحهم وأموالهم[٢٤].

كان الأوروبي الذي يرغب في الحج يتحتم عليه أن يحصل على اذن من رئيس كنيسته وآخر من صاحب السلطان الزمني. وكانت الكنيسة تمنح الإذن مجاناً أولاً، لكنها جعلته لقاء رسوم معينة منذ أواخر القرن الخامس عشر[٢٥]. وكان الاذن يعطى في حفلة دينية خاصة[٢٦]. فبعد ذلك يودّع الحاج أهله وجماعته ويبدأ سفره[٢٧]. والذين كانوا يأتون الأرض المقدسة دون أن يحصلوا على إذن من الكنيسة كان عليهم أن يعلنوا أنفسهم للكاهن عند حضورهم أول خدمة كنسية في يافا أو القدس ليحلهم الأسقف من خطيئتهم وليسمح لهم بالزيارة[٢٨].

كان الحاج يرتدي ثياباً خاصة يعرف بها. والغالب أن يرتدي واحدهم قباء أغبر اللون ويتمنطق بحزام عريض عليه صليب أحمر ويحمل عصاه وكيساً. وقد يسير البعض حفاة، خصوصاً إذا كانوا يقومون بالحج كفارة لذنب بأمر الكنيسة[٢٩].

وقد يهدي الحاج عصاه أو كيسه أو ثوبه أو حزامه، أو هذه الأشياء كلها إلى كنيسة بلده بعد عودته. وبالإضافة إلى ما يحمله الرحالة من النقود أو الثياب يغلب عليه أن تكون معه حلي ومجوهرات يعطيه إياها أقاربه وأصدقاؤه ليضعها على القبر المقدس للتبرك[٣٠]. وقد يحمل الحجاج سبائك الفضة والذهب ويلجأون إلى شتى الوسائل لاخفائها[٣١].

كانت موانىء ايطالية ـ البندقية وجنوه وبيزا ـ ومرسيليا في فرنسة الأماكن التي يقصدها الحجاج المسافرون بحراً إلى فلسطين. والمدن التي كانوا ينزلون فيها هناك كانت تختلف باختلاف الدول الحاكمة، لكن يافا كانت أكثرها استعمالاً حتى في أيام خرابها[٣٢]. وفي زمن الصليبيين كانت عكاء الميناء الرئيسي. أما الذين كانوا يريدون زيارة أجزاء أخرى من الشرق فكانوا يختارون الميناء المناسب، مثل رحالي القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

وقد اهتمت البندقية بسفريات الحجاج وغيرهم فنظمت رحلتين كل سنة في سفن كبيرة تسع الواحدة منها ١٥٠٠ من الركاب. وقد كان فرسان القديس يوحنا ينقلون نحو ٦٠٠٠ مسافر في السنة الواحدة[٣٣]. أما مدة الرحلة البحرية فقد كانت تستغرق بين الستة والثمانية من الأسابيع، والوقت العادي الذي يقضيه الحجاج في القدس عشرة أيام لزيارتها وما حولها[٣٤].

كان الحاج يعدّ نفسه ضيفاً على الدير الذي يمر به أو رئيس الكنيسة في البلدة الواقعة في طريقه، أو أي جماعة يجتاز منازلها سواء في ذلك بلاده او الأرض المقدسة. لكن منذ القرن الحادي عشر اعتنى المسؤولون، وخصوصاً فرق الفرسان، ببناء المضافات لإقامة الحجاج، في القدس وعكاء وقبرص ورودس ومالطة[٣٥]. ونجد أن رجال الدين والرهبان كانوا يقيمون في المنازل الكنسية في القدس، مثل منزل جبل صهيون، أما الحجاج الأخرون فكانوا يستأجرون غرفاً أعدها أهل القدس لهذا الغرض، وكان الترجمان واسطة الاستئجار[٣٦].

وقد وصلت إلينا معلومات كثيرة عن نفقات هذه الرحلات، نذكر هنا بعضها على سبيل المثال:

في القرن الثاني عشر الميلادي أنفق غوزوين مئة مارك من الفضة (نحو خمسين جنيهاً مقدرة بعملة ما قبل الحرب العالمية الثانية) في زيارته للأرض المقدسة. ويمكن القول إن مبلغاً يتراوح بين ٢٨٠ و٣٠٠ من الدوكات (أي ١٤٠ ـ ١٥٠ من الجنيهات) كان يكفي لرحلة مريحة. وفي القرن الثالث عشر كان الشخص الواحد يدفع ماركاً فضيًا واحداً أجرة لنقله بحراً. أما الفارس فيدفع ثمانية ماركات فضية عن نفسه ورجاله الثلاثة (تابعين وخادم) وخيولهم. ولما حج اغناطيوس ليولا[٣٧] في القرن السادس

عشر دفع نحو سبعة فلورينات ذهبية (أي نحو ثلاث جنيهات) أجرة نقله من البندقية إلى يافا[٣٨].

وفي سنة ١٤٦١ م حجَّ وليم دوق سكسونيا فأنفق مئتي ألف مارك فضة (نحو ١٠٠.٠٠٠) جنيه[٣٩].

ومع أننا لا ندري تماماً عدد الرحَّالين الذين زاروا فلسطين أو غيرها من بلاد الشرق العربي فما لا شك فيه أنه كان كبيراً. ويكفي أن نذكر أن رورخت جمع أسماء ما يزيد على ١٤٠٠ من الحجاج الألمان المعروفين الذين زاروا البلاد بين ١٣٠٠ و١٦٠٠[٤٠].

الهوامش

(١) نتناول في هذا الفصل الرحلة في العالم الأوروبي المسيحي فقط.
(٢) Heyd vol. ipp. 24-129.
(٣) راجع Heyd II تحت Fondaco
(٤) Roehricht: Pilger p. 4 & Note 24.
(٥) Roehricht: Pilger p. 4 Note 25, 26.
(٦) Roehricht: Pilger p. 4 & Note 27.
(٧) Travellers ch. VIII & Roehricht: Pilger p. 4 & Note 28-31.
(٨) *Travellers*: pp. 174-94.
(٩) Roeh. pilger, p. 4. Note 32.
(١٠) يجد القارىء، أبحاثاً وافية مع ذكر المراجع المفصلة في Brehier pp. 268-286 & 305-313 راجع أيضاً Travels, pp. 124-158 Atiya. *Crusade* pp. 133- 281.
(١١) راجع تفصيل هذه المسألة تحت في الفصلين السابع والثامن.
(١٢) Baker pp. 40-5.
(١٣) Roehricht: Pilger, p.
(١٤) كانت هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الكبير من أوائل الحجاج الذين نعرف أخبارهم.
(١٥) راجع تحت الفصل الثاني.
(١٦) *Ency. Br.* art. pilgrimage.
(١٧) مثل يودوسيا التي نذرت حجاً لبيت المقدس إذا تزوجت ابنتها.
(١٨) Travels, pp. 39-69.
(١٩) *Ency. Br.* art. pilgrimage.
(٢٠) ppT Vol. VII p.223.
(٢١) يرسم واي صليباً لكل سنة من سنوات الغفران أمام اسم المكان المقدس. راجع رحلته وجدول الاماكن المقدسة في أولها.
(٢٢) راجع ما كتبه اركولف وولبولد ولا بروكييه من الجهة الواحدة وما ذكره سيولف ودانيال وفابري وواي من الجهة الأخرى.
(٢٣) Roehricht: Pilger, p. 6 & Note 48. راجع أيضاً ما نقله المؤلف نفسه (ص ٣٤) من أخبار المساعدات التي نالها الحجاج (باستثناء سنة ١٣٤٠) بين ١٣٣٦ و١٣٤٧.

(٢٤) Roehricht: Pilger, p. 6.

(٢٥) Roehricht: Pilger, p. 6.

(٢٦) راجع وصف إحدى هذه الحفلات في Cuts, pp. 162 ff. ولهذه المناسبة نذكر انه لم يكن يسمح للرجل أن يحج إلى أحد المزارات الأوروبية إلا إذا رضيت زوجه، ولا يجوز للمرأة أن تقوم بمثل هذه الزيارة إلا برضى زوجها، لكن زيارة القدس، وفاء لنذر أو قسم، لم تكن لتحتاج إلى مثل هذه الموافقة. راجع Cutts p 162 Note 3.

(٢٧) لم يحب فابري أن يودعه زملاؤه الرهبان فهرب خفية.

(٢٨) Roehricht: Pilger, p. 6. وقد وصف فابري أول قداس حضره في القدس مع رفقائه الحجاج وذكر سؤال الأسقف وحله الحجاج المهربين من الخطيئة.

(٢٩) راجع Cutts pp. 164, 174, 190 حيث تجد وصفاً مسهباً لهذه كلها.

(٣٠) فابري في PPT, VII, PP.1-30.

(٣١) Roehricht: Pilger, p. 6 من الوسائل التي لجأ إليها الرحالون في القرن الرابع عشر وبعده لإخفاء هذه الأشياء هو وضعها داخل قطع من لحم الخنزير عند اقترابهم من يافا. فإذا نزلوا إلى البر وجاء مفتشو الجمرك، وهم مسلمون، ابتعدوا بسبب لحم الخنزير، فلم يروا السبائك.

(٣٢) راجع وصف سوخم ولا نوي ولا بروكيية وفابري.

(٣٣) Ency.Br. art. Pilgrimage.

(٣٤) احتاج واي إلى تسعة وثلاثين اسبوعاً للحج من انكلترا وإليها.

(٣٥) كانت هذه الجزر محطات للسفن بين أوروبة والشرق.

(٣٦) فابري، راجع PPT,VII, PP, 285.

(٣٧) هو مؤسس جمعية الجزويت.

(٣٨) *Ency.Br.* art. Pilgrimage.

(٣٩) Prutz p 106, Roehricht: Pilger p.7 راجع أيضاً Cutts, p. 159.

(٤٠) ذكر أخبارهم في Roehricht: Pilger.

٢ ـ الحجاج المسيحيون

يمتاز القرن الرابع الميلادي باعتناق قسطنطين الكبير ٣١٢ ـ ٣٣٧ م المسيحية وجعلها ديناً رسمياً من أديان الأمبراطورية الرومانية. وبذلك أصبح للكنيسة صفة رسمية لم تلبث أن سيطرت على الحياة العقلية في أوروبة. فلما سقطت الامبراطوية الرومانية في القرن الخامس قوي سلطان الكنيسة وتغلغلت آراؤها في المجتمع الأوروبي. فكان من جراء ذلك أن فقد هذا المجتمع النشاط العلمي المدني الذي بدأ يتذوقه في أيام الأمبراطورية الرومانية، واستعاض عنه بحماسة دينية كانت بعيدة الأثر في نفوس القوم. والذي يعنينا من آثار هذه الحماسة أنها دفعت الكثيرين من الأوروبيين إلى زيارة البلاد التي عاش فيها المسيح. فتجشموا مشاق الأسفار وتحملوا صعوبات التنقل، لينعموا برؤية فلسطين والتبرك بآثارها. ومن ثمَّ عني هؤلاء الزوَّار بالتعرف إلى الأماكن التي ظنوا أن لها علاقة بحياة المسيح أو رسله غيرهم من القديسين. وقد قبلوا الأقاصيص التي سمعوها والأساطير التي حكيت لهم دون أن يجادلوا بشأنها أو يناقشوها. ولذلك يتحتم علينا أن نقرأ أخبارهم ونحن على أشد ما نكون من الحذر.

وإذا تذكرنا هذا الأمر عرفنا السر في انعدام الشمول والإحاطة في أخبار هؤلاء الحجاج. فقد كان همهم أن يتنقلوا في البلاد باحثين عن الأماكن المقدسة المسيحية دون ملاحظة ما بينها، أو العناية بشؤون السكان، إلاّ إذا جاء ذلك لمسألة شخصية. ويلفتنا الدكتور بلس، بهذه المناسبة، إلى أن انطونيوس الشهيد (من حجاج القرن السادس) إنما ذمَّ أهل صور وصيدا ومدح أهل غزة لأن الأولين ضايقوه والآخرين أظهروا حبهم للسياح[١].

ونرى أنه منذ القرن السادس تزداد الروايات عن الآثار المقدسة، أي الأشياء التي تعزى إلى شخص المسيح ومن له به صلة. والسبب في ذلك يرجع إلى رغبة نصارى الغرب أنفسهم في الآثار المقدسة، وعناية السياح وغيرهم باشباعها[٢].

ومن الطبيعي أن تتجه عناية الحجاج نحو فلسطين، دون غيرها من أجزاء بلاد الشام أو مصر. على أننا، مع ذلك، نجد أن خمسة من هؤلاء الحجاج ـ بينهم سيدة واحدة ـ اتسعت أسفارهم فشملت بعض الأقطار المجاورة، وهم سلفيا (من القرن الرابع) وانطونيوس (من القرن السادس) واركولف (من القرن السابع) وولبولد (من القرن الثامن) وبرنارد (من القرن التاسع).

وقد وصلت إلينا مخلفات الكثيرين من زوار الأراضي المقدسة بين القرن الرابع والقرن التاسع، وأبعدهم أثراً في تعريفنا بالبلاد هم: (١) من القرن الرابع حاج بوردو ٣٣٣، وباولا ٣٨٥ وسلفيا (اثريا)، (٢) من القرن الخامس جيروم وبوخيروس وداود، (٣) من القرن السادس ثيودوسيوس وانطونيوس ٥٦٠، (٤) ومن القرن السابع اركولف حول ٧٠٠، (٥) ومن القرن الثامن ولبولد ٧٢١ ـ ٧٢٧، (٦) ومن القرن التاسع برنارد الحكيم ٨٦٧. ووصل إلينا أيضاً كتاب من القرن السادس لا نعرف شيئاً عن مؤلفه بعنوان «وصف مختصر للقدس».

كان حاج بوردو[٣] أول زائر وصلتنا أخباره كاملة. وهو يحدِّثنا في أول كتابه عن الطريق التي اتبعها في سفره من مدينته بوردو بفرنسة إلى أن وصل قيسارية بفلسطين، مارًّا بميلان وبلغراد والقسطنطينية وانطاكية. ومن قيسارية زار بيسان فنابلس فالقدس فالخليل. ومن القدس اتجه لزيارة أريحا ونهر الأردن والبحر الميت. ثم عاد من القدس إلى اللد ومن ثمَّ إلى القسطنطينية فبوردو. والكاتب ينقلنا من مكان إلى آخر نقلاً سريعاً، دون أن يصف الطريق أو السكان، لكنه يروي قصة هنا وأخرى هناك مما له علاقة تاريخية بالأماكن، كالذي يرويه إذ وصل زرعين في مرج ابن عامر في شمال فلسطين: «هنا حكم اخاب، ووعظ ايليا».

أما باولا[٤] فقد قضت سنتين متنقلة مسافرة تصحبها ابنتها فزارتا أثناءهما من فلسطين يافا والقدس والخليل والجليل كله ونابلس وغزة. وذهبتا إلى مصر برًّا وعادتا منها بحراً إلى غزة. ثم استقرتا في بيت لحم إلى حين وفاة الأم سنة ٤٠٤ وقد انصرفت في هذه المدة إلى أعمال البر فأنشأت أديرة وتكايا للحجاج بين يافا وبيت لحم[٥].

وقد روى جيروم أخبار باولا وجمع رسائلها بعد موتها بمدة وهي فيّاضة بالحيوية زاخرة بالعاطفة، فضلاً عن انها تحتوي على فوائد طبوغرافية نرجح أن الفضل فيها يعود إلى جيروم. وقد ورد وصف شائق لبيت لحم في إحدى رسائلها جاء فيه[٦]: «كل ما في قرية المسيح خلا التسابيح، هادىء. حيثما قلبت وجهك سمعت التهليل. فالحارث القابض على محراثه ينشد هللويا، والحاصد المضنى يستعيد نشاطه بتلاوة المزامير، وحارس الكرم يرتل نشيد داود. هذه هي أشعار السكان وأناشيدهم في هذه البلاد، هذه هي أغاني الحب التي يرددها الراعي ويترنم بها الفلاح. لا يهمنا أن نفكر فيما نعمل ولا كيف نظهر، بل أن نرى ما تتوق إليه نفوسنا».

كانت رحلة القديسة سلفيا (أثريا)[٧] أوسع نطاقاً وأبعد مدى من سابقتها باولا، إذ شملت مصر وسيناء وفلسطين وشرق الأردن وسورية وبعض آسية الصغرى. والجزء الأول من رحلتها مفقود، لكن الباقي منه يدل على دقة في الوصف حتى إن بيزلي قال عنها: «لو أن كل ما وصلنا من الأخبار كتبه أشخاص على شاكلتها، وكانت لهم ثقافة

علمية وخبرة عالمية، لكانت معرفتنا عن الشرق أقرب إلى الصواب مما هي الآن». أقامت سلفيا في القدس ثلاث سنوات (حول سنة ٣٨٥). ووصفها للقدس من الناحية الطبيعية بين ما وصل إلينا من كتاباتها. لكننا حصلنا منها على وصف حفلة تقبيل الصليب يوم الجمعة الحزينة (الجمعة العظيمة) في الجلجثة في كنيسة القيامة إذ تقول[٨]: «جلس المطران في مقعده الخاص ووضعت أمامه طاولة عليها صندوق فضي يحتوي خشب الصليب المقدس. فتح الصندوق ووضع ما فيه على الطاولة، فوضع المطران يده على الخشبة وتبه الأساقفة المحيطون به للحراسة، وتقدم الناس واحداً واحداً فانحنوا ثم لمسوا الصليب بجباههم أولاً ثم بمحاجرهم ثم قبلوه ومروا. والغاية من وجود الأساقفة هو المحافظة على خشب الصليب إذ إنه حدث مرة أن اقترب أحد الناس لتقبيله فعضَّ جزءاً منه للتبرك وهرب به».

لكن سلفيا نقلت في أخبارها ما سمعته من القصص عن الأماكن المقدسة، وروت أنها رأت شجرة الحق التي غرسها موسى وهارون في صحراء التيه، والمكان الذي أقام فيه بنو اسرائيل العجل الذهبي، والعليقة التي كلّم موسى أمامها الرب بعد أن رآها تتقد. هذا إلى عشرات من هذه الأمثلة[٩].

ومن حجاج القرن الخامس اثنان حريان بالذكر جيروم وداود. أقام جيروم[١٠] في بيت لحم أربعاً وثلاثين سنة وتوفي فيها سنة ٤٢٠. وقد تنقل كثيراً في فلسطين. والأثر الرئيسي لجيروم أنه نقل كتاب يوزبيوس (من أهل القرن الرابع)[١١] من اليونانية إلى اللاتينية وعلق عليه وزاد في معلوماته، حتى صح أن يعتبر أحد مؤلفي الكتاب. والكتاب يحتوي على ثلاثمئة اسم لأماكن مختلفة في الأرض المقدسة من حيث علاقتها بالكتاب المقدس، مع ذكر المسافات بينها، فضلاً عن سبعمئة مكان آخر لا يعينها بالضبط لأنها كانت قد درست وعفت آثارها. والكتاب يمكن الاعتماد عليه في أنه حفظ لنا النظرة التقليدية للأماكن كما كانت معروفة في أيامه، وهذه كان قد تسرَّب إليها بعض الخطأ. ومن هنا جاء ما نجده من اضطراب في بعض النتائج التي وصل إليها جيروم، عندما نقابلها بنتائج البحث العلمي الحديث[١٢]. وجدير بنا أن نذكر هنا أن جيروم ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية وهي الترجمة المعروفة باسم Vulgate.

أما داود الولشي فقد اوحي إليه وإلى اثنين آخرين أن يتوجهوا إلى القدس ليقوموا بواجب الحج. فلما اجتازوا بحر المانش وهبطوا فرنسة لم يستطيعوا التفاهم مع أهلها فحلت نعمة الروح القدس على داود فصار يتكلم بكل لسان، ولم يبق ثمة صعوبة. ولما وصلوا القدس قابلهم البطريرك، الذي كان قد اوحي إليه باقترابهم، بالتبجيل، وسمى القديس داود رئيس أساقفة. وهناك طلب إليهم أن يدحضوا حجج اليهود الدينية، فقاموا بالأمر، حتى أقنعوا الكثيرين الذين أخذوا يدخلون في المسيحية أفواجاً. وقد كافأ البطريرك داود على خدماته بهدية مقدسة شملت مذبحاً وجرساً

كبيراً وهراوة وحلة منسوجة من الذهب. وكل واحد منها كانت لها كرامات وعجائب. ولما اعتزم داود العودة إلى بلاده حملت الملائكة له الهدية، إذ لم يكن باستطاعته أن يحملها بنفسه. وكذلك حملت هدايا رفيقيه[١٣].

وصلنا إلى حجاج القرن السادس الذين بقي من آثارهم «الوصف الموجز لمدينة القدس» و«رحلة مثيودوسيوس» وأخبار انطونيوس الشهيد. وتمتاز هذه كلها، وغيرها مما وصلنا من القرن نفسه، بعنايتها بالآثار المقدسة، التي يتزايد عددها حتى يبلغ المئات في القرون التالية. «فالوصف الموجز» يعدد الحربة المقدسة، المصنوعة من خشب الصليب، والتي تلمع في ظلام الليل الدامس كأنها الشمس في رابعة النهار، والقرن التي صُبَّ منه الزيت على رأس كل من داود وسليمان لما مسحا ملكين، والخاتم الذي كان سليمان يختم به على الجن، والتراب الذي خلق آدم منه، والقصبة والاسفنجة، عدا عشرات غيرها من الآثار. وقد تابعه ثيودوسيوس (٥٢٠ ـ ٥٣٠)[١٤] فذكر هذه وأضاف إليها سواها. أما انطونيوس الشهيد (سنة ٥٧٠) فقد كانت رحلته مثل رحلة سلفيا واسعة النطاق طريفة في أخبارها. فقد زار فلسطين وسيناء ومصر وسورية والجزيرة ودوّن ما رأى وسمع، فجاءت كتاباته مليئة بذكر الآثار القدسية مثل كرسي مخاض العذراء ودنان الخمر في قانا الجليل (كفركنا) والكتاب الذي تعلم فيه المسيح «الألفباء» في الناصرة، حيث لا يزال المقعد الذي جلس عليه مع رفاقه موجوداً. ويقول في مكان آخر إن أهل السامرة كانوا يكرهون المسيح حتى إنهم كانوا يحرقون آثار أقدام السياح المسيحيين ويأبون أن يأخذوا منهم النقود قبل طرحها في الماء لتطهر من رجس أيديهم. ويحدثنا انطونيوس عن التكايا التي أنشئت في البلاد المقدسة لإيواء الحجاج والأماكن التي كان يعتزل فيها البرص. ولكنه يبالغ في عددها وفي سعتها[١٥].

منذ أوائل القرن السابع تغيرت الأحوال السياسية في الشرق الأدنى كله. فقد احتل الفرس سورية ٦١٤ ـ ٦١٧ ودمروا الكنائس وغيرها من أماكن العبادة. ولما استعاد البزنطيون البلاد رمموا بعض ما تهدم. ومن ذلك كنيسة القبر المقدس. وفي القرن نفسه احتلَّ العرب سورية بعد معركة اليرموك ٦٣٦. والذي نعرفه أن هذا الاحتلال لم يمنع الحجاج من المجيء إلى الأراضي المقدسة[١٦] بل إن العرب شجعوهم على القيام بهذا الفرض الديني. فالحجاج الذين زاروا البلاد في العصر الاموي مثلاً لا نجد في كتابتهم أثراً للشكوى أو التذمر. إلاّ أننا نلحظ أنهم أخذوا يفدون بطريق مصر، بدلاً من طريق آسية الصغرى، بسبب العداء الذي كان مستحكماً بين العرب والروم. والحوادث العدائية الفردية التي وقعت لبعض الحجاج كان سببها وشاية اليهود. ولما قام العباسيون اتسع نطاق التجارة مع العرب وزادت الزيارات عما كانت عليه قبلاً. وهذه الفترة التي مرت بين احتلال العرب لسورية وبين أواخر القرن التاسع يمثلها ثلاثة من الحجاج: اركولف وولبولد وبرنارد الحكيم.

اركولف مطران من بلاد الغال زار الأراضي المقدسة ودمشق وصور والاسكندرية والقسطنطينية في أواخر القرن السابع وقضى في القدس تسعة شهور وتردد على كل البقاع المحيطة بها. وقد قصَّ أخبار سياحته على راهب انكليزي اسمه ادمنان، وهذا دوَّنها فيما بعد، ولعله أضاف إليها شيئاً نقله من أخبار الرحَّالين السابقين.

تقع أخبار اركولف في ثلاثة أقسام. أولها عن القدس وما إليها. والثاني عن بقية الأراضي المقدسة ومصر. والثالث عن القسطنطينية. والرحالة يعنى بملاحظة أمور كثيرة لها علاقة مباشرة بجغرافية البلاد في أيامه. فهو يشير إلى صخور جبال القدس الجرداء وقحولتها ونباتها الشائك وضعف محصولها الزراعي، ويقارنها بالأرض الخصبة حول قيسارية والزيتون الكثير المزروع في الطريق إليها[١٧]. وينتبه إلى الغابات الكثيفة التي كانت تحيط ببحيرة طبريا[١٨] والبساتين المحيطة بدمشق[١٩] وأزهار جبل طابور[٢٠]. وقد زار برية الأردن ووصف النهر ومكان اعتماد المسيح والجراد والعسل البري الذي استعمله يوحنا في حياته، إذ يقول[٢١]: «وفي البرية نوع من الجراد الصغير لا يتجاوز حجم الواحد منه حجم الإصبع، يسهل القبض عليه لأنه يقفز ولا يطير، يقلى بالزيت ويستعمل طعاماً. وفيها أيضاً شجر له أوراق كبيرة مستديرة، إذا ضغطت خرجت منها عصارة حلوة ـ هذا هو العسل البريّ». وإذ يصل اركولف إلى الاسكندرية يصف ميناءها وصفاً دقيقاً ويشير إلى اتساع نطاق تجارتها ويحددها ببحيرة مريوط والنيل ويقول إنه احتاج إلى نهار كامل من أيام تشرين الأول (اكتوبر) حتى تمكن من اختراقها[٢٢]. ويعلق رايط على هذا الوصف بقوله: يظهر مما بين أيدينا من وصف اركولف ان الاسكندرية لم تفقد قيمتها بعد الفتح العربي[٢٣].

لكن اركولف مع كل ذلك لم يستطع أن يتخلص من الروح الدينية العامة القائمة على أن للآثار المقدسة فعلاً عجيباً في شفاء الامراض وغفران الخطايا. فهو يعدد الآثار التي رآها مثل الكأس الفضية المقدسة والمنديل الذي غطي به المسيح في القبر والاسفنجة والحربة التي شهدت صلب المسيح. وقد لمسها وقبلها. وذكر أنه توجد على جبل الزيتون (الطور) كنيسة الصعود التي لا سقف لها، لأن عاصفة تهب في كل سنة في مثل الوقت الذي صعد فيه المسيح إلى السماء فتعصف بالسقف إذا كان موجوداً أو بالمواد التي تكون قد جمعت لبنائه. وقد شاهد ذلك بنفسه. ويقول في مكان آخر: «اعتاد الناس أن يفدوا إلى القدس جماعات كبيرة في الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) من كل سنة للاحتفاء بعيد الصليب المقدس ولتبادل السلع والبضائع، حتى إنه كان من الصعب السير في طرق المدينة لكثرة الأقذار المسببة عن الحيوانات التي يؤتى بها. ولكن العناية الإلهية كانت تبعث على أثر مغادرة الناس للمدينة بأمطار غزيرة تنظفها[٢٤].

وولبولد الانكليزي[٢٥] الذي زار سورية بين ٧٢١ ـ ٧٢٧ هو بطل سياح القرن

الثامن. وقد كان من عادة الكثيرين من جوّابي تلك العصور وحجاجها أن يكتفوا بذكر أسماء ما يمرون به من البلاد قبل وصولهم فلسطين، فإذا جاءوها ذكروا أخبارهم بالتفصيل. لكن ولبولد يصف رحلته كلها في أواسط أوروبة واجتيازه جبال الألب ومروره برومة والبراكين التي شاهدها. ويقول مثلاً إن سكان المدينة المجاورة لبركان أتنا في صقلية يدفعون عن أنفسهم غائلة ثوران هذا البركان برفع وشاح القديسة «أغاتا» المدفونة عندهم، فيهدأ ثائر جهنم.

هبط ولبولد سورية في طرطوس وسافر منها إلى حمص. ولما كان العرب يخشون عندها تجسس الغربيين بسبب ما كان بينهم وبين الروم من عداء، وكان عدد رفاق ولبولد قد بلغ الثمانية، فقد راب القوم أمرهم، وألقي القبض عليهم وزجوا في السجن، إلى أن حقق معهم ومثلوا أمام الخليفة يزيد الثاني (٧٢٠ ـ ٧٢٤). فلما عرف بلادهم وغايتهم أطلق سراحهم وزوّدهم برسائل تمكنهم من التجول في البلاد وأعفاهم من ضريبة الحج[٢٦]، فسافروا إلى دمشق ومنها إلى القدس بطريق الناصرة وطبرية ووادي الأردن واريحا. واتخذوا المدينة المقدسة مركزاً لزياراتهم. وقد مروا في إحداها بحمص ثانية فزوّدهم حاكمها بكتاب لكل اثنين منهم وأمرهم أن يسافروا اثنين اثنين فقط إذ لم يكن سبيل لهم للحصول على طعام يكفيهم جميعاً إذا سافروا معاً[٢٧] (!).

كان نقل زيت البلسان من فلسطين ممنوعاً. وكان عقاب من يخرجه الموت. ولكن ولبولد رغب في حمل بعضه إلى بلاده. فملأ أنبوبة صغيرة منه، ثم جعلها في أنبوبة أخرى أكبر منها ملأها زيتاً صخرياً لعله النفط أو القار. فلما وصل إلى صور وفتشوا أمتعته لم يهتدوا إلى البلسم بسبب رائحة الزيت[٢٨]. ومن صور سافر ولبولد إلى القسطنطينية.

والفائدة الجغرافية التي نحصل عليها من أنباء ولبولد قليلة، لأنها مقصورة على ملاحظات تتعلق ببعض الأماكن التي لها علاقة بالتوراة. لكن الصورة التاريخية لذلك العصر، من حيث الحاجة إلى جواز سفر للتنقل وعناية الحكام بالتدقيق على الغرباء والتفتيش على بضائعهم وأمتعتهم المتعلقة بمعيشة الناس، ذات قيمة كبيرة[٢٩].

برنارد الحكيم هو نموذج سيّاح القرن التاسع الميلادي، وهو القرن الأخير من عصر التفاهم والتسامح بين الشرق والغرب الذي سبق الحروب الصليبية. وبرنارد لا يبدأ رحلته قبل أن ينال رضى قداسة البابا في رومة، ثم هو يمر بالأراضي الايطالية التي كانت خاضعة للنفوذ العربي، فيحمّله صاحب باري[٣٠] رسائل إلى أمير الاسكندرية وإلى أمير الفسطاط في مصر. وكذلك كان شأنه في كل مدينة مرَّ بها أن يعطي كتاباً إلى السلطة الحكومية في المدينة التالية لقاء دينار أو دينارين[٣١].

كان برنارد أدق ملاحظة وأحرص على راحة المسافرين ممن سبقه، لذلك عني

بوصف صعوبات الطريق وأماكن اكتراء الدواب وشراء الزاد للسفر. وقد جاء برنارد فلسطين من الجنوب، على نحو ما دخلها ابن بطوطة بعده بنحو خمسة قرون. فجاء من دمياط إلى تنيس بحراً ثم سار إلى الفرما (القلزم). وفي الفرما وجد كثيراً من الإبل يكتريها المسافرون لحملهم وأمتعتهم ستة أيام عبر الصحراء. ويذكر برنارد خانين كبيرين هما مركزان للتبادل التجاري بين المسافرين وأهل البلاد. ثم يمر بالعريش وغزة ويصف الأرض المنزرعة حول الأخيرة ويقارنها بالصحراء البيضاء كأنها مكسوة بالثلج دائماً[٣٢]. وإذ يصل إلى الرملة يتجه نحو القدس ويحل في النزل الذي كان قد بناه شارلمان للحجاج[٣٣].

ويؤسفنا أن برنارد يقتضب كثيراً عندما يصف القدس وبقية فلسطين. لكنه يعنى بذكر الحفلات الدينية. وهو أول من ذكر «فيض النور» في اليوم السابق ليوم الفصح المقدس. فقد قال: «يجد الداخل إلى القبر قناديل كثيرة معلقة فوقه. فإذا كان صباح السبت السابق ليوم الفصح بدئت الصلاة في الصباح، حتى إذا تمت، أنشد الكل بصوت رخيم، استجب يارب، واستمروا في ذلك حتى ينزل الملاك وينير القناديل المذكورة. وعندها يتقدم البطريرك ويعطي لكل مطران حصته من هذا النور المقدس، ثم يسمح للشعب أن ينير كل قنديله»[٣٤].

وعلى ذكر ما أورده برنارد عن سبت فيض النور ننقل ما كتبه أبو الفرج عن هذه المسألة في زمن الحاكم بأمره: «قيل إنه وشى بعضهم إلى الحاكم أن النصارى يوم فيض النور يدهنون السلاسل التي تعلق بها القناديل بزيت البلسم، فإذا جاء الحارس العربي المكلف حراسة القبر وختم بابه، خشية التلاعب فيه، أشعلوا البلسم الذي على السلاسل من ثقب خفي، فتضاء القناديل وعندها تنهمر دموع الفرح من مآقي الشعب، ويصيح «يارب ارحم» حاسبين أن النور قد هبط من السماء فيقوى بذلك إيمانهم[٣٥]».

كان القرن التاسع الميلادي (القرن الثالث الهجري) عصراً من عصور النظام والاستقرار في الشرق العربي، بينما كان فترة من فترات الاضطراب في أوروبة. وقد ترك ذلك في نفس برنارد أثراً قويًا بدا في الملاحظة التي ختم بها أخباره عن رحلته، إذ قال «إن المسلمين والمسيحيين في القدس ومصر هم على تفاهم تام. حتى إنني إذا سافرت ونفق في الطريق جملي أو حماري وتركت أمتعتي مكانها وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شيء على حاله لم تمسه يد. فقانون الأمن العام في تلك الديار يقضي على كل مسافر بالليل أن يكون بيده وثيقة تبين هويته. فإذا عدمها زجَّ في السجن حتى يحقق في أمره ويتضح قصده[٣٦]».

وقد وصلت إلينا انباء كثيرين من الحجاج الذين جاءوا إلى الأرض المقدسة والبلدان المجاورة في القرنين العاشر والحادي عشر نكتفي بالإشارة إلى بعضهم. فممن جاء في القرن العاشر كونراد أسقف كونستانس ٩٣٤ ـ ٩٧٦ وهكذا أمّ جيرو

رئيس أساقفة كولون بالمانيا، والكونتس هوموند[٣٧] من ايبرزبرغ. أما رحالو القرن الحادي عشر فمنهم يوبو رئيس أساقفة تريير بفرنسا ١٠٢٨ ـ ١٠٣٠ م وقد وصل إلى نهر الفرات. وفي سنة ١٠٦٤ ـ ١٠٦٥ م جاء فلسطين أربعة أساقفة هم سغفريد أسقف مينز وغونتر أسقف بامبرغ ووليم أسقف اترخت واوتو أسقف ويغثزبرغ[٣٨] وقد كان معهم سبعة آلاف رجل، فقد أكثرهم في البحر وفي معارك السلاجقة في فلسطين، ولم يعد منهم سوى ألفين[٣٩]».

الهوامش

(١) Bliss p. 45.
(٢) Jenkins in *Travels*, p. 53.
(٣) PPT, Vol. I.
(٤) PPT, Vol. I.
(٥) Rapport p. 226.
(٦) كانت هذه الرسائل موجهة إلى صديقة لها اسمها مرسيلا كانت مقيمة في روما.
(٧) يرجح انها فرنسية الأصل من مقاطعة اكتين «راجع PPT Vol. I وقد تكون راهبة اسبانية اسمها Eucheria» «راجع *Ency Bri.* art. Eucheria».
(٨) *Travels*, p, 47.
(٩) *Travels*, C.II.
(١٠) Beazley I, 54, PPT. Vol. I.
(١١) المعروف باسم Onomastico.
(١٢) Conder, Q.S (1896) p. 229, Robinson, Researches I, p. 32.
(١٣) *Travels*, pp. 40-45.
(١٤) Geyer: It. Hieros. IV- XIII Saec.
(١٥) راجع الأصل في PPT. Vol. II والبحث النقدي في *Travels*, pp, 52- 60 وBliss pp 58-60.
(١٦) Rappoport pp. 267 & 270 و Bliss p.61.
(١٧) *Early Travels*, p.5.
(١٨) نفس المكان ص ٨.
(١٩) نفس المكان ص ١٠.
(٢٠) نفس المكان ص ٩.
(٢١) *Early Travels*, pp. 8-9.
(٢٢) *Early Travels*, p. 10-11.
(٢٣) نفس المكان تعليقة «٢».
(٢٤) نفس المكان ص ١.
(٢٥) وصلت أخبار ولبولد إلينا في نصين يسمى أحدهما هودوبوريون Hoedoeporieon والآخر «اسفار». ومع أن المادة الرئيسة الموجودة في كل منهما واحدة فالأول أدق ولكن الثاني ألذ. وقد أملى ولبولد نفسه النص الأول على راهبة انكليزية من أقاربه كانت في دير هيدنهيم. أما الأسفار فيرجح أن واضعها هو أحد رفقاء ولبولد. وقد اعتمد في كتابتها على ما نقلته الراهبة مضيفاً إليه ذكرياته ونتائج مطالعاته في التاريخ المقدس. وقد نشر النصان في PPT. VO. III مع مقدمة.

(٢٦) *Early Travels*, pp. 15-16.
(٢٧) نفس المكان ص ٢٠.
(٢٨) نفس المكان ص ٢١. راجع البغدادي عن البلسان في المختارات.
(٢٩) راجع مثلاً *Early Travels*, pp. 16, 18, 21.
(٣٠) *Early Travels*, p.23. كان حاكم ايطاليا والقائد العام فيها خفاجة الذي انتدبه أبو الغرانيق محمد الثاني ابن أحمد الأغلبي لتتمة فتح ايطاليا سنة ٢٥١ هـ ـ ٨٦٥ م واستمر فتوجه حتى وصل جنوة.
(٣١) يروي برنارد الصعوبات التي لقيها في التفتيش على امتعته على أيدي موظفي الجمرك في الاسكندرية "Early Travels, pp 24-5". ويذكرنا هذا بما لقيه العبدري وابن جبير «راجع تحت في المختارات».
(٣٢) نفس المكان ص ٢٦.
(٣٣) نفس المكان ص ٢٦.
(٣٤) *Early Travels*, p. 26.
(٣٥) منقول عن *Early Travels*, p. 27.
(٣٦) *Early Travels*, p. 30.
(٣٧) Hedemond.
(٣٨) Otto, William, Gunther, Siegfried.
(٣٩) تجد تفصيل هذه الرحلة والمعركة التي نشبت بين الرحّالين وبين أهل فلسطين في Crusades and other articles pp. 34-4.

٣ ـ الجغرافية والرحلات في الإسلام

كانت مسألة إدارة البلاد المفتوحة وتنظيمها من أمهات المسائل التي شغلت العرب. وهي مسألة كثيرة التعقيد لارتباطها بالطريقة التي تمَّ بها الفتح. لذلك اهتمَّ أصحاب السير والمغازي ورواة الأخبار ببحثها، ليتقرر مقدار الجزية والخراج. ومن ثمَّ كان وصف البلدان جزءاً من عمل المؤرخين. لكن الأمر لم يلبث أن اختلف. فاستقلَّ كتَّاب بوصف الأقاليم ودرسها. وكانت المحاولات الأولى تدور حول التعرف إلى البلاد وطرقها وخراجها. ومن ثمَّ كان كتاب «المسالك والممالك»، وهو من أقدم الكتب الجغرافية العربية، تقريراً عن جباية المملكة العباسية في أواسط القرن الثالث، وليس من المصادفات أن مؤلفه، ابن خرداذبه، كان متولي البريد والخبر بنواحي الجبل بفارس. وكذلك كتاب «الخراج وصنعة الكتابة» لقدامة بن جعفر، فإنه يبين الطرق والمسافات فضلاً عن قيمة جباية المملكة.

وقد شجع الإسلام الكتابة الجغرافية من ناحيتين أخريين: أما الأولى فجاءت عن طريق الحج. فالحج فريضة على المسلم ما استطاع إليه سبيلاً. ومن حق الحاج على سلفه أن يبين له خير الطرق للوصول إلى مكة والمدينة، ويشرح له الصعوبات ووسائل التغلب عليها .وكان أثر هذا الأمر كبيراً في إثارة الكتَّاب إلى تدوين ما لاحظوا ورأوا، كابن جبير وابن بطوطة. وأما الناحية الثانية التي شجع الإسلام فيها الكتابة الجغرافية فهي طلب العلم. فقد كان المسلمون يتنقلون في سبيل انتجاع المعرفة من قطر إلى آخر. وحرص علماؤهم على تدوين مشاهداتهم ليطلع عليها الخلف ويستفيد منها.

ونحن إذا عرضنا للمكتبة الجغرافية العربية وجدناها تضم انتاج ما يقرب من الثلاثين من كبار المؤلفين الذين وصلت إلينا آثارهم، غير الذين لم يبق من كتابتهم شيء. وقد تأثرت الأبحاث الجغرافية في عهدها الأول بما وصل إليه اليونان من قبل، شأن بقية الأبحاث التي أخذها العرب عنهم.

ومع أنه لم تصل إلينا ترجمة تامة لكتاب بطلميوس، فقد خلَّف لنا الخوارزمي الفلكي خلاصة له عملها سنة ٨٣٠ ميلادية[1]. فالأطوال والعروض والمواقع عنده وعند غيره من معاصريه ترجع في غالبها إلى كتاب بطلميوس. ومن أظهر آثار العالم اليوناني في جغرافيي العرب في هذه الفترة تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم. وكتاب الكندي المسمى «رسم المعمور من أقطار الأرض» هو اقتباس لبطلميوس اليوناني.

وابن خرداذبه نقل بعض كتابه «المسالك والممالك» عن بطلميوس أيضاً، ثم أضاف إليه الخراج والطرق على ما ذكره هو في مقدمة كتابه. ومثل ذلك يقال عن اليعقوبي وابن الفقيه وابن رسته.

ويرى ميلر أن هؤلاء الكتّاب الجغرافيين العرب الذين ذكروا يمثلون المعرفة الجغرافية اليونانية الرومانية مترجمة إلى اللغة العربية، وأن الخرط التي رسموها كانت منقولة عن بطلميوس[٢].

على أن القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يمثل في تاريخ البحث الجغرافي العربي فترة النضج. والاصطخري وابن حوقل والمقدسي يمثلون درجة عالية في البحث المبني على الاختبار الشخصي والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل. والتأليف الجغرافي الناضج هذا استمرَّ ثلاثة قرون وكانت تظهر فيه، في أول أمره، آثار فارس، لكنه لم يلبث أن خلصت عروبته. والاتجاهات التي نلمسها في ما خلَّفه لنا كتَّاب هذه الأزمنة ثلاثة، أولها: عناية شديدة بأقاليم العالم الإسلامي والأقطار المجاورة على ما نراه عند البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي[٣]. وثانيها: نوع من التخصص في قطر واحد. فقد كتب الهمذاني «صفة جزيرة العرب». وكتب البيروني عن الهند. وترك لنا ابن فضلان وصفاً لبلاد الصقالبة (على الفولغا)، إذ زار بلادهم في وفد الخليفة المقتدر سنة ٣١٠ هـ/٩٢١ م[٤]. وأما الاتجاه الثالث فقد بدا في كثرة المعاجم الجغرافية التي وجدت طريقها إلى المكتبة الجغرافية منذ القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد). فالبكري يعرِّفنا بكتابه بقوله: «هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة». وياقوت الحموي في طليعة أصحاب المعاجم الجغرافية على الإطلاق. فكتابه معجم البلدان «خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية لأنه إذا ذكر بلداً أورد شيئاً من تاريخه ومن اشتهر فيه أو نسب إليه من الأدباء والشعراء والفقهاء. هذا بالإضافة إلى مقدمة وافية في علم الجغرافية». والمعجم دقيق في معلوماته منظم في طريقته.

وتمتاز هذه الفترة بأن الخرط التي رسمها هؤلاء الجغرافيون «كانت انتاجاً عربياً خالصاً»[٥] وقد أحصى ميلر مئتين وخمساً وسبعين خارطة للعالم الإسلامي تعود إلى ذلك العصر[٦] (هذا باستثناء خرط الادريسي الآتي ذكرها فيما بعد).

ثمة ناحية أخرى من الانتاج الجغرافي حرية بالعناية هي الموسوعات الكبيرة التي ظهرت في القرن الثامن الهجري. فقد وصلت إلينا كتب فيها التاريخ والأدب والجغرافية وغير ذلك. ومن هذه نهاية الأرب للنويري وصبح الأعشى للقلقشندي ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري. فهذه الكتب المعتبرة في مقدمة خزائن

المعرفة تحوي فصولاً في الجغرافية العامة والسياسية تمدنا بالكثير من معلوماتنا عن الدول الإسلامية وغيرها من الأقطار في تلك العصور.

وتمتاز الكتب الجغرافية العربية، وخاصة بعد تحررها من تأثير اليونان المباشر، بأنها تعتمد على المشاهدة الشخصية والحس. فاليعقوبي يقول عن نفسه إنه سافر وحدّث وسأل. وابن حوقل يقول: «وأعانني على تأليفه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني... إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها، وقطعت وتر الشمس على ظهرها». أما المقدسي فقد جال في البلدان ودخل أقاليم الإسلام ولقي العلماء وخدم الملوك وجالس القضاة ودرس على الفقهاء واختلف إلى الأدباء والقرّاء، وخطب على المنابر، وساح في البراري وتاه في الصحاري وأشرف على الغرق وسجن في الحبوس ولزم التجارة في كل بلد وعني بالمعاشرة مع كل أحد. وهذا الأمر ـ أي العناية بالرحلة في سبيل التعرف إلى البلدان والكتابة عنها ـ ينطبق على العالم الإسلامي، ذلك أن أكثر الكتّاب عنوا بهذا الجزء من العالم. ومع أن بعضهم تحدَّث عن البقاع الأخرى، فقد جاء هذا متأخراً.

فالاصطخري يقول: «ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض إلى الممالك وقصدت منها بلاد الإسلام بتفصيل مدتها وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها...». وابن حوقل يذكرنا أنه فصَّل بلاد الإسلام اقليماً اقليماً وصقعاً وصقعاً وكورة كورة لكل عمل. وهذان الكاتبان، يبدآن الوصف بديار العرب، لأن القبلة ومكة فيها وهي أم القرى، وهي بلد العرب وأوطانهم. ومثل ذلك المقدسي. أما اليعقوبي فيتخذ العراق نقطة ابتداء لكتابه «لأنه وسط الدنيا وسرَّة الأرض» ويبدأ بذكر بغداد «لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها».

ويعنى الجغرافيون العرب بالمسالك والطرق والمسافات لعلاقتها بالرحلة والتجارة والبريد. وهذه عندهم صحيحة دقيقة. والمستعمل عندهم الفراسخ والأميال للقياس. والفرسخ ثلاثة أميال، والميل يقل عن الكيلومتر قليلاً. ويستعملون للمسافات الطويلة وحدة للسير هي اليوم. فسورية مثلاً طولها خمسة وعشرون يوماً. وقد وجدت بعضهم كالأدريسي مثلاً يذكر: «يوماً طويلاً» في تعيين المسافات.

ومن النادر أن يعثر القارىء في كتب الجغرافيين العرب على إحصاء يتعلق بعدد السكان، أو مقدار ما ينتج في صناعة معينة أو من زراعة مبينة[٧]. على أن احصاءاتهم المتعلقة بالخراج وارتفاع الأرض المترتب على ذلك، دقيقة صحيحة. فالأرقام التي يوردها قدامة بن جعفر عن ارتفاع السواد مأخوذة من القيود الرسمية للسنة ٢٠٤ للهجرة (٨١٩م)، وهو يذكرها بالحنطة والشعير والدراهم.

وقد نقل الخلف عن السلف في الكثير من الأحيان. فالبعض ذكر ذلك والبعض الآخر سكت عنه. وقد حذَّر المقدسي قراءه «فذكّرهم أنه لم ينقل عن أحد ولكنه خبر

ودوَّن وكتب». وانتقد المقدسي كتب من سبقه من الجغرافيين. فمنهم من كتب باختصار لا يفيد ومنهم من جمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها، وكيف المسالك إليها. ومنهم من اختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة. ويقول عن ابن الفقيه الهمذاني[٨] إنه «أدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم.. مرةً يزهد في الدنيا وتارةً يرغب فيها، ودفعة يبكي وحيناً يضحك ويلهي». وهنا نلحظ المقدسي الجغرافي العالم الدقيق الذي يريد أن يكون البحث دائماً مبنيّاً على الدرس والاختبار، منظماً مبوَّباً وافياً بحيث لا يخلط بين جدّ العالم وهزل الهازل. كذا نلمس هذه الناحية فيه إذ يقول عند تقرير خطته «وفي كتابنا هذا اختصار لفظ يدل على معان. مثل قولنا لا نظير له، نريد أن ليس مثله بتة... فإن قلنا غاية فإنها معنى الجودة من الأجناس»[٩]. ولما جاء أبو الفداء تناول في مقدمة كتابه «تقويم البلدان» من تقدمه من الجغرافيين بالنقد. فأظهر أن ابن حوقل والإدريسي وابن خرداذبة لم يحققوا الأسماء. وغيرهم لم يحقق الأطوال. أما هو فقد جمع بين التحقيق في الأسماء والأطوال[١٠] والواقع أن كتابه يصح أن يعتبر تاريخاً انتقادياً للكتابة الجغرافية العربية إلى عصره (القرن الثامن للهجرة).

ثمة مؤلف جغرافي آخر حريٌّ بالالتفات ـ ذلك هو الإدريسي صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». كتب هذا الكتاب بالعربية في صقلية في بلاط ملكها روجر الثاني سنة ١١٥٤ م. وصاحبه لم يزر الممالك الإسلامية الشرقية، لكنه كتب عنها مما حصل عليه من كتب الرحلات ورسائل الزوَّار.

والادريسي يمثل مدرسة جغرافية خاصة، هي التي سماها ميلر المدرسة العربية النورمانية[١١] فقد كان بلاط روجر الثاني ملتقى الحضارتين وموئلاً للحرية العلمية في القرن الثاني عشر الميلادي. والخرط التي رسمها الادريسي كانت ذات أثر كبير في تصوير الدنيا للأوروبيين بعد عصره.

ويمكن القول إجمالاً بأن الجغرافيين العرب عرَّفوا قومهم ومن جاء بعدهم في الشرق والغرب بالعالم، الإسلامي منه خاصة. وقد وقف الابتكار العربي في الجغرافية أيام الادريسي، اذ لم يقم بعده من جاء بجديد سوى الرحّالين. وتجدر الإشارة هنا الى أن مؤرخي الأبحاث الجغرافية متفقون على أن فضل العرب على الفلك كان عظيماً جداً.

وكانت الرحلة عنصراً قويّاً في حياة المجتمع الإسلامي في عصوره الزاهرة. فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التي تحملوها راضين مسرورين. ورحل الناس في طلب العلم من قطر إلى آخر. فقد كانت مراكز العلم منتشرة في أنحاء العالم الإسلامي، وطلابه كانوا يتحملون من المشاق في سبيل الحصول عليه ما يحملنا على احترامهم وإجلالهم. ورحل القوم في سبيل الاتجار. فقد كانت الأسواق الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها مرتبطة بعضها

ببعض كل الارتباط، وكان التجار يحملون متاجرهم وسلعهم إلى حيث يرجون الربح الوفير. أضف إلى كل ذلك رحلة الرسل المترددين بين الملوك والأمراء، والمغامرين الواجدين في الرحيل لذة خاصة، والساعين في سبيل الرزق إذا ضاقت بهم أرضهم، وجوَّابي الآفاق. كل هذه نماذج من الرحلة عرفها العرب والمسلمون. وقد شجعهم على الاستزادة منها خضوع العالم الإسلامي برقعته الواسعة لدولة واحدة بادىء الأمر. فلما ذهبت الوحدة السياسية بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة. وهاتان ربطتا الحجاج وطلاب العلم ورسل السلاطين وحملة البضائع وزعماء الصنائع فاحتفظوا بالصلة. بل لعلَّ الرحلة كانت أقوى في عهد التفرُّق السياسي منها قبلاً لاعتياد العالم الإسلامي درجة من المعيشة، ونوعاً من الحياة، ولوناً من التفكير، تحتم على أفراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكري والأدبي.

وقد دوّن كثير من رحالي المسلمين أخبار أسفارهم وتنقلهم، فذكروا المدن التي هبطوها، والمسافات التي اجتازوها والصعوبات التي تغلبوا عليها، ووصفوا البلاد وزروعها، وقيدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها، وأتوا على وصف حياة السكان فعرضوا للطيب من عاداتهم بالمديح، وعابوا ما فيهم من ضعف، كالذي انتقده ابن جبير من عادة أهل دمشق في تحيتهم وصفة سلامهم، فقال عنهم: «وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء... فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربَّات الحجال».

وهذه اللفتات التي نعثر عليها في مذكرات السائح هي التي تميزه من الكاتب الجغرافي. فهذا يسأل ويستقصي ويحقق ويحاول أن يشمل كل جزءٍ من المنطقة التي يعرض لدرسها. أما الرحالة فينقل ما يشهد، وتكون صورته جزئية، ولكنها ثمينة في هذه الناحية. ففي حين أن المقدسي أو أبو الفدا يذكران كل شيء عن إقليم الشام، نجد أن ابن جبير، وهو سائح، لا يتناول مدن الغور أبداً لأنه لم يصل إليها. وابن بطوطة يذكر جنوب سورية وخاناته وأماكن المكس والتفتيش فيه لأنه جاء البلاد برّاً من مصر.

وقد حفظ لنا التاريخ عشرات من مذكرات الرحَّالين المسلمين، أكثرها باللغة العربية، وبعضها بالفارسية أو التركية. وأهمها الرحلات التي كتبت بين أواسط القرن الخامس للهجرة وأواسط القرن التاسع. وهذه يزيد عددها على العشرين، وهي تحوي أسماء البيروني صاحب الآثار الباقية التي تتناول الهند، وابن بطلان الذي وصف انطاكية وما إليها في رسالة إلى صديق له ونقل عنه ياقوت الكثير من المعلومات عن تلك الجهات، والمازني الغرناطي والسائح الهروي وعبد اللطيف البغدادي والعبدري والبلوي ويشبك. فالعبدري المغربي رحل للحج في أواخر القرن السابع ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م فسار في ساحل شمال أفريقية إلى الاسكندرية ثم ارتحل برّاً إلى مكة. ووصف المصاعب التي لقيها في الاسكندرية على أيدي مفتشي المكوس في الميناء، حتى إنه

لعنهم. والبلوي أندلسي من أهل القرن الثامن جاء للحج فمرَّ بتونس والاسكندرية والقاهرة وقضى بعض الوقت في القدس.

أما الرحالون الذين نريد أن نتحدث عنهم في هذه الفصول من حيث علاقتهم بالشرق العربي، فهم ناصري خسرو وابن سعيد وابن جبير وأسامة بن منقذ والهروي والبغدادي وابن بطوطة وقايتباي الملك الأشرف.

الهوامش

(١) *Legacy of islam* p. 84.
(٢) *Mappae Arabicae,* Band IM p.10 ص ١٠.
(٣) المقدسي ص ١ و٤٣ والاصطخري ص ٢ و١٢ وابن حوقل ص ٥ وقدامة ص ٢٣٤.
(٤) لفت الاستاذ محمود محمد شاكر نظري إلى ما أفاده ياقوت مما خلفه ابن فضلان عن هذه البلاد.
(٥) ميلر Miller ص ١٤.
(٦) ميلر ص ٢٣ ـ ٢٤.
(٧) راجع متز ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ـ الجزء الثاني ص ٢٢٥ وما بعدها. «وأخيراً ظهرت طريقة ساذجة في الاحصاء. فقد ذكر ابن حوقل مرة واحدة أن بمدينة بلرم قصبة صقلية ما يزيد على مئة وخمسين حانوتاً للقصابين، وأراد أن يتخذ من ذلك دليلاً على كثرة عدد أهلها» ابن حوقل ص ٨٣.
(٨) المقدسي ص ٦.
(٩) المقدسي ص ٧.
(١٠) أبو الفدا ص ١ ـ ٢.
(١١) Miller ص ٢٤ ـ ٢٥.

٤ ـ الرحالون المسلمون

إن الرحَّالين الذين نتناولهم الآن إنما هم نماذج للعدد الكبير من الناس الذين تنقلوا في أنحاء العالم الإسلامي لأداء فريضة الحج أو طلب العلم أو لإشباع رغبتهم في التنقل والسفر، وتجنبنا التحدث عن التجار، لأننا إنما نعنى بالأشخاص الذين تركوا لنا صوراً للحياة في الشرق العربي. فناصري خسرو وابن جبير وأسامة والبغدادي وابن سعيد وابن بطوطة ـ كل واحد منهم نجد عنده هذه الصور الواضحة الخطوط الغنية بالألوان. أما الهروي فرحلته دليل ديني. وقد رأينا أن نتناول رحلة الملك الأشرف قايتباي بالعناية لأمرين. أولهما: انها تدل على يقظة الملك وعنايته المباشرة بشؤون ملكه. وثانيهما: انها فريدة في بابها في الرحلة العربية. هذا مع العلم بأن اختصارها جردها مما كنا نأمل منها، فظهرت تقريراً رسميًا مختصراً بدلاً من أن تكون صوراً حية للمجتمع السوري في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد.

وأول هؤلاء الرحَّالين هو ناصري خسرو. وهو فارسي الأصل والنشأة والثقافة. ولد بالقرب من بلخ سنة ٣٩٤ هـ /١٠٠٣ م وتأدب وشارك في علوم عصره ونال حظًا وافراً في معارفه، وزار الهند وعمل في بلاط الغزنويين. ثم عاد إلى فارس وشغل منصباً كبيراً عند السلاجقة، إذ كتب لجعفر (أو جفري بك)، وهو أخ طغرل بك. وكان منغمساً في الملاهي والملذات حتى تراءى له ليلة رجل في الحلم نهاه عن المعاصي، وأسرَّ إليه أن زيارة البيت الحرام هي سبيل التوبة النصوح. فكان لهذا الحلم أثرٌ بالغٌ في نفسه، أدَّى إلى تغيير حياته، فأقلع عما كان فيه حالاً وسار للحج في العام التالي.

بدأ من مرو فمرَّ بنيسابور والري وتبريز وميافارقين وآمد وحرَّان ودخل سورية بطريق منبج. وزار في بلاد الشام أمهات مدنها في طريقه، إذ مرَّ بحلب وحماة والمعرة ثم اتجه إلى الشاطىء فزار طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكاء. ومن هنا عرَّج على طبريا ثم عاد إلى عكاء ومنها اتجه إلى الرملة بطريق قيسارية وكفر سابا. ومن الرملة قصد القدس فوصلها سنة ٤٣٨ هـ وقضى فيها أربعة أشهر ثم حجَّ وعاد إلى القدس بطريق دمشق وسافر إلى مصر برّاً عن طريق عسقلان فوصل في ٧ صفر سنة ٤٣٩ هـ /١٠٤٧ م. فأقام في مصر ثمانية أشهر ثم حجَّ ثانيةً وعاد وظلَّ يتنقل في بلاط الخليفة المستنصر سنتين إلى أن غادر عاصمة الفاطميين نهائيّاً في ١٤ ذي الحجة سنة ٤٤١ هـ/ نيسان (ابريل) سنة ١٠٥٠ م بطريق عيذاب إلى جدة. وبعد أن

حجَّ للمرة الأخيرة عاد إلى بلاده بعد أن اجتاز الطريق من مكة إلى الحسا برًّا وزار البصرة، فوصل مرو في ١٥ (حزيران) يونيو سنة ١٠٥٢ م.

كان ناصري خسرو اسماعيليّاً شديد التعصب لمذهبه، وفي أثناء إقامته في القاهرة تدرَّج في مناصب الدعاة الاسماعيليين وقابل الخليفة نفسه، وكان يرى أن القاهرة المركز الديني لمذهبه وأن الخليفة هو الإمام الحق. ولما عاد إلى بلاده كان في مقدمة الدعاة. وقد نقل براون عن جامع التواريخ أن ناصري خسرو قضى عشرين سنة متخفياً في جبال خراسان، لما اشتدَّ السلاجقة في طلبه. وبقي في منفاه هذا إلى أن توفي في سنة ٥٤٢ هـ /١٠٦٠ م.

كان ناصري خسرو دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصي الأخبار وروايتها، فجاءت رحلته، المعروفة باسم سفرنامه، غنية بالصور، مليئة بالمعلومات عن البلاد التي زارها. وتلقي رحلته نوراً على الكثير من الشؤون الاجتماعية والاقتصادية قبيل مجيء الصليبيين.

فوصف ناصري خسرو للحرم الشريف بالقدس من أدق ما وصل إلينا من المعلومات عن هذا المسجد المبارك، ولعله أول من ضبط أبعاد الأقصى وقياساته. ويلاحظ هذا السائح أبواب المدن واتجاهها وميناء عكاء وصناعات صور وصيدا، ويعنى بمصادر المياه في كل بلد، وتسترعي نظره كثرة الرخام في الرملة. ولعلَّ من أدق ملاحظاته ما ذكره من أن قرى القدس تقوم على رؤوس الجبال أو سفوحها. ثم هو لا يغفل عن زهر النرجس الذي يكسو بقعة من الأرض إلى الغرب من حماة أو عن الوردتين الجميلتين اللتين رآهما في جبيل بيد صبي في شهر شباط (فبراير) أو الأشجار التي تكسو الطريق حول كفرسابا في فلسطين. والمدن الداخلية السورية التي نالها حظ الوصف في رحلته هي حلب وحماة وطبريا وبيت المقدس. أما باقي ما كتبه عن سورية فهو عن مدن الساحل. فهو يذكر أن حلب[١] تتمتع بيسار ورخاء إذ تلتقي عندها طرق التجارة الشامية والرومية والعراقية والمصرية. ويحدثنا عن أبي العلاء عند مروره بالمعره، فقد كان لا يزال حيّاً[٢]. ويصف طرابلس بقوله[٣]: «أرباض المدينة تملأها البساتين... وقصب السكر ينمو هنا بكثرة... ومثله البرتقال والليمون والتمر... وقد كانوا أيام وصولنا يستخرجون عصير قصب السكر... وفنادق المدينة تتألف من أربع طبقات أو خمس وقد تصل إلى ست... وبيوتها وأسواقها حسنة البناء نظيفة.. وفي المدينة مكاتب لفرض الضريبة الجمركية على السفن القادمة إلى المدينة من بلاد الروم أو الغرب أو غيرهما.. وللسلطان ـ أمير المدينة ـ سفن تحمل تجارته إلى بزنطية وصقلية والغرب. وأهل طرابلس كلهم شيعة». ولما وصل ناصري خسرو صيدا بهره ثراؤها وزينتها فقال «وأسواق المدينة بهية الزينة حتى ظننت أنها زينت لمناسبة قدوم السلطان أو لأمر آخر سار. فلما استقصيت عرفت أن ذلك أمر

عادي». وقد كانت صور في الوقت الذي زارها فيه ناصري خسرو، من أكبر مراكز التجارة البحرية، يدلنا على ذلك فنادقها التي كانت ذات خمس طبقات أو ست، وشوارعها كانت نظيفة تدل على الثروة الهائلة[٤]. «وصور معروفة بغناها وقوتها بين المدن السورية الساحلية وأكثر سكانها شيعة ولكن قاضيها سني». ويتنقل في مدن الساحل السوري من المدينة إلى الأخرى حتى يمر بقيسارية ثم يتجه إلى الرملة. وبعد أن يصف هذه المدينة الكبيرة وبيوتها المبنية من الرخام الذي يكثر وجوده فيها، يذكر طريقة تقطيعه أعمدة أو ألواحاً بمنشار غير مسنن. وفي القدس يعنى ناصري خسرو بزيارة الأماكن المقدسة كلها ويلاحظ أن شوارع المدينة مبلطة. ويعطينا عدد السكان على أنه عشرون ألفاً. ثم يقول: «والأرض في نواحي القدس مستغلة استغلالاً طيباً. والزيتون هناك كثير. ويبلغ الدخل السنوي لبعض كبار المثرين هناك نحواً من الخمسين ألف مَنٍّ (يقابل ٤٢٠٠ تنكة)». ويقول ناصري خسرو «إن القار المجموع من مياه البحر الميت يستعمل في طلاء الأجزاء السفلى من الأشجار لحفظها من الديدان. ويستعمله الصيادلة للمحافظة على العقاقير من الحشرات»[٥].

ووصف ناصري خسرو ولمصر من خير ما وصل إلينا[٦]. وقد تناول البلاط الفاطمي والعاصمة والإدارة الحكومية في زمن المستنصر بالتفصيل. ولم يكن هذا بغريب على الرجل الذي أقام في القاهرة مدة طويلة وعاشر المقدمين من أهلها وحظي بمقابلة الخليفة نفسه. فتراه يتحدث عن قاعة المآدب[٧] في القصر والاحتفال بولادة ابن للخليفة[٨] وعن جبر الخليج[٩] ويقسم القاهرة إلى حاراتها العشر[١٠] ويعطينا اسماءها مثل بجروان وزويلة والجديرة. وتعجبه فواكه مصر وأثمارها فيذكرها[١١] وينبئنا أن البلسم[١٢] مغربي الأصل جاء به أجداد الخليفة المستنصر لما فتحوا مصر[١٣] وإذ يذكر جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون يروي أن أحفاد هذين الرجلين أرادوا بيع كل من الجامعين في زمن الحاكم بأمر الله فابتاعهما الخليفة نفسه».

ولما عاد ناصري خسرو من مصر إلى بلاده بطريق الحجاز والحسا، ذكر ملاحظات قيمة عن المدن التي مرَّ بها. منها صنع القماش في أسيوط واستخراج الأفيون فيها[١٤]. وأجرة الجمل الذي استأجره منها إلى عيذاب كان ديناراً ونصف الدينار. وقد تعرَّف ناصري في أسوان إلى رجل اسمه الفلجي وتآخيا. فلما وصل إلى عيذاب أخذ نقوداً بناءً على توصية كان حمله إياها صاحبه الأسواني[١٥]. وانتقل إلى جدة فوصفها وذكر أن سكانها لا يتجاوزون الخمسة آلاف من الذكور[١٦]. كما أنه قال عن سكان مكة الأصليين انهم لا يتجاوزون الألفين من الذكور، وبها نحو خمسمائة مجاور[١٧] وأشار إلى القحط الذي أصاب الحجاز سنتي ٤٣٩ و٤٤٠ هـ[١٨].

وقد خصَّ ناصري خسرو مكة المكرمة ومناسك الحج ومشاعره فيها بقسط كبير

من جهده ووقته وكتابه[١٩]. ونالت فلج والحسا والبصرة حظها من عناية ناصري خسرو، إذ اجتاز بلاد العرب من الغرب إلى الشرق. وكانت البصرة أيام زارها ناصري خسرو، خربة والأجزاء المسكونة منها متباعدة، ومع ذلك فقد كانت فيها تجارة رائجة. وكان من عادة أهلها أنه إذا هبطها التاجر أودع أمواله عند صرّاف وأخذ بها رقاعاً فإذا اشترى شيئاً دفع الرقاع إلى البائع وهذا يستبدلها بالنقد من عند الصرّاف.

ورغب ناصري خسرو وأخوه في دخول الحمام، لكن ثيابهما الوضيعة حملت المشرف على الحمام على اقصائهما. ومما يدل على دقة ناصري خسرو ذكره المد والجزر في الخليج الفارسي وعلاقة ذلك بالفيضان في شط العرب. ومن البصرة عاد إلى مرو[٢٠].

وأما ابن جبير فقد جاء المشرق من الأندلس. ولد في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥م[٢١]. سمع من أبيه وأخذ القراءات عن ابن أبي العيش وعني بالأدب فبلغ فيه الغاية وتقدم في صناعة القريض والكتابة وخلّف شعراً كثيراً[٢٢] وله نثر جميل في الحكم[٢٣] وأكبر آثاره رحلته المعروفة[٢٤] باسم تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار.

كتب ابن جبير عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة فاستدعاه لأن يكتب عنه كتاباً، وهو على شرابه، فمدَّ يده إليه بكأس فأظهر الانقباض لأنه لم يشرب قط، فأقسم السيد ليشربنَّ منها سبعاً ففعل مرغماً فملئت له الكأس دنانير سبع مرات. فحمل المال إلى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير[٢٥]. ولما أظهر ذلك للسيد أسعفه في قصده.

خرج من غرناطة يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٣ م ووصل الاسكندرية[٢٦] بعد ثلاثين يوماً قضاها على ظهر البحر بين سبتة وبينها. وكان سفره البحري في مركب للجنويين[٢٧] وقد كان الطريق الطبيعي لابن جبير إلى الحجاز هو السفر من الاسكندرية إلى أحد موانىء سورية ليرافق الحاج الشامي. لكن بسبب وجود الصليبيين في سورية اضطرَّ رحالتنا إلى السير بالطريق المصري. فاتخذ سبيله إلى القاهرة ثم مرَّ بقوص وعيذاب وجدة في طريقه إلى مكة والمدينة. واجتاز بعد ذلك الطريق النجدي إلى الكوفة وزار بغداد والموصل وعاد بطريق سورية، فمرَّ بحلب وحماة وحمص ودمشق[٢٨] وعكاء. ومن هذه الأخيرة أقلع في مركب افرنجي إلى صقلية ومرَّ بصور. وعاد إلى غرناطة فوصلها في الثامن من المحرم سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م.

ولم يكن ابن جبير وحيداً في رحلته هذه. فقد رافقه جده لأمه القاضي ابن عطية[٢٩] وأبو جعفر الطيب.

ورحل بعد ذلك مرتين إلى المشرق، وحج في كل منهما. ذلك أنه لما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس على يد صلاح الدين قوي عزم ابن جبير على رحلته الثانية.

فخرج من غرناطة في ٩ ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م وعاد إليها في ١٣ شعبان سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م وقضى أكثر من ربع قرن في غرناطة ومالقة وسبتة وفاس منقطعاً إلى أسماع الحديث والتصوف وتروية ما عنده. وكان فضله وورعه في هذه المدة يحققان أعماله الصالحة[٣٠].

وتوفيت زوجه عاتكة أم المجد وكان كلفه بها جما فعظم وجده عليها وخرج من سبتة[٣١]. فوصل مكة وجاور بها طويلاً ثم زار بيت المقدس ثم تحوَّل إلى مصر والاسكندرية، فأقام يحدّث ويؤخذ عنه حتى وفاته سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م.

تذكرة ابن جبير هي أخبار رحلته الأولى وقد دوّنها صاحبها على شبه مذكرات يومية يستعمل فيها دائماً التاريخين القمري (مع السنة الهجرية) والشمسي (دون ذكر السنة). وقد عني كاتبها بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعية عناية فائقة. فمشاعر الحج كلها مدونة وصعوبات السفر ومواكب الأمراء وتجارة مكة كلها موصوفة وصفاً بارعاً دقيقاً. ورحلته فيها كثير من الصور التي توضح العلاقات بين أهل البلاد والصليبيين في سورية. ويشير غير مرة إلى الحياة الاقتصادية من حيث المزروعات والسلع المتبادلة. وابن جبير شديد العناية بالبحث عن المدارس والمارستانات، وليس هذا بغريب على رجل عالم فقيه. وهو في كل هذا دقيق الملاحظة سهل العبارة واضح الأسلوب. وقد أثر ابن جبير في كثير من الكتّاب الذين جاءوا بعده، فنقلوا أجزاء كبيرة من رحلته. وليس أدل على ذلك من أن ابن بطوطة نفسه نقل عنه وصف كل من حلب ودمشق وبغداد[٣٢]. على أنه من المؤسف أننا لا نجد في رحلته شيئاً يدلنا على عدد السكان في أي من البلدان التي زراها.

وابن جبير سني، ويبدو هذا واضحاً فيه عندما يتحدث عن منازل الشيعة في شمال سورية[٣٣].

وقد تناول ابن جبير في الجزء الأخير من رحلته صقلية بوصف رائع وروى أخبارها بشكل يجعل هذا القسم مصدراً رئيساً من مصادر تاريخ صقلية في زمن وليم الثاني وخاصة فيما يتعلق بعلاقة السكان المسلمين في الجزيرة بحكامها الأوروبيين.

الهروي

الهروي كان من معاصري ابن جبير. أصل أسرته من هراة، لكنه ولد في الموصل وطاف في سورية والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم وجزر البحر المتوسط حتى صقلية، وتنقل في مزاراتها ومساجدها وخالط أهلها، وكانت له نزعة صوفية[٣٤] وفيه فضيلة وله معرفة بعلم السيما[٣٥]. دخل القسطنطينية في زمن عمانوئيل كومنينوس سنة ١١٤٣ ـ ١١٨٠ م وهبط الاسكندرية سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م وسمع فيها لابن الرحال المحدّث[٣٦] وحمَّله القائد أبو القاسم بن حمود رسائل إلى صلاح الدين يطلب فيها تجهيز حملة ضد صقلية[٣٧]. وكان في القافلة التي نهبها ريكاردوس في

جنوب فلسطين سنة ٥٨٨ هـ/١١٩٢ م على ماء الخويلفة في مقاطعة الداروم[٣٨] ففقد فيها كتبه. وطلب ريكاردوس الهروي ليقابله فلم يمكن ذلك[٣٩]. ولما جاء رسول ابن النافذ وزير الخليفة العباسي الناصر لدين الله[٤٠] إلى صلاح الدين ليوثق العلاقات بين السلطان والبلاط العباسي[٤١]، ومرَّ بدمشق كان الهروي فيها، وكان اجتماعه به سبباً في تأليف «الاشارات إلى معرفة الزيارت».

قضى الهروي أيامه الأخيرة في حلب في ظل الملك الظاهر بن صلاح الدين الذي قرَّبه لمعرفته بالسيما، فشمله برعايته وبنى له مدرسة بظاهر حلب. وقد دفن في قبة بناحية من هذه المدرسة، على ما رآه ابن خلكان[٤٢]، وكانت المدرسة لا تزال قائمة في عهده. والكتاب الذي بين أيدينا هو «الإشارات» وقد قدم المؤلف نفسه وكتابه لقرائه بقوله: «أما بعد فإنه سألني بعض الاخوان الصالحين والخلان الناصحين أن أذكر لهم ما زرته من الزيارات وما شاهدته من العجائب والأبنية والعمارات وما رأيته من الأصنام والآثار والطلسمات في الربع المسكون والقطر المعمور فوقع الامتناع إلى أن حصل الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيزي شرّفه الله وعظمه وتبركنا بزيارته واستعبدنا برؤيته، إذ كان قدومه من دار السلام وقبة الإسلام وذكر الفقير للرسول زيارات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فوقع الابتداء بذكر الزيارات من مدينة حلب...».

«وقد اختصرت ما حضرني على سبيل الايجاز وأنا أستعيذ بالله من شرّ حاسد ونكد معاند يقف على ما ذكرناه في بعض الصحابة والتابعين وآل الرسول صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وعلى ذكر بعض الآثار فيقول قرأنا في التاريخ الفلاني ضد ذلك وقد ذكر فلان غير هذا وأنا مما لا أشك في قولة ولا أطعن في حديث إلاّ أنني ذكرت ما شاع خبره وذاع ذكره بطريق الاستفاضة والله أعلم بصحته. وقد ذكر أصحاب التاريخ جماعة من آل الرسول عليهم الصلاة والسلام ومن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم قتلوا وماتوا ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزاير البحر، ولم أرَ أكثر هذه الأماكن كما ذكروه. ولا شك أن قبورهم اندرست وآثارهم طمست. ذهبت آثارهم وبقيت أخبارهم والزاير له صدق نيته وصحة عقيدته وقد ذكروا أيضاً بلاداً وأماكن وطرقات لا تعرف الآن لتقادم العهد وتغير الزمان. وإن جرى السهو فيما أذكره فبطريق الغلط لا بطريق القصد. فاسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح في ذلك واصلاح الخطأ وإيضاح الحق فإن كتبي أخذها الانكتار ملك الفرنج ورغب في وصلي إليه فلم يمكن ذلك، ومنها ما غرق في البحر. وقد زرت أماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة وقد نسيت أكثر ما رأيته وشذ عني أكثر ما عاينته. وهذا مقام لا يدركه أحد من السائحين والزهاد ولا يصل إليه أكثر المسافرين والعباد إلاّ رجل جال الأرض بقدمه واثبت ما قلته بقلبه وقلمه...»[٤٣].

على أن للهروي كتباً أخرى غير هذا. فقد قال هو إن ما ذكره من الأبنية والآثار والعجائب والأصنام له كتاب مفرد[٤٤]، وأشار في موضع آخر إلى كتاب «منازل الأرض ذات الطول والعرض»[٤٥]. وروى ابن خلكان أن له كتاباً اسمه الخطب الهروية[٤٦].

وقد جاء في الإشارات ذكر لمئات من الأماكن الدينية وهي المقصودة بالذات من التأليف. لكن الهروي يضيف بين آن وآخر فوائد تاريخية وملاحظات عامة، كوصفه لدمشق[٤٧] وإشارته لرأس الحسين ونقله من عسقلان[٤٨]، وتحدثه عن مقياس النيل في جزيرة الروضة[٤٩]، وكالذي رواه من أن الصليبيين حاولوا أن يبنوا كنيسة على عين البقر بظاهر عكاء لكن ذلك لم يتم لهم[٥٠]. ومما رواه أن الافرنج لم تغير «ما على أبواب المسجد الأقصى من آيات القرآن العزيز وأسامي الخلفاء رضي الله عنهم» [٥١]. ولعلَّ من ألطف ما جاء من ملاحظاته العامة وصفه لزهور مصر ونباتها قال[٥٢]: «فإن في ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا كثيراً. ورأيت بها في آن واحد مجتمعاً ورداً ثلاثة ألوان ورأيت ياسمين لونين ولينوفرا لونين وآساً ونسريناً وريحاناً وخبزياً وبنفسجاً ومنتروا ونبقاً واترنجاً مركباً وطلعاً ورطباً وموزاً وجميزاً وحصرماً وعنباً وتيناً أخضر ولوزاً وقثى وفقوس وبطيخاً وباذنجاناً وباقلاً أخضر ويقطيناً وحمصاً أخضر وخسًّا والبقول والرمان وهليوناً وقصب السكر». وذكر الاسكندرية فقال عنها إنها ثلاث طبقات وعمارتها على هيئة رقعة الشطرنج[٥٣]. وأشار إلى السمك الرعاد فيها[٥٤]. ونقل عن ابن منقذ ان بالاسكندرية ١٢٠٠٠ مسجد أو ٢٠٠٠٠ مسجد ومعبد[٥٥].

وكان السائح الهروي مغرماً بكتابة اسمه في الأماكن التي يزورها، مثل صنم الاشمونين[٥٦] وإلى ذلك أشار جعفر بن شمس الخلافة في بيتين قالهما في شخص يستجدي من الناس بأوراقه:

أوراق كديته في بيت كل فتى ... على اتفاق معان واختلاف روي

قد طبق الأرض من سهلٍ ومن جبلٍ ... كأنه خط ذاك السائح الهروي

أسامة بن منقذ

كان أسامة بن منقذ أميراً فارساً من أهل الشرق العربي. فقد تنقل في مصر وسورية وبغداد. وإنما أدخلناه في عداد الرحَّالين لأن كتاب الاعتبار نسيج وحده في الأدب العربي ومذكرات صاحبه تشمل صفحات مجيدة في تاريخ الفروسية العربية، تجعلها في مقدمة ما يجب أن نعنى بدرسه من كتب السلف الصالح[٥٧].

ولد أسامة بقلعة شيزر في ٢٧ جمادي الأولى ٤٨٨ هـ/٤ تموز (يوليو) ١٠٩٥ م. وكانت شيزر، الواقعة على بعد أربعة وعشرين كيلومتراً إلى الشمال من حماة، حصن بني منقذ منذ أن انتزعوها من الصليبيين سنة ٤٧٤ هـ/١٠٨١ م، مع أنهم كانوا يملكون إقطاعاً في أرضها قبل ذلك بمدة طويلة. وكان من حق مرشد، والد أسامة، أن يتولى

الإمارة. لكنه شغف بنسخ القرآن والصيد فتنازل عنها لأخيه. واتجهت همة الأمير سلطان إلى أسامة يهيئه ليخلفه. لكن لما رزق ولداً ذكراً فترت همته نحو أسامة فرأى هذا أن يغادر شيزر. فتغيب بادىء ذي بدء عنها موقتاً. لكنه لم يلبث أن غادرها نهائيّاً. وبعد عشرين سنة أصاب القلعة زلزال (سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م) قضى على آل منقذ بأسرهم إذ كانوا مجتمعين في حفل عائلي، عدا أسامة الذي كان غائباً.

عاش أسامة فارساً شهماً وجاب أنحاء الشرق العربي. صرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة (١١٤٤ ـ ١١٥٤ م). وأما كهولته فصرفها عند أتابكة الموصل وفي حصن كيفا.

زار بيت المقدس وحجَّ وتنقل بين معظم العواصم الإسلامية وتعرَّف إلى كبار الافرنج[٥٨]، فضلاً عن صداقته للخلفاء والملوك. وقبيل وفاته دعاه صلاح الدين إلى دمشق وأجرى عليه رزقاً وأعاد إليه اقطاعه. وأخذ الشيخ يلقي محاضرات في البديع ويدرّس في المدرسة الحنفية بدمشق. وأملى مذكراته في هذه الفترة. وتوفي أسامة سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م.

وكتاب الاعتبار، بالإضافة إلى ما فيه من عبر رمى إليها الكاتب، يحوي إشارات كثيرة إلى أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية. فالقطن كان يزرع في كفر طاب[٥٩] وغابات البلاد الكثيفة في الشمال كانت موطن الأسود والنمور وحمر الوحش[٦٠]. وجلاء العروس والمآتم واضحة الصور في الكتاب. والفصل الذي عرض فيه أسامة للافرنج ممتع حقّاً. فقد تناول فيه شجاعتهم وطبهم ومحاكماتهم.

عبد اللطيف البغدادي

عبد اللطيف البغدادي رحالة عالم، شملت معرفته الطب بالإضافة إلى النحو واللغة وعلم الكلام. واشتهر بصناعة الطب في كل مكان أقام فيه وخاصة في دمشق. وقد اخترناه لسببين: الأول هو الاتجاه العلمي الذي كان يغلب على تقييده مشاهداته، فتراه يشير إلى أنه رأى وفحص ونقب. فضلاً عما يسمع. وإذا روي له أمر وشكّ فيه أظهر ذلك في كتابته. والثاني لأنه خلف لنا وصفاً لمصر في سنوات الضيق والقحط والوباء (٥٩٥ ـ ٥٩٨ هـ). هذا بالإضافة إلى أنه تناول أموراً في حياة مصر الاجتماعية والعمرانية بتفصيل العالم ودقته.

ولد عبد اللطيف في بغداد سنة ٥٥٧ هـ. وانصرف شأن طلاب العلم في العالم الإسلامي في عصره، إلى سماع الحديث وحفظ القرآن واجادة الخط وحفظ الشعر والمقامات وأخذ لنفسه اجازات من شيوخ بغداد ثم من شيوخ خراسان[٦١]. فلما اطمأنَّ إلى أنه أخذ عن شيوخه كل ما عندهم تحوَّل إلى الموصل[٦٢] وحدَّث في مدرسة ابن مهاجر ودار الحديث. ولم يلق بالموصل سوى الكمال بن يونس وكان جيداً في الرياضيات.

وكان صلاح الدين سيد سورية ومصر آنئذٍ، قد أحسن إلى عدد كبير من العلماء فأووا إلى دمشق وجاءها عبد اللطيف يطلب علمهم. فوقعت بينه وبينهم مناظرات انتصر فيها عليهم، فتوجه إلى القدس وجاء معسكر صلاح الدين بظاهر عكاء حيث لقي بهاء الدين شداد قاضي العسكر وعماد الدين الكاتب والقاضي الفاضل. والراجح أن الأخير أعجب بعبد اللطيف لأنه زوّده برسالة توصية إلى وكيله في مصر ابن سناء الملك الذي احتفل به. وهناك تيسر له الاتصال بياسين السيميائي وموسى بن ميمون وأبي القاسم الشارعي[٦٣]. وقد أعجبه الأخير من هؤلاء الثلاثة فكانا يتفاوضان الحديث فتكون الغلبة لعبد اللطيف «بقوة الجدل وفضل اللسن»، ويتغلب الشارعي «بقوة الحجة وظهور المحجة».

على أن إقامة عبد اللطيف بمصر هذه المرة لم تطل، إذ رحل إلى القدس للقاء صلاح الدين بعد الهدنة. وتمَّ له ذلك. وقد وصف مجلس السلطان بقوله: «... وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حافلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع»[٦٤]. ورتب صلاح الدين وأولاده لعبد اللطيف مائة دينار في الشهر، فدخل دمشق وأكبّ على الاشتغال بالعلم واقراء الناس بالجامع.

لكن عبد اللطيف كان يمل الاستقرار في مكان واحد مدة طويلة فرحل إلى مصر في ركاب العزيز سلطانها لما جاء لحصار الأفضل أخيه في دمشق في حملة فاشلة. وعاد في مصر إلى مصاحبة الشارعي حتى توفي. وكان يقرىء الناس بالأزهر صباحاً ومساءً ويقرىء الطب للكثيرين في وسط النهار[٦٥]. وفي هذه المدة وقع بمصر الغلاء العظيم والموت، وكتب عبد اللطيف كتاب «الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، في وصف أحوال مصر في وقته.

ثم دعاه حب السفر ثانية فانتقل إلى القدس ودرّس في الجامع الأقصى ونزل دمشق حيث اشتهر بصناعة الطب ودرّس في المدرسة العزيزية[٦٦]. وتنقل بعد ذلك بين حلب واذربجان في بلاد الروم وارزن الروم وبغداد وتوفي بها.

هذا هو عبد اللطيف الذي درس علوم عصره العقلية والنقلية وحدّث وعلّم الطب وألف كتباً كثيرة فيه(٦٧)، وانتفع الناس بعلمه في دمشق والقاهرة والقدس وحلب وبغداد.

ابن سعيد

ابن سعيد رحالة أندلسي ولد بغرناطة ليلة الفطر سنة ٦١٠ للهجرة [٦٨] في أسرة عريقة في الحسب والنسب[٦٩] كان لأفرادها صلة بالملوك[٧٠] وكان أبوه من أهل الأدب والتأليف[٧١]. والمترجم به هو متمم كتاب «المغرب في أخبار المغرب». فقد بدأه جده وعمل فيه أبوه وأتمه هو[٧٢].

عمل أبن سعيد لوزير الموحدين بافريقية ابن جامع، وكان للمترجم به ابن عم يعمل في خدمة الموحدين أيضاً. فوقعت بين الفريقين فرقة خشي ابن سعيد عاقبتها فاستأذن في الرحيل الى المشرق برسم الحج. وصل الاسكندرية سنة ٦٣٩ هـ/١٢٤١ م وكان والده قد رحل إليها وأقام فيها [٧٣] وكان متأخراً عن موعد الحج، فذهب إلى القاهرة ولقي بها ايدمر التركي والبهاء زهير وابن يغمور وهو يومئذٍ رئيس الأمور بالديار المصرية. وقد استدعى سيف الدين بن سابق ابن سعيد الى مجلس بضفة النيل مبسوط بالورد وقد قامت حوله شمامات نرجس فقال ابن سعيد:

من فضل النرجس فهو الذي ... يرضى بحكم الورد إذ يرأس
أما ترى الورد غداً قاعداً ... وقام في خدمته النرجس

ووافق ذلك وقوف المماليك الترك في الخدمة فطرب الحاضرون.

وقد ترك لنا ابن سعيد وصفاً نفيساً لمصر والفسطاط، أعطانا فيه صورة حية لما كانت عليه الحالة يومئذ. فتناول شوارع المدينة وأبنيتها وأزقتها بالوصف، ثم تحدَّث عن نواحٍ من الحياة في الأحياء المخصصة للهو والطرب إذ قال عنها إنه قد يرقص الواحد في وسط السوق وقد يسكر الناس من الحشيش. لكن بعضهم علَّق على ذلك بقوله «وفيه تحامل كثير» وقد دافع المقريزي عن ابن سعيد بقوله: «ومن نظر بعين الانصاف علم أن التحامل في نسبة التحامل إليه».

ورحل من مصر صحبة جمال الدين بن القيم إلى حلب فدخل على الناصر [٧٤] صاحب حلب فأنشده قصيدة أعجبت السلطان فاستجلبه وتلطف به وسأله عن قصده من رحلته، ولما عرفه وعده بالمساعدة قائلاً: «نعينك بما عندنا من الخزائن ونوصلك إلى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد وتصنف لنا»[٧٥] ووهبه الناصر من الخلع والدنانير والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف. وتعرَّف ابن سعيد إلى عدد كبير من رجال السيف والقلم كانوا يعملون في حاشية الناصر. ثم تحوَّل إلى دمشق ودخل مجلس السلطان المعظم ٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ وحضر مجلس خلوته. ودخل الموصل وارتحل إلى بغداد في عقب سنة ٦٤٨ هـ. ثم رحل إلى البصرة وحجَّ وعاد إلى المغرب فنزل في أقليبة بافريقية سنة ٦٥٢هـ. واتصل بخدمة الأمير أبي عبدالله المستنصر[٧٦].

على ان ابن سعيد ارتحل من تونس الى المشرق ثانية في سنة ٦٦٦ هـ وذكر أنه لما دخل الاسكندرية سأل عن الملك الناصرفأخبر بحاله وما جرى له من قتل التتار له. ويروي ابن سعيد ما وصل إليه علمه من أخبار هجوم هولاكو على حلب وما تركته حملته من آثار التخريب والتدمير[٧٧].

وتواليف ابن سعيد كثيرة منها المرقصات، والمطربات، والمقتطف من أزاهر الطرف، والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد (أي تاريخ بيته وبلده)، والموضوعان

الغريبان المتعددا الأسفار، وهما «المُغرب في حلى المَغرب» و«المُشرق في حلى المَشرق» وعدة المستنجز وعقلة المستوفز.

ابن بطوطة

ابن بطوطة هو الرحَّالة العربي الذي طبع الرحلة في القرن الرابع عشر بطابعه، تمامًا كما ترك مواطنه ابن خلدون في تاريخ القرن نفسه أثراً عميقاً. ولم يكتب ابن بطوطة رحلته بنفسه. وإنما رواها ورتبها أحد كتاب سلطان فاس الذي عمل ابن بطوطة نفسه في خدمته. وهذا هو سبب الاضطراب الظاهر في أخباره والأخطاء الموجودة فيما ذكره عن الصين. حتى إن بعض نقاده شكُّوا في أمر وصوله إلى تلك البلاد. ولكن ليس بين مؤرخيه اجماع على هذه المسألة[٧٨]. وأخبار رحالتنا ممتعة وتتجلى فيها مقدرته ونشاطه وحبه للتقصي. وكان الرجل يستمتع بالحياة ويحافظ على ناحيتها الروحية، ويقوم بالفروض الدينية. وقد امتدت أسفاره ثمانية وعشرين عاماً بدأها من طنجة وسار إلى مصر بطريق شمال أفريقية. ثم زار سورية وحج وتنقل في فارس وبلاد العرب ووصل إلى شرق افريقية ثم زار القرم والفولغا الأدنى ودخل القسطنطينية فاحتفى به ملكها، قسطنطين الرابع (١٣٤٤ ـ ١٣٤٣ م). واتجه بعدها شرقاً إلى خوارزم وبخارى وتركستان وافغانستان والهند. وخدم ملك دلهي ثماني سنوات. وتعرَّف إلى جزر الهند الشرقية والصين وعاد إلى طنجة. لكنه قام بعد ذلك برحلتين الواحدة إلى اسبانية والثانية إلى أواسط افريقية وصل فيها إلى تمبكتو وأبحر في نهر النيجر وعاد إلى فاس بطريق الصحراء الكبرى. وقد قدرت المسافة التي اجتازهابنحو ١٢٠.٠٠٠ من الكيلومترات.

وابن بطوطة مولود في طنجة ١٤ رجب سنة ٧٠٣ هـ/٢٤ شباط (فبراير) ١٣٠٤ م وتوفى في فاس سنة ٧٧٠ هـ/١٣٦٩ م). وأسرته معروفة باشتغالها بالعلوم الشرعية. وقد كان هو نفسه عالماً. وقد عرف الحجاج له فضله فقدموه قاضياً عليهم وهم بعد في تونس[٧٩]. وعمل ابن بطوطة قاضياً في جزائر ملديف فضلاً عن توليه القضاء في الهند.

يعنى الكاتب بذكر أخبار البلدان التي يمر بها باختصار وقد ينقل الوصف عمن سبقه[٨٠]. وهو كثير الاهتمام بالأشخاص الذين يلقاهم فيذكر اجازتهم له وتحديثه إياهم. ويروي في تضاعيف رحلته قصصاً وكرامات كثيرة تشوّق القارىء وتطلعه على نواحي المجتمع في زمنه. ونحصل منها بين آن وآخر على معلومات تجارية ذات قيمة خاصة، كالذي رواه من أن حاكم قسنطينية أهداه احراماً بعلبكيًا[٨١] مما يدل على اتساع تجارة المنسوجات اللبنانية آنئذٍ. ومثله ذكره مجبى بلد بين الاسكندرية ومصر بأنه ٧٢٠٠٠ دينار[٨٢].

من السهل أن يتابع القارىء تنقل ابن بطوطة في مصر وقد جاء الاسكندرية

ورحل منها إلى مصر. ومرَّ في طريقه بشيخ فوه الذي تنبأ له برحلة طويلة عريضة، فأثار همته. واتجه من القاهرة إلى عيذاب ميناء الحاج الافريقي. لكن السفر إلى الحجاز لم يتيسر له لأن الحدربي سلطان البجاة كان في حرب مع الأتراك وقد حرق المراكب وهرب الترك أمامه. فعاد ابن بطوطة إلى مصر واجتاز إلى الشام بطريق سيناء فوصل القدس. أما تنقل ابن بطوطة في سورية فمن الصعب متابعته فيه. ولعله إذ أملى رحلته أو قصَّ أخباره على راويته لم يعن بالترتيب الذي سار عليه، وإنما روى ما تذكر. ولكن شيئاً من التنظيم يعود إلى روايته في طريق الحاج الشامي وفي انتقاله من الحجاز إلى العراق. وليس هذا الأمر غريباً في هذين الطريقين.

كتاب ابن بطوطة هو عبارة عن نسخة من الصور التي ارتسمت في ذهن الرحالة عن الأشخاص وعن الناس الذين ألقت بهم الصدف في طريقه. فهو صفحة من التاريخ الاجتماعي الإسلامي أكثر منه كتاباً في تقويم البلدان والجغرافيا[٨٣].

الملك الأشرف

بين الرحلات التي وصلت إلينا أخبارها من أيام المماليك رحلة رسمية قام بها الملك الأشرف قايتباي[٨٤] ٨٧٢ ـ ٩٠١ هـ/١٤٦٨ ـ ١٤٩٦ م في سورية سنة ٨٨٢ هـ/١٤٧٨ م.

كان شمال سورية معرضاً آنئذٍ للخطر العثماني، بعد أن استقرَّ العثمانيون في شبه جزيرة آسية الصغرى كلها. فأراد السلطان أن يشرف بنفسه على حصون البلاد[٨٥] وقلاعها وطرقها وجسورها. فقام بهذه الرحلة التي امتدت من آخر جمادى الأولى إلى أواخر رمضان من تلك السنة، زار الملك خلالها تلك الأجزاء كلها، وأمر بإصلاح ما كان قد تهدَّم من مراكز الدفاع والثغور.

خرج السلطان من القاهرة المحروسة في آخر جمادى الأولى دون ضجة أو حفلات[٨٦] ولم يكن رفقاؤه في الرحلة يتجاوزون الأربعين نفراً، بينهم الأمير تاني قره بك وجاني بك ويشبك الجمالي وشاهين الجمالي وقاضي القضاة قطب الدين الخداري وقاضي الشافعية بدمشق.

مرَّ بطريقه بالصالحية والعريش وغزة وقاقون والناصرة وصفد وبعلبك وطرابلس واللاذقية وانطاكية وبغراس (بغرص) وعينتاب وديار بكر ووصل قلعة المسلمين. ثم عاد من ديار بكر بطريق حلب وسرمين وحماه وحمص والنبك ودمشق وسعسع وجسر بنات يعقوب وخان منية وقاقون. ومن هنا اتبع الطريق نفسها التي جاءها إلى القاهرة.

أصاب السلطان مرض شديد أيام اقامته بدمشق. وقد اهتمَّ فضلاً عن التفتيش على القلاع والجسور واصلاح ما تهدَّم منها، بمقابلة الحكام والأمراء المحليين. فقد كان يدعوهم إليه ويبحث معهم شؤون المناطق التي يحكمونها. وعقد مثل هذه المؤتمرات في بغراس وعزاز وحمص ودمشق[٨٧]. وكم كنا نود لو أن مؤلف الرحلة التي

بين أيدينا أعطانا أخباراً مفصلة عن الأمور التي تحدَّث فيها السلطان إلى نوابه. ولكن كل ما نقله إلينا هو أسماء الأمراء الذين دعاهم لمقابلته. على أننا متى تذكرنا أن الرحلة كانت عسكرية قبل كل شيء سهل علينا أن نعرف المواضيع التي طرقها المجتمعون. ولعلنا نستطيع أن نضيف أن الموارد المالية للدولة كانت ضمن ما تحدثوا به، لأن هذه كانت مشكلة رئيسة في عهد قايتباي، كما كانت في عهد أكثر المماليك. ولم يكن مجرد مصادفة أن يعنى قايتباي بالغاء الاحتكار والضريبة الملازمة له في كل من طرابلس ودمشق[٨٨]. وكان الأمراء في الطريق يقدمون هدايا ثمينة للسلطان ورجال حاشيته. وكان السلطان نفسه يخلع في مناسبات كثيرة على الأمراء والنواب. فنحن نجد أنه أهدى إلى نائب حلب الأمير قانصوه اليحيوي سلارية بيضاء عليها فرو. وأهدى صاحب صفد سلارية زرقاء[٨٩]. وأقام حفلاً فخماً في حلب أهدى فيه إلى أمراء التركمان الأطالس المزركشة بالذهب وغير ذلك[٩٠]. واغتنم فرصة عودته ومروره بخان منية فأهدى إلى صاحب صفد كاملية[٩١].

ولعلّ أكبر الهدايا هي ما أعطاه لإسحاق باشا رسول الناصري ابن عثمان[٩٢] صاحب مملكة الروم ورفقائه. فقد بعث السلطان إليه بهدية فاخرة بمناسبة سفره لاداء فريضة الحج[٩٣]. وشملت الهدية ألف دينار وثلاثمئة رأس من الغنم ومئتي اردب من الشعير وأربعمئة قنطار من البقسماط ومئتي طير دجاج وخمسين أوزة وعشرة قناطير سكر وعشرة قناطير رمان وعشرة قناطير دبس. وخمسة عشر ادرباً من الأرز المقشور. على أنه لم يقتصر على الزاد بل تعداه إلى الثياب الفاخرة، ومعدات السلاح. فأرسل إليه إحدى وخمسين تفسيلة اسكندرية وعشرة دبابيس من صنع بزدغان وعشرة أكفاف مذهبة وعشر حراب وثلاث درعيات جلدية وخمسين قصبة للحراب وعشر قطع موصلين من صنع مشتول (في دلتا مصر) وسكر نبات من انتاج حماة وأربع جرار من العصير الكابولي[٩٤].

كتب رحلة قايتباي أبو البقا بن جيعان، وهو أحد الذين رافقوا السلطان وسماها «القول المستظرف في رحلة مولانا الملك الأشرف». ولم يحاول أن يزخرف عبارتها، بل إنه لجأ إلى البساطة التامة. وقد قال أبو البقا إنه أراد أن يدوّن أخبار هذه الرحلة لأنها منقطعة النظير[٩٥]. ونحن نرى أن الرحلة كتبت بناءً على طلب الملك الأشرف نفسه أو بتشجيع منه، ولعله قصد منها الدعاية للملك.

الهوامش

(١) كان حاكمها معز الدولة من بني مرداس. وقد روى ابن بطلان أن «من عجائب حلب أن قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن»

(راجع ياقوت، مادة حلب). وابن بطلان هذا طبيب نصراني بغدادي، رحل سنة ٤٤٠ هـ ـ ١٠٤٩ م إلى حلب وانطاكية واللاذقية والفسطاط وقد اقتبس منه ياقوت كثيراً «راجع I. E.Ibn Butlan».

(٢) وكان في المعرة يوم زرتها رجل اسمه أبو العلاء المعري. ومع أنه أعمى فهو سيد مدينته ويملك ثروة طائلة وله عبيد وحشم يقومون بخدمته. حتى كأن أهل المدينة كلهم تبع له. أما هو فقد اختار طريقة الزهاد، فإنه يرتدي صوفة ويلتزم بيته ويكتفي بنصف من خبز الشعير في اليوم، ولا يأكل سواه. وبيته مفتوح للناس ووكلاؤه يدبرون أمور المدينة، لكنهم يرجعون إليه للحصول على الرأي الأخير. وليس له مشاغل شخصية. وقد ذاع صيته في الشعر والكتابة حتى إن علماء سورية والعراق والمغرب متفقون على أن لا مثيل له في هذه الأيام... ويقيم معه طلاب العلم القادمون من أقطار مختلفة يتلقون عنه الشعر واللغة، وقلما يكون عددهم دون المئتين (عن ترجمة لسترنج في PPT, IV p.7. راجع أيضاً سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، ص ٤٥ ـ ٦٠).

(٣) PPT, IV, 7 قابل سفرنامة، الترجمة العربية، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٤) شيفر ص ٤٦ قابل سفرنامة الترجمة العربية ص ٥٠، راجع أيضاً فتري ص ٢٨ ـ ٣٠.

(٥) سفرنامة، الترجمة العربية، ص ٥٦ وما بعدها. راجع أيضاً فتلوس ص ١٢ ـ ١٣.

(٦) راجع المختارات تحت.

(٧) شيفر ـ الترجمة الفرنسية ـ ص ١٥٨.

(٨) شيفر ص ١٥٤.

(٩) شيفر ص ١٤٥ ـ ١٤٨.

(١٠) شيفر ص ١٤٤.

(١١) شيفر ص ١٥٠ و١٧٢.

(١٢) شيفر ص ١٣٦ ـ ١٤٢.

(١٣) شيفر ص ١٤٣. راجع القسم الثاني الفصل الرابع مادة البلسان.

(١٤) شيفر ص ١٧٣ راجع ياقوت في معجم البلدان «مادة اسيوط». تراجع بالنسبة إلى الهوامش ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠ سفرنامة، الترجمة العربية، ص ٩٣ ـ ١١٤.

(١٥) شيفر ص ١٨٠ سفرنامة، الترجمة العربية ص ١١٩.

(١٦) شيفر ص ١٨١ سفرنامة، الترجمة العربية ص ١٢٠.

(١٧) شيفر ص ١٨٨. سفرنامة، الترجمة العربية ص ١٢١ وما بعدها.

(١٨) شيفر ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(١٩) شيفر ص ١٨٢ وما بعدها. سفرنامة، الترجة العربية، ص ١٢١ وما بعدها.

(٢٠) كان ناصري خسرو شاعراً مجيداً وديوانه يعتبر من عيون الأدب الفلسفي الذي انتجته فارس. راجع E.I.art, Nasiri; Browne, *Literary History of Persia*.

(٢١) في ١٠ ربيع الأول «نفح الطيب ١: ٥٠٧»، وقيل سنة ٥٣٩ وقيل في شاطبة في هذا التاريخ «الاحاطة ٢: ١٧٤».

(٢٢) النفح ١: ٥٠٨ وما بعدها.

(٢٣) الإحاطة ٢: ١٧٣.

(٢٤) روى صاحب الإحاطة ان أبا الحسن الشادي كان ينكر انها من تصانيفه ويقول إنه هو قيد معاني ما تضمنته فتولى ترتيبها بعض الآخذين عنه.

(٢٥) النفح: ١: ٥٠٩.

(٢٦) ٣ شباط (فبراير)، الرحلة ص ٣٤ وبدأ بتقييد أخباره في ٣٠ شوال.

(٢٧) الرحلة ص ٣٥.

(٢٨) جاء من حمص إلى دمشق بطريق النبك فلم يمر ببعلبك.

(٢٩) النفح ١: ٥٠٨.

(٣٠) الإحاطة ٢: ١٦٩.

(٣١) لعله نفي من سبتة ـ راجع *Ency. of Islam*.

(٣٢) رحلة ابن بطوطة ص ٣٩ و٥٠ و١٣٩.

(٣٣) الرحلة ص ٢٤٦ وما بعدها.

(٣٤) AOLi, 587.
(٣٥) ابن خلكان ١: ٣٤٧.
(٣٦) المخطوطة ص ٦٧.
(٣٧) AOL i. 587f.
(٣٨) راجع أبو شامة ٢: ١٩٧ والسلوك الجزء الأول القسم الأول ص ١٠٩ والنوادر ٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٣٩) المخطوطة ص ٤، مطبوع ص ٣.
(٤٠) ٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ.
(٤١) النوادر ص ١٠١.
(٤٢) ابن خلكان ١: ٣٤٧.
(٤٣) مخطوطة ٣، مطبوع ٤.
(٤٤) المخطوطة ص ٤، مطبوع ص ٣.
(٤٥) المخطوطة ص ١٢٤، مطبوع ص ١٠٠.
(٤٦) ابن خلكان ١: ٣٤٧.
(٤٧) المخطوطة ص ١٥، مطبوع ص ١٠ وما بعدها.
(٤٨) المخطوطة ص ٤٥، مطبوع ص ٣٢.
(٤٩) المخطوطة ٥٢ ـ ٥٣، مطبوع ص ٣٩.
(٥٠) المخطوطة ٣٠ ـ ٣١، مطبوع ص ٢٢.
(٥١) المخطوطة ص ٣٧، مطبوع ص ٢٥.
(٥٢) المخطوطة ص ٦٧، مطبوع ص ٥٠، وقد ذكر هذا الأمر ناصري خسرو قبله (ص ١٢٥ من الترجمة الفرنسية لشيفر) وعبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ص ١٧ وما بعدها.
(٥٣) المخطوطة ص ٦٣، مطبوع ص ٤٨.
(٥٤) المخطوطة ص ٦، مطبوع ص ٥٠
(٥٥) المخطوطة ص ٦٣، مطبوع ص ٧.
(٥٦) المخطوطة ص ٥٩، مطبوع ص ٤٣.
(٥٧) اعتمدنا في هذه الخلاصة على مقدمة الدكتور ف. حتي لطبعته لكتاب الاعتبار (برنستون ـ الولايات المتحدة ـ ١٩٣٠).
(٥٨) مثل بوهمند وتنكرد وفلك.
(٥٩) الاعتبار ص ١٥١.
(٦٠) الاعتبار ص ١٠٥ و١١٢ و١٩٢ ـ ١٩٣.
(٦١) وصف عبد اللطيف عناية شيخه به في بغداد على ما نقله ابن أبي أصيبعة، راجع الإفادة ص ٥.
(٦٢) سنة ٥٨٥ هـ.
(٦٣) روى عبد اللطيف أخبار اتصاله بهم وحكمه عليهم. راجع الإفادة ص ٩.
(٦٤) لم يكن عبد اللطيف المفكر الوحيد الذي أثرت فيه شخصية صلاح الدين. راجع أخبار الاهتمام ببناء سور القدس في الإفادة ص ١٠.
(٦٥) قد تكون قراءة الطب هذه في الأزهر نفسه لكن العبارة غامضة. راجع الإفادة ص ١١.
(٦٦) سنة ٦٠٤ هـ.
(٦٧) الافادة ص ١٢.
(٦٨) ١٢١٣ م. وقيل ٢٢ رمضان. راجع النفح ١: ٤٥٠ و٤٨٣.
(٦٩) الإحاطة ١: ٩٤.
(٧٠) راجع النفح ١: ٤٨٢ إلخ. والإحاطة ١: ٩٤ وما بعدها و١٣٠ إلخ..
(٧١) النفح ١: ٤٨٤.
(٧٢) راجع تفصيل هذا في النفح ١: ٤٨٤ ـ ٤٨٥.
(٧٣) توفي والده فيها سنة ٦٤٠ هـ.
(٧٤) ٦٣٤ ـ ٦٥٧ هـ، وقد حكم دمشق أيضاً منذ سنة ٦٤٨ هـ.
(٧٥) النفح ١: ٤٥١.

(٧٦) النفح: ١: ٤٥٢.
(٧٧) نقل صاحب النفح جملة من أشعار الناصر في رثائه لملكه، فليرجع إليها في ١: ٥٠٢.
(٧٨) *Travels, & Travellers*, p. 100.
(٧٩) بدأ رحلته سنة ٧٢٥ هـ ـ ١٣٢٥ م.
(٨٠) نقل خبر الاسكندرية عن المسالك (الرحلة ص ٩) ووصف حلب ودمشق وبغداد عن ابن جبير، وهو أمر يؤسف له. فقد كان بين الرجلين قرن ونصف القرن، وكنا نود لو أن ابن بطوطة نقل إلينا تأثراته الشخصية.
(٨١) الرحلة ص ٦.
(٨٢) هي تروجه، الرحلة ص ١٤.
(٨٣) الدكتور محمد مصطفى زيادة في دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية، مادة ابن بطوطة، مجلد ١ ص ١٠٠).
(٨٤) كان قايتباي محباً للأسفار ـ راجع المماليك ـ ميور ـ ص ١٥٧ ـ ١٦٢ «الترجمة العربية».
(٨٥) الرحلة ـ ص ١٣.
(٨٦) ابن اياس ـ كتاب تاريخ مصر ـ «بولاق ١٨١١» المجلد الثاني ص ١٧٥ «نقلته السيدة ديفونشير في ملحق لترجمتها الفرنسية لرحلة قايتباي».
(٨٧) الرحلة ص ١٢ ـ ١٣ و١٤ و٢٢ ـ ٢٣ و٢٥ ـ ٢٦.
(٨٨) الرحلة ص ٩، ٢٧.
(٨٩) الرحلة ص ١٨.
(٩٠) الرحلة ص ١٩.
(٩١) الرحلة ص ٣٠.
(٩٢) الإشارة هنا إلى محمد الثاني «الفاتح»، وقد كان المماليك إلى ذلك الحين يطلقون على دولته اسم مملكة الروم.
(٩٣) الرحلة ص ٢٤ ـ ٢٥.
(٩٤) العصير الكابولي هو عصير مستخرج من قصب السكر منسوب إلى كابول وهي اليوم قرية صغيرة على مقربة من عكاء، لكنها كانت من أمهات أماكن زرع قصب السكر وانتاج السكر في العصور الوسطى.
(٩٥) هذه الرحلة مطبوعة في تورينو بايطاليا سنة ١٨٧٨ م مع تعليق لناشرها ر. ف. لانزون. لكننا لم نستطع الحصول على الأصل العربي فاعتمدنا ترجمة فرنسية منقولة بقلم السيدة هنريت ديفونشير ومطبوعة بالقاهرة سنة ١٩٢١ م.

٥ ـ الرحالون الاوروبيون في زمن الصليبيين

ما كادت جيوش الصليبيين تحتل سواحل سورية وتفتح القدس حتى أخذ الحجاج يهبطون الأراضي المقدسة زرافات ووحداناً. فقد أصبحوا يفدون بلاداً يحكمها قوم منهم. فصادفوا على أيدي بني جنسهم تيسيراً لإقامتهم وحماية لهم ورعاية لشؤونهم.

وقد وصلنا من أخبار هؤلاء الرحَّالين الشيء الكثير. إذ يزيد عدد الكتب التي بين أيدينا على الثلاثين، فضلاً عن الرسائل العديدة والمذكرات التي حفظها لنا التاريخ.

وكما ضمت جموع الصليبيين التي جاءت سورية وحدات من شعوب أوروبة المختلفة، فقد كان الرحالون أيضاً يمثلون السكان على اختلاف أجناسهم. فبينهم الولشي والنروجي والروسي والألماني واليوناني والفرنسي والاسباني.

وتغلب على سياح الجزء الأول من فترة الحروب الصليبية السرعة والعناية بالأماكن المقدسة خاصة. ولذلك نجد أن كتابات سيولف لا تعدو كونها جدولاً يحوي أسماء الكنائس التي زارها في القدس، وإن كان تعرض لبعض النواحي الأخرى القليلة بشيء من التفصيل. أما الذين زاروا البلاد في النصف الثاني من تلك الفترة فتغلب عليهم الدقة والعناية. ولعلَّ السبب يرجع إلى أنهم جاءوا بعد أن جنى العالم ثمرة الاختلاط بين الشرق والغرب، فكان وصفهم دقيقاً وجاءت معرفتهم صحيحة. ونظروا إلى البلاد نظرة عامة شاملة بدلاً من النظرة القديمة الجزئية. حتى إن بعضهم رسم خرطاً لسورية أو لأجزائها مثل بركارد.

وتحامل كتاب القرن الأول من العصر الصليبي على العرب والإسلام. ولكن ذلك تبدَّل بعض الشيء في أوائل القرن الثالث عشر. فنحن نرى أن تتمار يحاول أن يدرس الإسلام ويفهمه فيتصل بالمسلمين ويستفسرهم الكثير من المسائل التي تمر به.

كان أول الرحَّالين في هذه الفترة سيولف الولشي[١] الذي زار فلسطين بعيد مجيء الصليبيين ببضع سنوات (١١٠٢ م أو ١١٠٣ م). وقد اقتصرت أسفاره على أجزاء من فلسطين تشمل القدس والجليل وما بينهما. نزل هذا الحاج في مرفأ يافا. وبعيد وصوله إلى البر بقليل قامت عاصفة قوية أغرقت ثلاثاً وعشرين سفينة كانت في الميناء. ولولا أنه رغب في ذكر نجاته من هذه العاصفة بأعجوبه[٢] لما حصلنا من سيولف على شيء يشير إلى سعة الميناء الذي يتسع لهذا العدد من السفن. ويقضي سيولف يومين في الطريق بين يافا والقدس ويعرض لوصف وعورة الطريق وأخطارها.

فهي وعرة لأنها جبلية. أما الأخطار فتأتي من مرابطة بعض السكان في الطريق، ومن الحيوانات المفترسة الكثيرة. ونحن بعد أن نقرأ هذا الوصف نأمل أن يطيل السائح الحديث عن الأماكن التي يزورها، لكنه يخيب أملنا ويكتفي بذكرها ويختم كلامه بقوله: «أما وقد انتهينا من زيارة الأماكن المقدسة فقد قفلنا راجعين إلى يافا».

سيولف شديد النقمة على العرب. فلا يعثر على مكان خرب أو متهدم حتى يسرع فيتهمهم بذلك[٣] . ويلاحظ بلس أن الأمر الوحيد الذي نستفيده من سيولف هو وصفه لكنيسة القبر المقدس قبل أن يمسها الصليبيون بإصلاح أو إضافة[٤].

جاء دانيال الروسي[٥] إلى فلسطين في سنة ١١٠٦ أو ١١٠٧ م وهو راهب من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية، ومن ثمَّ فقد اهتمَّ بالأديرة كثيراً فوصف دير مار سابا[٦]. وتمتع دانيال بسعة من وقته، فزار الأردن أربع مرات، وقضى عشرة أيام على شواطىء بحيرة طبرية ومكث في عكاء أربعة أيام. ومن ثمَّ فقد رأى أكثر مما رأى غيره من الرحَّالين المسرعين. وإن كانت ملاحظاته لا تعدو كونها لفتات[٧] فهو يتنبه إلى قحولة جبال القدس واعتماد المدينة على ماء المطر. أما الخليل وما جاورها فإنها «بلاد الله المرجاة، كثيرة القمح والكروم والزيتون وجميع أصناف الخضراوات. وأغنامها تلقح مرتين في العام، ونحلها يبني خلاياه في صخور جبالها الجميلة، المكسوة سفوحها بما لا يحصى من الأشجار المثمرة كالزيتون والتين والخرنوب والتفاح... ليس تحت السماء مكان يعدل هذه البقعة»[٨].

اصطحب دانيال معه راهباً متقدماً في السن ليرشده في تجواله وهو يؤكد لنا أن معلوماته هي نتيجة مشاهداته، فإذا نقل شيئاً عن غيره أسرع إلى الاعتراف به[٩]. ولعلّ المسافات الخاطئة التي يذكرها دانيال جاءت من اعتماده على روايات غيره[١٠].

ويظهر أن دانيال كان على علاقة طيبة جداً مع حكام اللاتين في فلسطين. فلما اعتزم زيارة الجليل رافق الجيش الذي كان يعده بلدوين الأول ١١٠٠ ـ ١١١٨ م لمهاجمة دمشق، وكان ذلك بإذن من الملك نفسه. ويضيف دانيال إلى هذا الخبر أنه بذلك أمن بطش السكان، إذ إنه تعرض للأخطار بين القدس وبيت لحم. ويقول إنه امتنع عن زيارة لبنان لأنه كان بيد سكان البلاد. ومن هذه الملاحظات نرى أن الصليبيين لم يكونوا قد ضبطوا أمور البلاد تماماً، حتى في مكان قريب إلى القدس مثل بيت لحم.

وفي القرآن الثاني عشر كثرت عناية الكتَّاب بالحجاج. فظهر عدد كبير من الكتب التي وضعت لإرشادهم. وهذه الكتب خالية من أثر المؤلف الشخصي، لأن الغاية كانت إعطاء الحاج المعلومات اللازمة. ويعدُّ دليل فتلوس[١١] ١١٣٠ م نموذجاً لهذا النوع من الكتب، فقد ذكرت فيه أسماء مئة وعشرة أماكن في سورية وفلسطين لها علاقة بالكتاب المقدس، ولائحة بالأماكن التي وقف فيها بنو إسرائيل في صحراء التيه،

وعينت المسافات بينها. ورويت القصص والأساطير التي حفظتها الأجيال المتعاقبة عن هذه الأماكن أو اختلقتها لها[١٢].

لم يحاول الكاتب أن يصف البلاد وصفاً عاماً، مع أنه جمع الأماكن الواقعة في منطقة واحدة معاً. فإن انتقاله من منطقة إلى أخرى لم يكن له أساس طبيعي أو منطقي، لكن الواقع أن هذا الدليل فيه محاولة للتعرف الى الأماكن المقدسة من حيث علاقتها بتاريخ الكتاب المقدس وجغرافيته[١٣].

وقبل معركة حطين بمدة قصيرة زار فلسطين رحّالان ألمانيان هما يوحنا وثيودوريتش. وقد كان الأول كاهناً في ورتزبرغ، ولعلّ الثاني كان مطران المدينة نفسها. والمرجح أن الأول زار البلاد بين سنتي ١١٦٠ م و١١٧٠ م[١٤]، والثاني جاءها سنة ١١٧٢ م[١٥]. وثيودوريتش أدق وأكثر عناية بالتفصيل من يوحنا. ولذلك فسنتناوله أولاً. ونحن لا ننسى أن الرجل كان قبل كل شيء حاجاً، وعنايته اتجهت إلى وصف الأماكن المقدسة، لكنه أولّ كاتب أوروبي في القرون الوسطى يعنى بوصف فلسطين وصفاً عامّاً قبل أن ينتقل إلى الأجزاء والمدن. فهو في طليعة الذين نظّموا دراسة الجغرافية الطبيعية لفلسطين. بدأ كتابه بفصل سماه «تدمير البلاد (فلسطين) وتغيير أسمائها» يشير فيه إلى جهل المحدثين (من الصليبيين) للبلاد وخلطهم في تعيين الأماكن. ثم يعمد إلى تقسيم فلسطين إلى أقسامها الثلاثة الطبيعية: الجليل والسامرة وجبال القدس، ويخلص إلى ذكر حدود القسم الثالث منها، ثم يقول إن بلاد القدس جبلية وتبلغ أقصى ارتفاعها حول المدينة المقدسة. وهذه الجبال صخرية لكن صخورها جميلة. أما حيث يتجمع بعض التراب بين الصخور، فتنمو جميع أنواع الفواكه، وتكون الجبال مكسوة بالكروم والزيتون والتين. أما الأودية فتملأها الحبوب والبساتين[١٦]. وفي الفصل الثالث يرتب ثيودوريتش ذكر جبال القدس وأوديتها ويوضح علاقتها بعضها ببعض. ويذكر عين سلوان ويعرض لأسطورة تقول إن ماء هذه العين يأتي من شيلوه ثم ينقدها ذاكراً استحالة هذا الأمر من ناحية طبوغرافية.

والظاهر أن اختبار ثيودوريتش الشخصي في فلسطين لم يتعدَّ القدس ووادي الأردن والسامرة والجليل. وأما الأجزاء الأخرى فينقل أخبارها عن غيره، لذلك خلت من الصبغة الشخصية وجاءت جافة[١٧].

ولم يتخلص الكاتب الدقيق تماماً من الإيمان بالعجائب. فالبحر الميت يعيد ذكرى تدمير سدوم وعمورة كل سنة إذ تطفو على وجه الماء فيه أحجار وأخشاب تذكِّر الناس بما أصاب هذه المدن وأهلها.

أما يوحنا، الحاج الالماني الآخر الذي عاصر ثيودوريتش، فقد اهتمَّ بالمسيح والأماكن المتصلة به مباشرة، لذلك فهو يرتب أخباره ووصفه للأماكن بحيث تتدرج مع حياة المسيح. وإذ يعرض لتقليد، يناقش أصوله التاريخية[١٨] ويعنى يوحنا بنقل

النقوش التي يمر بها نقلاً أميناً. فهو من هذه الناحية يفوق ثيودوريتش في مقدار مانقل.

ويجدر بنا أن نذكر الآن السائحين اليهوديين بنيامين التطيلي الاسباني (١١٦٠ م ـ ١١٧٣ م) وبتاحيا (بين ١١٧٠ م و١١٨٧ م). وهذان يمثلان الحجاج اليهود الغربيين الذين جاءوا الشرق لزيارة بني جنسهم فيه.

بدأ بنيامين[١٩] أسفاره من سرقوسه في اسبانية فجاء ايطالية ثم بلاد اليونان ومنها إلى القسطنطينية[٢٠]. ثم زار جزر الأرخبيل اليوناني ونزل في انطاكية واتجه بطريق عكاء ونابلس إلى القدس. ومنها ذهب إلى دمشق، ثم إلى بغداد. على أنه لم يكن يتبع في أسفاره اتجاهاً واحداً دائماً. وكثيراً ما عاد إلى مدينة أو قرية ليتحقق من بعض الأخبار. وبعد إقامة في بغداد وغربي فارس دامت سنتين أو ثلاثاً سافر إلى مصر بطريق بلاد العرب والنوبة ومنها إلى صقلية ثم إلى اسبانية بعد أن ساح في المانية.

ونرى من هذا المدى الذي بلغته أسفار بنيامين، فهو في الواقع أول أوروبي تجاوز الأراضي المقدسة وما جاورها مباشرة، في رحلته. والملاحظ في أخبار بنيامين انه يعنى عناية خاصة بأخبار اليهود في كل مكان يمر به ـ فيذكر عددهم وأعمالهم وحالهم عامة. ثم يعطينا أسماء كبارهم ورجال الدين منهم. لكن «أشر» يرى أن بنيامين، وإن كان من رجال الدين، فقد كان قبل كل شيء تاجراً. ولذلك اهتمَّ بأعمال اليهود وصناعتهم وتجارتهم.

ونحن إذا تناولنا أخبار بنيامين وجدنا أنه يحدثنا عن الهند وغيرها من بلاد المشرق حديثاً طويلاً. ومن رأي «أشر» أن سياحات بنيامين لم تتعد العراق شرقاً. أما ما يرويه من أخبار الشرق الأقصى فهو مما سمع من التجار والمسافرين الذين قابلهم في بغداد وفي الطريق. ويبني أشر حكمه هذا على أن بنيامين يذكر أسماء كبار اليهود في البلاد التي وصلها، أما في البلاد الأخرى فيشير إلى اثنين فقط في كل أخباره[٢١].

وقد حفظ لنا بنيامين أخباراً عن سورية ومصر لم يعن بها الحجاج المسيحيون المعاصرون، كالزلزال الذي هزَّ سورية قبيل زيارته بمدة قصيرة، فدمر طرابلس وقتل من أهل فلسطين عشرين ألفاً[٢٢]، ووصف هيكل وثني في جبيل، والدروز في لبنان، وأحوال السامريين في نابلس. ويروي بنيامين قصة[٢٣] مؤداها أن عاملين كانا يعملان في جبل صهيون (القدس) عثرا على قبر الملك داود ورأيا قاعة كبيرة مزينة بالذهب والفضة ولكنهما لم يكادا يدخلان حتى عصفت ريح شديدة قذفت بهما خارج القاعة فاقدي الوعي، ولم يجرؤا بعد ذلك على العودة إلى المكان نفسه. وقد سد المكان المنفتح بجدار. لكن بنيامين يقول إن القبور الحقيقية موجودة في الخليل ويستطيع المرء أن يراها.

ويحدّثنا بنيامين عن جبيل فيقول ان شؤونها كان يديرها سبعة من الجنويين يتزعمهم أمبراكو[٢٤] وينقل الرحالة أخباراً عن الدروز يبدو فيها التحامل وقبول ما يقال له، لكنه يشير إلى اعتزازهم ببلادهم، وإلى زيارات تجار اليهود لهم لكنهم لا يقيمون بينهم[٢٥]. ويذكر صناعة الزجاج والسفن في صور. وتنال كل من دمشق وبغداد حظاً كبيراً من عنايته.

ويمر بنيامين بالنوبة في طريقه إلى أسوان، ويرسم لنا صورة لحياة الكسل التي يحياها الناس هناك، وللطريق التي يقنص بها تجار الرقيق من أسوان أهل النوبة. فإنهم يلقون أمامهم التين والزبيب والحبوب فيأتون لأخذها فيلقون القبض عليهم.

ويتابع سائحنا النيل إلى القاهرة ومنها إلى الاسكندرية ويعنى بالتحدث عن طرق القوافل التي تتفرَّع من أسوان والقاهرة وغيرهما شرقاً وغرباً.

أما الأخطاء التي يرتكبها بنيامين فعلى نوعين: الأول منها ما يعود سببه إلى تصديقه روايات لها علاقة بالأماكن المقدسة بحيث يصعب على مثله رفضها، والثاني يرجع إلى نقله أنباء البلاد القاصية من رواتها وتدوينها على أنها من اختباراته. فمن النوع الأول خلطه في أسماء المدن الفلسطينية عند ذكر حوادث التوراة[٢٦]، ومن الثاني ما ذكره عن الدروز والهنود وعدد اليهود في شرقي إيران والهند ودين سكان ملبار[٢٧].

ويذكّرنا رايط أن بنيامين لم يؤثر إلاَّ قليلاً في معرفة أوروبة الجغرافية في القرون الوسطى[٢٨] لكننا مع ذلك نجد في المعلومات التي يعطينا إياها ما يساعدنا على فهم حال الشرق العربي في القرن الثاني عشر للميلاد[٢٩].

أما بتاحيا فقد ولد في راتزبون وقضى جزءاً كبيراً من حياته في براغ. وقام بين سنة ١١٧٠ م ١١٨٧ م برحلة واسعة النطاق زار فيها بولونيا وكييف (أوكرانيا) وشبه جزيرة القرم وبلاد التتار وأرمينيا ومادي وفارس والعراق وسورية (بما في ذلك فلسطين) وبلاد اليونان. وقد كان في دمشق بين سنتي ١١٧٤ م و١١٨٧ م. وأخباره التي بين أيدينا دوَّنها من مذكراته الأصلية يهوذا الصالح بن شمويل[٣٠]. ويتفق بتاحيا مع بنيامين في أنه رحل للتعرف بأحوال اليهود في العالم، لكن أخباره أقل قيمة من أخبار الآخر[٣١].

كان بين رحالي القرن الثاني عشر راهب كريتي اسمه فوكاس، وهو الذي ترك لنا «وصفاً مختصراً»[٣٢] لسورية في سنة ١١٨٥ م أي قبل معركة حطين بسنتين. وأسلوب فوكاس في وصفه أسلوب أدبي رائع. فالمعلومات التي نحصل عليها ليست جديدة علينا، ولكن صوره كثيرة الألوان متناسبتها، واضحة الخطوط مميزتها، على نحو ما نرى في وصفه لانطاكية ودفنه وينابيع لبنان وميناء بيروت ونواحي عكاء الكثيرة الأمراض. فميناء بيروت صنعها الفن هلالاً واحتضنتها المدينة عاطفة عليها... وفي

نهايتها برجان كبيران في أحدهما أصل سلسلة ضخمة تسحب منه إلى الآخر فتحفظ السفن في الميناء[٣٣]. وإذ يصل إلى بيت لحم ويدخل كنيسة المهد تعجبه الرسوم فيها فيصفها وصفاً دقيقاً جميلاً حتى ليخيل إليك أنك تراها أمامك وأنت تقرأه.

لكن مما نأسف له أن الكاتب لم يسبغ على القدس أسلوبه الرائع فلم نحظ منه على صور غنية تمثل حياة السكان في البلد المقدس. والخبر الوحيد ذو القيمة الذي نعرفه منه عن كنيسة القبر المقدس هو أن القبر كان مزيناً بالذهب الذي أهداه امبراطور بزنطية[٣٤] عمانوئيل كومنينوس (١١٤٣ ـ ١١٨٠ م). وقيمة هذه المسألة ترجع إلى أن عملاً كهذا تمَّ في وقت كانت فيه الكنيسة اللاتينية البابوية هي صاحبة السلطان في فلسطين.

وغريب أن فوكاس يكتفي بتعداد الأماكن الهامة بالقدس لكنه لا يكاد يبتعد عنها حتى تعاوده روعة أسلوبه وتعود صوره الفنية إلى الظهور ثانية، كالذي نراه في وصفه للأديرة المنتشرة في وادي الكلت ودير مار سابا. ويختم فوكاس كتابه بقوله: «فإن وجد القارىء فيما كتبت فائدة، فإنني أحسب نفسي قد جوزيت خير الجزاء عما بذلت من جهد، وإلاّ فليعد ابني هذا إليَّ فإن صراخه يعيد إلى نفسي ذكريات عذبة من الأماكن المقدسة تبعث النشوة في خيالي»[٣٥].

ومن مخلفات العصر الصليبي مجموعة من كتابات حجاج مجهولين لا نعرف عن شخصياتهم شيئاً[٣٦]. ومن هذه المجموعة واحدة كتبت قبيل سنة ١١٨٧ م. وقد عني كاتبها بتحديد فلسطين أولاً ثم تناول جبالها وحيوانها ونباتها وثمارها ومدنها وما اعتورها من تغيير في أسمائها[٣٧]. وتحدَّث عن الفرق الدينية المختلفة عند النصارى فتناول اليونانية والسريانية والأرمنية والكرجية واليعاقبة والنساطرة. وقد فصَّل أنظمة بعضها الاكليريكية، وقارن الشرقية منها بالكنيسة الغربية[٣٨]. والحق أن هذا الكتاب الذي لا يتجاوز الثلاثة آلاف كلمة يختلف عما سبقه بأنه أوسع أفقاً وأكثر عناية بالناحية الانسانية[٣٩].

ومع أننا سنتقتصر في كتابنا على الرحَّالين دون المؤرخين، فإننا نرى لزاماً علينا أن نشير في هذا الفصل إلى ما نفيده من الملاحظات النفيسة التي نعثر عليها في صفحات «تاريخ الصليبيين»[٤٠] لوليم الصوري رئيس أساقفة صور الذي كتبه سنة ١١٨٣ م. ووصفه لسورية جاء عفواً بمناسبة تأريخه للأماكن. فهو يرى أن سورية تمتد من أعالي دجلة إلى مصر ومن كيليكيا إلى البحر الأحمر، ثم يقسمها إلى الجزيرة الفراتية وسورية الشمالية والداخلية ولبنان وفنيقيا والعربيتين[٤١] وادوم وفلسطين التي هي ثلاثة أجزاء، وعواصمها على الترتيب هي القدس وقيسارية وبيسان.

ويرى بلس أن الذي يجب أن نعنى به هنا هو أن معلومات وليم ليست بذات قيمة في ذاتها، لأن الرجل لم يعرف البلاد معرفة صحيحة، ولكن المهم فيها أنها ترينا

اتجاهاً نحو فهم البلاد فهماً شاملاً جامعاً. والوصف الطبوغرافي للقدس هو دون الذي تركه لنا ثيودوريتش، لكن وليم هو أول غربي خصَّ دمشق بوصف دقيق. وكتابه خالٍ من بحث عن أديان السكان في سورية، هذا باستثناء ما ذكره عن الحشاشين[٤٢].

وفي الفترة الثانية من العصر الصليبي وهي المدة التي تبدأ بمعركة حطين سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م وتنتهي بسقوط عكاء في أيدي الملك الأشرف قلاوون سنة ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م، جاء إلى الشرق العربي عدد كبير من الرحَّالين. وبعضهم اتسعت رقعة أسفاره بحيث شملت جزءاً كبيراً من الشرق كله. وقد أشرنا من قبل إلى أن رحالي القرن الثالث عشر أوسع أفقاً، وأبعد مدى، وأكثر شمولاً، وأوسع احاطة بالبلاد التي زاروها ووصفوها. ولعلّ ذلك يرجع إلى أنهم جنوا ثمار الاختلاط بين الشرق والغرب، فكانت معرفتهم أصح، وملاحظاتهم أدق.

ولعلّ ولبرند[٤٣] أول سائح في القرن الثالث عشر وصلتنا أخباره. زار سورية وحجّ سنة ١٢١١ م. ووصف الموانىء السورية وصفاً مختصراً لا نجد فيه في الحقيقة شيئاً لم يذكره الذين جاءوا قبله.

على أننا متى عثرنا على أخبار تتمار لا نأسف على تفريط ولبرند. جاء تتمار سورية سنة ١٢١٧ م إبان هدنة بين المسلمين والصليبيين. ومع أنه يمر بالقدس مرّ الكرام معتذراً عن الإطالة بأن الذين سبقوه أفاضوا في وصف المدينة المقدسة وكنيسة القبر[٤٤] فقد عوض عن ذلك بوصف دقيق لدمشق، غني بالصور والألوان. فقد شبهها بالجنة لكثرة ما يحيط بها من الحدائق ذات الأشجار المنوعة والأزاهير المتعددة الألوان التي تسرح فيها العنادل وتغرّد حتى في الخريف. وتطرَّق إلى ذكر خيراتها فذكر أن الزائر يجد فيها عشرين نوعاً من أنواع الخبز، ويستطيع أن يدخل المطعم ويأكل دون أن يخشى غشاً، فلن يقدم له طعام بائت. ويحدثنا عما تتمتع به الأمم ـ الجماعات ـ المختلفة الكثيرة العدد المقيمة في دمشق من الحرية في أعمالها وفي دينها. ويلاحظ بلس أن هذه النغمة تختلف عما عودناه من السياح السابقين[٤٥].

ونجد تتمار في بغداد. لكننا لا نعثر عنده على ذكر للطريق الذي اتبعه، وهو إغفال نأسف له. أما وصفه لسفرته من القدس إلى جبل سيناء عن طريق شرق الأردن فهي قطعة من الأدب الحي. فوادي الموجب (أربنون) وما أثاره في نفسه من الرعب، وقلعة الكرك، وضيافته في الشوبك[٤٦]، كل هذا فيه طابع الشخصية الفنية. فقد لقي في الشوبك سيدة فرنسية مترملة عطفت عليه وزوّدته بالخبز المجفف والجبن والخمر والفواكه وأرفقته بالجمال والسائقين. ويمر تتمار بالبتراء فيصفها وصفاً مجملاً مختصراً.

ويرى بلس أن تتمار يمثل نزعة جديدة بدأت تظهر في الغرب عندئذٍ وهي محاولة

فهم الإسلام فهماً صحيحاً. فهو ينقل رأي الإسلام في المسيح ويعطي تاريخاً مختصراً لحياة النبي وخلاصة للتعاليم الإسلامية[٤٧].

وقد ترك لنا رحالة فرنسي وصفاً لمدينة القدس يرجع إلى حول سنة ١٢٢٠ م عرض فيه لشوارع المدينة وأبوابها وأسواقها، وذكر أسماءها. ثم أتبع ذلك بوصف عام مقتضب لفلسطين.

وقد استطاع كوندر أن يحصل من هذا الوصف على مسافات لنحو ثلاثين من المدن الفلسطينية وقابلها بما وصل إليه هو فوجدها صحيحة[٤٨].

وكما كان للقرن الثاني عشر مؤرخ، فقد كان للقرن الثالث عشر مؤرخه وهو يعقوب مطران عكاء. سيم يعقوب مطراناً لعكاء سنة ١٢١٧ م، بعد أن كان قد خدم عشر سنين في سورية. و«تاريخه» يحوي معلومات جغرافية أكثر مما يحتوي كتاب وليم الصوري. وأخباره عن الطوائف النصرانية، دقيقة. أما فيما يتعلق بالإسلام فقد قبل ما سمع دون تمحيص أو تدقيق. على أن هذه الظاهرة تبدو فيما كتبه عن أمور أخرى كثيرة. فبينما هو يتحدث عن أهل البلاد تراه ينقل قصصاً خرافية عن أقزام أو رجال ذوي قرون أو أذناب، وبينما يذكر عن سلوان (بالقدس) ينتقل بنا إلى الحديث عن العيون والينابيع ويروي ما يعتقده الناس بشأن أنواع الماء وعلاقتها بالعقم والحمل. ومع كل ذلك نجد ملاحظات نفيسة منثورة في تضاعيف الكتاب تتعلق بمناخ فلسطين وزروعها ونباتها[٤٩] وتقسيم سورية، وغير ذلك. لكن يعقوب يبلغ غاية الدقة في وصف تنظيم الإمارات اللاتينية[٥٠] ومملكة القدس (التي كان مركزها آنئذٍ عكاء) والمدن الكبيرة مثل ادسا وانطاكية وطرابلس وغيرها. ونعثر على وصف مفصل لثلاثين مدينة تقع على الساحل السوري بين اللاذقية ومصر[٥١]. أما من مدن الداخل فدمشق هي المدينة الوحيدة التي نعثر لها على وصف صحيح.

رغبت أوروبة في القرن الثالث عشر للميلاد في الاتصال بالتتار الذين كانوا قد أصبحوا قوة رهيبة في غرب آسية[٥٢] وشرق أوروبة. وقد حسب رؤساء أوروبة آنئذٍ أنه من الممكن نشر النصرانية بين المغول «فيصبحون عوناً للأوروبيين على المماليك الأتراك في مصر وسورية». وعلى ذلك أرسلت بعثتان إلى المغول. أما الأولى فقد كان فيها يوحنا كاربيني[٥٣] وقد أرسلها البابا أنوسنت الرابع سنة ١٢٤٥ م. وأما الثانية فكانت بعثة ملك فرنسة لويس التاسع سنة ١٢٥٢ م، إذا ندب وليم روبروك[٥٤] ليحمل رسالة إلى الخان. ومع أن يوحنا بدأ رحلته من أوروبة ووليم بدأها من عكاء[٥٥] فقد اتخذ الاثنان القسطنطينية نقطة لابتداء الرحلة عبر آسية إلى قره قورم. والأخبار التي خلّفها لنا الراهبان ذات قيمة كبيرة للبحث الجغرافي والتاريخي. لكنها تخرج عن نطاق هذه الفصول[٥٦].

وليس من شك في أن أكبر رحالي القرن الثالث عشر من الأوروبيين هو ماركو بولو.

ولو كنا نؤرخ للرحلة أو للكشف الجغرافي لكان لزاماً علينا أن نخصه بأكبر قسط من هذا الكتاب. أما ونحن نكتب عن رواد الشرق العربي، فإننا مضطرون إلى الاكتفاء بالقليل عن هذا الرحالة. على أننا نأمل أن يرجع القراء إلى مظان البحث عنه ليعرفوا أخباره المفصلة وليستمتعوا بقراءة ما كتبه بنفسه عن رحلاته التي شملت جزءاً كبيراً من آسية[٥٧].

كان نيقولو بولو وأخوه مفيو البندقيان يشرفان على تجارتهما في القسطنطينية، فخطر لهما أن يبحرا إلى شبه جزيرة القرم فيزورا مصرفيهما في صلدايا (صدك الحديثة) ثم يقصدان سراي، مقر بركا خان الفولغا، وقد تمَّ لهما ذلك وأقاما عنده سنة، ثم تعذرت عليهما العودة بنفس الطريق بسبب حرب نشبت بين أمراء المغول، فاتجها نحو بخارى ومنها رافقا وفداً كان في طريقه إلى قوبلاي خان (في الصين). وقد سرَّ قوبلاي بهما وأحسن وفادتهما، وعهد إليهما في حمل رسالة إلى البابا يطلب فيها الخان منه أن يبعث إليه بمائة من حكماء بلاده ليعلموا المغول. وطلب من الأخوين أن يأتياه ببعض الزيت من قبر المسيح بالقدس. فعاد الأخوان أدراجهما بطريق آسية الصغرى فوصلا عكاء سنة ١٢٦٩ م، بعد غياب يزيد على عشر سنوات.

تلكأ الأخوان سنتين في انتظار انتخاب البابا الجديد زارا خلالهما البندقية وعادا وقد صحبهما ماركو بن نيقولو. وبدأ الثلاثة رحلتهم من عكاء سنة ١٢٧١ م فأبحروا[٥٨] إلى اياس (لجازو) في خليج اسكندرونة[٥٩] ومنها اجتازوا أرمينية إلى تبريز فهرمز على الخليج العربي. وقد كان الرأي القديم هو أن الجماعة مرت بالموصل وبغداد وشط العرب والبصرة في طريقها إلى هرمز[٦٠]. ولكن السر برسي سيكس يرى أن ماركو لم يمر ببغداد ولم يجار دجلة إلى الخليج العربي[٦١]، وهو يعتقد أن وصفه للموصل وبغداد منقول عمن اجتمع بهم في تبريز وغيرها، كذلك القصة التي يرويها.

ومن هرمز اخترق ماركو آسية متبعاً طريق القوافل إلى الصين. وقد غاب في الصين سبع عشرة سنة (١٢٧٥ ـ ١٢٩٢ م) وعاد إلى هرمز بطريق المحيط الهندي، ومنها إلى تبريز فطرابزون فالقسطنطينية فالبندقية التي وصلها في شتاء سنة ١٢٩٥م.

فماركو بولو تهمنا رحلاته من حيث إنه نقل إلينا وصفاً لبغداد بُعيد حملة هولاكو عليها سنة ١٢٥٨ م بقليل. وقد كان ماركو دقيق الملاحظة كثير العناية بالمتاجر وموارد الثروة، ومن هنا كانت أخباره وصوره ذات قيمة خاصة. ونجد عنده ملاحظات قليلة متفرقة عن موانىء الشرق العربي مثل عدن والاسكندرية والبصرة[٦٢].

وآخر رحالي الفترة الصليبية هو بركارد الراهب الدومنيكاني الالماني[٦٣]، الذي كتب عن الأرض المقدسة سنة ١٢٨٣ م وكان قد أقام في القدس[٦٤] وسكن عكاء، وتجول في البلاد كثيراً، لذلك جاءت أخباره نتيجة اختبار شخصي، أتمه حيث احتاج، بما حصل عليه من أهل البلاد، من المسلمين والنصارى. وقد حاول بركارد أن يتبع تنظيماً خاصاً في وصف فلسطين، فقسمها إلى أربعة أجزاء وجعل عكاء نقطة الابتداء في كل قسم. فنتج عن ذلك أن القارىء يجد نفسه في عكاء بعد انتهائه من كل قسم. وحال التقسيم دون معالجة بعض الوحدات الطبيعية دفعة واحدة. فنحن نجد مثلاً أن المدن المحيطة ببحيرة طبرية من الغرب تعالج على ثلاث دفعات منفردة ـ فكفر ناحوم (تلحوم) وخورازين (كرازة) تقعان في جزءٍ، وطبرية تقع في جزءٍ ثانٍ، وبيت صيدا والمجدل في جزءٍ ثالث. وقد رسم بركارد خارطة لفلسطين[٦٥] لكنها لم تصل إلينا مع كتابه. ولعلها كانت تساعد القارىء في تتبع طريقة المؤلف في الوصف والتقسيم.

ويمتاز بركارد عمن سبقه بعنايته بالآثار[٦٦]، ومحاولته التعرف إلى الأماكن الوارد ذكرها في الكتاب المقدس[٦٧] محاولة منظمة، ودقة وصفه لطبوغرافية القدس[٦٨]. وفي آخر كتابه أورد فصلين عامين عن فلسطين الواحد عنوانه «ثمار الأرض المقدسة وحيوانها» والآخر اسمه «الديانات المختلفة في الأرض المقدسة». وقد حمل فيه على اللاتين الأوروبيين[٦٩]، وأجمل القول في المسلمين فكان دقيقاً ومعتدلاً.

ويقول لورنت، ويوافقه بلس على ذلك، إن بركارد أبرز حجاج القرون المتوسطة وأكبرهم شأناً.

ونحن إذ نقرأ وصفه لعكاء وصيدا والحولة ومنتجات فلسطين وغيرها لا يسعنا إلاّ أن نعترف له بأثر كبير في تنظيم الدراسة الجغرافية للبلاد المقدسة.

الهوامش

(١) PPT Vol. IV; *Early Travels*, pp. 31- 50.

(٢) PPT p. 6; *Early Travels*, p. 34.

(٣) PPT p. 22.

(٤) Bilss 84.

(٥) PPT vol. IV. *Introduction* pp. VII-VIII.

(٦) يقع دير مار سابا على نحو خمسة عشر كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من بيت المقدس. وقد بني في أواخر القرن الخامس للميلاد، على يد مار سابا الذي كان الرئيس العام للرهبان المتفردين.

(٧) PPT p. 26.

(٨) نفس المكان ص ٤٥.

(٩) PPT *Introduction* p. IX.

(١٠) ذكر ولسن أمثلة كثيرة من أخطاء دانيال يرجع إليها في PPT Introduction p XI.
(١١) PPT Vol. V.
(١٢) منها أن آدم خُلق في الخليل (ص ٨) وان صفاء الماء في البحر الميت يمكّن الناظر من رؤية آثار المدن المتهدمة (ص ١٣).
(١٣) راجع مقدمة فتلوس بقلم مكفرسن في PPT Vol. V p. XIII.
(١٤) رحلة يوحنا موجودة في PPT Vol. V راجع المقدمة ص IX-XII.
(١٥) رحلة ثيودوريتش موجودة في المجلد نفسه، راجع المقدمة ص III-IX.
(١٦) PPT Vol.V c.II.
(١٧) الصفحات ١ ـ ٤٩ تظهر شخصية الكاتب أما الباقي (ص ٥٠ ـ ٧٤) فتتعدم فيه هذه الشخصية. ولعل القسم الأكبر منها منقول.
(١٨) راجع قصة شعر مريم المجدلية (الفصل السادس) والجلجلة (الفصل العاشر) في PPT Vol. V.
(١٩) راجع *Early Travels*, pp. 38-64 و *Jewish Travellers* pp. XXII-XXV.
(٢٠) وصف بنيامين القسطنطينية وصفاً مسهباً. راجع *Early Travels*, pp. 74-6.
(٢١) *Early Travels* Introduction p XXIV.
(٢٢) *Early Travels*, p. 79.
(٢٣) نفس المكان ص ٨٤.
(٢٤) احتل وليم امبراكو الجنوي جبيل سنة ١١٠٩ م، فأُقطع المدينة واحتفظ خلفاؤه بزعامة المدينة بعده والظاهر أنه لما جاء بنيامين كان هوغو الرئيس وكان الأعضاء الستة الآخرون مندوبي جمهورية جنوه (Early *Travels*, p. 79).
(٢٥) راجع *Early Travels*, p. 80.
(٢٦) Bliss p 100.
(٢٧) *Early Travels*, pp. 100. 115, 118.
(٢٨) نفس المكان المقدمة ص ٢٤.
(٢٩) يظهر مما ذكره أن عدد اليهود في سورية كلها لم يكن يتجاوز عشرة آلاف في أيامه. وقد ذكر بتاحيا أنه كان في القدس أيام زارها يهودي واحد فقط هو الحاخام إبراهيم الصباغ، وسمي كذلك لأنه كان يعمل في هذه الصناعة (راجع بتاحيا ـ ترجمة غرنهوت الألمانية ـ ص ٤٤).
(٣٠) *Jewish Travellers* p. 64.
(٣١) Carmoly pp VII ff, Bliss p. 101 note 2.
(٣٢) PPT Vol. V.
(٣٣) الفصل الخامس.
(٣٤) الفصل ١٤ في PPT, Vol. V.
(٣٥) الفصل ٣٢.
(٣٦) PPT Vol. VI; Tobler pp. 22-23.
(٣٧) PPT Vol. VI cc XVI-XVIII, XXIII.
(٣٨) نفس المكان فصل ٢ ـ ٦.
(٣٩) Bliss p. 98.
(٤٠) William of Tyre.
(٤١) هما حوران وشمال شرق الأردن.
(٤٢) Bliss pp 98-9.
(٤٣) Willbrand von Oldenborg.
(٤٤) لعل الاختصار يرجع إلى صعوبة الحصول على المعلومات المفصلة (Bliss p. 102).
(٤٥) Bliss p. 102.
(٤٦) هي القلعة التي يسميها الافرنج Montreal.
(٤٧) Bliss p. 103.
(٤٨) راجع PPT Vol VI.

(٤٩) وإن كان يخلط بين ما هو موجود في فلسطين من الحيوان والنبات وبين ما هو في غيرها من بلاد الشرق.
(٥٠) راجع الفصول ٣٠ ـ ٣٤ من PPT Vol. VI.
(٥١) راجع الفصول ٣٨ ـ ٤٤.
(٥٢) امتدت فتوحات المغول إلى فارس وروسية وأرمينية. وفي سنة ١٢٤٤ م نهبوا القدس وقضوا على جيش صليبي قرب غزة على ما رواه ماتيو الباريسي (راجع Sykes p. 66).
(٥٣) John de Plano Carpini.
(٥٤) William of Rubric.
(٥٥) كان لويس التاسع في حملة صليبية هي المعروفة بالحملة السادسة.
(٥٦) راجع Baker pp 40-6.
(٥٧) رحلات ماركو بولو منشورة في طبعات كثيرة. والطبعة التي اعتمدنا عليها هي التي نشرها M.Komroff وفي أولها بحث تاريخي واف لدراسة ماركو بولو في أوروبة.
(٥٨) في هذه الفترة من تاريخ سورية يلاحظ أن الأوروبيين كانوا مضطرين إلى السفر من عكاء إلى فارس عن طريق كيليكيا (أرمينية الصغرى)، وذلك بسبب الحملات العنيفة الناجحة التي شنها الملك الظاهر بيبرس على الصليبيين فاستولى بذلك على الحصون والقلاع والمدن الداخلية كلها مثل الناصرة وحتى انطاكية نفسها.
(٥٩) كان في رفقتهم راهبان أرسلهما البابا من عكاء لكنهما خافا وعادا من هذا الميناء.
(٦٠) هذا رأي يول (Yule).
(٦١) Sykes p. 70.
(٦٢) راجع مثلاً ص ٣٠١ و٣٠٦ و٣١١ من *Travels of M. Polo*.
(٦٣) PPT Vol XII.
(٦٤) أقام في دير على جبل صهيون ولذلك يسمى Burcard of Mt. Zion.
(٦٥) هي أول خارطة رسمت لفلسطين في العصور الوسطى.
(٦٦) راجع PPT, cc 4, 7, 8, (pp. 27, 51, 72).
(٦٧) عنده خمسة وأربعون مكاناً لم يرد ذكرها في فتلوس.
(٦٨) إذا قوبلت بوصف ثيودوريتش مثلاً. راجع PPT, cc 8 (pp.67).
(٦٩) حمّلهم بركارد مسؤولية تأخر مصالح الأوروبيين في الشرق، فقال عنهم إنهم ينهبون الحجاج بعد إيوائهم في بيوتهم ص ١٠٢. وقال أيضاً إنهم يتقاعسون عن العمل لاسترجاع الأرض المقدسة من أيدي العرب ص ٣.

٦ ـ أدب الدعاية

احتلَّ المماليك عكاء سنة ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م وبذلك قضي على دولة الصليبيين في سورية. وكان المنتظر أن يثير ذلك أوروبة إلى القيام بحملة جديدة لاسترجاع سورية أو فلسطين على الأقل ولكن شيئاً من ذلك لم يكن. كان عهد الحملات الصليبية الواسعة النطاق[١] قد انقضى. على أننا نجد في النصف الأول من القرن الرابع عشر بعض الدعاة الذين لم يفت في عضدهم تقاعس أوروبة، فاندفعوا يكتبون محرضين الأمراء والملوك والبابوات مبينين لهم ولغيرهم الواجب الملقى على عواتقهم، مطالبين إياهم بتجريد حملة أو أكثر للقضاء على سلطان المماليك ووقف تقدم الأتراك في آسية الصغرى واسترداد الملك المفقود. والغالب على هذا الأدب المحرض أربعة أمور: أولها، البحث في أسباب فشل الصليبيين في آخر عهدهم وانكسارهم ونقد تصرف المسؤولين عن المملكة الصليبية؛ وثانيها البحث في الطرق المؤدية من أوروبة إلى الشرق، البحري منها والبري؛ وثالثها درس موارد المماليك الاقتصادية وقواهم العسكرية في سورية ومصر والتعرف إلى طريقة إضعافهم اقتصادياً تمهيداً لاحتلال البلاد؛ ورابعها التحالف مع المغول. والذي نستطيع أن نستنتجه من استعراضنا لهذه المادة من الأدب المحرض التي وصلت إلينا هو أن الأمر كان يشغل بال عدد كبير من الناس، وأن الكتّاب كانوا يرمون إلى التأثير في الرأي العام[٢] لذلك حاولوا أن ينشروا كتبهم بين أكبر عدد ممكن من شعوب أوروبة.

لعلّ أقدم ما وصل إلينا من أدب الدعاية بعد سقوط عكاء هو ما كتبه تاديو النابلي[٣] الذي وصف سقوط المدينة من الناحية الواحدة، وبين الدور الذي لعبته كل جماعة كانت داخل المدينة في الدفاع أو التخلي عن المدينة أو الهرب. على أن الكتاب مقصود به مبدئياً أن يكون دعاية لحملة صليبية جديدة. فهو رسالة موجهة إلى أمم النصرانية، يحاول تاديو فيها أن يثير حماستها للقيام بهذا العمل[٤].

وفي مقدمة الدعاة الكبار اثنان كانا في طليعة رجال القانون في أيام فيليب الجميل (١٢٨٥ ـ ١٣١٤ م) وهما بيير دوبوا وغليوم دي نوغاره[٥]. فقد تقدم الأول سنة ١٣٠٧ م إلى ادوارد الأول ملك انكلترا برسالة تناول فيها جميع المسائل المتعلقة بحملة صليبية إلى الشرق. وقد اعترف الكاتب بأن ما بين الدول الأوروبية النصرانية من خلاف هو السبب الرئيسي في انصراف أمرائها عن إعداد الحملة. فهو يقترح:

(١) عقد مؤتمر عام يقر السلم بين الدول ويفرض رأيه على المتردد بالقوة[٦]، (٢) منع الاتجار مع الشرق منعاً باتّاً، (٣) ارسال جماعات من رعايا الدول لسكنى فلسطين، (٤) انشاء محكمة مؤلفة من ثلاثة أساقفة وثلاثة من الرجال العلمانيين[٧] تفصل في الخصومات، (٥) جعل الدولة في الشرق ملكاً موروثاً على أن يكون أول ملوكها أميراً فرنسيًا؛ ثم يتولى بيير تفصيل النظام الحكومي الذي يقترحه لهذه الدولة وجيشها ويخلص من ذلك إلى التنبيه على الذين سيتولون إدارة البلاد أنه يتحتم عليهم أن يعيدوا الكنائس الشرقية إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، وأن ينشروا النصرانية بين المسلمين. وفي سبيل تحقيق هذا الأمر يجب أن يتعلم المستعمرون رجالاً ونساءً لغات الشرق المختلفة، في مدارس خاصة يتولى الإشراف عليها فرسان الهيكل والمستشفى. وفي السنة التالية ١٣٠٧ م أرسل بيير مذكرة في الموضوع نفسه إلى فيليب الجميل عرض عليه فيها أن يجعل ابنه الثاني (فيليب) ملكاً على (مصر وبابليون)[٨] وأن يسعى إلى توحيد جمعيات الفرسان المختلفة تحت سلطان ملك قبرص.

أما دي نوغاره فقد أثار[٩] على فرسان المستشفى حملة شعواء وحمّلهم مسؤولية الفشل الذي أصاب الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر، ثم اقترح أن يضع فيليب يده على أملاك الكنيسة وينفقها في سبيل إعداد الحملة، لأنه رأى أن المال أمر ضروري لنجاح مثل هذه الحملة[١٠].

على أن البحث في الحملة الصليبية والدعوة إليها وتبيين سبل نجاحها لم يقتصر على جماعة واحدة من المفكرين، ولكنه شمل الأمراء والمبشرين والتجار وغيرهم من الناس. والطريف فيما كتبوه أنهم يتفقون في الخطط العامة بحيث لا يختلفون إلاّ في التفاصيل واختيار الطرق. فقد اقترح دي بادو[١١] غداة سقوط عكاء، مقاطعة التجارة الشرقية وحصر مصر تجاريًا لتضعف ويسهل احتلالها. وهذا يتم بحسب رأيه بواسطة أسطول كبير يحتل مصب النيل وجيش قوامه ثلاثون ألفاً من الجنود ينزلون قرب الاسكندرونة في شمال سورية ويزحفون إلى مصر بعد أن يلتقوا بالمغول القادمين من الشرق. وفكرة انشاء أسطول كبير يحرس البحر المتوسط ويحصر تجارة مصر نجدها في مشاريع شارل الثاني ملك نابلي (١٢٩١ ـ ١٢٩٢ م) وجاك مولي رئيس الهيكليين سنة ١٣٠٧ م ووليم آدم سنة ١٣١٠ م. وفي مذكرة للبابا كلمنت الخامس أرسلها سنة ١٣١١ م إلى هنري الثاني ملك قبرص (١٢٨٥ ـ ١٣٢٤ م) وفي ما كتبه مارينو سنودو. وقد اقترح هذا انشاء أسطول يكون تحت إمرة مندوب يختاره البابا ويرجع إليه في تلقي أوامره. والغرض من ذلك أن يكون الأسطول مستقلاً على المدينتين التجاريتين الكبيرتين البندقية وجنوه لأن مصالحهما التجارية قد تحملهما على تضحية المصلحة الأوروبية العامة في سبيل ما تريدان[١٢].

والاختلاف على الطريق التي يمكن اتباعها للوصول إلى الشرق أمرٌ طبيعي، لأن المجال أمام الرحّالين والكتّاب واسع. فثمة الطريق البري من أواسط أوروبة إلى القسطنطينية ومنها بطريق آسية الصغرى وسورية. وهناك من اقترح طريق البر أولاً ثم طريق البحر من بزنطية إلى سورية. والحملات البحرية نفسها بصرف النظر عن مكان ابتدائها، قد تتخذ عكاء أو غيرها من موانىء سورية هدفاً لها، وقد تتجه غيرها نحو الاسكندرية أو غيرها من المدن المصرية رأساً، بحيث يمكن الزحف على القاهرة والقضاء على مركز السلطان أولاً. وقد بُحث في احتمال إرسال حملة إلى مصر بطريق تونس.

أما التحالف مع المغول فقد دافع عنه دي بادو وغرانسوت وآدم وسنودو[١٣].

وقد يكون من حق هيتون أن يشار إليه بهذه المناسبة. كان هيتون أميراً أرمنياً. وفي سنة ١٣٠٧ م كتب «تاريخ الأمم الشرقية» وعرض فيه لتاريخ الشرق منذ زمن المسيح إلى أيامه وختمه بدعوة أوروبة لحمل السلاح لاسترجاع فلسطين ووقف الخطر التركي. وهذا الجزء من كتاب هيتون ثلاثة أقسام: الأول، يبحث فيه المؤلف نواحي القوة والضعف عند المماليك، والثاني يعرض فيه للحملة الصليبية المنتظرة، والثالث يتناول فيه الطرق.

ففي القسم الأول يعزو المؤلف تقدم مصر إلى (١) قوة السلطان الشخصية التي تمكنه من التغلب على الفتن والثورات، (٢) الهدنة الطويلة مع التتار، (٣) وفرة الغلات في مصر وسورية، (٤) اطمئنان الدولة إلى أن الطرق التجارية البرية والبحرية في أمان، (٥) السلم القائم بين مصر والنوبة والعرب في الصحراء الشرقية. ولذلك فهو ينصح أولي الأمر في أوروبة بأن يتحينوا فرصة اضطراب أحد هذه الأمور عند المماليك فيهجمون على الشرق. وهذا الاضطراب قد يحدث إذا تكاثر الثائرون على السلطان أو عادت الحروب مع التتار أو الأحباش أو هجم العرب على أملاك السلطان أو امتنع النيل عن الفيضان فقلَّ الانتاج الزراعي.

ويقترح هيتون أن تأتي أول الأمر حملة صغيرة من نحو أربعين ألفاً من الرجال يصحبها أسطول قوي فتنزل في أرمينية الصغرى (كيليكيا) ومن هناك يمكن الاستيلاء على طرابلس وغيرها من الموانىء السورية. ويكون الرسل قد نجحوا في اقناع التتار بالهجوم من الشرق، وعندها تبدأ الحملة الكبيرة. وهنا يتناول هيتون الطرق المختلفة التي يمكن للحملة أن تتبعها واحدة واحدة ويفضل الطريق البحري، بحيث تصل الحملة انطاكية في سورية في الخريف. وتبدأ الزحف من الشمال إلى الجنوب[١٤].

اعترى أدب الدعاية للحملات الصليبية بعض الفتور في أواسط القرن الرابع عشر بسبب اهتمام أولي الأمر في أوروبة بإعداد الحملات فعلاً وبقيادتها[١٥]. فلما لم تؤت هذه البعثات ثمراً عاد الكتَّاب إلى الدعاية من جديد. وفي هذه المرة كانوا من

رجال السياسة. ولا شك أن الاتجاه الجديد يتضح من دراسة حياة بيير دي توماس وفيليب ميزيير.

ولسنا نريد أن نتناول حياة هذين الرجلين بالتفصيل، بل نكتفي بالإشارة إليهما إشارة موجزة محيلين القارىء إلى الفصل النفيس الذي كتبه عنهما الدكتور عطية[١٦]، ومنه أخذنا هذه الخلاصة.

ولد بيير دي توماس[١٧] في أواخر القرن الثالث عشر وانصرف في شبابه إلى طلب العلم فظهرت مواهبه للبابا أنوسنت السادس (١٣٥٢ ـ ١٣٦٢ م) فاختاره سفيراً له لدى ملك أبوليا ثم لدى سربياً ثم عند امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة وسامه مطراناً في صقلية ثم بطريركاً لاتينيًا في القسطنطينية، وأخيراً عين بيير قاصداً رسوليًا في الشرق. وفي سنة ١٣٥٧ م زار فلسطين.

صرف بيير همه إلى ثلاثة أمور اعتبرها رسالته في الحياة: الأول رد نصارى الشرق إلى حظيرة الكثلكة. والثاني التبشير بالنصرانية بين المسلمين. والثالث الدعوة إلى حملة صليبية لاسترداد الأرض المقدسة. ولم يأل جهداً في أي من هذه المحاولات. ومما لا شك فيه أنه كانت له يد كبرى في تهيئة الحملة ضد الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م، ومن المصادفات أن يموت بيير عقيب ارتداد المحاربين عن المدينة بعد أن نهبوها (توفي سنة ١٣٦٦ م).

لكن بيير خلّف فيليب[١٨]، تلميذه وخليفته الروحي. ولد فيليب سنة ١٣٢٧ م ودعا إلى حملة صليبية في فرنسة واسبانية وتقلد منصب المستشار الملكي لبيير لوزنيان ملك قبرص (١٣٥٩ ـ ١٣٦٩ م). فلما اغتيل هذا رحل إلى فرنسة وعمل مربياً لولي عهد المملكة، فلما توفي الملك شارل الخامس (ملك فرنسة) سنة ١٣٨٠ م قرر فيليب اعتزال العالم، واعتكف في دير بالقرب من باريس. وهناك شغل نفسه باملاء رسائله وكتبه ومذكراته التي كانت كثيرة العدد، متنوعة المباحث. على أن أهم ما جاء فيها، من حيث علاقته بموضوعنا، يمكن تلخيصه في ما يلي: ـ

١ ـ رأى فيليب أن فرق الفرسان التي نشأت قبلاً قد اختصمت فيما بينها حتى أدّت خصومتها إلى ضياع الأراضي المقدسة، لذلك اقترح إنشاء فرقة جديدة من الفرسان بحيث تُجتنب فيها الأخطاء السابقة.

٢ ـ إعداد الحملة الصليبية والبحث في الطريق التي تسلكها الجيوش للوصول إلى غايتها.

٣ ـ ضرورة قيام السلم بين انكلترا وفرنسة لتتمكن الأمتان من الاشتراك في الحملة الصليبية.

٤ ـ وهناك اقتراح جديد وهو إرسال سفراء إلى البلاط السلطاني الشرقي يحملون الهدايا والرسائل الودية إلى السلطان ورجاله.

وها نحن أولاء نكتفي بهذا القدر اليسير عن أدب الدعاية للحملات الصليبية في القرن الرابع عشر، ضاربين صفحاً عن جماعات كثيرة غير الذين ذكرنا، وفي مقدمتهم المبشرون، على أننا نرى من الخير للقارىء أن نحيله إلى ما كتبه الدكتور عطية عنهم(١٩).

الهوامش

(١) Brehier p. 250.
(٢) نفس المكان ص ٢٥٠.
(٣) Thadeo of Naples في *Acconensis Civitatis*. Historia de Desolacione et Conculcacione
(٤) Atiya, *Crusade*, pp. 30-33.
(٥) Guillaume de Nogaret, Pierre Dubois.
(٦) وصل إلينا كتاب باسم «طريق مصر» (Chemin de Babloine) يرجع تاريخه إلى ١٢٨٩ ـ ١٢٩١ م يبحث فيه كاتبه في خير الوسائل لتجنيد اوروبة وإرسال حملة كبيرة لتصد تقدم المماليك السريع في سورية. والمؤلف الذي نجهله يصف قوة السلطان في مصر وسورية ويعطي تفاصيل وافية عن الطريق من غزة إلى دمياط ورشيد. والظاهر انه كان يعرف التركية. فإن الأسماء صحيحة اللفظ والكتابة، وهو يشير إلى هذه المعرفة إشارة خفية. ويعود الكتاب إلى قبيل سقوط عكاء. فالدعوة لوقف فتوح المماليك واسترجاع فلسطين كانت بدأت قبل خروج الصليبيين من البلاد. راجع AOL. Vol. II p. 89 ff.
(٧) يرى أن يكون الجميع ممن لا تغريهم الرشوة.
(٨) Babylon ـ إشارة إلى «باب اليون» في مصر القديمة. وقد كان كتّاب العصور الوسطى الأوروبيون يطلقون بابليون على المدينة كلها. وقد أدت هذه التسمية إلى الخلط كثيراً بين مصر وبابل.
(٩) سنة ١٣١٠ م.
(١٠) Brehier, p. 254.
(١١) Fedince de padoue.
(١٢) نقل (Brehier, p. 255) ان سفينة جنوية كانت تحمل بضاعة مرسلة لمصر قبض عليها سنة ١٣١٠ م، فانتقمت جنوه بأن وجهت اسطولها ضد رودس.
(١٣) Brehier, pp. 257-8.
(١٤) Atiya, Nicopolis, pp. 20-23.
(١٥) الإشارة هنا إلى الحملة ضد رودوس سنة ١٣٠٧ م وحملة همبرت الثاني سنة ١٣٤٥ م وبطرس لوزنيان وأميديو سافوي ولويس بوربون.
(١٦) Atiya, *Crusades*, Chap. VII.
(١٧) Pierre de Thomas.
(١٨) Philip de Mezires.
(١٩) Atiya, *Crusades* pp. 29-187.

٧ ـ رحالو القرن الرابع عشر

هؤلاء الرحالون كثيرو العدد متباينو الغايات والأغراض، لكنهم يتفقون في أنهم أرادوا أن يفهموا الشرق فهماً صحيحاً وأرادوا أن يتعرفوا إلى أسباب فشل الحملات الصليبية لتداركها في المستقبل.

أول الرحَّالين الذين تطالعنا أسماؤهم بعيد سقوط عكاء هو ريكولدو دي مونت كروشي[١] الذي قضى وقتاً طويلاً من حياته في الشرق. ولد ريكولدو بالقرب من فلورنسة سنة ١٢٤٢ م وتوفي سنة ١٣٢٠ م. وكان يرى أن من الخير للبشر أن يعتنقوا الكثلكة ـ سواء في ذلك النصارى الشرقيون والمسلمون واليهود. ورأى أن يقرع الحجة بالحجة مع أهل الأديان المختلفة، فأقام في الشرق ليدرس العقائد المختلفة فتعلم العربية واستقرَّ في بغداد زمناً لدرس القرآن الكريم وأمهات الكتب الإسلامية. وكان همه في سورية وغيرها أن يجمع ما تصل إليه يده من الآثار المقدسة ويحملها إلى أوروبة[٢]. فالبعض منها ابتاعه والبعض الآخر أخذه من الأديرة. وقد خلَّف ريكولدو ثلاث مجموعات من الآثار المكتوبة، أولها «أسفار» وهي التي أرادها دليلاً للحجاج والصليبيين؛ وثانيها «الرسائل» التي وصف فيها ما مرَّ به من حوادث، وصوَّر ما عنَّ له من الخواطر وما دار بخلده من الآمال أثناء إقامته في الشرق[٣]؛ وثالث هذه المجموعات كتاباته الدينية البحتة وفيها رسائل ثلاث موجهة إلى اتباع الإسلام والنصرانية الشرقية واليهودية[٤].

ويطالعنا في مفتتح القرن الرابع عشر سائح آخر من رجال السياسة والتبشير هو وليم آدم. المولود سنة ١٢٧٥ م في جنوب فرنسة، والذي التحق بالأخوة الدومنيكان في شبابه. وفي سنة ١٣٠٥ م انتدبه البابا كلمنت الخامس[٥] للقيام بأعمال تبشيرية في الشرق، فزار لهذا السبب آسية الصغرى وسورية. وانتدب ثانية لزيارة فارس والتبشير في الهند. وقد طاف فيها ومرّ بعدن وعرج على شرق أفريقية. وبعد تردد على الشرق غير مرة عين رئيساً لأساقفة السلطانية (عاصمة مملكة الفرس) ثم نقل إلى انتواري، وقد تغيب عن مركز عمله كثيراً وتوفي في انتواري سنة ١٣٤١ م.

العمل الذي وقف وليم حياته عليه هو إثارة أوروبة لإعداد حملة لاسترداد سورية والقضاء على سلطان مصر. ويظهر هذا جلياً من اسم كتابه ومحتوياته[٦] فإن الكتاب يتناول فيه مسألتين كبيرتين: الأولى هي التي تهمنا في هذا المقام. فمصر تعتمد في

ثروتها على الإتجار مع الأمم البعيدة عنها بالإضافة إلى جاراتها. فبزنطية تبعث إليها بالقمح، والرقيق يحمل إليها من أرمينية وما وراءها، والهند تمدها بمصنوعاتها وطرائفها، وعدن تجمع ما تحتاج إليه مصر من جنوب بلاد العرب وأفريقية الشرقية. وكل هذه المتاجر ينقلها الجنويون والبنادقة والبيزيون وتجار قطالونية إلى أوروبة. ومصر تسيطر على الطرق السورية بحكم أن سورية جزء من السلطنة المصرية. ولا سبيل إلى احتلال سورية والقضاء على مصر، كما يرى المؤلف، إلاَّ بمنع الإتجار مع مصر. ويرى أن ذلك يتطلب القيام بأمور أربعة: (١) ضرب الحصار التجاري على مصر ووضع الحرم على نصارى أوروبة الذين يخالفون ذلك ويتاجرون معها. (٢) احتلال الامبراطورية البزنطية وإرغام أهلها على اعتناق الكثلكة. (٣) وعندها يمكن تحويل التجارة من الطريق المصري إلى طريق فارس ـ آسية الصغرى فالقسطنطينية. (٤) انشاء أسطول قوي في المحيط الهندي يكون عمله الحيلولة دون وصول متاجر الهند إلى عدن فيضطر التجار إلى المرور بطريق الخليج العربي. فمتى تمَّ ذلك ضعفت مصر عن المقاومة، وسهل ابتلاعها وخصوصاً لأن الشرقيين جبناء لا يجرأون على القتال(!)[٧] ولا ينسى وليم أن يوجِّه نظر الأوروبيين إلى وجوب عقد محالفة مع المغول، لزيادة مصاعب المصريين، وإمكان مهاجمتهم من ناحيتين في وقت واحد.

بروكارد[٨] في مقدمة الأوروبيين الذين قضوا فترة طويلة في الشرق حول سنة ١٣٠٨ م. ونجده في سنة ١٣٢٣ م في البلاط الأرمني يعمل على نشر الكثلكة. وقد قال هو عن نفسه إنه أقام أربعاً وعشرين سنة في ربوع الشرق[٩].

ويمكن إجمال القول فيه إنه كان داعية للكثلكة متعصباً حتى إنه جعل فرضها على نصارى الشرق البزنطيين غرضاً رئيساً من إرسال حملة صليبية. ولذلك نراه يحمل على الجماعات النصرانية في الشرق حملات شعواء، فيتهمهم بالجبن والخداع والغش وغير ذلك من الرذائل[١٠].

قدم بروكارد كتابه[١١] لفيليب السادس سنة ١٣٣٢ م عندما كان الملك يعد حملة صليبية عسكرية يوجّهها إلى الشرق. وقد جعله في مقدمة وجزءين، فأشار في المقدمة إلى السرور الذي ملأ قلوب القوم إذ سمعوا بنبأ الحملة. ثم تناول في الجزء الأول الجيش وما يحتاج إليه والطرق الصالحة. وعرض في الثاني للخطة التي يجب اتباعها بالتفصيل.

ولسنا هنا في معرض البحث عن تاريخ الحملات الصليبية فنفصل في درس كتاب بروكارد[١٢]، ولكننا نحاول أن نرسم صوراً لما رآه الرحالون في الشرق العربي في هذه الفترة. والأثر الذي يتركه بروكارد في نفوسنا هو أنه لم يفهم الشرق ولم يُقدر سكانه. فهو يرمي نصارى الشرق من غير الكاثوليك بالتهم يكيلها لهم جزافاً، كما ذكرنا، ويقول عن الأتراك انهم يسهل قهرهم لأسباب متعددة، منها أنهم أشرار فالله

يعاقبهم، ومنها أنهم فاسدون منقسمون وجيوشهم ضعيفة هزيلة، وجندهم من عتيق اليونان وقادتهم لا يعرفون من فنون الحرب شيئاً، وسلاحهم لا يعتد به لنزرته، وخيولهم هزيلة. ويختم بروكارد وصفه لهم بقوله: «والخلاصة أنهم بعد اليونان والمصريين أحط من حمل السلاح من أمم الشرق». ولكن أوروبة لم تنتظر طويلاً حتى ثبت لها خطأ ما رواه بروكارد عن الأتراك.

ونحن وإن كنا نترك هذا الرحالة آسفين لأننا لا نجد عنده صوراً للحياة الشرقية، فإننا ننتقل إلى رحَّالة آخر يُعتبر ما خلفه من خير ما وصل إلينا لدرس الحياة الاقتصادية للشرق في القرون المتوسطة. هذا هو مارينو سنودو.

ولد مارينو سنودو في البندقية حول سنة ١٢٧٠ م، وقد كان أبوه قاضياً وعضواً في المجلس الكبير في المدينة ودوقاً لجزيرة نكسوس التي احتلها إثر سقوط القسطنطينية بأيدي اللاتين[١٣]. ومن المعروف أن أباه تزوج أميرة بزنطية، لكننا لا ندري هل كان مارينو ابنها أو ابن زوج أخرى.

ساح مارينو كثيراً، وزار ايطالية واليونان وأرمينية وسورية ومصر غير مرة. والذي نعرفه أنه أقام في عكاء في الحي البندقي سنة ١٢٨٦ م[١٤]، وفي رودس من سنة ١٣٠٩ إلى ١١٣١ م.

وفي سنة ١٣٢١ م[١٥] تقدم مارينو إلى البابا يوحنا الثاني والعشرين (١٣١٦ - ١٣٣٤ م) بكتابه المسمى[١٦] «أسرار حملة صليبية» وهو الذي تناول فيه الخطة الواجب اتباعها في اعداد حملة عسكرية لاستعادة الشرق بتفصيل دقيق[١٧]. والكتاب يشمل ثلاثة أمور رئيسة. الأول سبيل القضاء الاقتصادي على مصر[١٨]، والثاني احتلال مصر العسكري، والثالث الاحتفاظ بمصر والبلاد المقدسة وكيفية تأمين ذلك. والناحية العسكرية البرية والبحرية في الكتاب ليست ما يعنينا هنا، لكننا نريد أن ننوّه بالفائدة التي يجنيها مؤرخو الشرق في القرون الوسطى من مراجعة الحياة الاقتصادية في القرن الرابع عشر الميلادي[١٩]. وقد وصف مارينو جغرافية الأرض المقدسة وطبوغرافيتها وصفاً دقيقاً، كما تناول الملاحة في الشرق الأدنى وطرقها والسفن وأنواعها وأوقات إقلاعها وقدومها.

ومما يزيد في قيمة كتابه الخرائط التي رسمها خصيصاً له. وقد وصلنا منها ثلاث خرائط للعالم وللشرق وللأرض المقدسة، ورسمان واحد للقدس والثاني لعكاء[٢٠]. أما خارطة البحر المتوسط فقد فقدت.

استقى مارينو معلوماته من أسفاره العديدة ومؤلفات وليم الصوري ويعقوب دي فتري المؤرخين[٢١] وممن عاشرهم من أهل الحل والعقد. ومتى عرفنا انه صرف نحو خمسة عشر عاماً في تحضير كتابه أدركنا السبب في الدقة التي نلمسها في هذا المؤلف النفيس واستغربنا نواحي الضعف التي نقلها عن سابقيه دون أن يصححها[٢٢].

وفي الوقت نفسه الذي كان مارينو يعد فيه رسالته كان يقيم في بيسان يهودي منفي هو الحاخام استوري بن موسى هابارخي. جاء بيسان سنة ١٣١٤ م وأقام فيها سبع سنين صرفها في درس فلسطين وشرق الأردن من حيث علاقة جغرافية البلاد بالتوراة. وقد أتمَّ كتابه سنة ١٣٢٢ م. ويرى المحدثون من الكتّاب أن أبحاث استوري وتعرفه إلى الأماكن القديمة ومقارناته وتقصيه في كل هذا، تجعله في مصاف كبار الجغرافيين الذين كتبوا[٢٣].

وفي سنة ١٣٣٣ م نزل راهب ألماني اسمه وليم فون بلدنزل [٢٤] مدينة رومة حيث حصل على إذن في زيارة الأراضي المقدسة. وعند عودته إلى المانية سنة ١٣٣٦ م نشر كتاباً[٢٥] وصف فيه بلاد اليونان وجزيرتي رودس وقبرص ومصر وسورية وسيناء، مع عناية خاصة بالمدن الرئيسية مثل يافا وغزة والقدس ودمشق والقاهرة. ومن المحتمل أن يكون وليم قد وصل بغداد. لكن كتابه في الحقيقة دليل للأراضي المقدسة قبل كل شيء.

ومما لا يرتاب فيه أن أظرف رحالي القرن الرابع عشر هو يوحنا مندڤيل[٢٦] يعرّفنا يوحنا بنفسه قائلاً: «أنا يوحنا مندڤيل الفارس... المولود في انكلترا[٢٧] ركبت البحر في سنة ١٣٢٢ م في يوم القديس ميخائيل... وزرت بلاداً مختلفة.... وجزراً كثيرة واجتزت بلاد التتار وفارس وأرمينية الصغرى والكبرى، وليبيا والعراق وجزءاً كبيراً من اثيوبيا وامازونيا والهند الكبرى والصغرى وجزراً كثيرة حول الهند... حيث تقطن شعوب متباينة القوانين والعادات والأشكال البشرية»[٢٨] ويقدم إلينا كتابه بهذه العبارة: «... وقد نقلت هذا الكتاب من اللاتينية إلى الفرنسية ثم من هذه إلى الانكليزية ليفهمه كل فرد من بني قومي... وليتمكن كل سيد وفارس وغيرهم من النبلاء الذين لا يعرفون إلاّ القليل من اللاتينية من فهمه، وإذا أوقعني ضعف الذاكرة في خطأ استطاع الذين زاروا البلاد الواقعة وراء البحار أن يصححوا ذلك»[٢٩].

ولكن المؤرخين ارتابوا في الأمرين اللذين تحدث عنهما يوحنا بوضوح. فهم ينكرون أنه انكليزي، ويرى بعضهم أنه بلجيكي من أهل لياج اسمه يوحنا أو ترميز[٣٠]، وانه انتحل الاسم الآخر ليكسب ثقة معاصريه. أما أسفار يوحنا ومداها فقد شغلت الكتّاب أكثر من اسمه وأصله. ذلك أن الأساطير التي يحويها الكتاب وأجيال الناس التي يزعم أنه رآها ليس لها وجود. ولعلَّ من الحق أن نقرر هنا مسألتين هامتين. الأولى: أن يوحنا وصل الشرق العربي في سياحاته، ووصف سورية ومصر وجزءاً من العراق وصف من رأى وسمع. والثاني: انه نقل عن مصادر مختلفة أخباراً وقصصاً متنوعة حشاها في كتابه. فقد أخذ عن وليم بلدنزل والأمير هيتون الأرمني ووليم آدم[٣١] والراهب أودوريك[٣٢] بوردينون ويوحنا كاربيني وبليني وسولينوس[٣٣].

وقد لاحظ رايط أن المؤلف كان في مصر سنة ١٣٤١ م[٣٤] بدليل ذكره السلطان

الأشرف الصغير. وهذا هو التاريخ الوحيد الذي يدلنا على شيء صحيح عن يوحنا (مندڤيل)[٣٥].

واذن فنحن نستطيع أن نعتمد الصور التي أعطاها إياها عن الشرق العربي إلى درجة كبيرة. ونستطيع أن نضم المؤلف إلى الدعاة الذين حاولوا ايقاظ أوروبة لاعداد حملة صليبية لاسترجاع الأرض المقدسة[٣٦]. ومن ثمَّ نالت فلسطين من عنايته الحظ الأوفى[٣٧].

يبدأ يوحنا كتابه بذكر الطريق من المغرب إلى القسطنطينية ماراً بالمانية وهنغارية وبلغارية ثم ينقلنا إلى القدس بطريقين: البري[٣٨] مخترقاً آسية الصغرى ماراً بنيقيا، والبحري[٣٩] ومراكزه رودس وقبرص إلى صور. ويتناول الطرق الموصلة من سورية إلى مصر[٤٠] ويحدِّثنا عن المدن المصرية وعادات السكان وأخلاقهم[٤١] وقوة المماليك الحربية[٤٢].

وممن عاصر يوحنا مندڤيل راهب اسمه جاكومو دي ڤيرونا[٤٣]. خرج جاكومو من ڤيرونا في السابع من شهر أيار (مايو) سنة ١٣٣٥ م ليؤدي فريضة الحج في القدس، فوصل يافا في ٣٠ تموز (يوليو) بعد أن مرَّ بكريت وقبرص. وفي ٥ آب (اغسطس) وصل القدس. وهنا يبدأ بوصف الأرض المقدسة ويشير إلى القرى والمدن المأهولة والمحصَّنة. ومن القدس ذهب إلى جبل سيناء بطريق غزة[٤٤]، ثم استمرَّ في ترحاله إلى القاهرة فوصلها في ٣٠ أيلول (سبتمبر). وقد وجدها مدينة حصينة منيعة يقيم فيها نحو عشرين ألفاً من الجند النظامي لكنهم ينقصهم السلاح الجيد والعدة الكاملة والخيول القوية. ويهتم بالنيل ويظهر قيمته كطريق طبيعي للمواصلات بين القاهرة والاسكندرية. ويزور دمياط ثم يعود منها براً إلى غزة. ويذكّرنا بمناسبة حديثه عن ميناء دمياط بأنها قد تراكمت الأحجار والصخور في مدخلها فحالت دون دخول السفن إليها على نحو ما أصاب موانىء صور وعكاء ويافا وغزة. ويخصص جاكومو فصلاً للبحث عن الإسلام والنبي، ويصف اضطرابات شهدها بين غزة والقدس وأخرى حدثت في طريقه إلى الناصرة. ومن الناصرة توجه إلى دمشق فبعلبك فصيدا فصور فعكاء فبيروت حيث عاد إلى بلاده فوصل ڤيرونا في تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٣٣٥م.

وكتاب[٤٥] جاكومو في جملته دليل للحجاج ودعوة لحملة صليبية. وهو شديد العناية بأوقات الأسفار والأزمنة اللازمة لقطع المسافات.

والرحال الآخر الذي عاصر مندڤيل هو لودلف فون سوخم[٤٦] (سودهيم) الذي قضى خمس سنوات في الشرق ١٣٣٦ ـ ١٣٤١ م وكتب «وصف الأرض المقدسة والطرق المؤدية إليها»[٤٧] في سنة ١٣٥٠ م، وأهداه إلى مطران بادربورن[٤٨] رفيقه في السفر[٤٩].

كتب فون سوخم أخبار رحلته بعد اتمامها بعشر سنوات، فاعتذر عما قد يقع فيه من الأخطاء لأنه يعتمد على فهمه المتواضع وذاكرته الضعيفة. وهو بالإضافة إلى ذلك، يحذّر قراءه من أن يحسبوا أنه رأى كل مكان وصفه أو زاره بنفسه، إنما لخص بعض أنبائه وأوصافه ممن سبقه، ونقل الروايات التي سمعها من ثقات النقلة.

ويتناول فون سوخم في الجزء الأول[٥٠] من كتابه «الطرق المؤدية إلى الأرض المقدسة»، فيصفها باختصار ودقة، دون أن يغفل أحدها ـ فالطريق البري الهنغاري الاناضولي، والبحري من البندقية أو مرسيلية، والطريق الافريقي البري ـ كلها مذكورة[٥١].

وأما الجزء الثاني، فيمكن اعتباره قسمين: أولهما[٥٢] يشمل ذكر الأماكن المقدسة واحداً واحداً بالتفصيل. وثانيهما[٥٣] يتناول فيه فون سوخم البلاد المقدسة وما جاورها من بلاد المشرق من الناحية الجغرافية[٥٤] والتاريخية والاجتماعية. فيتحدث عن الطوائف النصرانية المختلفة كاللاتينية والسريانية واليونانية والأرمنية والمارونية وغيرها، ويخصص جزءاً من كتابه للتحدث عن الإسلام. لكنه يخلط بين التاريخ الحق والقصص والشائعات خلطاً كبيراً، كأنه يدوّن كل ما يصل إلى سمعه. كما أنه يخطىء في فهم العلاقة بين الكنائس المختلفة والبابوية[٥٥].

أما إسحق بن يوسف بن شلو فقد ولد في اراغون باسبانية[٥٦]. وفي سنة ١٣٣٣ م هاجر إلى القدس مع أسرته وأقام هناك. وفي سنة ١٣٣٤ م بعث إلى أبيه وأصدقائه بكتاب فيه وصف مختصر للقدس وأتبعه بوصف مفصل للطرق التي تصل القدس بأمهات المدن الفلسطينية حتى أطراف البلاد في الشمال والجنوب. وقد اهتمّ اهتماماً خاصاً بأمرين، أولهما: اليهود في فلسطين، فأشار إلى الأماكن الموجودين فيها وأعمالهم. وثانيهما: علاقة المدن والقرى بالحوادث الوارد ذكرها في التوراة وأخبار أئمة اليهود ومشهوري رجالهم.

يتحدث إسحق أولاً عن أبواب القدس ثم يعدِّد الأبنية العجيبة في المدينة المقدسة، وهي في نظره: برج داود وقصر سليمان وقبر النبيّة هلدا وقبور الملوك وقصر الملكة هيلانة وباب حطة والباب الغربي.

وبعض هذه لم يكن قائماً في زمن الكاتب، ولكنه آثر ذكره احياءً لتاريخ جماعته، مثل قصر سليمان، فإنه يقول عنه «إن مكانه اليوم تقام فيه سوق كبيرة». والملكة هيلانة يقول عنها إنها جاءت القدس واعتنقت اليهودية(؟) وإن قصرها يقطنه اليوم القاضي ومستشاروه. ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أننا لا نجد ذكراً لقبة الصخرة أو المسجد الأقصى أو كنيسة القيامة فيما كتبه إسحق عن القدس.

والجماعة اليهودية في القدس كانت موضع عناية إسحق فقال عنها: «والطائفة اليهودية في القدس مكونة من آباء عائلات جاءت من كل أجزاء العالم خصوصاً من

فرنسة. وزعماء الطائفة وكبار حاخاميها جاءوا من المملكة الأخيرة... ويعيش اليهود هنا بسعادة وطمأنينة، كل بحسب وضعه وموارده، وذلك لأن الحكومة عادلة... وكثيرون من أفراد الطائفة يعملون في الصناعات كالدباغة والخياطة وصنع الأحذية وغير ذلك، وغيرهم يعملون في التجارة ولهم حوانيت أنيقة، وبعضهم منصرف إلى الاشتغال بالعلوم كالطب والفلك والرياضيات. لكن الفريق الأكبر من علمائهم يصلون آناء الليل بأطراف النهار في دراسة الشرع المقدس والحكمة القبالية. وهؤلاء تتفق عليهم الطائفة».

والطرق التي يعالجها إسحق سبع هي: (١) من القدس إلى جنوب فلسطين، (٢) من القدس إلى يافا، (٣) من القدس إلى نابلس، (٤) من القدس إلى عكاء، (٥) من القدس إلى طبريا (وهي تتمة للطريق الثالث)، (٦) من طبريا إلى صفد (٧) من القدس إلى بانياس (دان)[٥٧].

وكان بين السياح الايطاليين الذين هبطوا الشرق الأدنى في القرن الرابع عشر ليوناردو فرسكو بالدي[٥٨] الفلورنسي الذي قام بالحج إلى بيت المقدس سنة ١٣٨٤ م. بدأ رحلته مع جماعة من الفرنسيين والبنادقة من البندقية فاتجهوا رأساً إلى الاسكندرية[٥٩] حيث حلَّ ضيفاً في فندق كونتاديني البندقي. وهناك لقي تجاراً من ايطالية وفرنسة وقطالونية وغيرها، وانتقل ليوناردو مع صحبه إلى القاهرة على سفينة نهرية متبعين في طريقهم ترعة الاسكندرية (المحمودية اليوم؟)، ثم رياح رشيد من النيل، ثم النيل نفسه. وقد رأى ليوناردو أموراً كثيرة في مصر أثرت فيه منها ثروة الاسكندرية والملاحة النهرية واتساع القاهرة واستتباب الأمن، حتى إن الناس يتنقلون بدون سلاح على خلاف ما اعتاده القوم في بلاده.

ومن القاهرة سافر ليوناردو مع قافلة إلى سيناء وعرّج على دير القديسة كاترينا ثم إلى فلسطين، وأخيراً إلى بيروت عائداً إلى البندقية بطريق قبرص وكريت.

وبعد ليوناردو ببضع سنوات جاء إلى الشرق توماس سوينبورن[٦٠] سنة ١٣٩٢ م الذي دوَّن رفيقه توماس برغز أخبار رحلته[٦١] والطريق الذي اتبعته هذه الجماعة هي طريق ليوناردو وجماعته. وليس في أخبار برغز من جديد. لكن الكاتب يُعنى بذكر مواعيد السفر وتاريخه كما أنه يدوّن نفقات السفرة فيعطينا أسعار الحاجيات وأجور التراجمة ورسوم الجمارك[٦٢].

ونختم بحثنا عن سياح القرن الرابع عشر بسائح افرنسي هو أوجييه (الثامن) دانغلور[٦٣]. جاء اوجييه إلى الشرق سنة ١٣٩٦ م، وكان شديد العناية بأسفاره حتى إنه لا يكتفي بذكر اليوم وتاريخه، ولكنه يعين حتى الساعة التي يصل فيها بعض الأماكن أو يغادرها.

كانت أول مدينة سورية هبطها أوجييه هي بيروت، إذ وصلها في ٢٨ أيلول

(سبتمبر) وقضى في سورية ثلاثة أسابيع أتمَّ في خلالها حجه، ونزل في وادي الأردن في نزل بناه السلطان لايواء الحجاج والغرباء. وبعد زيارته للقدس ذهب إلى غزة حيث استعد مع جماعته لزيارة جبل سيناء ودير القديسة كاترينا. وفي الطريق لقيتهم قوافل الحجاج العائدين من الحجاز وكان عددهم عشرة آلاف.

وبعد زيارة الدير استأنف أوجييه سيره إلى مصر فوصل المطرية في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر). وبعد يومين دخل القاهرة. وإذ يترك صاحبنا الأرض المقدسة تفقد أخبار رحلته ما فيها من الجفاف وتظهر فيها الحياة. فالقاهرة المدينة الكبيرة الواسعة فيها ١٢٠٠٠ مسجد و٤٠٠٠٠ دكان، البعض منها لبيع اللحم المطهو، وهي كثيرة النافورات الجميلة والميادين الفسيحة ولها قلعة شماء. وحاول أوجييه أن يصف الكنائس القبطية القديمة، لكنه أخطأ في هذه الناحية فخلط بينها. وسار بعد ذلك مصعداً في النيل، وزار الأديرة القبطية في الصحراء الغربية. ثم عاد بنفس الطريق إلى القاهرة ورحل إلى الاسكندرية. ويذكرنا أوجييه بملاحظة ليوناردو عن كثرة التجار الأوروبيين في الاسكندرية. وقد أعجب أوجييه بالمدينة إعجاباً كبيراً. ومن الاسكندرية رحل مع جماعته إلى قبرص.

الهوامش

(١) Ricoldo de Monte Croce.

(٢) كان من أهم ما جمعه في نظره آثار القديس جورج St. Georges, Moralia (راجع Atiya, *Crusades*, p 160 Note 3.

(٣) راجع AOL II Documents 258-63.

(٤) أسماؤها على الترتيب هي Liber contra Nationes, Confutation Judaeorum, Liber contra errores Orientales.

(٥) من سنة ١٣٠٥ م إلى سنة ١٣١٤ م.

(٦) اسم الكتاب *De Modo Saracenos extirpandi*.

(٧) Atiya, *Crusades*, pp. 64-8.

(٨) هو غير بركارد المذكور قبلاً (راجع فوق الفصل الخامس) والمعروف عنه قليل.

(٩) Reifenberg p. 228.

(١٠) Reifenberg pp. 296-300-1 راجع أيضاً Atiya, *Crusades*, notes pp. 106-107.

(١١) Directorium ad Philippum regem Franciae.

(١٢) راجع Atiya, *Crusades*, pp. 95-113.

(١٣) سنة ١٢٠٤.

(١٤) PPT. Introduction.

(١٥) ٢٤ ايلول (سبتمبر).

(١٦) Secreta Fidelium Crucis منشور الجزء الخاص بفلسطين منه في PPT.

(١٧) من الراجح ان مارينو بعث بكتابه كله أو أجزاء منه إلى عدد كبير من أولي الأمر في أوروبة مثل فيليب

السادس (فلوي) ودوق اللورين وملك انكلترا (إدوارد الثاني) وملك قبرص ورئيس الفرسان الهيكليين.

(١٨) يرى مارينو انه إذا قوطعت مصر ثلاث سنوات تجارياً ضعفت وأصبح في وسع قوة أوروبية التغلب عليها. والمتاجر التي يجب أن تقطع عنها هي الأخشاب والعبيد والحديد، راجع Brehier p. 255.

(١٩) لقد استقى هايد الكثير من معلوماته عن مارينو، راجع كتابه، المجلد الثاني.

(٢٠) راجع Roechricht, ZDPV, XXI (1898) pp. 84-128. وقد لاحظ كوندر في مقدمته لترجمة الجزء الخاص بفلسطين من كتاب مارينو (PPT, Intr, p. IX) الأخطاء التالية التي ارتكبها مارينو في رسم خرائطه: (أ) خلط بين خليج العقبة وخليج العجم، (ب) جعل دجلة والفرات يصبان في البحر عند دير القديسة كاترينا في صحراء سينا. لكنه يعترف بأن أسماء الأماكن الساحلية في سورية وآسية الصغرى صحيحة.

(٢١) حتى انه نقل بعض أخطائهما (راجع Bliss p.113).

(٢٢) يروي ستيوارت ان مارينو لم يعرف الشاطىء المصري معرفة وافية. ويرى كوندر أن عكاء هي المدينة الوحيدة التي عرفها في فلسطين، وانه نقل طبوغرافيتها عن وليم ويعقوب (راجع PPT. Introduction pp. VI, IX). ومن المؤسف ان كتابات مارينو ليس لها المسحة الشخصية التي نلمسها عند كثيرين من معاصريه حتى إن وصفه لعكاء لا يدل على أنه زارها، بل إنه يصف كمن سمع خبرها، مع أنه أقام فيها مدة.

(٢٣) Bliss p. 144.

(٢٤) لهذا الرجل أسماء كثيرة عرف بها هي: Boldensleeve, Baldesel, Boldensel.

(٢٥) اسمه Hodoeoricon. ويرجح أن وليم كتبه بإشارة من الكردينال ايلي (Elie) الذي كان البابا بندكتوس الثاني عشر قد عهد إليه في الدعوة إلى حملة صليبية، فأراد أن يكون بين يديه دليل بعينه على تعرف الأماكن الهامة. والكتاب منشورة له ترجمة انكليزية في مجموعة PPTS.

(٢٦) John Mandeville.

(٢٧) في سنت البانز (St. Albans).

(٢٨) *Early Travels*, p. 129.

(٢٩) نفس المكان.

(٣٠) Jean Outremeuse أو Jean Bourgongne. راجع أيضاً Travels, p. 160 و. *Ency. Bri.* art., Mandeville.

(٣١) Atiya, Crusades, p. 162.

(٣٢) الظاهر ان أخبار الهند وما إليها أخذها عن اودوريك ثم حشاها بالقصص المختلفة (راجع EB, art Mandeville ورحلات اودوريك في طبعة Everyman's).

(٣٣) *Travels*, p. 160. ويرى الاستاذ نيوتن انه أخذ عن هذين بوساطة فنسنت بوفيه Vincent Beauvé.

(٣٤) *Early Travels*, pp. XXVI, 146.

(٣٥) ثمة شبهة في ذلك. وثمة من يرى ان يوحنا زار مصر في زمن الملك المظفر ١٣٤٦ ـ ١٣٤٧ م (راجع EB, art Mandeville).

(٣٦) *Early Travels*, p. 128-9.

(٣٧) *Early Travels*, pp. 137-198.

(٣٨) نفس المكان ص ١٣٧ ـ ١٣٤.

(٣٩) نفس المكان ص ١٥٥.

(٤٠) *Early Travels*, p. 141.

(٤١) نفس المكان ص ١٩٤ ـ ٢٠٠.

(٤٢) نفس المكان ص ١٤٤.

(٤٣) Giacomo di Verona.

(٤٤) لعل هذه الطريق لم تكن معروفة للغربيين لمدة طويلة قبله (راجع Atiya, Crusades, p. 166)، لاحظ أن تتمار سافر إلى مصر بطريق شرق الأردن.

(٤٥) Liber Peregrinationis.

(٤٦) Ludulf Von Suchem (Sudheim).

(٤٧) Description of the Holy Land and the Way Thither هو منشور في PPT. Vol. VI.

(٤٨) Paderborn.

(٤٩) يرى ستيورات ان فون سوخم قد اوفد إلى الشرق في مهمة سياسية، راجع PPT, Introduction p. IV.

(٥٠) De Itinere Terre Sancte.

(٥١) والطرق البحرية تنتهي في مصر أو سورية بواحدة من الموانىء التالية: الاسكندرية وطرابلس وبيروت وجبيل ويافا وصيدا وصور وعكاء (PPT, p 45). ولعل سوخم رتبها بحسب أهميتها.

(٥٢) *De Liter Locurum Terre Sancta*.

(٥٣) *Descriptio Geographica et Ethnoca*.

(٥٤) يعتبر روبنصن رحلة فون سوخم خير الرحلات التي وصلتنا من القرن الرابع عشر «راجع Robinson, Palestine I, XXIII. PPT Intro p. VIII.

(٥٥) اعتمد بيترو دي بينا Pietro di Penna على فون سوخم لما ألف كتابه *Libellus de Locis Ultramarinis* وراجع Atiya, *Crusades*, p. 172.

(٥٦) راجع Adler: Introduction, pp. XVIII-XIX.

(٥٧) للتفاصيل راجع Adler pp. 130-150.

(٥٨) Leonardo di Nocolo Frescobaldi راجع Heyd, Vol. II تحت اسم فرسكو بالدي في الفهرست.

(٥٩) هذه أول مرة وصلنا خبرها تبحر فيها الجماعة إلى مصر قبل فلسطين، وكانت العادة عكس ذلك.

(٦٠) Thoms Swynburne.

(٦١) *Itinerarium in Terram Sanctam* راجع AOL, II, Doc, 380-81.

(٦٢) نفس المكان.

(٦٣) Ogier VIII d'Anglure.

٨ ـ الرحالون في القرن الخامس عشر

في سنة ١٣٩٦ م انكسرت جيوش أوروبة النصرانية في نيكوبوليس، وهي الحملة التي أعدتها أوروبة لدفع خطر العثمانيين عنها، ولاسترداد الشرق العربي. وكان أثر هذا الانكسار العسكري كبيراً. فقام عقيب ذلك عدد من الكتّاب يدعون من جديد إلى حملة كبيرة واسعة النطاق. ومن هؤلاء ثلاثة نشملهم في بحثنا عن الرحّالين لأنهم ساحوا في الشرق العربي وتركوا لنا صوراً عن نواحي الحياة السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن دراسة الخطط التي وضعوها للحملة على البلاد. وهؤلاء هم غلبرت لانوي وبرتراندون دي لا بروكييه وعمانوئيل بيلوتي[١].

ولد لانوي في سنة ١٣٨٦ م في أسرة نبيلة. وفي سنة ١٠٤١ م قام سيده[٢] بالحج إلى الأراضي المقدسة واصطحبه معه. أبحرت الجماعة من جنوة إلى فلسطين وزارت دير القديسة كاترينا في سيناء والقاهرة ورودس وقبرص وتركية وبزنطية، وعاد الحجاج إلى أوروبة بعد غياب سنتين.

لكن هذه الزيارة الأولى لم تكف لانوي وظلّ يتحين الفرص للسفر إلى الشرق. وقد أتيحت له الفرصة سنة ١٤٢٠ م لما عهد إليه ملكا انكلترا وفرنسة بالسفر إلى الشرق لدراسة أحواله وتقديم تقرير سياسي مفصل عنه. فسار في السنة التالية إلى كافا في شبه جزيرة القرم ومنها أبحر إلى القسطنطينية فرودس فكنديا (في كريت) فالاسكندرية. ثم سار إلى رشيد ومنها ركب النيل إلى القاهرة. واتخذ هذه مقراً له زار منها سيناء أولاً ثم ديري القديسين انطونيوس وبولس في الصحراء الغربية. ثم أبحر في النيل إلى دمياط ومنها بحراً إلى فلسطين. وبعد زيارة الأراضي المقدسة عاد إلى البندقية بطريق رودس.

وقد روى أنباء سفرته في الجزء الأول من كتابه المسمى «أسفار وسفارات»[٣]. وأما الجزء الثاني فقد خصصه لتعداد الأماكن المقدسة وآثار القديسين وما يدور حولها من قصص وأساطير[٤]. لكن الجزء الثالث من كتابه هو أهم أجزائه، إذ أفرده للحديث عن مصر وسورية[٥]. وعرض فيه لقوة المماليك السياسية والعسكرية ووصف المدن وأسوارها والقلاع والحصون والطرق. فالاسكندرية، وهي أول مدينة ذكرها، يعطينا عنها صورة مفصلة للأسوار والبيوت والميناءين والأبراج والحصون والشوارع والسكان والفنادق والتجار الأوروبيين. ومثلها القاهرة وقلعتها. هذا مع العناية بالطريق

النيلي من رشيد إلى القاهرة. ثم يتناول لانوي الدولة المصرية المملوكية فيحدِّثنا عن قوة السلطان وتركيز السلطة في يده وكيفية وصوله إلى العرش وما يصاحب قتل السلطان أو اغتياله من اضطراب، وعن الجند وسبيل تجنيدهم وأصلهم ومواكبهم في الحرب والسلم، وعلاقتهم بسكان مصر الذين لا يدخلون الجيش، ولكنهم يعملون في الأرض. ويهتم لانوي بأسلحة الجيش وعدَّته وخيوله. ولا يغفل النيل وفيضانه وأثره في زراعة مصر ومصادر ثروة المماليك التجارية.

ثم ينقلنا لانوي إلى سورية ويطلعنا على مدنها الساحلية: يافا وعكاء وصور وبيروت، ويعطينا وصفاً مفصلاً للقدس، ولكنه يقتصد في وصفه دمشق. وفي كل هذا ينتبه لانوي لمواطن القوة والضعف في هذه المدن، لأنه ينظر إليها من الناحية الحربية، ليرى امكان فتحها[٦].

ودي لابروكييه[٧] جاء الشرق لأن فيليب الطيب دوق برغندي أوفده في مهمة سياسية. وقد أظهر لنا بروكييه نفسه الغرض من كتابه في المقدمة بقوله: «انه كتبه ليجذب قلوب الناس الراغبين في رؤية العالم وليرضي سيده دوق برغندي وليقدم المعلومات اللازمة عن البلاد الواقعة وراء البحار لمن تحدثه نفسه من ملوك النصرانية وأمرائها بفتح القدس».

أبحر بروكييه في ٨ أيار (مايو) ١٤٣٣ م من البندقية إلى يافا ومنها اتجه إلى القدس بطريق الرملة. وبعد زيارتها وما حولها ذهب إلى سيناء وعاد دون أن يزور مصر[٨] ولكنه تنقل في سورية مفتح الأذن والعين فوصف مدنها وصفاً مسهباً: يافا وعكاء وصور وبيروت ودمشق وحلب. ونالت الطرق التي تصل المدن السورية بعضها ببعض من عنايته ما نالته المدن نفسها. ولفتت نظره ثروة دمشق وتجارتها وتجارها الأجانب من الفرنسيين[٩] والجنويين[١٠].

ويغادر بروكييه سورية إلى أرمينية ويجتاز آسية الصغرى إلى بروصة حيث يقضي عشرة أيام في ضيافة تاجر جنوي أنزله في فندق فلورنسي. وهذا يتيح له فرصة لزيارة المدينة زيارة وافية فيطلع على الكثير من شؤونها التجارية التي منها بيع الحرير والجواهر واللؤلؤ والرقيق. ثم يجتاز البوسفور عائداً إلى بلاده بعد أن يقضي ردحاً من الزمن في القسطنطينية وفي أقطار جنوب شرقي أوروبة فيصل فرنسة سنة ١٤٣٩ م.

ويختتم بروكييه كتابه بالحديث عن قوة الأتراك العسكرية وخططهم الحربية وسلاحهم وعدتهم ويعرض لحملة نيكوبوليس ويحلل أسباب فشلها.

والنتيجة التي نصل إليها هي أن بروكييه لم يشجع على حملة ضد الأتراك، هذا إذا لم نقل إنه نهى عنها. لكن ذلك لم يعجب فيليب الذي ثابر على تأليب البلاطين الفرنسي والانكليزي ضد الأتراك.

ويعنى بروكييه بذكر ما يعرض له مفصلاً، ولذلك نحصل منه على وصف

للمجتمع الشرقي في أوائل القرن الخامس عشر. فهو يحدثنا عن نزوله في ميناء يافا[١١] ومرضه في طريقه إلى سيناء[١٢] وسجنه في دمشق[١٣] وعودة قافلة الحج من الحجاز إلى دمشق[١٤] وشرائه للثياب العربية استعداداً لمرافقته لهذه القافلة إلى شمال سورية[١٥] ويذكر المِمْطَر من اللباد الذي ابتاعه في حماة[١٦].

أما ثالث الدعاة بيلوتي[١٧] فقد كان كريتي الأصل لكنه قضى في الشرق نحواً من خمس وثلاثين سنة كان في أولها قنصلاً تجاريًا لجنوة في الاسكندرية ثم التحق بخدمة البنادقة. ولما انتصر الأتراك في معركة نيكوبوليس أرسل الملك العثماني مئتين من أسرى الأوروبيين هدية إلى السلطان المصري (سيف الدين برقوق)[١٨] وقد رآهم بيلوتي وتحدَّث إليهم فأحزنه ذلك وأحفظه على الأتراك. لذلك لما رأى الفرصة المناسبة تقدم بكتابه[١٩] ليرشد رؤوس أوروبة إلى الطريقة العملية التي يتمكنون بها من الثأر لنيكوبوليس واسترداد الأرض المقدسة وبقية الشرق.

يعالج بيلوتي الشروط والصفات الواجب اجتماعها في قائد الحملة الصليبية، ثم يشير بوجوب توجيه الحملة ضد مصر لا ضد فلسطين أولاً، ليتسنى للمحاربين احتلال الاسكندرية ثم القاهرة، ومن ثمَّ القضاء على الرأس. لذلك يصف بيلوتي الطريق من الاسكندرية إلى القاهرة بإسهاب. ولعله أراد أن يبعث الطمأنينة إلى نفوس الأوروبيين فأشار إلى أمرين يجعلان احتلال مصر ميسوراً. الأول: حكومة السلطان السيئة. والثاني: ما قد يقوم بين الأمراء من الخصومات والمذابح. وذكر بيلوتي جند مصر وقدَّره بأنه سبعة أو ثمانية آلاف فارس من المماليك يملكون نحو عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفاً من الابل والبغال للحمل ونحو ألفين من الخيل. وأضاف إلى ذلك حرس السلطان لكنه لم يذكر عددهم.

وبيلوتي يرى أنه من الضروري أن يلاطف الأوروبيون أهل الشرق متى احتلوا بلادهم لأنه اعتقد أن ذلك يحملهم على اعتناق النصرانية!

ومع أن الكتاب الذي بين أيدينا كتاب دعاية عسكرية، فإن فيه من المعلومات الاقتصادية ما يجعله جليل النفع للباحث في التاريخ الاقتصادي في تلك العصور. فهو من هذه الناحية تتمة لما كتبه مارينو سنودو[٢٠].

ونحن واجدون بالإضافة إلى هؤلاء السياح السياسيين والدعاة، جماعة من الرحَّالين والحجاج الذين قاموا بزيارة الشرق عامة وفلسطين خاصة بقصد الحج. ومن هؤلاء يوحنا بولونر، وبيرو تفور، ووليم واي، وفيلكس فابري، وفون بريتنباخ[٢١].

كان يوحنا بولونر المانيّاً على ما يرى طوبلر وبولونيّاً على رأي الكونت ريان. زار سورية ١٤٢١ ـ ١٤٢٢ م، ويلاحظ ستيوارت[٢٢] ان الأماكن التي رآها بولونر تتفق مع الأماكن التي زارها فابري بعده بأكثر من نصف قرن. ولعل بولونر أول سائح رسم خارطة للأراضي المقدسة قسم فيها البلاد إلى مربعات كثيرة العدد[٢٣].

لم يصف بولونر كنيسة القيامة بالقدس مع أنه عني بالكنائس، ولذلك يعتقد بعض الباحثين أن جزءاً مما كتبه قد فقد[٢٤]. وعلى كل فليس في الكتاب معلومات جغرافية أو اجتماعية تزيد معرفتنا بالبلاد في ذلك الوقت. أما الكنائس وأماكن الزيارة فمشروحة مرتبة، ولذلك فإن المؤرخ الذي يعنى بهذه الناحية يجد عند بولونر بعض حاجته.

وبيرو تفور اسباني، ولد في قرطبة حول سنة ١٤١٠ م. والراجح أنه زار الشرق بين ١٤٣٥ و١٤٣٩ م. وكان إبحاره إلى فلسطين من البندقية ونزل في يافا. ويحدثنا تفور أنه زار الأماكن المقدسة عند النصارى في القدس ويصفها، لكنه بالإضافة إلى ذلك تمكن من الدخول إلى المسجد الأقصى متخفياً. ويعود إلى يافا ويبحر إلى بيروت[٢٥] ثم إلى قبرص فدمياط[٢٦] ومنها إلى القاهرة في النيل. ويقيم شهراً في العاصمة المصرية فيرى ما فيها، ويترك لنا وصفاً للحياة اليومية في مصر. ويمنحه السلطان[٢٧] اذناً في زيارة سيناء ويصحبه أحد أعوانه مع ثلاثة من الإبل تحمل حاجياته. ويروي تفور أنه أثناء إقامته في دير القديسة كاترينا وصل إلى الدير نيكولو دي كونتي[٢٨] البندقي عائداً من الشرق الأقصى ومعه متاجر من جميع الأصناف من التوابل واللآلىء والأحجار الكريمة والذهب والعطور والأقمشة والببغاوات والقطط من الهند... وقد كانت الأحمال كثيرة حتى إن تفور أبى أن يذكر عدد الإبل حتى لا يتهم بالمبالغة. وتدور بين الاثنين أحاديث يظهر منها تفور رغبته في زيارة الشرق الأقصى لكن نيكولو يقنعه بالعدول عن ذلك. ويرجع الاثنان معاً إلى القاهرة ثم يبدأ تفور سفرة طويلة عائداً إلى إيطالية، فيمر بالاسكندرية ودمياط وقبرص ورودس والقسطنطينية وادرنة وطرابزون وكافا والبندقية. وقد زار تفور في أدرنة بلاط السلطان العثماني مراد الثاني ١٤٢١ ـ ١٤٥١ م ووصف جيش السلطان وعرض للأتراك فوفاهم حقهم إذ وصفهم بالشجاعة والأمانة والإحسان.

أما وليم واي فانكليزي[٢٩] تخرّج في اللاهوت وعمل في اكسفورد[٣٠]. وفي سنة ١٤٥٧ م سمح له ملك انكلترا بالحج، فقام بزيارة القدس لأول مرة في السنة التالية، وفي سنة ١٤٦٢ م زراها للمرة الثانية.

وليس فيما تركه واي من جديد إذا نحن نظرنا في الناحية الجغرافية والسياسية، لكننا عندما نتقصى جهات الحياة العامة نرى أن واي جاءنا بالجيد عن أمور ثلاثة: أولها، أنه ذكر أنواع النقد المستعمل في البلاد التي زارها وعلاقتها بعضها ببعض[٣١]. وثانيها، أنه أعطانا أسعار المآكل[٣٢]. وثالثها، أنه ذكر المسافات بين مدن أوروبة الرئيسة[٣٣]. وقد اضطرَّ واي إلى الاكتفاء بزيارة القدس. فلم يزر وادي الأردن وامتنع عن الذهاب إلى مصر أو بقية سورية بسبب ما كان عليه المماليك من خصومة وحروب فيما بينهم وبسبب هجوم الاعراب من الشرق[٣٤].

ترك واي أخبار رحلته إلى الأرض المقدسة[٣٥] في كتاب اسمه Itineraries of William Wey ذكر فيه الأماكن المقدسة بشعر انكليزي ثم ذكرها منظومة شعراً لاتينيًا. وغادر واي البندقية في المرة الأولى في ١٨ أيار (مايو) فوصل يافا في ١٨ حزيران (يونيو) وقضى في القدس المدة الواقعة بين ٢٤ حزيران و٢ تموز (يوليو). وكانت سفرته الثانية أطول مدة بين البندقية ويافا، ولكنها كانت في الصيف أيضاً. وفي هذا الجزء من كتابه يذكر واي الأماكن التي يمر عليها ذكراً عاديًا لا معلومات فيه ولا صور للحياة.

ويتبع هذا الفصل بمجموعة من الكلمات اليونانية[٣٦] يذكرها لمصلحة المسافرين.

ويعرض واي لمسائل شغلته كثيراً في رحلته الثانية[٣٧] منها انقطاع النور المقدس وغير ذلك، لكنه لا يترك القدس إلاّ وقد حلها حلاً يرضي نزعاته الروحية، فيغادر المدينة قرير العين.

ويذكر الكاتب أسماء عدد من المدن والقرى في فلسطين والمسافات بينها[٣٨].

ورسم واي خارطة لفلسطين تمتد من دمشق إلى بئر السبع ومن صيدا إلى غزة وضع فيها أسماء مدن ثم صوَّر فيها المباني الكبيرة بالألوان وأضاف صوراً لبعض الشخصيات التي لها بها علاقة تاريخية، ولبعض الحوادث المرتبطة بحوادث العهد الجديد. ففي كفركنا مثلاً رسم الأجران[٣٩].

لكن الرحالة الذي ترك لنا أخباراً عن الشرق العربي في القرن الخامس عشر من درجة تستحق العناية والتقدير، هو فيلكس فابري، راهب بألم بألمانية[٤٠]. زار فابري الشرق مرتين سنة ١٤٨٠ و١٤٨٣ م، وبعد عودته من الزيارة الثانية استقرَّ في ديره في أُلم وكتب أخبار أسفاره[٤١] ورحلاته بأمانة الراهب العالم، وتفصيل الرحالة القوي الملاحظة، ودقة الحريص على كل شاردة وواردة. ونقل أخبار ما لم ير من البلاد من مصادر وثق بها ورحالين سابقين، مثل فون سوخم وبركارد. ومن ثمَّ فإن الصورة التي يعطينا إياها عن الأرض المقدسة في آخر القرن الخامس عشر تكاد تكون كاملة.

بدأ فابري وصحبه الرحلة من البندقية ونزلوا في يافا. وكانت سفرتهم مليئة بالأنباء المروعة عن تقدم أسطول محمد الثاني الفاتح في شرق البحر الأبيض المتوسط إلى رودس وما جاورها من الجزر مما أرعب المسافرين لكنه لم يحملهم على العودة. وفي هذه المرة اكتفى فابري برؤية الأرض المقدسة سنة ١٤٨٠ م.

أما في سفرته الثانية سنة ١٤٨٣ ـ ١٤٨٤ م فتنقل فابري في مصر وسورية. يبدأ أخباره بذكر ما يجب أن يكون عليه الحاج من المظهر اللائق به من حيث الثياب واللحية. وينقل لنا الاتفاقية التي عقدها الحجاج مع ربان السفينة البندقي، ثم يكتب مذكرات يومية عن كل ما يرى ويفعل، من أول الرحلة إلى آخرها. فهو يصوّر أخطار

البحر والحياة في السفينة وعلاقة الركاب بعضهم ببعض وأسباب التسلية وغير ذلك. فإذا وصل يافا صوَّر لنا نزول القوم إلى البر. وفي فلسطين يحتل كل من الأماكن المقدسة مكانه في مذكرات فابري خصوصاً ما كان في القدس أو حولها.

وبعد أن يورد فابري خلاصة لتاريخ القدس[٤٢] يذكر الشعوب التي تقطن الأراضي ومذاهبها[٤٣]. وأقواله عن الإسلام أقرب إلى الصواب من أقوال كثيرين ممن سبقه. ولفابري ملاحظات نفيسة عن المماليك وحكمهم وعلاقتهم بالشعب.

وبعد الفراغ من التنقل في الأرض المقدسة انتقل فابري وصحبه إلى دير سيناء ثم إلى القاهرة «أكبر مدينة في الدنيا»، ومنها إلى الاسكندرية بالنيل. وكانت هذه آخر مدينة شرقية زارها فابري، فقد عاد منها إلى أوروبة.

ونرى أنه من الواجب علينا أن نشير إلى أن فابري كان لا يؤمن بإعداد حملة لاسترداد الأرض المقدس. «لا يعنى النصارى (في الغرب) اليوم بحكم المسلمين في القدس إلاَّ قليلاً. وكل ما يهمنا هو أن يسمح لنا بحرية الوصول إلى كنيسة القبر المقدس، دون أن نخشى شيئاً أو نزعج أو نحمل على دفع المال الكثير». ويلاحظ الدكتور عطية أن هذه الفكرة كانت سائدة يومها في أوروبة، وأنها تبين اتجاهاً جديداً في الخصومة الطويلة بين الشرق والغرب[٤٤].

وثمة رحالان آخران زارا الشرق العربي في أواخر القرن الخامس عشر هما ميشولم بن مناحم وعوبديا جاريه[٤٥].

زار ميشولم الشرق العربي في سنة ١٤٨١ م. وصل الاسكندرية من رودس يوم الأربعاء في ٦ حزيران (يونيو) وغادر بيروت إلى إيطالية في ٩ أيلول (سبتمبر)، فيكون قد قضى فصل الصيف بكامله متنقلاً بين الاسكندرية والقاهرة وغزة والخليل والقدس ويافا وبيروت ودمشق. وميشولم دقيق الملاحظة شديد العناية بالتعرف إلى الأشخاص والأماكن، يصف ثياب الناس وأكلهم وعاداتهم وعقائدهم ومدنهم وأسوارها وأسواقها وشوارعها. وتمتاز أخباره بالصبغة الشخصية التي تكسو حركاته وتنقلاته. فهو يصف حفلات القاهرة وكيف تجنب الشرب فيها[٤٦]. ويوضح كيف وصلت إليه المعلومات عن عدد سكان مصر القديمة[٤٧]. ويلفت نظر بني قومه إلى الفائدة التي تعود عليهم من التزيي بزي تجار المسلمين مع القوافل الكبيرة[٤٨]. ويقص علينا أخبار المؤامرة التي دبرت ضده وضدّ رفيقه بين الخليل والقدس[٤٩]. ويحدثنا عن الآلام التي كانت تنتابه والأوجاع التي أحسَّ بها[٥٠]. ويروي كيف تخفى بزي تجار الافرنج حتى يسمح له بالسفر في السفينة بين يافا وبيروت، وكيف صانع الأشراف الالمان والفرنسيين فيها[٥١].

وقد أشار عوبديا إلى ميشولم بقوله عنه انه تاجر[٥٢]. ولعلَّ هذه الإشارة ترجع إلى رحلة ثانية لميشولم[٥٣].

جاء عوبديا إلى القدس سنة ١٤٨٧ م واستقرَّ بها إلى وفاته سنة ١٥٠٠ م. كتب الرسالة الأولى إلى أبيه ووصف فيها سفره من ايطالية (أبحر من نابولي) إلى الاسكندرية بطريق جزر الأرخبيل اليوناني، كما وصف الاسكندرية والقاهرة والحياة اليومية فيهما. ثم انتقل إلى القدس بطريق الصالحية والعريش وغزة والخليل وبيت لحم وتحدث عن اليهود في الأماكن المختلفة وبيت المقدس بشكل خاص وعن الضرائب وغير ذلك. وكان تاريخ الرسالة الأولى ٨ أيلول (سبتمبر) ١٤٨٨ م. ثم كتب رسالتين أخريين واحدة إلى أخيه وأخرى إلى تاجر عظيم اسمه عمانوئيل شاي[٥٤]، كان عوبديا قد أودع عنده أمواله ليتاجر له بها ويبعث إليه بأرباحها. ورسالة عوبديا إلى أخيه طريفة من حيث إنه يخبره فيها أنه تلقى مئة دوكة[٥٥] من عمانوئيل، دفع منها عشراً للسفينة التي استقلها من ايطالية إلى القدس وعاش هو بالتسعين الباقية مقتنعاً. ومعنى هذا أن عوبديا كان يعيش على حوالى سبعة عشر جنيهاً في السنة.

الهوامش

(١) Ghilbert Lannoy, Bertrandon de la Brocquiere, Emanuelle Piloti.

(٢) Jean de Warchin.

(٣) *Voyages et Embassades* راجع ص ١ـ ٤٨، ١١٩ ـ ١٢٩.

(٤) نفس المكان ص ٤٨ ـ ٦٩.

(٥) نفس المكان ص ٦٩ ـ ١١٨.

(٦) عاد لانوي سنة ١٤٢٣ إلى اوروبة وذهب إلى إنكلترا ليقدم تقريره لملكها هنري السادس (١٤٢٢ ـ ١٤٦١ م).

(٧) أخبار دي لابروكييه منشورة في *Early Travels*, pp. 283-383.

(٨) يرى الدكتور عطية أن لا روكييه عهد إليه في زيارة الشرق العربي دون مصر «راجع Atiya, *Crusades*, p. 198» ونحن نوافقه، خصوصاً متى لاحظنا الدقة التي وصف بها لانوي مصر. ولانوي اعتمده فيليب الطيب أيضاً. فلعل الرحّالين اقتسما الشرق العربي فيما بينهما.

(٩) مثل جاك كور.

(١٠) مثل جنتيل الذي كان في طريقه إلى كافا لابتياع رقيق للسلطان راجع *Early Travels*, p. 293.

(١١) *Early Travels*, p. 276.

(١٢) نفس المكان ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(١٣) *Early Travels*, p.307 وقد أنقذه تدخل قنصل البندقية مع حاكم دمشق.

(١٤) نفس المكان ص ٣٠١ ـ ٢.

(١٥) نفس المكان ص ٢٩٩ ـ ٣٠٥.

(١٦) نفس المكان ص ٣١١.

(١٧) نشر كتابه سنة ١٤٤٠.

(١٨) حكم برقوق من سنة ٧٨٤ ـ ٨٠١ هـ ـ ١٣٨٢ ـ ١٣٩٨.

(١٩) *De Modo, Progressu, ordine ac diligenti providentia habendis in passagio christianorum pro conquesta terrae Sanctae*.

(٢٠) Atiya, *Crusades*, p. 211.

(٢١) John Poloner, Pero Tafur, William Wey, Felix Fabri, Von Braitenbach.
(٢٢) PPT, Introduction p. IV.
(٢٣) كان في الخارطة ٨٣ خطاً عرضياً و٢٨ خطاً طولياً.
(٢٤) PPT, Introduction p.V.
(٢٥) كان ينوي الذهاب إلى دير القديسة كاترينا في سيناء، لكنه تأخر عن القافلة فذهب إلى بيروت.
(٢٦) استطاع وهو مقيم في نيقوسيا «قبرص» أن يحصل من السلطان على الأذن في زيارة مصر.
(٢٧) هو الأشرف سيف الدين برسباي.
(٢٨) Nicolo de Conti.
(٢٩) يرجح انه من ديفونشير.
(٣٠) في كلية اكستر أولاً ثم في كلية ايتون لما انشأها هنري السادس ١١ تشرين (اكتوبر) سنة ١٤٤٢ م.
(٣١) Itineraries, pp. 1-3.
(٣٢) Iti. p.p. 4-6.
(٣٣) Itinerarie pp. 79-81. راجع أيضاً المقدمة ص ٢٠ ـ ٢٥.
(٣٤) يروي واي أن هذا الهجوم كان قوياً حتى إن أهل اريحا أنفسهم هاجروا إلى القدس.
(٣٥) لم يذكر الكاتب رحلة ثالثة إلى فلسطين. والرحلة الثالثة المدونة أخبارها في كتابه هي رحلة إلى يوحنا دي كومبستلو في اسبانية.
(٣٦) It., pp. 102-116, 140-2.
(٣٧) نفس المكان ص ١٢٦ وما بعدها.
(٣٨) نفس المكان ص ١٣٢ ـ ١٤٠.
(٣٩) It, Introduction p. XV.
(٤٠) Ulm.
(٤١) منشورة في ترجمتها الانكليزية في PPT, Vol. VII-X.
(٤٢) استقاها ممن سبقه من الكتّاب من يوسيفوس إلى فون سوخم (راجع Vo. IX, pp. 262-84).
(٤٣) PPT Vol. X. pp 384-94.
(٤٤) تعمدنا اغفال بريتنباخ في هذه المناسبة لأن خير ما تركه هو صورة خارطة لفلسطين، ومن ثم فهو حري بأن يكون موضوع عناية الباحث في تطور خارطة فلسطين. راجع بحثاً عنه في ZDVP, Vol XXIV (1901) PP. 129-136.
(٤٥) Obadia Jaré, Meshullam b. R. Menahem.
(٤٦) Adler p. 169.
(٤٧) نفس المكان ص ١٦٦ ـ ٧.
(٤٨) نفس المكان ١٧٧ ـ ٨.
(٤٩) ص ١٨٧ ـ ٨.
(٥٠) ص ١٩٦ و١٩٧.
(٥١) Adler ص ١٩٧ ـ ٨.
(٥٢) نفس المكان ص ٢١٥.
(٥٣) نفس المكان ص ٢١٣ تعليقة «٢».
(٥٤) Adler p. 249 note 14.
(٥٥) هذا التقدير مبني على أساس أن الدوكات كانت فضية لأن عوبديا يستعملها في مناسبات مختلفة. والدوكة الفضة تساوي نحو ١٩٠ ملا (١٩٠ فلساً أو ١٩٠ مليماً) بعملة ما قبل الحرب العالمية الثانية.

القسم الثاني

صور للحياة في الشرق العربي

مقتبسة من رحالي العصور الوسطى

١ ـ الشرق العربي عند المقدسي وناصري خسرو

المقدسي

[**الشام**] : والتجارات به مفيدة، يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط ـ ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوري والتفاح وقضم قريش الذي لا نظير له والمرايا وقدور القناديل والأبر ـ ومن اريحا نيل غاية ـ ومن صغر[١] [زغر] وبيسان النيل والتمور ـ ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل ـ ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد وبز ـ ومن قدس ثياب المنيرة والبلعيسية والحبال ـ ومن صور السكر[٢] والخرز والزجاج المخروط والمعمولات ـ ومن موآب قلوب اللوز ـ ومن بيسان الرز ـ ومن دمشق المعصور والبلعيسي وديباج ودهن بنفسج دون الصفريات والكاغد والجوز والقطين والزبيب ـ ومن حلب القطن والثياب والاشنان والمغرة ـ ومن بعلبك الملابن. ولا نظير لقطين وزيت الانفاق، وحواري وميازر الرملة، ولا لمعنقة وقضم قريش وعينوني ودوري وترياق وترذوغ وسبح بيت المقدس (المقدسي ١٨٠ ـ ١٨١).

[**اليمن**] عدن بلد جليل عامر آهل حصين خفيف، دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات، كثير القصور مبارك على من دخله مثرٍ لمن سكنه مساجد حسان ومعايش واسعة (المقدسي ٨٥).

ولما ركبت بحر اليمن اتفق اجتماعي مع أبي علي الحافظ المروزي في الجلبة، فلما تأكدت المعرفة بيننا قال لي قد شغلت والله قلبي قلت بماذا قال أراك رجلاً على طريق حسنة تحب الخير وأهله وترغب في جمع العلوم وقد قصدت بلاداً قد غرّت كثيراً من الناس وصدَّتهم عن طريق الورع والقناعة وأخشى إن أنت دخلت عدن فسمعت أن رجلاً ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار وآخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة... طلبت نفسك التكاثر، قلت أرجو أن يعصم الله... فلما دخلتها وسمعت أكثر مما قال غرني والله ما غرّ القوم وعملت على الذهاب إلى ناحية الزنج وآتيت ما ينبغي أن يشترى وتقدمت فيه إلى الوكلاء فبرّد الله عزَّ اسمه ذلك على قلبي بموت شريك كنت عاقدته وكسرت نفسي بذكر الموت وما بعده (المقدسي ٩٧).

وأكثر ما يوقدون مصابيحهم بالصيفة وهو دهن السمك يحمل من مهرة ونورتهم سوداء مثل الماخالقة. وباليمن يلزقون الدروج ويبطنون الدفاتر بالنشا (المقدسي ١٠٠).

[**المكوس**] والضرائب والمكوس يؤخذ بجدة من كل حمل حنطة نصف دينار وكيل من فرد الزاملة وعلى سفط ثياب الشطوى ثلاث (كذا) دنانير ومن سفط الدبيقي ديناران وحمل الصوف ديناران (المقدسي ١٠٤).

[**أهل بغداد**] من رسومهم التجمل والتطليس. يكثرون التنعل وتسطيل العمائم ولبس الشروب. أقل ما يقورون الطيالسة. وإذا كان بوقت حمل التمر الحديث إلى واسط نظر أول سفينة تصل فيزين لها ذلك البيع الشط إلى دكانه بالأنماط والستور. وللهراسين مواضع فوق دكاكينهم فيها الحصر والموائد والمري وخدام وطشوت وأباريق واشنان فإذا انحدر الرجل دفع دانقاً.

وإذا كان أول البنفسج داروا به في الأسواق وتجملوا عليه، وعلى أبواب الجامع مياضىء بالكرى (المقدسي ١٢٩).

مصر كما رآها ناصري خسرو

القاهرة مدينة كبيرة... وأقدّر ان بها ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها ملك للخليفة ومنها عدد كبير يؤجر واحدها بمقدار عشرة دنانير مغربية بالشهر وليس فيها ما يؤجر بأقل من دينارين.

وفنادقها وحماماتها وسائر أبنيتها العامة كثيرة بحيث لا يمكن تعدادها وكلها ملك للسلطان... وقد روي لي أن بالقاهرة ومصر (أي الفسطاط) عشرين ألف منزل يملكها الخليفة ويؤجرها مشاهرة... وقصره يتوسط القاهرة.. (ناصري خسرو ١٢٧).

وقد قدر المهندسون سعته بقدر مدينة ميافارقين كلها... وفيه من الحراس ألف رجل... ومن الخدم ١٢٠٠٠... ويؤكد البعض أن سكانه يبلغون ٣٠٠٠٠٠ نسمة (ناصري خسرو ١٢٨).

وماء الشرب يؤخذ من النيل ويحمله السقاؤون على جمال يبلغ عددها اثنين وخمسين ألفاً... ويحمل الرجال القرب حيث يتعذر على الجمال الدخول...

وتفصل المنازل بعضها عن بعض داخل المدينة بساتين وحدائق غناء.

وكان أيام إقامتي بالقاهرة أن أجر المنزل العادي ذي الأربع طبقات بأحد عشر ديناراً بالشهر. والمنزل الذي أقمت فيه ثلاث طبقات منه مأهولة، فطلب مني صاحبه خمسة دنانير مغربية في الشهر أجرة الطابق الرابع (ناصري خسرو ١٣٢).

وتبعد مصر أقل من ميل عن القاهرة، في اتجاه الجنوب والأرض بينهما مغطاة بالحدائق التي يغمرها ماء النيل في الصيف (فصل الفيضان)، عدا حديقة الخليفة فإنها تقع على مكان مرتفع (ناصري خسرو ١٣٦).

[**الفسطاط**]: في مصر (الفسطاط) بيوت من أربعة عشر دوراً وبعضها من سبع طبقات. وقد سمعت عمن يوثق به، أن ثمة رجلاً أنشأ حديقة على سطح بيت ذي سبعة أدوار... وغرس فيها البرتقال الحلو والموز وغيرهما من الأشجار المثمرة والرياحين والزهور... وفي مصر دور كبيرة للتأجير تتسع الواحدة منها لثلثمائة وخمسين شخصاً. وبعض أسواق مصر وشوارعها تضاء فيها المصابيح باستمرار وذلك لأنها مسقوفة فلا يصل إليها نور الشمس (ناصري خسرو ١٤٦).

ينتقل التجار والسماسرة في مصر بين البيت والسوق على حمر ذات سروج جميلة، يرى المرء عدداً كبيراً منها عند مداخل الشوارع والأسواق. وأجرة الحمار قليلة. وفي مصر نحو من خمسين ألف حمار للتأجير. وركوب الخيل مقصور على الجند والأشخاص المنتمين إلى الجيش (ناصري خسرو ١٥٤).

[**ثروة مصر**]: وتصنع في مصر كل أنواع القيشاني فتصنع المزهريات والكؤوس والصحون وغيرها من الأوعية وتزخرف هذه بألوان تشبه تلك التي تلوَّن بها أقمشة الابوقلمون، بحيث تتغير انعكاساتها بتغير المكان الموضوعة فيه المزهرية. وتصنع فيها كؤوس شفافة صافية كأنها الزمرد وتباع بالدرهم (وزناً) بحيث يبلغ ثمن الدرهم الواحد منها، على ما روى لي الثقة، ثلاثة دنانير مغربية (ناصري خسرو ١٥١).

والبيع في مصر بالسعر المحدد، فإذا غشَّ بائع شهّر به على جمل.

والبائع، سواءٌ في ذلك البقال أو العطار أو بائع الخردوات، يعنى بوضوح ما يبيعه في الوعاء المناسب له سواء أكان ذلك كأساً أو آنية أو ورقة، فلا يضطر المشتري إلى تحضير الوعاء.

ويستخرج من بذر الفجل واللفت زيت يسمى الزيت الحار. والسمسم ليس كثيراً في مصر وزيته غالٍ والتجارة بزيت الزيتون مرابحها كبيرة (ناصري خسرو ١٥٣).

رأيت في مصرٍ خاناً اسمه دار الوزير تقوم فيه تجارة القصب. ففي الطبقة السفلى منه الخياطون وفي الطبقة العليا العمال، فسألت الأمين عليه عن أجرته فقال إنها كانت عشرين ألف دينار في السنة لكنها الآن اثنا عشر ألفاً لأن جزءاً منه متهدم. وقد أكد لي العارفون ان بمصر عشرة خانات بعضها مثل هذا وبعضها أكبر منه (ناصري خسرو ١٥٦).

كان ابن سعيد وأخوه من كبار الأغنياء، بحيث إن ثروتهم لا يعلمها إلاّ الله. وقد روي أن ابن سعيد عمل على سطح داره حديقة فيها ثلثمئة أصيص من الفضة، غرس في كل منها شجرة مثمرة (ناصري خسرو ١٦٠).

لست أعرف بلداً آخر يستمتع بالطمأنينة على نحو ما تستمتع به بلاد مصر. رأيت نصرانيًّا من كبار المثرين في مصر، لا يعرف أحد ما له من السفن ولا يحصي

أرزاقه أو أملاكه. دعاه الوزير مرة إليه وسأله عن كمية القمح التي يمكنه بيعها أو هبتها للسكان، لأن المحصول كان رديئاً، وقد أهم الخليفة ما يعانيه شعبه من الفاقة. فأجاب الرجل بأنه عنده من القمح ما يكفي مدينة مصر ست سنوات. (وعدد سكان مصر كان عندها خمسة أضعاف سكان نيسابور). ومع ذلك فلم يخش الرجل على ثروته ولم يخف مصادرتها لأنه مطمئن إلى عدل الخليفة ووزيره (ناصري خسرو ١٥٥).

[**الجوامع**]: تقام صلاة الجمعة في القاهرة في أربعة جوامع. الأول: الجامع الأزهر، والثاني: جامع النور، والثالث: جامع الحاكم، والرابع: جامع المعز (ناصري خسرو ١٣٤).

وتنفتح أبواب الجامع (جامع عمر) على الأسواق... وفي ساحة الجامع يجلس الأساتذة والمقرئون باستمرار[٣]. هنا مجتمع أهل المدينة الكبيرة، وقلما يرى فيها أقل من خمسة آلاف رجل بين طالب علم وغريب وكاتب عام يقوم بكتابة رسائل الصرافين والعقود وغيرها... (ناصري خسرو ١٤٨).

ويعقد قاضي القضاة مجلس القضاء في هذا الجامع... وإلى جهة الشمال من المسجد يوجد سوق القناديل التي ليس لها مثيل معروف في قطر آخر. فيها يجد المرء التحف النادرة والثمينة التي تحمل إليها من أصقاع العالم كله. رأيت فيها صناديق وأمشاطاً وأيدي للسكاكين مصنوعة من الصدف ولاحظت أشياء فنية مصنوعة من الصخر البلوري، ويؤتى بمادته الآن من بحر القلزم وكانت قبل من واردات المغرب. وما يأتي منه من القلزم أنقى وأصفى. وثمة العاج الآتي من زنجبار ويبلغ وزن الناب الواحد ما يزيد عن مئتي مَنّ. ويحمل من الحبشة جلد حيوان يشبه جلد الفهد تصنع منه زخارف للأردية، كما تحمل الطيور الأليفة الجميلة التي يتزين بريشها (ناصري خسرو ١٤٨). (وصف مدينة القاهرة في سفرنامة، الترجمة العربية، ص ٨٦ ـ ١٠٦).

[**موكب جبر الخليج**]: وفي هذا اليوم (يوم جبر الخليج) تسير كل أجناد الخليفة كل فرقة على حدة.

فأولها كتامة التي جاءت من القيروان مع المعز لدين الله وعددها عشرون ألفاً من الفرسان. والثانية، باتله وهم مغربيون استقروا في مصر قبل أيام المعز لدين الله، ويبلغ عددهم خمسة عشر ألف فارس.

ويأتي بعد ذلك المصامدة وهم سود وعددهم، على ما أكد لي الثقة، عشرون ألفاً. والمشارقة من الترك أو الفرس... عددهم عشرة آلاف ولهم هيئة فخمة... ثم يأتي عبيد الشراء، وهم الرقيق المشري في السوق ويقدَّر عددهم بثلاثين ألفاً... وثمة

فرقة أخرى من بدو الحجاز مؤلفة من خمسين ألفاً من حملة الرماح. وجماعة الاستاذين يؤلفون فرقة عددها ثلاثون ألف رجل وهم من الرقيق الأسود والأبيض، ويقومون بخدمات منوعة.

وهناك عشرة آلاف هم خدمة القصر وثلاثون ألفاً من الزنج (ناصري خسرو ١٣٨).

ناصري خسرو في بلاد العرب

[**الحياة في فلج**]: تقع فلج في وسط الصحراء... ثمرها لذيذ وكثير... يتعامل أهلها بالدينار النيسابوري الذهب... أقمنا بها أربعة شهور... أهلها جياع... عراة تغمرهم جهالة فاضحة. يذهبون إلى الجامع للصلاة مسلحين بالسيف والترس. لا يبتاعون كتباً البتة. نزلنا بالجامع... وقد زينت لهم المحراب لقاء مئة منّ من التمر (ناصري خسرو ٢٢١).

[**الحسا**]: لأمير الحسا ثلاثون ألف عبد حبشي يعملون في الزراعة والبستنة. والسكان لا يدفعون ضريبة ولا عشراً. وإذا أعسر أحدهم أقرض ما يحتاجه ليتمكن من تدبير شأنه. ويعيد المدين المبلغ الأصلي، أي رأس المال فقط... والغريب عند وصوله يعطى مبلغاً من المال يستعين به على قضاء حاجته، ومتى ابتاع مواده وعدة صناعته، يعيد المبلغ الأصلي فقط على الطريقة التي يرغب فيها... وإذا تهدمت دار أو مطحنة ولم يكن لدى صاحبها ما يصلحها به، خصص الحكام بعض عبيدهم لاصلاح ذلك، دون تكليف المالك دفع شيء أبداً.

والمطاحن الخاصة بالحكومة في الحسا يطحن الناس فيها قمحهم مجاناً... وتصنع في الحسا الفوط الجميلة وتحمل إلى البصرة وغيرها.

ولا يشرب أهلها الخمر أبداً (ناصري خسرو ٢٢٧ ـ ٢٢٨). (سفرنامة، الترجمة العربية، ص ١٢٠ ـ ١٢٤ و١٣٧ ـ ١٤٥).

الهوامش

(١) ذكر المقدسي أيضاً ألبان زغر التي تباع بكثرة في القدس، وكذلك ألبان عمان، المقدسي ص ١٧٥ و١٨٠.

(٢) راجع أيضاً دي فتري ص ٢٨ و٣٠.

(٣) ومن ذلك ما رواه المقدسي قال: «وبين العشائين جامعهم مغتص بخلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة ودخلته مع جماعة من المقادسة فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين دوروا وجوهكم إلى المجلس فننظر فإذا نحن بين مجلسين. على هذا جميع المساجد» (المقدسي ٢٠٥).

٢ ـ الشرق العربي في القرن الثاني عشر

مصر

[**الاسكندرية**]. أوله[١] يوم الأحد ثاني يوم نزولنا بالاسكندرية، فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا بأن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه. فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة ذلك كله، دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل. وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم فلزموا اداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا. واستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب فطيف به مرقباً على السلطان أولاً ثم على القاضي ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفي كل يستفهم ثم يقيد قوله فخلي سبيله وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم. وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم وحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان فاستدعوا واحداً واحداً وأحضر ما لكل واحد من الأسباب والديوان قد غصَّ بالزحام، فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دقَّ منها وما جل[٢]. واختلط بعضهم ببعض وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم ما وجدوا لهم أم لا. وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وهذه لا محال من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لأزال ذلك[٣] (ابن جبير ٣٩ ـ ٤٠).

والمدينة تجارية، وأسواقها تتسع لجميع الأمم. فيأتيها التجار من بلنسية وتسكانيا ولومبارديا وابوليا وامالفي وصقلية وقطالونيا واسبانيا والمانيا وسكسونيا والدنيمرك وانكلترا وفلندرة وفرنسة ونورماندیا وبرغنديا وجنوة وبيزا وغسقونيا ونافار. كذلك يأتيها تجار المسلمين من الاندلس وافريقية وبلاد العرب كما يصل إليها قوم من الهند والحبش والنوبة واليمن والعراق. وتستورد من الهند جميع أنواع التوابل التي يبتاعها التجار الأوروبيون. ولكل أمة في المدينة فندقها الخاص بها (بنيامين ١٢٢ ـ ٣).

ومن الغريب أيضاً في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم، وهو أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطفف فمنهم المكثر والمقلل، فالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط. فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك. وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع، وربما كانت مركبة وكلها بأيمة مرتبين من قبل السلطان فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر وهي عشرة مؤمنية (ابن جبير ٤٣).

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعليمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله. واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء. وقد رتب أيضاً فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم. ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل ما بلغوا ونصب لتفريق ذلك كل يوم انساناً أميناً من قبله فقد ينتهي إلى ألفي خبزة أو أزيد، بحسب القلة والكثرة (ابن جبير ٤١).

[دلتا مصر]: وضفاف فروع النيل الأربعة تقوم عليها المدن والقرى والمزارع ويكثر تنقل المسافرين فيها، في البر والنهر. والحق أنه لا يوجد على سطح البسيطة مكان آخر يزدحم فيه السكان وتستغل فيه الأرض استغلالاً تامّاً مثل مصر، هذا على اتساع أرضها وكثرة موارد الثروة فيها (بنيامين ١٢١).

[القاهرة]: المارستان الذي بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه السلطان لهذه الفضيلة تأجراً أو احتساباً، وعين قيماً له من أهل المعرفة، ووضع لديه خزائن العقاقير ومكّنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي. وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة ما يليق بهم وبإزاء هذا الموضع، موضع مقتطع للنساء المرضى ولهنَّ من يكفلهنَّ. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه

مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها والسلطان يتطلع لهذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد (ابن جبير ٥١).

[محو المكس]: ومن آثاره (أي صلاح الدين) التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين. فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استئذانها عنتاً مجحفاً ويسلبون فيها خطة خسف باهظة. وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته أو لا نفقة عنده فيلزم اداء الضريبة المعلومة. وكان سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية، التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية، على كل رأس ويعجز عن ذلك فيتناول بأليم العذاب بعيذاب فكانت كاسمها مفتوحة العين. وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الاثنين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة نعوذ بالله من سوء قدره. وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه لمن لم يؤدّ مكسه بعيذاب، ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الاداء. فمحى هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفع عوضاً عنه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها، وعين مجبى موضع معين بأسره لذلك، وتكفل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز (ابن جبير ٥٥).

[التجارة في مصر]: ورمنا في هذا الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة سلع الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب[٤]. وأكثر ما شاهدنا من ذلك احمال الفلفل. فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازي التراب قيمة. ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقي بقارعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وغيرها من السلع مطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل إما لإعياء الإبل الحاملة لها أو غير ذلك من الاعذار. وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس (ابن جبير ٦٧).

[تجارة البحر الأحمر]: عيذاب وهي مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة أكثر بيوتها اخصاص وفيها الآن بناء مستحدث بالجص. وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة. وهي في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء إلاّ مجلوب. لكن أهلها، بسبب الحجاج، تحت مرفق كثير ولا سيما مع الحاج لأن لهم على كل حمل طعام يجلبونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة، بالإضافة إلى الوظائف المكوسية والتي كانت

قبل اليوم التي ذكرنا رفع صلاح الدين لها. ولهم أيضاً من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم وهي المراكب فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في حملهم إلى جدة وردهم وقت انفضاضهم من اداء الفريضة وما من أهلها ذوي اليسار إلاَّ من له الجلبة والجلبتان فهي تعود عليهم برزق واسع (ابن جبير ٦٩).

والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الانشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة. إنما هي مخيطة بامراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط، ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب[٥]. ويخللونها بدسر من عيدان النخل فإذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصنعة سقوها بالسمن أو بدهن الخروج أو بدهن القرش وهو أحسنها. ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر. ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري. وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن كذلك القنبار المذكور. ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل فمجموعه يتناسب في اختلال البنية ووهنها (ابن جبير ٧٠).

بلاد الشام

[القدس] : يغلب على شوارعها انها مبلطة بألواح كبيرة من الحجارة وأنها مسقوفة بعقود حجرية فيها نوافذ يدخل منها النور[٦] وبيوتها مبنية من الحجر الجميل النقش، وأسطحتها مستوية، ليست كأسطحة بيوتنا المنتهية بمخروط ويجمع السكان ماء المطر في آبار لأنه لا يوجد أي ماء آخر في بلدهم. والخشب غالي الثمن في بلادهم، لبعد مورده ـ لبنان ـ عنهم (ثيودوريتش ٥).

بالقرب من كنيسة يوحنا المعمدان يقوم مستشفى يقيم فيه عدد كبير من الرجال والنساء المرضى، وينالون العناية التي تكلف نفقات باهظة. وقد بلغني، لما كنت هناك، أن عدد المرضى أولئك بلغ الألفين، وقد يبلغ عدد الموتى منهم الخمسين في اليوم الواحد... وقد يعالج في العيادة الخارجية مثل عدد المرضى المقيمين في المستشفى هذا فضلاً عن أعمال الاحسان التي لا تقدر إذ يتصدق يومياً على السائلين وأبناء السبيل بالخبز[٧]... (ورتزبورغ ٤٤).

[دمشق] : جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق وهي خاتمة بلاد الشام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها[٨] قد شملت بأزاهير الرياحين وتجلت في حللٍ سندسية من البساتين، وحلت في موضوع الحسن بالمكان المكين وتزينت في منعتها أجمل تزيين، وتشرَّفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها إلى ربوة ذات قرار ومعين. ظلٌّ ظليل وماءٌ سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ورياض يحيي نسيمها العليل. تتبرَّج لناظريها بمجتلي صقيل وتناديهم هلموا إلى

معرش للحسن ومقيل. قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ فتكاد تناديك بها الصم الصلاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. قد أحدقت بها البساتين احداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر. فكل موضع لحظتها بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر ولله صدق القائلين عنها: «ان كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها» (ابن جبير ٢٦٠ ـ ٢٦١)[٩].

دمشق مدينة كبيرة تقع على حدود مملكة نور الدين... وهي مدينة جميلة يدور بها سور، وتحيط بها بلاد فائقة الحسن، تمتد نحو ١٥ ميلاً. وحدائقها وبساتينها تبلغ من الجمال حدّاً قلما يوجد مثله في الدنيا... يخترقها نهر أمانا (أبانا) الذي تحمل مياهه إلى دور كبار الناس فيها في أنابيب كما تنقلها القساطل إلى الشوارع والأسواق... تجارتها واسعة، يقيم بها تجار من جميع الأقطار... وجامعها قلما يساويه بناء آخر في فخامته... (بنيامين ٩٠).

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم تعرف بكنيسة مريم ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها. وهي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الأفكار وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب. وهي بأيدي الروم ولا اعتراض عليهم. وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة وبها مارستانان قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. والأطباء يبكرون إليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلح من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم. والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد أكثر. وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم. وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج وهم في سلاسل موثقون (ابن جبير ٢٨٣).

[**حلب**]: وأما البلد فموضوعه ضخم جدًا»[١٠] حفيل التركيب بديع الحسن واسع الأسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة إلى أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية. وكلها مسقف بالخشب فكأنها في ظلال وارفة فكل سوق منها تقيد الابصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً. وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً مطيفة بالجامع المكرم لا يتشوَّق الجالس فيها مرأى سواها، ولو كان من المرائي الرياضية. وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب فيها مرأى سواها، ولو كان من المرائي الرياضية. وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرفٌ خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها

حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم (ابن جبير ٢٥٢).

وقراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولاً (ابن جبير ٢٥٤). وخانات هذه الطريق كأنّها القلاع امتناعاً وحصانة وأبوابها حديد. وهي من الوثاقة في غاية (ابن جبير ٢٥٤).

[**المعرة**]: وبلاد المعرة[١١] سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين. (ابن جبير ٢٥٤).

[**حماة**]: وكلتا المدينتين صغيرتان، وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العالي الجبلي ويطيف بها، وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج إلى سور. وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة يتصل من المدينة السفلى إلى ربضها. وربضها كبير فيه الخانات والديار وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته إلى أن يفرغ لدخول المدينة. وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى. فهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب والتقسيم. ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر (ابن جبير ٢٥٦ ـ ٧)[١٢].

[**حمص**]: وأما داخلها فما شئت بادية شعثاء الأرجاء ملفقة البناء، لا إشراق لآفاقها ولا رونق لأسواقها، كاسدة لا عهد لها بنفاقها. وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة، وهو معقل العدو. فهو منه تتراءى ناره، ويحرق إذ يطير شراره، ويتعهد إذا شاء كل يوم مناره. وسألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات فقال، وقد أنكر ذلك، «حمص كلها مارستان» وكفاك شهادة أهلها فيها. وبها مدرسة واحدة وتجد في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بعد في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة (إشبيلية) من بلاد الأندلس يقع للحين في نفسك خياله وبهذا الإسم سميت في القديم. وهي العلة التي أوجبت نزول الاعراب أهل حمص فيها حسبما يذكر. (ابن جبير ٢٥٨)[١٣].

[**بيروت**]: بيروت مدينة غنية وحصينة، وكبيرة ومزدحمة بالسكان (فوكاس ٩) ميناؤها جميل أتقنته يد الصانع الماهر، يحيط بالمدينة كالهلال، يقوم في كل من طرفيه برج تسحب بينهما سلسلة تحمي السفن الموجودة في الميناء في الليل (ثيودوريتش ٧١).

[**صور**] : هي أنظف من عكة سككاً وشوارع، وأهلها ألين في الكفر طبائع وأجرى إلى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع. فخلائقهم أشجع ومنازلهم أوسع وأفسح وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن. وعكة أكبر وأطغى. وأما حصانتها ومنعتها فأعجب ما يحدث به وذلك أنها راجعة إلى بابين أحدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها إلاّ من جهة واحدة. فالذي في البر يفضي إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب. وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص. فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها. وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب إلاّ عند إزالتها. وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلاّ على أعينهم. فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع. ولعكة مثلها في الوضع والصفة، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وإنما ترسي خارجها، والمراكب الصغار تدخل إليها. فالصورية أكمل وأجمل وأحفل[١٤] (ابن جبير ٣٠٤).

[**عكاء**] : تزيد عن غيرها (من مدن بلاد الشام الساحلية) في عدد السكان. تأوي إليها جميع السفن التجارية ويجتمع فيها الحجاج الآتون في البحر والمسافرون برّاً... وتكثر فيها الأوبئة بسبب كثرة الواردين عليها (فوكاس ١١).

مدينة كبيرة كثيرة السكان... حيثما ينزل الحجاج، فإنهم مضطرون بعد انتهاء الحج إلى الاجتماع في عكاء ليحملوا منها إلى بلادهم... وقد عددنا في يوم الأربعاء من أسبوع الفصح ثمانين سفينة في الميناء[١٥] (ثيودوريتش ٥٩ ـ ٦٠).

وهي قاعدة مدن الافرنج، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة والمشبهة في عظمتها بالقسطنطينية. مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق. سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطىء الأقدام (ابن جبير ٣٠٣).

وصلنا إلى الديوان وهو خان معد لنزول القافلة. وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتّاب الديوان من النصارى بمحابر الابنوس المذهبة الحلي وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب لقب وقع عليه فمكانه من الخطة وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند وكل ما يجبى عندهم راجع إلى الضامن. وضمان هذا الديوان بمال عظيم. فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه وطلب رحل من لا سلعة له لئلاً يحتوي على سلعة مخبوءة

فيه وأطلعه سبيله فنزل حيث شاء وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل. فنزلنا بها في بيت اكترياه من نصرانية بإزاء البحر (ابن جبير ٣٠٢ ـ ٣).

بلاد العرب

[**جدة**]: هذه قرية على ساحل البحر الأحمر، أكثر بيوتها اخصاص وفيها فنادق بالحجارة والطين. وفي أعلاها بيوت من الاخصاص كالغرف. ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر. وبهذه القرية آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة. وأثر سورها المحدث بها باقٍ إلى اليوم (ابن جبير ٧٥).

الرطب: وهو عندهم بمثابة التين الأخضر في شجره. يجنى ويؤكل وهو في نهاية من الطيب واللذاذة. لا يسأم التفكه به. وبأنه عندهم عظيم يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب. ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلاً ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع (ابن جبير ١٢٢).

[**مكة**]: وكانوا أيضاً يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام ولين سعرها وأنها خارقة للعوائد السالفة عندهم. كان سوم الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمني. وهذا السعر في بلد لا ضيعة فيه ولا قوام معيشة لأهله إلا بالميرة المجلوبة إليه سعر لا خفاء بيمنه وبركته، على كثرة المجاورين فيها في هذا العام وتجلاب الناس إليها وترادفهم عليها. فحدَّثنا غير واحد من المجاورين الذين لهم بها سنون طائلة أنهم لم يروا هذا الجمع بها قط ولا سمع بمثله فيها. والله يجعله جمعاً مرحوماً معصوماً بمنه.

ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهني بعضهم بعضاً ويتنافرون ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم في الأعياد هكذا دائماً (ابن جبير ١٢٤).

فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار وذلك لأنا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الأربعاء. وهي العشية التي ارتقب فيها الهلال، قد امتلأت هوادج مشدودة على الإبل. مكسوة بأنواع كساء الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته فأخذوا في الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهوادج في أباطح مكة وشعابها والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين وأشعرت بغير هدى بقلائد برَّاقة المنظر من الحرير وغيره وربما فاضت الأستار التي على الهوادج حتى تسحب أذيالها على الأرض (ابن جبير ١٢٩).

[**التجارة والحج**]: وهم قبائل شتى كبجيلة وسواها يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام. فيجمعون بين النسبة في العمرة ومبرة البلد بضروب من

الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء إلى ما دونها. ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز فتجتمع ميرتهم بين الطعام والأدام والفاكهة. ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة، بجميع ما ذكر فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه. يتقوّتون ويدّخرون وترخص الأسعار وتعم المرافق فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى ولولا هذه المبرة لكان أهل مكة في شظف من العيش (ابن جبير ١٣٢).

[من الحجاز إلى العراق] : (وصلنا) القارورة وهي مصانع مملوءة بماء المطر. وهذا الموضع هو أرض نجد. وما أرى أن في المعمورة أرضاً أفسح بسطاً ولا أوسع أنفاً ولا أطيب نسيماً ولا أصح هواءً ولا أمد استواءً ولا أصفى جوًّا ولا أنقى تربة ولا أنعش للنفوس والأبدان ولا أحسن اعتدالاً في كل الأزمان من أرض نجد. وصف محاسنها يطول والقول فيها يتسع. وفي يوم الخميس المذكور مع صحوة النهار نزلنا بالهاجر. والماء فيه مصانع. وربما حفروا عليه حفراً قريبة العمق يسمونها أحفاراً واحدها حفر. وكنا نتخوف في هذا الطريق قلة الماء ولا سيما مع عظم هذا الجمع الأنامي والأنعامي الذين وردوا البحر لأنزفوه واستقوه (ابن جبير ٢٠٤).

أجزنا بالحاجز واديين سياليين. وأما البرك والقرارات فلا تحصى. وفي يوم الجمعة بعده نزلنا ضحوة النهار سميرة. وهي موضع معمور وفي بسيطها شبه حصن يطيف به خلق كبير مسكون. والماء فيه في آبار كثيرة إلاَّ أنها زعاق ومستنقعات وبرك وتبايع العرب فيها مع الحاج فيما أخرجوه من لحم وسمن ولبن. ووقع الناس على قرم وعيمة. فبادروا الابتياع لذلك بشقق الخام التي يستصحبونها لمشاراة الاعراب لأنهم لا يبايعونهم إلاَّ بها (ابن جبير ٢٠٥).

ووصل إلى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالاً ونساءً واتخذوا به سوقاً عظيمة حفيلة للجمال والكباش والسمن واللبن وعلف الإبل فكان يوم سوق نافعة وبقي من هذا الموضع إلى الكوفة من المناهل التي تعمُّ جميع المحلة ثلاثة أحدها زبالة والثاني وامضة والثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة. وبين هذه المناهيل مياه موجودة لكنها لا تعم. وهذه الثلاثة المذكورة هي التي تعم الناس والابل وهي التي تردها (ابن جبير ٢٠٧).

العراق

[الكوفة] : هي مدينة كبيرة عتيقة البناء قد استولى الخراب على أكثرها فالغامر منها أكثر من العامر. ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها فهي لا تزال تضربها. وكفاك بتعاقب الأيام والليالي محييا ومفنياً. وبناء هذه المدينة بالآجر خاصة، ولا سور لها. والجامع العتيق آخرها مما يلي شرقي البلد ولا عمار تتصل بها من جهة الشرق (ابن جبير ٢١١).

[**الحلة**]: هي مدينة كبيرة عتيقة الوضع مستطيلة، لم يبقَ من سورها إلا حلق من جدار ترابي مستدير به. وهي على شط الفرات يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد بطولها. ولهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية وهي قوية العمارة، كثيرة الخلق، متصلة حدائق النخيل داخلاً وخارجاً فديارها بين حدائق النخيل. وألفينا بها جسراً عظيماً معقوداً على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط تحفُّ بها من جانبها سلاسل من حديد كالأذرع المفتولة عظماً وضخامة ترتبط إلى خشب مثبتة في كل الشطين تدل على عظم الاستطاعة والقدرة (ابن جبير ٢١٣).

[**في الطريق**]: وتمتاز الجهة بكثر القناطر المعترضة في طريقهم إلى بغداد فلا تكاد تمشي ميلاً إلاّ وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات. فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي وقناطر. وعلى أكثرها خيام فيها رجال محترسون للطريق اعتناءً من الخليفة بسبيل الحاج دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها (ابن جبير ٢١٤).

وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات في هذا الوقت هو نصف مايو (أيار).

وقرى هذه الطريق من الحلة إلى بغداد على هذه الصفة من الحسن والاتساع. وفي هذه القرية المذكورة خان كبير يحدق به جدار عال له شرفات صغار (ابن جبير ٢١٥).

[**إلى بغداد**]: وكنا سمعنا أن هواء بغداد يثبت السرور في القلب ويبعث النفس دائماً على الانبساط والانس، فلا تكاد تجد فيه إلاَّ جذلان طرباً، وان كان نازح الدار مغتراباً، حتى حللنا بهذا الموضع المذكور وهو على مرحلة منها. فلما نفحتنا نوافح هوائها ونقعنا الغلة ببرد مائها أحسسنا من نفوسنا، على حال وحشة الاغتراب داوعي من الاطراب، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغيَّاب بالأياب، وهبت بنا محركات من الأطراب، أذكرتنا معاهد الأحباب، في ريعان الشباب. هذا للغريب النازح الوطن، فكيف للوافد عليها على أهل وسكن.

سقى الله باب الطاق صوب غمامة ... وردَّ إلى الأوطان كل غريب

(ابن جبير ٢١٦)

وبغداد هي كما ذكرناه جانبان شرقي وغربي ودجلة بينهما. فأما الجانب الغربي فقد عمَّه الخراب واستولى عليه وكان المعمور أولاً. وعمارة الجانب الشرقي محدثة لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة كل محلة منها مدينة مستقلة، وفي كل واحدة منها الحمامان والثلاثة. والثماني منها بجوامع يصلى فيها الجمعة. فأكبرها القرية وهي التي نزل فيها بربض يعرف بالمربعة على شط دجلة

بمقربة من الجسر، فحملته دجلة بمدّها السيلي فعاد الناس يعبرون بالزوارق فيها لا تحصى كثرة فالناس ليلاً ونهاراً من تمادي العبور فيها في نزهة متصلة رجالاً ونساءً. والعادة أن يكون لها جسران أحدهما مما يقرب من دور الخليفة، والآخر فوقه لكثرة الناس، والعبور في الزوارق لا ينقطع منها. ثم الكرخ وهي مدينة مسوَّرة. ثم محلة باب البصرة وهي أيضاً مدينة وبها جامع المنصور رحمه الله وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيله، ثم الشارع وهي أيضاً مدينة. فهذه الأربع أكبر المحلات وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة ويفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية. وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية. والماء يدخل إليه من دجلة (ابن جبير ٢٢٥).

وأما الشرقية فهي اليوم دار الخلافة وكفاها بذلك شرفاً واحتفالاً ودور الخليفة مع آخرها وهي تقع منها في نحو الربع أو أزيد لأن جميع العباسيين في تلك الديار معتقلون اعتقالاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون، ولهم المرتبات القائمة بهم. وللخليفة من تلك الديار جزءٌ كبير قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائقة والبساتين الأنيقة. وليس له اليوم وزير إنما به خديم يعرف بنائب الوزارة يحضر الديوان المحتوي على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الأمور. وله قيِّم على جميع الديار العباسية وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية يعرف بالصاحب مجد الدين أستاذ الدار، هذا لقبه. ويدعى له إثر الدعاء للخليفة وهو قلَّ ما يظهر للعامة اشتغالاً بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها والتكفل بمغالقها وتفقُّدها ليلاً ونهاراً (ابن جبير ٢١٦).

والشرقية حفيلة الأسواق عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلاّ الله تعالى الذي أحصى كل شيء عدداً وبها من الجوامع ثلاثة كل يجمع فيها: جامع الخليفة متصل بداره وهو جامع كبير وفيه شعابات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة مرافق الوضوء والطهور، وجامع السلطان وهو خارج البلد ويتصل به قصور تنسب للسلطان أيضاً المعروف بشاه شاه، وكان مدير أمر أجداد هذه الخليفة وكان يسكن هناك فابتنى الجامع أمام مسكنه، وجامع الرصافة وهو على الجانب الشرقي المذكور وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل. وبالرصافة تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله. فجميع جوامع البلد ببغداد المجمع فيها أحد عشر. وأما حماماتها فلا تحصى عدة. ذكر لنا أحد أشياخ البلد انها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به. فيخيل للناظر انه رخام أسود صقيل. وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم لأن شأنه عجيب يجلب من

عين بين البصرة والكوفة وقد أنيط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير في جوانبها كالصلصال فيجري ويجلب (ابن جبير ٢٢٨ ـ ٩).

وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير فضلاً عن الاحصاء. والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة إلاّ وهي يقصر القصر البديع عنها، وأعظمها وأشهرها المدرسة النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وجددت سنة أربع وخمسمائة. ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تصير إلى الفقهاء المدرسين بها ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم. ولهذه البلاد في أمر المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد فرحم الله واضعها الأول ورحم من تبع ذلك السنن الصالح (ابن جبير ٢٢٩).

وبغداد عاصمة الخليفة العباسي الذي يعترف له كل ملوك المسلمين بالسلطان الروحي. يمتدُّ قصره ثلاثة أميال وفيه حدائق تحوي أشجاراً من جميع الأنواع، بينها النافع والزخرفي، وتسرح فيها الحيوانات وتغرد فيها الطيور. وبركة القصر تأتي مياهها من دجلة. ويقضي الخليفة أوقات فراغه في حدائق القصر يستمتع بجماله.

والخليفة يتقن لغات كثيرة... وينفق على نفسه مما يصنعه بيده. وتشمل صناعته الأغطية التي يدمغها بختمه، ويبيعها موظفوه في السوق العامة. ويبتاع هذه الأشياء نبلاء البلاد...

والخليفة رجل نبيل وهو محلٌّ للثقة، وكبير العطف على الجميع. لكنه قلما يظهر للناس... والمناسبة الوحيدة التي يرى فيها هي يوم عيد الفطر، حيث يتقاطر القوم إلى بغداد ليستمتعوا باستجلاء طلعته البهية.

والخليفة تقيٌّ محسن كريم، وقد أقام على ضفة النهر المقابلة أبنية كبيرة فيها، بالإضافة إلى دور السكن العادية، ملاجىء للمرضى الفقراء (بيمارستانات)، حيث يأتون للعلاج. وفي المدينة قرابة ستين حانوت طبي توجد فيها العقاقير على اختلاف أنواعه التي ترسل إليها من خزائن الخليفة. وكل مريض يتطلب مساعدة، يقدم له الغذاء على حساب الخليفة إلى أن يشفى.

وفي بغداد عمارة كبيرة تسمى دار المرابطين يقيم فيها جميع المجانين مقيدين بسلاسل، ويشرف عليهم موظفون من قبل الخليفة يفحصونهم مرة في الشهر بانتظام، فإذا ظهر أنهم شفوا أطلق سراحهم.

وهذا من إحسان الخليفة إلى كل من يقصد بغداد مريضاً كان أم مصاباً بالجنون.

وتحيط ببغداد حدائق النخيل والبساتين الواسعة، بحيث تجعلها عديمة النظير في العراق.

ويتقاطر التجار من كل صقع إلى بغداد. وفيها علماء كبار وفلاسفة ومهرة من أهل السحر (بنيامين ٩٥ ـ ١٠٠).

بغداد مدينة كبيرة، وهي مقرُّ الخليفة أو السلطان. وهذا هو الملك الكبير الذي يحكم الأمم... بغداد كبيرة جداً، يزيد طولها عن مسيرة يوم كامل، ويحتاج المرء إلى أكثر من ثلاثة أيام ليدور حولها[١٦] (بتاحيا ـ ادلر ٦٠).

[**إلى الموصل**] : وعن يمين الطريق إلى الموصل فيه وهدة من الأرض سوداء كأنها سحابة قد أنيط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً، تنبع بالقار وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان. ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطاً على الأرض أسود أملس صقيلاً رطباً عطر الرائحة شديد التعلك فيلصق بالأصابع بأول مباشرة من اللمس. وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب قاراً، فشاهدنا عجباً كنا نسمع به فنستغرب سماعه. وبمقربة من هذه العيون، وعلى شط دجلة عين أخرى منه كبيرة أبصرنا على البعد منها دخاناً فقيل لنا إن النار تشعل فيه إذا أرادوا نقله فتنشف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطعونه قطرات ويحملونه، وهو يعمُّ جميع البلاد إلى الشام إلى عكة إلى جميع البلاد البحرية[١٧] (ابن جير ٢٣٣).

[**الموصل**]: باطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله كان قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه. وللمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية وهي من المرافق الحربية. وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رصَّ بناؤها، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان. وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع، يمتد من أعلى البلد إلى أسفله. ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور وأبراجه في مائها. وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق (ابن جبير ٢٣٤).

وفي سوقه قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم تتعلق عليها أبواب حديد، وتطيف بها دكاكين وبيوت، بعضها على بعض قد جلي ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له. فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها (ابن جبير ٢٣٦).

وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرقة ولها مارستانات حاشا الذي ذكرناه في الربض (ابن جبير ٢٣٦).

[**بين الموصل والشام**]: وأهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة إلى الشام على هذه السبيل من حب الغرباء وإكرام الفقراء. وأهل قراها كذلك، فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زاداً. لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة. وشأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل عجيب. والله ينفعهم بما هم عليه. وأما عبَّادهم وزهَّادهم والسائحون في الجبال منهم فأكثر من أن يقيدهم الاحصاء، والله ينفع المسلمين

ببركتهم وصوالح دعواتهم بمنِّه وكرمه. ولهذه البلدة المذكورة أسواق حفيلة الانتظام عجيبة الترتيب مسقفة كلها بالخشب فلا يزال أهلها في ظلٍّ ممدودٍ، فتخترقها كأنك تخترق داراً كبيرة الشوارع قد بني عند كل ملتقى أربع سكك أسواق منها قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص هي كالمفرق لتلك السكك (ابن جبير ٢٤٥).

الهوامش

(١) شهر ذي الحجة سنة ٥٧٨ هـ.

(٢) روى برنارد الحكيم عن نفسه (في القرن التاسع للميلاد) أنه فتش في الإسكندرية وحقق معه ودفع ستة دنانير ذهبية (*Early Travels*, pp.24-5).

(٣) قال العبدري بعد وصفه للاسكندرية وعجائبها لما زارها سنة ٦٨٨ هـ «ومن الأمر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم (يعني أهل الاسكندرية) أنهم يعترضون الحجاج، ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الإجاج، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج ويبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال، وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبي، وجعل الانفصال عنهم غاية أربي، وذلك لما وصل إليها الركب جاءت شرذمة من الحرس لا حرس الله مهجتهم الخسيسة، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة، فمدوا في الحجاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء وألزموهم أنواعاً من المظالم وأذاقوهم ألواناً من الهوان ثم استحلفوهم وراء ذلك كله، وما رأيت هذه العادة الذمية والشيمة اللئيمة في بلد من البلاد ولا رأيت في الناس أقسى قلوباً ولا أقل حياء ومروءة ولا أكثر إعراضاً عن الله سبحانه وجفاء لأهل دينه من أهل هذا البلد نعوذ بالله من الخذلان» (رحلة ابن جبير ٢٧ ـ ٢٨).

(٤) راجع أيضاً ما ذكره يوحنا مندوفيل عن كثيرة القوافل وتشعب طرقها في صعيد مصر في القرن الرابع عشر *Early Travels*, p. 118.

(٥) جاء في رواية لعوبديا «القرن الخامس عشر» إنه يوجد في البحر الأحمر مغنطيس لذلك فإن السفن التي تنتقل في أنحائه لا يستعمل الحديد في بنائها، حتى إنه لا يوجد فيها مسمار قط (راجع ادلر، ص ـ ٢٢٥).

(٦) جاء في وصف لمدينة القدس لمؤلف مجهول من القرن الثاني عشر أن أسواقها كان يباع فيها كل ما يحتاج إليه الإنسان. ويصف الكاتب أسواق اللحامين والعطارين بعناية خاصة ويقول إن الحوانيت التي يباع فيها الطعام المطهو كثيرة: راجع City of Jerusalem (PPT) pp. 6-11.

(٧) يقول ثيودوريتش ص ٢٢ إن عدد الأسرة فيه بلغ ألفاً أو يزيد. أما بنيامين *Early Travels*, p. 83 فيذكر انه كان ثمة مستشفيان في القدس.

(٨) دمشق كبرى مدن الشرق من حيث حجمها وعدد سكانها (دي فتري ص ٢٣).

(٩) ذكر بتاحيا هذا الشيء نقلا عن أهل دمشق (بتاحيا ـ ترجمة غرنهوت الالمانية ـ ص ٣٨ ـ ٩).

(١٠) أشار بتاحيا إلى سعة حلب وضخامتها (نفس المكان ص ٣٨).

(١١) وصف ناصري خسر المعرة وبلادها بالثروة الكبيرة، وأضاف الكرم إلى أشجارها المذكورة عند ابن جبير (PTT p. 3).

(١٢) يرجع عمران حماة إلى أيام بني أيوب (راجع صبح الأعشى ٤: ١٤٠).

(١٣) قال ابن بطوطة عن حمص «مدينة مليحة أرجاؤها مونقة وأشجارها مورقة وأنهارها متدفقة وأسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن الجامع وفي وسطه بركة ماء. وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم» (ابن بطوطة ص ٣٨).

(١٤) راجع أيضاً ما ذكره بنيامين (*Early Travels*, p.80) ودي فتري (ص ١٦-١٧) عن منعة صور واتساعها وتجارتها.

(١٥) يرجع الاهتمام بميناء عكاء إلى ابن طولون. وقد بناها له أبو بكر البنّاء جد المقدسي الجغرافي (راجع المقدسي، ص ١٨٧).

(١٦) راجع أيضاً ترجمة غرنهوت الالمانية لبتاحيا ص ٩ ـ ١٠.

(١٧) أشار بتاحيا إلى هذا الأمر (نفس المكان ص ٦).

٣ ـ الأحوال الاجتماعية في الشرق العربي في القرن الثاني عشر

المدارس

[**المدرسة النظامية**]: فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار إليه بالتقديم في العلوم الأصولية. حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر. فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه في القراءة على كراسٍ موضوعة فتوقّفوا وشوّقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة، ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار، وتصرَّف في أفانين من العلوم، من تفسير كتاب الله عزَّ وجل، وإيراد حديث رسول الله ﷺ، والتكلم على معانيه. ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر، وتقدم وما تأخر. ودفعت إليه عدة رقاع فجمعها جملة في يده، وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها، وحان المساء فنزل وافترق الجميع. فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقوراً هيناً ليناً ظهرت فيه البركة والسكينة (ابن جبير ٢١٩).

[**المدرسة النورية في دمشق**]: وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام والمدارس كذلك. ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله، وبها قبره نوَّره الله، وهي قصر من القصور الأنيقة ينصبُّ فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ثم يمتدُّ الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر. فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله. وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر، وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش وأسكنهم في قصور تذكِّرهم قصور الجنان (ابن جبير ٢٨٤).

[**المغاربة**]: ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى أنه كان عيَّن للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافاً كثيرة منها طاحونتان وسبعة

بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين. وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه وهو أبو الحسن علي بن سروال الجياني المعروف بالأسود ان هذا الوقف المغربي يغلُّ إذا كان النظر فيه جيداً خمسمائة دينار في العام (ابن جبير ٢٥٨).

[عالم سوري] : وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي رحمه الله. وكان في النحو سيبويه زمانه. قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين وكان متولي دار العلم بطرابلس. فلما أخذ الافرنج طرابلس نفّذ الوالد والعم، رحمهما الله، استخلصا الشيخ أبا عبد الله هذا ويانس الناسخ. وكان قريب الطبقة في الخط من طريقة ابن البواب. أقام عندنا بشيزر مدة ونسخ للوالد، رحمه الله، ختمتين ثم انتقل إلى مصر ومات بها.

وشاهدت من الشيخ أبي عبد الله عجباً. دخلت عليه يوماً لأقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو «كتاب سيبويه» و«كتاب الخصائص» لابن جني. و«كتاب الايضاح» لابن علي الفارسي، و«كتاب اللمع»، و«كتاب الجمل» فقلت «يا شيخ أبا عبد الله، قرأت هذه الكتب كلها؟»، قال «قرأتها! لاوالله إلا كتبتها في اللوح وحفظتها. تريد تدري. خذ جزءاً وافتح واقرأ من أول الصفحة سطراً واحداً». فأخذت جزءاً وفتحته وقرأت سطراً منه. فقرأ الصفحة بأجمعها حفظاً حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها فرأيت منه أمراً عظيماً ما هو في طاقة البشر (الاعتبار ٢٠٨ ـ ٩).

التربية البيتية

[تربية أسامة البيتية] : وما رأيت الوالد، رحمه الله، نهاني عن قتال ولا ركب خطر مهما كان يرى فيَّ وأرى من اشفاقه وإيثاره لي. ولقد رأيته يوماً وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين[1] ملك الافرنج على قطيعة قطعها لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي رحمه الله، فرسان افرنج وأرمن. فلما وفوا ما عليهم وأرادوا الرجوع إلى بلادهم نفذ خير خان صاحب حمص خيلاً كمنوا لهم في ظاهر شيزر. فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم وأخذوهم. ووقع الصائح فركب عمي وأبي، رحمهما الله ووقفا، وكل من يصل إليهما قد سيراه من خلفهم. وجئت أنا، فقال لي أبي «أتبعهم بمن معك، وارموا نفوسكم عليهم، واستخلصوا رهائنكم». فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار واستخلصت من كان معهم وأخذت بعض خيل حمص. وعجبت من قوله «ارموا نفوسكم عليهم».

ومرة كنت معه، رحمه الله، وهو واقف في قاعة داره وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التي في الدار. فوقف يبصرها. فحملت سلماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت إليه، وهو يراني فلا ينهاني،

وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطي، وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون الذراع، وجعلت أحزُّ رأسها ـ وخرجت التفت على يدي ـ إلى أن قطعت رأسها وألقيتها إلى الدار، وهي ميتة.

بل رأيته، رحمه الله، وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر فلما وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها. فحمل على الخيل، ثم وقف، وأنا وأخي بهاء الدولة منقذ، رحمه الله، بين الأسد وبين موكب فيه أبي وعمي، رحمهما الله، ومعهما جماعة من الجند. والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرَّب بصدره على الأرض ويهدر. فحملت عليه، فصاح عليَّ أبي، رحمه الله «لا تستقبله يا مجنون، فيأخذك» فطعنته. فلا والله ما تحرك من مكانه. ومات موضعه.

فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم (الاعتبار ١٠٣).

[والدة أسامة في القتال]: وفي ذلك اليوم[٢] فرقت والدتي، رحمها الله، سيوفي وكزاغنداتي. وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن وقالت «البسي خفك وإزارك» فلبست وأخذتها إلى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق، أجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن. ونصرنا الله سبحانه عليهم. وجئت إلى داري أطلب شيئاً من سلاحي ما وجدت إلاّ جهازات السيوف وعيب الكزاغندات. قلت «يا أمي، أين سلاحي» قالت «يا بنيَّ أعطيت لمن يقاتل عنا. وما ظننتك سالماً». قلت «فأختي أي شيء تعمل ها هنا» قالت «يا بنيَّ أجلستها على الروشن وجلست برّاً منها. إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دَفعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة» فشكرتها على ذلك وشكرتها الأخت وجزتها خيراً. فهذه النخوة من نخوات الرجال (الاعتبار ١٢٤).

الفارس

[شرف الفارس جمعة]: فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار، اننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا، صاحب حماة ذلك الوقت، وكانت الحرب بيننا وبينه ما تغب، والمراكب واقفة والطراد بين التسرعة. فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جمعة من بني نمير، وهو يبكي. فقلت له «ما لك يا أبا محمود؟ هذا وقت بكاء!». قال «طعنني سرهنك بن أبي منصور». قلت «وإذا طعنك سرهنك أي شيء يكون» قال «ما يكون شيء إلاّ يطعني مثل سرهنك ـ والله ان الموت أسهل عليَّ من أن يطعنني لكنه استغفلني واغتالني». فجعلت أسكنه وأهوّن الأمر عليه. فردّ رأس فرسه راجعاً فقلت «إلى أين يا أبا محمود؟» قال «إلى سرهنك. والله لأطعننه أو لأموتنَّ دونه».

فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن مقابلي. ثم عاد وهو يضحك فقلت «ما عملت»

فقال «طعنته والله. ولو لم أطعنه لفاضت روحي». فحمل عليه في جمع أصحابه فطعنه وعاد (الاعتبار ٣٦).

[**منزلة الفارس عند الافرنج**]: والافرنج، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلاّ للفرسان، ولا عندهم ناس إلاّ الفرسان ـ فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم. وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح، وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فلك بن فلك «هذا تعدي علينا وأخذ دوابنا وهو وقت ولاد الغنم. فولدت وماتت أولادها وردّها علينا بعد أن أتلفها» فقال الملك لستة سبعة من الفرسان «قوموا اعملوا له حكماً» فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيءٍ واحد وعادوا إلى مجلس الملك. فقالوا «قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم» فأمره الملك بالغرامة فتوسل إليَّ وثقل عليَّ وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار. وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الافرنج ان يغيره ولا ينقضه. فالفارس أمر عظيم عندهم.

ولقد قال لي الملك «يا فلان، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً». قلت «والله يفرح الملك بماذا فرحت» قال «قالوا لي إنك فارس عظيم. وما كنت اعتقد أنك فارس» قلت «يا مولاي، أنا فارس من جنسي وقومي». وإذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم (الاعتبار ٦٤).

العلاقات بين سكان بلاد الشام

[**أهل دمشق**] : ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة. وإذا لقي أحد منهم آخر مسلماً يقول جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطياً. والجد عندهم عنقاء مغرب وصفة سلامهم ايماء للركوع أو السجود فترى الأعناق تتلاعب ما بين رفع وخفض وبسط وقبض. وربما طالت بهم الحالة في ذلك فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً. وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء وعند استعراض رقيق الإماء، فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال! (ابن جبير ٢٩٥).

[**الغرباء في الشام**] : وعلى كل من وفق الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم ان أحبَّ ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال، وينهال الخبز عليه من الضيعة ويلتزم الامامة والتعليم أو ما شاء. ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى

الله عزَّ وجلَّ فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء. ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ويقولون هؤلاء ممن انقطع إلى الله عزَّ وجل فيجب مشاركتهم. وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة، وقلما يخلو من التبتيل والزهادة. وإذا كانت معاملة النصارى لضدّ ملّتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض (ابن جبير ٣٨٧).

[**شجرة الميزان**] : وقرية بيت جن هي بين جبال. ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت إلى مدينة بانياس واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح أعلمنا انها تعرف بشجرة الميزان. فسألنا عن ذلك، فقيل لنا هي حدٌّ بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الافرنج، وهم الحواسة والقطاع. من أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر، ومن اخذ دونها إلى جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك أطلق سبيله. لهم في ذلك عهد يوفون به وهو من أطرف الارتباطات الافرنجية وأغربها (ابن جبير ٣٠٠).

[**التمكيس**] : واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين وادٍ ملتف الشجر، وأكثر شجره الرند. بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوي تلتقي حافتاه ويتعلق بالسماء أعلاه يعرف بالاسطبل لو ولجته العساكر لغابت فيه، ولا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه. المهبط إليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان فعجبنا من أمر ذلك المكان فأجزناه ومشينا عنه يسيراً وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الافرنج، يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القبائل، وصاحبته تعرف بالملكة وهي أم صاحب عكة. فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ومكس الناس تمكيساً غير مستقص. والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ولا اعتراض على التجار لأنهم يقصدون موضع الملك وهو محل التعشير. والضريبة في قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً. وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم (ابن جبير ٣٠٠ ـ ٣٠١).

[**العلاقات بين العرب والصليبيين**] : ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم الذي هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عساكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشقّ قليلاً

وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر أنه ينتهي إلى أربعمائة قرية. فنازله هذا السلطان وضيّق عليه وطال حصاره. واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك.

وتجار النصارى أيضاً لا يمنع ولا يعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدُّونها في بلادهم، وهي من الامنة على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم. والاتفاق بينهم الاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب.

هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً. وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه (ابن جبير ٢٨٧).

[**المحاصة**]: ورحلنا من تبنين سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة، وذلك لأنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمّها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك. ولهم على تمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على شد أحوالهم من الترفيه والرفق وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضدِّه وعدوِّه المالك من الافرنج ويأنس بعدله (ابن جبير ٣٠١).

ومررنا في طريقنا بضيعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الافرنج من فيها من عمارها من المسلمين. فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله وأنالهم ألواناً من الطعام قدَّمها فعمهم بتكرمته. وكنا فيمن حضر هذه الدعوة (ابن جبير ٣٠٢).

[**زفاف في صور**]: زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساءً واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين

رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوي أرحامها وهي في أبهى زيّ وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة منسوجة وعلى لبتها مثل ذلك منتظم، وهي رافلة في حليها وحللها تمشي فترى في مشي الحمامة أو سير الغمامة نعوذ بالله من فتنة المناظر. وأمامها جلة من رجالها النصارى في أفخر ملابسهم البهية تسحب أذيالها خلفهم ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلى والآلات اللهوية قد تقدمتهم، والمسلمون والنصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها وأقاموا يومهم ذلك في وليمة، قادنا اتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخر في المستعاذ بالله من الفتنة فيه (ابن جبير ٣٠٥).

أخبار الطب والتطبيب

[بالفصاد ينجو جريح]: وأصاب رجلاً من أصحابنا الشاميين جراحٌ كثيرة فجاءني أخوه وقال «أخي تالف. قد وقع فيه كذا وكذا جرح سيوف وغيرها، وهو مغمور ما يفيق» قلت «ارجع افصده». قال «قد خرج منه عشرون رطل دم» قلت «ارجع افصده، فأنا أخبر منك بالجراح. وليس له دواءٌ غير الفصاد». فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر. قال «أنا فصدته، وهو أفاق وجلس وأكل وشرب وذهب عنه البؤس». قلت «الحمد لله، ولولا أني جرّبت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك» (الاعتبار ٣٣).

[يداوي بالخل]: وكان لابن بطلان إصابات عجيبة في الطب. فمن ذلك أن رجلاً أتاه، وهو في دكانه بحلب، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهم منه إذا تكلم. فقال له «ما صنعتك»، قال «أنا مغربل» فقال «احضر لي نصف رطل خل حاذق» فأحضره. فقال «اشربه» فشربه وجلس لحظة فذرعه القيء. فتقيأ طيناً كثيراً في ذلك الخل. فانفتح حلقه واستوى كلامه. فقال ابن بطلان لابنه وتلامذته «لا تداووا بهذا الدواء أحداً فتقتلوه. هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغربلة تراب ما كان يخرجه إلاّ الخل» (الاعتبار ١٨٤).

[عجائب الطب الافرنجي]: ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل إليه طبيباً نصرانيّاً يقال له ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له «ما أسرع ما داويت المرضى» فقال «احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف. فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وأصلحت. وحميت للمرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم «هذا ما يعرف شيء يداويهم» فقال للفارس «أيما أحب إليك

تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين» قال «أعيش برجل واحدة» قال «احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً». فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر فحطّ ساقه على قرمة خشب وقال للفارس «اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها» فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال «هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها. فحلقوه. وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف. فقال «الشيطان قد دخل في رأسها» فأخذ الموس وشقّ رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالمخ، فماتت في وقتها. فقلت لهم «بقي لكم إليَّ حاجة؟» قالوا «لا» فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه.

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك. كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برنارد فرمحه حصان في ساقه فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعاً والجراح كلما ختم موضع فتح موضع. فجاءه طبيب افرنجي فأزال عنه تلك المراهم بغسلها بالخل الحاذق. فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان.

ومن عجيب طبهم أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له أبو الفتح له ولد قد طلع في رقبته خنازير. وكلما ختم موضع فتح موضع. فدخل انطاكية في شغل له وابنه معه. فرآه رجل افرنجي فسأله عنه فقال «هو ولدي». قال «تحلف لي بدينك ان وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة حتى أصف لك دواء يبرئه». فحلف. فقال له «تأخذ له أشناناً غير مطحون تحره وتربيه بالزيت والخل الحاذق وتداويه به حتى يأكل الوضع. ثم خذ الرصاص المحرق وربّه بالسمن. ثم داوه به فهو يبرئه». فداواه بذلك فبرأ، وختمت تلك الجراح، وعاد إلى ما كان عليه من الصحة.

وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنفعه وزال ما كان يشكوه (الاعتبار ١٣٢ ـ ٤).

محاكمات افرنجية

[**محاكمات افرنجية**] : شهدت يوماً بنابلس وقد أحضروا اثنين للمبارزة. وكان سبب ذلك أن حرامية كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلاً من الفلاحين وقالوا «هو دلَّ الحرامية على الضيعة». فنفذ الملك فقبض أولاده. فعاد إليه وقال «انصفني، أنا أبارز الذي قال عني أني دللت الحرامية على القرية» فقال الملك لصاحب القرية المقطع «احضر من يبارزه». فمضى إلى قريته وفيها رجل حدَّاد فأخذه وقال له «تبارز» اشفاقاً من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته. فشاهدت هذا الحداد، وهو شاب قوي إلاَّ أنه قد انقطع، يمشي ويجلس يطلب ما يشربه، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلاّ أنه قوي النفس يزجر وهو غير محتفل

بالمبارزة. فجاء البسكند وهو شحنة البلد، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس، وجعل الناس حولهم حلقة.

والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحداد، وهو يتأخر حتى يلجئه إلى الحلقة، ثم يعود إلى الوسط. وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم. فطار الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة. ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة. وأعيى ذلك الشيخ. فضربه الحداد، فوقع، ووقعت عصاه تحت ظهره فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه في عينيه ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه. ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله. فطرحوا في رقبته في الوقت حبلاً وجرُّوه وشنقوه. وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف.

وهذا من جملة فقههم وحكمهم.

ومضيت مرة مع الأمير معين الدين، رحمه الله إلى القدس. فنزلنا نابلس. فخرج إلى عنده رجل أعمى، وهو شاب عليه ملبوس جيد معلم، وحمل له فاكهة وسأله في أن يأذن له في الوصول إلى خدمته إلى دمشق ففعل. وسألت عنه فخبرت أن أمه كانت مزوجة لرجل افرنجي، فقتلته. وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم، فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الافرنج. جلّسوا بتّية عظيمة وملأوها ماءً وعرضوا عليها دف خشب وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلاً ورموه في البتية ـ فإن كان بريّاً غاص في الماء، فرفعوه بذلك الحبل لا يموت في الماء، وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء. فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص، فما قدر فوجب عليه حكمهم (الاعتبار ١٣٨ ـ ٩).

ألقي القبض على أحد الفرسان في دار للدعارة، فخيِّر الفارس بين أمرين: إما أن تجرّه المرأة التي وجد معها عبر المعسكر وهو يرتدي قميصاً فقط. وإما أن يؤخذ منه سيفه وحصانه ويطرد، فاختار الأمر الثاني. وكانت هذه العقوبة حسب عادات البلاد (جوانفيل ٢٦٢).

بينما كان جماعة من فرساننا يتصيدون الغزلان طلع عليهم فريق من فرسان المستشفى وأجلوهم عن صيدهم. فشكوت هذا الفريق إلى رئيسهم، فوعدني أن يعاقبهم حسب ما تقضي به عادات البلاد، وذلك أنه أمرهم أن يأكلوا وهم جلوس على اقبائهم أياماً حتى يأتي المعتدى عليهم وينهضوهم، وعندئذٍ يزول الحقد من الصدور (جوانفيل ٢٦٣).

الصيد

[**الصيد**]: وكنت قد مضيت مع الأمير معين الدين، رحمه الله، إلى عكا إلى عند ملك الافرنج فلك بن فلك. فرأينا رجلاً من الجنوية قد وصل من بلاد الافرنج ومعه باز

كبير مقرنص يصيد الكركي، ومعه كلبة صغيرة إذا أرسل الباز على الكركي عدت تحته. فإذا أخذ الكركي وحطه عضته فلا يقدر على الخلاص منها. وقال لنا الجنوي «ان الباز عندنا إذا كان ذنبه ثلاث عشرة ريشة اصطاد الكركي» فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك.

فطلبه الأمير معين الدين، رحمه الله، من الملك فأخذه من ذلك الجنوي هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين. فجاء معنا. فرأيته في الطريق يثب إلى الغزلان كما يثب إلى اللحم. ووصلنا به إلى دمشق. فما طال عمره بها ولا صاد شيئاً ومات (الاعتبار ١٩٦).

وكان الوالد أكثر ما يستدعي البزاة ويشتريها من وادي ابن الأحمر بالغلاء. فأحضر قوماً من أهل الجبل القريب من شيزر من أهل بشيلا ويسمالخ وحلة عارا وتحدَّث معهم في أن يعملوا في مواضعهم مصايد للبزاة، ووهبهم وكساهم، فمضوا وعملوا بيوت الصيد. فاصطادوا بزاة كثيرة فراخاً ومقرنصة وزرارق. فحملوها إلى الوالد وقالوا «يا مولانا، نحن قد بطلنا معايشنا وزراعتنا في خدمتك، ونشتهي أن تأخذ منا كل ما نصيده وتقرّر لنا ثمناً لا نتجاذب فيه. فقرَّر ثمن الباز الفرخ خمسة عشر ديناراً، وثمن الزّرق المقرنص نصفها. وانفتح للجبليين أخذ دنانير بغير كلفة ولا تعب. إنما يعمل له بيتاً بحجارة على قد خلقته، ويغطيه بعيدان ويسترها بقش وحشيش ويجعل له نافذة. ويأخذ طير حمام يجمع رجليه على قضيب ويشدها إليه ويخرجه من تلك النافذة. يحرّك العود فيتحرَّك الطير ويفتح أجنحته، فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه. فإذا أحسَّ به الصيَّاد جذب القضيب إلى النافذة ومدَّ يده قبض رجلي الباز، وهو قابض للطير الحمام، وأنزله إليه وخيط عينيه. ويصبح من الغد يصلنا به، يأخذ ثمنه ويعود إلى بيته بعد يومين (الاعتبار ٢٠٠).

[**الصيد مع زنكي**] : وقد شاهدت صيد ملك الأمراء أتابك زنكي، رحمه الله. وكان له الجوارح الكبيرة. فرأيته ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية بالبزاة ترميها على طيور الماء وتدق الطبول كجاري العادة فتتصيَّد منها ما تصيده وتخطىء ما تخطىء ووراءهم الشواهين الكوهية على أيدي البازدارية. فإذا اصطادت البزاة وأخطأت ارسلوا الشواهين الكوهية على الطيور وقد أبعدت فتلحق وتصيد. وترسل على الحجل فتلحق الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتصيد. فإنها من سرعة الطيران على صفة عجيبة (الاعتبار ١٩٢).

في جنوب سورية

[**سكان جنوب سورية**] : بينما نحن في الطريق (بين نابلس والقدس) قابلتنا جماعة كبيرة من المسلمين يقودون الثيران والحمير وهم في طريقهم لحرث سهل

واسع جميل... وقد أثاروا في نفوسنا غير قليل من الذعر... والحق أنه يقيم في تلك الجهات عدد كبير منهم، كما يقيمون في المدن والقلاع ويعيشون من العمل في الأرض تحت إشراف ملك القدس أو رئيس الفرسان الهيكليين (ثيودوريتش ٦١).

[بدو]: فجمعتهم ورأيت بهم من الضرّ أمراً عظيماً. قد يبست جلودهم على عظامهم. قلت: «ايش أنتم؟». قالوا: «نحن من بني أُبي» وبنو أُبي فرقة من العرب من طيء يقولون «نحن خير العرب. ما فينا مجذوم ولا أبرص ولا زمن ولا أعمى». وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم.

قلت: «ما جاء بكم إلى هاهنا؟». قالوا: «لنا بحسمي كثول ذرة مطمورة جئنا نأخذها». قلت: «فمن أين تعيشون؟». قالوا: «من الرمة (يعنون العظام البالية الملقاة) ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف (شجر بتلك الأرض) ونتقوّت به». قلت: «كلابكم وحمركم؟». قالوا: «الكلاب نطعمهم من عيشنا، والحمر تأكل الحشيش». قلت: «فلِمَ دخلتم إلى دمشق؟». قالوا: «خفنا الوباء». ولا وباء أعظم مما كانوا فيه وكان ذلك بعد عيد الأضحى.

فوقفت حتى جاءت الجمال، وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا، وقطعت فوطة كانت على رأسي وأعطيتها للمرأتين. فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد. وقلت لا تقيموا هاهنا يسبوكم الافرنج (الاعتبار ١٢).

موكب أميرة

[موكب أمير]: وفي تلك العشية التي رحلنا فيها فجأتنا خاتون المسعودية المترفة شباباً وملكاً وهي قد استقلت في هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين الواحدة أمام الأخرى وعليهما الجلال المذهبة وهما يسيران بها سير النسيم سرعة ولياناً، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان، وهي ظاهرة في وسطه متنقبة وعصابة ذهب على رأسها، وأمامها رعيل من فتياتها وجندها، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق، ووراءها ركبٌ من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السرج المذهبة وعصبن رؤوسهنَّ بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بعذباتهنَّ وهنَّ يسرن خلف سيدتهنَّ سير السحاب، ولهنَّ الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها، وأبصرنا من نخوة الملك والنساء واحتفاله رتبة تهزُّ الأرض هزّاً، وتسحب أذايل الدنيا عزّاً (ابن جبير ٢٣٠ ـ ١).

الهوامش

(١) بلدوين.
(٢) أول نيسان (ابريل) ١١٠٩ م.

٤ ـ الشرق العربي في القرن الثالث عشر

بلاد الشام

عكا: عكا مدينة حصينة بأسوارها وأبراجها وخنادقها وبقية أعمال التحصين ذات القوة الهائلة... يحيط بها من الشرق سهلٌ متسع خصب جدًا سواء في ذلك أرضه المفتلح ومروجه وكرومه وبساتينه التي تنمو فيها أنواع مختلفة من الفاكهة. وفي داخل المدينة أمكنة كثيرة محصنة وقلاع وحصون تخصُّ الفرق المختلفة كفرقة المستشفى أو فرقة الهيكليين أو الجماعة التيوتونية. وعكاء يملكها ملك القدس، ولها ميناءٌ كبيرة جيدة في جنوبها تستطيع السفن أن ترسو فيها (بركارد ٩).

صور: دورة سور صور بها أكبر، في رأيي، من دورة سور عكا... وقد أقمت فيها مرة عشرة أيام... والماء في جهاتها كثير، وأهل صور يوزعون المياه على كل أجزاء السهل المحيط بالمدينة فيروون البساتين التي ينمو فيها الكرم وقصب السكر، وهو كثير، وينال صاحب صور منه رسوماً كثيرة (بركارد ١٠ ـ ١٢).

نابلس: تقع نابلس بين جبلين وهي جميلة، مليئة بالخيرات، لكنها ليست محصنة، ولا يمكن أن تحصن. وكل ما يستطيع أهلها أن يفعلوه إذا هاجمهم الأعداء من باب، أن يهربوا من الباب الآخر (بركارد ٥٣).

ولا يمكن تحصينها لأنه من السهل رمي الحجارة من الجبل إلى داخلها، ولا فائدة من التحصين (سنودو ١٣).

القطن: ينمو في أنجم يبلغ طولها إلى ركبة الرجل.. وينمو قصب السكر... وداخله مليء بمادة مسامية رطبة. يجمع القصب ويقطع صغيراً ويعصر ويغلى العصير الذي يخرج منه، ومتى صار لزجاً يوضع في سلال مصنوعة من العساليج، فيجف ويصبح صلباً. وهكذا يصنع السكر. ويتقطر منه قبل أن يجفَّ سائل يسمى عسل السكر، وهو لذيذ ويستعمل في صنع الكعك.

ويزرع قصب السكر بطريق العُقَل. وموعد غرسه في فصل الربيع.

وبعد أن يعدد البرتقال والليمون والخوخ يشير إلى الموز ويسميه الجنة. ويصفه بإسهاب.

وخمر الأرض المقدسة جيد ولذيذ (بركارد ٩٩ وما بعدها).

بغداد

بغداد مدينة كبيرة وهي مقرُّ الخليفة. ويخترق المدينة نهر كبير ينقل عليه التجار بضائعهم من البحر الهندي وإليه، والمدة تقدَّر بسبعة عشر يوماً لأن النهر كثير التعرج... ويمرُّ الملاحون في طريقهم من بغداد إلى البحر هذا بمدينة البصرة، التي تحيط بها حدائق النخيل. وتمرها أجود تمر في العالم.

ويصنع في بغداد الحرير المذهب والدمقس والمخمل (القطيفة) الموشَّى برسوم الطيور والحيوان. وأكثر اللآلىء التي تحمل إلى ديار الغرب تثقب في بغداد.

وبغداد مدينة علم فالشريعة الإسلامية والطبيعة والفلك وفنون السحر وعلم القيافة تدرس فيها.

والحق أن بغداد أنبل وأوسع مدينة في هذا الجزء من العالم (ماركو بولو ٣٠ ـ ٣١).

مصر

دلتا مصر: وفاضت مياه الأنهر السبعة على الأرض وغمرت السهل. ولما انحسرت المياه ذهب الفلاحون إلى الأرض وحرثوها، ومحاريثهم لا عجلات لها... ثم بذروا القمح والشعير والأرز... وقد أعطت هذه كلها غلة لا نظير لها. وليس يعرف أحدٌ لماذا تفيض المياه، ولكنها تعزى إلى إرادة الله... وإذا لم يفض النهر فلا ينمو زرع ولا نبات، لأن الحرَّ شديد والمطر لا ينزل هناك... ومياه النهر عكرة باستمرار، لذلك يحمل القوم الماء مساءً إلى بيوتهم ويضعون فيه أربع حبات من اللوز المقشور، أو من الفول، وفي الصباح تكون المياه رائقة فيشربونها (جوانفيل ١٨٢).

البلسان[1]: ومن ذلك البلسان فإنه لا يوجد اليوم إلاّ بمصر بعين شمس في موضع محاط عليه محتفظ به مساحته نحو سبعة أفدنة، وارتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك، وعليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين، وإذا مضغ ظهر في الفم منه دهنيته ورائحة عطره. وورقه شبيه بورق السنداب، ويجتنى دهنه عند طلوع الشعرى بأن تشدخ السوق بعدما يحث عنها جميع ورقها، وشدخها يكون بحجر يتخذ محدداً ويفتقر شدخها إلى صناعة بحيث يقطع القشر الأعلى ويشق الأسفل شقاً لا ينفذ إلى الخشب فإن نفذ إلى الخشب لم يخرج منه شيء. فإذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسهل لثاه على العود فيجمعه بإصبعه مسحاً إلى قرن. فإذا

امتلأ صبه في قناني زجاج ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع لثاه، وكلما كثر الندى في الجوّ كان لثاه أكثر وأغزر، وفي الجدب وقلة الندى يكون اللثا أنزر. ومقدار ما أخرج منه في سنة ست وتسعين وخمسمائة وهي عام جدب نيف وعشرون رطلاً. ثم تؤخذ القناني فتدفن إلى القيظ وحمارة الحرّ وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس ثم تتفقد كل يوم فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال أرضية. فيقطف الدهن ثم يعاد إلى الشمس ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها دهن فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيمه في الخفية لا يطلع على طبخه أحداً ثم يرفعه إلى خزانة الملك. ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عشر الجملة. وقال لي بعض أرباب الخبرة أن الذي يحصل من دهنه نحو من عشرين رطلاً، ورأيت جالينوس يقول إن أجود دهن البلسان ما كان بأرض فلسطين وأضعفه ما كان بمصر. ونحن فلا نجد اليوم منه بفلسطين شيئاً البتة (البغدادي ٢٢).

ومما تختصُّ به مصر الأفيون. وهو يجتنى من الخشخاش الأسود بالصعيد وكثيراً ما يغشُّه جُناته وربما غشوه بالعذرة. وعلامة الخالص منه أن يذوب في الشمس ويقد في السراج بلا ظلمة وإذا طفى تكون رائحته قوية، والمغشوش يسوّس سريعاً (البغدادي ٢٨).

أبنية مصر: وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية، حتى أنهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً من مصلحة. ودورهم أقبح وغالب سكناهم في الأعالي ويعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة، وقلما تجد منزلاً إلاّ وتجد فيه باذاهيج. وباذاهيجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام حتى أنه يقوم على عمارة الواحد منها ماية دينار إلى خمسمائة، وإن كانت باذاهيجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار. وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة. ويبنون بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق.

ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة، ويحفرون الكنف إلى المعين فتغبر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كسح. وإذا أرادوا بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوّض إليه العمل فيعمد إلى العرصة، وهي تل تراب أو نحوه، فيقسمها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ثم يعمد إلى جزءٍ آخر ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك (البغدادي ٥٢).

أطعمة مصرية: ومن غريب ما يتخذونه رغيف الصينية، وصفته أن يؤخذ من

الدقيق الحواري ثلاثون رطلاً بالبغدادي ويعجن مع خمسة أرطال ونصف سيرجاً عجن خبز الخشكنان. ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفاً في صينية نحاس قد اتخذت لذلك، سعة قطرها نحو أربعة أشبار ولها عرى وثيقة ثم يعبى على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوَّة الأجواف بلحم مدقوق ومقلوّ بالسيرج والفستق المهروس والأفاويه العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى والكزبرة والكمون والهال والجوزة ونحو ذلك. ويرشُّ عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك ثم يجعل على الخرفان. وبين خلالها عشرون دجاجة وعشرون فروجاً وعشرون فرخاً بعضه مشوي محشو بالبيض وبعضه محشو باللحم وبعضه مطجن بماء الحصرم أو بماء الليمون أو بنحو ذلك. ثم يشور بالسنبوسك والقماقم المحشوَّة باللحم بعضها، وبالسكر والحلوى بعضها. وإن شئت أن تزيده خروفاً آخر تتخذه شرائح فلا بأس. وكذا جبناً مقلواً فإذا نضد ذلك وصار كالفتة نضح عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك وعود ثم عطي بالقسم الثاني من العجين بعد أن يمدَّ رغيفاً ويلحم بين الرغيفين كما يلحم الخشكنان بحيث لا يخرج منه نفس أصلاً. ثم يقرّب إلى رأس التنور حتى يتماسك عجينه ويبتدىء في النضج فحينئذٍ ترسل الصينية في التنور بعراها رويداً رويداً. ويصبر عليه ريثما ينضج الخبز ويتورَّد ويحمر ثم يخرج ويمسح باسفنجة فيرش عليه ماء ورد ومسك ويرفع للأكل. وهذا الصنيع يصلح أن يحمل مع الملوك وأرباب الترف إلى منضداتهم النائية ومنتزهاتهم النازحة فإنه وحده جملة فيها تفضيل سهل المحمل عسر التشعث جميل المنظر مشكور المخبر يحفظ الحرارة مدة طويلة.

وأما عوامهم فقلما يعرفون شيئاً من ذلك. وأكثر أغذيتهم الصبر والصحناة والدلينس والخبز والنيدة ونحو ذلك. وشرابهم المزر وهو نبيذ يتخذ من القمح. ومنهم أصناف يأكلون الفار المتولد في الصحاري والغيطان عند انحطاط النيل ويسمونه سماني الغيط. وبالصعيد قوم يأكلون الثعابين. وبأسافل الأرض قد يتخذ نبيذ من البطيخ الأخضر. وبدمياط يكثر أكل السمك ويطبخ بكل ما يطبخ به اللحم من الرزّ السماق والمدققات وغير ذلك (البغدادي ٥٦).

الترقيد: من ذلك حضانة الفراريج بالزبل فإنه قلما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاجة وربما لم يفرقوه أيضاً. وإنما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجر فيها ويكتسب منها. وتجد في كل بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك. ويسمى الموضع معمل الفروج. وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التي يأتي ذكرها ما بين عشرة أبيات إلى عشرين بيتاً في كل بيت ألفا بيضة ويسمى بيت الترقيد. وصفته أن يتخذ بيت مربع طوله ثمانية أشبار في عرض ستة في ارتفاع أربعة ويجعل له باب في عرضه سعته شبران وعقد في مثله وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر ثم يسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب يعني نسيجاً منه وفوقه ساسي وهو مشاقة

الكتان وحطبه. ومن فوق ذلك الطين ثم يرصص بالطوب ويطين سائر البيت ظاهره وباطنه وأعلاه وأسفله حتى لا يخرج منه بخار. وينبغي أن تتخذ في وسط السقف شباكاً سعته شبر في شبر فهذا السقف يحكي صدر الدجاجة. ثم تتخذ حوضين من الطين المخمر بساس طول الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة إصبع وحيطانه نحو أربعة أصابع، ويكون هذا الحوض لوحاً واحداً تبسطه على أرض معتدلة. وهذا الحوض يسمى الطاجن فإذا جف الطاجنان ركبتهما على طرف السقف أحدهما على وجه الباب والآخر قباله على الطرف الآخر تركيباً محكماً وأخذت وصولهما بالطين أخذاً متفقاً وينبغي أن يكون قعود الطاجنين على خشب السقف بحيث يماسانه وهذان الطاجنان تحاكي بهما جناحا الدجاجة ثم يفرش البيت بقفة تبن ويمهد ويفرض فوقه ضب أوديس يعني حصيراً برديًا على مقداره سواء، ثم يرصف فوقه البيض رصفاً حسناً بحيث يتماسّ ولا يتراكب لتتواصل الحرارة فيه. ومقدار ما يسع هذا البيت المفروض ألفا بيضة. وهذا الفعل يسمى الترقيد. صفة الحضانة تبتدىء وتسد الباب بأن ترسل عليه لبداً مهندماً ثم تسد الطاقة بساسي والشباك أيضاً بساسي وفوقه زبل حتى لا يبقى في البيت منفس للبخار. وتلقى في الطاجنين من زبل البقر اليابس قفتين وتوقد فيه نار السراج من جميع جهاته وتهمله ريثما يرجع رماداً وأنت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن تضعه على عينك، وتعتبر حراراته. وهذا الفعل يسمى الزواق، فإن وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقلبات في ثلاث دفعات تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله. وهذا يحاكي تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها وتفقدها إياها بعينيها وهذا يسمى السماع الأول. فإذا صار الزبل رماداً أزلته وتركته بلا نار إلى نصف النهار إن كان ترقيده بكرة. وإن كان ترقيده من أول الليل حرسته إلى أن تحمي وتسمع النار كالسياقة المتقدمة. ثم تخلي الطاجنين من النار إلى بكرة ثم تجعل في الطاجن الذي على باب البيت من الزبل ثلاثة أقداح وفي الطاجن الذي على صدر البيت قدحين ونصفاً. ومدّ الزبل بمرود غليظ واطرح في كل منهما النار في موضعين منه وكلما خرجت من البيت بعد تفقده فارخ الستر، وإياك وان تغفل عنه لئلاّ يخرج البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل. وإذا كان وقت العشاء وصار الزبل رماداً ونزل الدفء إلى البيض أسفل البيت فغيّر الرماد من الطاجن بزبل جديد مثل الأول وأنت كل وقت تلمس البيض وتزوقه بعينك فإن وجدت حرارته زائدة عن الاعتدال تلذع العين فاجعل مكان الثلاثة الأكيال في طاجن الباب كيلين وربعاً في طاجن الصدر كيلين فقط. ولا تزال تواصل تغيير الرماد وتجديد الزبل والايقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة أيام بمقدار ما تكمل الشخوص بمشيئة الله وقدرته، وذلك نصف عمر الحيوان، ثم تدخل البيت بالسراج وترفع البيض واحدة واحدة وتقيمها بينك وبين السراج، فالتي تراها سوداء ففيها الفرخ والتي تراها شبه شراب أصفر في زجاج لا عكر فيه لاح بلا بذر، وتسمى

الأرملة فأخرجها فلا منفعة فيها. ثم تصبح بعد التلويح تنقص الزبل من العيار الأول ملء كفك من كل حوض بكرة ومثله عشية حتى ينصرم اليوم الرابع عشر ولم يبق من الزبل شيءٌ، فحينئذٍ يكمل الحيوان، ويشعرن ويتفتح، فاقطع إذن النار عنه فإن وجدته زائد الحرارة يحرق العين فافتح الطاقة التي على وجه الباب وأبقها كذلك يومين ثم ذقه على عينك فإن وجدته غالب الحرارة فافتح نصف الشباك وأنت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض الذي في الصدر إلى جهة الباب والبيض الذي في جهة الباب ترده إلى الصدر حتى يحمى البارد الذي كان في جهة الباب ويستريح الحار الذي في الصدر بشم الحواء فيصير في طريقه الاعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد، فيعتدل مزاجه. وهذا الفعل يسمى الحضانة كما يفعل الطير سواء. وتستمر على هذا التدبير دفعتين في النهار ودفعة في الليل إلى إتمام تسعة عشر أيضاً فإن الحيوان ينطق في البيض بقدرة الله تعالى وفي يوم العشرين يطرح بعضه، ويكسر القشر ويخرج وهذا يسمى التطريح. وعند تمام اثنين وعشرين يوماً يخرج جميعه، وأحمد الأوقات لعمله امشير وبرمهات وبرمودة وذلك في شباط وآذار ونيسان، لأن البيض في هذه المدة يكون غزير الماء كثير البذرة صحيح المزاج، والزمان معتدل صالح للنشأة والتكوين وينبغي أن يكون البيض طريًا. وفي هذه الأشهر يكثر البيض أيضاً[٢] (البغدادي ٣٠ ـ ٣٢).

القحط في مصر سنة ٥٩٧ هـ: وأول من هلك في هذه الطريق أهل الحرف عندما انتجعوا إلى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس. ولم تزل تتواصل هلكاهم إلى الآن. وانتهى انتجاعهم إلى الموصل وبغداد وخراسان وإلى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا كل ممزَّق (البغدادي ٦٧).

وأما خراب البلاد والقرى وخلوُّ المساكن والدكاكين فهو مما يلزم هذه الجملة التي اقتصصناها. وناهيك أن القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمرُّ عليها فتراها دمنة، وربما وجد فيها أحد وربما لم يوجد. وأما مصر فخلا معظمها وأما بيوت الخليج وزقاق البركة والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون أصلاً، بعدما كان كل قطر منها قدر مدينة زحمة من الناس حتى أن الرباع والساكن والدكاكين التي في سرّة القاهرة وخيارها أكثرها خالٍ خراب. وإن ربعاً في أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتاً كلها خالية سوى أربعة أبيت أسكنت من يحرس الموضع.

ومما يقضي منه العجب أن جماعة من الذين ما زالوا مجدودين سعدوا في دنياهم هذه السنة فمنهم من أثرى بسبب متجره في القمح، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل إليه بالإرث، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف. فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط (البغدادي ٦٨).

وحكي لي أنه كان بمصر تسع مائة منسج للحصر، فلم يبق إلاّ خمسة عشر

منسجاً. وقسْ على هذا لسائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الأصناف فإنه لم يبق من كل صنف من هؤلاء إلاّ نحو ما بقي من الحصريين أو أقل من ذلك (البغدادي ٦٩).

حوادث الجوع: ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظهر معها صغير مشوي تأكل منه، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره. فعاد تعجيب أشدَّ وما ذلك إلاّ لكثرة تكرُّره على إحساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه (البغدادي ٦٢).

وظهر من هؤلاء الخبثاء من يصيد الناس بأصناف الحبائل ويجتلبونهم إلى مكانهم بأنواع المخاتل، وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطباء ممن ينتابني. أما أحدهم فإن أباه خرج فلم يرجع، وأما الآخر فإن امرأة أعطته درهمين على أن يصحبها إلى مريضها فلما توغلت به في مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت درهميها، وأما الثالث فإن رجلاً استصحبه إلى مريضه في الشارع بزعمه وجعل في أثناء الطريق يصدف بالكسر ويقول اليوم يغتنم الصواب ويتضاعف الأجر ولمثل هذا فليعمل العاملون، ثم كثّر حتى ارتاب منه الطبيب. ومع ذلك فحسن الظن يغلبه وقوة الطمع تجذبه حتى أدخله داراً خربة فزاد استشعاره وتوقف في الدرج وسبق الرجل فاستفتح فخرج إليه رفيقه يقول له هل مع إبطائك حصل صيد ينفع، فخرج الطبيب لما سمع ذلك، وألقى نفسه إلى اصطبل من طاقة صادفها. فقام إليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفاً منه أيضاً، فقال قد علمت حالك فإن أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحبل (البغدادي ٦٣).

وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس بلد إلاّ وقد أكل فيه الناس أكلاً ذريعاً من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي (البغدادي ٦٥).

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فجّ ولا سيما طريق الفيوم والاسكندرية. وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخصون الأجرة على الركاب فإذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم. وظفر الوالي منهم بجماعة فمثَّل بهم وأقرَّ بعضهم عندما أوجع ضرباً أن الذي خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار.

وأما موت الفقراء هزالاً وجوعاً فأمرٌ لا يطيق علمه إلاَّ الله سبحانه وتعالى وإنما نذكر منه كالأنموذج يستدلُّ به اللبيب على فظاعة الأمر.

فالذي شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك أن الماشي أين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت ومن هو في السياق أو على جمع كثير بهذه الحال. يرفع عن القاهرة خاصة إلى الميضأة كل يوم ما بين مائة إلى خمسمائة، وأما مصر فليس

لموتاها عدد، ويرمون ولا يوارون. ثم بآخره عجز عن رميهم فبقوا في الأسواق بين البيوت والدكاكين. وفيها الميت منهم قد تقطع وإلى جانبه الشوّاء والخباز ونحوه (البغدادي ٦٦).

وأما طريق الشام فقد تواترت الأخبار انها صارت مزرعة لبني آدم بل محصرة وانه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وان كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم (البغدادي ٦٧).

الدجاج: وأما الدجاج فعدم رأساً لولا أنه جلب منه شيء من الشام. وحكي لي أن رجلاً مصريًا شارف الفقر فألهم أن اشترى من الشام دجاجاً بستين ديناراً وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثماني مائة دينار. ولما وجد البيض بيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثاً ثم أربع واستمرَّ على ذلك. وأما الفراريج فبيع الفروج بمائة درهم ولبث برهة يباع الفروج بدينار فصاعداً.

الأملاك: وأما الأملاك ذات الأجر المعتبرة فإن معظمها خلا أو لم يبقَ دأب أهلها إلاّ حراستها بسد أبوابها وتحصين مسالكها أو إسكانها من يحرسها بأجرة الله إلاَّ ما كان من الملك في قصبة المدينة فإن بعضه مسكون بأخف أجرة وأعرف ربعاً في أعمر موضع بالمدينة كانت أجرته في الشهر مائة وخمسين ديناراً فعادت في هذه السنة إلى نحو عشرين ديناراً، وآخر في مثل موضعه كانت أجرته في الشهر ستة عشر ديناراً فعادت إلى فويق الدينار وجميع ما لم نذكره على هذا القياس أفهمه (البغدادي ٧٠).

درس التشريح: ومن عجيب ما شاهدنا أن جماعة ممن ينتابني في الطب وصلوا إلى كتاب التشريح فكان يعسر افهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان. فأخذنا ان بالمقس تلاً فيه رمم كثيرة فخرجنا إليه فرأيناه تلاً من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى به نحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفاً فصاعداً وهم على طبقات في قرب العهد وبعده. فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علماً لا نستفيده من الكتب. أما أنها سكتت عنها أو لا يفي لفظها بالدلالة عليه أو يكون ما شاهدناه مخالفاً لما قيل فيها (البغدادي ٧٣).

مصر كما رآها ابن سعيد: قال ابن سعيد ولما استقررت بالقاهرة تشوَّقت إلى معاينة الفسطاط فسار معي إليها أحد أصحاب القرية فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لي بمثلها في بلد. فركب منها حماراً وأشار إليّ أن أركب حماراً آخر فأنفت من ذلك على عادة من أخلفته

في بلاد المغرب فأخبرني أنه غير معيب على أعيان مصر، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزّة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت، وعندما استويت راكباً أشار المكاري إلى الحمار فطار بي وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعاينت ما كرهته. ولقلة معرفتي بركوب الحمار وشدة عدْوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المكاري وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت:

لقيت بمصر أشدَّ البوار ... ركوب الحمير وكحل الغبار
وخلفي مكارٍ يفوق الرياح ... لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلاً فلا يرعوي ... إلى أن سجدت سجود العثار
وقد مدَّ فوقي رواق الثرى ... وألحد فيها ضياء النهار

فدفعت إلى المكاري أجرته وقلت له إحسانك ان تتركني أمشي على رجلي، ومشيت إلى أن بلغتها. وقدّرت الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين. ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرَّة وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضي إلى خراب مغمور بمبانٍ مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف. فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال إلى أن صرت في أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا تفي به إلاّ مشاهدته ومقاساته، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرت ضده في جامع اشبيلية وجامع مراكش ثم دخلت إليه فعاينت جامعاً كبيراً قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه وتنبسط فيه. وأبصرت العامة رجالاً ونساءً قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق. والبيَّاعون يبيعون فيه أصناف المسكّرات والكعك وما سوى ذلك. والناس يأكلون في عدة أمكنة منه غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك. وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقاً. وفضلات مأكلهم مطروحة في صحن الجامع، وفي زواياه العنكبوت قد عظم نسجه في السقف والأركان والحيطان. والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة. إلاّ أن مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع اشبيلية مع زخرفة (المقرِّي ١: ٤٨٦).

واستحسنت ما أبصرته من خلق المتصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدة أماكن وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك. ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلاّ بالجد والتعب.

ثم انفصلنا من هناك إلى ساحل النيل فرأيت ساحلاً كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض. إلاّ أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار النيل. ولئن قلت إني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإني أقول حقًا.

والحال أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والألفة، مما يطول ذكره. وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي فإنه فوق ما يوصف، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد. وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى. لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند كما أن جميع زيّ الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط. وكذلك ما ينسج ويصاغ، وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية والحراب في الفسطاط كثير. والقاهرة أجدّ وأعمر وأكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان إليها وسكنى الأجناد فيها (المقري ١: ٤٨٧)،

والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطاني لأن هنالك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين. ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية. ولكن ذلك أمد قليل ثم تسير منه إلى أمد أضيق وتمرُّ في مكان كدر حرج بين الدكاكين إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور وتسخن منه العيون. ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الأمراء وهو في موكب جليل وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين. ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه وقد كان يهلك المشاة وكدت أهلك في جملتهم. وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها. ولم أرَ في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالاً في ذلك. ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري وتدركني وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين. ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم ويموت الإنسان فيها عطشاً لبعدها عن مجرى النيل لئلاّ يصادرها ويأكل ديارها. وإذا احتاج الإنسان إلى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور إلى موضع يعرف بالمقس. وجوهاً لا يبرح كدراً مما تثيره الأرض من التراب الأسود.

والفسطاط أكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط. والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة. والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط، لأنها أجلُّ مدارس وأضخم خانات وأعظم ديارا بسكنى الأمراء

فيها لأنها المحفوفة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها. فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز، وسائر الأشياء التي تتزين بها الرجال والنساء... ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة... والمعايش فيها متعذرة نزِرة لا سيما أصناف الفضلاء، وجوامك المدارس قليلة كدرة... والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته... (المقري ١: ٤٨٩).

فرسان السلطان: والقسم الأكبر من فرسان السلطان أصله رقيق حمله التجار من بلاد غريبة وباعوه بأسعار عالية... وقد يكون بعضهم أسرى حرب أخذهم الأمير الظافر بدل الضريبة التي لم يكن للمقهورين أن يدفعوها.

والسلطان يحتفظ بالأولاد منهم في قصره حتى يطرَّ شاربهم، وعندها يعطى لكلّ القوس التي يستطيع أن يثنيها. والضعفاء منهم يوضعون في دور السلاح ليعملوا هناك... وأما الأقوياء فيصبحون فرساناً يحملون سلاح السلطان وشاراته (أي ركنه) وهؤلاء هم رجال الحلقة، أو حرس السلطان الخاص فينامون في حراسته، وإذا كانوا في المعسكر ناموا حوله ليتمكنوا من القيام بذلك (جوانفيل ٢٠٥).

ويقيم قرب خيمة السلطان حملة الأبواق والطبول، ويضربونها مرة عند الفجر وأخرى عند الغروب، فتدوي في أنحاء المعسكر جميعها... أما في غير هذين الوقتين فلا تقرع الطبول إلاّ بأمر رئيس الحلقة، وذلك عندما يريد السلطان أن يبلغ امراءه أمراً هامّاً.

ومن رجال الحلقة يختار السلطان أمراء جنده، فيوليهم إمرة مئة أو مئتين أو ثلثمئة من الجند (جوانفيل ٢٠٥).

الهوامش

(١) شغل زيت البلسان ونباته جميع الكتاب والرحّالين في العصور الوسطى فذكره ولبولد وحمل بعضه من فلسطين (*Early Travels*, 12) وأشار إليه الحاج المجهول في القرن الثاني عشر ويقول إن المصريين سرقوه من فلسطين (راجع *Anonymous Pilgrims*, V. 2p. 34) أما بركارد فيقول إنه كان يزرع حول عين جدي - على شاطىء البحر الميت. لكن كليوباترة نقلته من هناك إلى مصر (ص ٦٢). وينقل سنودو هذه الرواية عن بركارد (ص ٣١) ثم يصف حديقة البلسان في القاهرة (ص ٩٥). وكذلك فون سوخم (ص ٦٨ - ٧٠) ويضيف ان الثيران التي تدير ناعورة الماء في حديقة البلسم بالمطرية تمتنع عن العمل من ظهر السبت إلى ظهر الأحد من كل أسبوع. وقد وصف مندفيل هذه الحديقة (ص ١٥٢). راجع بحثاً مفصلاً عن في Heyd, II. pp. 576 ff.

(٢) راجع أيضاً سوخم ص ٦٧ ومندفيل ص ١٥٢. وقد روى القلقشندي أن أحد الناس أراد أن يرقد البيض في الشام فطلع له ذلك في الصيف ولم يطلع في غير ذلك (صبح الأعشى ٤: ٨٨).

٥ ـ الشرق العربي في القرن الرابع عشر

الموانىء وتجارتها

طرابلس: وهي الآن مدينة ممتدة كثيرة الزحام وبها مساجد ومدارس وزوايا وبيمارستان وأسواق جليلة وحمامات حسان. وجميع بنائها بالحجر والكلس مبيضاً ظاهراً وباطناً، وغوطتها محيطة بها، وتحيط بغوطتها مزروعاتها وهي بديعة المشترف ولها نهر يحكم على ديارها وطباقها، يتخرق الماء في مواضع من أعالي بيوتها لا يرقى إلاّ بالدرج العلية. وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء وذات أشجار وكروم ومروج ومواش. وميناها مينا جليلة تهوي إليها وفود البحر الرومي وترسو بها مراكبهم وتباع بها بضائعهم. وهي بلدة متجر وزروع كثيرة الفائدة (صبح الأعشى ٤ ـ ١٤٣).

ومدينة طرابلس هي إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الأنهار وتحفها البساتين والأشجار ويكنفها البحر بمرافقه العميمة والبرُّ بخيراته المقيمة. ولها الأسواق العجيبة، والمسارع الخصيبة. والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء ـ وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زماناً فلما استرجعها الملك الظاهر خربت واتخذت هذه الحديثة. وبهذا المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك (ابن بطوطة ٣٧).

صور: للمدينة ميناءان مثل عكاء، الداخلي لسفن المدينة، والخارجي للأجانب وهي حصينة، ويحرس ميناءها برجان تسحب بينهما سلسلة[١] (سوخم ٥١).

عكاء: وعكاء اليوم تسكنها حامية صغيرة من المسلمين لا يتجاوز عددها الستين، تتولى حراسة المدينة والميناء. ويعيش أفرادها من الحرير والطيور، لأن الحجل في جهاتها كثير (سوخم ٥٠ وما بعدها).

الاسكندرية: أكبر ميناء مصري وإحدى المدن الكبرى في ملك السلطان. والمدينة جميلة جداً وحصينة تحيط بها أبراج عالية وأسوار يخيّل إليك انه لا يمكن

ثغرها... داخلها نظيف مبيض. وعند كل ناصية شارع يوجد سبيل ماء. يشرف على نظافتها حراس، عملهم أن يزيلوا الأقذار التي تطرحها السابلة في الشوارع. ويحتفظ السلطان في هذه المدينة بجنده من المرتزقة وحرسه الخاص الذين يترتب عليهم حراسة المدينة والميناء.

وفي المدينة كنائس كثيرة واحدة منها كبيرة يقام فيها القداس على طريقة البنادقة... وفيها كثير من النصارى والتجار... ومع أن المدينة تبدو للعيان غير قابلة للثغر، فإنه من السهل فتحها. لكنني لا أريد أن أتحدث عن ذلك الآن... وعلى مقربة من الاسكندرية قرية يتقن أهلها صناعة الحصر، ويتفننون في صنعها (سوخم ٤٥).

البصرة: وكنت رأيت عند قدومي عليها على نحو ميلين منها بناءً عالياً مثل الحصن فسألت عنه فقيل لي هو مسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد في وسطها وبينه الآن وبينها ميلان وكذلك بينه وبين السور الأول المحيط بها نحو ذلك، فهو متوسط بينهما. ومدينة البصرة إحدى أمهات العراق الشهيرة الذكر في الآفاق الفسحة الأرجاء المونقة الأفنان ذات البساتين الكثيرة والفواكه الأثيرة توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت مجمع البحرين الأجاج والعذب، وليس في الدنيا أكثر منها نخلاً فيباع التمر في سوقها بحساب أربعة عشر رطلاً مراقبة بدرهم، ودرهمهم ثلث النقرة ولقد بعث إليَّ قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف فأردت بيعها فبعت بتسعة دراهم أخذ الحمال منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل إلى السوق. ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان وهو طيب كأنه الجلاب. والبصرة ثلاث محلات إحداها محلة هذيل وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير من الكرماء الفضلاء أضافني وبعث إليّ بثياب ودراهم، والمحلة الثانية محلة بني حرام كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسني ذو مكارم وفواضل أضافني وبعث إليَّ التمر والسيلان والدراهم، والمحلة الثالثة محلة العجم كبيرها جمال الدين بن اللولكي. وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه فلا يستوحش فيما بينهم غريب (ابن بطوطة ١١٥).

ثم ركبت من ساحل البصرة في صنبوق وهو القارب الصغير إلى الإبلة، وبينها وبين البصرة عشرة أميال في بساتين متصلة ونخيل مظلة على اليمين واليسار، والبياعة في ظلال الأشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه. وفيما بين البصرة والابلة متعبد سهل بن عبد الله التستري فإذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادي ويدعون عن ذلك تبرُّكاً بهذا الوليّ رضي الله عنه. والنواتية يجدِّفون في هذه البلاد وهم قيام. وكانت الابلة مدينة عظيمة يقصدها تجار

الهند وفارس فخربت وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمتها (ابن بطوطة ١١٧).

عدن: وعدن على ساحل البحر ذات حط وإقلاع وهي أعظم المراسي باليمن... وبها قلعة حصينة. وهي خزانة ملوك إلاّ أنه ليس بها زرع ولا ضرع، وهي فرضة اليمن ومحطُّ رحال التجار. ولم تزل بلد تجارة من زمن التبابعة وإلى زماننا. عليها ترد المراكب الموصلة من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة. ويمتاز أهل كل اقليم منها ما يحتاجون إليه من البضائع... ولا يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار واردين عليها وبضائع شتى ومتاجر منوَّعة. والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجائر مربحة. ولحطِّ المراكب عليها وإقلاعها مواسم مشهورة، فإذا أراد ناخوذة (أي وكيل السفينة) السفر بمركب إلى جهة من الجهات أقام فيها علماً برنك خاص به فيعلم التجار بسفره ويتسامع الناس. فيبقى كذلك أياماً، ويقع الاهتمام بالرحيل وتسارع التجار في نقل أمتعتهم، وحولهم العبيد بالقماش السري والأسلحة النافعة وتنصب على شاطىء البحر الأسواق ويخرج أهل عدن للتفرج هناك... والمقيم في عدن يحتاج إلى كلفة في النفقات لارتفاع الأسعار بها في المآكل والمشارب. ويحتاج المقيم بها إلى ما يتبرَّد به في اليوم مرات في زمن قوة الحر... ولكن أهلها لا يبالون بكثرة الكلف ولا بسوء المقام لكثرة الأموال النامية (صبح الأعشى ٥: ١١).

مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم والجبال تحفُّ بها ولا مدخل إليها إلاَّ من جانب واحد وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء. بها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر، والماء على بعد منها فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب. وهي شديدة الحرّ وهي مرسى أهل الهند تأتي إليها المراكب العظيمة من كنيليت وتانه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابو وغيرها. وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضاً. وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك. وللتجار منهم أموال عريضة وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة (ابن بطوطة ١٥٩).

عمان: وسلطانها عربيٌّ من قبيلة الأزد بن الغوث ويعرف بأبي محمد بن نبهان، وأبو محمد عندهم سمة لكل سلطان يلي عمان كما هي أتابك عند ملوك اللور. وعادته أن يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ولا يمنع أحداً من الدخول إليه من غريب أو غيره. ويكرم الضيف على عادة العرب ويعين له الضيافة ويعطيه على قدره وله أخلاق حسنة، ويؤكل على مائدته لحم الحمار الأنسي ويباع

بالسوق لأنهم قائلون بتحليله ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد ولا يظهرونه بمحضره (ابن بطوطة ١٥٩).

المدن الكبرى

في النيل: ومن هذه المدينة (الاسكندرية) ركبت النيل مصعِّداً إلى مصر ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض. ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد لأنه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك. والأسواق متصلة من مدينة الاسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد (ابن بطوطة ١٩).

القاهرة: مصر هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة، بجميع الوارد والصادر ومحطّ رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها. شبابها يجدُّ على طول العهد وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد، فبهرت قاهرتها الأمم وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم. ولها خصوصية النيل الذي جلَّ خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها. وأرضها مسيرة شهر لمجدّ السيرة كرية التربة مؤنسة لذوي الغربة.

ويقال أن بمصر من السقائين على الجمال اثني عشر ألف سقاء وإن كان بها ثلاثين ألف مكان وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية تمرُّ صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق. وعلى ضفة النيل بما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج به والبساتين الكثيرة الحسنة. وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو، شاهدت بها مرة فرجة بسبب برءِ الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياماً (ابن بطوطة ١٩).

بين مصر وفلسطين: وبكل منزل منها فندق وهم يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوابهم، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته.

ومن منازلها قطيا المشهورة (وهي بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحروف مفتوحة وألف، والناس يبدلون الفها هاء تأنيث) وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث. وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود. ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب. ولا يجوز عليها أحد من الشام إلاَّ ببراءة

من مصر، ولا إلى مصر إلاَّ ببراءة من الشام، احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس العراقيين. وطريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه فإذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر. ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل فإن وجده به أثراً طالب العرب باحضار مؤثره، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم، فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء. وكان بها في عهد وصولي إليها عز الدين استاذ الدار اقماري من خيار الأمراء اضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معي. وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف وهو يعرف المغاربة وبلادهم فيسأل من ورد منهم من أي بلادٍ هو لئلاّ يلبس عليهم فإن المغاربة لا يعترضون جوازهم على قطيا. ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر متسعة الأقطار كثيرة العمارة حسنة الأسواق بها المساجد العديدة والأسوار عليها[٢] (ابن بطوطة ٣١).

نابلس: مدينة نابلس وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق. وبها تصنع حلواء الخرُّوب وتجلب إلى دمشق وغيرها (وكيفية عملها) أن يطبخ الخرُّوب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرُّب فتصنع منه الحلواء ويجلب ذلك الرُّب أيضاً إلى مصر والشام وبها البطيخ المنسوب إليها وهو طيب عجيب (ابن بطوطة ٣٥).

دمشق: ودمشق عظيمة فخمة جميلة وغنية بكل أنواع المتاجر وفي كل ناحية منها شيءٌ مبهج، وإن كانت تغلب عليها الصنعة. فالطعام فيها كثير، وكذلك التوابل والحجارة الكريمة والحرير واللآلىء والأقمشة المقصبة والطيوب من الهند وبلاد التتار ومصر وسورية والبلاد الواقعة إلى جهتنا (أوروبة) من البحر المتوسط. وكل ما يتمنى المرء يجده فيها... وأنهارها وبساتينها مهيأة للإنسان ليستمتع بها ويتنعم. وهي كثيرة السكان إلى حد لا يصدق. ويقيم فيها الصناع المختلفون والتجار. وتزين داخلها الحمامات الكثيرة، والطيور التي تصدح طول العام، وغير ذلك من المبهجات والأمور السارة.

وتقوم صناعاتها المختلفة كلٌّ في حي خاص. وكل صانع يجعل أمام بيته مكاناً يعرض فيه مصنوعاته عرضاً يلفت النظر ويغري بالشراء. وكذلك يفعل التجار في سلعهم. وكل ما يصنع فيها متقن والتجار يحتفظون بالطيور في أقفاص أمام بيوتهم... ومع أن المدينة مزدحمة بالسكان، ومع أن البضائع تترك في الشوارع دون حراسة، فليس ثمة من يذكر أن أحداً قتل في دمشق وقلما تسرق فيها السلع المعروضة للبيع[٣] (سوخم ١٢٩).

الموصل: وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج. وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد إلى أسفله وعلى البلدين سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد يمكن فتحها فيه السعة. ولم أرَ في أسوار البلاد مثله إلاَّ السور الذي على مدينة دهلي حاضرة ملك الهند. وللموصل ربضٌ كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شبابيك حديد وتتصل به مساطب تشرف على دجلة في النهاية من الحسن والاتقان وأمامه مارستان (ابن بطوطة ١٤٨).

حماة: حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالأفلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي ولها ربض سمي بالمنصورية أعظم من المدينة فيه الأسواق الحافلة والحمامات الحسان وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزي (ابن بطوطة ٣٨).

سرمين: سرمين وهي حسنة كثيرة البساتين وأكثر شجرها الزيتون وبها يصنع الصابون الأجري ويجلب إلى مصر والشام ويصنع بها أيضاً الصابون المطيب لغسل الأيدي ويصبغونه بالحمرة والصفرة. ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب إليها وأهلها سبابون يبغضون العشرة ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادي سماسرتهم بالأسواق على السلع فإذا بلغوا إلى العشرة قالوا تسعة وواحد (ابن بطوطة ٣٩).

بعلبك[٤]: مدينة بعلبك حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة وتخترق أرضها الأنهار الجارية وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية. وبها من حب الملوك ما ليس في سواها وبها يصنع الدبس المنسوب إليها، وهو نوع من الرُّب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن ويسمونها أيضاً بجلد الفرس وهي كثيرة الألبان وتجلب منها إلى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجدّ.

ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة إليها من الأحرام وغيره ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد. وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها وأخرى تسع في جوفها وأخرى في

جوفها إلى أن يبلغوا العشر يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة، وكذلك الملاعق ويصنعون منها عشراً واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه وإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعاً (ابن بطوطة ٤٩).

بين الحجاز والعراق: كان في الركب جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين لا يحصى عديدهم تموج بهم الأرض موجاً ويسيرون سير السحاب المتراكم فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضلَّ عنه لكثرة الناس. وفي هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض. وإذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه. وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي. كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد. وفي هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة وأنواع الأطعمة والفواكه وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل أمام القطار والمحارات فترى الأرض تتلألأ نوراً والليل قد عاد نهاراً (ابن بطوطة ١٠٧).

وسافرنا إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ولا سبيل للسفر في تلك الأقطار إلاّ بصحبتهم فاكتريت جملاً على يد أمير تلك القافلة شامر بن دارج الخفاجي (ابن بطوطة ١١٣).

واسط: وهي حسنة الأقطار كثيرة البساتين والأشجار. بها أعلام يهدي الخبر شاهدهم وتهدي الاعتبار مشاهدهم وأهلها من خيار أهل العراق بل هم خيرهم على الإطلاق. أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة وإليهم يأتي أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك. وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ. وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعليم القرآن، عمّرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي وهو من كبار أهلها وفقهائها ويعطى لكل متعلّم بها كسوة في السنة ويجري نفقته في كل يوم يقعد هو وإخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة. وقد لقيته وأضافني وزوّدني تمراً ودراهم. ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثاً بخارجها للتجارة (ابن بطوطة ١١٤).

دخلت المدينة على باب بغداد ووصلنا إلى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن سوق رأيتها في بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتزت بسوق الجوهريين فحار بصري مما رأيته من أنواع الجواهر وهي بأيدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين أيدي التجار

يعرضون الجواهر على نساء الأتراك وهنَّ يشترينه كثيراً ويتنافسن فيه فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك وأعظم (ابن بطوطة ١٤٧).

مكة: كل طرفة تجلب إليها وثمرات كل شيءٍ تجبى لها ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له في الدنيا. وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيباً وحلاوة، واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم وكل ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه. وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة وبطن مر.

وخدَّام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم وهم على هيئات حسان وصور نظاف ملابس ظراف وكبيرهم يعرف بشيخ الخدَّام وهو في هيئة الأمراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام ويؤتى إليهم بها في كل سنة. ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الإمام المحدِّث الفاضل جمال الدين المطري من مطرية بمصر (ابن بطوطة ٧٣).

ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم انه متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له ولا يردّهم خائبين ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر. ومن أفعالهم الحسنة ان الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلاً فيأتي الرجل من أهل مكة السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطي ذلك للصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته. فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس. وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيراً ويكحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر. ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهنَّ يكثرن التطيب حتى إن إحداهنَّ لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً، وهنَّ يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي وتغلب على الحرم راحة طيبهنَّ وتذهب المرأة منهنَّ فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً (ابن بطوطة ٩١).

وأهل مكة لا يأكلون في اليوم الاّ مرة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها مثل

ذلك الوقت. ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر ولذلك صحت أبدانهم وقلّت فيهم الأمراض والعاهات.

والحسب عندهم أن يعطي أحدهم هدية من عمامة أو شاشية بمحضر الناس تكون جوازاً لمن أعطيته ولا تزول حرمتها معه حتى يريد الرحلة والتحوُّل عن مكة (ابن بطوطة ٩٣).

الحياة الاجتماعية في القرن الرابع عشر

الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيه على حدة. وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها، وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر. وبها المذاهب الأربعة لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس. وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ويقعد المدرّس وعليه السكينة والوقار لابساً ثياباً سوداً، معتمّاً، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه. وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة. وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء (ابن بطوطة ١٤١).

تبوك: ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا منزل تبوك أخذوا أسلحتهم وجرَّدوا سيوفهم على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم يقولون هكذا دخلها رسول الله ﷺ. وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروي منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك. ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين، ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام ويسقون منها الجمال ويملأون الروايا والقرب. ولكل أمير أو كبير حوض يسقي منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقي جمله وملء قربته بشيءٍ معلوم من الدراهم (ابن بطوطة ٦٨).

في دمشق : وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً، وإنما يخرجون إلى المنتزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم إلى الليل (ابن بطوطة ٥٢).

حول الجامع: وللباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنه يذهب إلى دار الخيل. وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي من أحسن أسواق دمشق (ابن بطوطة ٥٥).

وقد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة وفي الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود منها دكان للشافعية وسائر أصحاب المذاهب يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول والعاقد للأنكحة من قبل القاضي. وسائر الشهود مفترقون في المدينة وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد (ابن بطوطة ٥٥).

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم والمحدِّثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة وقرَّاء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساءً وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم. وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى وإنما يقرأون تلقيناً ومعلِّم الخط غير معلِّم يعلِّمهم بكتب الأشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب. وبذلك جاد خطه لأن المعلم للخط لا يعلِّم غيره (ابن بطوطة ٥٦).

الطاعون بدمشق: شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق في أواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه، وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر منادياً بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ولا يطبخون بالسوق. فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس. ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غصَّ بهم وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصلٍّ وذاكرٍ وداعٍ. ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعاً على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة وخرج جميع أهل البلد ذكوراً وإناثاً صغاراً وكباراً وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه وقصدوا مسجد الاقدام وأقاموا به في تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال وعادو إلى البلد فصلوا الجمعة. وخفف الله تعالى عنهم فانتهى عدد الموتى إلى الفين في اليوم الواحد وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفاً في يوم واحد[٥] (ابن بطوطة ٦٠).

الأوقاف: والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحجُّ عن الرجل منهم كفايته. ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهنَّ وهنَّ اللواتي لا قدرة لأهلهنَّ على تجهيزهنَّ. ومنها أوقاف فكاك الأسارى. ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزوَّدون لبلادهم. ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها

رصيفان في جنبيه يمرُّ عليهما المترجلون ويمرُّ الركبان بين ذلك. ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير.

مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم أجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا.

وأهل دمشق يتبارون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له وجهٌ من وجوه المعاش من إمامة مسجداً أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقة أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجري له النفقة والكسوة فمن كان بها غريباً على خير لم يزل مصوناً عن بذل وجهه محفوظاً عما يزري بالمروءة، ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أُخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح. ومن أراد طلب العلم والتفرُّغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك. ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فإنه يدعو أصحابه، والفقراء يفطرون عنده. ومن كان من التجار وكبار السوق صنع مثل ذلك ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتي كل واحد بما عنده فيفطرون جميعاً (ابن بطوطة ٦٣ ـ ٤).

مدارس مصر: وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها. وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة السلطان قلاوون فيعجز الوصف عن محاسنه وقد أعدَّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ـ يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقاه وأمراء مصر يتنافسون في بناء الزوايا. وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم من الأعاجم وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوُّف. ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب. ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام، فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه في إناءٍ على حدة لا يشاركه فيه أحد. وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف

ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين ولهم الحلاوة من السكر في ليلة كل جمعة، والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح. وهم أعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة ويشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية. ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به وإذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عمَّ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزءاً ويختمون القرآن ويذكرون ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر. ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة وبيمناه العكاز، وبيسراه الإبريق فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج إليه ويسأله من أي البلاد أتى وبأي الزوايا نزل في طريقه ومن شيخه فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادته في موضع يليق به وأراه موضع الطهارة. فيجدِّد الوضوء ويأتي إلى سجادته فيحل وسطه ويصلي ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم. ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هنالك فيخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجادته فإذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم (ابن بطوطة ٢٠).

يوم دوران الجمل: يوم دوران الجمل يوم مشهور وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعاً باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج إليهم المحمل على جمل، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ومعه عسكره، والسفاؤون على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل وجميع ما ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر، والحداة يحدون أمامهم. ويكون ذلك في رجب فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الأشواق وتتحرَّك البواعث ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده، فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد (ابن بطوطة ٢٦).

جيوش السلطان: يستطيع السلطان أن يجند من مصر وحدها ما يزيد عن عشرين ألفاً من الرجال، ومن سوريا وما إليها ما يزيد عن خمسين ألفاً. وكلهم في خدمته ودائماً على قدم الاستعداد... وكل واحد يتناول ١٢٠ فلورن[٦] في السنة ينفق منها على ثلاثة خيول وجمل واحد. ويدبر شؤون الناس في العواصم والمدن نوَّاب...

وكلُّ أمير جندٍ يتناول مرتباً يساوي مجموع مرتبات الجند التابعين له. ومن ثمَّ فالمكافأة التي ينتظرها الرجل الشجاع من السلطان هي أن يجعل أميراً على جنده (مندفيل ١٤٦ ـ ٧).

الهوامش

(١) يلاحظ مندفيل أن حكام البلاد يعتنون بميناء صور خشية عليها من حملات الأوروبيين (مندفيل ص ١٤١) كذلك يهتم سنودو بهذه المسألة، راجع سنودو في Gesta Dei الجزء السادس الفصل الرابع.

(٢) يذكر مندفيل أن الخانات بين غزة ودير كاترينا بسيناء كثيرة ويجد فيها المسافر كل ما يحتاج إليه (مندفيل ١٤٤).

(٣) راجع أيضاً وصف مندفيل لدمشق (مندفيل ١٩٠) ويقول إنها كثيرة الأطباء.

(٤) يذكر بروكييه «ص ٣٠٨» أن بعلبك مدينة تجارية كبيرة.

(٥) جاء في رسالة تاريخها ١٤٣٤ م أنه توفي في الطاعون خمسمئة شخص في يوم واحد في دمشق وتسعون شخصاً في القدس (راجع ايليا الفراري ؛ ادلر ص ١٥٢).

(٦) كانت قيمته في ذلك الوقت تتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ مليم.

٦ ـ الشرق العربي في القرن الخامس عشر

الموانىء

يافا : أما الآن فيافا متهدِّمة وكل ما فيها بضع من الخيام يأوي إليها الحجاج ليتقوا شرَّ الشمس الحارّة. ميناؤها ضحل، وخطر لأنه معرَّض للعواصف.

ومتى نزل الحجاج أسرع موظفو السلطان ليستوثقوا من عددهم ويقبضوا ضريبة السلطان ويتقدم الادلاء لإرشادهم (بروكييه ٢٨٦).

كان (في يافا) ثمة جماعة كبيرة من الجند المسلحين... وكان هناك ثلاثة من حكام الجهة: حاكم القدس وحاكم الرملة وحاكم غزة. فتقدم إليهم ربابنة السفن، حاملين الهدايا التي رؤوا أن يسترضوهم بها... فتقبلها هؤلاء ووعدوا بتقديم كل المساعدة.. ولما سئلوا عن سبب ازدحام الجنود المسلحين قالوا إن العربان قد هجموا على البلاد وعاثوا فيها فساداً، وأن القصد من الجماعة المسلحة أن تحمي الحجاج في تنقلهم في البلاد (فابري ٧: ٢١٩).

ولما انتهينا من تقديم صلوات الشكر على وطوئنا برّ الأرض المقدسة انتقلنا إلى حيث كان «الأب الحارس لدير جبل صهيون» واقفاً مع حكام البلاد وشيوخ العرب والمسلمين ومعهم كاتب. وكان على الحجاج أن يمرُّوا بينهم فرادى... وكانوا يفحصون كل واحد منا ويسجلون اسمه واسم أبيه... وبعد ذلك يحشر الحاج في مكان متهدِّم حتى يحين وقت ذهابنا إلى القدس. (فابري ٧: ٢٢٣).

ولما حان وقت خروجنا للسفر وقف ربابنة السفينة ومعهم زعماء المسلمين والكاتب. وكان كلما خرج أحدنا من المكان سأله عن اسمه واسم أبيه وقابل ذلك بما عنده، ثم سمح له بالخروج وشطب اسمه (فابري ٧: ٢٤٠).

وجاءنا بعض السكان الفقراء يحملون قشّا وعساليج رطبة فابتعناها منهم وجعلناها فراشاً ننام عليه... ثم جاءنا تجار من الرملة والقدس ومعهم بضائع معطرة، وأقاموا هناك سوقاً... وكان معهم ماء ورد في قوارير ثمينة جاءوا به من دمشق. وكان ثمن القارورة الواحدة بنياً (؟) بندقيًّا... وكان مع البعض البلسم والمسك والصابون والحجارة الكريمة وقماش الموصلين الأبيض...

... وكان التجار ومرافقوهم معطرين بحيث انتشرت الروائح الذكية حولهم... ثم

أحرقوا البخور العربي في المكان الذي كنا نقيم فيه... ثم جاء آخرون وكانوا يقلون البيض بالزيت وغيرهم حملوا أرغفة الخبز والماء البارد والفواكه والكعك الطازج وفي المساء استأجرنا اثنين من السكان ليقوما بحراستنا (فابري ٧: ٢٢٦ ـ ٧).

عكا: هذه ميناء جميلة، عميقة ويدور بها سور يحميها. ومع أنه يظهر أن المدينة كانت كبيرة وقوية، فإنها الآن لا يوجد بها أكثر من ثلاثمئة من البيوت. تقوم في مكان بعيد قليلاً عن البحر (بروكييه ٢٩٢).

وقد تعرَّفت في عكاء إلى تاجر بندقي اسمه «أوبرت فرانك» الذي أحسن وفادتي وزوّدني بالمعلومات النافعة التي مكنتني من السير إلى الناصرة بسهولة ويسر (بروكييه ٢٩٨).

غزة: جاءت من مصر جموع مكوّنة من بضعة آلاف من المماليك واستقرَّت في غزة في طريقها لمحاربة التركماني في سورية. وضربت هذه الجماعة خيامها حول المدينة حتى امتلأ بها السهل المحيطِ بها. وكان بين هؤلاء المماليك هنغاريون فجاءوا يستقصون عن الحجاج الهنغاريين بيننا فلم يجدوا سوى السيد يوحنا. فسرُّوا به كثيراً وأقاموا معنا يأكلون ويشربون ـ وقد شربوا الخمر سرًّا ـ ثم جاء غيرهم من الصقليين والقطالونيين. لكن هذا أحنق ترجماننا ودليلنا. ذلك لأن أهل البلاد يمقتون المماليك الذين يحكمونهم ويستبدُّون بهم. وقد أقفلت المدينة أسواقها، واحتفظ السكان بمواشيهم في حظائرهم، خشية عسف المماليك ونهبهم الحاجيات دون مقابل أو ثمن (فابري ١٠: ٤٤٢).

بيروت: ميناء بيروت جيد صالح للتجارة[1] لقيت في بيروت تاجراً بندقيّاً اسمه جاك برفيزين الذي نصحني بالسفر إلى دمشق حيث ألقى من التجار والقناصل الاوروبيين الكثيرين الذين يرشدونني إلى خير الطرق للعود برّاً إلى أوروبة.

وشهدت احتفال المسلمين بأحد أعيادهم في بيروت. بدأ الاحتفال مساءً فكانت الجماعات تسير في الشوارع فرحة طربة، والمدافع تطلق من القلعة احتفاءً بالعيد وأطلقت الصواريخ التي بلغت ارتفاعاً كبيراً... وقد استعطت أن أتعرَّف إلى سر هذه الصواريخ، وحملت معي إلى فرنسة طريقة صنعها ونماذج منها. ذلك لأن هذه متى صنعت على مقياس كبير أمكن استعمالها لحرق السفن في البحر. وهذا ما بلغني أثناء إقامتي في الشرق.

وقد نزلت أثناء إقامتي في بيروت في دار تاجر بندقي هو بول بربريكو... وهذا دبّر لي مكاراً يحملني إلى الناصرة ويعيدني إلى دمشق ويعود إلى بول بوثيقة مني تعرّفه جملة أخباري وسلامتي. وقد أشار عليَّ المكار أن أرتدي ثياباً شرقية ففعلت (بروكييه ٢٩٢ ـ ٢٩٧ باختصار).

الاسكندرية: ولما وصلنا الباب (باب مدينة الاسكندرية) فتشنا ووجدت النقود معنا. مع أننا كنا قد خبأناها في نعل الحذاء. أخذوا منا نحو عشرة بالمئة. ورغم أنهم ضبطوا معي نقوداً لم أكن قد أعلنت وجودها فإنهم لم يتقاضوني أكثر من العشر، وأعادوا إليَّ ما تبقى لي... إنه من المستحيل أن يتهرب المرء من الدفع لأنهم يفتشون تفتيشاً دقيقاً (ميشولم ـ ادلر ـ ١٥٨).

تبلغ الاسكندرية سعة فلورنسا... لكن القسم المخرَّب منها أكثر من العامر وثمارها كثيرة وجيدة ورخيصة، والخبز واللحم وجميع أصناف الطيور فيها رخيصة. أما الخشب فغالٍ جداً، وكذلك الزيت والعسل والخمر، لأنه يدفع عليها جمارك عالية، قد تبلغ ٢٤ بالمئة. وقنّب الاسكندرية جيد، وقماش الكتان بها جميل ورخيص.

ويرجع رخص الفراخ فيها إلى أنهم يفقسونها في الأفران... وقد يتسع الفرن لألف أو ألفين من البيض في الدفعة الواحدة (ميشولم ـ ادلر ـ ١٦٠).

تجد في الاسكندرية تجاراً من جميع أقطار الأرض، ويوجد فيها، في هذه الأيام، أربعة قناصل للبندقية وجنوة وقطالونية وانكونا، وبواسطتهم تتم المعاملات التجارية... يدفع التجار اثنين بالمئة عن كل ما يرد إلى الاسكندزية أو يصدر منها، وهذا يأخذه السلطان، ولذلك كانت ثروته ضخمة (عوبديا ـ ادلر ـ ٢٢٢).

رأيت في الاسكندرية أربعة فنادق: واحد منها للفرنك وآخر للجنويين وقنصلهم واثنان للبنادقة. ويقابلها فندق كبير خاص بالمسلمين.

وكل من دخل الاسكندرية من الأغراب دفع ثلاث عشرة دوكة للسلطان ولا يسمح له بمغادرة المدينة إن لم يكن قد دفع هذا المبلغ.

ركائب الناس هنا الحمير والبغال، أما الخيل فلا يركبها إلاّ المماليك أنفسهم. والحمير هنا جميلة فرهة ويعنون بتجميلها... وقد رأيت بردعة يزيد ثمنها عن ٢٠٠٠ دوكة، مرصعة بالحجارة الكريمة والماس ولها حاشية من الذهب... وأكثر أهل المدينة حفاة... ويتناولون طعامهم وهم جلوس على الأرض... وهذا ينطبق على أكثر سكان بلاد السلطان (ميشولم ـ ادلر ـ ١٥٩).

اللاذقية: ومما سمعنا عنه في اللاذقية طاحونة تديرها الريح، سواء أكان هبوبها من الشمال أو الشرق أو الغرب على نحو ما هو معروف عند الافرنج.

وإذا دارت يوماً كاملاً، ليلاً ونهاراً، طحنت ١٢ أردباً بالكيل المصري.

وقد أقام هذه الطاحون رجل من اللاذقية كان الافرنج قد أسروه، فلما عاد أنشأ هذا الشيء العجيب في بلده (القول المستظرف ١٠ ـ ١١).

المدن الكبرى

دمشق: وقبل أن ندخل دمشق ترجّلنا عن خيولنا حسب إشارة المكاري وهذه هي العادة المتبعة في هذه البلاد إذ لا يجوز لنصراني (أوروبي) أن يدخل مدينة راكباً. ولم نكد ندخل المدينة حتى جاء بعض الناس يتفرجون علينا، وكنت (أي بروكييه) ألبس على رأسي قبعة سوداء ذات إطار عريض فرفع أحدهم عصاه وأطار قبعتي عن رأسي، وهممت أن ألطمه لولا أن المكاري رمى بنفسه بيننا فحال دون ذلك. وكان في تصرُّفه هذا نجاتي، لأن عدد الدمشقيين كان قد زاد ولو أنني ضربت أحدهم لكانت عاقبة ذلك علينا مما لا أستطيع تصوُّره.

وتحوي دمشق على ما بلغني مئة ألف نسمة. وهي غنية، ومركز كبير للاتجار. وأهمُّ مدينة في السلطنة بعد القاهرة... وحاكمها نائب عن السلطان رأساً... ولا تزال آثار تخريبها على يد تيمورلنك (سنة ١٤٠٠ م) ظاهرة للعيان.

وأهل دمشق يكرهون الاوروبيين ويتحتم على تجارهم أن يلجأوا إلى بيوتهم في المساء فيقفل عليهم الأبواب أناس معينون لهذا الأمر، ولا يفتحونها إلاَّ في صباح اليوم التالي. وقد لقيت في دمشق كثيرين من الجنويين والبنادقة وأهل كالابريا وفلورنسا ومن تجار فرنسا. وقد جاء الأخيرون إلى دمشق ليبتاعوا أشياء متعددة وخاصة التوابل بقصد نقلها إلى بلادهم بطريق بيروت.

وقد استقصيت أخبار النبي والإسلام من قسّ كان ملحقاً بالقنصل البندقي في دمشق.

ودمشق مدينة صناعية. فسيوفها من خير ما يصنع وأجمله، وصقلها جيد إلى حد أن المرء يستطيع أن يستعملها مرآة لاصلاح زينته. ولم أرَ في حياتي سيوفاً تقطع مثل السيوف الدمشقية. ويصنع أهل دمشق وما جاورها المرايا المدنية... وبعض هذه إذا سلطت أشعة الشمس عليها عكستها على خشبة فأحرقتها ولو كانت تبعد نحو خمسة عشر قدماً.

وثمن الفرس الأصيل يبلغ مئتي دوكة وقد يصل إلى الثلاثمائة (بروكييه ٢٩٣ ـ ٣٠٤).

والمواد الغذائية في سورية[٢] وفيرة. فهناك القنبريس[٣] والقرنبيط وثمة معاصر تصنع الدبس (من العنب) وفيها تصنع الحلاوة الجوزية والملبن. ومما يتقن صنعه هناك حلاوة الأرز مع الزبيب (القول المستظرف ٨).

وتكثر هنا الأشجار والفواكه، ومجاري المياه تقوم عليها النواعير. وتقام يوم السبت سوقٌ حمل إلينا منها رمانات بلغت زنة الواحدة منها رطلين مصريين، وجيء بباذنجان تزن الواحدة مثل ذلك. وقد بلغني أنه قد يصل وزن الرمانة الواحدة خمسة أرطال، لكنني لم أر ذلك بنفسي (القول المستظرف ١٢).

القدس: بيوت القدس مبنية بالحجارة، هذا باستثناء مساكن الفقراء التي هي من الطين. وقد رأيت فيها بيوتاً جميلة كبيرة، لكن جزءاً كبيراً من المدينة متهدم مهجور، بحيث أن جثث الحيوانات التي تنفق تبقى داخل المدينة بدل أن تطرح خارج أسوارها... وفي المدينة خمسمائة يهودي ونحو ألف نصراني من كل مذهب وقطر، وأقلُّهم من أتباع الكنيسة اللاتينية (فابري ٩: ٢٢٦).

رغم أن القدس قد تهدمت، فإنه لا يزال فيها أربع أسواق جميلة طويلة، مما لم أرَ له من قبل شبهاً. كلها مسقوفة بالقباب، وتحوي جميع أنواع المتاجر. وهذه الأسواق الأربع هي، سوق التجار وسوق العطارين وسوق الخضار وسوق الأطعمة المطبوخة والخبز.

وقد كانت موجة من القحط تجتاح البلاد لما هبطت القدس. فقد كانت حصة الشخص الواحد من الخبز لا تتجاوز بضعة دراهم للوجبة الواحدة. لكن الجوع لم يدم لأن المحصول كان جيداً في الموسم التالي (عوبديا ـ ادلر ـ ٢٣٦).

الإقامة في القدس: فلما انتهينا من صلاتنا قادنا كالينوس إلى مستشفى القديس يوحنا[٤]... والبناء القائم هو جزء من الأصل، ويقيم فيه عدد من الرهبان... وتوزع الحجاج في المكان. فالنبلاء السوابيون انفردوا بمكان في طرف القاعة في شبه غربة منعزلة عن بقية المكان. والنبيل يوحنا سيد سولمس وجماعته ذهبوا مع الفاهالو (الترجمان المساعد) ليقيموا في بيته. أما في زيارتي الأولى للقدس فلم نقم في مستشفى القديس يوحنا، بل إنني لم أره، إذ أقمنا في بيت كبير يقع في حي ملّو[٥]. وما كاد الحجاج يستقرُّون في أماكنهم حتى جاءهم الباعة من المسلمين والنصارى واليهود يحملون الخبز والماء والطعام والفواكه فابتعنا وأكلنا... والآن جاءنا اثنان من الاخوان، موفدين من قبل رئيس جبل صهيون، واقتادا جميع الرهبان منا إلى دير صهيون لنقيم هناك. لأن هذه هي العادة المتبعة. وكنت بطبيعة الحال في من ذهب (فابري ٧: ٢٨٥ ـ ٦).

استأجر بعض الجماعة داراً تخص الفاهالو، الترجمان المساعد، تقع على مقربة من جبل صهيون، فكان في الدار ثلاث غرف كبيرة، وغرفة أخرى صغيرة، وباحة متوسطة السعة، فيها كرمة وميضأة. فأجرهم صاحبها غرفتين، ووضع أثاثه في ما تبقى من غرف الدار، لكنه ترك العمارة هو وأخوه فلم يقيموا فيها أبداً (فابري ٩: ١١٢).

والبيت الذي أقيم فيه تقيم فيه خمس نساء ورجل أعمى. والحمد لله الذي منَّ عليَّ بالصحة في حلِّي وترحالي فإن أكثر الاغراب الذين يأتون إلى القدس يصيبهم مرض ما، بسبب تغير الجو المستمر. إذ إن الريح على اختلاف أنواعها تهبُّ على هذه

المدينة. ويقال ان كل ريح يجب أن تمرَّ بالقدس ليباركها الربُّ قبل اتمام اتجاهها. وسبحان الذي يعلم الحق (عوبديا ـ ادلر ٢٤٣).

أسواق القدس: زرت صباح اليوم ٢٨ تموز (يوليو) أسواق المدينة وشارع الطباخين، حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع وجماعات كبيرة تشتري من المطابخ العديدة ذلك لأن القوم لا يطبخون في بيوتهم، كما نفعل نحن في بلادنا. بل إنهم يبتاعون طعامهم جاهزاً من هذه المطابخ. والطهاة ماهرون نظيفون.

وحيث يكون الحجاج يتجمع حولهم التجار. فلما كنا في كنيسة القيامة جاء تجار من النصارى... الشرقيين... ودخلوا معنا. فلما اقفلت الأبواب عمد بعضنا إلى المساومة. وقضوا في ذلك شطراً من الليل إن لم يكن الليل كله... ولم تقتصر مشترياتهم ومساومتهم على المسابح والحجارة الكريمة لكنها تعدَّتها إلى القماش الدمشقي والحرير... أعرف بعض النبلاء الذين كانوا يمتنعون عن المساومة في أسواق بلادهم، لأن ذلك دون مكانتهم الاجتماعية، لم يتحرجوا عن الشراء في مثل هذا المكان المقدس... ولم تكن غاية الجميع أن يبتاعوا أشياء لأنفسهم، ولكنهم كانوا يفكرون بنقلها إلى بلادهم للاتجار بها والربح. وقد اشترك بعض رجال الدين في أعمال البيع والشراء هذه (فابري ٩: ٨٤).

حاكم القدس يزور الرهبان: بعد طعام الغداء ركب إلى جبل صهيون حاكم القدس بصحبة جماعة من نبلاء المسلمين... ومن عادة هؤلاء وغيرهم أن يأتوا إلى جبل صهيون للتنزه لأن الهواء هنا أنقى منه في المدينة. وهم متى وصلوا إلى الدير أقاموا بعض الوقت في كنيسة الاخوان، فيفرش لهم هؤلاء الرهبان الأرض بالسجاد ويضعون لهم الوسائد ويستلقون، وقد قدَّم لهم الاخوان الكعك المعسل والخبز والبسماط المطيب والفواكه من العنب واللوز والبطيخ والماء البارد، لأنهم لا يشربون الخمر. وقام الاخوان الاصاغر والحجاج على خدمتهم وتحدَّثنا معاً فسألونا عن أشياء كثيرة وتحدثوا فيما بينهم بشأنها... ولا غربة في أن يعنوا بكل شيءٍ فهم حكام المدينة المقدسة (فابري ٩: ١١٢).

مدرسة في القدس: بينما كنت مرة نازلاً من جبل صهيون في طريقي إلى الكنيسة للصلاة، سمعت أولاداً يقرأون بصوت مرتفع، فاقتربت من باب المدرسة ونظرت إليهم، فرأيت صبياناً جالسين على الأرض في صفوف وكانوا كلهم يرددون مجتمعين نفس الكلمات بصوتٍ عالٍ، ويهزُّون رؤوسهم أماماً وخلفاً، وقد استطعت أن أحفظ الكلمات التي رددوها معٍ موسيقاها. وهي أول ما يعلمونه صبيانهم لأنها أصول عقيدتهم (فابري ٨: ٣٩٦).

نُزُل الخليل: وشاهدنا في الخليل نزلها الكبير، الكثير الغرف. ورأينا المطبخ والفرن، وكانوا يعدُّون طعاماً كثيراً للحجاج المسلمين الذين يأتون جماعات كبيرة لزيارة قبور الأنبياء. ولهذا النُزُل واردات سنوية تبلغ قيمتها نحو أربعة وعشرين ألفاً من الدوكات. ويخبز فيه في كل يوم ألف ومئتان من الأرغفة توزع كلها على من يطلب. ولا يمنع أي حاج من هذا الاحسان، مهما كان مذهبه أو دينه أو جنسه. وكل من يطلب طعاماً يقدم له رغيف خبز وشيءٌ من الزيت وبعض الحساء أو المعجنات. وقد أقطعت أراضي قلعة النبي صمويل على هذا النزل، وواردات منها ألفا دوكة في العام. والمئرون من المسلمين الوطنيين والأتراك يهبونه أموالاً كثيرة تنفق على راحة الحجاج... وعندما يحين وقت توزيع الخبز يضرب الطبل للفت نظر الناس... وقد أرسل القائمون على أمر النزل سلة من الخبز إلى الخان الذي كنا نقيم فيه، مع أننا لم نطلب منهم شيئاً (فابري ١٠: ٤١٧ ـ ٨).

رأي فابري في صلاح الدين: لما رأى سكان القدس أن لا قبل لهم بالصمود أمام جيش صلاح الدين منفردين، ولا أمل لهم بالحصول على مدد أو معونة، سلموا المدينة على أن يسمح لهم بالذهاب أين شاءوا متى دفعوا الجزية. ولما كان صلاح الدين بطبيعته رقيق القلب رأف بالناس وقبل طلبهم. وهب لهم حياتهم على أحد شرطين: إما أن يبقوا في المدينة ويدفعوا الجزية ويخلدوا إلى السكينة وإما أن يغادروها بعد أن يدفع الذكر منهم الذي تتجاوز سنُّهُ العشرة أعوام عشر دوكات والطفل دوكتين والمرأة خمس دوكات. واتفق الفريقان على ذلك. لكن لما رأى صلاح الدين أن هناك آلافاً متعددة من السكان لا يملك الواحد منهم ما قيمته عشرة دراهم، أعفى هؤلاء كلهم من دفع ما عليهم... وحدّدت المدة بثلاثة أيام لأولئك الذين أرادوا الخروج... لكن لم يكن من الميسور تحضير المبلغ المطلوب من كثيرين، فاستصرخوا صلاح الدين فأعفى كل من سأله من دفع المبلغ المطلوب (فابري ٩: ٣٣٩).

القاهرة: شاهدت مصر (القاهرة) وتحريت شؤون سكانها، ولو أنني أردت أن أتحدَّث عن عظمة المدينة وثروتها وسكانها لما كفاني كتاب كامل[٦]. وأقسم أنه لو أمكن ضمّ روما وميلان وبادوا وفلورنسا في مكان واحد مع أربع مدن أخرى لما زاد سكانها وثروتها جميعاً عن نصف ما في مصر، وهذا صدق... فمصر الحديثة والقديمة، أي القاهرة والفسطاط، مقسومة إلى أربعة وعشرين حيًّا وفي الحي الواحد ثلاثون ألف عائلة، وفي كل عائلة ثلاثة أو أربعة أفراد... ويزيد محيط مصر عن ثمانين ميلاً... وأقسم أن كبير تراجمة السلطان، سرجي فاردي، هو الذي أنبأني بهذا. فقد أخبرني أنه يتحتم على الرؤساء أن يقدموا إليه يوميّاً كشفاً بالمواليد والوفيات في

المدينة... ورئيس التراجمة هذا اسباني الأصل. ويعرف من اللغات العربية والتركية واليونانية والفرنسية والألمانية والايطالية والعبرية. والتركية هي لغة السلطان.

وللقاهرة أيضاً محيط طوله نحو ثمانين ميلاً، وليس فيها بيت واحد خرب، وحارات المدينة وأزقتها أقصر من حارات البندقية وأضيق وتلتقي رؤوس البيوت فتنعقد الحارات. وبعضها مغطّى بالنخيل منعاً للحرّ الشديد.

وفي مصر نحو عشرة آلاف رجل عليهم أن يرشوا الماء في الشوارع لتهدأ ثورة الغبار... والسقاة يحملون الماء في قرب ويبيعونه للعطاش لقاء فيلبو واحد للشربة، ومهما كان مقدارها. وقد لا يقلُّ عددهم عن أربعة آلاف ساقٍ.

ليس ثمة حمامات تشبه حمامات مصر في جودتها... والسكان نظيفون في أشخاصهم وثيابهم.

وفنادق مصر كبيرة. وقد يحتوي الفندق الواحد على ألف دكان يضع فيها الباعة والصناع بضائعهم. وليس في العالم شيءٌ لا يمكنك أن تجده في فنادق مصر (ميشولم ـ ادلر ـ ١٦٦).

السلطان: أتيح لي أن رأى السلطان وجهاً لوجه يوم الجمعة وفق ٢٢ حزيران (يونيو) ١٤٨١ أنه رجل متقدم في السن. كان في ركبه نحو ألفين من الفرسان المماليك وكل من رغب في رؤية السلطان تمَّ له ذلك. فإنه يجلس كل اثنين وخميس أمام القلعة في صحبة حاكم المدينة ويتقدم إليه أصحاب المظالم بظلاماتهم فينصفهم حتى من سادتهم. وهذا هو السبب في أن النبلاء يتجنبون ظلم أتباعهم (ميشولم ـ ادلر ـ ١٧٠).

جند السلطان: وللسلطان قرابة عشرة آلاف من العبيد هم حملة السلاح الذين يعتمد عليهم في حروبه... وهؤلاء من أمم مختلفة ففيهم التتاري والتركي والبلغاري والمجري والصقلبي والولخي والروسي واليوناني... وعليهم يعتمد السلطان في حراسته ويقدّم لهم الزوجات والخيل والثياب... ويعنى بتنشئتهم في فنون الحرب. والنابه منهم يجعله عريفاً على عشرة أو عشرين أو خمسين أو مئة. ومنهم يختار حكام ولاياته. فيكون منهم صاحب القدس أو ملك دمشق أو أمير القاهرة، كما ينتخب منهم أصحاب بقية الوظائف في أنحاء سلطنته. ويكون بيديهم تصريف الأمور بحسب الشرع الإسلامي كلٌّ في نطاق وظيفته، ولهم الحق في البيع والشراء والحرية التامة في ذلك. ولهؤلاء المماليك أن يقتنوا عبيداً... ومتى ركب هؤلاء للحرب لبسوا درعيات من الجلد رديئة مغطاة بالحرير، ويغطون رؤوسهم بقلنسوة مدورة ويحملون القوس والسهام والهراوات والطبول (لانوي ٨٤).

الهوامش

(١) ذكر صالح بين يحيى في تاريخ بيروت أنها كانت في سنة ٧٦٧ هـ ـ ١٣٦٥ م مركزاً كبيراً لصنع السفن. راجع ص ٥٢.

(٢) يلاحظ سنودو أن المنطقة الواقعة بين طرابلس وحصن الأكراد غنية جداً (PPT. p. 5-6).

(٣) هو الجبن الأبيض المجفف يقطع قطعاً صغيرة.

(٤) ذكر دي فتري تاريخ المستشفى والنزل الملحق به فليرجع إليه (واي فتري ص ٤٦ ـ ٧).

(٥) حي كان يقع داخل باب الخليل الحالي.

(٦) ذكر عوبديا ثروة القاهرة الطائلة وتجارتها الواسعة التي تشمل البهارات والتوابل واللالىء والاحجار الكريمة، وتأتيها التجارات من فرنسا والمانيا وايطاليا وتركيا بطريق الاسكندرية (عوبديا ـ ادلر ـ ٢٢٥).

٧ ـ الأسفار في العصور الوسطى

كانت أسفار البحر كثيرة الأخطار الخاصة بها. فكانت السفن بادىء ذي بدءٍ صغيرة مضطرة إلى السير بالقرب من الشاطىء، ولم تتمكن من الابتعاد عنه حتى وصلت البوصلة البحرية إلى أوروبة. ولما كبرت المراكب أصبح بعضها يتسع لنحو ألف من الركاب بمن في ذلك البحارة. وقد كان عند البنادقة سفنٌ تجارية تحمل الواحدة منها نحو خمسمئة طن من البضائع. وبلغ طول السفينة التي ركبها لويس التاسع ملك فرنسة من البندقية مئة وثماني أقدام وفيها مئة وعشرة من البحارة.

كانت المياه الضحلة والشواطىء الصخرية شرَّ ما تخشاه السفن بعد القرصان، الحرّ منه والرسمي، ولما كانت القاعدة أن السفينة التي تتحطم على شاطىء بلاد تصبح حمولتها ملكاً لصاحب تلك البلاد، فكثيراً ما كان النبلاء يوقدون مصابيح بالقرب من الصخور الناتئة في البحر لتضليل السفن فتصدمها هذه وتتحطم عليها. ويروى عن أحد أشراف شاطىء بريتاني في شمال فرنسة أنه أشار يوماً إلى صخرة وقال عنها أنها أكرم حجر في ملكه. والمعروف أن الفرنسيين على شاطىء خليج بسكاي كانوا في مقدمة مضللي السفن في أوروبة في العصور الوسطى. أما المدن الايطالية فكانت تقسو في العقوبة ضدَّ من يضلل سفينة، وكان القانون يقضي برجمه حتى الموت، كما يفعل بالذئاب.

وقد كانت للأسفار البحرية قواعدها وأنظمتها. بعضها وضعها الملوك، وبعضها نما مع الحاجة، وبعضها كان يتفق عليه في كل مناسبة. فمن النوع الأول ما استنَّهُ ريكاردوس قلب الأسد لأسطوله في أواخر القرن الثاني عشر، فقد جاء فيه: أنه بعد استشارة رجال الدولة، قد وضع القوانين العادلة لإقرار الحق ومنها: «إذا قتل رجلٌ أحد ركاب السفينة ربط القاتل بجثة القتيل وأُلقي في البحر. أما إذا كان القتل على الشاطىء دُفن القاتل مع المقتول... وإذا انتضى رجل سلاحه وهدَّد به آخر أو سبَّب له جرحاً فلتقطع يده... وإذا ضرب رجلٌ آخر ولم يسل دمه غطس الضارب ثلاث مرات في ماء البحر... ومن يتفوَّه بالزور والبهتان أو يسب غضب الله، يدفع أوقية من الفضة اكتساباً للمغفرة... وأما من ثبتت عليه السرقة فليحلق رأسه وليوضع عليه القار وليلصق بالرأس الريش ولينزل من المركب عند أول برٍّ تلمسه». على أن المؤرخين المحدثين يرون أن هذا القانون البحري كان شديداً لأنه من نوع الأنظمة العسكرية،

فإن ريكاردوس سنَّه للاسطول الذي حمل جيشه إلى سورية لحصار عكاء بعد معركة حطين.

أما القوانين التي نمت مع تطور الحاجة إليها فكثيرة، لعلَّ أشهرها وأكثرها شيوعاً في العصور الوسطى قوانين أوليرون. وبموجب هذه نظمت أمور الموانىء ورسو السفن واستعمال العوامات وغير ذلك مما قلل الأخطار. فالربان كان مسؤولاً عن أخطاء الملاحة الناشئة عن جهل أو سوء نية. فإما أن يعوّض المسافرين عن خسائرهم وإما أن يفقد رأسه. والتجار كان لهم حقٌّ في تقرير الطريق المتبع والموانىء، وطريقة تعبئة المتاجر وترتيبها. وكانوا هم يتولون الإشراف على العمال ودفع أجورهم. وكان تحميل السفن فوق الحد الأقصى ممنوعاً بالمرة في شرع المدن الايطالية ومدن الهنسا الالمانية وغيرها.

وقد روي ان ربان سفينة من السفن الهنسية جمع الركاب بعيد خروج المركب إلى عرض البحر وقال أصبحنا تحت رحمة الله وعواصف البحر، فليكن الكلُّ متساوين بقطع النظر عن الأشخاص. وما دمنا معرّضين في كل ساعة لخروج القرصان علينا أو غير ذلك من الأخطار، فإنه يتحتم علينا أن نتدبر أمر إدارة هذه السفينة. لذلك يجب أن ننتخب قاضياً لها وأربعة مستشارين وهؤلاء الخمسة يفصلون في الخصومات. فلما انتخب هؤلاء قرأ الربان على المجتمعين القوانين المعمول بها، وهي المأخوذة من قوانين أوليرون المذكورة. ولما اقتربت السفينة من ميناء الوصول استدعى الربان الركاب ثانيةً وطلب إليهم أن يسامح كل أخاه وينسوا ما كان بينهم ويدفنوا الماضي.

وقد كانت سرعة السفن مختلفة فقد تراوحت بين ١١٥ و٣٥٠ من الكيلومترات في اليوم الواحد. فقد جاء في رحلة الراهب نقولا الاسلندي سنة ١١٥١ أن سرعة سفينته الصغيرة تراوحت بين ١١٥ و١٥٠ ك. م. يوميّاً. وقد احتاجت سفن الحملة الصليبية الأولى أربعة عشر يوماً بلياليها لقطع المسافة بين مسينا وعكاء أي أن معدل سيرها كان ١٣٠ ك. م. لليوم والليلة. هذا مع العلم بأن المسافة من دمياط إلى عكاء كانت تقطع في ٣ أيام أي بمعدل ١٣٤ ك. م. لليوم، وكانت السفينة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تحتاج إلى ٦ أيام للسفر من كنديا (كريت) إلى عكاء، أي بمعدل ١٤٠ ك. م. لليوم.

أما فردريك الثاني فقد غادر برنديزي في ٢٨ حزيران (يونيو) سنة ١٢٢٨ م فوصل عكاء في ٧ أيلول (سبتمبر).

على أننا نعرف أن السفن التي كانت تسير محاذية للشاطىء الافريقي الشمالي في القرن الثالث عشر كانت تقطع مسافة تتراوح بين ٢٠٧ و٢٢٥ من الكيلومترات في اليوم الواحد. أما السفن النورمانية في غرب أوروبة وجنوبها فكانت المسافة التي تجتازها في اليوم الواحد تتراوح بين ٢٥٠ و٣٥٠ ك. م..

والذي نعرفه أن وليم واي جاء مرتين إلى فلسطين في القرن الخامس عشر وكان في كل مرة يبدأ من البندقية وينتهي في يافا، فاحتاج في المرة الأولى إلى شهر واحد وفي المرة الثانية قضى أكثر من شهر ونصف الشهر في الطريق.

أما السفر البري فقد كان قلما يتجاوز ٤٨ ك. م. في اليوم الواحد في أوروبة. وقد قطعت جيوش الحملة الصليبية الأولى المسافة بين متز في المانية والقسطنطينية في ستة وخمسين يوماً وتراوحت المسافة التي سارتها في اليوم الواحد بين ٣١ و٥٨ ك. م. وكان المسافر العادي يحتاج إلى سبعة أسابيع بين لندن وروما، مع أننا نعرف أن ثمة من قطعها في تسعة وعشرين يوماً فقط.

وكان نقل المعاملات المالية من شمال ايطالية إلى شمبانية يستغرق عشرين يوماً أو يزيد.

أما في الشرق فقد كانت أحوال الجو تجعل السفر أبطأ فقد قطع بركارد المسافة من الاسكندرية إلى القاهرة في ثلاثة أيام براً، وقدّرها بسبعة أيام في النهر. ولما سافر بركارد من القاهرة إلى دمشق بطريق شرق الأردن احتاج إلى خمسة وعشرين يوماً بمعدل ٣٠ ك. م. لليوم الواحد. واحتاج إلى أربعة أيام للسفر من دمشق إلى عكاء بطريق طبرية. والمسافة من انطاكية إلى صيدا (٢٩٧ ك. م) كانت تحتاج إلى نحو عشرة أيام لاجتيازها.

وكانت جيوش ريكاردوس إبان وجودها في فلسطين تقطع أقل من خمسة وعشرين من الكيلومترات في اليوم الواحد عادة. لكنها اضطرت في مناسبات كثيرة إلى تجاوز هذا الحد. في ٣٠ آب (اغسطس) سنة ١١٩١ م اجتازت ٢٥ ك. م وقد عُدَّ هذا شيئاً غير عادي بسبب الحر الشديد. أما في سنة ١١٩٢ م فقد حفظ لنا عنها أنها قطعت حتى ٤٠ كيلومتراً في يوم ٤ حزيران (يونيو).

ومن طريف ما يروى أن الخبر عن فتح العرب لسورية في القرن السابع الميلادي وصل الصين بعد ثماني سنوات. ولما توفي فردريك بربروسا في كيليكية سنة ١١٩٠ م لم يعرف أهل ألمانية بذلك إلاّ بعد أربعة شهور. أما خبر أسر ريكاردوس في دلماشيا في السنة نفسها فقد وصل انكلترا بعد أربعة أسابيع.

وقد لقي بروكييه قرب دمشق رسولاً وصل من القاهرة في ثمانية أيام. واجتاز الحاخام يعقوب المسافة من دمشق إلى تدمر في ستة أيام(!).

السفينة التي سافر بها ابن جبير: هم من هذا المركب بمنة الله تعالى في مدينة جامعة للمرافق، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد من خبز وماء ومن جميع الفواكه والأدم كالرمان والسفرجل والبصل والثوم والتين والجبن والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره، عاينا جميع ذلك يباع. وفي خلال هذه الأيام كلها لم يظهر لنا برٌّ والله يأتي بالفرج

القريب. ومات فيه رجلان من المسلمين رحمهما الله فقذفا في البحر ومن البلغريين اثنان أيضاً. ومات منهم بعد ذلك خلق وسقط منهم واحد في البحر حيًّا فاحتمله الموج أسرع من خطفة البرق. وورث هؤلاء الأموات من المسلمين والنصارى البلغريين رئيس المركب، لأنه سنَّة عندهم في كل من يموت في البحر ولا سبيل لوارث الميت إلى ميراثه فطال عجبنا من ذلك (ابن جبير ٣١٤).

الاذن الملكي الصادر لوليم واي بالسفر لأداء فريضة الحج: «... لما كنا قد عرفنا أن الكاهن المحبوب السيد وليم واي، أحد التابعين لكم، ينوي بنعمة الله، أن يعبر البحر بعد مدة قصيرة لاداء فريضة الحج في روما والقدس وغيرها من الأماكن المقدسة، وقد تقدم إلينا متضعاً بطلب الإذن للقيام بهذا الأمر فقد رأينا ان ننظر بعين العطف إلى غرضه المبارك. قد أذنا له أن يقوم بحجه، ومتى عاد يقبل تابعاً لكم بنفس الطريقة والعمل الذي هو فيه الآن. والأجر السنوي وبقية ما يحق له من كليتنا أثناء غيابه، يحفظ له ليتمتع به متى عاد. وهذا الإذن يلغي كل أمر يحول دون تنفيد هذه الرغبة. اعطي تحت ختمنا في قلعة كنلورث في اليوم الحادي عشر من آب (اغسطس) سنة ١٤٥٧ م (واي ص ٣ من المقدمة).

اتفاقية مع ربان المركب الذي سافر فيه فابري: المادة الأولى: ـ يتعهد الربان بأن ينقلنا نحن الحجاج من البندقية إلى يافا، ميناء في الأرض المقدسة ـ وأن يعيدنا من يافا إلى البندقية، على أن يكون حاضراً للابتداء في مدة لا تزيد عن أربعة عشر يوماً...

المادة الثانية: ـ يتحتم عليه (الربان) أن يهيىء سفينة لها ملاحون ماهرون يستطيعون تسييرها مهما كان نوع الريح، وعليه أن يجهزها بالسلاح اللازم للدفاع عنها ضدَّ العدوّ والقرصان.

المادة الثالثة: ـ يحذر الربان من الدنوِّ في موانىء غريبة. فلا يرسو إلاّ في الأماكن التي اعتادت السفينة أن تحصل فيها على حاجاتها... ويتحتم عليه خاصة أن يتجنب قبرص لأن هواءها ضارٌّ بنا...

المادة الرابعة: ـ يقدم الربان لكل حاج وجبتين من الطعام والشراب يومياً وإذا تخلف أحدنا عن الحضور إلى مائدة الربان لأي سبب كان، يتحتم على الربان أن يبعث بطعامه وشرابه إلى مكانه.

المادة الخامسة: ـ يجب أن يكون الخبز والبقسماط من النوع الجيد وكذلك الخمر، ويجب أن يكون الماء عذباً. ويلزم أن يكون البيض واللحم وبقية المأكولات طازجة بقدر المستطاع.

المادة التاسعة: ـ على الربان أن يحمي الحجاج من عبيد المركب، سواء في البحر والبر...

المادة العاشرة: ـ يتعهد الربان بأن يسمح للحجاج أن يقيموا في الأرض المقدسة الوقت الكافي فلا يحملهم على الإسراع، وعليه أن يرافقهم بنفسه في تجوالهم ونريد منه أن لا يقيم صعوبات في طريق زيارتنا لنهر الأردن.

المادة الحادية عشرة: ـ كل الرسوم والنقود اللازمة للأمان وللركائب وغير ذلك من النفقات يدفعها الربان دون أن يتقاضاهم شيئاً على ذلك...

المادة الثانية عشرة: ـ على كل حاج أن يدفع أربعين دوكة جديدة، بحيث يدفع نصف المبلغ في البندقية قبل السفر والنصف الآخر في يافا. وهذا المبلغ هو كل ما يدفعه الحاج لقاء السفرة وما تتطلبه.

المادة الثالثة عشرة: ـ إذا توفي أحد الحجاج فلا يجوز للربان أن يمدَّ يده إلى مخلفاته، وإنما تبقى هذه في حوزة الشخص أو الأشخاص الذي يوصي المتوفى بترك مخلفاته معهم.

المادة الرابعة عشرة: إذا توفي أحد الحجاج قبل وصوله إلى الأرض المقدسة تحتم على الربان أن يعيد نصف ما دفعه المتوفى على أن ينفق المبلغ حسب تواصي الشخص الميت.

المادة الثامنة عشرة: ـ يتعهد الربان بتخصيص مكان على ظهر المركب يحفظ فيه الحجاج الدجاج أو الطيور، ويتعهد أيضاً بأن يسمح طباخوه لطباخي الحجاج بطهو الطعام على نارهم متى رغبوا في ذلك (فابري ٧: ٨٧ ـ ٩٠).

واي ينصح المسافرين: تدفع أجرة نقلك من البندقية إلى يافا ذهاباً وإياباً وثمن الأكل والشرب على السفينة أربعون دوكة[١]...

احمل معك ثلاثة براميل سعة كل منها عشرة غالونات، فتملأ اثنين منها خمراً والثالث ماءً...

وخذ معك صندوقاً له قفل، تحفظ فيه برميل الخمر وأشياء أخرى تبتاعها لنفسك كالخبز والجبن والتوابل. واحمل معك بقسماطاً. ومع أنك ستتناول طعامك مع الربان فإنك ستحتاج إلى ما معك من مأكولات ـ كالخبز والجبن والبيض والفواكه والخمر وغير ذلك، لأن الربان قد يقدم لك أحياناً خبزاً أو خمراً من النوع الرديء أو ماءً ذا طعم كريه.

واحمل معك قدرة صغيرة ومقلاة وصحوناً وكؤوساً وما شابه ذلك.

وابتع من البندقية فرشة من مكان قرب كنيسة القديس مارك. وثمن الفرشة الريش مع وسادتين ولحاف ثلاث دوكات. ومتى عدت إلى البندقية فإن البائع نفسه يسترجع هذه كلها بنصف ثمنها الأصلي.

وفي البندقية يجب أن تصرف بعض الدوكات نقوداً صغيرة مختلفة تتناسب مع

الموانىء التي ستمر بها، حتى تتمكن من شراء حاجياتك دون صعوبة. وفي سورية في الأرض المقدسة، تقبل النقود البندقية (واي ٤ ـ ٧ من الرحلة).

نصائح فابري للمسافرين في البحر: إذا رغب الحجاج في الحصول على شيءٍ خاص من المطبخ، عليهم أن يعطوا الطباخين نقوداً. فإنه يوجد هناك ثلاثة أو أربعة من الطباخين الذين لا يقبلون بغير النقد. ولا يقيمون وزناً للوعود. وليس ثمة غرابة في أن يسوء خلق الطباخين إذا تذكرنا ضيق المطبخ وتعدد الحلل وتنوع المطبوخات وصغر الموقد وكثرة الأصوات وارتفاعها... واللحم الذي يقدمه الربان هو عادةً رديء، لأنه يأمر بقتل الحيوانات المريضة والتي يخشى عليها من الموت (فابري ٧: ١٥٣ ـ ٤).

تنظيم الزيارة في سورية في القرن الخامس عشر: وليعلم الذين يرغبون في زيارة دير القديسة كاترينا أن العادة هي أن يطلب المرء من رئيس التراجمة بالقدس أن يعنى بالأمر، ويدفع لقاء ذلك ضريبة للسلطان وأجراً لرئيس التراجمة نفسه. والرئيس هذا يتصل بالترجمان الموجود في غزة وهذا يفاوض العرب المقيمين في الصحراء. ويعرض هؤلاء على المسافرين استئجار إبلهم. وأجرة الواحد منها عشر دوكات... ولما وصل الجواب من غزة بالسماح لنا جمعنا رئيس التراجمة وسألنا عن أسمائنا وأعمارنا وقيّد ذلك في سجل خاص وأضاف أوصافنا ثم بعث بنسخة من هذا كله إلى الترجمان المقيم في القاهرة. وهذا التنظيم يقصد منه المحافظة على حياة المسافرين فلا يستبقي العرب منهم أحداً. لكنني (أي بروكييه) مقتنع أيضاً بأنهم يفعلون ذلك لأنهم لا يثقون بالمسافرين (بروكييه ٢٨٩).

تنظيم شؤون الحجاج في القدس: يعنى بشؤون الحجاج في القدس رئيس ومساعده. والأول اسمه كالينوس والثاني اسمه الفاهالو. ويقوم هذان بالترجمة والإرشاد والحماية والحراسة للحجاج المسيحيين. وفي كل مدينة نجد جماعة يمنحهم السلطان حق العناية بالحجاج وحمايتهم، ويعدُّون من موظفي الدولة. وثمة تراجمة خاصون بالسياح اليهود.

وفي كل مدينة كبيرة، مثل القدس والقاهرة، يوجد اثنان كما ذكرنا. والرئيس يتقاضى أجره من السياح والحجاج، أما المساعد فيأخذ مرتبه من الرئيس. فإذا كان هذان نصوحين أمينين، جرت الأمور على خير ما يرغب الحجاج.

كان رئيس القدس رجلاً طويل القامة، متقدماً في السن، غنيًّا، متين الخلق، لكنه كان شديداً على الحجاج، يستعجلهم في تنقلهم، ويتقاضى منهم النقود في شيءٍ من الجشع. ومع أنه تقاعس عن تنفيذ بعض شروط الاتفاقية، فقد حرسنا ودافع عنا بأمانة، وأتى لنجدتنا لما استنجدنا به.

أما مساعده فكان عمره يتجاوز الثمانين، وقد كان مسلماً مستقيماً... وكان يؤمن بأن سبيل الخلاص الروحي ميسور لكل امرىء إذا اتبع أصول دينه، وحافظ على تعاليمه محافظة تامة، وكان نقيّاً في قلبه، مستقيماً في معاملاته... كان يعرف الايطالية، لذلك كنا نتحدث كثيراً حول هذه المواضيع... وقد زار هذا الرجل فينّا ومثل أمام الامبراطور فردرك الثالث ثم زار روما حيث مثل أمام البابا نقولا الخامس (فابري: ٩: ١٠٥ ـ ٧).

سوق في الرملة: جاءنا الباعة يحملون الفراخ المنضجة والحليب المطبوخ والمعجنات والأرز المصنوع بالحليب وأرغفة الخبز الممتاز والبيض والعنب الحلو والرمان والتفاح والبرتقال والبطيخ والتين ـ الكبير منه والصغير ـ والمسكّرات المصنوعة من اللوز والسكر، والماء البارد. وجاء بعضهم بقوارير جلدية فيها شراب طيب يغني المرء عن الخمر، يستعمله أشراف المسلمين.

وبعد الغداء زرنا أسواق الرملة التي تحوي كل المتاجر، ثم دخل بعضنا الحمام (فابري ٧: ٢٧٠).

في الطريق: إن الطريق من حديقة البلسان (قرب القاهرة) إلى غزة، وحتى إلى القدس، صحراوية، لذلك يتحتم على كل مسافر أن يحمل معه على دابته كيسين ـ يملأ أحدهما بالبقسماط والثاني بالقش للركوبة. وعليه أن ينقل معه الماء في قرب من جلد، لأن الماء الموجود في الطريق كله ملح. وليأخذ معه ليموناً. ويحسن أن يسافر مع قافلة كبيرة ليأمن على نفسه من قطاع الطرق... وليحاول الأجنبي أن يتخفى فيتزي بزي أهل البلاد[٢]... وليتعلم عاداتهم في القيام والسير والجلوس... وليحاذر أن يعرفوه، وإلاّ دفع ما عليه من الرسوم والغرامة (ميشولم ـ ادلر ـ ١٨١).

ليلة في خان: وصلنا قرية زخريا مع غروب الشمس، ودخلنا الخان القائم خارجها. فأنزلنا الأحمال عن الدواب وأخذنا نستعد لقضاء الليلة هناك وكان الخان كبيراً متسعاً كأنه قلعة، كثير الاسطبلات والغرف، يدور به كله سور. ولم نجد فيه أحداً. وبدأنا نعد طعام العشاء فأخذنا نجمع الحطب من جهات مجاورة وانتزعنا بعض القطع من الأسيجة والأسوار فلحقنا أصحابها وضربونا بالحجارة. ثم جاءنا جماعة من القرى القريبة يحملون الفراخ والطيور والخبز والماء فابتعنا منهم حاجتنا ونعمنا بعشاءٍ هنيءٍ (فابري ١٠: ٤٤٧).

مرض بروكييه: في اليوم الثاني[٣] أصابتني حمى شديدة فاضطررت إلى التخلف

عن رفاقي، وعدت مع أحد مرافقينا العرب إلى غزة وقد عُني بي الرجل عناية كبيرة... وقضينا ليلة في خيام العرب... ولقيت هناك ضيافة حسنة. فقد أعانني أربعة منهم في الترجل، وأضجعوني على فراشٍ كنت أحمله وعالجوني بالتمسيد والفرك، فنمت على أثر ذلك ست ساعات متوالية. ولما صحوت وجدت أن ثيابي ونقودي وبقية حاجاتي لم تمسها يد، هذا مع العلم بأنني كنت أملك مئتي دوكة وحملي جملين من الحاجيات (بروكييه ٢٩٠).

بروكييه مع القافلة: وفي مساء ذلك اليوم تناولت طعام العشاء[٤] بصحبة المملوك ولم يكن لدينا سوى الخبز والجبن والحليب. وقد كان معي غطاء، وفي أثناء الأكل فرشته أمامي ووضعت عليه زادي، على عادة الأثرياء في تلك البلاد. والغطاء هذا مستدير قطره نحو أربعة أقدام وفي أطرافه قيطانات بحيث يمكن طيّ الغطاء وربطه كما لو كان كيساً، فيجمع فيه ما تبقى عليه من خبز أو زبيب أو ما شاكل ذلك. وقد لاحظت أن المسلمين يشكرون الله ويحمدونه على ما أكلوا بقطع النظر عن نوع الطعام (بروكييه ٣٠٠).

السفر في الصحراء: مما ينعش المسافر في الصحراء، بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة، هو التنوع الذي يشعر به الواحد يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة. والتنوع والتجدد في الأرض والتراب والجو والجبال المتباينة الأشكال والألوان، فيعجب المسافر بما يرى ويرتقب ما سيأتي. وفي كل وقت تقع العين على ما يملأ النفس إعجاباً. ولقد شعرت في الصحراء القاحلة بسرور وغبطة لم أحصل عليهما حتى في سهول مصر الخصبة (فابري ١٠: ٥١٢).

نصائح رئيس جبل صهيون للحجاج الأوروبيين: أعطيت هذه التعليمات للحجاج عقيب وصولهم إلى الرملة، وبعد إقامة القداس. وقد ألقاها رئيس جبل صهيون باللغة اللاتينية، وترجمها فابري إلى الألمانية، لأن الحجاج الذين كانوا هناك كانوا كلهم المانيين.

تقع هذه التعليمات في سبع وعشرين مادة (راجع ص ٢٤٨ ـ ٢٥٤) وهذا أهم ما جاء فيها:

(١) الحجاج الذين جاءوا إلى الأرض المقدسة دون أن ينالوا بركة البابا، وبذلك حرموا، عليهم أن يتقدموا بعد القداس لينالوا الغفران.

(٢) لا يجوز لأي واحد من الحجاج أن يتجوَّل في الأماكن المقدسة في المدينة (القدس) دون أن يرافقه دليل مسلم، لأن عملاً مثل هذا خطر...

(٣) يجب أن يتجنب الحجاج تخطي قبور المسلمين.

(٤) إذا اعتدى أحد أهل البلاد على حاج، فلا يجوز للحاج أن يرد عليه بالمثل وإنما يشكوه إلى حارس جبل صهيون أو إلى الترجمان أو مساعده، وهؤلاء يفعلون ما يرونه مناسباً.

(٥) يجب أن يمتنع الحجاج عن قطع أي شيءٍ من كنيسة القبر المقدس أو غيرها من الأبنية، لأن عملاً كهذا يؤدي إلى إلقاء الحرمان على فاعله.

(٧) زيارة الحجاج، يجب أن تكون منظمة.

(٩) يجب أن يتجنب الحجاج المزاح مع الشباب أو الأولاد الذين يلقونهم في الطرق.

(١٠) على الحجاج أن يتجنبوا النظر إلى النساء في الطرق.

(٢٢) على الحجاج أن يحذروا من دخول المساجد والجوامع.

(٢٣) على الحجاج أن يتجنبوا السخرية من الناس أثناء تأديتهم فريضة الصلاة.

(٢٥) يجب أن يدفع الحجاج النقود المطلوبة منهم دون تذمر أو سخط، لأن الدفع يريحهم من متاعب كثيرة (فابري ٧: ٢٤٨ وما بعدها).

الهوامش

(١) كانت زيارة واي وزيارة فابري للأرض المقدسة قريبة إحداهما من الأخرى.

(٢) من عادة اليهود أن يتظاهروا بالفقر في بلاد العرب. فإنهم ينتقلون كما لو كانوا مستجدين (عوبديا ـ أدلر ـ ٢٢٨) والغرض من ذلك التهرب من دفع الرسوم.

(٣) كان في طريقه من غزة إلى دير القديسة كاترينا.

(٤) كان في شمال سورية.

المصادر

المصادر والمراجع العربية

البدري المصري الدمشقي - **نزهة الانام في محاسن الشام**، (القاهرة - ١٣٤١).

ابن بطوطة - **الرحلة** (القاهرة - ١٩٣٨).

ابو البقاء جيعان - **القول المستظرف في رحلة مولانا الملك الأشرف**، (ترجمة فرنسية، القاهرة - ١٩٢١).

ابن جبير - **الرحلة** (ليدن، ١٩٠٨).

البغدادي، عبد اللطيف - **الافادة والاعتبار**، (القاهرة - لا . تا).

الحسني علي عبد العزيز - **تاريخ سوريا الاقتصادي**، (دمشق - ١٣٤٢).

ابن حوقل - **صورة الأرض**، تصوير، بيروت ١٩٣٨ .

ابن الخطيب، لسان الدين - **نفح الطيب**، (القاهرة).

ابو الفدا - **تقويم البلدان**، (باريس - ١٨٤٠).

القلقشندي - **صبح الأعشى**، (القاهرة - ١٩١٤).

المقدسي - **أحسن التقاسيم**، (ليدن - ١٩٠٦).

ابن منقذ، اسامة - **الاعتبار**، نشر فيليب حتي، (برنستون - ١٩٣٠).

ميور، وليام - **المماليك**، ترجمة عابدين وحسن، (القاهرة - ١٩٢٣).

ناصري خسرو - سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، طبعة ثانية، (بيروت - ١٩٧٠).

الهروي - **الاشارات الى معرفة الزيارات** (مخطوطة في المتحف الأثري بالقدس).
ومطبوع نشر جانين سورديل - طومين (دمشق - ١٩٥٣).

اليعقوبي - **كتاب البلدان**، (ليدن - ١٨٩١).

المصادر والمراجع الأجنبية

Alder, N.E., _ *Jewish Travellers* (London, 1930).

Anglure, "*Le Saint Voyage de Jerusalem*", (Paris, 1979).

(AOL), *Archives de l'Orient Latin*, 2 vols. (Paris, 1878-1884).

Asher, Benjamin of Tudela, (London & Berlin, 1840).

Beazley, C.R. *The Dawn of Modern Geography*, Vols I & II, London, 1897-1901, Vol. III Oxford, 1906.

Bernhard Von Breyden and His Journey to the Holy Land, (London, 1911).

Bibliotheca Geographorum Arabicorum, 8 Vols, (Leyden, 1870-1894). (See Arabic Sources).

Bliss, F.J. *Development of Palestine Exploration*, (New Tork, 1906).

Brehier, L. *L'Eglise et l'Orient au Moyen Age*: *Les Croisades*, (Paris, 1928).

Carmoly, E. *Itineraires de la terre Sainte des XIII, XIV, XV, XVI et XVII Siecles,* (Bruxelles, 1847).

Cutts, E.L. *Medieval Scene*, (London, 1896).

La France en Orient Latin au XIVme Siècle, (Paris, 1886).

Gaudefroy - Demombynes *La Syrie du Nord à l'époque des Mamelouks,* (Paris, 1923).

Geyer, P. *Itinera Hierosolymitans Saeculi III-VIII*, (Leipzig, 1898).

Grousset, R. *Histoire des Croisades*, 3 Vols, (Paris, 1934-6).

Grünhut, *Rundreise des R. Petachja von Regensbyrg*, Jerusalem, 1904-5).

Heyd, A. *Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age*, (Leipzig, 1923).

Hitti, P.K. *History of the Arabs*, (London, 1937).

Itineraires à Jerusalem et Descriptions de la Terre Sainte, (Genéve, 1882).

Lannoy, G. de ,*Voyages et Ambassades*, (Mons, 1840).

(PPT). *Library of the Palestine Pilgrims Text Society*. 13 Vols and an index volume, (London, 1896 ff).

Komroff, M. (ed). *Travels of Marco Polo*. (New York, 1930).

Maundeville, Sir John, *The Book of Travels*, (London, 1848).

Mickley, *Das Land der Bibel*, (Leipzig, 1917).

Miller, K. *Mappae Arabicae*, Vols, I-IV, (Stuttgart, 1926-7).

Nasiri-Khisraw, *Safar Nameh*, ed, by Schaefer with a French Translation, (Paris, 1881).

Newton, P. (ed). *Travels and Travellers in the Middle Ages*, (London, 1926).

Prevost, L. *Le Sinai Pelerins du Moyen Age*, (Paris, 1936).

Prûtz, *Kulturgeschichte der Kreuzzuege*, (Berlin, 1883).

Rainaud, A. *Geographie d'Aboulfida*, (Paris, 1848).

Roericht, R. *Bibliotheca Geographica Palastina*, (Berlin, 1890).

Roericht, R. *Deutsche Pilgerreisen*. (Innsbrück, 1990).

Sanuto, Marino. *Liber Secretorum Fidelium Crucis super Terra Sanctae recuperatione et conservatione"*. Published in Bongars (Gesta Dei Per Francos) (Hanoviae, (1611).

Stevenson, W.W. *The Crusades in the East,* (Cambridge, 1907).

Strange, G. le *Palestine under the Moslems*, (London, 1890).

Tobler, T. *Itinera Hierosolymitana et Descriptiones Terrae Sanctae*, (Genevae, 1879).

Wey, William. *Itinerarium of W.W.*, (Roxburgh Club Edition), (London, 1857).

Wilbrandus de Oldenborg. *Peregrination*, ed. by I.C.M. Laurent (Leipzig, 1864).

Wright, Th. (ed.) *Early Travels in Palestine*, (London, 1848).

الرحَّالة العرب

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

الرحّالة العرب

المحتويات

تمهيد ٢٩٥
١ ـ العرب والجغرافية ٢٩٧
٢ ـ الرحالة الأوائل ٣٠٢
٣ ـ رحالة القرن الثاني عشر ٣١٢
٤ ـ رحالة القرن الثالث عشر ٣٤٥
٥ ـ ابن بطوطة ٣٥٧
٦ ـ رحّالة القرن الخامس عشر ٤١٣
المصادر ٤٢٤

تمهيد

هذه صفحات مشرقات من تاريخ اهتمام العرب بالرحالة، وآثار هؤلاء الرحّالة... أضعها بين يدي القارىء، آملاً أن تشعره بأن أولئك القوم كانوا شيئاً كثيراً. ونحن قد تفصلنا عنهم قرون من الزمن، لكن صلتنا الروحية والفكرية بهم قوية بحيث لا يمكن أن ينال منها زمن مهما طال. وستكون أعمالهم دوماً مصدر وحي لنا في جل أعمالنا.

وأنا إذ أدفع بهذا الكتاب إلى المطبعة اسهاماً مني بمشروع الألف كتاب، أشعر بشيء كثير من السرور، وأشكر أن أتيحت لي هذه الفرصة.

١ ـ العرب والجغرافية

كانت مسألة إدارة البلاد من المسائل التي شغلت العرب، وهي مسألة كثيرة التعقيد لارتباطها بالطريقة التي تم بها الفتح. لذلك اهتم اصحاب السير والمغازي ورواة الأخبار ببحثها، ليتقرر مقدار الجزية والخراج. ومن ثم كان وصف البلدان جزءاً من عمل المؤرخين. لكن الأمر لم يلبث أن اختلف، فاستقل كتّاب بوصف الاقاليم ودرسها. وكانت المحاولات الأولى تدور حول التعرف إلى البلاد وطرقها وخراجها. ومن ثم كان كتاب «المسالك والممالك» ــ وهو من أقدم الكتب الجغرافية العربية ــ تقريراً عن جباية المملكة العباسية في أواسط القرن الثالث. وليس من المصادفات ان مؤلفه، ابن خرداذبه، كان متولي البريد والخبر بنواحي الجبل بفارس. وكذلك كتاب «الخراج وصنعة الكتابة» لقدامة بن جعفر، فانه يبين الطرق والمسافات فضلاً عن قيمة جباية المملكة،.

وقد شجع الاسلام الكتابة الجغرافية من ناحيتين اخريين. أما الأولى فجاءت عن طريق الحج. فالحج فريضة على المسلم ما استطاع إليه سبيلاً، ومن حق الحاج على سلفه أن يبين له خير الطرق للوصول إلى مكة والمدينة. ويشرح له الصعوبات ووسائل التغلب عليها. وكان أثر هذا الأمر كبيراً في إثارة الكتّاب إلى تدوين ما لاحظوا ورأوا، كإبن جبير وإبن بطوطة. واما الناحية الثانية التي شجع الاسلام فيها الكتابة الجغرافية، فهي طلب العلم. فقد كان المسلمون يتنقلون في سبيل انتجاع المعرفة من قطر إلى آخر. وان علماءهم ليحرصون على تدوين مشاهداتهم ليطلع عليها الخلف ويستفيد منها.

ونحن إذا عرضنا للمكتبة الجغرافية العربية، وجدناها تضم انتاج ما يقرب من الثلاثين من كبار المؤلفين الذين وصلت الينا آثارهم، غير الذين لم يبق من كتابتهم شيء. وقد تأثرت الأبحاث الجغرافية في عهدها الأول بما وصل إليه اليونان من قبل، شأن بقية الأبحاث التي أخذها العرب عنهم. ومع أنه لم تصل إلينا ترجمة تامة لكتاب بطليموس، فقد خلّف لنا الخوارزمي الفلكي خلاصة له عملها سنة ٨٣٠ ميلادية[١]، فالاطوال والعروض والمواقع عنده وعند غيره من معاصريه ترجع في غالبها إلى كتاب بطليموس. ومن اظهر آثار اليونان في جغرافيي العرب في هذه الفترة تقسيم الأرض إلى سبعة اقاليم. وكتاب الكندي المسمى «رسم المعمور من اقطار الأرض» هو اقتباس لبطليموس اليوناني. وابن خرداذبة نقل بعض كتابه «المسالك والممالك» عن بطليموس

أيضاً، ثم اضاف إليه الخراج والطرق على ما ذكره هو في مقدمة كتابه. ومثل ذلك يقال عن اليعقوبي وابن الفقيه وابن رسته بوجه عام...

ويرى ميلر ان الكتّاب الجغرافيين العرب الذين ذكروا يمثلون المعرفة الجغرافية اليونانية الرومانية مترجمة إلى اللغة العربية، وان الخرط التي رسموها كانت منقولة عن بطليموس[٢].

على أن القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يمثل في تاريخ البحث الجغرافي العربي فترة النضج. والاصطخري وابن حوقل والمقدسي يمثلون درجة عالية في البحث المبني على الاختبار الشخصي والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل. والتأليف الجغرافي الناضج هذا استمر ثلاثة قرون. وكانت تظهر فيه، في أول أمره، آثار فارس، ولكنه لم يلبث أن خلُصت عروبته. والاتجاهات التي نلمسها في ما خلّفه لنا كتاب هذه الأزمنة ثلاثة، أولها عناية شديدة بأقاليم العالم الاسلامي والاقطار المجاورة على ما نراه عند البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي[٣]. وثانيها: نوع من التخصص في قطر واحد. فقد كتب الهمذاني «صفة جزيرة العرب». وكتب البيروني عن الهند، وترك لنا ابن فضلان وصفاً لبلغاري الفولغا، إذ زار بلادهم في وفد الخليفة المقتدر سنة ٣١٠ / ٩٢١[٤]. واما الاتجاه الثالث فقد بدا في كثرة المعاجم الجغرافية التي وجدت طريقها إلى المكتبة الجغرافية منذ القرن الخامس للهجرة. فالبكري يعرّفنا بكتابه بقوله: «هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والاشعار من المنازل والديار والقرى والامصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة. وياقوت الحموي في طليعة اصحاب المعاجم الجغرافية على الاطلاق. فكتابة معجم البلدان «خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية لأنه إذا ذكر بلداً أورد شيئاً من تاريخه، ومن اشتهر فيه أو نسب إليه من الأدباء والشعراء، والفقهاء. هذا بالاضافة إلى مقدمة وافية في علم الجغرافية». والمعجم دقيق في معلوماته منظم في طريقته.

وتمتاز هذه الفترة بأن الخرط التي رسمها هؤلاء الجغرافيون «كانت انتاجاً عربياً خاصاً» [٥]. وقد أحصى ميلر مائتين وخمساً وسبعين خارطة للعالم الاسلامي تعود إلى ذلك العصر [٦] (هذا باستثناء خرط الادريسي الآتي ذكرها فيما بعد).

ثمة ناحية أخرى من الانتاج الجغرافي حرية بالعناية، وهي الموسوعات الكبيرة التي ظهرت في القرن الثامن الهجري... فقد وصلت إلينا كتب فيها التاريخ والأدب والجغرافية وغير ذلك. ومن هذه نهاية الأرب للنويري، وصبح الأعشى للقلقشندي، ومسالك الابصار لابن فضل الله العمري. فهذه الكتب المعتبرة في مقدمة خزائن المعرفة تحوي فصولاً في الجغرافية العامة والسياسية، تمدنا بالكثير من معلوماتنا عن الدول الاسلامية وغيرها من الاقطار في تلك العصور.

تمتاز الكتب الجغرافية العربية، وخاصة بعد تحررها من تأثير اليونان المباشر فيها، بأنها تعتمد على المشاهدة الشخصية والحس. فاليعقوبي يقول عن نفسه إنه سافر وحدَّث وسأل... وابن حوقل يقول: «وأعانني على تأليفه تواصل السفر وإنزعاجي عن وطني، إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها، وقطعت وتر الشمس على ظهرها». اما المقدسي فقد جال في البلدان ودخل اقاليم الاسلام ولقي العلماء وخدم الملوك وجالس القضاة ودرس على الفقهاء واختلف إلى الأدباء والقراء، وخطب على المنابر، وساح في البراري وتاه في الصحاري، واشرف على الغرق وسجن في الحبوس، ولزم التجارة في كل بلد وعني بالمعاشرة مع كل احد. وينطبق هذا بشكل خاص على العالم الاسلامي، وإن لم يقتصر عليه.

والاصطخري يقول: «ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك، وقصدت منها بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة اليها. وابن حوقل يذكرنا أنه فصّل بلاد الاسلام اقليماً اقليماً وصقعا صقعاً وكورة كورة لكل عمل. وهذان الكاتبان، يبدآن الوصف بديار العرب، لأن القبلة ومكة فيها وهي أم القرى، وهي بلد العرب واوطانهم. ومثل ذلك المقدسي. اما اليعقوبي فيتخذ العراق نقطة ابتداء لكتابه «لأنه وسط الدنيا وسرة الأرض». ويبدأ بذكر بغداد «لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها».

ويعنى الجغرافيون العرب بالمسالك والطرق والمسافات لعلاقتها بالرحلة والتجارة والبريد. وهذه عندهم صحيحة دقيقة. والمستعمل عندهم الفراسخ والاميال للقياس. والفرسخ ثلاثة اميال، والميل يقل عن الكيلومتر قليلاً. ويستعملون للمسافات الطويلة وحدة للسير هي اليوم. فسورية مثلاً طولها خمسة وعشرون يوماً. وقد وجدت بعضهم كالادريسي مثلاً يذكر «يوماً طويلاً» في تعيين المسافات.

ومن النادر ان يعثر القارىء في كتب الجغرافيين العرب على احصاء يتعلق بعدد السكان، أو مقدار ما ينتج في صناعة معينة أو من زراعة مبينة[٧]. على أن احصاءاتهم المتعلقة بالخراج وارتفاع الأرض المترتب على ذلك، دقيقة صحيحة. فالارقام التي يوردها قدامه بن جعفر عن ارتفاع السواد مأخوذة من القيود الرسمية للسنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩ وهو يذكرها بالحنطة والشعير والدراهم.

وقد نقل الخلف عن السلف في الكثير من الأحيان. فالبعض ذكر ذلك، والبعض الآخر سكت عنه. وقد حذّر المقدسي قراءه «إنه لم ينقل عن احد، ولكنه خبر ودون وكتب». وقد إنتقد المقدسي كتب من سبقه من الجغرافيين. فمنهم من كتب باختصار لا يفيد ومنهم من جمع الغرباء، وسألهم عن الممالك ودخلها، وكيف المسالك إليها. ومنهم من اختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة. ويقول عن ابن الفقيه الهمذاني[٨] انه «ادخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم... مرة يزهد في الدنيا وتارة يرغب فيها،

ودفعة يبكي وحيناً يضحك ويلهي». وهنا نلحظ المقدسي الجغرافي العالم الدقيق الذي يريد أن يكون البحث دائماً مبنياً على الدرس والاختبار منظماً مبوباً وافياً بحيث لا يخلط بين جد العالم وهزل الهازل. كذا نلمس هذه الناحية فيه إذ يقول عند تقرير خطته «وفي كتابنا هذا اختصار لفظ يدل على معان... مثل قولنا لا نظير له، نريد أن ليس مثله بتة... فان قلنا غاية فانها معنى الجودة من الاجناس»[٩]. ولما جاء أبو الفدا تناول في مقدمة كتابه «تقويم البلدان» من تقدمه من الجغرافيين بالنقد. فأظهر أن ابن حوقل والأدريسي وابن خرداذبة، لم يحققوا الأسماء، وغيرهم لم يحقق الاطوال. اما هو فقد جمع بين التحقيق في الأسماء، والأطوال[١٠]. والواقع ان كتابه يصح ان يعتبر تاريخاً انتقادياً للكتابة الجغرافية العربية إلى عصره (القرن الثامن للهجرة).

ثمة مؤلف جغرافي آخر حري بالالتفات ـ ذلك هو الادريسي صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». كتب هذا الكتاب بالعربية في صقلية في بلاط ملكها روجر الثاني سنة ١١٥٤م، وصاحبه لم يزر جميع الممالك الاسلامية الشرقية لكنه كتب عنها مما حصل عليه من كتب الرحلات ورسائل الزوار. والأدريسي يمثل مدرسة جغرافية خاصة، هي التي سماها ميلر المدرسة العربية النورمانية[١١]. فقد كان بلاط روجر الثاني ملتقى الحضارتين وموئلا للحرية العلمية في القرن الثاني عشر الميلادي. والخرط التي رسمها الادريسي كانت ذات اثر كبير في تصوير الدنيا للاوروبيين مدة طويلة بعد عصره.

ويمكن القول اجمالاً بأن الجغرافيين من العرب عرَّفوا قومهم ومن جاء بعدهم في الشرق والعرب بالعالم الاسلامي خاصة. وقد وقف الابتكار العربي في الجغرافية ايام الادريسي، إذ لم يقم بعده من جاء بجديد سوى الرحالين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مؤرخي الابحاث الجغرافية متفقون على أن فضل العرب على الفلك كان عظيماً جداً.

وكانت الرحلة عنصراً قوياً في حياة المجتمع الاسلامي في عصوره الزاهرة. فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التي تحملوها راضين مسرورين. ورحل الناس في طلب العلم من قطر إلى آخر. فقد كانت مراكز العلم منتشرة في أنحاء العالم الإسلامي، وطلابه كانوا يتحملون من المشاق في سبيل الحصول عليه ما يحملنا على احترامهم واجلالهم. ورحل القوم في سبيل الإتجار. فقد كانت الأسواق الاسلامية في مشارق الأرض ومغاربها مرتبطة بعضها ببعض كل الارتباط، وكان التجار يحملون متاجرهم، وسلعهم إلى حيث يرجون الربح الوفير. أضف إلى كل ذلك رحلة الرسل المترددين بين الملوك والامراء، والمغامرين الواجدين في الرحيل لذة خاصة، والساعين في سبيل الرزق إذا ضاقت بهم أرضهم، وجوابي الآفاق. كل هذه نماذج من الرحلة عرفها العرب والمسلمون. وقد شجعهم على الاستزادة منها خضوع العالم الاسلامي برقعته الواسعة لدولة واحدة بادىء الأمر. فلما

ذهبت الوحدة السياسية، بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة، وهاتان ربطتا الحجاج وطلاب العلم ورسل السلاطين وحملة البضائع وزعماء الصنائع فاحتفظوا بالصلة.. بل لعل الرحلة كانت اقوى في عهد التفرق السياسي منها قبلا لاعتياد العالم الاسلامي درجة من المعيشة، ونوعاً من الحياة ولونا من التفكير، تحتم على افراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكري والأدبي.

وقد دون كثير من رحالي العرب اخبار اسفارهم وتنقلهم، فذكروا المدن التي هبطوها والمسافات التي اجتازوها والصعوبات التي تغلبوا عليها، ووصفوا البلاد وزرعها، وقيدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها، وأتوا على وصف حياة السكان فعرضوا الطيب من عاداتهم بالمديح، وعابوا ما فيهم من ضعف، كالذي انتقده ابن جبير من عادة اهل دمشق في تحيتهم وصفة سلامهم، فقال عنهم «وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء... فيا عجبا لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الجمال».

وهذه اللفتات التي نعثر عليها في مذكرات السائح هي التي تميزه من الكاتب الجغرافي. فهذا يسأل ويستقصي ومحقق ويحاول ان يشمل كل جزء من المنطقة التي يعرض لدرسها. اما الرحّالة فينقل ما يشاهد، وتكون صورته جزئية، ولكنها ثمينة في هذه الناحية. ففي حين أن المقدسي أو أبو الفدا يذكران كل شيء عن اقليم الشام، نجد أن ابن جبير ـ وهو سائح ـ لا يتناول مدن الغور ابداً لأنه لم يصل إليها. وابن بطوطة يذكر جنوب سورية وخاناته وأماكن المكس والتفتيش فيه لأنه جاء البلاد براً من مصر.

الهوامش

(١) *Legacy of Islam*

(٢) *Mappae Arabicae* Band 1/1, P10

(٣) المقدسي ص ١ و٤٣؛ الاصطخري صفحة ٢ و١٢؛ ابن حوقل ص ٥؛ قدامة ص ٢٣٤.

(٤) وقد أفاد ياقوت مما خلفه ابن فضلان عن هذه البلاد.

(٥) ميلر Miller ص ١٤.

(٦) ميلر ص ٢٣.

(٧) راجع متز ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ـ الجزء الثاني من الترجمة العربية ص ٢٢٥ وما بعدها. «واخيراً ظهرت طريقة ساذجة في الاحصاء. فقد ذكر ابن حوقل مرة واحدة ان بمدينة بلرم قصبة صقلية ما يزيد على مائة خمسين حانوتاً للقصابين، وأراد أن يتخذ من ذلك دليلاً على كثرة عدد أهلها» ابن حوقل ص ٨٣.

(٨) المقدسي ص ٦.

(٩) المقدسي ص ٧.

(١٠) ابو الفدا ص ١ ـ ٢.

(١١) Miller ص ٢٤ ـ ٢٥.

٢ ـ الرحّالة الأوائل

ليس من السهل الحصول على اخبار الرحالين الأوائل من العرب. ذلك أن العرب، حتى قبل الاسلام، كانت لهم سفرات ورحلات في سبيل التجارة. فالقوم الذين يعيشون على شواطىء بحر العرب والبحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي لم يكونوا يجدون الوصول إلى الهند وشرقي افريقية أمراً صعباً، كما أن الذين كانوا على مقربة من طرق القوافل لم يستغربوا الأسفار. وقد اتسعت الرقعة العربية مع الفتوح، وزادت الشواطىء طولاً وأصبحت المدن متباعدة، وهذا كله حفز القوم على الاسفار. والذي سنعنى به في هذه الدراسات هو أولئك الذين خلّفوا مذكرات لرحلاتهم وأسفارهم، بحيث نستطيع أن نرافقهم ونصاحبهم، ولن يعنينا وضع جداول بأسماء كل من روى عنه أنه سافر أو ارتحل.

طلائع الرحالين وصلتنا بعض اخبارهم نقلاً عن الرواة، ومن هؤلاء سليمان السيرافي وابن فضلان والبعض دوّن اخباره مفصلة كالمسعودي. والأول من أهل القرن التاسع (الثالث)، أما الآخران فمن رحّالي القرن العاشر (الرابع). والظاهر أن تجار العرب من عمان وسيراف والبصرة في القرن التاسع كانوا يصلون الصين، كما كان تجار الصين يصلون الموانىء القائمة على الخليج العربي. لكن اخبار القرن العاشر لا تشير إلى هذا، بل بالعكس، فقد روى المسعودي اخبار تاجر من سمرقند خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى إلى العراق، فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة. وركب البحر حتى وصل إلى عمان وركب إلى بلاد «كلاه»، وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك. «وإليها تنتهي مراكب الإسلام من السيرافيين والعُمانيين في هذا الوقت. فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم. وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة». ويعزو المسعودي هذا التغير في الاسفار إلى انعدام العدل وفساد النيات. فلم يعد الفريق الواحد يصل إلى ميناء الآخر، وإنما يلتقي الفريقان في «كلاه» هذه[1]. وليس غريباً أن تنحدر إلينا قصة ابن وهب القرشي الذي غادر البصرة في رحلة حملته من سيراف أن خانفو «كنتون» ثم عاصمة المملكة الصينية نفسها، أو ان تحفظ لنا وصف سياحة سليمان السيرافي إلى الهند والصين في القرن التاسع (الثالث). وقد زاد في الفوائد التي نحصل عليها من رحلة سليمان أن

مواطناً له يسمى أبا زيد، من أهل القرن العاشر (الرابع) اضاف إليها ذيلاً فيه معلومات اضافية كثيرة. وليس من شك في أن الأصل والذيل يعطياننا اقدم وصف وصفه عربي لأقاليم الهند والصين وعادات الأقوام. وفضلاً عن ذلك فنحن نعرف منهما أن الجاليات الاسلامية في المدن الصينية كانت لها امتيازات خاصة إذ كان لها قاضيها وإمامها وشيخها ومساجدها. وقد قال الدكتور حسين فوزي[٢] عنها انها «تعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن التاسع. وربما كانت الاثر العربي الوحيد الذي يتحدث عن سواحل البحر الشرقي الكبير والطريق الملاحي إليها على اساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه الى احاديث تاريخية وغيرها، مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب. وإذا رأينا فيما بعد ابن خرداذبة وابن الفقيه والاصطخري وابن حوقل والمسعودي يتكلمون على اساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التي يذكرونها، فانهم أيضاً ينقلون الكثير عن ذلك الأثر العربي الأول بلفظه ومعناه في بعض الأحيان، وبما يكاد يكون لفظه ومعناه في البعض الآخر». ويذكرنا الدكتور زكي محمد[٣] «بأن الوصف الذي وصفه سليمان والذيل الذي اضافه ابو زيد يمتازان بقلة الخرافات والاساطير التي تكثر في احاديث البحارة».

قال سليمان يصف بعض جزائر البحار الشرقية، وهي بعد جزيرة سيلان: «... جزائر تدعى لنجبالوس، وفيها خلق كثير عراة، الرجال منهم والنساء، غير أن على عورة المرأة ورقا من ورق الشجر. فإذا مرت بهم المراكب جاءوا إليها بالقوارب الصغار والكبار وبايعوا اهلها العنبر والنارجيل بالحديد. ولا يحتاجون إلى كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد. ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال له اندمان، واهليهما يأكلون الناس احياء... وهم عراة ليس لهم قوارب»[٤].

ووصف سليمان الاعصار المحلي، فقال: «وربما رؤي في هذا البحر سحاب أبيض يظل المراكب، ينشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر فيغلى له ماء البحر مثل الزوبعة. فإذا ادركت الزوبعة المركب ابتلعته. ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطراً فيه قذى البحر، فلا أدري أيستقى السحاب من البحر أم كيف هذا»[٥].

ومن أهل القرن العاشر (الرابع) ابن فضلان الذي أشرنا إليه قبلاً... وابن فضلان هذا ذهب إلى ملك البلغار في بعثة ارسلها إليه الخليفة العباسي المقتدر بالله. ذلك ان ملك البلغار، وكان قد اعتنق الاسلام قبيل ذلك بقليل، طلب من الخليفة ان يبعث إليه من يعلمه الاسلام ويعرفه بشرائعه ويعينه في توضيح احكامه واقامة مساجده.. فاستجاب الخليفة إلى طلبه، فقامت البعثة من بغداد برئاسة موفد خاص من الخليفة، وكان من رجالها ابن فضلان ليقوم بوظيفة رجل الدين. بدأت السفر في

صيف ٩٢١ م/ ٣٠٩هـ وقضت في الطريق ما يقرب من احد عشر شهراً. وكانت طريق البعثة من بغداد الى بخارى فخوارزم إلى بلاد البلغار وهي إلى الشرق من نهر الفولغا. ولما عاد ابن فضلان كتب تقريراً عن تلك البلاد كان عمدة المؤلفين والجغرافيين من العرب (امثال الاصطخري والمسعودي وياقوت) وغيرهم مدة طويلة. ويؤخذ مما كتبه ابن فضلان ان البلغار كانوا آخذين بأسباب الحضارة الحديثة التي كانت قد وصلتهم، وان علاقتهم بالملك تقوم على نوع من الأبوة ، وان الأدب كان خصلة قوية فيهم. وهكذا فان اخبار ابن فضلان عن هؤلاء القوم وعن الروس الذين جاءوا يتاجرون مع البلغار غنية بالفوائد. وقد عادت على المعرفة الجغرافية بالخير الكثير لمدة طويلة.

وما دمنا نعرض لأهل القرن العاشر (الرابع) فانه يجدر بنا ان نتحدث هنا عن المسعودي على أنه من نوع الرحَّالة الجغرافي المؤرخ. وهو بغدادي المولد والنشأة. وقد أولع بالرحلة من صباه، فزار اجزاء من الهند (السند وبنجاب وملابار) ثم عرَّج على سيلان في طريقه إلى البحر الصيني، ثم عاد إلى زنزبار ومدغشقر. وزار عمان في طريق عودته إلى بغداد. ثم عاد إلى الرحلة فزار بحر قزوين وآسيا الصغرى وسورية وفلسطين، وختم رحلاته بزيارته لمصر حيث توفي في الفسطاط (٣٤٥ هـ/ ٩٥٦م).

لا شك في أن المسعودي كان قد تعرف إلى الأدب الجغرافي المعروف في أيامه، ومن هنا تأتي اشارته إلى مؤلفات في الجغرافية هي الآن مفقودة. ولكن مما لا ريب فيه أن المسعودي فتح آفاقاً جديدة لنفسه، على ما يبدو لمن يدرس مروج المذهب ومعادن الجوهر، وهو الذي وضع فيه المسعودي خلاصة اختباراته وتجاربه في الأسفار والرحلات. والكتاب يجمع بين دفتيه خلاصة وافية للمعرفة العلمية في عصره. ولعل المسعودي الوحيد الذي تحدث عن الشعوب والبلاد المجاورة لعالم الاسلام في تلك العصور. وقد عالج اكثر أموره معالجة صاحب البصيرة النير والملاحظة النقادة، لكنه لم يستطع أن يقصي عنه جميع الاساطير، فقد ضمن كتابه الكثير منها. فمروج الذهب كتاب سياحة ومعرفة جغرافية وعمران وعلم وملاحظة واخبار وأساطير، وهو يمثل اصدق تمثيل الحياة العقلية النشيطة المتطلعة إلى الوصول إلى الحقيقة والتي لم تتحرر تماماً من كل شيء غير حقيقي فقبلت أو على الأقل لم تنف ــ بعض ما يبدو غير منطقي ولا سليم.

والمسعودي يصف الصعاب التي كان يلقاها في تنقلاته وصفاً دقيقاً. فقد قال: «وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين وبحر الروم والقلزم واليمن، واصابني فيها من الأهوال ما لا احصيه كثرة، فلم اشاهد أهول من بحر الزنج (المحيط الهندي شرقي افريقية) وفيه السمك المعروف بالأوال، طول السمكة نحو من اربعمائة ذراع بالذراع العمرية، وهي ذراع ذلك البحر. والأغلب من هذا السمك طوله مئة ذراع. وربما بدا

بهذا البحر فيظهر طرف من جناحيه فيكون كالقلاع العظيم وهو الشراع. وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء، فيذهب الماء في الجو اكثر من ممر السهم. والمراكب تفزع منه بالليل والنهار وتضرب له بالدبادب والخشب لينفر من ذلك».

ومع اننا نعنى في هذا الكتاب بالرحالين العرب، فاننا لا نرى مفراً من التحدث عن ناصري خسرو بسبب ما خلف لنا من وصف دقيق لأماكن كثيرة زارها، وهو وصف يلقي كثيراً من الضوء على الحياة العامة فيها. وناصري خسرو فارسي الأصل والنشأة والثقافة. ولد بالقرب من بلخ سنة ٣٩٤ هـ/ ١٠٠٣م وتأدب وشارك في علوم عصره ونال حظاً وافراً من معارفه، وزار الهند وعمل في بلاط الغزنويين. ثم عاد إلى فارس وشغل منصباً كبيراً عند السلاجقة، إذ كتب لجعفر (أو جفري بك)، وهو أخ لطغرل بك. وكان منغمساً في الملاهي والملذات حتى تراءى له ليلة رجل في الحلم نهاه عن المعاصي، وأسر إليه ان زيارة البيت الحرام هي سبيل التوبة النصوح. فكان لهذا الحلم أثر بالغ في نفسه، أدى إلى تغيير حياته، فأقلع عما كان فيه حالاً وسار للحج في العام التالي.

بدأ من مرو، فمر بنيسابور والري وتبريز وميافارقين وآمد وحرآن ودخل سورية بطريق منبج. وزار في بلاد الشام امهات مدنها في طريقه، إذ مر بحلب وحماة والمعرة. ثم اتجه إلى الشاطىء فزار طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكاء. ومن هنا عرَّج على طبرية، ثم عاد إلى عكاء ومنها اتجه إلى الرملة بطريق قيسارية وكفر سابا. ومن الرملة قصد القدس فوصلها سنة ٤٣٨ هـ وقضى فيها أربعة اشهر ثم حج وعاد إلى القدس بطريق دمشق وسافر إلى مصر براً عن طريق عسقلان فوصل في ٧ صفر سنة ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧م. فأقام في مصر ثمانية اشهر ثم حج ثانية وعاد، وظل يتنقل في بلاط الخليفة المستنصر سنتين إلى أن غادر عاصمة الفاطميين نهائياً في ١٤ ذي الحجة سنة ٤٤١ هـ نيسان (ابريل) سنة ١٠٥٠ م بطريق عيذاب إلى جدة. وبعد أن حج للمرة الأخيرة عاد إلى بلاده، مجتازاً الطريق من مكة إلى الحسا براً وزار البصرة، فوصل مرو في ١٥ (حزيران) يونيو سنة ١٠٥٢م.

كان ناصري خسرو إسماعيلياً شديد التعصب لمذهبه. وفي أثناء اقامته في القاهرة تدرج في مناصب الدعاة الإسماعيليين وقابل الخليفة نفسه، وكان يرى أن القاهرة المركز الديني لمذهبه وان الخليفة هو الإمام الحق. ولما عاد إلى بلاده كان في مقدمة الدعاة. وقد نقل براون عن جامع التواريخ أن ناصري خسرو قضى سنوات طويلة متخفياً في جبال خراسان، لما اشتد السلاجقة في طلبه. وبقي في منفاه هذا إلى أن توفي في سنة ٥٤٢ هـ/ ١٠٦٠م.

كان ناصري خسرو دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصي الأخبار وروايتها، فجاءت رحلته، المعروفة باسم سفرنامه، غنية بالصور مليئة بالمعلومات عن البلاد

التي زارها. وتلقي رحلته نوراً على الكثير من الشؤون الإجتماعية والاقتصادية قبيل مجيء الصليبيين إلى سورية.

فوصف ناصري خسرو للحرم الشريف بالقدس من أدق ما وصل إلينا من المعلومات عن هذا المسجد المبارك، ولعله أول من ضبط ابعاد الأقصى وقياساته. ويلاحظ هذا السائح أبواب المدن واتجاهها وميناء عكاء وصناعات صور وصيدا. ويعنى بمصادر المياه في كل بلد، وتسترعي نظره كثرة الرخام في الرملة. ولعل من ادق ملاحظاته ما ذكره من أن قرى القدس تقوم على رؤوس الجبال أو سفوحها. ثم هو لا يغفل عن زهر النرجس الذي يكسو بقعة من الأرض إلى الغرب من حماة أو من الوردتين الجميلتين اللتين رآهما في جبيل بيد صبي في شهر شباط (فبراير) أو الأشجار التي تكسو الطريق حول كفر سابا في فلسطين. والمدن الداخلية السورية التي نالها حظ الوصف في رحلته هي حلب وحماة وطبرية وبيت المقدس. اما باقي ما كتبه عن سورية فهو عن مدن الساحل. فهو يذكر أن حلب[٦] تتمتع بيسار ورخاء إذ تلتقي عندها طرق التجارة الشامية والرومية والعراقية والمصرية. ويحدثنا عن أبي العلاء عند مروره بالمعرة، فقد كان لايزال حياً[٧]. ويصف طرابلس بقوله: «ارباض المدينة تملأها البساتين.. وقصب السكر ينمو هنا بكثرة.. ومثله البرتقال والليمون والتمر.. وقد كانوا أيام وصولنا يستخرجون عصير قصب السكر... وفنادق المدينة تتألف من أربع طبقات أو خمس وقد تصل إلى ست... وبيوتها واسواقها حسنة البناء نظيفة. وفي المدينة مكاتب لفرض الضريبة الجمركية على السفن القادمة إلى المدينة من بلاد الروم أو الغرب أو غيرها.. وللسلطان ـ أمير المدينة ـ سفن تحمل تجارته إلى بزنطية وصقلية والغرب، وأهل طرابلس كلهم شيعة». ولما وصل ناصري خسرو صيدا بهره ثراؤها وزينتها، فقال: «وأسواق المدينة بهية الزينة حتى ظننت أنها زينت لمناسبة قدوم السلطان أو لأمر آخر سار. فلما استقصيت عرفت أن ذلك أمر عادي».

وقد كانت صور في الوقت الذي زارها فيه ناصري خسرو، من أكبر مراكز التجارة البحرية، يدلنا على ذلك فنادقها التي كانت ذات خمس طبقات أو ست، وشوارعها. فقد كانت نظيفة تدل على الثروة الهائلة «وصور معروفة بغناها وقوتها بين المدن السورية الساحلية واكثر سكانها شيعة لكن قاضيها سنى..».

ويتنقل من مدن الساحل السوري من المدينة إلى الأخرى حتى يمر بقيسارية ثم يتجه إلى الرملة. وبعد أن يصف هذه المدينة الكبيرة وبيوتها المبنية من الرخام الذي يكثر وجوده فيها، يذكر طريقة تقطيعه أعمدة أو ألواحًا بمنشار غير مسنن.

وفي القدس يعنى ناصري خسرو بزيارة الأماكن المقدسة كلها ويلاحظ أن شوارع المدينة مبلطة. ويعطينا عدد السكان على أنه عشرون ألفاً. ثم يقول «والأرض في نواحي القدس مستغلة استغلالاً طيباً. والزيتون هناك كثير». ويقول «إن القار المجموع

من مياه البحر الميت يستعمل في طلاء الأجزاء السفلى من الأشجار لحفظها من الديدان. ويستعملها الصيادلة للمحافظة على العقاقير من الحشرات».

ووصف ناصري خسرو لمصر من خير ما وصل إلينا.. وقد تناول البلاط الفاطمي والعاصمة والإدارة الحكومية في زمن المستنصر بالتفصيل. ولم يكن هذا بغريب على الرجل الذي أقام في القاهرة مدة طويلة وعاشر المقدمين من أهلها، وحظي بمقابلة الخليفة نفسه. فتراه يتحدث عن قاعة المآدب في القصر والاحتفال بولادة ابن الخليفة وعن جبر الخليج، ويقسم القاهرة إلى حاراتها العشر ويعطينا أسماءها مثل برجوان وزويلة والجديرة. وتعجبه فواكه مصر وأثمارها فيذكرها، وينبئنا أن البلسم مغربي الأصل جاء به اجداد الخليفة المستنصر لما فتحوا مصر. وإذ يذكر جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون، يروي أن أحفاد هذين الرجلين أرادوا بيع كل من الجامعين في زمن الحاكم بأمر الله. فابتاعهما الخليفة نفسه. ولما عاد ناصري خسرو من مصر إلى بلاده بطريق الحجاز والحسا، ذكر ملاحظات قيمة عن المدن التي مر بها.. منها صنع القماش في اسيوط واستخراج الافيون فيها واجرة الجمل الذي استأجره منها إلى عيذاب كانت ديناراً ونصف الدينار. وقد تعرف ناصري في أسوان إلى رجل اسمه الفلجي وتآخيا. فلما وصل إلى عيذاب اخذ نقوداً بناء على توصية كان حملها إياه صاحبه الاسواني. وانتقل إلى جدة فوصفها وذكر أن سكانها لا يتجاوزون الخمسة آلاف من الذكور، كما انه قال عن سكان مكة الاصليين انهم لا يتجاوزون الألفين من الذكور، وبها نحو خمسمائة مجاور. وأشار إلى القحط الذي أصاب الحجاز سنتي ٤٣٩ و٤٤٠هـ.

وقد خص ناصري خسرو مكة المكرمة ومناسك الحج ومشاعره فيها بقسط كبير من جهده ووقته وكتابه وليس ذلك بغريب. ونالت فلج والحسا والبصرة حظها من عناية ناصري خسرو إذ اجتاز بلاد العرب من الغرب إلى الشرق. وكانت البصرة ايام زارها ناصري خسرو خربة والأجزاء المسكونة منها متباعدة. ومع ذلك فقد كانت فيها تجارة رائجة. وكان من عادة اهلها انه إذا هبطها التاجر أودع أمواله عند صراف وأخذ بها رقاعاً، فإذا اشترى شيئاً دفع الرقاع إلى البائع وهذا يستبدلها بالنقد من عند الصراف.

ورغب ناصري خسرو وأخوه في دخول الحمام، لكن ثيابهما الوضيعة حملت المشرف على الحمام على اقصائهما. ومما يدل على دقة ناصري خسرو، ذكره المد والجزر في الخليج الفارسي وعلاقة ذلك بالفيضان في شط العرب. ومن البصرة عاد إلى مرو[٨].

ويجدر بنا وقد تحدثنا عن هذا الرحالة أن ننقل إلى القراء وصفه الشيق لمصر، إذ هو من امتع ما كتب.

مصر كما رآها ناصري خسرو

القاهرة ـ مدينة كبيرة. وأُقدر أن بها ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها ملك للخليفة، ومنها عدد كبير يؤجر، واحدها بمقدار عشرة دنانير مغربية بالشهر، وليس فيها ما يؤجر بأقل من دينارين. وفنادقها وحماماتها وسائر ابنيتها العامة كثيرة، بحيث لا يمكن تعدادها، وكلها ملك للسلطان.. وقد روي لي أن بالقاهرة ومصر (أي الفسطاط) عشرين ألف منزل يملكها الخليفة ويؤجرها مشاهرة.. وقصره يتوسط القاهرة.. (ناصري خسرو ١٢٧).

وقد قدر المهندسون سعته بقدر مدينة ميافارقين كلها.. وفيه من الحراس ألف رجل. ومن الخدم ١٢٠٠٠. ويؤكد البعض أن سكانه يبلغون ٣٠٠٠٠ نسمة (ناصري خسرو ١٢٨).

وماء الشرب يؤخذ من النيل ويحمله السقاؤون على جمال يبلغ عددها اثنين وخمسين ألفاً.. ويحمل الرجال القرب حيث يتعذر على الجمال الدخول.. وتفصل المنازل بعضها عن بعض داخل المدينة بساتين وحدائق غناء. وكان ايام اقامتي بالقاهرة أن أجر المنزل العادي ذي الأربع طبقات بأحد عشر ديناراً بالشهر. والمنزل الذي أقمت فيه كانت ثلاث طبقات منه مأهولة، فطلب مني صاحبه خمسة دنانير مغربية في الشهر أجرة الطابق الرابع (ناصري خسرو ١٣٢).

وتبعد مصر أقل من ميل عن القاهرة، في اتجاه الجنوب، والأرض بينهما مغطاة بالحدائق التي يغمرها ماء النيل في الصيف «فصل الفيضان»، عدا حديقة الخليفة فانها تقع على مكان مرتفع (ناصري خسرو ١٣٦).

الفسطاط ـ في مصر «الفسطاط» بيوت من أربعة عشر دوراً وبعضها من سبع طبقات. وقد سمعت عمن يوثق به، أن ثمة رجلاً أنشأ حديقة على سطح بيت ذي سبعة أدوار.. وغرس فيها البرتقال الحلو والموز وغيرهما من الأشجار المثمرة والرياحين والزهور.. وفي مصر دور كبيرة للتأجير تتسع الواحدة منها لثلثمائة وخمسين شخصاً.. وبعض أسواق مصر وشوارعها تضاء فيها المصابيح باستمرار وذلك لأنها مسقوفة فلا يصل إليها نور الشمس (ناصري خسرو ١٤٦).

ينتقل التجار والسماسرة في مصر بين البيت والسوق على حمير ذات سروج جميلة، يرى المرء عدداً كبيراً منها عند مداخل الشوارع والأسواق. وأجرة الحمار قليلة. وفي مصر نحو من خمسين ألف حمار للتأجير. وركوب الخيل مقصور على الجند والاشخاص المنتمين إلى الجيش (ناصري خسرو ١٥٤).

ثروة مصر ـ تصنع في مصر كل أنواع القيشاني، فتصنع المزهريات والكؤوس

والصحون وغيرها من الأوعية، وتزخرف هذه بألوان تشبه تلك التي تلون بها أقمشة الأبوقلمون، بحيث تتغير انعكاساتها بتغير المكان الموضوعة فيه المزهرية. وتصبح فيها كؤوس شفافة صافية كأنها الزمرد وتباع بالدرهم (وزناً) بحيث يبلغ ثمن الدرهم الواحد منها، على ما روى لي الثقة، ثلاثة دنانير مغربية (ناصري خسرو ١٥١).

والبيع في مصر بالسعر المحدد، فإذا غش بائع شهِّر به على جمل. والبائع، سواء في ذلك البقال أو العطار أو بائع الخردوات، يعنى بوضع ما يبيعه في الوعاء المناسب له، فلا يضطر المشتري إلى تحضير الوعاء.

ويستخرج من بذر الفجل، واللفت زيت يسمى بالزيت الحار.. والسمسم ليس كثيراً في مصر وزيته غال والتجارة بزيت الزيتون مرابحها كبيرة.

رأيت في مصر خاناً اسمه دار الوزير تقوم فيه تجارة القصب.. ففي الطبقة السفلى منه الخياطون وفي الطبقة العليا العمال، فسألت الأمين عليه عن أجرته، فقال إنها كانت عشرين ألف دينار في السنة، لكنها الآن اثنا عشر الفاً لأن جزءاً منه متهدم. وقد أكد لي العارفون أن بمصر عشرة خانات بعضها مثل هذا وبعضها أكبر منه (ناصرى خسرو ١٥٦).

كان ابن سعيد وابنه وأخوه من كبار الأغنياء، بحيث ان ثروتهم لا يعلمها إلا الله، وقد روي أن ابن سعيد عمل على سطح داره حديقة فيها ثلاثمائة أصيص من الفضة، غرس في كل منها شجرة مثمرة (ناصرى خسرو ١٦٠).

لست أعرف بلداً آخر يستمتع بالطمأنينة على نحو ما تستمتع بها بلاد مصر. رأيت نصرانياً من كبار الموثرين في مصر، لا يعرف أحد ماله من السفن ولا يحصى أرزاقه أو املاكه. دعاه الوزير مرة وسأله عن كمية القمح التي يمكنه بيعها أو هبتها للسكان، لأن المحصول كان رديئاً، وقد أهم الخليفة ما يعانيه شعبه من الفاقة. فأجاب الرجل بأنه عنده من القمح ما يكفي مدينة مصر ست سنوات. (وعدد سكان مصر كان عندها خمسة أضعاف سكان نيسابور)، ومع ذلك فلم يخش الرجل على ثروته ولم يخف مصادرتها لأنه مطمئن إلى عدل الخليفة ووزيره (ناصري خسرو ١٥٥).

الجوامع ـ تقام صلاة الجمعة في القاهرة في أربعة جوامع. الأول: الجامع الأزهر ـ والثاني: جامع النور ـ والثالث: جامع الحاكم ــ والرابع: جامع المعز (ناصري خسرو ١٣٤).

وتنفتح أبواب الجامع «جامع عمرو» على الأسواق.. وفي ساحة الجامع يجلس الاساتذة والمقرئون باستمرار. هنا مجتمع أهل المدينة الكبيرة، وقلما يرى فيها أقل من خمسة آلاف رجل بين طالب علم وغريب وكاتب عام يقوم بكتابة رسائل الصرافين والعقود وغيرها... (ناصري خسرو ١٤٨).

ويعقد قاضي القضاة مجلس القضاء في هذا الجامع.. وإلى جهة الشمال من المسجد يوجد سوق القناديل التي ليس لها مثيل معروف في قطر آخر. فيها يجد المرء التحف النادرة والثمينة التي تحمل إليها من اصقاع العالم كله. رأيت فيها صناديق وامشاطاً وايدي للسكاكين مصنوعة من الصدف ولاحظت أشياء فنية مصنوعة من الصخر البلوري، ويؤتى بمادته الآن من بحر القلزم وكانت قبل من واردات المغرب. وما يأتي منه القلزم أنقى وأصفى. وثمة العاج الآتي من زنجبار ويبلغ وزن الناب الواحد ما يزيد عن مئتي من. ويحمل من الحبشة جلد حيوان يشبه جلد الفهد تصنع منه زخارف للاردية، كما تحمل الطيور الأليفة الجميلة التي يتزين بريشها (ناصري خسرو ١٤٨).

موكب جبر الخليج ـ وفي هذا اليوم «يوم جبر الخليج» تسير كل أجناد الخليفة كل فرقة على حدة. فأولها كتامة التي جاءت من القيروان مع المعز لدين الله وعددها عشرون الفاً من الفرسان. والثانية باتلة وهم مغربيون استقروا في مصر قبل ايام المعز لدين الله، ويبلغ عددهم خمسة عشر الف فارس.

يأتي بعد ذلك المصامدة وهم سود وعددهم، على ما أكد لي الثقة، عشرون الفاً. والمشارقة من الترك او الفرس عددهم عشرة آلاف ولهم هيئة فخمة... ثم يأتي عبيد الشراء، وهم الرقيق المشرى في السوق ويقدر عددهم بثلاثين ألفاً.. وثمة فرقة أخرى من بدو الحجاز مؤلفة من خمسين ألفاً من حملة الرماح. وجماعة الاستاذين يؤلفون فرقة عددها ثلاثون ألف رجل وهم من الرقيق الأسود والأبيض، ويقومون بخدمات منوعة.

الهوامش

(١) لعل السبب في هذا الانقطاع هو مجموعة من الاحداث التاريخية ترجع الى أواخر القرن التاسع (الثالث). ففي سنة ٨٧٨ قامت في الصين ثورة هوانغ شوا المسلحة، التي ادت إلى تهديم كنتون وقتل العدد الوفير من الجاليات الأجنبية بما في ذلك التجار العرب. وتلا ذلك فترة نحو خمسة وسبعين عاماً اختلت فيها أمور الصين واضطربت. وفي بغداد أخذت الخلافة العباسية بالتدهور منذ أواخر القرن التاسع وقامت ثورة الزنج وحروب القرامطة، فتأثرت بهذه الأمور تجارة بحر عمان كثيرًا . وترتبت على ذلك أن صار تجار العرب والصين يلتقون في كلاه وهي في شبه جزيرة الملايو. راجع: Hourani, G.F, *Arab Seafaring in the Indian Ocean* (Princeton 1951). PP. 73-80.

(٢) حديث السندباد القديم ٢١ ـ ٢٢ وقد نقل الدكتور حسين فوزي ما كتبه سليمان في حديث السندباد القديم بكامله ص ٢٣ ـ ٣٠.

(٣) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى صفحة ١٤.

(٤) حديث السندباد القديم ٢٤ ـ ٢٥

(٥) نفس المصدر ٢٥.

(٦) كان حاكمها معز الدولة من بني مرداس. قد روى ابن بطلان ان «من عجائب حلب ان في قيسارية النمز

عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون الف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن». (راجع ياقوت، مادة حلب). وابن بطلان هذا طبيب نصراني بغدادي، رحل سنة ٤٤٠/ ١٠٩٤م إلى حلب وانطاكية واللاذقية والفسطاط، وقد اقتبس منه ياقوت كثيراً «راجع *Ibn Butlan* في E.I.».

(٧) وكان في المعرة يوم زرتها رجل اسمه ابو العلاء المعري. ومع أنه أعمى فهو سيد مدينته ويملك ثروة طائلة وله عبيد وحشم يقومون بخدمته. حتى كان أهل المدينة كلهم تبع له. أما هو فقد اختار طريقة الزهاد. فانه يرتدي صوفه ويلتزم بيته ويكتفي بنصف من خبز الشعير في اليوم، ولا يأكل سواه. وبيته مفتوح للناس ووكلاؤه يدبرون أمور المدينة، لكنهم يرجعون إليه للحصول على الرأي الاخير وليس له مشاغل شخصية. وقد ذاع صيته في الشعر والكتابة حتى ان علماء سورية، والعراق والمغرب متفقون على أن لا مثيل له في هذه الأيام.. ويقيم معه طلاب العلم القادمون من اقطار مختلفة يتلقون عنه الشعر واللغة، وقلما يكون عددهم دون المئتين (هو ترجمة لرحلة ناصري خسرو في PPT, IV P.7).

(٨) كان ناصري خسرو شاعراً مجيداً وديوانه يعتبر من عيون الأدب الفلسفي الذي انتجته فارس. راجع *Encyclopedea of Islam*, art. Nasiri; Browne, E.G. *Literary History of Persia*.

٣ ـ رحالة القرن الثاني عشر

حفل القرن الثاني عشر (السادس) بعدد من كبار الرحَّالين العرب الذين أفاد منهم التاريخ كثيراً فيما دونوا ووصفوا. ولكننا سنقتصر في هذا الفصل على أربعة منهم هم الإدريسي، وابن جبير، والهروي، واسامة بن منقذ. وسنعرف لهؤلاء الرحالة أولاً، فنؤرخ لهم باختصار، ثم ننقل للقارىء مختارات من وصفهم لما رأوا وشاهدوا. وسنجعل هذه المختارات معاً حتى تتكون منها صورة مجملة لما كانت عليه الحال في ذلك القرن.

ولد الشريف الإدريسي في سبتة سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩م وهناك تلقى علومه الأولى، ولعله ـ على رأي مولر ـ أن يكون قد توفر على دراسة أمور كثيرة في قرطبة. والظاهر ان الإدريسي، على ما يبدو من كتابه على الأقل، أحاط بالمعرفة العلمية التي كانت في عصره إحاطة تامة، إذ يبدو عليه اتقان الحساب والهندسة والفلك والجغرافية والعلم بالأعشاب ومعرفة الطب والدربة في احوال العالم السياسية.. وهذه المعرفة لا شك انها حصيلة الدرس الطويل والسفر الكثير والملاحظة الدقيقة. أما أسفار الادريسي، وهي التي يسرت له الأسس لكتابة «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، فقد كانت واسعة النطاق. ففي شمال افريقية زار المدن والقرى، والظاهر أنه فعل الشيء نفسه في الأندلس، وتعرف إلى ديار الشام ومصر، حيث أقام مدة طويلة. يقول الاستاذ عبد الله كنون بهذه المناسبة: «ويظهر أن اقامته بالشرق كانت طويلة لأنا نراه في أبيات له من الشعر.. يشتكي من رجوعه إلى المغرب خائب الأمل غير ظافر بما كان يرجوه في الشرق من التقدير اللائق به، بصفته أحد النوابغ وبصفته أحد الأشراف أيضاً.. ولا يبعد أنه كان ينوي الإقامة على الدوام بأحد اقطار المشرق، بالشام مثلاً أو بمصر».

زار الادريسي صقلية، حيث تعرف إلى ملكها روجار، الذي اكرمه واحترمه لعلمه، ثم دعاه للإقامة في بلاطه ليصنع له شيئاً في شكل صورة العالم. فقبل الدعوة، وأقام هناك نحو عشرين سنة في جو أقل ما يقال فيه إن العلم والعلماء كانوا فيه موضع تقدير واحترام. وقد صنع الادريسي خريطة العالم على «لوح الترسيم» وهو دائرة من الفضة الخالصة. ثم وصف هذه الأقاليم، فخرج من ذلك كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وتم له ذلك في خمس عشرة سنة. ولم يكتف الإدريسي بما عنده من

معرفة مختزنة أو اختبار، بل لقد اتصل بكل من له علم بشيء ما، فأخذ منهم ما عندهم وقابل الاخبار والمعلومات والمعارف، وقارن بينها وقبل منها ما ثبتت صحته بالمقارنة والتدليل، وترك ما كثر الاختلاف بشأنه. وهكذا حظى العالم بهذا الكنز القيم، فوصلت إلينا خارطة العالم، ونزهة المشتاق[١]. وقد توفي روجار بعيد فراغ الادريسي من عمله، فاضطربت الأحوال في صقلية، فرأى الإدريسي الخير في العودة إلى بلده، حيث قضى ما تبقى من سنيه إلى أن توفي سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤م.

والإدريسي يعطينا الكثير عن المغرب العربي في القرن الثاني عشر، ومن هنا كان اهتمامنا بنقل بعض ما قال في وصف تلك الاصقاع لاتمام الصورة للعالم العربي في ذلك القرن.

أما إبن جبير فقد ولد في بلنسية سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م. سمع من أبيه واخذ القراءات عن ابن أبي العيش وعني بالأدب، فبلغ فيه الغاية. وتقدم في صناعة القريض والكتابة وخلف شعراً كثيراً.. وله نثر جميل في الحكم وأكبر آثاره رحلته المعروفة[٢] باسم «تذكرة بالاخبار عن اتفاق الاسفار».

كتب ابن جبير عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة فاستدعاه لأن يكتب عنه كتاباً وهو على شرابه. فمد يده إليه بكأس فأظهر الانقباض لأنه لم يشرب قط، فأقسم السيد ليشربن منها سبعا. ففعل مرغماً، فملئت له الكأس دنانير سبع مرات. فحمل المال إلى منزله واضمر أن يجعل كفارة شربه، الحج بتلك الدنانير، ولما أظهر ذلك للسيد اسعفه في قصده.

خرج من غرناطة يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م ووصل إلى الاسكندرية بعد ثلاثين يوماً قضاها على ظهر البحر بين سبتة وبينها. وكان سفره البحري في مركب للجنويين، وقد كان الطريق الطبيعي لابن جبير إلى الحجاز هو السفر من الاسكندرية إلى احد موانىء سورية ليرافق الحاج الشامي. لكن بسبب وجود الصليبيين في سورية، اضطر رحّالتنا إلى السير بالطريق المصري. فاتخذ سبيله إلى القاهرة، ثم مر بقوص وعيذاب وجده في طريقه إلى مكة والمدينة. واجتاز بعد ذلك الطريق النجدي إلى الكوفة، وزار بغداد والموصل، وعاد بطريق سورية، فمر بحلب وحماة وحمص والنبك ودمشق وعكاء. ومن هذه الأخيرة اقلع في مركب إفرنجي إلى صقلية ومر بصور. وعاد إلى غرناطة فوصلها في الثامن من المحرم سنة ٥٨١ / ١١٨٥. ولم يكن ابن جبير وحيداً في رحلته هذه، فقد رافقه جده لأمه القاضي ابن عطية وابو جعفر الطيب.

ورحل بعد ذلك مرتين إلى المشرق، وحج في كل منهما، ذلك أنه لما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس على يد صلاح الدين قوي عزم ابن جبير على رحلته الثانية.

فخرج من غرناطة في ٩ ربيع الأول سنة ٥٨٥ / ١١٨٩ وعاد إليها في ١٣ شعبان سنة ٥٨٧ / ١١٩١ وقضى اكثر من ربع قرن في غرناطة ومالقة وسبته وفاس منقطعاً إلى اسماع الحديث والتصوف وتروية ما عنده. وكان فضله وورعه في هذه المدة يحققان اعماله الصالحة.

وتوفيت زوجه عاتكة أم المجد وكان كلفه بها كبيرًا فعظم وجده عليها وخرج من سبتة، فوصل مكة وجاور بها طويلاً ثم زار بيت المقدس ثم تحول إلى مصر والاسكندرية فأقام يحدث ويؤخذ عنه حتى وفاته سنة ٦١٤ / ١٢١٧ وتذكرة ابن جبير هي اخبار رحلته الأولى وقد دوَّنها صاحبها على شبه مذكرات يومية يستعمل فيها دائماً التاريخين القمري (مع السنة الهجرية) والشمسي (دون ذكر السنة). وقد عني كاتبها بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعية عناية فائقة.. فمشاعر الحج كلها مدونة وصعوبات السفر ومواكب الأمراء وتجارة مكة كلها موصوفة وصفاً بارعاً دقيقاً. ورحلته فيها كثير من الصور التي توضح العلاقات بين اهل البلاد والصليبيين في سورية. ويشير غير مرة إلى الحياة الاقتصادية من حيث المزروعات والسلع المتبادلة. وابن جبير شديد العناية بالبحث عن المدارس والمارستانات، وليس هذا بغريب على رجل عالم فقيه. وهو في كل هذا دقيق الملاحظة سهل العبارة واضح الاسلوب. وقد أثر ابن جبير في كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده، فنقلوا أجزاء كبيرة من رحلته. وليس أدل على ذلك من أن محرر رحلة ابن بطوطة نقل عنه وصف كل من حلب ودمشق وبغداد. على انه من المؤسف اننا لا نجد في رحلته شيئاً يدلنا على عدد السكان في أي من البلدان التي زارها.

وابن جبير سني، ويبدو هذا واضحاً فيه عندما يتحدث عن منازل الشيعة في شمال سورية.

وقد تناول ابن جبير في الجزء الأخير من رحلته صقلية بوصف رائع وروى اخبارها بشكل يجعل هذا القسم مصدراً رئيسياً من مصادر تاريخ صقلية في زمن وليم الثاني، وخاصة فيما يتعلق بعلاقة السكان المسلمين في الجزيرة بحكامها الأوروبيين.

والهروي كان من معاصري ابن جبير. اصل أسرته من هراة، لكنه ولد في الموصل وطاف في سورية وفلسطين ولبنان والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم وجزر البحر المتوسط حتى صقلية. وتنقل في مزاراتها ومساجدها وخالط اهلها، وكانت له نزعة صوفية وفيه فضيلة وله معرفة بعلم السيما. دخل القسطنطينية في زمن عمانؤيل كومنيونوس سنة ١١٤٣ ـ ١١٨٠م وهبط الاسكندرية سنة ٥٧٠ / ١١٧٤ وسمع فيها لابن الرحال المحدث. وحمَّله القائد ابو القسم بن حمود رسائل الى صلاح الدين يطلب فيها تجهيز حملة ضد صقلية. وكان في القافلة التي نهبها

ريكاردوس في جنوب فلسطين سنة ٥٨٨ / ١١٩٢ على ماء الخويلفة في مقاطعة الداروم ففقد فيها كتبه. وطلب ريكاردوس الهروي ليقابله فلم يمكن ذلك. ولما جاء رسول ابن الناقد وزير الخليفة الناصر لدين الله إلى صلاح الدين ليوثق العلاقات بين السلطان والبلاط العباسي، ومر بدمشق كان الهروي فيها، وكان اجتماعه به سبباً في تأليف «الإشارات إلى معرفة الزيارات».

وقضى الهروي ايامه الأخيرة في حلب في ظل الملك الظاهر بن صلاح الدين الذي قرَّبه لمعرفته بالسيما، فشمله برعايته وبنى له مدرسة بظاهر حلب، وقد دفن في قبة بناحية من هذه المدرسة، على ما رآه ابن خلكان، وكانت المدرسة لاتزال قائمة في عهده. والكتاب الذين بين ايدينا هو الإشارات، وقد قدم المؤلف نفسه وكتابه لقرائه بقوله: «أما بعد فإنه سألني بعض الأخوان الصالحين والخلان الناصحين ان اذكر له ما زرته من الزيارات، وما شاهدته من العجائب والابنية والعمارات، وما رأيته من الاصنام والآثار والطلسمات، في الربع المسكون والقطر المعمور فوقع الامتناع إلى أن حصل الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيزي شرفه الله وعظمه وتبركنا بزيارته واستسعدنا برؤيته، إذ كان قدومه من دار السلام وقبة الاسلام وذكر الفقير للرسول زيارات.. فوقع الابتداء بذكر الزيارات من مدينة حلب...»

«وقد اختصرت ما حضرني على سبيل الإيجاز، وأنا استعيذ بالله من شر حاسد ونكد معاند يقف على ذكر بعض الصحابة والتابعين وآل الرسول صلوات الله عليهم اجمعين. وعلى ذكر بعض الآثار، فيقول قرأنا في التاريخ الفلاني ضد ذلك، وذكر فلان غير هذا... وانا مما لا اشك في قولة ولا اطعن في حديث إلا أنني ذكرت ما شاع خبره وذاع ذكره بطريق الاستفاضة والله اعلم بصحته. وقد ذكر بعض اصحاب التواريخ جماعة من آل الرسول عليهم الصلاة والسلام ومن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم قتلوا وماتوا ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزائر البحر، ولم أر في اكثر هذه الأماكن ما ذكروه. ولا شك أن قبورهم اندرست وآثارهم طمست وذهبت آثارها وبقيت اخبارها. والزائر له صدق نيته وصحة عقيدته. وقد ذكروا أيضاً بلاداً أخر وأماكن وطرقات لا تعرف الآن لتقادم العهد وتغير الزمان. وان جرى فيما أذكره شيء بطريق السهو والغلط ولا بطريق القصد، فأسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح عن ذلك وإصلاح الخطأ وإيضاح الحق. فان كتبي اخذها الانكتار ملك الفرنج ورغب في وصولي إليه فلم يمكن ذلك، ومنها ما غرق في البحر. وقد زرت اماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة وقد نسيت اكثر ما رأيته وشذ عني اكثر ما عاينته. وهذا مقام لا يدركه احد من السائحين والزهاد ولا يصل إليه اكثر المسافرين والعباد إلا رجل جال الأرض بقدمه واثبت ما قلته بقلبه وقلمه...» على أن للهروي كتباً اخرى غير

هذا.. فقد قال هو إن ما ذكره من الابنية والآثار والعجائب والاصنام له كتاب مفرد، وأشار في موضع آخر إلى كتاب «منازل الأرض ذات الطول والعرض». وروى ابن خلكان أن له كتاباً اسمه «الخطب الهروية لا كتاب العجائب». وقد جاء في الإشارات ذكر لمئات من الأماكن الدينية وهي المقصودة بالذات من التأليف، لكن الهروي يضيف بين آن وآخر فوائد تاريخية وملاحظات عامة، كوصفه لدمشق، وإشارته لرأس الحسين ونقله من عسقلان، وتحدثه عن مقياس النيل في جزيرة الروضة، والذي رواه من ان الصليبيين حاولوا ان يبنوا كنيسة على عين البقر بظاهر عكاء لكن ذلك لم يتم لهم. ومما رواه أن الأفرنج لم تغير «ما على ابواب المسجد الاقصى من آيات القرآن العزيز وأسامي الخلفاء رضي الله عنهم».

ولعل من ألطف ما جاء من ملاحظاته العامة وصفه لزهور مصر ونباتها قال: «فان في ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا كثيراً، ورأيت بها في آن واحد مجتمعاً ورداً ثلاث الوان، ورأيت ياسمين لونين ولينوفرا لونين، وآسا ونسرينا، وريحاناً، وخبزياً، وبنفسجاً، ومنتوراً، ونبقاً، واترنجاً، وليمونا مركباً، وطلعاً، ورطباً، وموزاً، وجميزاً، وحصرماً، وعنباً، وتيناً اخضر، ولوزاً، وقتى، وفقوس، وبطيخاً، وباذنجان، وباقلاً اخضر، ويقطيناً، وحمصاً اخضر، وخساً، والبقول، والرمان، وهليوناً،وقصب السكر...». وذكر الاسكندرية فقال عنها إنها ثلاث طبقات وعمارتها على هيئة رقعة الشطرنج. وأشار إلى السمك الرعاد فيها. ونقل عن ابن منقذ ان بالاسكندرية ١٢٠٠٠ مسجد أو ٢٠,٠٠٠ مسجد أو معبد.

وكان السائح الهروي مغرماً بكتابة اسمه في الاماكن التي يزورها، مثل صنم الاشمونين.. وإلى ذلك أشار جعفر بن شمس الخلافة في بيتين قالهما في شخص يستجدي من الناس بأوراقه:

أوراق كديته في بيت كل فتى ... على اتفاق معان واختلاف روى
قد طبق الأرض من سهل ومن جبل ... كأنه خط ذلك السائح الهروى

اسامة بن منقذ

كان اسامة بن منقذ أميراً فارساً من أهل الشرق العربي، وقد تنقل في مصر وسورية وبغداد. وإنما ادخلناه في عداد الرحالين لأن كتاب الاعتبار نسيج وحده في الأدب العربي، ومذكرات صاحبه تشمل صفحات مجيدة في تاريخ الفروسية والقومية العربية، تجعلها في مقدمة ما يجب أن نعنى بدرسه من كتب السلف الصالح.

ولد اسامة بقلعة شيزر، في ٢٧ جمادى الاولى ٤٨٨هـ/٤ تموز (يوليو ١٠٩٥م. وكانت شيزر، الواقعة على بعد أربعة وعشرين كيلومتراً إلى الشمال من حماة، حصن بني منقذ منذ أن انتزعوها من الصليبيين سنة ٤٧٤ / ١٠٨١، مع انهم كانوا يملكون

اقطاعاً في أرضها قبل ذلك بمدة طويلة. وكان من حق مرشد، والد اسامة أن يتولى الإمارة، لكنه شغف بنسخ القرآن والصيد فتنازل عنها لأخيه. واتجهت همة الأمير سلطان إلى اسامة يهيئه ليخلفه.. لكن لما رزق ولداً ذكراً فترت همته نحو اسامة، فرأى هذا ان يغادر شيزر. فتغيب بادىء ذي بدء عنها موقتاً، لكنه لم يلبث أن غادرها نهائياً. وبعد عشرين سنة اصاب القلعة زلزال سنة ٥٥٢ /١١٥٧ قضى على آل منقذ بأسرهم إذ كانوا مجتمعين في حفل عائلي، عدا اسامة الذي كان غائباً.

عاش اسامة فارساً شهماً وجاب انحاء الشرق العربي.. صرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة (١١٤٤ ـ ١١٥٤). وأما كهولته فصرفها عند اتابكة الموصل وفي حصن كيفا.

زار بيت المقدس وحج وتنقل بين معظم العواصم الاسلامية وتعرف إلى كبار الافرنج فضلاً عن صداقته للخلفاء والملوك. وقبيل وفاته دعاه صلاح الدين إلى دمشق، وأجرى عليه رزقاً واعاد إليه اقطاعه... واخذ الشيخ يلقي محاضرات في البديع ويدرس في المدرسة الحنفية بدمشق. وقد املى مذكراته في هذه الفترة. وتوفي اسامة سنة ٥٨٤ / ١١٨٨.

وكتاب الاعتبار، بالإضافة إلى ما فيه من عبر رمى إليها الكاتب، يحوي اشارات كثيرة إلى احوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية. فالقطن كان يزرع في كفر طاب وغابات البلاد الكثيفة في الشمال كانت موطن الأسود والنمور وحمر الوحش، وجلاء العروس والمآتم واضحة الصور في الكتاب. والفصل الذي عرض فيه اسامة للافرنج ممتع حقاً. فقد تناول فيه شجاعتهم وطبهم ومحاكماتهم.

هذه لمحات موجزة عن حياة هؤلاء الرحالين، وها نحن أولاً نورد مقتطفات مما خلفوه لنا، في وصف العالم العربي في ايامهم.

١ ـ مصر

الاسكندرية ـ أوله (ذي الحجة ٧٥٨) يوم الأحد ثاني يوم نزولنا بالاسكندرية فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا بأن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها، لتقييد جميع ما جلب فيه فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكتبت اسماؤهم وصفاتهم واسماء بلادهم، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناضر ليؤدي زكاة ذلك كله.. دون ان يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل. وكان اكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم، فلزموا اداء زكاة ذلك دون ان يسأل هل حال عليه حول أم لا. واستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن انباء المغرب وسلع المركب، فطيف به مرقباً على السلطان أولاً، ثم على القاضي، ثم على أهل الديوان، ثم على جماعة من حاشية السلطان... وفي كل يستفهم ثم يقيد قوله فخلي سبيله، وأمر المسلمون بتنزيل اسبابهم وما فضل من أزودتهم، وعلى ساحل

البحر أعوان يتوكلون بهم. وحمل جميع ما انزلوه إلى الديوان فاستدعوا واحداً واحداً واحضر ما لكل واحد من الأسباب والديوان قد غص بالزحام، فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل[٣]. واختلط بعضهم ببعض وادخلت الأيدي إلى اوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم ما وجدوا لهم أم لا. وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام، ثم اطلقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم نسأل الله ان يعظم الأجر بذلك.. وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين، ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وايثار الرفق لازال ذلك.

ومن الغريب أيضاً في احوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم وهو اكثر بلاد الله مساجد، حتى أن تقدير الناس لها يطفف فمنهم المكثر والمقلل، فالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثنى عشر الف مسجد والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط. فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك. وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع، وربما كانت مركبة وكلها بأيمة مرتبين من قبل السلطان فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر وهي عشرة مؤمنية[٤].

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه، المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد.. يفدون من الأقطار النائية، فيلقي كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعليمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله. واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم اطباء يتفقدون احوالهم، وتحت ايديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء. وقد رتب أيضاً فيه اقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون إلى اطباء احوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم. ومن اشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان في كل ما بلغوا ونصب لتفريق ذلك كل يوم انساناً أميناً من قبله فقد ينتهي إلى الفي خبزة أو أزيد، بحسب القلة والكثرة (ابن جبير ٤١ ــ ٤٢).

القاهرة ــ المارستان الذي بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً، أبرزه لهذه الفضيلة تاجراً أو احتساباً، وعين قيماً له من أهل المعرفة، وضع لديه خزائن العقاقير ومكّنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف انواعها. ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي.. وبين

يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد احوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الاغذية والأشربة ما يليق بهم، وبإزاء هذا الموضع مقتطع للنساء المرضى ولهن من يكفلهن. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع، الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم احوالهم ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع لهذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد (ابن جبير ٥١ ــ ٥٢).

الطريق من قوص إلى عيذاب ــ ورمنا في هذا الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب، واكثر ما شاهدنا من ذلك احمال الفلفل.. فلقد خيل إلينا لكثرته انه يوازي التراب قيمة. ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء، انك تلتقي بقارعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وغيرها من السلع مطروحة لا حارس لها، تترك بهذه السبيل اما الأعياء الأبل الحاملة لها أو غير ذلك من الاعذار. وتبقى بموضعها إلى ان ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس (ابن جبير ٦٧ ـ ٦٨).

تجارة البحر الأحمر ــ عيذاب وهي مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة اكثر بيوتها اخصاص، وفيها الآن بناء مستحدث بالجص.. وهي من احفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة. وهي في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب.. لكن أهلها بسبب الحجاج، تحت مرفق كثير ولا سيما مع الحاج لأن لهم على كل حمل طعام يجلبونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة، بالإضافة إلى الوظائف المكوسية والتي كانت قبل اليوم التي ذكرنا رفع صلاح الدين لها.. ولهم أيضاً من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم وهي المراكب. فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في حملهم إلى جدة وردهم وقت انفضاضهم من أداء الفريضة، وما من أهلها ذوي اليسار إلا من له الجلبة والجلبتان فهي تعود عليهم برزق واسع.

والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الانشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة... إنما هي مخيطة بامراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى ان يتخيط، ويفتلون منه امراساً يخيطون بها المراكب[٥] ويخللونها بدسر من عيدان النخل، فإذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصنعة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو احسنها. ومقصدهم في دهان الجلبة، ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر. ولذلك لا يصرفون فيه المركب

المسماري. وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن وكذلك القنبار المذكور. ومن اعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل، فمجموعه متناسب في اختلال البنية ووهنها (ابن جبير ٧٠ ـ ٧١).

٢ ـ الجزيرة العربية

جدة ـ هذه قرية على ساحل البحر الأحمر، اكثر بيوتها اخصاص وفيها فنادق بالحجارة والطين.. وفي اعلاها بيوت من الاخصاص كالغرف، ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر. وبهذه القرية آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة. وأثر سورها المحدق بها باق إلى اليوم (ابن جبير ٧٥ ـ ٧٦).

الرطب.. وهو عندهم (اهل مكة وجوارها) بمثابة التين الأخضر في شجره. يجنى ويؤكل وهو في نهاية من الطيب واللذاذة. لا يسأم التفكه به، وبأنه عندهم عظيم يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب. ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلاً ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع (ابن جبير ١٢٢).

مكة ـ وكانوا أيضاً يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام ولين سعرها وأنها خارقة للعوائد السالفة عندهم. كان رسوم الحنطة أربعة اصواع بدينار مؤمنى. وهذا السعر في بلد لا ضيعة فيه، ولا قوام معيشة لأهله إلا بالميرة المجلوبة إليه، سعر لاخفاء بيمنه وبكرته، على كثرة المجاورين فيها في هذا العام وتجلاب الناس إليها وترادفهم عليها. فحدثنا غير واحد من المجاورين الذين لهم بها سنون طائلة انهم لم يروا هذا الجمع بها قط ولا سمع بمثله فيها... والله يجعله مرحوماً معصوماً بمنه.

ولأهل هذه الجهات الشرقية كلها سيرة حسنة عند مستهل كل شهر من شهور العام، يتصافحون ويهنىء بعضهم بعضاً ويتنافرون ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم في الأعياد هكذا دائماً (ابن جبير ١٢٤).

فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار وذلك لأنا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الاربعاء، وهي العشية التي ارتقب فيها الهلال، قد امتلأت هوادج مشدودة على الأبل.. مكسوة بأنواع كساء الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته. فأخذوا في الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين، فسالت تلك الهوادج في أباطح مكة وشعابها، والأبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين، واشعرت بغير هدى بقلائد براقة المنظر من الحرير وغيره، وربما فاضت الاستار التي على الهوادج حتى تسحب اذيالها على الأرض (ابن جبير ١٢٩).

التجارة والحج ـ ويقوم بالتجارة قبائل شتى كبجيلة وسواها يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام.. فيجمعون بين النسبة في العمرة ومبرة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء إلى ما دونها.. ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز فتجتمع ميرتهم بين الطعام والادام والفاكهة. ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة، بجميع ما ذكر فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه. يتقوتون ويدخرون وترخص الاسعار وتعم المرافق فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى، ولولا هذه المبرة لكان أهل مكة في شظف من العيش (ابن جبير ١٣٢).

من الحجاز إلى العراق ـ القارورة وهي مصانع مملوءة بماء المطر. وهذا الموضع هو أرض نجد.. وما أرى أن في المعمورة أرضاً افسح بسيطاً ولا أوسع أنفاً ولا أطيب نسيماً ولا اصبح هواء ولا أمد استواء ولا اصفى جواً ولا انقى تربة ولا أنعش للنفوس والأبدان ولا أحسن اعتدالاً في كل الأزمان من أرض نجد. وصف محاسنها يطول والقول فيها يتسع. وفي يوم الخميس المذكور مع صحوة النهار نزلنا بالهاجر. والماء فيه في مصانع. وربما حفروا عليه حفراً قريبة العمق يسمونها احفاراً واحدها حفر. وكنا نتخوف في هذا الطريق قلة الماء ولاسيما مع عظم هذا الجمع الأنامي والانعامي الذين لو وردوا البحر لأنزفوه واستقوه (ابن جبير ٢٠٤).

أجزنا بالحاجز واديين سيالين، وأما البرك والقرارات فلا تحصى. وفي يوم الجمعة بعده نزلنا ضحوة النهار سميرة. وهي موضع معمور وفي بسيطها شبه حصن يطيف به خلق كبير مسكون. والماء فيه في آبار كثيرة إلا أنها زعاق ومستنقعات وبرك. وتبايع العرب فيها مع الحاج فيما اخرجوه من لحم وسمن ولبن. ووقع الناس على قرم وغيمة. فبادروا الابتياع لذلك يشقق الخام التي يستحبونها لمشاراة الاعراب لأنهم لا يبايعونهم إلا بها (ابن جبير ٢٠٥).

ووصل إلى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالاً ونساءً واتخذوا به سوقاً عظيمة حفيلة للجمال والكباش والسمن واللبن وعلف الأبل، فكان يوم سوق نافعة، وبقي من هذا الموضع إلى الكوفة من المناهل التي تعم جميع المحلة ثلاثة احدها زبالة والثاني وامضة والثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة. وبين هذه المناهل مياه موجودة لكنها لا تعم. وهذه الثلاثة المذكورة هي التي تعم الناس والأبل وهي التي تردها (ابن جبير ٢٥٧).

٣ ـ العراق

الكوفة ـ هي مدينة كبيرة عتيقة البناء قد استولى الخراب على اكثرها، فالغامر منها اكثر من العامر. ومن اسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها، فهي لا تزال

تضربها. وكفاك بتعاقب الأيام والليالي محيياً ومفنياً. وبناء هذه المدينة بالآجر خاصة، ولا سور لها. والجامع العتيق آخرها مما يلي شرقي البلد ولا عمارة تتصل بها من جهة الشرق.

الحلة ـ هي مدينة كبيرة عتيقة الوضع مستطيلة، لم يبق من سورها إلا حلق من جدار ترابي مستدير بها. وهي على شط الفرات يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد بطولها. ولهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية. وهي قوية العمارة، كثيرة الخلق، متصلة حدائق النخيل داخلاً وخارجاً فديارها بين حدائق النخيل. وألفينا بها جسراً عظيماً معقوداً على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط، تحف بها من جانبها سلاسل من حديد كالأذرع المفتولة عظماً وضخامة ترتبط إلى خشب مثبتة في كل الشطين تدل على عظم الاستطاعة والقدرة.

في الطريق ـ وتمتاز الجهة بكثرة القناطر المعترضة في طريقهم إلى بغداد، فلا تكاد تمشي ميلاً إلا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات.. فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي وقناطر. وعلى اكثرها خيام فيها رجال محترسون للطريق اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها. وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات في هذا الوقت الذي هو نصف مايو (ايار).

وقرى هذه الطريق من الحلة إلى بغداد على هذه الصفة من الحسن والاتساع. وفي هذه القرية المذكورة خان كبير يحدق به جدار عالٍ له شرفات صغار.

إلى بغداد ـ وكنا سمعنا أن هواء بغداد يثبت السرور في القلب ويبعث النفس دائماً على الانبساط والأنس، فلا تكاد تجد فيه إلا جذلان طرباً، وان كان نازح الدار مغترباً، حتى حللنا بهذا الموضع المذكور وهو على مرحلة منها فلما نفحتنا نوافح هوائها، ونقعنا الغلة ببرد مائها.. احسسنا من نفوسنا، على حال وحشة الاغتراب، دواعي من الاطراب، واستشعرنا بواعث نرح كأنه فرحة الغياب بالاياب، وهبت بنا محركات من الاطراب، اذكرتنا معاهد الاحباب، في ريعان الشباب. هذا للغريب النازح الوطن، فكيف للوافد عليها على أهل وسكن.

سقى الله باب الطاق صوب غمامة ورد إلى الأوطان كل غريب

وبغداد جانبان شرقي وغربي ودجلة بينهما.. فأما الجانب الغربي، فقد عمه الخراب واستولى عليه وكان المعمور أولاً. وعمارة الجانب الشرقي محدثة، لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة، كل محلة منها مدينة مستقلة. وفي كل واحدة منها الحمامان والثلاثة، والثماني منها بجوامع يصلى فيها الجمعة. فأكبرها

القرية، وهي التي نزلنا فيها بربض يعرف بالمربعة على شط دجلة بمقربة من الجسر، فحملته دجلة بمدها السيلي، فعاد الناس يعبرون بالزوارق فيها لا تحصى كثرة. فالناس ليلاً ونهاراً من تمادي العبور فيها في نزهة متصلة رجالاً ونساءً. والعادة أن يكون لها جسران احدهما مما يقرب من دور الخليفة، والآخر فوقه لكثرة الناس، والعبور في الزوارق لا ينقطع منها. ثم الكرخ وهي مدينة مسورة. ثم محلة باب البصرة وهي أيضاً مدينة وبها جامع المنصور رحمه الله، وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيله. ثم الشارع وهي أيضاً مدينة. فهذه الأربع أكبر المحلات. وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة. ويتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون احوال المرضى، ويرتبون لهم اخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والاغذية. وهو قصر كبير فيه المقاصير البيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية. والماء يدخل إليه من دجلة.

وأما الشرقية فهي اليوم دار الخلافة، وكفاها بذلك شرفاً واحتفالاً. ودور الخليفة مع آخرها وهي تقع منها في نحو الربع أو ازيد، لأن جميع العباسين في تلك الديار معتقلون اعتقالاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون، ولهم المرتبات القائمة بهم. والخليفة من تلك الديار جزء كبير قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائعة والبساتين الأنيقة. وليس له اليوم وزير، إنما له خديم يعرف بنائب الوزارة يحضر الديوان المحتوي على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الأمور. وله قيم على جميع الديار العباسية وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه، وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية يعرف بالصاحب مجد الدين استاذ الدار، هذا لقبه. ويدعى له اثر الدعاء للخليفة وهو قل ما يظهر للعامة اشتغالاً بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها والتكفل بمغالقها وتفقدها ليلاً ونهاراً.

والشرقية حفيلة الأسواق عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلا الله تعالى الذي احصى كل شيء عدداً. وبها من الجوامع ثلاث كل يجمع فيها: جامع الخليفة متصل بداره وهو جامع كبير وفيه شعابات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة مرافق الوضوء والطهور. وجامع السلطان وهو خارج البلد ويتصل به قصور تنسب للسلطان أيضاً المعروف بشاه شاه. وكان مدير أمر اجداد هذا الخليفة، وكان يسكن هناك فابتنى الجامع أمام مسكنه. وجامع الرصافة وهو على الجانب الشرقي المذكور وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل. وبالرصافة تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله. فجميع جوام البلد ببغداد المجمع فيها احد عشر. وأما حماماتها فلا تحصى عدة. ذكر لنا أحد اشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به. فيخيل للناظر انه رخام أسود صقيل. وحمامات هذه الجهات اكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم، لأن شأنه عجيب

يجلب من عين بين البصرة والكوفة وقد انبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير في جوانبها كالصلصال فيجرف ويجلب.

وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير فضلاً عن الاحصاء. والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها، واعظمها واشهرها المدرسة النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وجددت سنة أربع وخمسمائة. ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تصير إلى الفقهاء المدرسين بها على الطلبة ما يقوم بهم. ولهذه البلاد في أمر المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد، فرحم الله واضعها الأول ورحم من تبع ذلك السنن الصالح[٦].

في الطريق إلى الموصل ــ وعن يمين الطريق إلى الموصل في وهدة من الأرض سوداء، كأنها سحابة، قد انبط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً، تنبع بالقار وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان. ويصنع له احواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطاً على الأرض، أسود أملس صقيلاً رطباً عطر الرائحة شديد التعلك فيلصق بالاصابع بأول مباشرة من اللمس. وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب قاراً، فشاهدنا عجباً كنا نسمع به فنستغرب سماعه. وبمقربة من هذه العيون، وعلى شط دجلة، عين أخرى منه كبيرة أبصرنا على البعد منها دخاناً، فقيل لنا أن النار تشعل فيه إذا أرادوا نقله فتتشف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطعونه قطرات ويحملونه، وهو يعم جميع البلاد إلى الشام إلى عكة إلى جميع البلاد البحرية.

الموصل ــ باطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله، كان قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه. وللمقاتلة في هذه البيوت حرز ووقاية وهي من المرافق الحربية. وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان. وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع، يمتد من أعلى البلد إلى أسفله. ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور وابراجه في مائها. وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق.

وفي سوقه قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم تتعلق عليها أبواب حديد، وتطيف بها دكاكين وبيوت، بعضها على بعض قد جلى ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له... فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها.

وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرقة ولها مارستانات.

بين الموصل والشام ـ وأهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة إلى الشام عل هذه السبيل من حب الغرباء واكرام الفقراء. وأهل قراها كذلك، فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زادا. لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة. وشأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل عجيب، والله ينفعهم بما هم عليه. وأما عبادهم وزهادهم والسائحون في الجبال منهم فأكثر من أن يقيدهم الاحصاء، والله ينفع المسلمين ببركتهم وصوالح دعواتهم بمنه وكرمه. ولهذه البلدة المذكورة اسواق حفيلة الانتظام عجيبة الترتيب مسقفة كلها بالخشب فلا يزال أهلها في ظل ممدود، فتخترقها كأنك تخترق داراً كبيرة الشوارع قد بنى عند كل ملتقى أربع سكك أسواق منها قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الحص هي كالمفرق لتلك السكك.

ديار الشام

دمشق ـ جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها. قد شملت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت في موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منعتها اجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وامه صلى الله عليهما منها إلى ربوة ذات قرار ومعين ظل ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل. تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم: هلموا إلى معرض للحسن ومقيل. قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ فتكاد تناديك بها الصم الصلاب: اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. قد احدقت بها البساتين احداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر.. فكل موضع لحظتها بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر، ولله صدق القائلين عنها: «ان كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وأن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها»[٧].

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم تعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم افضل منها. وهي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الأفكار وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب. وهي بأيدي الروم، ولا اعتراض عليهم فيها.

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة وبها مارستان قديم وحديث، والحديث احفلهما واكبرهما. وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. والأطباء يبكرون اليه كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلح من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم. والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال في الجديد اكثر. وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم..

وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج وهم في سلاسل موثقون (ابن جبير ٢٨٣).

حلب ـ واما البلد فموضوعه ضخم جداً حفيل التركيب بديع الحسن واسع الأسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية. وكلها مسقف بالخشب فكأنها في ظلال وارفة. فكل سوق منها تقيد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً. وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً، مطيفة بالجامع المكرم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها، ولو كان من المرائي الرياضية. واكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم.

وقراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولاً.. وخانات هذه الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة وأبوابها حديد.. وهي من الوثاقة في غاية.

المعرة ـ وبلاد المعرة[٨] سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وانواع الفواكه، ويتصل التفات بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين (ابن جبير ٢٥٤).

حماة ـ وكلتا المدينتين صغيرتان، وسور المدينة يمتد على رأس جانبها العالي الجبلي ويطيف بها، وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج إلى سور. وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة يتصل من المدينة السفلى إلى ربضها. وربضها كبير فيه الخانات والديار، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته إلى أن يفرغ لدخول المدينة. وأسواق المدينة العليا احفل واجمل من اسواق المدينة السفلى، فهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات، وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب والتقسيم.. ولها جامع أكبر من الجامع الاسفل ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر[٩].

حمص ـ وأما داخلها فما شئت بادية شعناء خلقة الارجاء ملفقة البناء، لا اشراق لآفاقها ولا رونق لاسواقها، كاسدة لا عهد لها بنفاقها. وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة، وهو معقل العدو.. فهو منه تتراءى ناره، ويحرق إذ يطير شراره، ويتعهد إذا شاء كل يوم مغاره. وسألنا احد الاشياخ بهذه البلدة: هل فيها مارستان على

رسم مدن هذه الجهات؟ فقال وقد انكر ذلك «حمص كلها مارستان» وكفاك شهادة أهلها.. وبها مدرسة واحدة، وتجد في هذه البلدة عند اطلاعك عليها من بعد في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة «اشبيلية» من بلاد الأندلس يقع للحين في نفسك خياله، وبهذا الاسم سميت في القديم. وهي العلة التي أوجبت نزول الاعراب أهل حمص فيها حسبما يذكر (ابن جبير ٢٥٨).

صور ـ هي أنظف من عكة سككا وشوارع، وأهلها ألين في الكفر طبائع، واجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع.. فخلائقهم اشجع ومنازلهم اوسع وافسح، واحوال المسلمين بها أهون واسكن، وعكا أكبر واطغى. واما حصانتها ومنعتها فأعجب ما يحدث به. وذلك انها راجعة إلى بابين احدهما في البر والآخر في البحر، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة.. فالذي في البر يفضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب. وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضعا منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص. فالسفن تدخل تحت السور وترسى فيها. وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب إلا عند ازالتها. وعلى ذلك الباب حراس وامناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على اعينهم. فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع. ولعكة مثلها في الوضع والصفة، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وإنما ترسى خارجها، والمراكب الصغار تدخل إليها.. فالصورية اكمل واجمل واحفل.

عكاء ـ وهي قاعدة مدن الافرنج ومحط الجوارى المنشآت في البحر كالاعلام. مرفأ كل سفينة، والمشبهة في عظمتها بالقسطنطينية.. مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطىء الاقدام(١٠).

وصلنا إلى الديوان وهو خان معد لنزول القافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الابنوس المذهبة الحلى وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم صاحب الديوان، والضامن له، يعرف بالصاحب لقب وقع عليه فمكانه من الخطة وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند، وكل ما يجبى عندهم راجع إلى الضامن. وضمان هذا الديوان بمال عظيم. فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه. وطلب رحل من لا سلعة له لئلا يحتوي على سلعة مخبؤة فيه واطلق سبيله. فنزل حيث شاء وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل.. فنزلنا بها في بيت اكترياه من نصرانية بازاء البحر.

الغوص على اللؤلؤ

وصف الأدريسي الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي، قال: «وأهم جزر البحرين جزيرة أوال وهي على مسيرة خمسين مرحلة من بر الفرس، وأربع مراحل من بر العرب، طولها ستة أميال في عرض ستة أميال.. وحاضرة جزيرة أوال اسمها البحرين، وهي مدينة عامرة.. وفي هذه الجزيرة يسكن غاصة اللؤلؤ، في المدينة التي يصل إليها التجار من جميع أنحاء الأرض ومعهم المال الوفير. ويترقبون شهوراً طوال موسم الغوص ويستأجر التجار الغاصة مقابل جعل معلوم يتفاوت مع جودة الصيد واعتقاد التجار بمهارة الغاصة. ويكون الغوص في أغشت وشتنبر [آب وأيلول / أغسطس وسبتمبر] وقبل هذا اذا كانت المياه صافية. ويصطحب كل تاجر الغواص الذي اكتراه، وتخرج المراكب جماعة من الميناء فيما ينيف على مائتي دونج، وهي فلك أكبر من الفلك العادي، يقسم التجار سطحها إلى خمس أو ست بلنجات منفصلة. ومع كل غواص رفيق مساعد اسمه المصفى، له نصيب في الكراء، ويخرج مع الغاصة أدلاء حذاق يعرفون المواضع لأن للاصداف مواضع تغشاها، تذهب إليها وتخرج منها حسب الوقت وتعرفها.. فإذا خرج الغاصة من جزيرة أوال، قادهم الدليل حتى إذا وصلوا إلى المواضع المعلومة خلع الدليل ملابسه وغاص ونظر. فإذا وجد المكان مناسباً خرج وأمر بطي الشراع ورمي الاناجر. وكذلك فعل بقية الدوانج، ويبدأ الغواصون في العمل.

«ويبلغ عمق قيعان الصيد من اثنين إلى ثلاثة باعات. ويستر الغواص سوأته، ويسدد خياشيمه بالخلنجل وهو دهان من المومياء المذاب مع زيت السمسم، ومعه سكين وكيس، ويحمل حجراً وزنه أربعة قناطير أو ما اشبه، معلق بخيط رفيع متين، وهو يلقى في الماء من ناحية المركب، ويمسك المصفي بهذا الخيط بينما يقف الغواص على الحجر ويمسك الحبل بيديه متأهباً للقفز في البحر. ثم يترك المصفى الحبل فينزل الغواص والحجر سريعاً إلى قاع الماء، وهو واقف على الحجر ممسك الحبل بيديه.. فإذا وصل إلى القاع جلس وفتح عينيه، وجمع عاجلاً كل الاصداف حوله. فإذا ملأ الكيس انتهى عمله، وإلا فأنه يسعى قليلاً دون أن يترك الحبل أو الحجر. فإذا تعب صعد إلى سطح البحر ليتنفس ثم يغوص ثانياً.. فإذا امتلأ الكيس جذب المصفى الحبل والكيس، وأفرغه في البلنج وارسله ثانياً إلى الغواص في البحر.. وما دام الغواص يجد الاصداف فهو يستمر في صيدها.

«وبعد ساعتين يصعد الغواصون ويلبسون ملابسهم وينامون. ويأخذ المصفى في فتح المحار بحضور التاجر الذي يجمع ما يخرج ويسجله في زمام. ويأكل الجميع قبيل الغروب، وينامون طول الليل حتى يبدأ العمل في اليوم التالي بعد الافطار. وهكذا طوال الموسم. فإذا فرغوا من قاع انتقلوا إلى غيره، حتى ينتهي الموسم بنهاية شهري أغشت وشتنبر، ويعودوا إلى أوال ومعهم اللآلىء محزومة في أوطاب. وعلى كل وطاب

اسم صاحبه وعلامته، وهو مغلق مختوم. وتسلم الأكياس إلى الوالي بمجرد مغادرة السفن. ويأتي يوم البيع فيجتمع التجار، ويؤتى بكل وطاب وينادى على اسم صاحبه. ثم يكسر الختم وتفرغ اللآلىء في ثلاثة أنواع من «الغرابيل» ذات ثقوب تختلف اتساعاً. ثم تباع الكمية بالمناداة، فإذا أراد التاجر أن يحتفظ بها قيدت باسمه، وإلا فإنه يبيعها ويقبض ثمنها نقداً، وتدفع أجور الغاصة ومساعديهم نقداً. وينصرف الجميع مغتبطين.. ويأخذ صاحب قيس اتاوة معلومة يدفعها التجار، وهي تجمع باسمه اثناء البيع وترسل إليه، ويحتفظ صاحب أوال باللآلىء النادرة ليرسلها للخليفة.

«واللؤلؤ ينمو داخل الصدفة.. ويقول سكان بحر فارس انها تنمو حسب امطار شهر فبراير [شباط]. فإذا لم تمطر في ذلك الوقت، لم يجدها التجار طوال العام. وهذه مسائل ثابتة لا يشك في شأنها أحد من سكان البلاد.

«وتعلم حرفة الغوص في فارس، ويدفع للتمرن عليها بعض المال. فإن الغواص يتعلم كيف يتنفس من آذانه، ويحدث في بدء تعليمه أن تصاب الآذان بالتهاب حاد، ويخرج منها صديد وتعالج بالعقاقير. وتدفع احسن الأجور للغواص الذي يبقى في الماء اكثر من غيره. وهم يعرفون بعضهم تحت الماء، ولا يعتدون على حدود بعضهم البعض، ولا يدعون التميز على غيرهم، ولكنهم يتبارون في نشاطهم. واغلب مغاصات اللؤلؤ في بحر فارس، وبها نحو ثلاثمائة مشهورة مطروقة. ولقد ذكرنا أغلبها في مواضعها، أي في الكلام عن سواحل البحار والجزائر. ومغاصات هذا البحر أغنى واكثر غلة من مثيلاتها بالهند واليمن، ولذا اسهبنا في وصفها».

اما ابن جبير فقد وصف الغوص في البحر الأحمر قال: «وفي بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها، وأوان الغوص عليه في هذا التاريخ المقيدة في هذه الأحرف وهو شهر يونيو العجمي والشهر الذي يتلوه. ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية، يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر في الزواريق ويقيمون فيها الأيام فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق، والمغاص منها قريب القعر ليس ببعيد ويستخرجونه في اصداف لها أزواج كأنها نوع من الحيتان أشبه شيء بالسلحفاة، فإذا شقت ظهرت الشفتان من داخلها كأنها محارتا فضة ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق».

نواح من الحياة الاجتماعية في الشرق العربي

١ ـ المدارس والعلماء والتربية

المدرسة النظامية في بغداد ـ فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضى الدين القزويني رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار إليه بالتقديم في العلوم الأصولية.. حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة اثر صلاة العصر من يوم

الجمعة الخامس لصفر، فصعد المنبر واخذ القراء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة، فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة، ثم اندفع الشيخ الامام المذكور، فخطب خطبة سكون ووقار، وتصرف في افانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل، وايراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتكلم على معانيه، ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر، وتقدم وما تأخر. ودفعت إليه عدة رقاع فجمعها جملة في يده، وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها، وحان المساء فنزل وافترق الجميع فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقوراً هيناً ليناً ظهرت فيه البركة والسكينة.

«**المدرسة النورية في دمشق** ـ وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام والمدارس كذلك، ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً، مدرسة نور الدين رحمه الله وبها قبره نوره الله، وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر.. فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله. وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر. وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في اسباب المعايش واسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان (ابن جبير ٢٨٤).

عالم سوري ـ وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي رحمه الله، وكان في النحو سيبويه زمانه. قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين، وكان متولى دار العلم بطرابلس. فلما أخذ الافرنج طرابلس نفذ الوالد والعم، رحمهما الله، استخلصا الشيخ أبا عبد الله هذا ويانس الناسخ. وكان قريب الطبقة في الخط من طريقة ابن البواب. أقام عندما بشيزر مدة ونسخ للوالد، رحمه الله، ختمتين ثم انتقل إلى مصر ومات بها.

وشاهدت من الشيخ أبي عبد الله عجباً... دخلت عليه لاقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو «كتاب سيبويه» و«كتاب الخصائص» لابن جنى، و«كتاب الايضاح» لابي علي الفارسي، و«كتاب اللمع» و«كتاب الجمل»، فقلت: «يا شيخ أبا عبدالله، قرأت هذه الكتب كلها؟» قال: قرأتها! لا والله إلا كتبتها في اللوح وحفظتها. تريد تدري. خذ جزءاً وافتح واقرأ من أول الصفحة سطراً واحداً». فأخذت جزءاً وفتحته وقرأت سطراً منه. فقرأ الصفحة بأجمعها حفظاً حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها فرأيت منه أمراً عظيماً ما هو في طاقة البشر.

تربية اسامة البيتية ـ وما رأيت الوالد، رحمه الله، نهاني عن قتال ولا ركب خطر مهما كان يرى في، وأرى من اشفاقه وإيثاره لي. ولقد رأيته يوماً وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين ملك الافرنج على قطيعة قطعها لحسام الدين تمرناش بن ايلغازى، رحمه الله، فرسان افرنج وارمن، فلما وفوا ما عليهم وأرادوا الرجوع إلى بلادهم نفذ خير خان صاحب حمص خيلا كمنوا لهم في ظاهر شيزر. فلما ووقفا، وكل من يصل إليهما قد سيراه من خلفهم، وجئت انا، فقال لي أبي: «اتبعهم بمن معك، وارموا انفسكم عليهم واستخلصوا رهائنكم». فتبعتهم وادركتهم بعد ركض اكثر النهار واستخلصت من كان معهم واخذت بعض خيل حمص. وعجبت من قوله: «ارموا انفسكم عليهم».

ومرة كنت معه، رحمه الله، وهو واقف في قاعة داره.. وإذا حية عظيمة قد اخرجت رأسها على افريز رواق القناطر التي في الدار.. فوقف يبصرها، فحملت سلماً كان في جانب الدار اسندته تحت الحية وصعدت إليها، وهو يراني فلا ينهاني، وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطي، وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون الذراع، وجعلت أحز رأسها، وخرجت التفت على يدي ـ إلى أن قطعت رأسها والقيتها إلى الدار وهي ميتة.

بل رأيته رحمه الله وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر، ولما وصلنا حمل علينا من أجمة كان فيها. فحمل على الخيل، ثم وقف، أنا وأخي بهاء الدولة منقذ، رحمه الله، بين الأسد وبين موكب فيه أبي وعمي رحمهما الله، ومعهما جماعة من الجند. والاسد قد ربض على حرف النهر يتضرب بصدره على الأرض ويهدر. فحملت عليه... فصاح علي أبي، رحمه الله: «لا تستقبله يا مجنون، فيأخذك» فطعنته، فلا والله ما تحرك من مكانه. ومات موضعه.

فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم (الاعتبار ١٠٣).

والدة اسامة في القتال ـ وفي ذلك اليوم فرقت والدتي، رحمها الله، سيوفي وكزاغنداتي. وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن وقالت: «البسي خفك وازارك» فلبست واخذتها إلى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق، اجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن. ونصرنا الله سبحانه عليهم. وجئت إلى داري اطلب شيئاً من سلاحي ما وجدت إلا جهازات السيوف وعيب الكزاغندات. قلت: «يا أمي، اين سلاحي؟» قالت: «يا بني اعطيت السلاح لمن يقاتل عنا. وما ظننتك سالماً». قلت: «فاختر أي شيء تعمل ها هنا؟» قالت:«يا بني، اجلستها على الروشن وجلست براً منها، إذ رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها ورميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة». فشكرتها على ذلك وشكرتها الأخت وجزتها خيراً. فهذه النخوة من نخوات الرجال (الاعتبار ١٢٤).

٢ ـ الفارس العربي والفرنجي والصيد

شرف الفارس جمعة ـ فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار، أننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا، صاحب حماة ذلك الوقت، وكانت الحرب بيننا وبينه ما تغب، والمراكب واقفة والطراد بين التسرعة. فجاءني رجل من اجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جمعة من بني نمير، وهو يبكي. فقلت له: «ما لك يا أبا محمود؟ هذا وقت بكاء!». قال:«طعنني سرهنك ابن أبي منصور». قلت: «وإذا طعنك سرهنك أي شيء يكون». قال: «ما يكون شيء إلا يطعنني مثل سرهنك ـ والله إن الموت اسهل علي من أن يطعنني لكنه استغفلني واغتالني». فجعلت أُسكنه واهون الأمر عليه. فرد رأس فرسه راجعاً فقلت: «الى اين يا أبا محمود؟» قال: «إلى سرهنك.. والله لاطعنّه أو لأموتن دونه».

فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن مقابلي. ثم عاد وهو يضحك فقلت «ما عملت؟» فقال: «طعنته والله. ولو لم اطعنه لفاضت روحي». فحمل عليه في جميع اصحابه فطعنه وعاد (الاعتبار ٣٦).

منزلة الفارس عند الافرنج ـ والافرنج، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولاعندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا الفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان. فهم اصحاب الرأي وهم اصحاب القضاء والحكم. وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم اخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح، وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فلك ابن فلك: «هذا تعدي علينا وأخذ دوابنا وهو وقت ولاد الغنم. فولدت وماتت أولادها وردها علينا بعد أن اتلفها». فقال الملك لستة سبعة من الفرسان: «قوموا اعملوا له حكما» فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا إلى مجلس الملك. فقالوا: «قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما اتلف من غنمهم». فأمره الملك بالغرامة فتوسل إلي وثقل على، وسألني حتى اخذت من أربع مائة دينار. وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا احد من مقدمي الافرنج بغيره ولا ينقضه.

ولقد قال لي الملك «يا فلان، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً». قلت: «والله يفرح الملك بماذا فرحت» قال: «قالوا لي انك فارس عظيم. وما كنت اعتقد انك فارس». قلت: «يا مولاي، أنا فارس من جنسي وقومي». وإذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم (الاعتبار ٦٤).

الصيد ـ وكنت قد مضيت مع الأمير معين الدين، رحمه الله، إلى عكا إلى عند

ملك الافرنج فلك بن فلك. فرأينا رجلاً من الجنوية قد وصل من بلاد الافرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركي، ومعه كلبة صغيرة إذا ارسل الباز على الكركي عدت تحته. فإذا اخذ الكركي وحطه عضته فلا يقدر على الخلاص منها. وقال لنا ذلك الجنوي: «إن الباز عندنا إذا كان ذنبه ثلاث عشرة ريشة اصطاد الكركي». فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك.

فطلبه الأمير معين الدين، رحمه الله، من الملك فأخذه من ذلك الجنوي هو والكلبة واعطاه للأمير معين الدين.. فجاء معنا.. فرأيته في الطريق يثب إلى الغزلان كما يثب إلى اللحم. ووصلنا به إلى دمشق. فما طال عمره بها ولا صاد شيئاً ومات (الاعتبار ١٩٦).

وكان الوالد اكثر ما يستدعي البزاة ويشتريها من وادي ابن الاحمر بالغلاء. فأحضر قوماً من أهل الجبل القريب من شيزر من أهل بشيلا وبسمالخ وحلة عارا وتحدث معهم في أن يعملوا في مواضعهم مصايد للبزاة، ووهبهم وكساهم، فمضوا وعملوا بيوت الصيد. فاصطادوا بزاة كثيرة فراخاً ومقرنصة وزرارق. فحملوها إلى الوالد وقالوا: «يا مولانا، نحن قد بطلنا معايشنا وزراعتنا في خدمتك، ونشتهي أن تأخذ منا كل ما نصيده وتقرر لنا ثمناً نعرفه لا نتجاذب فيه.. فقرر ثمن الباز الفرخ خمسة عشر ديناراً، وثمن الزرق المقرنص نصفها. وانفتح للجبليين اخذ دنانير بغير كلفة ولا تعب. إنما يعمل له بيتاً بحجارة على قد خلقته، ويغطيه بعيدان ويسترها بقش وحشيش ويجعل له نافذة. ويأخذ طير حمام يجمع رجليه على قضيب ويشدها إليه ويخرجه من تلك النافذة. يحرك العود فيتحرك الطير ويفتح أجنحته فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه. فإذا أحس به الصياد جذب القضيب إلى النافذة ومد يده قبض رجلي الباز، وهو قابض للطير الحمام، وانزله إليه وخيط عينيه. ويصبح من الغد يصلنا به، يأخذ منه ويعود إلى بيته بعد يومين (الاعتبار ٢٠٠).

٣ ـ العلاقات بين السكان في ديار الشام

أهل دمشق ـ ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة. وإذا لقي احد منهم آخر مسلماً يقول جاء الملوك أو الخادم برسم الخدمة كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطياً. والجد عندهم عنقاء مغرب. وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود فترى الاعناق تتلاعب ما بين رفع وخفض وبسط وقبض. وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً. وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء وعند استعراض رقيق الاماء. فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال! (ابن جبير ٢٩٥).

الغرباء في لبنان ـ وعلى كل من وفق الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم

أن احب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال، وينهال الخبز عليه من الضيعة ويلتزم الامامة والتعليم أو ما شاء. ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودى، فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء. ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به احد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ويقولون هؤلاء من انقطع إلى الله عز وجل فيجب مشاركتهم. وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا، فيه أنواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة، وقلما يخلو من التبتل والزهادة. وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض (ابن جبير ٢٨٧).

شجرة الميزان ـ وقرية بيت جن هي بين جبال.. ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت إلى مدينة بانياس واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح اعلمنا انها تعرف بشجرة الميزان. فسألنا عن ذلك، فقيل لنا هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الافرنج، وهم الحواسة والقطاع. من اخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بياع أو شبر اسر، ومن اخذ دونها إلى جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك اطلق سبيله.. لهم في ذلك عهد يوفون به وهو من اطرف الارتباطات الافرنجية واغربها (ابن جبير ٣٠٠).

التمكيس ـ واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملف الشجر، واكثر شجره الرند.. بعيد العمق كأنه الخندق المهوي تلتقي حافتاه ويتعلق بالسماء اعلاه يعرف بالاسطبل، لو ولجته العساكر لغابت فيه، ولا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه. المهبط إليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان، فعجبنا من أمر ذلك المكان فاجزناه ومشينا عنه يسيرا. وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الافرنج، يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القبائل، وصاحبته تعرف بالملكة وهي ام صاحب عكة. فكان مبيتنا اسفل ذلك الحصن ومكس الناس تمكيساً غير مستقص. والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ولا اعتراض على التجار لأنهم يقصدون موضع الملك وهو محل التعشير. والضريبة فيه قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً. واكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم (ابن جبير ٣٠٠ ـ ١).

العلاقات بين العرب والصليبيين ـ ومن اعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم

ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادى الأول من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عساكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك.. وهو من اعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين المقدس مسيرة يوم أو أشق قليلاً وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر أنه ينتهي إلى اربعمائة قرية.. فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره. واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك.

وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض.. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمنة على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم. والاتفاق بينهم الاعتدال في جميع الاحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب.

هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين امراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار.. فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً. وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه (ابن جبير ٢٨٧).

المحاصة ـ ورحلنا من تبنين سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة. وذلك لأنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك. ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم وجميع احوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع وقد اشربت الفتنة قلوب اكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على شد احوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين ان يشتكي الصنف الاسلامي صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك من الافرنج ويأنس بعدله (ابن جبير ٣٠١).

ومررنا في طريقنا بضيعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين.. فاضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة، واحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله وأنالهم الواناً من الطعام قدمها فعمهم بتكرمته، وكنا فيمن حضر هذه الدعوة (ابن جبير ٣٠٢).

٤ ـ أخبار الطب والتطبيب

بالفصاد ينجو جريح ـ واصاب رجلاً من اصحابنا الشاميين جراح كثيرة فجاءني أخوه وقال: «أخي تالف... قد وقع فيه كذا وكذا جرح سيوف وغيرها، وهو مغمور ما يفيق» قلت: «ارجع افصده». قال: «قد خرج منه عشرون رطل دم.» قلت: «ارجع افصده، فأنا اخبر منك بالجراح. وليس له دواء غير الفصاد». فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر. قال «انا فصدته، وهو افاق وجلس واكل وشرب وذهب عنه البؤس». قلت: «الحمد لله، ولولا اني جربت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك». (الاعتبار ٣٣).

يداوي بالخل ـ وكان لابن بطلان اصابات عجيبة في الطب. فمن ذلك أن رجلاً أتاه، وهو في دكانه بحلب، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهم منه إذا تكلم. فقال له:«ما صنعتك؟» قال: «أنا مغربل» فقال: «احضر لي نصف رطل خل حاذق فأحضره». فقال: «اشربه» فشربه وجلس لحظة فذرعه القيء. فتقيأ طيناً كثيراً في ذلك الخل. فانفتح حلقه واستوى كلامه.. فقال ابن بطلان لابنه وتلامذته: «لا تداووا بهذا الدواء احداً فتقتلوه. هذا كان قد علق بالمرىء من غبار الغربلة تراب ما كان يخرجه إلا الخل» (الاعتبار ١٨٤).

عجائب الطب الافرنجي ـ ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه انفاذ طبيب يداوي مرضى من اصحابه.. فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت. فما غاب عشرة ايام حتى عاد فقلنا له: «ما أسرع ما داويت المرضى». فقال: «احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف. فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة واصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم: «هذا ما يعرف شيء يداويهم». فقال للفارس: «أيهما احب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين» قال«أعيش برجل واحدة». قال: «احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً». فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر.. فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس «اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها» فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال: «هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها، فحلقوه. وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف. فقال: «الشيطان قد دخل في رأسها». فأخذ الموس وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم «بقي لكم إلي حاجة؟» قالوا: «لا» فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه.

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك.. كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برنارد فرمحه حصان في ساقه فعملت عليه رجله، وفتحت في أربعة عشر موضعاً.. والجراح كلما ختم موضع فتح موضع. فجاءه طبيب افرنجي فازال عنه تلك المراهم بغسلها بالخل الحاذق. فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان.

ومن عجيب طبهم أنه كان عندنا بشيرز صانع يقال له أبو الفتح له ولد قد طلع في رقبته خنازير. وكلما ختم موضع فتح موضع.. فدخل انطاكية في شغل له وابنه معه. فرآه رجل افرنجي فسأله عنه فقال: «هو ولدي». قال: «تحلف لي بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من احد تداويه به أجرة حتى أصف لك دواء يبرئه». فحلف. فقال له: «تأخذ اشناناً غير مطحون تحره وتربه بالزيت والخل الحاذق وتداويه به حتى يأكل الموضع. ثم خذ الرصاص المحرق وربه بالسمن. ثم دواه به فهو يبرئه» فداواه بذلك فبرأ، وختمت تلك الجراح، وعاد إلى ما كان عليه من الصحة.

وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنفعه وزال ما كان يشكوه (الاعتبار ١٣٢ ــ ٤).

المغرب العربي

للإدريسي وصف دقيق للمغرب العربي نكتفي منه بالمختارات التالية:

يقول في وصف مدينة اغمات «مدينة يكتنفها جبل درن.. فإذا كان زمن الشتاء تحللت الثلوج النازلة بالجبل فيسيل ذوبانها إلى المدينة. وربما جمد به النهر في وسطها حتى يجتاز الأطفال عليه وهو جار فلا يتكسر لشدة جموده، وهذا شيء عايناه بها غير ما مرة.

«ومدينة اغمات أهلها هوارة من القبائل المتبربرين بالمجاورة، وهم املياء تجار مياسر، يدخلون إلى بلاد السودان باعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والاكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر، وصنوف النظم من الزجاج والاصداف والاحجار، وضروب من الأفاويه والعطر وآلات الحديد المصنوع. وما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملاً كلها موقرة. ولم يكن في دولة الملثم احد اكثر منهم أموالاً ولا أوسع منهم أحوالاً. وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم. وذلك أن الرجل منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه، وأربعة آلاف يصرفها في تجارته، اقام على يمين بابه وعن يساره عرصتين من الأرض إلى أعلى السقف. وبنيانهم بالآجر والطوب والطين اكثر، فإذا مر الخاطر بدار ونظر إلى تلك العرص مع الأبواب قائمة، عدها فيعلم من عدها كم مبلغ مال صاحب الدار لأنه قد يكون من هذه العرص خلف الباب أربع وست مع كل عضادة اثنتان وثلاث.

«أما الآن في وقت تأليفنا لهذا الكتاب فقد اتى على اكثر أموالهم المصامدة

وغيرت ما كان بأيديهم من نعم الله. ولكنهم مع هذا أملياء مياسير أغنياء لهم نخوة واعتزاز لا يتحولون عنه».

ويقول في وصف مدينة مراكش: «وشمال هذه المدينة «اغمات» وعلى ١٢ ميلاً منها مدينة بناها يوسف بن تاشفين في صدر سنة ٤٧٠ بعد أن اشترى أرضها من أهل أغمات بجملة أموال واختطها له ولبني عمه. وهي في وطأ من الأرض ليس حولها شيء من الجبال الا جبل صغير يسمى ايجليز.. ومنه قطع الحجر الذي بنى به قصر أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وهو المعروف بدار الحجر وليس في موضع مدينة مراكش حجر البتة إلا ما كان من هذا الجبل. وإنما بناؤها بالطين والطوب والطوابي المقامة من التراب.. وماؤها الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة. استخرج ذلك عبد الله بن يونس المهندس، وسبب ذلك أن ماءهم ليس ببعيد الغور، موجود إذا احتفر قريباً من وجه الأرض، وذلك أن هذا الرجل المذكور وهو عبد الله بن يونس جاء إلى مراكش في صدر بنائها، وليس بها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين المقدم ذكره. فقصد إلى أعلى الأرض مما يلي البستان، فاحتفر له بيرا مربعة كبيرة التربيع، ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض. ومر يحفر بتدريج من ارفع إلى اخفض متدرجاً إلى اسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان، وهو منسكب مع وجه الأرض يصب فيه، فهو جار مع الأيام لا يفتر وإذا الناظر إلى مسطح الأرض لم ير بها كبير ارتفاع يوجب خروج الماء من قعرها إلى وجهها، وإنما يميز ذلك عالم بالسبب الذي استخرج به ذلك الماء. والسبب هو الوزن للأرض فاستحسن ذلك أمير المسلمين من فعل عبيد الله بن يونس واعطاه مالاً وأثواباً واكرم مثواه مدة بقائه عنده.

«ثم إن الناس نظروا إلى ذلك ولم يزالوا يحفرون الأرض ويستخرجون مياهها إلى البساتين حتى كثرت البساتين والجنات، واتصلت بذلك عمارات مراكش وحسن قطرها ومنظرها.

«ومدينة مراكش في هذا الوقت (القرن السادس هـ) من أكبر مدن المغرب الأقصى لأنها كانت دار امارة لمتونة ومدار ملكهم وسلك جميعهم. وكان بها اعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة وازقتها واسعة ورحابها فسيحة ومبانيها سامية واسواقها مختلفة وسلعها نافقة، وكان بها جامع بناه أميرها يوسف بن تاشفين فلما كان في هذا الوقت وتغلب عليها المصامدة تركوا ذلك الجامع معطلاً مغلق الأبواب ولا يرون الصلاة فيه، وبنوا لأنفسهم جامعاً يصلون فيه».

ويقول في وصف مدينة سلا: «ومدينة سلا الحديثة على ضفة البحر وكانت في القديم من الزمن مدينة شالة على ميلين من البحر وموضعها على ضفة نهر اسمير

الذي يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة. وهناك قصبة في البحر، واما شالة القديمة فهي الآن خراب وبها بقايا بنيان قائم.

«وسلا الحديثة على ضفة البحر منيعة من البحر لا يقدر احد من أهل المراكب على الوصول إليها من جهته. وهي مدينة حسنة حصينة في أرض رمل ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لأهلها وسعة أموال ونمو أحوال. والطعام بها كثير ورخيص جداً. وبها كروم وغلات وبساتين وحدائق ومزارع. ومراكب أهل اشبيليه وسائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنها ويحطون بها بضروب من البضائع. وأهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم ويتجهزون منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية، ترسي المراكب بها في الوادي الذي قدمنا ذكره وتجوز المراكب على فمه بدليل لأن في فم الوادي احجاراً وتروشاً تتكسر عليها المراكب، وفيه اعطاف لا يدخلها إلا من يعرفها.

«وهذا الوادي يدخله المد والجزر، في كل يوم مرتين. وإذا كان المد دخلت المراكب فيه إلى داخل الوادي وكذا فخرج في وقت خروجها. وفي هذا الوادي انواع من السمك وضروب من الحيتان، والحوت بها لا يكاد يباع ولا يشترى لكثرته وجودته. وكل شيء من المأكولات من مدينة سلا موجود بأيسر القيمة وأهون الثمن».

وقال في ذكر فضالة وما لها من الأهمية الاقتصادية: «ومرسى فضالة ترده المراكب من بلاد الأندلس وحائط البحر الجنوبي، فتحمل منه اوساقها طعاماً: حنطة وشعيراً وفولاً وحمصاً. وتحمل منه أيضاً الغنم والمعز والبقر. ومن فضالة إلى مرسى انفا ٤٠ ميلاً وهي مرسى مقصود تأتي إليه المراكب وتحمل منه الحنطة والشعير...»

وقال يذكر مدينة داي وزراعة القطن في المغرب: «ومدينة داي في أسفل جبل خارج من جبل درن وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض ومغاربها، وهو نحاس حلو لونه إلى البياض يتحمل التزويج ويدخل في لحام الفضة. وهو إذا طرق جاد ولم يتشرح كما يتشرح غيره من أنواع النحاس. وهذا المعدن ينسبه العوام إلى السوس، وليست مدينة داي من بلاد السوس، لأن بينهما مسافات أيام كثيرة. ومن هذا المعدن يحمل إلى سائر البلاد ويتصرف به في كثير من الأعمال.

«ومدينة داي صغيرة لكنها كثيرة العامر والقوافل عليها واردة وصادرة. ويزرع بها وبأرضها كثيراً القطن، ولكنه بمدينة تادلة يزرع اكثر مما يزرع بمدينة داي، ومن مدينة تادلة يخرج القطن كثيراً ويسافر به إلى الجهات ومنه كل ما يعمل من الثياب القطنية ببلاد المغرب الأقصى، ولا يحتاجون مع قطنها إلى غيره من أنواع القطن المجلوب من سائر الأقطار».

وقال في ذكر مدينة فاس: «ومدينة فاس مدينتان بينهما نهر كبير يأتي من عيون

تسمى عيون صنهاجة، وعليه في داخل المدينة أرجاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر. والمدينة الشمالية منها تسمى القرويين وتسمى الجنوبية الأندلس، والأندلس ماؤها قليل لكن يشقها نهر واحد يمر باعلاها وينتفع منه ببعضها. وأما مدينة القرويين فمياهها كثيرة تجري منها في كل شارع وفي كل زقاق ساقية، متى شاء أهل الموضع فجروها ففسلوا مكانهم منها ليلاً، فتصبح ازقتهم ورحابهم مغسولة، وفي كل دار منها صغيرة كانت أو كبيرة ساقية ماء نقي كان أو غير نقي. وفي كل مدينة منها جامع ومنبر وإمام وبين المدينتين ابداً فتن ومقاتلات. وبالجملة إن أهل مدينتي فاس يقتل فتيانها بعضهم بعضاً.

«وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية ودور وقصور.. ولاهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم. ونعمها كثيرة والحنطة بها رخيصة الاسعار جداً دون غيرها من البلاد القريبة منها وفواكهها كثيرة وخصبها زائد. وبها في كل مكان منها عيون نابعة ومياه جارية، وعليها قباب مبنية ودواميس محنية ونقوش وضروب من الزينة، وبخارجها الماء مطرد نابع من عيون غزيرة وجهاتها مخضرة مونقة وبساتينها عامرة وحدائقها ملتفة وفي أهلها عزة ومنعة».

وقال في وصف بحيرة بنزرت الغربية، ويشتمل على أسماء لأنواع من الأسماك فيها: «ومدينة بنزرت صغيرة عامرة بأهلها وبها مرافق واسواق قائمة بذاتها. وبالجهة الشرقية منها بحيرتها المعروفة والمنسوبة إليها وطولها ١٦ ميلاً وعرضها ٨ اميال وفمها متصل بالبحر، وكلما اخذت في البرية اتسعت. وكلما قربت من البحر ضاقت وانخرطت.

«وهذه البحيرة من اعاجيب الدنيا، وذلك أن بها اثني عشر نوعاً من السمك يوجد منها في كل شهر نوع لا يمتزج بغيره من اصناف السمك، فإذا تم الشهر لم يوجد شيء من ذلك النوع في الشهر الآتي، ثم يوجد في الشهر الآتي صنف من السمك آخر غير الصنف الأول لا يمتزج بغيره.. هكذا لكل شهر نوع من السمك لا يمتزج بسمك غيره إلى كمال السنة، هكذا في كل عام. وهذه الاثنا عشر نوعاً من الحوت التي ذكرناها هي البوري والقاجوج والمحل والطلنط والاشبلينيات والشلبة والقاروص والعاج والجوجة والكحلاء والطنفلو والقلا. ويتصل بهذه البحيرة من جهة الجنوب مع انحراف إلى الغرب بحيرة ثانية تسمى تينجة وطولها ٤ اميال في عرض مثلها وبينهما فم تتصل منه مياه احداهما بالاخرى. وفي هاتين البحيرتين أمر عجيب وذلك أن ماء بحيرة تينجة عذب وماء بحيرة بنزرت ملح، وكل واحدة من هاتين البحيرتين تصب في اختها ستة اشهر ثم ينعكس جريهما فتمسك الجارية عن الجري وتصب البحيرة الثانية الى هذه الأولى ستة اشهر اخرى، فلا بحيرة تينجة يتملح ماؤها ولا يعذب ماء بحيرة بنزرت، وهذا أيضاً عجب من عجائب هذا الصقع».

صقلية

سافر ابن جبير من عكاء إلى صقلية في سفينة جنوية، قال في وصفها: «هم (الركاب) من هذا المركب بمنة الله تعالى في مدينة جامعة للمرافق، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد من خبز وماء ومن جميع الفواكه والادم كالرمان والسفرجل والبطيخ السندي والكمثرى والشاه بلوط والجوز والحمص والباقلانيا ومطبوخا والبصل والثوم والتين والجبن والحوت، وغير ذلك مما يطول ذكره، عاينا جميع ذلك يباع. وفي خلال هذه الأيام كلها لم يظهر لنا بر، والله يأتي بالفرج القريب. ومات فيه رجلان من المسلمين رحمهما الله فقذفا في البحر ومن البلغريين اثنان أيضاً، ومات منهم بعد ذلك خلق وسقط منهم واحد في البحر حياً فاحتمله الموج اسرع من خطفة البرق. وورث هؤلاء الأموات من المسلمين والنصارى البلغريين رئيس المركب، لأنه سنة عندهم في كل من يموت في البحر ولا سبيل لوارث الميت إلى ميراثه فطال عجبنا من ذلك» (ابن جبير ٣١٤).

ولم تكن السفرة مع ذلك مريحة بل تخللتها عواصف شديدة.. فقد جرت السفينة والريح تأخذ وتدع خمسة ايام ثم هبت عليها «الريح الغربية من مكمنها دافعة في وجه المركب فاخذ رئيسه ومديره الرومي الجنوي، وكان بصيراً بصنعته حاذقاً في شغل الرياسة البحرية، يراوغها تارة يميناً وتارة شمالاً طمعاً أن لا يرجع على عقبه. والبحر في أثناء ذلك وهو ساكن. فلما كان نصف الليل أو قريب منه ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور والسابع والعشرين لاكتوبر، تردت علينا الريح الغربية فقصفت قرية الصارى المعروف بالاردمون والقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع، وعصم الله من وقوعها في المركب لأنها كانت تشبه السوارى عظماً وضخامة، فتبادر البحريون إليها وحط شراع الصارى الكبير وعطل المركب من جريه. وصيح بالبحريين الملازمين للعشارى المرتبط بالمركب، فقصدوا إلى نصف الخشبة الواقفة في البحر واخرجوها مع الشراع المرتبط بها وحصلنا في أمر لا يعلمه إلا الله تعالى وشرعوا في رفع الشراع الكبير واقاموا في الاردمون شراعاً يعرف بالدلون وبتنا بليلة شهباء إلى أن وضح الصباح وقد من الله عز وجل بالسلامة. وشرع البحريون في اصلاح قرية أخرى من خشبة كانت معدة عندهم، والريح الغربية على أول لجاجها ونحن بين اليأس والرجاء نتردد مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعالى وخفي لطفه ومعهود فضله سبحانه، هو أهل ذلك جلت قدرته وتناهت عظمته لا اله سواه. وفي يوم الاربعاء الثالث والعشرين منه تحركت الريح الشرقية نسيماً فاتراً عليه فاستبشرت النفوس بها رجاء في نمائها وقوتها، فكانت نفساً خافتاً. ثم بعد ذلك عشى البحر ضباب رقيق سكنت له امواجه، فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ولم يبق للجهات الأربع نفس يتنسم... فبقينا لاعبين على صفحة ماء تخاله العين سبيكة لجين كأنا نجول بين سمائين».

وهبت عاصفة أخرى على مقربة من جزيرة كريت قال عنها ابن جبير «وقد تم لنا على ظهر المركب ثمانية وعشرون يوماً. وظهر لنا يوم الخمسين بعده بر جزيرة اقريطش، وهذه الجزيرة أيضاً لعمل صاحب القسطنطينية. وطولها نيف على الثلثمائة ميل، وقد تقدم ذكرها في سفرنا البحري الى الاسكندرية.. فبقينا نجري بطولها وهي منا على اليمين والبحر في اثناء ذلك كله هائج والريح لا توافق، ونحن ننتظر الفرج من الله عز وجل بصبر جميل، ونرتقب منه جل جلاله معهود التيسير والتسهيل بمنه ولطفه. وفي يوم السبت العاشر لشعبان المذكور والسابع عشر لنوفمبر انقطع عنا بر الجزيرة المذكورة. ونحن نجري بريح شمالية موافقة. فزئرت وعصفت فطار لها المركب بجناحي شراعه، والبحر بها قد جن واستشر لجاجه، وقذفت بالزبد امواجه، فتخال غواريه المتموجة جبالاً مثلجة. ومن تلك استشعرت النفوس الانس وغلب رجاؤها اليأس. وقد كنا مدة الستة وعشرين يوماً المذكورة التي لم يظهر لنا فيها بر، نرجم الظنون ونغازل المنون حذراً من نفاد الزاد والماء والحصول بين المهلكين الجوع والظمأ».

وقد قال ابن جبير في صقلية اشياء كثيره [١١] فمن ذلك وصفه لبلرمو حاضرة الجزيرة. «هي بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة» فما «شئت بها من جمال مخبر ومنظر، ومراد عيش يانع اخضر، عتيقة أنيقة مشرقة مؤنقة، تتطلع بمرأى فتان، وتتخايل بين ساحات وبسائط كأنها بستان.. فسيحة السكك والشوارع، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع، عجيبة الشأن قرطبة البنيان... مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان يشفها نهر معين ويطرد في جنباتها أربع عيون، قد زخرفت فيها لملكها دنياه واتخذها حضرة ملكه الافرنجي اباده الله. تنتظم بلبتها قصور انتظام العقود في نحور الكواعب، ويتقلب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب. فكم له فيها لا عمرت به من مقاصير ومصانع ومناظر ومطالع، وكم له بجبهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها ورفه بالاقطاعات الواسعة رهبانها، وكنائس قد صبغ من الذهب والفضة صلبانها. وعسى الله عن قريب أن يصلح لهذه الجزيرة الزمان فيعيدها دار إيمان، وينقلها من الخوف للامان، بعزته إنه على ما يشاء قدير، وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان يعمرون اكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بآذان مسموع ولهم ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها. ولا جمعة لهم بسبب الخطب المحظورة عليهم ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي. ولهم بها قاض يرتفعون إليه في احكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويختلفون في وقيده في هذا الشهر المبارك. وأما المساجد فكثيرة لا تحصى واكثرها محاضر لمعلمي القرآن».

وممن زار صقلية الهروي، ولما غادرها غرقت السفينة وكاد يفقد حياته لولا أن

سلمه الله. وقد قال عنها: «وبجزيرة اسقلية (صقلية) جبل النار... وطل على البحر شاهق في الهواء يرى في النهار الدخان طالع منه وفي الليل النار. ورأيت حجارة سوداء مثقبة مثال حجر الرجل للحمام تقع من هذا الجبل إلى ناحية البحر».

الهوامش

(١) لقد ضاعت الخارطة الاصلية الفضية في ثورة وقعت بعد سبع سنوات من الفراغ منها، لكن الأوراق العادية هي التي ظلت محفوظة ووصلت إلينا، وقد طبعها ملونة مولر سنة ١٩٣١ باسم *Mappae Arabica*.

(٢) في ١٠ ربيع الأول «نفح الطيب ١: ٥٠٧»، وقبيل سنة ٥٣٩، وقيل في شاطبة في هذا التاريخ «الاحاطة ٢: ١٧٤».

(٣) روى برنارد الحكيم عن نفسه (في القرن التاسع للميلاد) أنه فتش في الاسكندرية وحقق معه ودفع ستة دنانير ذهبية.

(٤) وصف بنيامين، من أهل القرن الثاني عشر، الاسكندرية بقوله: «والمدينة تجارية، واسواقها تتسع لجميع الأمم، فيأتيها التجار من بلنسية وتسكانيا ولومبارديا وأبوليا وامالفي وصقلية وقطالونيا واسبانيا والمانيا وسكسونيا والدانيمارك وانكلترا وفلندرة وفرنسا ونورماندیا وبرغنديا وجنوه وبيزا وغسقونيا ونافار.. كذلك يأتيها تجار المسلمين من الأندلس وافريقية وبلاد العرب، كما يصل إليها قوم من الهند والحبشة والنوبة واليمن والعراق. وتستورد من الهند جميع أنواع التوابل التي يبتاعها التجار الأوروبيون. ولكل أمة في المدينة فندقها الخاص بها.

(٥) جاء في رواية لدويديا «القرن الخامس عشر» أنه يوجد في البحر الأحمر مغناطيس لذلك، فإن السفن التي تنتقل في أنحائه لا يستعمل الحديد في بنائها حتى إنه لا يوجد فيها مسمار قط.

(٦) قال بنيامين وهو من معاصري ابن جبير، في وصف بغداد: «وبغداد عاصمة الخليفة العباسي الذي يعترف له كل ملوك المسلمين بالسلطان الروحي يمتد قصره ثلاثة أميال وفيه حدائق تحوي اشجاراً من جميع الأنواع، بينها النافع والزخرفي، وتسرح فيها الحيوانات وتغرد فيها الطيور. وبركة القصر تأتي مياهها من دجلة. ويقضي الخليفة أوقات فراغه في حدائق القصر يستمتع بجماله. والخليفة يتقن لغات كثيرة... وينفق على نفسه مما يصنعه بيده. وتشمل صناعته الاغطية التي يدمغها بختمه، ويبيعها موظفوه في السوق العامة. ويبتاع هذه الأشياء نبلاء البلاد.

والخليفة رجل نبيل وهو محل للثقة، وكبير العطف على الجميع.. لكنه قلما يظهر للناس. والمناسبة الوحيدة التي يرى فيها هي يوم عيد الفطر، حيث يتقاطر القوم إلى بغداد ليستمتعوا باستجلاء طلعته البهية..

والخليفة تقي محسن كريم، وقد أقام على ضفة النهر المقابلة أبنية كبيرة فيها، بالإضافة إلى دور السكن العادية، ملاجىء للمرضى الفقراء (بيمارستانات). حيث يأتون للعلاج. وفي المدينة قرابة ستين حانوت طبي توجد فيها العقاقير على اختلاف انواعها التي ترسل إليها من خزائن الخليفة. وكل مريض يتطلب مساعدة، يقدم له الغذاء على حساب الخليفة إلى أن يشفى.

وفي بغداد عمارة كبيرة تسمى دار المرابطين يقيم فيها جميع المجانين مقيدين بسلاسل، ويشرف عليهم موظفون من قبل الخليفة يفحصونهم مرة في الشهر بانتظام، فإذا ظهر انهم شفوا اطلق سراحهم..

وهذا من احسان الخليفة إلى كل من يقصد بغداد مريضاً كان أم مصاباً بالجنون.. وتحيط ببغداد حدائق النخيل والبساتين الواسعة، بحيث تجعلها عديمة النظير في العراق...

ويتقاطر التجار من كل صقع إلى بغداد، وفيها علماء كبار وفلاسفة ومهرة من أهل السحر (بنيامين ٩٥ ـ ١٠٠).

(٧) جاء في وصف بنيامين (وهو معاصر لابن جبير) لدمشق ما يلي: دمشق مدينة كبيرة، تقع على حدود مملكة نور الدين... وهي مدينة جميلة يدور بها سور، وتحيط بها بلاد فائقة الحسن، تمتد نحو ١٥ ميلاً. وحدائقها وبساتينها تبلغ من الجمال حداً قلما يوجد مثله في الدنيا.. يخترقها نهر امانا «أبانا» الذي تحمل مياهه إلى دور كبار الناس فيها أنابيب، كما تنقلها القساطل إلى الشوارع والأسواق.. تجارتها واسعة ويقيم بها تجار من

جميع الأقطار.. وجامعها قلما يساويه بناء آخر في فخامته..

(٨) وصف ناصري خسرو المعرة وبلادها بالثروة الكبيرة، وأضاف الكرم إلى اشجارها المذكورة عند ابن جبير.

(٩) يرجع عمران حماة إلى أيام بني أيوب: راجع «صبح الأعشى» ٤: ١٤٠.

(١٠) وقد وصف عكاء من معاصري ابن جبير فوكاس اليوناني، فقال: تزيد عن غيرها (من المدن السورية الساحلية) في عدد السكان. تأوى إليها جميع السفن التجارية، ويجتمع فيها الحجاج الآتون في البحر والمسافرون براً.. وتكثر فيها الأوبئة بسبب كثرة الواردين عليها. كما وصلها تيودو ريتشر الالماني فقال: «مدينة كبيرة كثيرة السكان.. حيثما ينزل الحجاج، فإنهم مضطرون بعد انتهاء الحج إلى الاجتماع في عكاء ليحملوا منها إلى بلادهم. وقد عددنا في يوم الاربعاء من أسبوع الفصح ثمانين سفينة في الميناء.

(١١) وقد علق الدكتور زكي محمد حسن على ما ذكره ابن جبير عن صقلية بقوله؛ «ولكننا لا نستطيع أن نركن إلى رحلة ابن جبير في الوقوف على حال المسلمين بصقلية» زكي محمد حسن «الرحالة المسلمون». ص ٨٦.

٤ ـ رحّالة القرن الثالث عشر

يمثل هذا القرن ثلاثة من كبار الرحّالين: عبد اللطيف البغدادي، وابن سعيد الاندلسي، والعبدري المغربي.. وها نحن أولاً، جرياً على طريقتنا، نعرف بهؤلاء الرحالين باقتضاب، ثم ننقل مختارات مما خلّفوه ليتمكن من متابعتهم في الصور التي رسموها بأقلامهم المرهفة.

فعبد اللطيف البغدادي رحالة عالم.. شملت معرفته الطب بالاضافة إلى النحو واللغة وعلم الكلام. واشتهر بصناعة الطب في كل مكان أقام فيه وخاصة في دمشق. وقد اخترناه لسببين: الأول هو الاتجاه العلمي الذي كان يغلب على تقييده مشاهداته، فتراه يشير إلى أنه رأى وفحص ونقب، فضلاً عما يسمع.. وإذا روى له أمر وشك فيه اظهر ذلك في كتابته. والثاني لأنه خلف لنا وصفا لمصر في سنوات الضيق والقحط والوباء (٥٩٥ ــ ٥٩٨ هـ). هذا، بالاضافة الى أنه تناول أموراً في حياة مصر الاجتماعية والعمرانية بتفصيل العالم ودقته.

ولد عبد اللطيف في بغداد سنة ٥٥٧/ ١١٦٢، وانصرف شأن طلاب العلم في العالم الاسلامي في عصره، إلى سماع الحديث وحفظ القرآن واجادة الخط وحفظ الشعر والمقامات، وأخذ لنفسه إجازات من شيوخ بغداد ثم من شيوخ خراسان. فلما اطمأن إلى أنه أخذ عن شيوخه كل ما عندهم تحول إلى الموصل وحدَّث في مدرسة ابن مهاجر ودار الحديث. ولم يلق بالموصل سوى الكمال بن يونس وكان جيداً في الرياضيات.

وكان صلاح الدين سيد سورية ومصر آنئذ، قد أحسن إلى عدد كبير من العلماء فأووا إلى دمشق. وجاءها عبد اللطيف يطلب علمهم فوقعت بينه وبينهم مناظرات انتصر فيها عليهم، فتوجه إلى القدس وجاء معسكر صلاح الدين بظاهر عكاء حيث لقي بهاء الدين شداد قاضي العسكر وعماد الدين الكاتب والقاضي الفاضل. والراجح أن الأخير أعجب بعبد اللطيف لأنه زوده برسالة توصية إلى وكيله في مصر ابن سناء الملك الذي احتفل به. وهناك تيسر له الاتصال بياسين السيميائي وموسى بن ميمون وأبي القاسم الشارعي. وقد أعجبه الأخير من هؤلاء الثلاثة، فكانا يتفاوضان الحديث فتكون الغلبة لعبد اللطيف «بقوة الجدل وفضل اللسن»، ويتغلب الشارعي «بقوة الحجة وظهور المحجة».

على أن اقامة عبد اللطيف بمصر هذه المرة لم تطل، إذ رحل إلى القدس للقاء صلاح الدين بعد الهدنة، وتم له ذلك. وقد وصف مجلس السلطان بقوله: «... وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حافلاً بأهل العلم يتذاكرون في اصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع». ورتب صلاح الدين وأولاده لعبد اللطيف مائة دينار في الشهر، فدخل دمشق وأكب على الاشتغال بالعلم واقراء الناس بالجامع.

لكن عبد اللطيف كان يمل الاستقرار في مكان واحد مدة طويلة، فرحل إلى مصر في ركاب العزيز سلطانها لما جاء لحصار الأفضل أخيه في دمشق في حملة فاشلة. وعاد في مصر إلى مصاحبة الشارعي حتى توفي. وكان يقرىء الناس بالأزهر صباحاً ومساءً ويقرىء الطب للكثيرين في وسط النهار[1]. وفي هذه المدة وقع بمصر الغلاء العظيم والموت، وكتب عبد اللطيف كتاب «الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، في وصف أحوال مصر في وقته.

ثم دعاه حب السفر ثانية فانتقل إلى القدس ودرس في الجامع الأقصى ونزل دمشق حيث اشتهر بصناعة الطب ودرَّس في المدرسة العزيزية (٦٠٤ هـ) وتنقل بعد ذلك بين حلب واذربجان في بلاد الروم وأرزن الروم وبغداد وتوفي بها. هذا هو عبد اللطيف الذي درَّس علوم عصره العقلية والنقلية وحدَّث وعلَّم الطب وألف كتباً كثيرة فيه، وانتفع الناس بعلمه في دمشق والقاهرة والقدس وحلب وبغداد.

وابن سعيد رحالة اندلسي ولد بغرناطة ليلة الفطر سنة ٦١٠ / ١٢١٤ في أسرة عريقة في الحسب والنسب كان لافرادها صلة بالملوك، وكان أبوه من أهل الأدب والتأليف. والمترجم به متمم كتاب «المغرب في حلى المغرب». فقد بدأه جده وعمل فيه أبوه وأتمه هو.

عمل ابن سعيد لوزير الموحدين بافريقية ابن جامع، وكان للمترجم به ابن عم يعمل للموحدين أيضاً... فوقعت بين القريبين فرقة خشي ابن سعيد عاقبتها، فاستأذن في الرحيل إلى المشرق برسم الحج. وصل الاسكندرية سنة ٦٣٩ / ١٢٤١، وكان والده قد رحل إليها وأقام فيها، وكان متأخراً عن موعد الحج، فذهب إلى القاهرة ولقي بها ايدمر التركي والبهاء زهير وابن يغمور وهو يومئذ رئيس الأمور بالديار المصرية. وقد استدعى سيف الدين ابن سابق بن سعيد إلى مجلس بضفة النيل مبسوط بالورد، وقد قامت حوله شمامات نرجس فقال ابن سعيد:

من فضل النرجس فهو الذي ... يرضى بحكم الورد إذ يرأس
أما ترى الورد غداً قاعداً ... وقام في خدمته النرجس

ووافق ذلك وقوف المماليك الترك في الخدمة، فطرب الحاضرون..

ترك لنا ابن سعيد وصفا نفيسا لمصر والفسطاط، اعطانا فيه صورة حية لما كانت عليه الحالة يومئذ.. فتناول شوارع المدينة وأبنيتها وأزقتها بالوصف، ثم تحدث عن نواح من الحياة في الاحياء المخصصة للهو والطرب، إذ قال عنها إنه قد يرقص الواحد في وسط السوق وقد يسكر الناس من الحشيش. لكن المقريزي علَّق على ذلك بقوله: «وفيه تحامل كثير». وكان قد جاء مصر كمال الدين ابن العديم رسولاً من الملك الناصر صاحب حلب إلى صاحب مصر، فتعرف ابن سعيد إليه فأكرمه وحبب إليه الرحلة إلى حلب فدخل على الناصر[٢] صاحب المدينة فأنشده قصيدة أعجبت السلطان فاستجلبه وتلطف به وسأله عن قصده من رحلته، ولما عرفه وعده بالمساعدة قائلاً: «نعينك بما عندنا من الخزائن ونوصلك إلى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد وتصنف لنا». ووهبه الناصر من الخلع والدنانير والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف. وتعرف ابن سعيد إلى عدد كبير من رجال السيف والقلم كانوا يعملون في حاشية الناصر. ثم تحول إلى دمشق ودخل مجلس السلطان المعظم ٦٣٧ ـ ٦٤٧ / ١٢٣٩ ـ ١٢٤٨ وحضر مجلس خلوته. ودخل الموصل وارتحل إلى بغداد في عقب سنة ٦٤٨ هـ ثم رحل إلى البصرة وحج وعاد إلى المغرب فنزل في اقليبة بتونس سنة ٦٥٢ / ١٢٥٤، واتصل بخدمة الأمير أبي عبد الله المستنصر.

على أن ابن سعيد ارتحل من تونس إلى المشرق ثانية في سنة ٦٦٦ هـ وذكر أنه لما دخل الاسكندرية سأل عن الملك الناصر فأخبر بحاله وما جرى له من قتل التتار له. ويروي ابن سعيد ما وصل إليه علمه من أخبار هجوم هولاكو على حلب وما تركته حملته من آثار التخريب والتدمير.

وتواليف ابن سعيد كثيرة منها المرقصات، والمطربات، والمقتطف من أزاهير الطرف، والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد (اي تاريخ بيته وبلده)، والموضوعان الغريبان المتعددا الاسفار، وهما «المغرب في حلى المغرب» و«المُشرق في حلى المشرق» و«عدة المستنجز وعقلة المستوفز».

أما العبدري فهو محمد بن محمد بن علي وينسب إلى عبد الدار.. واسم العبدري مرتبط ببلنسية من حيث أصل أسرته وبالصويرة (على مقربة من مغادور) بمراكش بالمغرب حيث سكنت هذه الأسرة. ولعل ذلك كان في طفولة العبدري أو صباه. أما لما بدأ الرجل رحلته عبر شمال افريقية بقصد الحج فقد كان يقطن في حاحه في السوس الأقصى. بدأ الرحلة في ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٨٨ (١٢٨٩)، واجتاز شمال افريقية ماراً بالسوس الأوسط ثم هبط تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وتونس. ويسير العبدري بعد ذلك مجتازاً ليبيا حتى يصل الاسكندرية. ويتبع الطريق البري من الاسكندرية إلى مكة. وبعد أن يتم الحج يعود ادراجه ماراً بفلسطين إلى القاهرة براً.

ويعود براً كما فعل في طريق الذهاب. وقد خلف لنا هذا الرحالة أخبار المغرب الغربي ومدنه وعلمائه، على طريقة معاصريه.

مختارات من رحالى القرن الثالث عشر

١ ـ البغدادي في مصر

أبنية مصر ـ وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية، حتى أنهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً عن مصلحة. ودورهم أقبح وغالب سكناهم في الأعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة، وقلما تجد منزلاً إلا وتجد فيه باذاهيج. وباذاهيجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى أنه يقوم على عمارة الواحد منها ماية دينار إلى خمسمائة، وان كانت باذاهيجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار. واسواقهم وشوارعهم واسعة وابنيتهم شاهقة. ويبنون بالحجر النحيث والطوب الأحمر وهو الآجر.. وشكل طوبهم على نصف طوب العراق.

ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة، ويحفرون الكنف إلى المعين فتغبر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كسح. وإذا أرادوا بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوض إليه العمل فيعمد إلى العرصة، وهي تل تراب، أو نحوه، فيقسمها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ثم يعمد إلى جزء آخر، ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك (البغدادي ٥٢).

أطعمة مصرية ـ ومن غريب ما يتخذونه رغيف الصينية، وصفته أن يؤخذ من الدقيق الحوارى ثلاثون رطلاً بالبغدادي ويعجن مع خمسة ارطال ونصف سيرجا عجن خبز الخشكنان. ثم يقسم بقسمين ويبسط احدهما رغيفاً في صينية نحاس قد اتخذت لذلك، سعة قطرها نحو أربعة أشبار ولها عرى وثيقة ثم يعبى على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوة الاجواف بلحم مدقوق ومقلو بالسيرج والفستق المهروس والافاويه العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكي والكزبرة والكمون والهال والجوزة ونحو ذلك. ويرش عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك ثم يجعل على الخرفان. وبين خلالها عشرون دجاجة وعشرون فروجاً وعشرون فرخاً بعضه مشوي محشو بالبيض وبعضه محشو باللحم وبعضه مطجن بماء الحصرم أو بماء الليمون أو بنحو ذلك. ثم يشور بالسنبوسك والقماقم المحشوة باللحم بعضها، وبالسكر والحلوى بعضها. وان شئت أن تزيده خروفاً آخر تتخذه شرائح فلا بأس.. وكذا جبناً مقلوا فإذا نضد ذلك وصار كالفتة نضح عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك وعود، ثم غطي بالقسم الثاني من العجين بعد أن يمد رغيفاً ويلحم بين الرغيفين، كما يلحم الخشكنان بحيث

لا يخرج منه نفس اصلا. ثم يقرب إلى رأس التنور حتى يتماسك عجينة ويبتدىء في النضج، فحينئذ ترسل الصينية بعراها رويداً رويداً. ويصبر عليه ريثما ينضج الخبز ويتورد ويحمر ثم يخرج ويمسح باسفنجة فيرش عليه ماء ورد ومسك ويرفع للأكل. وهذا الصنيع يصلح أن يحمل مع الملوك وأرباب الترف إلى منضداتهم النائية ومنتزهاتهم النازحة فإنه وحده جملة فيها تفضيل سهل المحمل عسر التشعث جميل المنظر مشكور المخبر يحفظ الحرارة مدة طويلة.

وأما عوامهم فقلما يعرفون شيئاً من ذلك.. وأكثر اغذيتهم الصبر والصحناة والدلينس والخبز والنيدة ونحو ذلك. وشرابهم المزر وهو نبيذ يتخذ من القمح. ومنهم اصناف يأكلون الفار المتولد في الصحارى والغيطان عند انحطاط النيل ويسمونه سمانى الغيط. وبالصعيد قوم يأكلون الثعابين والميتات من الحمير والدواب. وبأسافل الأرض قد يتخذ نبيذ من البطيخ الأخضر. وبدمياط يكثر أكل السمك ويطبخ بكل ما يطبخ به اللحم من الرز السماق والمدققات وغير ذلك (البغدادي ٥٦).

القحط في مصر سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ ـ ١٢٠١) وأول من هلك في هذه الطريق أهل الحرف عندما انتجعوا إلى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس. ولم تزل تتواصل هلكاهم إلى الآن. وانتهى انتجاعهم إلى الموصل وبغداد وخراسان وإلى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا كل ممزق (البغدادي ٦٧).

واما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين، فهو مما يلزم هذه الجملة التي اقتصصناها. وناهيك أن القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنة، وربما وجد فيها أحد وربما لم يوجد. وأما مصر فخلا معظمها، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة والمقسر وما تاخم ذلك، فلم يبق فيها بيت مسكون أصلاً، بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة زحمة من الناس حتى إن الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة وخيارها اكثرها خال خراب... وإن ربعا في أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتاً كلها خالية سوى أربعة أبيت اسكنت من يحرس الموضع.

ومما يقضي منه العجب أن جماعة من الذين ما زالوا مجدودين سعدوا في دنياهم هذه السنة، فمنهم من اثرى بسبب متجره في القمح، ومنهم من اثرى بسبب مال انتقل إليه بالارث، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف. فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط (البغدادي ٦٨).

وحكي لي انه كان بمصر تسع مائة منسج للحصر، فلم يبق إلا خمسة عشر منسجاً. وقس على هذا لسائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين واساكفة وخياطين وغير ذلك من الاصناف، فإنه لم يبق من كل صنف من هؤلاء إلا نحو ما بقي من الحصريين أو أقل من ذلك (البغدادي ٦٩).

حوادث الجوع ـ ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظهر معها صغير مشوي تأكل منه، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شئونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره.. فعاد تعجبي أشد وما ذلك إلا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه (البغدادي ٦٢).

وظهر من هؤلاء الخبثاء من يصيد الناس بأصناف الحبائل ويجتلبونهم إلى مكانهم بأنواع المخاتل، وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطباء ممن ينتابني. أما أحدهم فإن أباه خرج فلم يرجع، وأما الآخر فإن امرأة اعطته درهمين على أن يصحبها إلى مريضها فلما توغلت به في مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت درهميها، واما الثالث فإن رجلاً استصحبه إلى مريضه في الشارع بزعمه وجعل في أثناء الطريق يصدف بالكسر ويقول اليوم يغتنم الصواب ويتضاعف الأجر ولمثل هذا فليعمل العاملون، ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب. ومع ذلك فحسن الظن يغلبه وقوة الطمع تجذبه حتى أدخله داراً خربة فزاد استشعاره وتوقف في الدرج وسبق الرجل فاستفتح فخرج إليه رفيقه يقول له هل مع ابطائك حصل صيد ينفع.. فخرج الطبيب لما سمع ذلك، وألقى نفسه إلى اصطبل من طاقة صادفها. فقام إليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفاً منه أيضاً، فقال قد علمت حالك فإن أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحيل (البغدادي ٦٣).

وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس فيها بلد إلا وقد أكل فيه الناس أكلاً ذريعاً من اسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي (البغدادي ٦٥).

أما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج، ولاسيما طريق الفيوم والاسكندرية. وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخصون الاجرة على الركاب فإذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا اسلابهم. وظفر الوالي منهم بجماعة فمثل بهم وأقر بعضهم عندما أوجع ضربا أن الذي خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار.

وأما موت الفقراء هزالاً وجوعاً فأمر لا يطيق علمه إلا الله سبحانه وتعالى وإنما نذكر منه كالانموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر.

فالذي شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك أن الماشي اين كان لايزال يقع قدمه أو بصره على ميت ومن هو في السياق أو على جمع كثير بهذه الحال.. يرفع عن القاهرة خاصة إلى الميضأة كل يوم ما بين مائة إلى خمسمائة، وأما مصر فليس لموتاها عدد، ويرمون ولا يوارون. ثم بآخره عجز عن رميم فبقوا في الأسواق بين البيوت. والدكاكين.. وفيها الميت منهم قد تقطع وإلى جانبه الشواء والخباز ونحوه (البغدادي ٦٦).

وأما طريق الشام فقد تواترت الأخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم بل محصرة

وانه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وأن كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم (البغدادي ٦٧).

درس التشريح ـ ومن عجيب ما شاهدنا أن جماعة ممن ينتابني في الطب وصلوا إلى كتاب التشريح، فكان يعسر افهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان.. فأخذنا أن بالمقس تلا فيه رمم كثيرة فخرجنا إليه فرأينا تلا من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه اقل من الموتى به نحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين الفا فصاعداً وهم على طبقات في قرب العهد وبعده.. فشاهدنا في شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علماً لا نستفيده من الكتب.. أما أنها سكتت عنها أو لا يفي لفظها بالدلالة عليه أو يكون ما شاهدناه مخالفاً لما قيل فيها (البغدادي ٧٣).

٢ ـ مصر كما وجدها ابن سعيد

قال ابن سعيد: «ولما استقررت بالقاهرة تشوقت إلى معاينة الفسطاط فسار معي إليها أحد اصحاب القرية، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لي بمثلها في بلد... فركب منها حماراً وأشار إلي أن أركب حماراً آخر، فأنفت من ذلك على عادة من اخلفته في بلاد المغرب فأخبرني أنه غير معيب على أعيان مصر، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت. وعندما استويت راكباً أشار المكاري إلى الحمار فطار بي، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعاينت ما كرهته. ولقلة معرفتي بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المكاري، وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج: فقلت:

لقيت بمصر أشد البوار ... ركوب الحمير وكحل الغبار
وخلفي مكار يفوق الرياح ... لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلاً فلا يرعوي ... إلى أن سجدت سجود العثار
وقد مد فوقي رواق الثرى ... والحد فيها ضياء النهار

فدفعت إلى المكاري أجرته، وقلت له احسانك ان تتركني أمشي على رجلي، ومشيت إلى أن بلغتها. وقدرت في الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين. ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرة، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة. ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضي إلى خراب مغمور بمبان مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الادكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة، وحول ابوابها من التراب الأسود والازبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف. فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال إلى أن صرت في أسواقها الضيقة، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التي على

الجمال ما لا تفي به إلا مشاهدته ومقاساته، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرت ضده في جامع اشبيليه وجامع مراكش، ثم دخلت إليه فعاينت جامعاً كبيراً قديم البناء غير مزخرف، ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه وتتبسط فيه. وابصرت العامة رجالاً ونساءً قد جعلوه معبراً بأوطئة اقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق. والبياعون يبيعون فيه اصناف المسكرات والكعك وما سوى ذلك. والناس يأكلون في عدة امكنة منه غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك. وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقاً، وفضلات مأكلهم مطروحة في صحن الجامع، وفي زواياه العنكبوت قد عظم نسجه في السقف والاركان والحيطان. والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة، إلا أن مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع اشبيليه مع زخرفه (المقري ١: ٤٨٦).

واستحسنت ما ابصرته من خلق المتصدرين لاقراء القرآن والفقه والنحو في عدة أماكن، وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما اشبه ذلك. ثم اخبرت ان اقتضاء ذلك يصعب إلا بالجاه والتعب.

ثم انفصلنا من هناك إلى ساحل النيل، فرأيت ساحلاً كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض.. إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب واصناف الأرزاق التي تصل من جميع اقطار النيل. ولئن قلت إني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإني اقول حقاً.

والحال أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والألفة، مما يطول ذكره. وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي فإنه فوق ما يوصف، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد. وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى.. لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند، كما أن جميع زي الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط وكذلك ما ينسج ويصاغ، وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية والحراب في الفسطاط كثير. والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان إليها وسكنى الاجناد فيها (المقري ١: ٤٨٧).

والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطاني، لأن هنالك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين. ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية. ولكن ذلك أمد قليل ثم تسير منه إلى امد أضيق وتمر في مكان كدر حرج بين الدكاكين إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة، كان مما تضيق به الصدور وتسخن منه العيون. ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الامراء وهو في موكب جليل، وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت

جميع الطرق بين يدي الدكاكين. ووقف الوزير وعظم الازدحام، وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه، وقد كاد يهلك المشاة وكدت اهلك في جملتهم. وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والازبال، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها. ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالاً في ذلك. ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري وتدركني وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين. ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم، ويموت الانسان فيها عطشاً لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها. وإذا احتاج الانسان إلى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور إلى موضع يعرف بالمقس.. وجوها لا يبرح كدراً مما تثيره الأرض من التراب الأسود.

والفسطاط أكثر أرزاقاً وأرخص اسعاراً من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط. والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة. والقاهرة هي اكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط، لأنها أجل مدارس واضخم خانات واعظم دياراً بسكنى الأمراء فيها المحفوفة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها.. فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز، وسائر الأشياء التي تتزين بها الرجال والنساء.. ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة.. والمعايش فيها متعذرة نزرة لاسيما اصناف الفضلاء.. وجوامك المدارس قليلة كدرة... والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته.. (المقري ١: ٤٨٩).

٣ ـ العبدري يصف مدن المغرب

في اليوم الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٨ (١٢٨٩) بدأنا رحلتنا من حاحة واتجهت القافلة بنا نحو الجنوب...

أنس مدينة جميلة تتوسط سهلاً غنياً بالمراعي والماشية. وأرضها شديدة الخصب غزيرة المياه. والواحة تدور بها الحدائق ومنابت النخيل.. وهي بوقوعها في اطراف السوس الاقصى وفي مكان مرتفع تتعلق بأسباب الجبال التي تشرف على المنطقة.

واستمررنا في السير في أنس عبر المنطقة الوسطى، وهي بلاد اختفى العلم منها حتى إن اسمه زال. وقد فقد الناس عادة التعليم، وقلما يرتل القرآن في مساجدها... ولكن الناس يكرمون رجال الدين ويولونهم ثقتهم التامة.. ويتمتعون بصفة هامة هي حماية الجار واحترامه والدفاع عنه. وإذا حدث أن نشبت بين جماعة وأخرى حرب، فان المقاتلين يلتقون في الميدان نهاراً ويتحاربون. فإذا جن الليل امتنعوا عن القتال وأووا إلى بيوتهم حتى صباح اليوم التالي. وإذا نشب الخصام بين أهل بلد

واحد، فان المتخاصمين يخرجون إلى ميدان فسيح بعيد عن السكان، ويقتتلون فيما بينهم هناك، حتى لا يصيب الأذى السكان الآمنين.

... وقد كانت رعاية الله تكلأنا في اجتيازنا هذه المنطقة.. التي لا يجتازها الناس عادة إلا والسلاح مهيأ مشهور.. حتى وصلنا تلمسان.. وقد دخلها معنا ما يزيد عن ألف حاج.. وتلمسان مدينة كبيرة نصفها في السهل ونصفها الثاني في منعرج من الجبل.. وفيها مسجد جامع فخم واسع، واسواقها حافلة.. وفي مرتفع من الأرض تقوم العباد - وهي مقبرة أهل التقى والمرابطين، وأفخم القبور هناك واجملها ضريح أبي مدين.. وتحيط الكروم والبساتين بتلمسان بحيث تطوقها بنطاق دائم الخضرة.. وفي داخلها الحمامات الحسان..

ولم يبق للعلم من أثر في هذه الديار، وقد جفت سواقي المعرفة. وقد حضرت درساً في النحو فوجدت الجهل مطبقاً على الجميع.

وقد طالت اقامتنا بتلمسان حتى ٢٥ ربيع الأول ثم خرجنا منها.. وأخيراً وصلنا مليانة البلدة الجميلة المكونة من مجموعة من الأبنية ولا ينقصها شيء من ميزات المدن الكبيرة.

وأخيراً وصلنا الجزائر وهي مدينة لا يكف المرء عن الاعجاب بها إذ فيها ما يسحر اللب.. تقوم على شاطىء البحر، مقتعدة نشزاً من الأرض، بحيث تستمتع بكل ما يمكن أن يضفيه مثل هذا الموقع الخاص على بلدة ما، ويصبح البحر والسهل موردين لها.. جمال ابنيتها يأسر الرائي، وحصونها تتحدى الاعداء بمتانتها. لكنها خالية من العلم.. وليس فيها من يمكن أن يعد من العلماء..

وخرجنا من الجزائر إلى بجاية وهي ميناء كبير ومدينة حصينة.. وكم حاول الاعداء اخذها فباءوا بالفشل. وفيها مسجد يبز مساجد الجهة كلها حسناً. وفيها جماعة من العلماء الاعلام..

وجئنا قسنطينة. شفى الله جراحها ومتع سكانها بسبل انعاشها. إنها بلدة جميلة وحصينة، لكن حدثان الدهر طغى عليها.. بحيث اصبحت كالمرأة الجميلة وكالكريم الخالي اليدين من المال.. تكثر فيها بقايا الأبنية القديمة.. يحيط بها احاطة السوار بالمعصم نهر يجري في واد عميق يدور بها فيدفع عنها أذى العدوان.. ولم أر في قسنطينة إلا رجلاً واحداً يصح ان يشار إليه كعلم في المعرفة وهو الشيخ أبو علي حسن بن بلقاسم بن باريس...

.... ثم وصلنا تونس مهبط الآمال.. محط المسافرين من الشرق والغرب، وملتقى السفن بالقوافل، وفيها يجد كل امرىء ما يشتهي. فان شاء السفر براً لقي جمعاً كبيراً من الرفاق، وان فضل سفر البحر وجد السفن التي تحمله إلى كل مكان. تشبه تونس ماسة، وكل شعاع منها يمثل ضاحية... وستجد فيها الكثير من فروع

المعرفة التي تتطلبها.. ويعنى أهلها بالعلم، وفيها اعلام في المعرفة كبار، ومنهم من يسبق الغزال في سرعة الاقلام. ويكاد يكون الكل منهم مطبوعاً على طيب الصحبة. وتتفوق تونس على غيرها من المدن بحسنها الفائق وبعمارتها الأنيقة، ومنعتها ومجدها يجعلان منها سيدة لمنافساتها من حواضر الشرق والغرب.

وتونس (حرسها الله) ذات أبنية كبار حسان ذات الأبواب الجميلة المصنوعة من الرخام... للمدينة عدة ابواب يمكن الدخول منها، وخارج كل منها ضاحية جميلة تكاد تكون في اتساع المدينة نفسها.. ولو ان تونس يتاح لها نهر يروي عطشها، لفاقت جميع حواضر الاسلام. ولكن من سوء الحظ فماؤها نزر يسير، والناس يشربون من ماء الامطار، الذي يخزنونه في الآبار.

والماء الذي تحمله قناة زغوان إلى المدينة، إنما يحمل الى قصر السلطان وحدائقه، وثمة كمية ضئيلة يسمح لها بالوصول إلى جامع الزيتونة، ومن هذه يستقي الغرباء واولئك الذين ليس في بيوتهم آبار.

وجامع الزيتونة يعتبر من أجمل الأبنية الحجرية.. يتوسطه صحن واسع تدور به أروقة معمدة.

ويعنى العبدري بوصف قرطاجنة وآثارها، ولكنه يهتم بشكل خاص بالقناطر التي تجري قناة الماء فوقها والتي يسميها التونسيون «حنايا» ويشير إلى اهتمام بعض الحفصيين باصلاحها لأنها توصل بعض الماء من قرطاجنة الى تونس.. ثم يعود إلى تونس نفسها فيقول: «وتونس مدينة كبيرة الأهمية إذ هي عاصمة افريقية (اي ما يسمى اليوم القطر التونسي).... ولم أر لا في الشرق ولا في الغرب قوماً كأهلها في دماثه الخلق ورقة الطبع.. وفي أهلها من بلغ في العلم الدرجة القصوى وبينهم من يمتاز بعلو الهمة... وهناك من يترك عمله ليتمتع بصحبة عالم... كما حدث لي. ولو لم ادخل تونس لكنت قلت ان المغرب كله خلا من العلم.. لكن الله أراد لي أن أرى هذه المدينة.. التي يجد المرء فيها علماء لكل فرع من فروع المعرفة.. وطلابها، مثل اساتذتها، يبذلون الوقت والجهد في سبيل الدرس.. وقد حصلت لي مُتعة كبيرة في تعرفي على نواحي المعرفة في تونس.»

ويسير العبدري بعد ذلك فيما تبقى من شمالي افريقية عبر ليبيا ويقول عن أهل برقة «أنهم يتكلمون العربية بصفاء أهل الحجاز بحيث أن ولداً سأل الحجاج قائلاً لهم: «يا حجاج أمعكم شيء تبيعونه؟». بحيث أنه شكل كل كلمة في السؤال[٢].

وفي الاسكندرية تعرض العبدري لشيء من التفتيش الدقيق على أيدي موظفي الجمرك، فقال في وصف ذلك: «وإن الأمر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم (أهل الاسكندرية) أنهم يعترضون الحجاج، ويجرعونهم من بحر الاهانة الملح الاجاج، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج، ويبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون

بتفتيش النساء والرجال. وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبي، وجعل الانفصال عنهم غاية أربي. وذلك لما وصل الركب جاءت شرذمة من الحرس.. فمدوا في الحجاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء وألزموهم انواعاً من المظالم وإذاقوهم الواناً من الهوان ثم استحلفوهم وراء ذلك كله....»[٤].

الهوامش

(١) قد تكون قراءة الطب هذه في الأزهر نفسه، لكن العبارة غامضة. راجع «الإفادة والاعبار» ص ١١.
(٢) ٦٣٤ ـ ٦٥٨ هـ، وقد حكم دمشق أيضاً منذ سنة ٤٦٨ هـ.
(٣) لم تنشر رحلة العبدري بالعربية بعد، والمختارات المنقولة هنا هي ترجمة عن الفرنسية لجزء من الرحلة نشر في المجلة الاسبوعية سنة ١٨٥٤. اما وصفه لمعاملة الحجاج في الاسكندرية فهو بلغة العبدري نفسه..
(٤) هذه عبارة العبدري نفسها.

٥ ـ ابن بطوطة

ابن بطوطة رحّالة محترف

طبع ابن بطوطة الرحلة في القرن الرابع عشرة (الثامن) بشخصيته القوية النابضة بالحياة المتطلعة إلى كل ما حوله بشوق دائم.. ويمتاز هذا الرحالة بأمور كثيرة قلما اجتمعت لرحالة واحد من معاصريه. فقد قضى ثمانية وعشرين عاماً يذرع شرق الأرض وغربها. بدأ الرحلة من طنجة وسار إلى مصر بطريق شمال افريقية، ثم زار ديار الشام وحج وتنقل في فارس وبلاد العرب ووصل إلى شرق افريقية، ثم زار القرم وحوض الفولغا الأدنى ودخل القسطنطينية فاحتفى به ملكها قسطنطين الرابع (١٣٤٤ ـ ١٣٦٣م). واتجه بعدها شرقاً إلى خوارزم وبخارى وتركستان وافغانستان والهند وخدم ملك دلهي ثماني سنوات. وتعرف إلى جزر الملديف وبعض جزر الهند الشرقية والصين، وعاد إلى طنجة. وبعد هذه الرحلة الطويلة (٧٢٥ ـ ٧٥٠ هـ/ ١٣٢٥ ـ ١٣٤٩م) قام برحلتين قصيرتين نسبياً، الأولى في الأندلس في حدود سنة ٧٥١/ ١٣٥٠ والثانية إلى السودان العربي ودامت نحو سنتين، بدأها سنة ٧٥٢ /١٣٥٢. وفي هذه الرحلة وصل إلى تمبكتو، وابحر في نهر النيجر وعاد إلى فارس بطريق الصحراء الكبرى، وقد قدرت المسافة التي قطعها ابن بطوطة في اسفاره بنحو ١٢٠,٠٠٠ كيلو متر، وقد جرب ألا يقطع طريقاً مرتين، ونجح في ذلك الا فيما ندر. ولا يعرف تاريخ الرحلات من اجتاز مثل هذه المسافة قبل العصور الحديثة. ويبدو لنا أن ابن بطوطة رحالة محترف.

وابن بطوطة كان فقيهاً عالماً، جرى على تقليد أسرته التي عرفت باشتغالها بالعلوم الشرعية. وقد عرف الحاج له فضله فقدموه قاضياً عليهم وهم بعد في تونس في طريقهم إلى مصر. وقد ولي القضاء في جزائر ملديف أيضاً.

ولابن بطوطة لذة خاصة في ذكر الأشخاص الذين عرفهم، والتحدث عنهم. ويشغل رجال الدين ومن إليهم المؤلف كثيراً. حتى لكأن ذكرهم هواية وتبرك.. فيروي كراماتهم واحاديثهم فيشوق القارىء من جهة، ويطلعه على نواحٍ من حياة المجتمع في زمنه.

والرحلة التي وصلت إلينا هي من املاء الرحالة ابن جزي وتسمى «تحفة النظار

في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار» وابن جزي كان كاتباً في بلاط السلطان ابي عنان من بني مرين المراكشيين (٥٩٢ ــ ٩٥٧ / ١٣٦٩ ـ ١٥٥١). وقد قال عن املاء الرحلة ما يلي «... ولما كانت حضرته (ابي عنان) العلية مطمح الآمال ومسرح همم الرجال... فانثال عليها العلماء، وتسابق إليها الأدباء.. وكان ممن وفد على بابها السامي، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق، جوال الأرض ومخترق الاقاليم بالطول والعرض، أبو عبد الله.. المعروف بابن بطوطة وهو الذي طاف الأرض معتبراً، وطوى الامصار مختبراً، وباحث فرق الأمم وخبر سير العرب والعجم. ثم القى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا... فغمره من احسانه الجزيل... ما انساه الماضي بالحال... ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الامصار، وما علق بحفظه من نوادر الاخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار.. فاملى من ذلك ما فيه من نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر.. وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم... المتشرف بخدمة جنابهم محمد بن محمد جزي الكلبي... ان يضم اطراف ما املاه الشيخ ابو عبد الله من ذلك، في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً ولنيل مقاصده مكملاً. ونقلت معاني كلام الشيخ ابي عبد الله بالفاظ موفية للمقاصد التي قصدها، موضحة للمناحى التي اعتمدها، وربما أوردت لفظه على وضعه، فلم اخل باصله ولا فرعه، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والاخبار، ولم اتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار...».

وهكذا فقد املى ابن بطوطة، وكتب ابن جزي، وكان ذلك بين استقرار الرحالة في فاس وبين وفاته فيها، أي بين ٧٧٥ ــ ٧٧٠ / ١٣٥٤ ــ ١٣٦٨ أو ١٣٦٩ لكن الكاتب لم يكتف بذلك، فهو قد اضاف إلى الاملاء شواهد شعرية كثيرة.. ثم نقل عن ابن جبير وغيره فصولاً ضمنها ما املاه عليه ابن بطوطة، على نحو ما نرى في وصف دمشق وحلب وبغداد.

وابن بطوطة لم يكن جغرافياً.. فهو لم يهتم بالأقطار إلا قليلاً، وحتى المدن إنما وصفها باعتبار ما يقطنها من الناس. فقد كان الناس موضع اهتمام الرحالة. ولذلك فهو يفيدنا في التاريخ والاجتماع أكثر مما يفيدنا في الجغرافية، وحتى ترتيب اسفاره ليس واضحاً. وذلك لسببين فيما نعتقد، أما الأول فهو أنه املى اخباره بعد مدة طويلة من انتهاء اسفاره وكان قد فقد أوراقه؛ وأما الثاني فهو أن الرجل لم يكن يعنيه المكان حتى ينتبه له بشكل خاص. فقد كان المهم عنده ما انطبع في ذهنه من اثر لمن يقيم في مكان ما، اكثر من اهتمامه بالصفة الطبيعية للمكان نفسه. ولما كان ابن بطوطة قد زار بلاداً صعب عليه النطق بأسماء مدنها وانهارها، بله تذكرها، كالهند والصين فقد جاءت بعض هذه الألفاظ غريبة على من يعرفها حتى من المعاصرين، فكيف بمن لم يعرفها من أهل زمانه؟

وهذا وغيره ما حمل الكثيرين على الشك في وصول ابن بطوطة إلى بلاد الصين مثلاً. إن دارسي آثار الرحالة غير متفقين بعد نهائياً فيما بينهم، إذ شك به البعض من معاصريه، مثل ابن خلدون وابن جزي نفسه، ومن المحدثين مثل فران. ومع ذلك فالكثرة من الباحثين تجمع على ان ابن بطوطة كان أميناً صادقاً في روايته، وأنه قد يكون أخطأ أو نسي الشيء أو أدخل في روايته قصصاً واساطير، لكنه لم يتعمد اختلاقاً أو تلفيقاً أو غشاً.

والقرن الذي عاش فيه ابن بطوطة وارتحل وتنقل كان، بالنسبة إلى المغرب العربي، قرن اضطراب وحروب وفتن، وبالنسبة إلى الأندلس كان عصر تدهور للسيادة العربية وانحلال للسلطان السياسي. أما بالنسبة إلى الشرق العربي، فقد كانت الحالة على غير هذا... فقد وفق المماليك إلى اقصاء الصليبيين عن ديار الشام، وإرساء قواعد حكم قوي، وان لم يكن دائماً صالحاً، في مصر والشام والحجاز. وكانت الغزوات المغولية قد قوضت اركان الخلافة العباسية، لكن هؤلاء المغول كانوا قد وسعوا رقعة الاسلام كثيراً، وركزوا أسسه في اجزاء واسعة. ومن ثم فقد كان الاسلام في المشرق في فترة من فترات قوته من حيث السياسة والسلطات.. وابن بطوطة مثل واقعي لما كان يشعر به المسلم المتنقل في الاقطار الاسلامية. فقد تختلف الدول، وقد تحترب فيما بينها، ويحطم بعضها البعض، لكن ذلك لم يكن يؤثر على المسلم كفرد، إذ كان يعتبر نفسه مواطناً مسلماً في رقعة اوسع من هذه الحدود السياسية التي ترسمها دولة لنفسها. وكان يشعر بحرية التنقل ويرى في المسلمين جميعاً اخوة ومواطنين. وهذا ابن بطوطة يتنقل ويرحل ويحل ويعلم ويعظ ويحدث ويتولى القضاء ويسفر ويتزوج ويطلق حيث حط رحاله، دون أن يتقيد بحدود سياسية لدولة دون أخرى. هكذا وعى نفسه، وهكذا ادركه الناس وقبلوه لا بعد ان فكروا فيه كفرد، ولكن على اعتبار أن هذا هو الواقع المقبول.

إلا أنه حري بنا أن نشير هنا إلى أن ابن بطوطة عاش في عصر، كانت حضارة العرب والاسلام فيه قد بدأت بالوقوف عن التقدم نتيجة لعوامل كثيرة، لعل اهمها التجميد الرسمي الذي فرضته الدولة على العقل ونشاطه، فحصرت الجهد الفكري فيما من شأنه أن يقوي كيانها ـ مؤيداً بالدين ـ ويظهر زيغ خصومها. وهكذا فالحضارة العربية تبدو في صفحات ابن بطوطة قليلة الحركة والنشاط والتوثب، وتطلع علينا وكأنها لا دينامية لها. ولعل القارىء رأى من بعض ما نقلناه قبلاً عن العبدري مثلاً، أن بوادر مثل هذه الحال كانت قد طلعت من قبل... ولكن هذا الأمر يبدو واضحاً كل الوضوح في صفحات ابن بطوطة ـ في اختباراته وزياراته واتصالاته والرجال الذين قابلهم. وقد يقال ان ابن بطوطة بحكم تكوينه الفكري لم يتصل إلا بفئة من أهل العلم توازيه وتسامته. ولكن ابن بطوطة، كان يسير يقظ الذهن مفتوح العين،

ويصف ما يرى ويسمع وتنطبع الصور في نفسه انطباعاً جيداً. فلو وقع على اختبارات حاسمة في ميادين الفكر الوثاب، أو اتصل بأصحاب العقول التي تنفذ إلى ابعد من المألوف، لكان صرح أو لمح.. ولكن لم يسعد الحال فلم يسعد النطق.

ولد ابن بطوطة في طنجة في ١٤ رجب سنة ٧٠٣ هـ/ ٢٤ شباط (فبراير) ١٣٠٤م. ولما بدأ رحلته إلى المشرق في رجب ٧٢٥ / ١٣٢٥ كان قد تفقه في علوم عصره الشرعية، متأثراً في ذلك بأسرته وبلده. ومن السهل أن يتابع القارىء تنقل ابن بطوطة في المغرب وفي مصر.. فقد مر بالجزائر وتونس وليبيا واعرس قبل ان يصل مصر. وكانت الاسكندرية أول مدينة مصرية نزلها، ثم انتقل منها إلى القاهرة معرجاً على مدن كثيرة في الدلتا ليست على الطريق العادي، طريق الحاج أو التاجر. ومن القاهرة رافق الحاج الأفريقي إلى عيذاب ليجتاز البحر الأحمر إلى الحجاز.. لكن الحدربي سلطان البجاة كان يومها في حرب، وقد خرق المراكب، فلم يتيسر اجتياز البحر الاحمر، فعاد ابن بطوطة إلى القاهرة واجتاز الى الشام بطريق سيناء، فنزل في غزة «وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر»، ومنها إلى الخليل فالقدس.. وإلى هنا وابن بطوطة تمكن متابعته. لكنه إذ يتحدث عما تبقى من المدن الشامية يبدو انه لما املى اخبار هذه المنطقة لم يكن يعنى بالترتيب الزمني أو التسلسل الحادثي أو حتى الموقع الجغرافي، بقدر ما عني بما في نفسه من انطباعات. لذلك يتحتم علينا أن نقبل بالوصف دون أن نقيد الرحالة بخارطة معينة. وليست هذه المرة الوحيدة التي يجب أن نسمح فيها لابن بطوطة بشيء كثير من القلق والانقطاع. ونحن إن لم نسمح له بذلك، وأصررنا على وجوب مرافقته في الطريق الذي اجتازه، فقدنا الكثير من روعة المفاجأة وعذوبة القفزة التي تميز هذا الرجل الذي احتفظ بنشاطه الجسمي والروحي والعقلي مدة تجواله كلها. أما بعد أن ينضم ابن بطوطة إلى الحاج الشامي فيعود إلى الدرب المطروق، ولا سبيل له إلى غير ذلك، فما باستطاعة المرء ان يشق في صحراء طولها اربعون يوماً أو يزيد طريقاً خاصاً به. وكذلك من الممكن متابعة الرحالة في انتقاله من الحجاز إلى العراق (٧٢٦ / ١٣٢٦) وفي مدن العراق، ثم يضطرب الحبل قليلاً. ويعود إلى الحجاز فيحج ويدرس ويحج، ثم يركب البحر إلى اليمن ثم يعبره إلى افريقية ثم يعود إلى شواطىء الجزيرة العربية الشرقية، ثم يحج للمرة الرابعة. ثم يذهب إلى مصر فالشام، ومن اللاذقية يبحر الى بلاد الروم، وهناك يتنقل من مكان الى آخر حتى يصل الفولغا والقوقاز ويزور القسطنطينية في حاشية الخاتون بيلعون زوجة السلطان اوزبك خان وابنة ملك الروم. وهنا مثلاً لا يمكننا مرافقة ابن بطوطة في الطريق البري الذي اتبعه من القرم الى القسطنطينية محاذياً للبحر الأسود في شواطئه الغربية. ولكن هذا الاضطراب طبيعي في حالة رجل يجتاز بيئة طبيعية واجتماعية تختلف تماماً عما ألف.

وبعد زيارة لخوارزم وبخارى وسمرقند وترمذ وغزنة وكابول وغيرها (والرواية ليست واضحة الطرق وإن كانت بيِّنة المعالم من حيث المدن) دخل الهند سنة ٧٣٤ / ١٣٣٣ وكان سلطانها محمد بن تغلق الذي اكرم وفادته فأقام ثماني سنين.. وفي حاضرتها دلهي ولي القضاء. وأراد ملك الهند إرسال هدية إلى الصين، فجعل ابن بطوطة رئيساً للوفد. ومع ان الرحالة وصل إلى الصين فما بعد، فقد تنقل فيما بين ذلك في شبه جزيرة الهند وجزر ديبة المهل «الملديف» وسيلان والملايو وسومطرة. وما تركه ابن بطوطة عن المجتمع في هذه الاماكن وفي الصين فيه صور فريدة لا في أناقة الوصف فحسب، ولكن في غزارة المادة التي يمكن أن يفيدها المؤرخ منها، إن في الحياة الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية. وعاد من الصين بطريق سومطرة والخليج العربي والعراق. وكان ابن بطوطة في دمشق ايام اصابها الطاعون في عام ٧٤٩ / ١٣٤٨ وقد وصفه وصفاً مؤثراً. ومن دمشق ذهب إلى مصر فالحجاز حيث ادى الفريضة. وفي سنة ٧٥٠ / ١٣٤٩ غادر مصر إلى تونس بحراً. ثم انتقل إلى فاس إلى بلاط السلطان أبي عنان، حيث لقي عطفاً وكرماً هيئا له أسباب الراحة والعمل.

وزيارة ابن بطوطة للاندلس كانت قصيرة، ذلك أن ما بقي يومها للعرب هناك كان قد تقلص ظله. ولكنه لم يقم في فاس طويلاً بعد عودته حتى عاوده الحنين إلى الرحيل. فخرج من فاس (٧٥٢ / ١٣٥٢) إلى سلجماسة. ويمكن اعتبار الجدول التالي قريباً من الصواب فيما يتعلق بتنقله في السودان الغربي: فاس ـ سجلماسة ـ تغازي ـ ايوالاتن ـ مالي (عاصمة سلطنة مالي) ـ تمبكتو ـ تكدا ـ الحجر ـ فاس. وقد دامت هذه الرحلة دون السنتين إذ عاد إلى فاس ٧٥٤ / ١٣٥٣.

وثمة أمور دوَّنها ابن بطوطة عن هذه المنطقة نسارع إلى الإشارة إليها هنا. وهي:

(١) ان اهل ايوالاتن كانوا يحتقرون البيض من البشر.

(٢) ان التجار المصريين كانوا اصحاب نفوذ في كثير من تلك الجهات وخاصة في مالي.

(٣) كان العرب في مملكة مالي يتكلمون لغتهم. لذلك كان في بلاط المملكة مترجم رسمي هو الذي ترجم بين ابن بطوطة والملك.

(٤) ظن ابن بطوطة ان نهر النيجر هو نهر النيل وقد ظل هذا هو الرأي حتى أواخر القرن الثامن عشر.

توفي ابن بطوطة في ٧٧٠ / ١٣٦٨ أو ١٣٦٩ بعد أن املى رحلته، على ما مر بنا (فرغ من كتابتها سنة ٧٥٧/ ١٣٥٦). وهكذا فانه بسبب اهتمام السلطان أبي عنان بأخبار الرحالة، اصدر أمره بتدوينها وان تملى على كاتبه ابن جزي. وبذلك حصلنا على هذه اليوميات الانسانية والصور الفريدة للمجتمع الاسلامي في مشارق الأرض ومغاربها في الربع الثاني للقرن الرابع عشر (الثامن).

ابن بطوطة في المغرب

قال الشيخ أبو عبد الله: كان خروجي من طنجة مسقط رأسي، في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد، عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمداً حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول (عليه افضل الصلاة والسلام)، منفرداً عن رفيق آنس بصحبته، وركب اكون في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم. فجزمت أمري على هجر الأحباب من الأناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، وكان والداي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا. ولقيت كما لقيا من الفراق نصباً، وسني يومئذ ثنتان وعشرون سنة(١ / ١٤).

في الجزائر ـ وصلنا مدينة الجزائر واقمنا بخارجها أياماً، إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضي، فتوجهنا جميعاً على متبجة إلى جبل الزان، ثم وصلنا إلى مدينة بجاية، وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة: محمد بن الحجر (الذي تقدم ذكره) وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب، واوصى بها لرجل من أهل الجزائر، يعرف بابن حديدة، ليوصلها إلى ورثته بتونس، فانتهى خبره لابن سيد الناس، فانتزعها من يده، وهذا أول ما شهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم. ولما وصلنا إلى بجاية اصابتني الحمى، فأشار علي أبو عبد الله الزبيدي بالإقامة فيها حتى يتمكن البرء مني، فأبيت وقلت: إن قضى الله عز وجل بالموت، تكن وفاتي بالطريق وانا قاصد أرض الحجاز. فقال لي: اما أن عزمت، فبع دابتك وثقل المتاع، وانا اعيرك دابة وخباء، وتصحبنا خفيفاً، فإننا نجد السير خوف غارة العرب في الطريق، ففعلت هذا، واعارني ما وعد به (جزاه الله خيراً) وكان ذلك أول ما ظهر لي من الالطاف الالهية، في تلك الوجهة الحجازية. وسرنا إلى ان وصلنا إلى مدينة قسطنطينة فنزلنا خارجها، واصبنا مطر جود، اضطرنا إلى الخروج عن الأخبية ليلاً إلى دور هنالك. فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة فنظر إلى ثيابي ـ وقد لوثها المطر ـ فأمر بغسلها في داره وكان الاحرام منها خلقاً، فبعث مكانه احراما بعلبكياً، وصر في احد طرفيه دينارين من الذهب، فكان ذلك أول ما فتح به علي في وجهتي.. ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة، ونزلنا بداخلها، واقمنا بها اياماً، ثم تركنا بها من كان في صحبتنا من التجار، لإجلاء الخوف في الطريق، وتجردنا للسير وواصلنا الجد، وأصابتني الحمى، فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج، خوف السقوط بسبب الضعف، ولا يمكنني النزول من الخوف، إلى أن وصلنا مدينة تونس (١ / ١٦ ـ ١٩).

في تونس وليبيا : وأظلني بتونس عيد الفطر، فحضرت المصلى، وقد احتفل الناس لشهود عيدهم، في اجمل هيئة، ووافى السلطان ابو يحيى راكبا، وجميع اقاربه

وخواصه وخدام مملكته مشاة على اقدامهم في ترتيب عجيب. وصليت الصلاة، وانقضت الخطبة، وانصرف الناس إلى منازلهم، وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخ يعرف بأبي الشريف السوسي، فقدموني قاضياً بينهم. وخرجنا من تونس في أواخر شهر ذي القعدة، سالكين طريق الساحل، فوصلنا إلى بلدة سوسة، وهي صغيرة حسنة، مبنية على شاطىء البحر، بينها وبين مدينة تونس اربعون ميلاً، ثم وصلنا إلى مدينة صفاقس ثم خرجنا من مدينة قابس، قاصدين طرابلس، وصحبنا في بعض المراحل إليها نحو مائة فارس أو يزيدون، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب، وتحامت مكانهم، وعصمنا الله منهم. وأظلنا عيد الاضحى في بعض تلك المراحل، وفي الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابلس، فاقمنا بها مدة، وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض امناء تونس، فبنيت عليها بطرابلس، ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم، من عام ستة وعشرين ومعي أهلي، وفي صحبتي جماعة من المصامدة، وقد رفعت العلم وتقدمت عليهم، واقام الركب في طرابلس خوفاً من البرد والمطر، وتجاوزنا قصور سرت، وهنالك ارادت طوائف العرب الايقاع بنا، ثم صرفتهم القدرة، وحالت دون ما راموه من اذيتنا، ثم توسطنا الغابة. ووقع بيني وبين صهري مشاجرة اوجبت فراق بنته، وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس، وبنيت بها بقصر الزعافية، واولمت وليمة حسبت لها الركب يوماً واطعمتهم. (١ / ٢١ ـ ٢٧).

ابن بطوطة في مصر

الاسكندرية ـ ثم وصلنا في أول جمادى الأولى إلى مدينة الاسكندرية (حرسها الله)، وهي الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشأن، الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين. كرمت مغانيها، ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها فهي الفريدة تجلى سناها، والخريدة تجلى في حلاها، الزاهية بجمالها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها اجتلاؤها، وكل طرفة فاليها انتهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا في عجائبها فأغربوا (١ / ٢٧ ـ ٢٨).

ومدينة دمياط على شاطىء النيل، وأهل الدور الموالية له يستبقون منه الماء بالدلاء، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل. وشجر الموز بها كثير، يحمل ثمره إلى مصر في المراكب، وغنمها سائمة هملاً بالليل والنهار، ولهذا يقال في دمياط، سورها حلوى وكلابها غنم. وإذا دخلها احد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالي: فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كآغد يستظهر به لحراس بابها، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به. والطير البحري بهذه المدينة كثير متناهي السمن. وبها الالبان الجاموسية التي لا مثيل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق. وبها الحوت البوري يحمل منها إلى الشام وبلاد الروم ومصر (١ / ٥٩).

مصر ـ وهي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الاوتاد، ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة، المتناهية في كثرة العمارة المتباهية في الحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف. تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها. شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد. قهرت قاهرتها الأمم، وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم. ولها خصوصية النيل التي جل خطرها، واغناها عن ان يستمد القطر قطرها. وارضها مسيرة شهر لمجد السير، كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة. ويقال إن بمصر من السقائين على الجمال إثنى عشر ألف سقاء، وإن بها ثلاثين الف مكار، وإن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الفاً للسلطان والرعية، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق. وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة، وهو مكان النزهة والتفرج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة. واهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو، شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر اصاب يده، فزين كل اهل سوق سوقهم، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير، وبقوا على ذلك أياماً (١ / ٦٦ ـ ٧٠).

المدارس المصرية ـ واما المدارس بمصر فلا يحيط احد بحصرها لكثرتها. واما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد اعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، ويذكر ان مجباه الف دينار كل يوم. واما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة، والامراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء واكثرهم الاعاجم، وهم اهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف، ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب. ومن عاداتهم في الطعام أنه يأتي خادم الزاوية إلى الفقراء صباحاً، فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام، فإذا اجتمعوا للأكل، جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه في اناء على حدة لا يشاركه فيه احد. وطعامهم مرتان في اليوم، ولهم كسوة الشتاء، وكسوة الصيف، ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين. ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة، والصابون لغسل اثوابهم، والأجرة لدخول الحمام، والزيت للاستصباح. وهم اعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة. ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية. ومن عاداتهم ان يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به. وإذا صلوا صلاة الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة، فيأخذ كل فقير جزءاً ويختمون القرآن ويذكرون. ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر.

ومن عاداتهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية، فيقف به مشدود الوسط، وعلى كاهله سجادة، وبيمناه العكاز، وبيسراه الإبريق، فيعلم البواب خادم الزاوية بمكانه، فيخرج إليه ويسأله من أي البلاد أتى؟ وبأي الزوايا نزل في طريقه؟ ومن شيخه؟ فإذا عرف صحة قوله، ادخله الزاوية وفرش له سجادته في موضع يليق به، وأراه موضع الطهارة، فيجدد الوضوء، ويأتي إلى سجادته فيحل وسطه ويصلي ركعتين، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم. ومن عاداتهم أنه إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم، فيذهب بها إلى المسجد، ويفرشها لهم هنالك، ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم، فيأتون المسجد، ويصلي كل واحد على سجادته، فإذا فرغوا من الصلاة قرءوا القرآن على عادتهم، ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم (١ / ٧٠ ـ ٧٤).

ابن بطوطة في ديار الشام

وقصدت بلاد الشام، وذلك في منتصف شعبان سنة ست وعشرين، فوصلت إلى مدينة بلبيس وهي مدينة كبيرة، ذات بساتين كثيرة، ولم ألق بها من يجب ذكره. ثم وصلت إلى الصالحية، ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها. وبكل منزل منها فندق، وهم يسمونه الخان، ينزله المسافرون بدوابهم، وبخارج كل خان ساقية للسبيل، وحانوت يشتري منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته. ومن منازلها قطيا المشهورة، والناس يبدلون الفها هاء تأنيث، وبها تؤخذ الزكاة من التجار، وتفتش أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشد البحث. وفيها الدواوين والعمال، والكتاب والشهود، ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب. ولا يجوز عليها احد من الشام إلا ببراءة من مصر، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام احتياطاً على اموال الناس، وتوقياً من الجواسيس العراقيين. وطريقها في ضمان العرب، وقد وكلوا بحفظه، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر، ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل، فإن وجد به اثراً طالب العرب باحضار مؤثره، فيذهبون في طلبه. فلا يفوتهم، فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء. وكان بها في عهد وصولي إليها عز الدين استاذ الدار اقماري، من خيار الامراء، أضافني وأكرمني، وأباح الجواز لمن كان معي. ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة، وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر، متسعة الاقطار، كثيرة العمارة، حسنة الأسواق، بها المساجد الكثيرة، والأسوار عليها. (١ / ١١١ ـ ١١٤).

ثم سافرت إلى مدينة الرملة (وهي فلسطين) مدينة كبيرة، كثيرة الخيرات، حسنة الأسواق، وبها الجامع الأبيض، ويقال إن في قبلته ثلثمائة من الأنبياء (عليهم السلام) مدفونين، وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسي، ثم خرجت منها إلى مدينة نابلس، وهي مدينة عظيمة كثيرة الاشجار، مطردة الأنهار، من اكثر بلاد الشام زيتوناً، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق، وبها تصنع حلواء الخروب، وتجلب إلى دمشق

وغيرها. وكيفية عملها أن يطبخ الخروب ثم يعصر، ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء. ويجلب ذلك الرب أيضاً إلى مصر والشام. وبها البطيخ المنسوب إليها، وهو طيب عجيب. والمسجد الجامع في نهاية من الاتقان والحسن، في وسطه بركة ماء عذب.

ثم سافرت منها إلى مدينة عجلون، وهي مدينة حسنة، لها أسواق كثيرة، وقلعة خطيرة، ويشقها نهر ماؤه عذب. ثم سافرت منها بقصد اللاذقية، فمررت بالغور، وهو واد بين تلال، به قبر أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة (رضي الله عنه). زرناه، وعليه زاوية فيها الطعام لابناء السبيل. وبتنا هنالك ليلة، ثم وصلنا إلى القصير، وبه قبر معاذ بن جبل (رضي الله عنه)، تبركت أيضاً بزيارته، ثم سافرت على الساحل، فوصلت إلى مدينة عكة وهي خراب. وكانت عكة قاعدة بلاد الافرنج بالشام، ومرسى سفنهم. وتشبه قسطنطينية العظمى. ثم سافرت منها إلى مدينة صور وهي خراب، وبخارجها قرية معمورة. ومدينة صور هي التي كان يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهات، ولها بابان: احدهما للبر، والثاني للبحر. ولبابها الذي يشرع للبر أربع فصلات، كلها في ستائر محيطة بالباب. وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين. وبناؤها ليس في بلاد الدنيا اعجب ولا اغرب شأناً منه، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهات، وعلى الجهة الرابعة سور، تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك. وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة، لا سبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج، إلا بعد حطها. وكان عليها الحراس والأمناء، فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج إلا على علم منهم. وكان لعكة أيضاً ميناء مثلها، ولكنه لم يكن يحمل إلا السفن الصغار.

ثم سافرت منها إلى مدينة صيداء، وهي على ساحل البحر، حسنة كثيرة الفواكه، يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر. نزلت عند قاضيها كمال الدين الاشموني المصري، وهو حسن الاخلاق كريم النفس. ثم سافرت منها إلى مدينة طبرية، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة، ولم يبق منها إلا رسوم تنبىء عن ضخامتها وعظم شأنها، وبها الحمامات العجيبة. ثم سرنا إلى مدينة بيروت، وهي صغيرة حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن، وتجلب منها إلى ديار مصر الفواكه والحديد. ثم وصلت إلى مدينة طرابلس، وهي احدى قواعد الشام، وبلدانها الضخام. تخترقها الأنهار، وتحف بها البساتين والأشجار، ويكنفها البحر بمرافقه العميمة، والبر بخيراته المقيمة. ولها الأسواق العجيبة، والمسارح الخصيبة، والبحر على ميلين منها، وهي حديثة البناء. وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر، فلما استرجعها الملك الظاهر خربت، واتخذت هذه الحديثة. وبهذه المدينة نحو أربعين من امراء الأتراك، وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الامراء، ومسكنه بالدار المعروفة

بدار السعادة. ومن عاداته أن يركب في كل يوم اثنين وخميس، ويركب معه الأمراء والعساكر، ويخرج إلى ظاهر المدينة، فإذا عاد إليها وقارب الوصول إلى منزله، ترجل الامراء ونزلوا عن دوابهم، ومشوا بين يديه، حتى يدخل منزله، وينصرفون. وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم، وتوقد المشاعل.

ثم سافرت من طرابلس إلى حصن الاكراد، وهو بلد صغير كثير الأشجار بأعلى تل، وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمي، نسبة إلى بعض كبراء الامراء، ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه. ثم سافرت إلى مدينة حمص، وهي مدينة مليحة، ارجاؤها مونقة، واشجارها مورقة، وانهارها متدفقة، واسواقها فسيحة الشوارع، وجامعها متميز بالحسن الجامع، وفي وسطه بركة ماء. وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم. وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله، وعليه زاوية ومسجد، ثم سافرت منها إلى مدينة حماه، احدى امهات الشام الرفيعة، ومدائنها البديعة، ذات الحسن الرائق، والجمال الفائق، تحف بها البساتين والجنات، عليها النواعير كالافلاك الدائرات، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي. ولها ربض سمى بالمنصورية، اعظم من المدينة، فيه الاسواق الحافلة والحمامات الحسان. وبحماة الفواكه الكثيرة، ومنها المشمش اللوزي، إذا كسرت نواته وجدت في داخلها لوزة حلوة. ثم سافرت إلى مدينة المعرة التي ينسب إليها الشاعر ابو العلاء المعري وكثير سواه من الشعراء. والمعرة مدينة كبيرة حسنة، اكثر شجرها التين والفستق، ومنها يحمل إلى مصر والشام. ثم سرنا منها إلى مدينة سرمين، وهي حسنة كثيرة البساتين، واكثر شجرها الزيتون. وبها يصنع الصابون الآجرى، ويجلب إلى مصر والشام. ويصنع بها أيضاً الصابون المطيب، لغسل الأيدي، ويصبغونه بالحمرة والصفرة، ويصنع بها ثياب قطن حسان، تنسب إليها (١ / ١٢٧ ـ ١٤٦).

حلب: ينقل ابن بطوطة وصف ابن جبير لحلب ثم يضيف إلى ذلك ـ وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع، وإتقان الترتيب واتساع الأسواق، وانتظام بعضها ببعض. وأسواقها مسقوفة بالخشب، فأهلها دائماً في ظل ممدود. ومسجدها الجامع من اجمل المساجد، في صحنه بركة ماء، ويطيف به بلاط عظيم الاتساع، ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والابنوس، وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع، واتقان الصنعة، تنسب لأمراء بني حمدان، وبالبلد سواها ثلاث مدارس، وبها مارستان. واما خارج المدينة فهو بسيط افيح، عريض، به المزارع العظيمة، وشجرات الاعناب منتظمة به (١ / ١٥١ ـ ١٥٢).

بعلبك: ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك، وهي حسنة قديمة من اطيب مدن الشام، تحدق بها البساتين الشريفة، والجنات المنيفة، وتخترق أرضها الأنهار الجارية، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية، وبها يصنع الدبس المنسوب إليها،

وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب، ولهم تربة يضعونها فيه، فيجمد، وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن. ويسمونها أيضاً بجلد الفرس. وهي كثيرة الألبان وتجلب منها إلى دمشق، وبينهما مسيرة يوم للمجد، واما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني، كثيرة الفواكه، ويغدون منها إلى دمشق. ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة إليها من الاحرام وغيره، ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد، وهم يسمون الصحاف بالدسوت، وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة اخرى تسع في جوفها أخرى إلى أن يبلغوا العشر، يخيل لرائيها انها صحفة واحدة. وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرا واحدة في جوف واحدة، ويصنعون لها غشاء من جلد، ويمسكها الرجل في حزامه. وإذا حضر طعاماً مع اصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة، ثم يخرج من جوفها تسعا (١ / ١٨٥ ــ ١٨٦).

في دمشق ـ ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم، عام ستة وعشرين إلى مدينة دمشق الشام، فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية، ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً. وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها، ولا أبدع مما قاله أبو الحسين ابن جبير. واهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً، انما يخرجون إلى المنتزهات وشطوط الأنهار، ودوحات الأشجار، بين البساتين النضرة، والمياه الجارية، فيكونون بها يومهم إلى الليلة (١ / ١٨٧ ـ ١٩٧).

جامع بني امية ـ وهو اعظم مساجد الدنيا احتفالاً واتقنها صناعة، وابدعها حسناً وبهجة وكمالاً، ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه. وذكر لي أن فوائد مستغلات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهب في كل سنة.

وفي هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه، مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك، ويتوضئون من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية.. وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير ان يسألوهم شيئاً من ذلك. وفي هذا المسجد اربعة ابواب: باب قبلي يعرف بباب الزيادة، وبأعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد (رضي الله عنه). ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين ومنه يذهب إلى دار الخيل. وعلى يسار الخارج منه سماط الصفارين، وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي، من احسن اسواق دمشق. وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) ودور قومه، وكانت تسمى الخضراء، فهدمها بنو العباس (رضي الله عنهم) وصار

مكانها سوقاً. وباب شرقي وهو أعظم ابواب المسجد، ويسمى بباب جيرون، وله دهليز عظيم يخرج منه إلى بلاط عظيم طويل وبجانبي هذا الدهليز اعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم، وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع اواني الزجاج العجيبة. وفي الرحة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود، منها دكانان للشافعية، وسائرها لاصحاب المذاهب، يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول، والعاقد للزواج من قبل القاضي. وسائر الشهود مفترقون في المدينة، وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد. وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات، غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة، لها ابواب على عدد ساعات النهار. والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة، فإذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهراً والظاهر الأصفر باطناً. ويقال إن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات. والباب الغربي يعرف بباب البريد، وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية، وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه.

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة. وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساءً، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد، يلقن الصبيان ويقرأهم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيها لكتاب الله (تعالى)، وإنما يقرأون القرآن تلقينا. ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الاشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جاد خطه، لأن المعلم للخط لا يعلم غيره (١ / ١٩٧ ـ ٢١٣).

الطاعون بدمشق: شاهدت ايام الطاعون الأعظم بدمشق في أواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين، من تعظم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه: وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه، أمر منادياً ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة ايام، ولا يطبخ احد بالسوق ما يؤكل نهاراً، واكثر الناس بها إنما يأكلون الطعام الذي يصنع بالسوق، فصام الناس ثلاثة ايام متوالية كان آخرها يوم الخميس، ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع، حتى غص بهم، وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصل وذاكر وداع، ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعاً على اقدامهم وبأيديهم المصاحف، والامراء حفاة، وخرج جميع أهل البلد ذكوراً واناثاً، صغاراً وكباراً، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان، وجميعهم باكين متضرعين متوسلين إلى الله بكتبه وانبيائه، وقصدوا مسجد الاقدام، واقاموا به في تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال، وعادوا إلى البلد، فصلوا

الجمعة. وخفف الله تعالى عنهم بعدما انتهى عدد الموتى إلى الفين في اليوم الواحد (١ / ٢٢٧ ـ ٢٢٩).

الأوقاف بدمشق: والأوقاف بدمشق لا تحصر انواعها ومصارفها لكثرتها. فمنها اوقاف على العاجزين عن الحج، يعطاها من يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها اوقاف تجهيز البنات إلى ازواجهن، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها اوقاف لفكاك الاسارى، ومنها اوقاف لأبناء السبيل، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها، لأن ازقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك، ومنها اوقاف لسوى ذلك من افعال الخير.

مررت يوماً ببعض أزقة دمشق، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن فتكسرت، واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: «اجمع شقفها واحملها معك لصاحب اوقاف الأواني»، فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال، فان سيد الغلام لا بد له ان يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك. فكان هذا الوقف جبراً للقلوب. جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا.

وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد، وهم يحسنون الظن بالمغاربة، ويطمئنون إليهم بالأموال والاهلين والأولاد. وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له وجه من المعاش: من امامة مسجد، أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه، أو قراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسو.، فمن كان بها غريباً على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه، محفوظاً عما يزري بالمروءة. ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أُخر من حراسة بستان، أو أمانة طاحونة، أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح. ومن اراد طلب العلم او التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك.

ومن فضائل أهل دمشق انه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة.. فمن كان من الامراء والقضاة والكبراء، فانه يدعو اصحابه والفقراء يفطرون عنده. ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك. ومن كان من الضعفاء والبادية، فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار احدهم أو في مسجد، ويأتي كل احد بما عنده، فيفطرون جميعاً (١ / ٢٣٧ ـ ٢٤١).

ابن بطوطة في الحجاز

طيبة مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وشرف وكرم، وفي عشى ذلك اليوم، دخلنا الحرم الشريف وانتهينا إلى المسجد الكريم، فوقفنا بباب السلام مسلمين. وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حن إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، هي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة. وأدينا حق السلام على سيد الأولين والآخرين، وشفيع العصاة والمذنبين، الرسول النبي الهاشمي الأبطحي، محمد (صلى الله عليه وسلم) تسليماً، وشرف وكرم، وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وأبي حفص عمر الفاروق (رضي الله عنهما).. وانصرفنا إلى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى، مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى، حامدين الله تعالى على البلوغ إلى معاهد رسوله الشريفة، ومشاهده العظيمة المنيفة، داعين الا يجعل ذلك آخر عهدنا بها، وان يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت في سبيل الله سفرته.

والمسجد المعظم مستطيل، تحف به من جهاته الأربع بلاطات دائرة به، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل. ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت.. والروضة المقدسة (صلوات الله وسلامه على ساكنها) في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم.. وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله، وهي مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الأزمان. وفي الصفحة القبلية منها مسمار فضة، هو قبالة الوجه الكريم. وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم، مستدبرين القبلة، فيسلمون، وينصرفون يميناً إلى وجه أبي بكر الصديق. ورأس أبي بكر (رضي الله عنه) عند قدمي رسول الله (صلى الله عليه وسلم). ثم ينصرفون إلى عمر بن الخطاب. ورأس عمر عند كتفي أبي بكر (رضي الله عنهما). وفي الجوف من الروضة المقدسة زادها الله طيباً، حوض صغير مرخم في قبلته شكل محراب، يقال إنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم تسليماً)، ويقال أيضاً: هو قبرها والله اعلم (١ / ٢٦١ ـ ٢٦٤).

خدام المسجد الشريف: وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الاحابيش وسواهم. وهم على هيئات حسان وصور نظاف وملابس ظراف. وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام، وهو في هيئة الامراء الكبار، ولهم المرتبات بديار مصر والشام، ويؤتى اليهم بها في كل سنة. ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطري، من مطرية، قرية بمصر، وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله، والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي (١ / ٢٧٨ ــ ٢٧٩).

الطريق إلى مكة: وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة (شرفهما الله تعالى). فنزلنا بقرب مسجد ذي الحليفة الذي احرم منه رسول الله (صلى الله عليه وسلم تسليماً) والمدينة منه على خمسة اميال، وهو منتهى حرم المدينة. وبالقرب منه وادي العقيق. وهناك تجردت من مخيط الثياب، واغتسلت ولبست ثوب احرامي وصليت ركعتين، واحرمت بالحج مفرداً. ولم ازل ملبياً في كل سهل وجبل وصعود وحدور، إلى أن أتيت شعب علي (عليه السلام)، وبه نزلت تلك الليلة. ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء، وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم، ويقال إن عليا (عليه السلام) قاتل بها الجن. ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء، وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان، وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم، وفيها حصن كبير، وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة. ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله (صلى الله عليه وسلم تسليماً)، وانجز وعده الكريم واستأصل صناديد المشركين. وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة، وبها حصن منيع، يدخل إليه من بطن واد بين جبال. وببدر عين فوارة يجري ماؤها. وموضع القليب الذي سحب اعداء الله المشركون، هو اليوم بستان، وموضع الشهداء (رضي الله عنهم) خلفه. وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء. وبازائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل ممتد. ويزعم أهل تلك البلدة أنهم يسمعون هنالك مثل اصوات الطبول في كل ليلة جمعة. وموضع عريش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى متصل بسفح جبل الطبول، وموضع الوقيعة امامه. وعند نخل القليب مسجد يقال له مبروك ناقة النبي (صلى الله عليه وسلم تسليماً). وبين بدر والصفراء نحو بريد في واد بين جبال تطرد فيه العيون، وتتصل حدائق النخيل.

ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع البزواء، وهي برية يضل بها الدليل، ويذهل عن خليله الخليل، مسيرة ثلاث، وفي منتهاها وادي رابغ، يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زماناً طويلاً. ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة. وسرنا من رابغ ثلاثا إلى خليص، ومررنا بعقبة السويق، وهي على مسافة نصف يوم من خليص، كثيرة الرمل، والحجاج يقصدون شرب السويق بها، ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك، ويسقونه الناس مخلوطاً بالسكر. والأمراء يملأون منه الأحواض ويسقونها الناس. ثم نزلنا بركة خليص وهي في بسيط من الأرض كثيرة حدائق النخل، لها حصن مشيد في قنة جبل. وفي البسيط حصن خرب، وبها عين فوارة، قد صنعت لها اخاديد في الأرض وسربت إلى الضياع. وصاحب خليص شريف حسنى النسب. وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقاً عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر والأدام.

ثم رحلنا الى عسفان وهي في بسيط من الأرض بين جبال، وبها آبار ماء معين، تنسب احداها إلى عثمان بن عفان (رضي الله عنه). والمدرج المنسوب إلى عثمان أيضاً على مسافة نصف يوم من خليص، وهو مضيق بين جبلين، وفي موضع منه بلاط على صورة درج، واثر عمارة قديمة. وهنالك بئر تنسب إلى علي (عليه السلام)، ويقال انه احدثها. وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد، قد أوهنه الخراب، وبه من شجر المقل كثير، ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مر الظهران، وهو واد مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقي تلك الناحية. ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر إلى مكة (شرفها الله تعالى). ثم أدلجنا من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها، مسرورة بحالها ومآلها، فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة (شرفها الله تعالى)، فوردنا منها على حرم الله ومبوأ خليله ابراهيم، ومبعث صفيه محمد (صلى الله عليه وسلم). ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمناً، من باب بني شيبة، وشاهدنا الكعبة الشريفة (زادها الله تعظيماً). وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال، وترفل في برود الجمال، محفوفة بوفود الرحمن. موصلة إلى جنة الرضوان. وطفنا بها طواف القدوم، واستلمنا الحجر الكريم، وصلينا ركعتين بمقام إبراهيم، وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم، بين الباب والحجر الأسود، حيث يستجاب الدعاء. وشربنا من ماء زمزم، وهو لما شرب له، على ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، ثم سعينا بين الصفا والمروة، ونزلنا هنالك بدار بمقربة من باب إبراهيم. والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم، وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل (عليه الصلاة والتسليم)، ومتع اعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم، وزمزم والحطيم. ومن عجائب صنع الله (تعالى) انه طبع القلوب على النزوع الى هذه المشاهد المنيفة، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حبها متمكناً في القلوب فلا يحل بها أحد إلا اخذت بمجامع قلبه، ولا يفارقها إلا آسفا لفراقها متولها لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناوياً تكرار الوفادة عليها. فارضها المباركة نصب الأعين ومحبتها حشو القلوب، حكمة من الله بالغة، وتصديقاً لدعوة خليله (عليه السلام). والشوق يحضرها وهي نائية، ويمثلها وهي غائبة، ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق، ويعانيه من العناء. وكم من ضعيف يرى الموت لها دونها، ويشاهد التلف في طريقها. فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسروراً مستبشراً، كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصباً! إنه لأمر الهي وصنع رباني، ودلالة لا يشوبها لبس، ولا تغشاها شبهة، ولا يطرقها تمويه، وتعز في بصيرة المستبشرين، وتبدو في فكر المتفكرين، ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء، والمثول بذلك الفناء، فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى، وخوله خير الدارين: الدنيا والأخرى. فحق عليه أن يكثر الشكر على ما خوله، ويديم الحمد على ما اولاه. جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته،

وربحت في قصدها تجارته، وكتبت في سبيل الله اثاره، ومحيت بالقبول اوزاره بمنه وكرمه (١ / ٢٩٤ ـ ٣١٣).

مكة المعظمة ـ وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان، مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها. وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ.

الكعبة المعظمة الشريفة (زادها الله تعظيماً وتكريماً).

والكعبة ماثلة في وسط المسجد وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعاً، ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعاً، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبراً، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني إلى الركن الشامي. وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية واربعون شبراً، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي إلى الركن العراقي. واما خارج الحجر فانه مائة وعشرون شبراً. والطواف إنما هو خارج الحجر. وبناؤها بالحجارة الصم السمر، قد الصقت بابدع الالصاق واحكمه واشده. فلا تغيرها الأيام ولا تؤثر فيها الأزمان. وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الأسود والركن العراقي، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة اشبار. وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء. وارتفاع الباب عن الأرض احد عشر شبراً ونصف شبر، وسعته ثمانية اشبار، وطوله ثلاثة عشر شبراً، وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة اشبار، وهو مصفح بصفائح الفضة، بديع الصنعة، وعضاداته وعتبته العليا مصفحات بالفضة. ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة، ويفتح في يوم مولد رسول الله (صلى الله عليه وسلم تسليماً). ورسمهم في فتحه أن يضعوا كرسياً شبه المنبر له درج وقوائم خشب، لها اربع بكرات يجري الكرسي عليها، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة، فيكون درجه الأعلى متصلاً بالكعبة الكريمة، ثم يصعد الشيبيين وبيده المفتاح الكريم، ومعه السفنه، فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع، بخلال ما يفتح رئيسهم الباب، فإذا فتحه قبل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده، وسد الباب، واقام قدر ما يركع ركعتين. ثم يدخل سائر الشيبيين، ويسدون الباب ويركعون، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول، وفي اثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بابصار خاشعة، وقلوب ضارعة، وأيد مبسوطة إلى الله تعالى. فإذا فتح كبروا ونادوا: اللهم افتح لنا ابواب رحمتك ومغفرتك يا ارحم الراحمين. وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك، وله اعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج، بين كل عمود

منها وبين الآخر أربع خطى. وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين العراقي والشامي. وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض، وهي تتلألأ عليها نوراً واشراقاً، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض. ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها إلا الله الذي خلقهم ورزقهم، فيدخلونها أجمعين لا تضيق عنهم. ومن عجائبها أنها لا تخلو من طائف ابداً ليلاً ولا نهاراً، ولم يذكر احد أنه رآها قط دون طائف. ومن عجائبها أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران، وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله، فإذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها (١ / ٣٠٣ ـ ٣١٢).

أهل مكة وفضائلهم ـ ولأهل مكة الأفعال الجميلة، والمكارم التامة، والاخلاق الحسنة، والايثار للضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنهم متى صنع احدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم، فإذا طبخ احدهم خبزه واحتمله إلى منزله يتبعه المساكين، فيعطي كل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة، فانه يعطي ثلثها أو نصفها، طيب النفس بذلك من غير ضجر. ومن افعالهم الحسنة أن الايتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفتان: كبرى وصغرى، وهم يسمون القفة مكتلا، فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق، فيشتري الحبوب واللحم والخضر، ويعطي ذلك الصبي، فيجعل الحبوب في احدى قفتيه، واللحم والخضر في الأخرى، ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يذكر احداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط، بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه. ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس. وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس. واكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيراً، ويكتحلون، ويكثرون السواك بعيدان الاراك الأخضر. ونساء مكة فائقات الحسن. بارعات الجمال، ذوات صلاح وعفاف. وهن يكثرن التطيب، حتى ان احداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً. وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة، فيأتين في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً. ولأهل مكة عادات حسنة في الموسم وغيره (١ / ٣٤٤ ـ ٣٤٧).

عادات أهل مكة في شهر رمضان المعظم ـ وإذا هل هلال رمضان تضرب الطبول عند أمير مكة، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام، من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل، حتى يتلألأ الحرم نوراً، ويسطع بهجة واشراقاً، وتتفرق الائمة فرقاً وهم

الشافعية، والحنفية، والحنبلية، والزيدية. وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع. ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارىء يصلي بجماعته، فيرتج المسجد لأصوات القراء، وترق النفوس، وتحضر القلوب، وتهمل الاعين. ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة في الحجر منفرداً. والشافعية اكثر الأئمة اجتهاداً. وعاداتهم أنهم إذا اكملوا التراويح المعتادة (وهي عشرون ركعة) يطوف إمامهم وجماعته، فإذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقعة التي ذكرنا أنها تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة، وكان ذلك اعلاماً بالعودة إلى الصلاة، ثم يصلي ركعتين، ثم يطوف اسبوعاً، هكذا إلى ان يتم عشرين ركعة أخرى. ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون. وسائر الأئمة لا يزيدون عن العادة شيئاً. وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسحير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم، فيقوم داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور، والمؤذنون في سائر الصوامع، فإذا تكلم احد منهم اجابه صاحبه. وقد نصبت في أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان، من الزجاج كبيران يوقدان. فإذا قرب الفجر، حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالآذان، وأجاب بعضهم بعضاً.

ولديار مكة (شرفها الله) سطوح، فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر، حتى إذا لم يبصرهما اقلع عن الأكل. وفي كل ليلة وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن، ويحضر الختم القاضي والفقهاء الكبراء من أهل مكة. فإذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير، وأوقد الشمع، وخطب. فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله، فاطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات. وكذلك يصنعون في جميع ليالي الوتر. واعظم تلك الليالي، عندهم ليلة سبع وعشرين، واحتفالهم لها اعظم من احتفالهم لسائر الليالي، ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم. وتقام ازاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم، وتعرض بينها الواح طوال، وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقناديل الزجاج، فيكاد يعشي الأبصار شعاع الأنوار. ويتقدم الامام فيصلي فريضة العشاء الأخيرة، ثم يبتدىء بقراءة سورة القدر، وإليها يكون انتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها. وفي تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيماً لختمة المقام، ويحضرونها متبركين، فيختم الإمام في تسليمتين، ثم يقوم خطيبًا مستقبل المقام، فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم، وانفض الجمع. ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المقام المالكي في منظر مختصر، وعن المباهاة منزه موقر (١ / ٢٨٨ ـ ٢٩٣).

ابن بطوطة في العراق وفارس

بين الحجاز والعراق ـ في الموافق عشرين لذى الحجة خرجت من مكة في صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحويح، وهو من أهل الموصل، في جمع من

العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم لا يحصى عديدهم، تموج بهم الأرض موجاً، ويسيرون سير السحاب المتراكم. فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس. وفي هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء، وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض. وإذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت، وأُطعم منها ابناء السبيل ومن لا زاد معه. وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي، كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه. وفي هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة وانواع الأطعمة والفواكه. وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل، فترى الأرض تتلألأ أنواراً، والليل قد عاد نهاراً ساطعاً (١ / ٤٠٤ ـ ٤٠٦).

ثم نزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بالنجف، وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة، من احسن مدن العراق واكثرها ناساً واتقنها بناء، ولها أسواق حسنة نظيفة.. دخلناها من باب الحضرة، فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين، ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين ثم سوق العطارين ثم باب الحضرة وبإزائه المدارس والزوايا والخوانق، معمورة احسن عمارة، وحيطانها بالقاشاني. ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة، ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة ايام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم. ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة، وعلى بابها الحجاب والنقباء. فعندما يصل الزائر يقوم إليه احدهم أو جميعهم (وذلك على قدر الزائر)، فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له، ويقولون: عن أمركم يا أمير المؤمنين، هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية، فان اذنتم له وإلا رجع، وإن لم يكن اهلاً لذلك فأنتم اهل المكارم والستر. ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك العضادتان. ثم يدخل القبة، وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه، وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار. وفي وسط القبة مصطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل، مسمرة بمسامير الفضة، قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه أي شيء. وارتفاعها دون القامة. وفوقها ثلاثة من القبور، يزعمون ان احدها قبر آدم (عليه الصلاة والسلام). والثاني قبر نوح (عليه الصلاة والسلام)، والثالث قبر علي (رضي الله تعالى عنه)، وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب، يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركا. وللقبة باب آخر عتبته أيضاً من الفضة، وعليه ستور من الحرير الملون، يفضي إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان، مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير، وله اربعة ابواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير (١ / ٤١٤ ـ ٤١٩).

ولما تمت لنا زيارة أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، سافر الركب إلى بغداد، وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة. وهم أهل تلك البلاد، ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد، ولا سبيل للسفر في تلك الأقطار إلا في صحبتهم. فاكتريت جملاً على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجي. ثم وصلنا مدينة واسط. وهي حسنة الأقطار، كثيرة البساتين والأشجار. واهلها من خيار أهل العراق، بل هم خيرهم على الاطلاق، اكثرهم يحفظون القرآن ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة، وإليهم يأتي أهل بلاد العراق لتعلمه. وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا لتجويد القرآن على من بها من الشيوخ. وبها مدرسة عظيمة حافلة، فيها نحو ثلثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن، عمَّرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي، وهو من كبار أهلها وفقهائها. ويعطى كل متعلم بها كسوة في السنة، ويجرى له نفقته في كل يوم، ويقعد هو واخوانه واصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة. وقد لقيته واضافني وزودني تمراً ودراهم، ولما نزلنا مدينة واسط اقامت القافلة ثلاثا بخارجها للتجارة. (٢/١ ـ ٤).

مدينة البصرة ـ وكنت رأيت عند قدومي عليها على نحو ميلين منها بناء عالياً مثل الحصن، فسألت عنه فقيل لي هو مسجد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد في وسطها، وبينه الآن وبينها ميلان، وكذلك بينه وبين السور الأول المحيط بها نحو ذلك، فهو متوسط بينهما. ومدينة البصرة احدى امهات العراق، الشهيرة الذكر في الآفاق، الفسيحة الأرجاء، المونقة الأفناء. ذات البساتين الكثيرة، والفواكه الأثيرة، توافر قسمها من النضارة والخصب، لما كانت مجمع البحرين الأجاج والعذب. وليس في الدنيا اكثر نخلاً منها، فيباع التمر في سوقها بحساب أربعة عشر رطلاً عراقية بدرهم. ولقد بعث إلي قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف، فأردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم، اخذ الحمال منها ثلثها عن اجرة حملها من المنزل إلى السوق. ويصنع بها من التمر عسل طيب. والبصرة ثلاث محلات: احداها محلة هذيل، وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير، من الكرماء الفضلاء، اضافني وبعث إلي بثياب ودراهم. والمحلة الثانية محلة بني حرام، كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسني ذو مكارم وفواضل، اضافني وبعث إلي التمر والدراهم. والمحلة الثالثة محلة العجم، كبيرها جمال الدين بن اللوكي. وأهل البصرة لهم مكارم اخلاق واياس للغريب وقيام بحقه، فلا يستوحش فيما بينهم غريب. وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه) الذي ذكرته، ثم يسد فلا يأتونه إلا في الجمعة. وهذا المسجد من أحسن المساجد، وصحنه متناهي الانفساح.

ثم ركبت من ساحل البصرة في (صنبوق) وهو القارب الصغير، إلى الأبلة، وبينها وبين البصرة عشرة اميال، في بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار، والباعة في ظلال الأشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه. وفيما بين البصرة والأبلة متعبد سهل بن عبد الله التستري، فإذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادي، ويدعون عند ذلك تبركاً بهذا الولي (رضي الله عنه). وكانت الأبلة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس، فخربت، وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمها (٢ / ٨ ـ ١٨).

شيراز ـ وهي مدينة اصيلة البناء، فسيحة الأرجاء شهيرة الذكر، منيفة القدر. لها البساتين المونقة، والأنهار المتدفقة، والأسواق البديعة، والشوارع الرفيعة. وهي كثيرة العمارة، متقنة المباني، عجيبة التركيب، وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم. وأهلها حسان الصور نظاف الملابس. وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن اسواقها وبساتينها وانهارها وحسن صور ساكنيها إلا شيراز. وهي في بسيط من الأرض تحف بها البساتين من جميع الجهات، وتشقها خمسة انهار. ومسجدها الأعظم يسمى بالمسجد العتيق، وهو من أكبر المساجد ساحة واحسنها بناء. وصحنه متسع مفروش بالمرمر، ويغسل في أوان الحر كل ليلة، ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كل عشية، ويصلون به المغرب والعشاء. وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضي إلى سوق الفاكهة، وهي من ابدع الأسواق، وأنا اقول بتفضيلها على سوق باب البريد من دمشق (٢ / ٥٢ ـ ٥٣).

ترتيب ملك العراق في رحيله ـ ثم خرجت من بغداد (نقل ابن بطوطة وصفها عن ابن جبير) في محلة السلطان أبي سعيد، وغرضي أن اشاهد ترتيب ملك العراق في رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره. وعاداتهم أنهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحا. وترتيبهم أنه يأتي كل أمير من الأمراء بعسكره وطبوله وأعلامه، فيقف في موضع لا يتعداه، قد عين له اما في الميمنة او الميسرة. فإذا توافوا جميعاً وتكاملت صفوفهم، ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وانقاره، وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد إلى موقفه. ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء، ثم يليهم أهل الطرب، وهم نحو مائة رجل عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان. وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول، وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات فيضربون تلك الأطبال والصرنايات، ثم يمسكون. ويغني عشرة من أهل الطرب نوبتهم. فإذا قضوها ضربت تلك الأطبال والصرنايات. ثم امسكوا، وغنى عشرة آخرون نوبتهم، هكذا إلى أن تتم عشر نوبات، فعند ذلك يكون النزول. ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الأمراء وهم نحو خمسين، ومن ورائه اصحاب الأعلام والأطبال والانقار والبوقات، ثم مماليك السلطان، ثم

الأمراء على مراتبهم. وكل أمير له أعلام وطبول وبوقات، ويتولى ترتيب ذلك كله أمير الجنادرة (٢ / ١٢٥ ـ ١٢٧).

مدينة الموصل ـ وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب، وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن، شهيرة الامتناع، عليها سور محكم البناء مشيد البروج، وتتصل بها دور السلطان، وقد فصل بينها وبين البلد شارع متصل مستطيل من أعلى البلد إلى اسفله. وعلى البلد سوران اثنان وثيقان ابراجهما كثيرة متقاربة، وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره. ولم أر في أسوار البلاد مثله إلا السور الذي على مدينة دهلي حضرة ملك الهند. وللموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق، وبه مسجد جامع على شط دجلة تدور به شبابيك حديد، وتتصل به مصاطب تشرف على دجلة، في النهاية من الحسن والاتقان، وامامه مارستان. وبداخل المدينة جامعان احدهما قديم، والآخر حديث. وقيسارية الموصل مليحة لها ابواب حديد، ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء (٢ / ١٣٤ ـ ١٣٦).

ابن بطوطة في الجزيرة العربية

مدينة زبيد ـ مدينة عظيمة باليمن، بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا وليس باليمن بعد صنعاء اكبر منها ولا اغنى من أهلها، واسعة البساتين، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره. وهي برية لا شطية، إحدى قواعد بلاد اليمن، مدينة كبيرة كثيرة العمارة، بها النخل والبساتين والمياه، املح بلاد اليمن واجملها، ولأهلها لطافة الشمائل وحسن الاخلاق وجمال الصور، ولنسائها الحسن الفائق الفائت. ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة. وذلك انهم يخرجون في ايام البسر والرطب في كل سبت إلى حدائق النخل، ولا يبقى بالمدينة احد من أهلها ولا من الغرباء، ويخرج أهل الطرب، وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات. ويخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل، ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائق والاخلاق الحسنة والمكارم. وللغريب عندهن مزية، ولا يمتنعن من تزوجه كما تفعله نساء بلادنا، فإذا اراد السفر خرجت معه وودعته، وان كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى ان يرجع أبوه، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها. وإذا كان مقيماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة، لكنهن لا يخرجن عن بلدهن ابداً، ولو اعطيت احداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل. وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وامانة ومكارم وحسن خلق (٢ / ١٦٦ ـ ١٦٩).

مدينة صنعاء ـ وانصرفت مسافراً إلى مدينة صنعاء، وهي قاعدة بلاد اليمن الأولى. مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع، معتدلة الهواء طيبة الماء. ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة

إنما ينزل في أيام القيظ، واكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان. فالمسافرون يستعجلون عند الزوال، لئلا يصيبهم المطر، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن امطارها وابلة متدفقة. ومدينة صنعاء مفروشة كلها، فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وانقاها. وجامع صنعاء من احسن الجوامع (٢ / ١٧٦ ـ ١٧٧).

مدينة عدن ـ ثم سافرت منها إلى عدن مدينة مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم. والجبال تحف بها، ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد. وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء، وبها صهاريج يجمع فيها الماء أيام المطر. والماء على بعد منها فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب. وهي شديدة الحر. وهي مرسي أهل الهند، تأتي إليها المراكب العظيمة، وتجار الهند ساكنون بها، وتجار مصر أيضاً. وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك. وللتجار منهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه، لايشاركه فيه غيره، لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة (٢ / ١٧٧ ـ ١٧٨).

مدينة ظفار الحموض ـ وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي، ومنها تحمل الخيل العتاق إلى الهند. ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند، مع مساعدة الريح، في شهر كامل. قد قطعته مرة من قالقوط من بلاد الهند إلى ظفار في ثمانية وعشرين يوماً بالريح الطيبة، لم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار. وبين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء. وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوماً، وبينها وبين عمان عشرون يوماً. ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها. والسوق خارج المدينة بريض يعرف بالحرجاء، وهي من اقذر الأسواق واشدها نتناً، واكثرها ذباباً، لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك. واكثر سمكها النوع المعروف بالسردين، وهو بها في النهاية من السمن. ومن العجائب أن دوابهم إنما علفها من هذا السردين، وكذلك غنمهم، ولم أر ذلك في سواها. وأكثر باعتها الخدم. وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء. وكيفية سقيهم أنهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالاً كثيرة، ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر، ويصبونها في صهريج يسقون منه. والأرز يجلب إليهم من بلاد الهند وهو اكثر طعامهم.

ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق في سواها. وهم أهل تجارة لا عيش لهم إلا منها. ومن عادتهم أنه إذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل وصعدوا في (صنبوق) إلى المركب ومعهم الكسوة الكاملة

لصاحب المركب أو وكيله، وللربان وهو الرئيس، ولكاتب المركب. وهم يفعلون ذلك استجلاباً لأصحاب المراكب. وهم أهل تواضع وحسن اخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء. ولباسهم القطن وهو يجلب إليهم من بلاد الهند. ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جداً (٢ / ١٩٦ ـ ١٩٩).

في الخليج العربي ـ وأكلت في ذلك المركب نوعاً من الطعام لم آكله قبله ولا بعده، صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة، طبخها من غير طحن، وصب عليها عسل التمر وأكلناه. ثم وصلنا إلى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب الذي كنا فيه، جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها إلا من السمك، ولم ننزل إليها لبعد مرساها عن الساحل. وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة. واقمنا بها يوماً، وتوجه صاحب المركب فيه إلى داره وعاد إلينا. ثم سرنا يوماً وليلة فوصلنا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور، ورأينا منها مدينة قلهات في سفح جبل، فخيل لنا أنها قريبة، وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال أو قبله. فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشي إليها والمبيت بها، وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب، فسألت عن طريقها فأخبرت أني أصل إليها عند العصر، فاكتريت أحد البحريين ليدلني على طريقها، وصحبني خضر الهندي، وتركت اصحابي مع ما كان لي بالمركب ليلحقوا بي في غد ذلك اليوم. واخذت اثواباً كانت لي فَدفعتها لذلك الدليل ليكفيني مؤنة حملها، وحملت في يدي رمحاً، فإذا ذلك الدليل يحب أن يستولي على أثوابي، فأتى بنا إلى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر، فأراد عبوره بالثياب فقلت له: إنما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا، فإن قدرنا على الجواز جزنا وإلا صعدنا نطلب المجاز، فرجع. ثم رأينا رجالاً جازوه عوماً، فتحققنا أنه كان قصده أن يفرقنا ويذهب بالثياب. فحينئذٍ أظهرت النشاط، وأخذت بالحزم وشددت وسطي، وكنت أهز الرمح، فهابني ذاك الدليل. وصعدنا حتى وجدنا مجازاً، ثم خرجنا إلى صحراء لا ماء بها، وعطشنا واشتد بنا الأمر، فبعث الله لنا فارساً في جماعة من اصحابه وبيد أحدهم ركوة ماء فسقاني وسقى صاحبي وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا، وبيننا وبينها خنادق تمشي فيها الأميال الكثيرة. فلما كان من العشي أراد الدليل ان يميل بنا إلى ناحية البحر، وهو لا طريق له لأن ساحله حجارة، فأراد أن ننشب فيها ويذهب بالثياب، فقلت له: إنما نمشي على هذه الطريق التي نحن عليها، وبينها وبين البحر نحو ميل. فلما أظلم الليل قال لنا: إن المدينة قريبة منا، فتعالوا نمشي حتى نبيت بخارجها إلى الصباح، فخفت أن يتعرض لنا احد في طريقنا، ولم احقق مقدار ما بقي إليها، فقلت له: إنما الحق ان نخرج عن الطريق فننام، فإذا اصبحنا أتينا المدينة (إن شاء الله).

كنت قد رأيت جملة من الرجال في سفح جبل هنالك، فخفت أن يكونوا لصوصاً،

وقلت: التستر أولى! وغلب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك، فخرجت عن الطريق، وقصدت شجرة من شجر أم غيلان، وقد أعييت وادركني الجهد، لكني أظهرت قوة وتجلداً خوف الدليل. وأما صاحبي فمريض لا قوة له، فجعلت الدليل بيني وبين صاحبي وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي، وأمسكت الرمح بيدي، ورقد صاحبي ورقد الدليل، وبقيت ساهراً، فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته أني مستيقظ. ولم نزل كذلك حتى أصبحنا، فخرجنا إلى الطريق، فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق إلى المدينة، فبعثت الدليل ليأتينا بماء وأخذ صاحبي الثياب، وكان بيننا وبين المدينة مهاو وخنادق، فأتانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحر.

ثم وصلنا إلى مدينة قلهات، فأتيناها ونحن في جهد عظيم، وكنت قد ضاقت نعلي على رجلي حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها. فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة أن قال لنا الموكل بالباب: لا بد لك أن تذهب معي إلى أمير المدينة ليعرف قضيتك، ومن أين قدمت؟ فذهبت معه إليه فرأيته فاضلاً حسن الاخلاق، وسألني عن حالي وانزلني، وأقمت عنده ستة ايام لا قدرة لي فيها على النهوض على قدمي لما لحقها من الآلام. ومدينة قلهات على الساحل، وهي حسنة الأسواق، ولها مسجد من أحسن المساجد، حيطانه بالقاشاني، وهو مرتفع ينظر منه إلى البحر والمرسى، وهو من عمارة الصالحة بيبي مريم، ومعني بيبي عندهم: الحرة. وأكلت بهذه المدينة سمكاً لم آكل مثله في أقليم من الأقاليم. وكنت افضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه، وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الأرز ويأكلونه. والأرز يجلب اليهم من أرض الهند. وهم أهل تجارة، ومعيشتهم مما يأتي إليهم في البحر الهندي. وإذا وصل إليهم مركب فرحوا به اشد الفرح. وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلاً: تأكل لا، تمشي لا، تفعل كذا لا. واكثرهم خوارج، لكنهم لا يقدرون على اظهار مذهبهم، لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز، وهو من أهل السنة. وبمقربة من قلهات قرية (طيبي) واسمها على نحو اسم الطيب إذا أضافه المتكلم لنفسه. وهي من أجمل القرى وابدعها حسناً، ذات انهار جارية، واشجار ناضرة، وبساتين كثيرة، ومنها تجلب الفواكه إلى قلهات، وبها الموز وهو كثير بها، ويجلب منها إلى هرمز وسواها. وبها أيضاً التانبول لكن ورقته صغيرة. والتمر يجلب إلى هذه الجهات من عمان. ثم قصدنا بلاد عمان فسرنا ستة ايام في صحراء، ثم وصلنا بلاد عمان في اليوم السابع، وهي خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس. ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد وهي مدينة نزوا، مدينة في سفح جبل، تحف بها البساتين والأنهار، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية. وعادة أهلها أنهم يأكلون في صحون المساجد، يأتي كل انسان بما عنده، ويجتمعون للأكل في صحن المسجد، ويأكل معهم

الوارد والصادر. ولهم نجدة وشجاعة، والحرب قائمة فيما بينهم أبداً. وهم اباضية المذهب، ويصلون الجمعة ظهراً أربعا، فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن، ونثر كلاماً شبه الخطبة يترضى فيه عن أبي بكر وعمر، ويسكت عن عثمان وعلي. وهم إذا أرادوا ذكر علي (رضي الله عنه) كنوا عنه، فقالو: ذكر عن الرجل، أو قال الرجل، ويترضون عن الشقي اللعين ابن ملجم، ويقولون فيه: العبد الصالح قامع الفتنة. ونساؤهم يكثرن الفساد، ولا غيرة عندهم ولا انكار لذلك (٢ / ٢١٩ ـ ٢٢٨).

مغاص الجوهر ـ ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين، في خور راكد مثل الوادي العظيم. فإذا كان شهر ابريل وشهر مايو تأتي إليه القوارب الكثيرة، فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف، ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئاً يكسوه من عظم الفيلم: وهي السلحفاة، ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه المقراض يشده على أنفه، ثم يربط حبلاً في وسطه ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في الماء: فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك. فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الاحجار الصغار مما في الرمل، فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك، ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه. فإذا ضاق نفسه حرك الحبل، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل، فيرفعه إلى القارب، فتؤخذ منه المخلاة. ويفتح الصدف، فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة، فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر، فيجمع جميعها من صغير وكبير، فيأخذ السلطان خمسة، والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب، واكثرهم يكون له الدين على الغواصين، فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه.

مدينة البحرين ـ وهي مدينة كبيرة حسنة، ذات بساتين واشجار وانهار، وماؤها قريب المؤنة، يحفر عليه بالأيدي فيوجد. وبها حدائق النخل والرمان والأترج، ويزرع بها القطن. وهي شديدة الحر، كثيرة الرمال، وربما غلب الرمل على بعض منازلها، وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع، فلا يوصل من عمان إليها إلا في البحر (٢ / ٢٤٤ ـ ٢٤٦).

ابن بطوطة في بلاد الروم وجوارها

ذكر الأخية الفتيان ـ واحد الأخية (أخي) على لفظ الأخ إذا اضافه المتكلم إلى نفسه. وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية، في كل بلد ومدينة وقرية. ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس، وأسرع إلى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة. (والأخي) عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم. وتلك هي الفتوة أيضاً، ويبني

زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج إليه من الآلات، ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معايشهم، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم، فيشترون به الفواكه والطعام، إلى غير مما ينفق في الزاوية. فإن ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم، وكان ذلك ضيافته لديهم، ولا يزال عندهم حتى ينصرف. وإن لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم، فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعاتهم بالغدو، وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم. ويسمون بالفتيان، ويسمى مقدمهم، كما ذكرنا، (الأخي)، ولم أر في الدنيا أجمل افعالاً منهم. ويشبههم في افعالهم أهل شيراز واصفهان، إلا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر، واعظم اكراماً له، وشفقة عليه.

وفي الثاني من يوم وصولنا إلى هذه المدينة، أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموي، وتكلم معه باللسان التركي، ولم اكن يومئذ افهمه. وكان عليه أثواب اخلاق، وعلى رأسه قلنسوة لبد، فقال لي الشيخ: اتعلم ما يقول هذا الرجل؟ فقلت: لا اعلم ما قال، فقال لي: إنه يدعوك إلى ضيافته أنت واصحابك فعجبت منه، وقلت له: «نعم»! فلما انصرف قلت للشيخ: هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا، ولا نريد ان نكلفه. فضحك الشيخ وقال لي: هذا أحد شيوخ الفتيان، فتيان (الأخية)، وهو من الخرازين، وفيه كرم نفس، واصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات، قد قدموه على انفسهم، وبنوا زاوية للضيافة، وما يجتمع لهم بالنهار انفقوه بالليل.

فلما صليت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل، وذهبنا معه إلى زاويته، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان، وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقي، وفي المجلس خمسة من (البياسيس)، والبيسوس شبه المنارة من النحاس، وله أرجل ثلاث، وفي وسطه انبوب للفتيلة ويملأ من الشحم المذاب، وإلى جانبه آنية نحاس ملأى بالشحم، وفيها مقراض لاصلاح الفتيلة. واحدهم موكل بها، ويسمى عندهم الجراجي (الجراغجي)، وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان، ولباسهم الاقبية وفي ارجلهم الاخفاف، وكل واحد منهم متحزم، وعلى وسطه سكين في طول ذراعين، وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف، بأعلى كل قلنوسة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض اصبعين . فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه وتبقى على رأسه قلنوسة اخرى من الزردخاني وسواه، خبيثة المنظر. وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين. ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير، والفاكهة والحلوى، ثم اخذوا في الغناء والرقص، فراقنا حالهم، وطال عجبنا في سماحهم وكرم انفسهم. وانصرفنا عنهم آخر الليل، وتركناهم بزاويتهم (٢ / ٢٦٠ ـ ٢٦٥).

في مدينة صنوب ـ لما دخلنا هذه المدينة رآنا اهلها ونحن نصلي مسبلي ايدينا،

وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك، ولا كيفية صلاته. والمختار من مذهبه هو اغسال اليدين. وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلي ايديهم، فاتهمونا بمذهبهم وسألونا عن ذلك، فأخبرناهم أننا على مذهب مالك، فلم يقتنعوا بذلك منا، واستقرت التهمة في نفوسهم، حتى بعث إلينا نائب السلطان بأرنب وأوصى بعض خدامه أن يلازمنا حتى يرى ما نفعل به فذبحناه وطبخناه وأكلناه، وانصرف الخادم إليه واعلمه بذلك. فحينئذ زالت عنا التهمة، وبعثوا لنا بالضيافة (٢ / ٣٥٢ ـ ٣٥٣).

مدينة الكفا ـ وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر، يسكنها النصارى، واكثرهم الجنويون، ولهم أمير يعرف بالمدير. ونزلنا منها بمسجد المسلمين.

ولما نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة، ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية، ولم اكن سمعتها قط، فهالني ذلك. وأمرت اصحابي أن يصعدوا الصومعة، ويقرأوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا، ففعلوا ذلك، فإذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح، فسلم علينا، واستفهمناه عن شأنه، فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك، وقال: لما سمعت القراءة والآذان خفت عليكم فجئت كما ترون. ثم انصرف عنا وما رأينا إلا خيراً.

ولما كان من الغد جاء إلينا الأمير وصنع طعاماً فأكلنا عنده، وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق، وكلهم كفار. ونزلنا إلى مرساها، فرأينا مرسى عجيباً به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري، صغير وكبير، وهو من مراسي الدنيا الشهيرة. ثم اكترينا عجلة وسافرنا إلى مدينة القرم. وهم يسمون العجلة عربة، وهي عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار، ومنها ما يجره فرسان، ومنها ما يجره اكثر من ذلك، وتجرها أيضاً البقر والجمال، على حال العربة في ثقلها أو خفتها. والذي يخدم العربة يركب احدى الأفراس التي تجرها، ويكون عليها سرج وفي يده سوط، يحركها للمشي، وعود كبير يصوبها به إذا عاجت من القصد. ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب، مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق، وهي خفيفة الحمل، وتكسى باللبد أو بالملف. ويكون فيها طيقان مشبكة، ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه، ويتقلب فيها كما يحب، وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره. والتي تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا، وعليها قفل. وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبي مغشاة باللبد، وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري، وعجلة كبيرة لسائر الاصحاب يجرها ثلاثة من الجمال، يركب احدها خادم العربة (٢ / ٣٥٩ ـ ٣٦٢).

أرض الظلمة ـ وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة، والدخول إليها من بلغار،

وبينهما أربعون يوماً، ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى. والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار، تجرها كلاب كبار، فان تلك المفازة فيها الجليد، فلا تثبت قدم الآدمي، ولا حافر الدابة فيها. والكلاب لها الاظفار، فتثبت اقدامها في الجليد. ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها، موقرة بطعامه وشرابه وحطبه، فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر. والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة، وتنتهي قيمته إلى ألف دينار ونحوها. وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب، ويكون هو المقدم، وتتبعه سائر الكلاب بالعربات، فإذا وقف وقفت. فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة، نزلوا عند الظلمة، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك، وعادوا إلى منزلهم المعتاد، فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم، فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم. فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه، اخذه، وان لم يرضه تركه، فيزيدونه. وربما رفعوا متاعهم، أعني أهل الظلمة، وتركوا متاع التجار. وهكذا بيعهم وشراؤهم. ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم، أمن الجن هو أم من الأنس ولا يرون احداً (٢ / ٣٩٩ ـ ٤٠١).

إلى القسطنطينية ـ ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية. فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان، ركبانا ومشاة في احسن زي وأجمل لباس. وضربت عند الصبح الطبول والأبواق، والانقار، وركبت العساكر. وخرج السلطان وزوجته ام هذه الخاتون، وأرباب الدولة والخواص، وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان، ورجال بأيديهم عصي طوال، في أعلى كل عصا شبه كرة من الجلد، يرفعون بها الرواق، وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى. ولما اقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج، ولم أقدر على الدخول فيما بينهم، فلزمت اثقال الخاتون واصحابها، خوفاً على نفسي. وذكر لي أنها لما قربت من أبويها ترجلت وقبلت الأرض بين ايديهما، ثم قبلت حافري فرسيهما، وفعل كبار اصحابها مثل فعلها في ذلك.

وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية العظمى، وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط اصواتها. ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك، وجدنا به مائة رجل، معهم قائد لهم فوق دكان. وسمعتهم يقولون: سراكنو، ومعناه: المسلمون. ومنعونا من الدخول، فقال لهم اصحاب الخاتون: إنهم من جهتنا، فقالوا: لا يدخلون الا باذن. فأقمنا بالباب، وذهب بعض اصحاب الخاتون فبعث من اعلمها بذلك، وهي بين يدي والدها فذكرت له شأننا فأمر بدخولنا، وعين لنا داراً بمقربة من دار الخاتون. وكتب لنا أمراً بأن لا نُعترض حيث نذهب من المدينة، ونودي

بذلك في الأسواق. وأقمنا بالدار ثلاثاً، تبعث إلينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش. وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان. فبعثت إلى الخاتون الفتى سنبلا الهندي. فأخذ بيدي وأدخلني إلى القصر، فجزنا أربعة أبواب في كل باب سقائف، بها رجال واسلحتهم، وقائدهم على دكان مفروش. فلما وصلنا إلى الباب الخامس، تركني الفتى سنبل ودخل. ثم اتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين، ففتشوني لئلا يكون معي سكين، وقال لي القائد: تلك عادة لهم، لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام، غريب أو بلدي. وكذلك الفعل بأرض الهند. ثم لما فتشوني، قام الموكل بالباب، فأخذ بيدي وفتح الباب، وأحاط بي أربعة من الرجال، أمسك اثنان بكمي، واثنان من ورائي، فدخلوا بي الى (مشور) كبير، حيطانه بالفسيفساء، قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد، وفي وسطه ساقية ماء، ومن جهتيها الاشجار، والناس واقفون يميناً ويساراً سكوتا، لا يتكلم احد منهم. وفي وسط (المشور) ثلاثة رجال وقوف أسلمني اولئك الأربعة إليهم، فأمسكوا بثيابي، كما فعل الآخرون. وأشار إليهم رجل فتقدموا بي، وكان احدهم يهودياً، فقال لي بالعربي: لا تخف فهكذا عادتهم ان يفعلوا بالوارد، وأنا الترجمان، واصلي من بلاد الشام. فسألته: كيف أسلم؟ فقال: قل السلام عليكم.

ثم وصلت إلى قبة عظيمة والسلطان على سريره، وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه، وأسفل السرير الخاتون واخواتها، وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة، وكلهم بالسلاح. فأشار إلي قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنيهة، ليسكن روعي، ففعلت ذلك. ثم وصلت إليه، فسلمت عليه وأشار إلي أن اجلس، فلم افعل. وسألني عن بيت المقدس، وعن الصخرة المقدسة، وعن القمامة، وعن مهد عيسى، وعن بيت لحم، وعن مدينة الخليل عليه السلام، ثم دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم، فأجبته عن ذلك كله، واليهودي يترجم بيني وبينه. فأعجبه كلامي، وقال لأولاده: اكرموا هذا الرجل وأمنوه، ثم خلع علي خلعة، وأمر لي بفرس مسرج ملجم، ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه، وهي علامة الأمان. وطلبت منه أن يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم، حتى أشاهد عجائبها وغرائبها، واذكرها في بلادي، فعين لي ذلك. ومن العادات عندهم أن الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه، يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والطبول، ليراه الناس. واكثر ما يفعل ذلك بالاتراك الذين يأتون من بلاد السلطان اوزبك لئلا يؤذوا. فطافوا بي في الأسواق.

وصف المدينة ــ وهي متناهية في الكبر، منقسمة قسمين، بينهما نهر عظيم المد والجزر، على شكل وادي سلا من بلاد المغرب. وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت، وهو الآن يعبر في القوارب، واسم هذا النهر ابسمى. واحد القسمين

يسمى اصطنبول، وهو بالعدوة الشرقية من النهر، وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته، وسائر الناس. واسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة، وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم. وعلى كل سوق أبواب، تسد عليه بالليل. واكثر الصناع والباعة بها من النساء. والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال، وعرضه مثل ذلك أو أكثر، وفي أعلاه قلعة صغيرة، وقصر السلطان. والسور يحيط بهذا الجبل. وهو مانع لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر. وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة. والكنيسة العظمى في وسط هذا القسم من المدينة. وأما القسم الثاني منها فيسمى الغلطة، وهو بالعدوة الغربية من النهر، شبيه برباط الفتح في قربه من النهر. وهذا القسم خاص بنصارى الأفرنج يسكنونه. وهم اصناف فمنهم الجنويون، والبنادقة، وأهل رومية، وأهل افرانسة. وحكمهم الى ملك القسطنطينية، يقدم عليهم منهم من يرتضونه، ويسمونه (القمص)، وعليهم وظيفة في كل عام لملك القسطنطينية. وربما استعصوا عليه، فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا. وجميعهم أهل تجارة. ومرساهم من اعظم المراسي، رأيت به نحو مائة جفن من القراقر، وسواها من الكبار، وأما الصغار فلا تحصى كثرة. واسواق هذا القسم حسنة، إلا أن الأقذار غالبة عليها (٢ / ٤٢٦ ـ ٤٣٣).

الأديرة ـ ذكر المانستارات بقسطنطينية والمانستار على مثل لفظ المارستان إلا أن نونه متقدمة وراءه متأخرة وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين. وهذه المانستارات بها كثيرة فمنها مانستار عمَّره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية، وسنذكره وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة. ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل إليها وهما في داخل بستان يشقهما نهر ماء واحدهما للرجال والآخر للنساء وفي كل واحد منهما كنيسة ويدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبدات وقد حبس على كل واحد منهما احباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم بناهما أحد الملوك. ومنها مانستاران عن يسار الداخل إلى الكنيسة العظمى على مثل هذين الأخرين ويطيف بهما بيوت، واحدهما يسكنه العميان والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممن بلغ الستين أو نحوها، ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك. وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه، واكثر هؤلاء الملوك إذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستارا ولبس المسوح وهي ثياب الشعر وقلد ولده الملك واشتغل بالعبادة حتى يموت. وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفيسفساء وهي كثيرة بهذه المدينة. ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي إلى مانستار يشقه نهر وفيه كنيسة فيها نحو خمسماية بكر عليهن المسوح ورؤوسهن محلوقة فيها قلانيس اللبد، ولهن جمال فائق وعليهن أثر العبادة. وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الأنجيل بصوت لم اسمع قط احسن منه، وحوله

ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر. وقال لي الرومي أن هؤلاء البنات من بنات الملوك وهبن انفسهن لخدمة هذه الكنيسة وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى، خارج تلك الكنيسة. ودخلت معه أيضاً كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسماية بكر أو ازيد وصبي يقرأ لهن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الأولين. فقال لي الرومي هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتعبدن بهذه الكنيسة. ودخلت معه إلى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد وإلى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء وإلى كنائس فيها الرهبان يكون في الكنيسة منها مائة رجل واكثر وأقل .وأكثر أهل هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون. وكنائسها لا تحصى كثرة. وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤوسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا والنساء لهن عمائم كبار.

قاضي القسطنطينية ـ ولما فارقت الملك المترهب، دخلت سوق الكتاب، فرآني القاضي، فبعث إلى أحد اغوائه، فسأل الرومي الذي معي فقال له: إنه من طلبة المسلمين فلما عاد إليه وأخبره بذلك، بعث إلي احد اصحابه. وهم يسمون القاضي: النجشي كفالي، فقال لي: النجشي كفالي يدعوك، فصعدت إليه إلى القبة التي تقدم ذكرها، فرأيت شيخاً حسن الوجه واللمة عليه لباس الرهبان، وهو (الملف الأسود)، وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون، فقام إلى وقام اصحابه، وقال: «انت ضيف الملك ويجب علينا اكرامك». وسألني عن بيت المقدس والشام ومصر، وأطال الكلام، وكثر عليه الازدحام، وقال لي: «لا بد لك أن تأتي إلى داري، فاضيفك» فانصرفت عنه ولم ألقه بعد.

مدينة خوارزم ـ وهي اكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها، لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة، والعمارة الكثيرة، والمحاسن الأثيرة، وهي ترتج بسكانها لكثرتهم، وتموج بهم موج البحر، ولقد ركبت بها يوماً ودخلت السوق، فلما توسطته وبلغت منتهى الزحام في موضع يقال له الشور، لم استطع أن أجوز ذلك الموضع، لكثرة الأزدحام، وأردت الرجوع فما امكنني لكثرة الناس، فبقيت متحيراً، وبعد جهد شديد رجعت. وذكر لي بعض الناس أن تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة، لأنهم يسدون سوق القيسارية وغيرها من الأسواق، فركبت يوم الجمعة، وتوجهت إلى المسجد الجامع والمدرسة.

وهذه المدينة من طاعة السلطان أوزيك، وله فيها أمير كبير يسمى قطلود مور، وهو الذي عمَّر هذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة. وأما المسجد فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك. وبخوارزم مارستان له طبيب شامي، يعرف بالصهيوني

نسبة إلى صهيون من بلاد الشام. ولم أر في بلاد الدنيا أحسن اخلاقاً من أهل خوارزم، ولا اكرم نفوساً ولا أحب في الغرباء. ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم: وهي أن المؤذنين في مساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلماً لهم بحضور الصلاة. فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة. وفي كل مسجد درة معلقة لذلك، ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد، أو لاطعام الفقراء والمساكين، ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان (٣ / ٣ ـ ٥).

في الهند وجزر الهند الشرقية

البريد ـ والبريد ببلاد الهند صنفان: فأما بريد الخيل فيسمونه الولاق، وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال. وأما بريد الرجالة فيكون في مسافة الميل، الواحد منه ثلاث رتب ويسمونها الداوة. والداوة هي ثلث ميل. والميل عندهم يسمى الكروة. وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة. ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة، قد شدوا اوساطهم. وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين، بأعلاها جلاجل نحاس. فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده، والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى، وخرج يشتد بمنتهى جهده. فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له. فإذا وصلهم أخذ احدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده، وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى الداوة الأخرى. ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه. وهذا البريد أسرع من بريد الخيل. وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان، يجعلونها في الأطباق ويشتدون بها حتى تصل إلى السلطان. وكذلك يحملون أيضاً الكبار من ذوي الجنايات: يجعلون الرجل منهم على سرير، ويرفعونه فوق رؤوسهم ويسيرون به شدا. وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان إذا كان بدولة أباد، يحملونه من نهر الكنك الذي تحج الهنود إليه. وهو على مسيرة أربعين يوماً منها. وإذا كتب المخبرون إلى السطان بخبر من يصل إلى بلاده، استوعبوا الكتاب وامعنوا في ذلك، وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا. وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته، لا يغادرون من ذلك كله شيئاً. فإذا وصل الوارد إلى مدينة ملتان، وهي قاعدة بلاد السند، أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدومه وما يجري له من الضيافة. وإنما يكرم الانسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته، إذ لا يعرف هنالك ما حسبه ولا اباؤه. (ج٣ / ٩٥ ـ ٩٧).

ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار ـ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا، ومعهم بعض اصحابنا. فسألتهم ما الخبر؟ فاخبروني أن كافراً من الهنود مات وأُججت

النار لأحراقه، وامرأته تحرق نفسها معه. ولما احترقا جاء اصحابي واخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه. وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة، والناس يتبعونها من مسلم وكافر. والأطبال والأبواق بين يديها، ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود. وإذا كان ذلك ببلاد السلطان، استأذنوا السلطان في إحراقها، فيأذن لهم فيحرقونها. ثم اتفق بعد مدة أني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار، وأميرها مسلم، وعلى مقربة منها الكفار العصاة. فقطعوا الطريق يوماً، وخرج الأمير المسلم لقتالهم، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار. ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة. وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات. فاتفقن على إحراق انفسهن. واحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب. لكن من احرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ونسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب، واقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها، ولكنها لا تكره على احراق نفسها، ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على إحراق انفسهن، اقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب، كأنهن يودعن الدنيا، وتأتي إليهن النساء من كل جهة. وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته وهي متزينة متعطرة، وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها. والبراهمة يحفون بها، وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنقار. وكل انسان من الكفار يقول لها: ابلغي السلام أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي! وهي تقول: «نعم». وتضحك لهم.

وركبت مع اصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار، متكاثف الظلال. وبين أشجاره أربع قباب، في كل قبة صنم من الحجارة، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجار، فلا تتخللها الشمس. ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج، وانغمسن فيه، وجردن ما عليهن من ثياب وحلى فتصدقن به، وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط، فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها، والنيران قد أُضرمت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض، وصب عليها زيت الجلجلان، فزاد في اشتعالها. وهنالك نحو خمسة عشر رجلاً بأيديهم حزم من الحطب الرقيق، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار. وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة، وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم، لئلا يدهشها النظر إليها. فرأيت احداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف، وقالت لهم وهي تضحك: «أبالنار تخوفونني؟ أنا أعلم أنها نار محرقة». ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار، ورمت بنفسها فيها. وعند ذلك ضربت الأطبل والأنقار والأبواق، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها. وجعل

الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك. وارتفعت الأصوات، وكثر الضجيج. ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي، لولا اصحابي الذين تداركوني بالماء، فغسلوا وجهي وانصرفت (ج٣ ـ ١٣٦ ـ ١٤١).

دهلي ـ ومدينة دهلي [دلهي] كبيرة الساحة، كثيرة العمارة. وهي الآن أربع مدن متجاورات متصلات. احداها المسماة بهذا الاسم دهلي، وهي القديمة من بناء الكفار. وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة. والثانية تسمى سيري وتسمى أيضاً دار الخلافة، وهي التي أعطاها السلطان غياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسي لما قدم عليه. وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين، وسنذكرهما. والثالثة تسمى تغلق أباد باسم بانيها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذي قدمنا عليه. وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوماً بين يدي السلطان قطب الدين فقال له: «يا خوند عالم، كان ينبغي أن تبني هنا مدينة». فقال له السلطان متهكماً: «إذا كنت سلطاناً فابنها». فكان من قدر الله أن كان سلطاناً فبناها وسماها باسمه. والرابعة تسمى (جهان بناه)، وهي مختصة بسكني السلطان محمد شاه ملك الهند الآن، الذي قدمنا عليه، وهو الذي بناها. وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد، فبنى منه بعضاً وترك بناء باقيه، لعظم ما يلزم في بنائه.

والسور المحيط بمدينة دهلي ليس له نظير. وعرض حائطه احدى عشرة ذراعاً. وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الأبواب، وفيها مخازن للطعام ومخازن للعدد ومخازن للمجانيق والرعادات. ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة. ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد أسود، ولكن طعمه طيب. ورأيت أيضاً الكذرو يخرج منها. وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن منذ تسعين سنة. ويمشي في داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها. وفيه طيقان مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء. وأسفل هذا السور مبني بالحجارة وأعلاه بالآجر. وأبراجه كثيرة متقاربة. ولهذه المدينة ثمانية وعشرون باباً.

وجامع دهلي كبير الساحة، حيطانه وسقفه وفرشه، كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدع نحت، ملصقة بالرصاص أتقن الصاق، ولا خشبة به أصلاً. وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة. ومنبره أيضاً من الحجر. وله أربعة من الصحون. وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يدري من أي المعادن هو. ذكر لي بعض حكمائهم أنه يسمى (هفت جوش) ومعنى ذلك سبعة معادن، وأنه مؤلف منها. وقد جلى من هذا مقدار السبابة. ولذلك المجلو منه بريق عظيم. ولا يؤثر فيه الحديد. وطوله ثلاثون ذراعاً. وأدرنا به عمامة فكان الذي أحاط بدائرته منها ثماني أذرع. وعند الباب الشرقي من أبواب المسجد صنمان كبيران جداً من النحاس، مطروحان بالأرض قد الصقا بالحجارة. ويطؤها كل داخل المسجد أو خارج منه. وكان موضع هذا المسجد بدخانه، وهو بيت

الأصنام. فلما افتتحت جعل مسجداً. وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة التي لا نظير لها في بلاد الاسلام. وهي مبنية بالحجارة الحمر، خلافاً لحجارة سائر المسجد فإنها بيض. وحجارة الصومعة منقوشة. وهي سامية الارتفاع (٣ / ١٤٦ ـ ١٥٣).

جلوس السلطان ـ وأكثر جلوسه بعد العصر، وربما جلس أول النهار. وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض، فوقها مرتبة. ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه متكأ، وعن يساره مثل ذلك. وقعوده كجلوس الانسان للتشهد في الصلاة، وهو جلوس أهل الهند كلهم. فإذا جلس وقف امامه الوزير، ووقف الكتّاب خلف الوزير، وخلفهم الحجاب. وكبير الحجاب هو (فيروز ملك) ابن عم السلطان ونائبه... وهو ادنى الحجاب إلى السلطان. ثم يتلوه (خاص حاجب)، ووكيل الدار ونائبه، وشرف الحجاب، وسيد الحجاب، وجماعة تحت أيديهم. ثم يتلو الحجاب النقباء وهم نحو مائة. وعند جلوس السلطان ينادي الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم: باسم الله. ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير، وبيده المذبة يشرد بها الذباب. ويقف مائة من السلحدارية عن يمين السلطان، ومثلهم عن يساره بأيديهم الدرق والسيوف والقسى.

ويقف في الميمنة والميسرة بطول (المشور) قاضي القضاة، ويليه خطيب الخطباء، ثم سائر القضاة، ثم كبار الفقهاء، ثم كبار الشرفاء المشايخ، ثم أخوة السلطان واصهاره، ثم الأمراء الكبار، ثم كبار الأعزة وهم الغرباء، ثم القواد.. ثم يؤتى بستين فرساً مسرجة ملجمة بجهازات سلطانية. فمنها ما هو بشعار الخلافة، وهي التي لجمها ودوائرها من الحرير الأسود المذهب ومنها ما يكون ذلك فيها من الحرير الأبيض المذهب. ولا يركب بذلك غير السلطان... فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين، والنصف عن الشمال، بحيث يراها السلطان. ثم يؤتى بخمسين فيلاً مزينة بثياب الحرير والذهب، مكسوة انيابها بالحديد، اعداداً لقتل أهل الجرائم، وعلى عنق كل فيل فياله، وبيده شبه الطبرزين من الحديد، يؤدبه به، ويقومه لما يراد منه. وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم، يسع عشرين من المقاتلة، واكثر من ذلك ودونه، على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه. ويكون في أركان ذلك الصندوق أربعة اعلام مركوزة. وتلك الفيلة معلمة أن تخدم للسلطان وتحط رؤوسها. فإذا خدمت قال الحجاب: باسم الله، بأصوات عالية. ويوقف أيضاً نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال، خلف الرجال الواقفين. وكل من يأتي من الناس المعينين للوقوف في الميمنة أو الميسرة يخدم عند موقف الحجاب. ويقول الحجاب: باسم الله. ويكون ارتفاع اصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذي يخدم. فإذا خدم انصرف إلى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه أبداً. ومن كان من كفار الهنود يخدم، ويقول له الحجاب والنقباء: هداك الله. ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم، بأيديهم الترسة والسيوف، فلا يمكن أحداً الدخول بينهم إلا بين يدي الحجاب القائمين بين يدي السلطان (٣ / ٢٢١ ـ ٢٢٤).

الضيافة في دهلي ـ ولما وصلت إلى الدار التي أُعدت لنزولي، وجدت فيها ما يحتاج إليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد. وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل، يحمل السرير منها الرجل الواحد. ولا بد لكل احد أن يستصحب السرير في السفر يحمله غلامه على رأسه. وهو أربع قوائم مخروطة، يعرض عليها أربعة أعواد. وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن.. فإذا نام الانسان عليه لم يحتج إلى ما يرطبه به، لأنه يعطي الرطوبة من ذاته. وجاءوا مع السرير بمضربتين ومخدتين ولحاف، كل ذلك من الحرير. وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحف وجوها تغشيها من كتان أو قطن بيضا، فمتى توسخت غسلوا الوجوه وبقي ما في داخلها مصوناً. وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني، والآخر الجزار، ويسمونه القصاب، فقالوا لنا: خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق، ومن هذا كذا وكذا من اللحم، لأوزان لا اذكرها الآن... وعادتهم أن يكون اللحم الذي يعطون بقدر وزن الدقيق. وهذا الذي ذكرناه ضيافة أم السلطان (ج٣ / ٣٧٩ ـ ٨١).

ذكر السحرة الجوكية ـ هؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب. منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب. وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليهم، فلا يترك للواحد إلا موضع يدخل منه الهواء ويقيم بها الشهور. وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة. ورأيت بمدينة منجرور رجلاً من المسلمين ممن يتعلم منهم، قد رفعت له طبلة وأقام بأعلاها، لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوماً. وتركته كذلك فلا أدري كم أقام بعدي. والناس يذكرون أنهم يركبون حبوباً، يأكلون الحبة منها لأيام معلومة واشهر، فلا يحتاجون في تلك المدة إلى طعام ولا شراب، ويخبرون بأمور مغيبة. والسلطان يعظمهم ويجالسهم. ومنهم من يقتصر في أكله على البقل، ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون. والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة، ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها. ومنهم من ينظر إلى الانسان فيقع ميتاً من نظرته. وتقول العامة: إنه إذا قتل انسان بالنظر، وشق عن صدر الميت وجد دون قلب. ويقولون: أكل قلبه (ج ٤ / ٣٥ ـ ٣٨).

ذكر سوق المغنين ـ وبمدينة آباد سوق للمغنين والمغنيات، يسمى سوق طرب آباد، من أجمل الأسواق وأكبرها.. فيه الدكاكين الكثيرة، كل دكان له باب يفضي إلى دار صاحبه. وللدار باب سوى ذلك. والحانوت مزين بالفرش، وفي وسطه شكل مهد كبير، تجلس فيه المغنية أو ترقد، وهي متزينة بأنواع الحلى، وجواريها يحركن مهدها. وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة، يجلس فيه أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس، وبين يديه خدامه ومماليكه. وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى، فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب، ثم ينصرف.

وفي تلك السوق المساجد للصلاة.. ويصلي الأئمة فيها التراويح في شهر رمضان. وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها، وتغني المغنيات بين يديه. وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضاً (ج٤ / ٥٠ ـ ٥١).

قندهار ـ وسلطان قندهار كافر اسمه جالنسي. وهو تحت حكم الاسلام، يعطي ملك الهند هدية كل عام. ولما وصلنا إلى قندهار خرج إلى استقبالنا وعظمنا أشد التعظيم، وخرج عن قصره فانزلنا به وجاء إلينا من عنده من كبار المسلمين، كأولاد خواجة بهرة، ومنهم الناخذاة إبراهيم، وله ستة من المراكب. ومن هذه المدينة ركبنا البحر.

ذكر ركوبنا البحر ـ وركبنا في مركب لإبراهيم هذا يسمى الجاكر، وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرساً، وجعلنا باقيها من خيل اصحابنا، في مركب لأخي إبراهيم. وأعطانا جالنسي مركباً جعلنا فيه خيل ظهير الدين وسنبل واصحابهما. وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف. وبعث معنا ولده في مركب شبه الغراب إلا أنه أوسع منه، وفيه ستون مجذافاً. ويقف حين القتال حتى لا ينال الجدافين شيء من السهام ولا الحجارة. وكان ركوبي انا في الجاكر. وكان فيه خمسون رامياً، وخمسون من المقاتلة الحبشان، وهم زعماء هذا البحر. وإذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم. ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة بيرم. وهي خالية، وبينها وبين البر أربعة أميال، فنزلنا بها واستقينا الماء من حوض بها. وسبب خرابها أن المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد. وكان ملك التجار الذي تقدم ذكره أراد عمارتها وبنى سورها، وجعل بها المجانيق، وأسكن بها بعض المسلمين. ثم سافرنا منها ووصلنا في اليوم الثاني إلى مدينة قوقة، وهي مدينة كبيرة عظيمة الأسواق. أرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر، ونزلت في عشاري مع بعض اصحابي حين الجزر لأدخلها، فوحل العشاري في الطين، وبقي بيننا وبين البلد نحو ميل. فكنت لما نزلنا في الوحل أتوكأ على رجلين من اصحابي. وخوفني الناس وصول المد، قبل وصولي إليها وأنا لا أحسن السباحة. ثم وصلت إليها وطفت بأسواقها، ورأيت بها مسجداً ينسب للخضر والياس، عليهما السلام، صليت به المغرب، ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم، ثم عدت إلى المركب (ج٤ / ٥٨ ـ ٦١).

الجوكي في الجزيرة ـ ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى، وجدنا بها جوكيا مستنداً إلى حائط بدخانة، وهي بيت الأصنام. وهو فيما بين صنمين منها، وعليه أثر المجاهدة، فكلمناه فلم يتكلم. ونظرنا هل معه طعام، فلم نر معه طعاماً. وفي حين نظرنا صاح صيحة عظيمة، فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه،

ودفعها لنا فعجبنا من ذلك، ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها. وأتيناه بزاد فرده. وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتها بيدي، فدفعها إلي... وكانت بيدي سبحة، فقلبها في يدي فأعطيته إياها، ففركها بيده وشمها وقبلها وأشار إلى السماء، ثم إلى سمت القبلة، فلم يفهم أصحابي إشارته، ففهمت أنا عنه أنه أشار أنه مسلم يخفي اسلامه عن أهل تلك الجزيرة، ويتعيش من ذلك الجوز.

ولما ودعناه قبلت يده، فأنكر اصحابي ذلك، ففهم انكارهم، فأخذ يدي وقبلها وتبسم، وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا.. وكنت آخر اصحابي خروجاً. فجذب ثوبي، فرددت رأسي إليه فأعطاني عشرة دنانير.. فلما خرجنا عنه قال لي اصحابي: لم جذبك؟ فقلت لهم: اعطاني هذه الدنانير. واعطيت ظهير الدين ثلاثة منها، وسنبلاً ثلاثة، وقلت لهما: الرجل مسلم. ألا ترون كيف أشار إلى السماء يشير إلى أنه يعرف الله تعالى، واشار إلى القبلة يشير إلى معرفة الرسول عليه السلام. وأخذه السبحة يصدق ذلك.. فرجعا لما قلت لهما ذلك فلم يجداه (ج٤ / ٦٢ ـ ٦٤).

جزائر ذيبة المهل (ملديف) ـ وعزمت على السفر إلى ذيبة المهل. وكنت اسمع باخبارها. فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل. وهذه الجزائر احدى عجائب الدنيا، وهي نحو ألفي جزيرة، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة، لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه. وإذا وصل المركب إلى احداها فلا بد له من دليل من اهلها يسير به إلى سائر الجزائر. وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي باحداها عند الخروج من الأخرى، فإن اخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها، وحملته الريح إلى المعبر أو سيلان. وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح.. وهي منقسمة أقاليم، على كل اقليم وال. وهذه الجزائر كلها لا زرع بها، إلا أن في اقليم السويد منها زرعاً، ويجلب منه إلى المهل.. وإنما أكل اهلها سمك يسمونه قلب الماس، ولحمه أحمر ولا ذفر له، وإنما ريحه كريح لحم الأنعام. وإذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوه يسيراً، ثم جعلوه في مكاتل من سعف النخيل، وعلقوه للدخان. فإذا استحكم يبسه أكلوه، ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن.

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة.. وإذا رأى الانسان احدهم قال له: «الله ربي ومحمد نبيي». وأبدانهم ضعيفة، ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة. ولقد أُمرت مرة بقطع يد سارق بها، فغشي على جماعة منهم كانوا بالمجلس. ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم. وإذا أتت (أجفان) العدو إلى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم، ولم يتعرضوا لأحد منهم بسوء. وإن أخذ احد الكفار ولو ليمونة، عاقبه أمير الكفار، وضربه الضرب المبرح.

وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة.. وأكثر عمارتهم بالخشب. وهم أهل نظافة وتنزه عن الاقذار، وأكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم، تنظفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق. ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها. ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقديشو. ومن عادتهم أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة، وبماء الورد ودهن الغالية، فيكحل عينيه، ويدهن بماء الورد ودهن الغالية، فتصقل بشرته، وتزيل الشحوب عن وجهه. ولباسهم فوط، يشدون الفوطة منها على اوساطهم عوض السراويل، ويجعلون على ظهورهم ثياباً كالمحرمين، وبعضهم يجعل عمامة، وبعضهم منديلاً صغيراً عوضاً عنها. وإذا لقي احدهم القاضي أو الخطيب وضع ثوبه على كتفيه، وكشف ظهره، ومضى معه كذلك حتى يصل إلى منزله. ومن عاداتهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته، بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت، وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله. وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره. فإذا وصل إليها رمت على رجليه ثوباً يأخذه خدامه. وإن كانت المرأة هي التي تأتي إلى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع. ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه. وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم، لا بد من ثوب يرمى عند ذلك. وبنيانهم بالخشب، ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقياً من الرطوبات، لأن أرضهم ندية.

وكيفية ذلك أنهم ينحتون حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة، ويجعلونها صفوفاً ويعرضون عليها خشب النارجيل، ثم يصنعون الحيطان من الخشب، ولهم صناعة عجيبة في ذلك. ويبنون في (اسطوان) الدار بيتاً يسمونه (المالم)، يجلس الرجل به مع اصحابه، ويكون له بابان احدهما إلى جهة (الاسطوان) يدخل منه الناس، والآخر إلى جهة الدار، يدخل منه صاحبها. ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء، ولها مستقى من قشر جوز النارجيل، وله نصاب طوله ذراعان.

وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع.. وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار. فالماشي بها كأنه في بستان. ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذي في الخابية، ويمسحهما بحصير غليظ من الليف هنالك، ثم يدخل بيته. وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد. ومن عاداتهم إذا قدم عليهم مركب أن تخرج إليه القوارب الصغار، وفيها أهل الجزيرة ومعهم التانبول وجوز النارجيل الأخضر، فيعطي الانسان منهم ذلك من شاء من أهل المركب، ويكون نزيله، ويحمل أمتعته إلى داره كأنه بعض اقربائه. ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج، فإذا حان سفره طلق المرأة، لأنهن لا يخرجن عن بلادهن، ومن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه، وتزوده إذا سافر، وترضى منه في مقابل ذلك بأيسر شيء من الاحسان. وفائدة المخزن (ويسمونه البندر) أن يشتري من كل سلعة بالمركب حظاً بسوم معلوم،

سواء أكانت السلعة تساوي ذلك أم كانت تساوي أكثر منه. ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب، يجمع به الوالي جميع سلعه ويبيع ويشتري. وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج، فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست.

وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه، وجوز النارجيل والفوط والعمائم، وهي من القطن. ويحملون منها أواني النحاس فإنها عندهم كثيرة. ويحملون الودع، ويحملون القنبر وهو ليف جوز النارجيل. وهم يدبغونه ثم تغزله النساء، وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب، وتحمل الى الصين والهند واليمن، وهو خير من القنب. وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن، لأن ذلك البحر كثير الحجارة. فان كان المركب مسمراً بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر. وإذا كان مخيطاً بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر (ج٤ / ١١٠ ـ ١٢١).

ذكر تزوجي وولايتي القضاء ـ وفي الثاني من شوال اتفقت مع الوزير سليمان على تزوج ابنته، فبعثت إلى الوزير جمال الدين ان يكون العقد بين يديه بالقصر. فأجاب إلى ذلك، واحضر التانبول على العادة والصندل. وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان، فاستدعي فلم يأت، ثم استدعي ثانية فاعتذر بمرض البنت. فقال لي الوزير سراً: إن بنته امتنعت وهي مالكة أمر نفسها، والناس قد اجتمعوا، فهل لك أن تتزوج بربيبة السلطانة زوجة أبيها، وهي التي ولده متزوج ابنتها؟ فقلت له: نعم، فاستدعى القاضي والشهود ووقعت الشهادة. ودفع الوزير الصداق.

ولما تزوجتها اكرمني الوزير على القضاء، وسبب ذلك اعتراضي على القاضي لكونه يأخذ العشر من التركات، إذا قسمها على أربابها. فقلت له. إنما لك أجرة تتفق بها مع الورثة. ولم يكن يحسن شيئاً. فلما وليت اجتهدت جهدي في اقامة رسوم الشرع. وليست هنالك خصومات كما هي ببلادنا. فأول ما غيرت من عادات السوء مكث المطلقات في ديار المطلقين. وكانت احداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره. فحسمت علة ذلك. وأُتي إلي بنحو خمسة وعشرين رجلاً ممن فعلوا ذلك، فضربتهم وشهرتهم بالأسواق، واخرجت النساء عنهم. ثم اشتددت في اقامة الصلوات، وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق اثر صلاة الجمعة، فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته. والزمت الأئمة والمؤذنين اصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك (ج٤ / ١٤٩ ـ ١٥٢).

جزيرة جاوه ـ وبعد خمسة وعشرين يوماً وصلنا إلى جزيرة الجاوة، وهي التي ينسب اليها اللبان الجاوي. رأيناها على مسيرة نصف يوم. وهي خضرة نضرة. واكثر اشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندي والنارنج الحلو وقصب الكافور

والعنبة. وبيع اهلها وشراؤهم بقطع قصدير، وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك.

والكثير من أفاويه الطيب التي ببلاد الكفار إنما هو منها. وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك. ولما وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها في مراكب صغار، ومعهم جوز النارجيل والموز والسمك. وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار، فيكافئهم كل انسان على قدره. وصعد إلينا نائب صاحب البحر، وشاهد من معنا من التجار، واذن لنا في النزول إلى البر. فنزلنا إلى البندر، وهي قرية كبيرة على ساحل البحر. وبينها وبين البلد أربعة أميال، ثم كتب بهروز نائب صاحب البحر إلى السلطان، فعرفه بقدومي، فأمر الأمير دولسة بلقائي، والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازي وتاج الدين الاصبهاني، وسواهم من الفقهاء، فخرجوا لذلك وجاءوا بفرس من مراكب السلطان وافراس سواه، فركبت وركب اصحابي ودخلنا حضرة السلطان، وهي مدينة سمطرة، مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وابراج خشب. وسلطانها هو السلطان الملك الظاهر، من فضلاء الملوك وكرمائهم، شافعي المذهب، محب للفقهاء يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة. وهو كثير الجهاد والغزو متواضع، يأتي إلى صلاة الجمعة ماشياً على قدميه. وأهل بلاده شافعية محبون للجهاد يخرجون معه طوعاً. وهم غالبون على من يليهم من الكفار. والكفار يعطونهم الجزية على الصلح (ج٤ / ٢٢٨ ــ ٢٣١).

ابن بطوطة في الصين

واقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة، لا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم الأرض. ويخترقه النهر المعروف (بآب حياة) ومعنى ذلك ماء الحياة. ومنبعه من جبال تسمى (كوة بوزنة)، ومعناه جبل القرود. ويمر في وسط الصين مسيرة ستة أشهر، إلى ان ينتهي إلى صين الصين. وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر، إلا أن هذا اكثر عمارة. وعليه النواعير الكثيرة. وببلاد الصين السكر الكثير، مما يضاهي المصري بل يفضله، والأعناب والاجاص. وكنت أظن أن الاجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له، حتى رأيت الاجاص الذي بالصين. وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خوارزم واصفهان. وكل ما ببلادنا من الفواكه فان بها ما هو مثله وأحسن منه. والقمح بها كثير جداً. ولم أر قمحاً أطيب منه.. وكذلك العدس والحمص.

وأما الفخار الصيني فلا يصنع منها إلا بمدينة الزيتون، وبصين كلان. وهو من تراب جبال هنالك، تقد فيه النار كالفحم، ويضيفون إليه حجارة عندهم، ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام، ثم يصبون عليه الماء، فيعود الجميع تراباً، ثم يخمرونه. فأجيد منه ما خمر شهراً كاملاً، ولا يزاد على ذلك. والدون ما خمر عشرة أيام. وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمناً. ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم، حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب، وهو أبدع انواع الفخار.

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جداً، اضخم من الاوز عندنا. وبيض الدجاج عندهم اضخم من بيض الاوز عندنا. وأما الاوز عندهم فلا ضخامة لها.. ولقد اشترينا دجاجة فأردنا طبخها، فلم يسع لحمها برمّة واحدة، فجعلناها في برمتين. ويكون الديك بها على قدر النعامة. وأول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كولم فظننته نعامة، وعجبت منه. فقال لي صاحبه: إن ببلاد الصين ما هو أعظم منه.

فلما وصلت إلى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك.

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم كما يفعل الهنود. وملك الصين تتري من ذرية تنكيزخان. وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم. ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها. وهم معظمون محترمون. وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب، ويبيعونها في أسواقهم. وهم أهل رفاهية وسعة عيش، إلا أنهم لا يحتفلون بمطعم ولا ملبس. وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة. وجميع أهل الصين إنما يحتفلون بأواني الذهب والفضة. ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي. والحرير عندهم كثير جداً، لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها، فلا تحتاج إلى كثير من مؤنة، ولذلك كثر. وهو لباس الفقراء والمساكين بها. ولولا التجار لما كانت له قيمة. ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير. وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه. ويجعل ذلك على باب داره. ومن كان له خمس قطع منها جعل في اصبعه خاتماً، ومن كانت له عشر جعل خاتمين، ومن كان له خمس عشرة سموه (الستي)، وهو بمعنى الكارمي بمصر.

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم.. وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه. وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد، كل قطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان. وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد انسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها جدداً ودفع تلك. ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان. وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء. وإذا مضى الانسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء، لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه.

وأهل الصين أعظم الأمم احكاماً للصناعات واشدهم اتقاناً لها، وذلك مشهور من حالهم، قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه. وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في احكامه من الروم ولا من سواهم، فان لهم فيه اقتداراً عظيماً. ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتي وصور اصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد، موضوعة في الأسواق. ولقد

دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين، ووصلت إلى قصر السلطان مع اصحابي، ونحن على زي العراقيين، فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة، فرأيت صورتي وصور اصحابي منقوشة في كاغد قد الصقوه بالحائط، فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطىء شيئاً من شبهه. وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك، وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا، ونحن لم نشعر بذلك. وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم. وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم، بعثوا صورته إلى البلاد وبحث عنه، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ. وهذا مثل ما حكاه أهل التاريخ من قصة سابور ذي الاكتاف ملك الفرس، حين دخل بلاد الروم متنكراً، وحضر وليمة صنعها ملكهم، وكانت صورته على بعض الأواني، فنظر إليها بعض خدام قصر، فانطبقت على صورة سابور. فقال لملكه: إن هذه الصورة تخبرني أن كسرى معنا في هذا المجلس...

فكان الأمر على ما قاله... وجرى فيه ما هو مسطور في الكتب.

وعادة أهل الصين إذا أراد (جنك) من (جنوكهم) السفر، أن يصعد إليه صاحب البحر وكتابه، ويكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية. وحينئذ يباح لهم السفر. فإذا عاد (الجنك) إلى الصين صعدوا إليه أيضاً، وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس.. فإن فقدوا احداً ممن قيدوه طالبوا صاحب (الجنك) به، فاما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث له، وإلا أخذ فيه. فإذا فرغوا من ذلك امروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلاً بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها. ثم ينزل من فيه، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم. فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد (الجنك) بجميع ما فيه مالاً للمخزن. وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين.. اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه: وهو أن من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها أغرم أحد عشر مغرماً.. ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم.

وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين، خيّر في النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معين، أو في الفندق. فإن أحب النزول عند التاجر، حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن، وأنفق عليه منه بالمعروف. فإذا أراد السفر بحث عن ماله، فان وجد شيء منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه. وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه. وأما إنفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه. ويقولون: لا تريد أن يُسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون اموالهم في بلادنا.

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين، فإن الانسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة أشهر، وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها. وترتيب ذلك أن لهم

في كل منزل ببلادهم فندقاً، عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال. فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة، جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب اسماء جميع من يبيت به من المسافرين، وختم عليها واقفل باب الفندق عليهم. فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه، فدعا كل انسان باسمه، وكتب بها تفسيراً، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل التالي له، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه، وان لم يفعل طالبه بهم. وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم، من صين الصين إلى خان بالق. وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد، وخصوصاً الدجاج والأوز... اما الغنم فهي قليلة عندهم.

ولنعد إلى ذكر سفرنا فنقول: لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون. وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد الصين والهند، ولكنه اسم وضع عليها. وهي مدينة عظيمة كبيرة، تصنع بها ثياب الكمخا والاطلس، وتعرف بالنسبة إليها. ومرساها من اعظم مراسي الدنيا أو هو اعظمها. رأيت نحو مائة (جنك) كبار. وأما الصغار فلا تحصى كثرة. وهو خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر الأعظم. وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض، وداره في وسطها، كمثل ما في بلدة سجلماسة ببلادنا.. وبهذا عظمت بلادهم. والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة. وفي يوم وصولي إليها رأيت بها الأمير الذي توجه إلى الهند رسولاً بالهدية، ومضى في صحبتنا وغرق به الجنك. فسلم علي وعرَّف صاحب الديوان بي، فأنزلني في منزل حسن، وجاء إلى قاضي المسلمين تاج الدين الارذويلي، وهو من الأفاضل الكرماء، وشيخ الاسلام كمال الدين عبد الله الاصفهاني، وهو من الصلحاء. وجاء إلى كبار التجار، وفيهم شرف الدين التبريزي، احد التجار الذين استدنت منهم حين قدومي على الهند، وأحسنهم معاملة، حافظ القرآن مكثر للتلاوة، وهؤلاء التجار لسكناهم في بلاد الكفار إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح، وقالوا: جاء من أرض الاسلام. وهم يعطونه زكاة أموالهم، فيعود غنياً كواحد منهم (ج٤ / ٢٥٤ ـ ٢٧١).

مراكب الصين ـ ومراكب الصين ثلاثة اصناف: الكبار منها تسمى الجنوك واحدها جنك، والمتوسطة تسمى الزو، والصغار يسمى احدها الككم. ويكون في المركب الكبيرة منها اثنا عشر قلعاً فما دونها إلى ثلاثة، وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر، لا تحط أبداً، ويديرونها بحسب دوران الريح، وإذا أرسوها تركوها واقفة في مهب الريح. ويخدم في المركب منها ألف رجل، منهم البحرية ستمائة، ومنهم اربعمائة من المقاتلة، تكون فيهم الرماة، واصحاب الدرق، والذين يرمون بالنفط. ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة: النصفي والثلثي والربعي. ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة

الزيتون من الصين، أو بصين كلان، وهي صين الصين. وكيفية انشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جداً، موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام، طول المسمار منها ثلاثة أذرع. فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب، صنعوا على اعلاهما فرش المركب الاسفل، ودفعوهما في البحر، وأتموا العمل. وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم. وهي كبار كالصواري. يجتمع على احدها العشرة والخمسة عشر رجلاً، ويجذفون وقوفاً على اقدامهم. ويجعلون للمركب أربعة ظهور. ويكون فيه البيوت والمصاري والغرف للتجار. والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس، وعليه المفتاح، يسدها صاحبها، ويحمل معه الجواري والنساء. وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب، حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد. والبحرية يسكنون فيها أولادهم. ويزرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب، ووكيل المركب كأنه أمير كبير. وإذا نزل إلى البر مشت الرماة والحبشان بالحراب والسيوف والاطبال والأبواق والانقار امامه. وإذا وصل إلى المنزل الذي يقيم به ركزوا رماحهم عن جانبي بابه، ولا يزالون كذلك مدة اقامته. ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة، يبعث بها وكلاءه إلى البلاد. وليس في الدنيا اكثر أموالاً من أهل الصين (ج٤ / ٩١ - ٩٤).

الخنسا ـ واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة... ولا أدري اعربي هو أم وافق العربي. وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض، طولها مسيرة ثلاثة ايام. يرحل المسافر فيها وينزل، وهي على ما ذكرناه في ترتيب عمارة الصين: كل أحد له بستانه وداره، وهي منقسمة ست مدن سنذكرها. وعند وصولنا إليها خرج إلينا قاضيها فخر الدين، وشيخ الاسلام بها، وأولاد عثمان بن عفان المصري، وهم كبراء المسلمين بها، ومعهم علم أبيض والاطبال، والانقار والابواق، وخرج أميرها في موكبه، ودخلنا المدينة. وهي ست مدن على كل مدينة سور، ويحدق بالجميع سور واحد.

فأول مدينة يسكنها حراس المدينة وأميرهم... حدثني القاضي وسواه: انهم اثنا عشر الفًا في زمام العسكرية. وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم. وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود. ويسكن بها اليهود والنصارى، والترك عبدة الشمس، وهم كثيرون. وأمير هذه المدينة من أهل الصين. وبتنا عنده الليلة الثانية. وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة، ويسكنها المسلمون. ومدينتهم حسنة واسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الاسلام. وبها المساجد والمؤذنون، سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصري، وكان احد التجار الكبار. وقد استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة إليه، وأورث عقبه بها الجاه والحرمة. وهم على ما كان عليه أبوهم من الايثار للفقراء والاعانة

للمحتاجين. ولهم زاوية تعرف بالعثمانية، حسنة العمارة لها اوقاف كثيرة وبها طائفة من الصوفية. وبنى عثمان المساجد الجامع بهذه المدينة، ووقف عليه وعلى الزاوية اوقافاً عظيمة. وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير. وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوماً. فكنا كل يوم وليلة في دعوة جديدة، ولا يزالون يحتفلون في اطعمتهم، ويركبون معنا كل يوم للنزهة في اقطار المدينة. وركبوا معي يوماً، فدخلنا المدينة الرابعة، وهي دار الإمارة وبها سكنى الأمير الكبير قرطي. ولما دخلنا من بابها ذهب عني اصحابي ولقيني الوزير، وذهب بي إلى دار الأمير الكبير قرطي.

وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه.. وهي من أحسن المدن الست. ويشقها أنهار ثلاثة: احدها خليج يخرج من النهر الأعظم، وتأتي فيه القوارب الصغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام واحجار الوقد وفيه السفن للنزهة. والمشور في وسط هذه المدينة، وهو كبير جداً، ودار الإمارة في وسطه، وهو يحف بها من جميع الجهات. وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب.

اخبرني الأمير قرطي أن عددهم الف وستمائة معلم، كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلمين. وهم اجمعون عبيد القان، وفي أرجلهم القيود. ومساكنهم في خارج القصر. ويباح لهم الخروج إلى أسواق المدينة دون الخروج من بابها. ويعرضون كل يوم على الأمير، مائة مائة. فان نقص احدهم طولب به أميره.. وعادتهم أنه إذا خدم احدهم عشر سنين فك عنه قيده. وكان يخيَّر في النظرين: اما أن يقيم في الخدمة غير مقيد، وإما أن يسير حيث شاء من بلاد القان، ولا يخرج عنها. وإذا بلغت سنه خمسين عاماً اعتق من الاشغال وأُنفق عليه. وكذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم. ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبي، فلم تجر عليه الاحكام. والشيوخ بالصين يعظمون تعظيماً كثيراً، ويسمى احدهم (آطا) معناه الوالد (ج٤ /٢٨٤ ـ ٢٨٨).

عود إلى المغرب والأندلس

وفي القاهرة تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين، المتوكل على رب العالمين، أبا عنان، أيده الله تعالى، قد ضم الله به نشر الدولة المرينية، وشفي ببركته، بعد اشفائها، البلاد المغربية، وافاض الاحسان على الخاص والعام، وغمر جميع الناس بسابغ الإنعام.. فتشوقت النفوس إلى المثول ببابه، وأملت لثم ركابه. فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية، مع ما شفني من تذكار الأوطان، والحنين إلى الأهل والخلان، والمحبة لبلادي التي لها الفضل عندي على البلدان.

بلاد بهـــا نيطت علـى تمـــائمي وأول أرض مس جلدي ترابهـــا

فركبت البحر في قرقور لبعض التونسيين صغير.. وذلك في صفر سنة خمسين

وسبعمائة وسرت حتى نزلت بجربة. وسافر المركب الى تونس، فاستولى العدو عليه. ثم سافرت في مركب صغير إلى قابس، فنزلت في ضيافة الأخوين الفاضلين أبي مروان وأبي العباس ابني مكي، اميري جربة وقابس. وحضرت عندهما مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم ركبت في مركب إلى صفاقس. ثم توجهت في البحر إلى بليانه، ومنها سرت في البر مع العرب، فوصلت بعد مشقات إلى مدينة تونس، والعرب محاصرون لها.

وكانت تونس في ايالة مولانا أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، علم الاعلام، وأوحد الملوك الكرام، أسد الآساد، وجواد الأجواد، القانت الأواب، الخاشع العادل، ابي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ناصر دين الاسلام، الذي سارت الأمثال بجوده، وشاع في الأقطار اثر كرمه وفضله، ذي المناقب والمفاخر، والفضائل والمآثر، الملك العادل الفاضل، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ناصر الإيمان، الشديد السطوة في ذات الرحمن، العابد الزاهد، الراكع الساجد، الخاشع الصالح، أبي يوسف ابن عبد الحق، رضي الله عنهم اجمعين، وابقى الملك في عقبهم إلى يوم الدين.

ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن الناميسي، لما بيني وبينه من مودات القرابة والبلدية. فانزلني بداره، وتوجه معي إلى (المشور)، فدخلت (المشور الكريم)، وقبلت يد مولانا أبي الحسن رضي الله عنه.. وأمرني بالقعود فقعدت. وسألني عن الحجاز الشريف وسلطان مصر، فأجبته. وسألني عن ابن بيفراجين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه، وإرادتهم قتله بالاسكندرية، وما لقي من اذيتهم، انتصاراً منهم لمولانا ابي الحسن رضي الله عنه، وانصرفت عن المجلس الكريم. فلما كان بعد العصر استدعاني مولانا أبو الحسن وهو ببرج يشرف على موضع القتال، ومعه الشيوخ الجلة.. فسألني عن ملك الهند فأجبته عما سأل. ولم أزل أتردد إلى مجلسه الكريم أيام اقامتي بتونس، وكانت ستة وثلاثين يوماً. ولقيت بتونس إذ ذاك الشيخ الامام خاتمة العلماء وكبيرهم، أبا عبد الله الابلي، وكان في فراش المرض.. وباحثني في كثير من أمور رحلتي.

ثم سافرت من تونس في البحر، فوصلنا إلى جزيرة سردانية من جزر الروم، ولها مرسى عجيب عليه خشب كبار دائرة به.. وله مدخل كأنه باب لا يفتح إلا بإذن منهم. وفيها حصون دخلنا احدها، وبه اسواق كثيرة. ونذرت لله تعالى، ان خلصنا الله منها، صوم شهرين متتابعين، لأننا عرفنا أن اهلها عازمون على اتباعنا إذا خرجنا عنها ليأسرونا، ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تنس ثم إلى مازونة ثم إلى مستغانم ثم إلى تلمسان... ثم سافرنا منها، فبينما نحن بقرب ازغنغان، إذ خرج علينا

خمسون راجلاً وفارسان، وكان معي الحاج ابن قريعات الطنجي، وأخوه محمد المستشهد بعد ذلك في البحر. فعزمنا على قتالهم ورفعنا علما. ثم سالمونا وسالمناهم والحمد لله. وصلت إلى مدينة تازا، وبها تعرفت خبر موت والدتي بالوباء رحمها الله تعالى.

ثم سافرت من تازا، فوصلت يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة الى حضرة فاس، فمثلت بين يدي مولانا الأعظم، الامام الأكرم، أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، أبي عنان، وصل الله علوه، وكبت عدوه. فأنستني هيبته هيبة سلطان العراق، وحسنه حسن ملك الهند، وحسن أخلاقه حسن خلق ملك اليمن، وشجاعته شجاعة ملك الترك، وحلمه حلم ملك الروم، ودينه دين ملك تركستان، وعلمه علم ملك الجاوة.

وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة، والمآثر الكثيرة، ابو زيان بن ودرار.. فسألني عن الديار المصرية، إذ كان قد وصل إليها، فأجبته عما سأل. وغمرني من احسن مولانا أيده الله تعالى ما اعجزني شكره، والله ولي مكافأته. وألقيت عصا التسيار ببلاده الشريفة، بعد ان تحققت بفضل الانصاف أنها احسن البلدان. لأن الفواكه بها متيسرة، والمياه والاقوات غير متعذرة، وقل اقليم يجمع ذلك. ولقد احسن من قال:

الغـــــرب احـــــسن أرض ولـي دلـيـل عـلـيـــــــــه
الـبـــــــــدر يـرقـب مـنـه والـشـــمس تســـعى إلـيـــه

ودراهم الغرب صغيرة، وفوائدها كثيرة.. وإذا تأملت اسعاره مع اسعار ديار مصر والشام، ظهر لك الحق في ذلك، ولاح فضل بلاد المغرب. فأقول: إن لحوم الاغنام بديار مصر تباع بحسب ثماني عشرة اوقية بدرهم نقرة. والدرهم النقرة ستة دراهم المغرب. وبالمغرب يباع اللحم اذا غلا سعره، ثماني عشرة اوقية بدرهمين. وهما ثلث النقرة. وأما السمن فلا يوجد بمصر في اكثر الأوقات، والذي يستعمله أهل مصر من أنواع الادام لا يُلتفت إليه بالمغرب.. ولأن اكثر ذلك العدس والحمص، يطبخونه في قدور راسيات، ويجعلون عليه الشيرج والبسلا، وهو صنف من الجلبان، يطبخونه ويجعلون عليه الزيت. والقرع يطبخونه ويخلطونه باللبن، والبقلة الحمقاء يطبخونها كذلك. وأعلى اغصان اللوز يطبخونها ويجعلون عليها اللبن. والقلقاس يطبخونه. وهذا كله متيسر بالمغرب لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك.

وأما الخضر فهي أقل الأشياء ببلاد مصر.. وأما الفواكه فأكثرها مجلوبة من الشام. وأما العنب فإذا كان رخيصاً بيع عندهم ثلاثة أرطال من أرطالهم بدرهم نقرة، ورطلهم اثنتا عشرة أوقية. وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة، إلا أنها ببلاد الغرب

ارخص منها ثمناً... فإن العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة، ورطلهم ثلاثة ارطال مغربية. وإذا رخص ثمنه بيع بحساب رطلين بدرهم نقرة. وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منه بثمانية فلوس، وهي درهم من دراهم المغرب. وأما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها اقل مما يباع في بلادنا بالدرهم الصغير. وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة.

فإذا تأملت ذلك كله، تبين لك أن بلاد المغرب ارخص البلاد اسعاراً، واكثرها خيرات، واعظمها مرافق وفوائد. ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفاً الى شرفها، وفضلاً إلى فضلها، بامامة مولانا أمير المؤمنين، الذي مد ظلال الأمن في اقطارها واطلع شمس العدل في ارجائها، وافاض سحاب الإحسان في باديتها وحاضرتها، وطهرها من المفسدين، وأقام بها رسوم الدنيا والدين. وانا اذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وضجاعته، واشتغاله بالعلم وتفقهه، وصدقته الجارية، ورفع المظالم (ج٤ / ٣٢٦ ـ ٣٣٧).

بعض فضائل مولانا أيده الله ـ اما عدله فأشهر من ان يسطر في كتاب، فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته، وتخصيصه يوم الجمعة بالمساكين منهم، وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء، وتقديمه النساء لضعفهن، فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة إلى العصر، ومن وصلت نوبتها نودي باسمها، ووقفت بين يديه الكريمتين، يكلمها دون وساطة. فان كانت متظلمة عجل إنصافها، أو طالبة احسان وقع اسعافها. ثم إذا صليت العصر قرئت قصص الرجال، وفعل مثل ذلك فيها. ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة، فيرد إليهم ما تعلق بالاحكام الشرعية. وهذا شيء لم أر في الملوك من يفعله على هذا التمام، ويظهر فيه مثل هذا العدل.. فإن ملك الهند عيَّن بعض أمرائه لأخذ القصص من الناس، وتلخيصها ورفعها إليه، دون حضور أربابها بين يديه.

وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب.. فانه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه، وعن اهل الجرائم الكبار الذين لا يعفو عن جرائمهم إلا من وثق بربه، وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى: «والعافين عن الناس».

قال ابن جزي: من أعجب ما شاهدته من حلم مولانا أيده الله، أني منذ قدومي على بابه الكريم في آخر عام ثلاثة وخمسين إلى هذا العهد، وهو اوائل عام سبعة وخمسين، لم اشاهد أحداً أمر بقتله إلا من قتله الشرع في حد من حدود الله تعالى، قصاص أو حرب، هذا على اتسام المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف. ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الاعصار، ولا فيما تباعد من الاقطار.

وأما هزائم الاعادي فانها اتفقت للملوك بثبوت جيوشم، واقدام فرسانهم، فيكون حظ الملوك الثبوت، والتحريض على القتال. وأما مولانا أيده الله، فانه أقدم على عدوه منفرداً بنفسه الكريمة، بعد علمه بفرار الناس، وتحققه أنه لم يبق معه من

يقاتل.. فعند ذلك وقع الرعب في قلوب الاعداء، وانهزموا امامه.. فكان من العجائب فرار الأمم امام واحد.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والعاقبة للمتقين.

واما اشتغاله بالعلم، فها هو أيده الله تعالى يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح. ويحضر لذلك اعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم، فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم، وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وفروع مذهب مالك رضي الله عنه، وكتب المتصوفة. وفي كل علم منها له القدح المعلى، يجلو مشكلاته بنور فهمه، ويلقي نكته الرائقة من حفظه.. وهذا شأن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين.

ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم هذه النهاية. فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح في العلوم المعقولات خاصة، ورأيت ملك الجاوة يُتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة في الفروع على مذهب الشافعي خاصة. وكنت أعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاتي العشاء الأخيرة والصبح في الجماعة، حتى رأيت ملازمة مولانا أيده الله للصلوات كلها في الجماعة، ولقيام رمضان.. والله يختص برحمته من يشاء (٤ / ٣٣٧ ـ ٣٤٣).

قال ابن جزي: اخترع مولانا أيده الله في الكرم والصدقات أموراً لم تخطر في الأوهام، ولا اهتدت إليه السلاطين.. فمنها اجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام.. ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين في جميع البلاد أيضاً. ومنها كون تلك الصدقات خبزاً مخبوزاً متيسراً للانتفاع به.. ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده.. ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء في عيد الأضحى.. ومنها التصدق بما يجتمع في مجابي أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان، اكراماً لذلك اليوم الكريم وقياماً بحقه.. ومنها إطعام الناس في جميع البلاد ليلة المولد الكريم، واجتماعهم لإقامة رسمه.. ومنها صدقته على الزمني والضعفاء يقيمون بها أودهم.. ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف الجياد، وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير. ومنها بناء المارستانات في كل بلد من بلاده، وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى، وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف في طبهم، إلى غير ذلك مما ابدع فيه من أنواع المكارم وضروب المآثر.. كافأ الله أياديه وشكر نعمه (٤ / ٣٤٦ ـ ٣٤٧).

ومن أعظم حسناته أيده الله عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء، دار ملكه العلي.. وهو الذي امتاز بالحسن وإتقان البناء، وإشراق النور وبديع الترتيب، وعمارة المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر، مما يجاور قصبة فاس. ولا نظير لها في المعمورة اتساعاً وحسناً وابداعاً وكثرة ماء وحسن وضع. ولم أر في مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها، وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحمص خارج المدينة البيضاء، فلا مثيل لها أيضاً وفي عجيب وضعها، وبديع صنعها. وابدع زاوية

رأيتها بالشرق زاوية (سرياقوس) التي بناها الملك الناصر. وهذه أبدع منها وأشد احكاماً واتقاناً.. والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة، ويكافىء فضائله المنيفة، ويديم للاسلام والمسلمين أيامه، وينصر ألويته المظفرة وأعلامه. (٤ / ٣٥٢ ـ ٣٥٣).

في الأندلس ـ مالقة، احدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان، جامعة بين مرافق البر والبحر، كثرة الخيرات والفواكه.. رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير. ورمانها الياقوتي لا نظير له في الدنيا. وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب.

وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب، ويجلب منها إلى اقاصي البلاد. ومسجدها كبير الساحة شهير البركة، وصحنه لا نظير له في الحسن، فيه اشجار النارنج البعيدة.. ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها الخطيب الفاضل ابا عبد الله ابن خطيبها الفاضل أبي جعفر ابن خطيبها ولي الله تعالى أبي عبد الله الطنجالي، قاعداً بالجامع الاعظم، ومعه الفقهاء ووجوه الناس، يجمعون مالاً برسم فداء الاسارى الذين تقدم ذكرهم. فقلت له: «الحمد لله الذي عافاني ولم يجعلني منهم». واخبرته بما اتفق لي بعدهم، فعجب من ذلك، وبعث إلي بالضيافة، رحمه الله.

ثم سافرت منها إلى مدينة بلش، وبينهما أربعة وعشرون ميلاً.. وهي مدينة حسنة بها مسجد عجيب، وفيها الاعناب والفواكه والتين، كمثل ما بمالقة. ثم سافرنا منها إلى الحمة وهي بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء، وبها العين الحارة على ضفة واد بها.. وبينها وبين البلد ميل أو نحوه.. وهنالك بيت لاستحمام الرجال، وبيت لاستحمام النساء.

ثم سافرت منها إلى مدينة غرناطة، قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها.. وخارجها لا نظير له في بلاد الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً، يخترقه نهر شنيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة. والبساتين والجنان والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة.. ومن عجيب مواضعها عين الدمع، وهو جبل فيه الرياض والبساتين، لا مثيل لها بسواها. قال ابن جزي: لولا خشيتي أن انسب إلى العصبية لاطلت القول في وصف غرناطة، ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لاطالة القول فيه. ولله در شيخنا أبي بكر محمد بن أحمد بن شيرين البستي نزيل غرناطة حيث يقول:

رعى الله من غرناطة متبوا ... يسر حزيناً أو يجير طريدا
تبرم منها صاحبي عندما رأى ... مسارحها بالثلج عدن جليدا
هي الثغر صان الله من أهلت به ... وما خير ثغر لا يكون برودا

(ج ٤/ ٣٦٥ ـ ٣٦٩).

في المغرب ـ مراكش، وهي من أجمل المدن، فسيحة الأرجاء، متسعة الأقطار، كثيرة الخيرات، بها المساجد الضخمة، كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكتبيين. وبه الصومعة العجيبة، صعدتها، وظهر لي جميع البلد منها، وقد استولى عليه الخراب، فما شبهته إلا ببغداد، إلا ان اسواق بغداد احسن. وبمراكش المدرسة العجيبة، التي تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة. وهي من بناء الإمام مولانا أمير المسلمين أبي الحسن، رضوان الله عليه. قال ابن جزي: في مراكش يقول قاضيها التاريخي، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي:

لله مـــــراكش الغـــــراء من بلد ... وحـــبـذا اهلهـــا الســـادات من سكن
إن حلهـــا نازح الأوطان مـــغـــتـــرب ... اسـلـوه بـالانس عـن أهـل وعـن وطـن
بين الحـديث بهـا أو العـيـان لهـا ... ينشـا التـحـاسـد بين العـين والأذن

(رجع) ثم سافرنا من مراكش في صحبة الركاب العلي، ركاب مولانا أيده الله، فوصلنا إلى مدينة سلا، ثم إلى مدينة مكناسة العجيبة الخضرة النضرة، ذات البساتين والجنات، المحيطة بها من جميع نواحيها.. ثم وصلنا إلى حضرة فاس حرسها الله تعالى، فودعت بها مولانا أيده الله. وتوجهت للسفر إلى بلاد السودان. فوصلت إلى مدينة سجلماسة، وهي من أحسن المدن، وبها التمر الكثير الطيب. وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر، لكن تمر سجلماسة أطيب (ج٤ / ٣٧٤ ـ ٣٧٦).

من افعال السودان

فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه.. وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه.. ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقاً ولا غاصباً.. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض، ولو كان القناطير المقنطرة، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه.. ومنها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان إلى المسجد، لم يجد اين يصلي لكثرة الزحام. ومن عاداتهم أن يبعث كل انسان غلامه بسجادته، فيبسطها له بموضع يستحقه به، حتى يذهب إلى المسجد. وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل، ولا ثمر له.. ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة. ولو لم يكن لاحدهم إلا قميص خلق غسله ونظَّفه وشهد به الجمعة.

ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود، إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد، وأولاده مقيدون، فقلت له: «الا تسرحهم؟» فقال: «لا افعل حتى يحفظوا القرآن». ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل، فقلت

لمن كان معي: «ما فعل هذا، أقتل؟» ففهم عني الشاب وضحك. وقيل لي: «إنما قيد حتى يحفظ القرآن».

ومن مساوىء افعالهم أن الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا، ولقد كنت أرى في رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة، فإن عادة (الفرارية) أن يفطروا بدار السلطان، ويأتي كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فمن فوقهن من جواريه، وهن عرايا.. ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدباً، ومنها أن كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير (ج ٤ / ٤٢١ ــ ٤٢٤).

٦ ـ رحَّالة القرن الخامس عشر

الرحالة في القرن الخامس عشر (القرن الثامن)

من امراء المماليك الذين اشتهروا بالإدارة خليل بن شاهين الظاهري، الذي ألف كتاب «زبدة كشف الممالك»، وهو دليل إداري مفصل لما كانت عليه الإدارة المملوكية في أوج عزها. ولد عبد الباسط بن خليل في ملطية في ٨٤٤ / ١٤٤٠. ومع أن أباه كان في عداد المقدمين من رجال الإدارة والحكم، فإن عبد الباسط لم يجد لذة في هذا النوع من العمل.. فتعيش بالتجارة وشغف بدرس الفقه والأدب وألف كتاب «الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم».

ومما يدل على شغف رحَّالتنا بالعلم، وبالطب خاصة، أنه رحل إلى ديار المغرب والأندلس ليتصل بالأطباء ويأخذ عنهم، على ما قاله هو عن نفسه.. إلا أنه، على ما سيبدو لنا من قراءة مختارات من رحلته، كان يعمل بالتجارة أيضاً.

غادر عبد الباسط الاسكندرية في شوال ٨٦٦ / صيف ١٤٦٢ في سفينة للبنادقة حملته إلى تونس في ٣٣ يوماً بعد ان مرت برودس.. وبعد أن اقام بضعة شهور في حاضرة الحفصيين ركب البحر ثانية، وفي سفينة للبنادقة للمرة الثانية، إلى جزيرة جربه فطرابلس الغرب، حيث ظل هناك شهوراً عدة ثم غادرها ميمماً شطر قابس والقيروان، المدينة التي أسسها عقبة بن نافع. ومن القيروان سار في شوال ٨٦٨ / حزيران ١٤٦٤ بطريق البر إلى تلمسان ماراً بتونس وقسطنطينية والجزائر ومازونه.. فوصل تلمسان بعد ستة أسابيع من السير المجد، وقضى سنة متردداً بين تلمسان ووهران. والظاهر أن ما كانت تعانيه مراكش من فتن وحروب حال بينه وبين زيارتها، ولذلك نجده في شتاء ٨٧٠ / ١٤٦٥ يبحر من وهران الى الأندلس في سفينة جنوية، فيزور غرناطة عاصمة بني نصر. ثم يبدأ عودته، فقضى ثمانية شهور في وهران، ثم اقلع في سفينة جنوية إلى تونس فطرابلس.. ومن هنا عاد إلى الاسكندرية براً فوصلها في شوال ٨٧١ /ايار (مايو) ١٤٦٧، فتكون غيبته في المغرب والأندلس خمس سنوات.

كان عبد الباسط يصطحب معه إحدى نسائه في هذه الرحلة. وقد وضعت له بنتين الأولى في تونس لكنها ماتت بيومها، والثانية في تلمسان، وقد عاشت نحو خمس سنين ثم توفيت في القاهرة. وقد قال عن الأولى: «وفيه (جمادى الأولى سنة ٨٦٧).

في يوم الاربعاء سادس عشرينه ولدت لي ابنة من أمتي أم الفتح شكرباي وسميتها عائشة. فلم تلبث أن ماتت في آخر هذا النهار وتأسفت عليها لاشتياقي إلى الأولاد ثم دفناها بمكان يقال له الزلاج جبانة عظيمة بتونس بها الكثير من الصالحين والأولياء والله تعالى يعوضني خيراً منها».. اما الثانية فقد ذكرها بقوله: «وفيه (ذي الحجة سنة ٨٦٨) ولدت لي ابنة بتلمسان من أم ولدي شكرباي أم الفتح وسميتها عائشة أيضاً، واغتبطت بها بحيث كنت أتولى اكثر أمورها في التربية بيدي. ودامت إلى ان دخلت بها القاهرة في عودي من بلاد المغرب. ونشأت كيسة فطنة على صغر سنها، واقرأتها شيئاً من القرآن وتعلمت الكتابة. فلما دخل طاعون سنة ثلث وسبعين (٨٧٣). ماتت مطعونة في ليلة نصف شهر رمضان، ولم تكمل الخمس سنين وكثر اسفي عليها عوضني الله خيراً منها». ويبدو لنا من هاتين العبارتين مدى ما كان يتمتع به عبد الباسط من رقة الشعور.

اما الشخص الآخر الذي كان يرافق عبد الباسط في حله وترحاله، فهو أسير مسلم كان قد وقع في ايدي الفرنج وافتكه عبد الباسط في تونس، فظل معه وخدمه. هذا فضلاً عن جماعة من الغلمان والعبيد كانوا يسيرون في ركابه ويقيمون بخدمته وخدمة تجارته. ذلك أن الرجل كان يحمل المتاجر فيبيعها ويتعيش منها. وقد كان القماش القطني المصري مرغوباً كثيراً في المغرب أيامها، وبضاعته رائجة.. ولسبب اهتمام عبد الباسط بالتجارة، فقد يسر له ذلك الاتصال بتجار المغرب والأندلس وأهل الطبقة الثرية في تلك الاقطار، ولم تقتصر علاقاته على أهل الطب والعلم فحسب. وقد كانت تونس في ذلك الوقت، على ما يبدو من حديث عبد الباسط، يكثر فيها التجار من الأندلس والأطباء والعلماء والشعراء والطلاب. ولا عجب في ذلك، فقد كانت عاصمة الحفصيين وهم من نعرف من عناية بالعلم وتشجيع للأدباء.. فأتاح ذلك كله لعبد الباسط أن يوسع دائرة معارفه، ويوطد صداقاته مع فئات من جميع أنواع الناس. وساعده على ذلك أنه لم يكن تاجراً فحسب.. ولكنه كان عالماً بالفقه والطب والحديث وشاعراً، وبذلك فقد كان يفيد ويستفيد في كل مناسبة ومن جميع المشتغلين بشؤون الفكر والتجارة.. وكان محبباً لهؤلاء جميعاً إذ لم يؤذ أحداً.

ولم يدون عبد الباسط أخبار رحلته على أنها وحدة على ما فعل ابن جبير أو ابن بطوطة أو سواهما.. ولكنه ضمنها كتابه الروض الباسم[1]. فكان يدون اجزاءها حيث تعرض في سياق كتابة التاريخ. وحري بالذكر أن الروض الباسم مصدر رئيسي للتاريخ المغربي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر.. فما كان يحدث بين صاحب تلمسان وصاحب تونس من علاقات حرب أو سلم مثلاً، موضح في هذا الذي وصل إلينا من الروض الباسم ومثل ذلك كثير.

وصل عبد الباسط تونس وصاحبها خارج عنها في حملة لاخضاع صاحب تلمسان الذي بدا منه أنه شق عصا الطاعة.. وظل هناك حتى عودة السلطان المتوكل على الله عثمان وخرج إلى لقائه مع من خرج... ويصف هذا وصفاً جميلاً.. وعندما يقع حدث أو شيء تحت سمع عبد الباسط أو بصره فانه يصفه وصفاً لطيفاً.. وهكذا فنواح مختلفة من الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر واضحة المعالم فيما كتبه عبد الباسط، على ما سيرى القارىء في المختارات.

عبد الباسط في المغرب

في تونس سنة ٨٦٦ ــ وفيه في يوم الاربعاء ثاني عشرينه (ذي العقدة) دخلنا إلى مدينة تونس بعد أن بقينا بالبحر ثلثا وثلثين يوماً، فرأيت مدينة حسنة جليلة هائلة بديعة تقرب من دمشق في جفنها، ونزلت بدار بها بمكان يسمى فندق الرماد.

وفيه في يوم الأربعاء ثامن عشرينه (ذي الحجة) ورد إلى مرسى تونس وإلى ميناها اثنان من مراكب الفرنج ومعهم عدة أسرى للفدى وافدوا. ثم أُتفق إلى انني توجهت إلى المرسى، ونزلت في قارب للتفرج على ذين المركبين، فطلعت إلى الأكبر منهما وبينا أنا اتفرج فيه.. وإذا بشخص من الأسرى المحضرين تركي الجنس، من بلاد حاج ترخان من دشت قبجاق التتر لا يعرف شيئاً باللغة العربية بل بالتركية والفرنجية، لم يبق في المركب غيره من الأسرى، فسألته بالتركية عن اسمه، فاجابني.. ثم قال لي أنا من أسرى المسلمين، فقلت له: «قد افدي جميع أسرى المسلمين فما بالك» فقال: «كلموني خبر الفدا، فلم اعرف بلغة العرب لأترجم عما في ضميري فلم يلتفت إلي احد وظنوا أنني كافر» فوعدته بأنني افديه، فدعا لي، ثم لما نزلت اجتمعت بصاحبنا الخواجا التاجر المعظم المكرم سيدي أبي القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسي نزيل تونس وعظيم التجار بها عن هذا الشخص، فقال والله اننا ظننا أنه من الكفار ولم نعلم لغته.. فاعلمته باسلامه، وانه تركي الجنس من خيار المسلمين لا يعرف غير لغة الترك والفرنج، فانه أسر في ايديهم وله بزيادة على الخمسة وعشرين سنة، وكان اخبرني بذلك.. فتلطف في قضيته وفديته بأربعين ديناراً من مالي وانزلته إلى البر فلازمني، ولا زال في خدمتي عدة سنين وحصل لي به غاية النفع والرفق (ص ١٧ ــ ٢٠).

في تونس سنة ٨٦٧ ــ وفيه في يوم الأحد سابع عشرينه (ربيع الأول) جمع التاجر المعظم الخواجا المكرم الحاج أبو القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسي نزيل تونس وكبير التجار بها جماعة من اعيان التجار من اصحابه والحجاج منهم من أهل الأندلس وغيرهم، وعمل لهم ضيافة حافلة بمكان من اجنة تونس يقال له رأس الطابية من منتزهات ملوك تونس وأمكنة فرجهم. وكنت في ذلك اليوم ممن دعي لهذه

الضيافة. فرأيت هذا الجنان في غاية الاتقان والحسن، وبه مكان كالقصر برسم السلطان. ثلث طباق عظيم إلى الغاية، أنيق البناء فرج نزه بناء ملوكي على صفة غريبة وهيئة عجيبة.. وبه بركة ماء عظيمة كبيرة جداً، وبه شيء يقال له المحنشة برسم جريان الماء فيه نقر في حجر كالرخام يدخل الماء إليه من جهة، ثم يجول فيه جولاناً غريباً في أوضاع محفورة نقراً في هذه البلاطة على هيئة دائرة واسعة متداخلة النقور بديعة الصفات تسر الناظر وتشرح الخاطر، وهي من النوادر يجول فيها الماء كأنه حنش ويتعاكس الجولان عدة معاكسات غريبة الهيئات. ثم هيأوا من جملة هذه الضيافة مأكولاً يقال له المجبنة من مآكيل الأندلس.. وصفته جبن طري يدعك بالأيدي حتى يصير كالعجين، ثم يعجن السميد عجناً محكماً مملوكاً جيداً حتى يصير في قوام عجين الزلابية بهذه البلاد أو اغلظ قواماً منه بيسير، ثم يؤخذ منه قطعة تبسط بالكف بلطافة وشباقة ثم يجعل عليها قطعة من الجبن المدعوك، ويجمع حتى يصير الجبن حشواً لها ثم يبسط قليلاً ثم يلقى في الطاجن وهو على النار بالدهن، فيلقى ثم يرفع ويرش عليه السكر المدقوق ناعماً ومعه اليسير من الكمون. وعمل ذلك بين يدي الحاضرين، وتولى عمله بعض من الجماعة من ظرفائهم، وكان يوماً معدوداً من الأعمار سالماً من الأغيار اجتمع فيه عدة من ظرفاء أهل الأندلس وأعيانها من طلبة علم وتجار كلهم أهل ذكاء، وحصلت مذاكرات علمية أدبية تاريخية إلى غير ذلك.

وفيه في يوم السبت تاسع عشرين (جمادى الأول) بعث إلى محمد المسعود بالله ابن المتوكل على الله عثمان صاحب تونس ولي عهد أبيه يستدعيني إليه بالحضور إلى بين يديه، وكنت لم اجتمع به وبلغه عني انني أنظم أو نحو ذلك. فلما حضرت عنده أنس بي ورفع من محلي ثم أخذ يتلطف بي في المؤانسة بالكلام وانشدته هذين البيتين:

الا يا آل حفص يا ملوكا ... ويا دررا بهم نظمت سلوك

الا فقتم ملوك الأرض طرا ... فما من بعدكم احد مليك

فأعجباه إلى الغاية واجار وأثاب جزاه الله تعالى خيراً، وكتب لي ظهيراً باعفائي عن المغارم واللوازم فيما اتجر فيه. وترددت عليه المرة بعد الأخرى واجتمعت به مرة، وعنده الشيخ العالم الفاضل يحيى الكسيلي شيخ بلد العناب.

وفيه في يوم الأحد ثاني عشرينه، كثرت استغاثه المسجونين بتونس حتى أعيوا السامعين، فسأل السلطان صاحب تونس عن حالهم، فبلغه بأنهم يشكون الجوع، فأمر لهم بطعام يفرق فيهم، وحصل لهم بذلك نوع رفق في الجملة (ص ٢٠ ـ ٣٥).

مدن أخرى في القطر التونسي ـ وفيه (شعبان) ورد إلى تونس شواني البنادقة برسم الاتجار، وحمل التجار من تونس ببضائعهم إلى ثغر الاسكندرية، وقوى عزمي على العود وتجهزت لذلك.

وفيه اعني شهر رمضان هذا في يوم الخميس ثامنه، دخلنا إلى جزيرة جربة ونزلنا من الشواني إليها، فرأيت جزيرة عجيبة في الجزائر قريبة من احد جوانبها إلى البر الكبير خصبة جداً، ذات كروم وزيتون وغنم كثير وخير وافر.. وإلى قرب ميناها حصن منيع دخلت إليه ورأيته، وديارها في بساتينها وليست بمدينة مسورة، بل مفرقة الأبنية أنيسة جداً مربعة الشكل بوضع غريب، فأقمنا بساحلها ثمانية ايام فأوسق التجار منها الزيت الكثير وأنواع الاكسية ثم اقلعنا عنها قاصدين طرابلس المغرب..

وفيه (جمادى الثانية ٨٦٨) في يوم الأحد خامس عشرينه، دخلت إلى مدينة قابس بالقرب من القيروان، فرأيت مدينة عجيبة غير أنها خربت جداً، وليس بها إلا القليل من الناس والعمارة.. فسبحان من لا يتغير. وفيه في يوم الاربعاء ثامن عشرينه، دخلنا إلى مدينة القيروان، وحللت بها للاقامة شيئاً.. فأنزلنا الشيخ الامام العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد البلوي، الشهير بابن البكوش عالم القيروان ومفتيها وطبيبها، بدار إلى جانب داره وانس إلي جدا... واخذت بعد ذلك في الحضور إلى مجالس دروسه، واخذنا عنه العلم الكثير في الوقت اليسير باجتهاد وكثرة ترداد ما بين قراءة بنفسنا عليه وسماع، واستفدنا منه نبذا جيدة في صناعة الطب، وحصلنا الفوائد الجمة الجليلة إلى الغاية والنهاية واجاز لنا.

وفيه (رجب) ورد خبر من تونس إلى القيروان بأن شخصاً دخل إلى مدينة تونس يدَّعي المعرفة بالطب مع طعنه في من وجد من أطباء تونس بأنهم لا يعرفون شيئاً، وانه سعى إليه ذوو الأمراض والعاهات وهو يظهر أنه يعالج من جاءه.. فاتفق أن جاءه انسان كالمستسقى، فقال له بعد أن نظر إليه: «انت قد بلعت ثعباناً هو في جوفك ومنه حصل لك هذا الحاصل». ثم سقاه دواء مقيأ موهماً بأنه سيخرج الثعبان من جوفه، فتقيأ في طست بعنف إلى أن سقط الثعبان من جوفه في الطست حياً، وشاهده كل واحد واستفيض ذلك لكثير من الناس حتى بلغ السلطان.. فأكرم ذلك الشخص واشيع بأنه جعله كبير الأطباء بتونس. وبلغ هذا الخبر شيخنا ابن البكوش الماضي ذكره، فأنكر ذلك وتعجب من السلطان في قبوله مثل ذلك، واخذته الغيرة... فكتب مكتوباً لعثمان صاحب تونس يلومه على قبول عقله مثل ذلك، ويعرفه أن هذا من الخلل في ملكه ونقص في حقه. وبيَّن له أن الحيوان لا يدخل المعدة من غير شعور صاحبها، وعلى تقدير دخوله إليها لا يمكن أن يعيش فيها إذا ورد عليها من الخارج، وبيَّن له ذلك. فلما وقف صاحب تونس على ذلك أحضر ذلك الشخص وقال له: «قد آمنتك على نفسك واعلمني بهذه القضية وإلا كان لك ما لا خير فيه». فاعلمه أنه انسان فقير الحال، وقصد أن يروج نفسه بما فعله، ووجد هذا الانسان المستسقى.. فأوهمه بأنه ابتلع ثعباناً وناوله دواء مقيئاً بعنف، وان الثعبان كان معداً معه في كمه حياً، ولما قيأه اخذ يظهر بأنه يمس رأس المريض أو نحو ذلك وألقى الثعبان بالطست، ولما نزل إلى

المائع أخذ في الحركة والجولان فراراً من الهلاك وكان ما كان.. فأمر السلطان باخراج هذا الانسان من تونس وعظَّم شيخنا في عينه وبعث يطلبه إلى تونس فامتنع من ذلك (ص ٣٥ ــ ٣٨).

قسنطينة ــ وفيه (ذي القعدة) في سابع عشرة دخلت لمدينة قسنطينة، فرأيت مدينة عجيبة الموضوع حسنة المجموع، على جبل عال، وتحتها واد عظيم كثير الخصب والأجنة والبساتين ذات الاشجار ذوي الثمار المتنوعة، وبها النعم والخيرات، والرخاء الغالب، واعجبتني إلى الغاية، ورأيت أبنيتها وهي جيدة فائقة وأقمنا بها ثلثة ايام ثم سرنا في رابعها إلى جهة تلمسان (ص ٤٠)..

تلمسان ــ في يوم الأحد عاشر ذي حجة كان عيد النحر بتلمسان، فخرجنا للمصلى بظاهرها، وحضر محمد بن أبي ثابت صاحب تلمسان صلاة العيد في هذا اليوم، بعد أن خرج في موكب حافل حين تعالى النهار جداً ثم صلى ونحر اضحيته كبشا أملح في المصلى بعد فراغه من الصلاة. وشهر هذا الكبش محمولاً على بغل مع رجل يعد لذلك. فشق به المدينة لأجل أن يُتيقن بتضحية الامام على قاعدة مذهب الامام مالك رضي الله عنه. وكان هذا الرجل لما سار بهذه الذبيحة الاضحية مجداً ببغله فيها محثاً في ذلك، ولم أكن اعرف ذلك قبل هذا التاريخ.. فسألت بعض اصحابي عن ذلك، فأجابني بأن ذلك من عادة ملوك هذه البلاد. وأصل ذلك ما لحظته أنا من اعلام الناس بأن الامام ذبح. ثم عاد محمد بن أبي ثابت المذكور إلى المدينة في موكبه الحافل، وسمعت امرأة في غضون اجتيازه على الناس من العجائز، تدعو له بدعوات. من ذلك ان يسخر الله تعالى له سليمان بين موسى، فعجبت من ذلك. وكان سليمان هذا من كبار امراء عرب تلك البلاد وهو أمير عربان هلال أعظم من أمير آل فضل في هذه البلاد. ومن كان سليمان هذا معه من ملوك تلمسان راج أمره ومن كان عليه كان في ادبار وتخوف.

وفيه (محرم ٨٦٩) في هذه الأيام احضر إلى مدينة تلمسان، ونحن بها أحد عشر نفراً من الفرنج أسروا من ساحل هنين.. وكانوا وردوا إليها بمركب لتخطف المسلمين والاغارة عليهم بالطرقات ونحوها. فأخذوا وجهزوا إلى تلمسان للسلطان بها حتى يرى فيهم رأيه. وكان لما فطن المسلمون بهم ثاروا عليهم، فهرب منهم الكثير وأخذ من ذكرنا وتقلع الباقون بمركبهم إلى البحر ووسعوا، ولما احضر المأخوذون إلى صاحب تلمسان أمر بستة منهم فعلقوا مشنوقين من رقابهم على بعض أبواب تلمسان إلى أن ماتوا، وابقى منهم خمسة يذكر أنهم من ذوي اليسار ليفادوا عن أنفسهم بالمال...

ولقينا بها جماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء منهم محمد بن علي ابن فشوش احد أطباء تلمسان في المزاولة والدراسة، وسمعت من فوائدهم، وحضرت

دروس بعضهم، ونقلت عنهم أشياء واجازوني.. ولازمت في الطب الرئيس الفاضل الماهر الأدرى، ولا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم وفي علم الوفق والميقات وبعض العلوم القديمة مع التعبد الزائد في دينه على ما يزعمه ويعتقد (ص ٤٠ ـ ٤٤).

حيلة تجار ـ وفيه (ربيع الأول ٨٧٠) في هذه الأيام ورد الخبر إلينا بواهران بأن جمعاً من التجار كانوا قد توجهوا من تلمسان وغيرها إلى فاس وباعوا ما حملوه للاتجار فيه. ولما جرت الفتنة حصروا عن الرجوع عائدين إلى اوطانهم.. فاتفق أربعة منهم على الرجوع بحيلة احتالوها مشيت على العرب وقطّاع الطريق بأن شروا حميراً وجعلوا عليها اخراجاً بما كان معهم من المال النقد، وعمدوا إلى عبى عتيقة فجعلوها أغطية على الاخراج، وانهم اخذوا الطحال من الغنم فجففوه، ودقوه، وحملوه معهم مع شيء من الغراء وخرجوا. وكانوا إذا قربوا من طائفة من العربان أو نجع اذابوا الغراء الذي معهم وجعلوا يلطخون مواضع من ابدانهم على رقابهم ووجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى نصف الساق، ثم يذرون على ذلك مما معهم من الطحال المدقوق المجفف، ويمشون باسكانهم يوهمون بأنهم مجاذيم من أهل البلاء، وانهم يجولون بحميرهم عليها زادهم واثاثهم. فكانوا إذا اجتازوا على العرب ورأوهم على تلك الحالة هربوا فارين منهم وأبعدوا يخشون العدوى حتى كانوا يجعلون لهم من انواع المآكل على ممرهم بالطريق، ويشيرون إليهم من البعد بأن يأخذوا ذلك ويدعون لهم من غير أن يقربوا منهم ولا يصلوا إليهم. ومنهم من كان يجعل الفضة على رأس رمحه، فيناوله اياهم. ولم يزالوا على ذلك حتى وصلوا إلى بلادهم ولم يروا إلا الخير والسلامة، وكان يكاد أن لا يطير الطير من شرور من اجتازوا بهم من العربان. وعد ذلك من غريب الحيل والنوادر (ص ٥٨ ـ ٥٩).

في واهران ـ وفيه (محرم ٨٧١) في ثالثه جرت بواهران غريبة، وهو أن شخصاً من التجار قدم إليها بأشياء، من جملة ذلك ثلثة قرون ملىء بالزباد الجيد يساوي قيمتها جملة من المال... فخاف ان دخل بها من باب المدينة يؤخذ عشرها، فأوسع الحيلة قبل أن يدخل المدينة في اخفائها في ادخالها. والعادة جرت هناك أن من خاف على نفسه من مثل ذلك، وزع ما معه لمن يدخل البلد من أهلها أو اعطاه له ليدخل له به، فانه لا يفتش سواء عرفه صاحب المتاع أو لم يعرفه. وإذا دخل البلد، إما قصده صاحب المتاع فأخذه أو جاء هو به إلى صاحبه. فاتفق ان خرج أمير الباب الذي هو على أخذ هذه العشور، فرآه هذا التاجر وهو راكب، فتوسم فيه الخير، وسأله أن يأخذ هذه الثلث قرون ويدخل بها من الباب لأجل خلاصها له من التعشير، من غير أن يعلم أنه هو المعشر صاحب الباب، فأجابه إلى ذلك بعد أن قال له التاجر: «لعلك تدخل بها

المدينة وتخلصني من تعشيرها وتسليط الظلمة علي ويحصل لك أجر، بل واثيبك على ذلك بشيء من مالي على وجه حل». فقال له: «حباً وكرامة». وأخذ منه ذلك واخفاه معه ودخل به من الباب، ثم دخل التاجر بعده فوجده الجالس لأخذ العشور بالباب، فحصل عنده الباعث بذلك، ولم يمكنه أن يقابله ولا يكلمه فقصدني هذا التاجر وكان بيننا معرفة من قبل ذلك، وذكر لي واقعته وصار في غاية التخوف من ان ينكر العشار ذلك، أو يجعل له الذنب فيأخذ جميعه.. فإنه جرت بعض العادة بأن من فعل مثل ذلك من التجار وظُفر به أُخذ جميع ما فوزه واخفاه من التعشير، لا سيما ان طمع في جانبه. فحملت هم هذا المسكين وقلت له: «قد غررت بنفسك فلا حول ولا قوة إلا بالله. لكن قم بنا إليه عساه أن يسخره الله تعالى وتكلمه في اخذ عشره وتعتذر إليه وانا اساعدك عليه لله. فإنني اعرف هذا الشخص فلعله لا يخيبنا ولا شك عندنا في اننا إذا اكرمناه غاية الاكرام ان يأخذ العشر ويرد الباقي، واما غير ذلك من اخذ الجميع أو زيادة عن العشر أو الانكار رأساً فصار متوهماً لنا».

فلما قدمنا عليه ووقع بصره علينا، نهض إلي قائماً واجلسني بمكان أرفع منه، واجلس الآخر، ثم اخذت في الكلام معه سراً، وقلت له: «خذ العشر ورد الباقي إلى صاحبه، ولك أيضاً شيء يخدمك به ولا تؤاخذه». فقال: «اعوذ بالله. ان يقبح بي أن يكون هذا الغريب قد ظن بي الخير، وآخذ العشر من متاعه، ولم يطلع عليه الشهود ولا غيري من أهل الباب، وقد اعتمد في تخليصه علي وأنا احضر به اليك بنفسي بعد المغرب». والتفت إلى صاحب المتاع وقال له: «متاعك عند فلان اقصده باكر النهار تجده عنده». وأشار إلي فشكرته على صنيعه ودعوت لله وقمنا، وذكرت ذلك للتاجر، فحصل عنده بذلك غاية السرور واحضر شيأ من نوع الهدية ليعطيه صاحب الباب إذا حضر عندي بالزباد، فما استتمينا صلاة المغرب إلا وقد حضر ومعه القرون واسلمها لصاحبها، واقسم بالله أنه لا يأخذ الهدية، وانه لو ظفر بالزباد معه أو مع غيره لعشره، وكان عشره نحو العشرين ديناراً.. فعجبت من هذا الانسان غاية التعجب مع ظلمه ووقوفه في هذه الوظيفة كيف عف وكف. لكنني اعرف اصالته وكونه من ذوي البيوتات، جزاه الله تعالى خيراً عن همته ومروءته، ثم أمرنا بالتكتم في هذه القضية خوفاً من اشاعتها ووصول علمها للسلطان، فكتمنا ذلك عنه إلى أن سافرت من واهران.

وفيه (صفر) في يوم تاسع عشرينه، ورد إلى ساحل مدينة واهران شونية عظيمة من مراكب الفرنج الجنويين برسم الاتجار في الجوخ، وكانت وردت من المحيط من بلاد افلندة ونحوها من بلاد الفرنج بالمحيط، وتجهز كثير من تجار واهران وتلمسان للسفر فيها إلى جهة بلاد تونس وتجهزت أنا أيضاً لذلك، وعزمت على العود لهذه البلاد بعد دخول تونس وغيرها من البلاد.. وكان ما سنذكره (ص ٦٣ ــ ٦٧).

في الطريق ــ وفيـه (ربيع الأول) في حـادي عشـرة، ركبت في البـحـر الملح في الشونية الماضي ذكرها واقلعنا إلى جهة تونس.

وفيه في يوم السبت رابع عشرة، غلن علينا الريح وسكنت، فمنعنا فيه من السفر، فعملت النواتية البحارة فيه بالمقاذيف وكانت المركب مثقلة، فقل سيرها النهار كله.. فلما كان عند العصر، دخلنا إلى ساحل البر بالقرب من بجاية، ونزلنا من المركب فوجدنا طائفة من برابر تلك النواحي والجبال.. فلما رأونا فروا عنا، وظنوا أن هذه المركب قرصال للفرنج، وأنهم غيروا هيئاتهم حيلة لأخذ المسلمين. فصرنا نصيح عليهم من البعد، ونكلمهم بالعربي ونقر بالشهادتين وهم لا يلتفتون إلينا ولا يعرِّجون علينا، لكونهم لا يعلمون باللغة العربية بل البربرية. فلا يفرقون بين لغة الفرنج والعرب، فعجبت أنا من هؤلاء، ثم لما دخلنا بجاية في ثاني هذا اليوم وجدنا الخبر عندهم بأن مركباً من مراكب الفرنج قد تزيا فيها اهلها بزي المسلمين حيلة، لأخذ المسلمين وظهر الحال لأهل بجاية بأننا هم أولئك (ص ٦٧ ــ ٦٨).

وبين الرحلات التي وصلت الينا من ايام المماليك، رحلة رسمية قام بها الملك الأشرف قايتباي ٨٧٢ ــ ٩٠١/ ١٤٦٨ ــ ١٤٩٦ ـ في سورية سنة ٨٨٢ / ١٤٧٨.

كانت شمال سورية معرضة آنئذ للخطر العثماني، بعد أن استقر العثمانيون في شبه جزيرة آسيا الصغرى كلها.. فأراد السلطان أن يشرف بنفسه على حصون البلاد وقلاعها وطرقها وجسورها، فقام بهذه الرحلة التي امتدت من آخر جمادى الأولى إلى أواخر رمضان من تلك السنة، زار الملك خلالها الاجزاء كلها، وأمر باصلاح ما كان قد تهدم من مراكز الدفاع والثغور.

خرج السلطان من القاهرة المحروسة في آخر جمادى الأولى دون ضجة أو حفلات، ولم يكن رفقاؤه في الرحلة يتجاوزون الأربعين نفراً.. بينهم الأمير ثاني قره بك، ورجائي بك، ويشبك الجمالي، وشاهين الجمالي، وقاضي القضاة قطب الدين الخداري، قاضي الشافعية بدمشق.

مر بطريقه بالصالحية والعريش وغزة وقاقون والناصرة وصفد وبعلبك وطرابلس واللاذقية وانطاكية وبغراس (بغرص) وعينتاب وديار بكر، ووصل قلعة المسلمين، ثم عاد من ديار بكر بطريق حلب وسرمين وحماه وحمص والنبك ودمشق وسعسع وجسر بنات يعقوب وخان منية وقاقون.. ومن هنا اتبع نفس الطريق التي جاءها إلى القاهرة.

واصاب السلطان مرض شديد ايام إقامته بدمشق، وقد اهتم فضلاً عن التفتيش على القلاع والجسور واصلاح ما تهدم منها، بمقابلة الحكام والامراء المحليين.. فقد كان يدعوهم إليه ويبحث معهم شؤون المناطق التي يحكمونها. وعقد مثل هذه المؤتمرات في بغراس وعزاز وحمص ودمشق، وكم كنا نود لو أن مؤلف الرحلة التي بين ايدينا اعطانا اخباراً مفصلة عن الأمور التي تحدث فيها السلطان إلى نوابه. ولكن

كل ما نقله إلينا هو اسماء الامراء الذين دعاهم لمقابلته. على اننا متى تذكرنا أن الرحلة كانت عسكرية قبل كل شيء، سهل علينا ان نعرف المواضيع التي طرقها المجتمعون. ولعلنا نستطيع ان نضيف أن الموارد المالية للدولة كانت ضمن ما تحدثوا به، لأن هذه كانت مشكلة رئيسية في عهد قايتباي، كما كانت في عهد اكثر المماليك. ولم يكن مجرد مصادفة أن يعنى قايتباي بالغاء الاحتكار والضريبة الملازمة له في كل من طرابلس ودمشق. وكان الامراء في الطريق يقدمون هدايا ثمينة للسلطان ورجال حاشيته. وكان السلطان نفسه يخلع في مناسبات كثيرة على الامراء والنواب. فنحن نجد أنه اهدى إلى نائب حلب الأمير قانصوه اليحيوي سلارية بيضاء عليها فرو. واهدى صاحب صفد سلارية زرقاء. واقام حفلاً فخماً في حلب، اهدى فيه الى أمراء التركمان الاطالس المزركشة بالذهب وغير ذلك، واغتنم فرصة عودته، ومروره بخان منية فأهدى إلى صاحب صفد كاملية.

ولعل أكبر الهدايا هي ما أعطاه لاسحق باشا رسول الناصري ابن عثمان صاحب مملكة الروم ورفقائه.. فقد بعث السلطان إليه بهدية فاخرة بمناسبة سفره لأداء فريضة الحج. وقد شملت الهداية الف دينار وثلاثمائة رأس من الغنم ومئتي أردب من الشعير وأربعمائة قنطار من البقسماط ومائتي طير دجاج وخمسين اوزة وعشرة قناطير سكر وعشرة قناطير رمان وعشرة قناطير دبس، وخمسة عشر اردبا من الأرز المقشور.. على أنه لم يقتصر على الزاد، بل تعداه إلى الثياب الفاخرة، ومعدات السلاح. فأرسل إليه احدى وخمسين تفسيلة اسكندرية وعشرة دبابيس من صنع بزدغان وعشرة اكفات مذهبة وعشر حراب وثلاث درعيات جلدية وخمسين قصبة للحرب وعشر قطع موصلين من صنع مشتول (في دلتا مصر) وسكر نبات من انتاج حماة واربع جرار من العصير الكابولي [٢].

وقد كتب رحلة قايتباي أبو البقا بن جيعان وهو احد الذين رافقوا السلطان وسماها «القول المستظرف في رحلة مولانا الملك الأشرف». ولم يحاول ان يزخرف عبارتها، بل انه لجأ إلى البساطة التامة. وقد قال أبو البقا إنه أراد ان يدون أخبار هذه الرحلة لأنها منقطعة النظير [٣] ونحن نرى ان الرحلة كتبت بناء على طلب الملك الأشرف نفسه او بتشجيع منه، ولعله قصد منها الدعاية للملك.

اللاذقية ـ ومما سمعنا عنه ان في اللاذقية طاحونة تديرها الريح، سواء أكان هبوبها من الشمال أو الشرق أو الغرب على نحو ما هو معروف عند الأفرنج وإذا دارت يوماً كاملاً، ليلاً ونهاراً طحنت ١٢ اردبا بالكيل المصري.

وقد اقام هذه الطاحون رجل من اللاذقية كان الافرنج قد أسروه، فلما عاد انشأ هذا الشيء العجيب في بلده (القول المستظرف ١٠ ـ ١١).

سورية ـ والمواد الغذائية هناك وفيرة.. فهناك القنبريس والقرنبيط، وثمة معاصر تصنع الدبس (من العنب) وفيها تصنع الحلاوة الجوزية واللبن. ومما يتقن صنعه هناك حلاوة الأرز مع الزبيب (القول المستظرف ٨).

وتكثر هنا الأشجار والفواكه، ومجاري المياه تقوم عليها النواعير. وتقام يوم السبت سوق حمل إلينا منها رمانات بلغت زنة الواحدة منها رطلين مصريين، وجيء بباذنجان تزن الواحدة مثل ذلك. وقد بلغني انه قد يصل وزن الرمانة الواحدة خمسة ارطال، لكنني لم أر ذلك بنفسي (القول المستظرف ١٢).

الهوامش

(١) نشر الاستاذ روبرت برنشوغ اخبار رحلة عبد الباسط بن خليل بن شاهين في باريس سنة ١٩٣٦ بعنوان: *Deux Recits de Voyage inédits en Afrique du Nord aux XV Siècle* وهو الكتاب الذي اعتمدناه في نقل المختارات في هذه الدراسة.

(٢) العصير الكابولي هو عصير مستخرج من قصب السكر منسوب إلى كابول، وهي اليوم قرية صغيرة على مقربة من عكاء، لكنها كانت من أمهات أماكن زرع قصب السكر وانتاج السكر في العصور الوسطى..

(٣) هذه الرحلة مطبوعة في تورينو بايطاليا ١٨٧٨م مع تعليق لناشرها ر.ف. لانزون. لكننا لم نستطع الحصول على الأصل العربي، فاعتمدنا ترجمة فرنسية منقولة بقلم السيدة هنريت ديفونشير ومطبوعة بالقاهرة سنة ١٩٢١م.

المصادر

المصادر العربية

الاصطخري، أبو اسحق الكرخي الفارسي: **مسالك الممالك** ـ ليدن ١٨٧٠.

ابن بطوطة: **تحفة النظار في عجائب الامصار**، ط. باريس ١٨٧٤.

ابن جبير: **الرحلة إلى المشرق** ، ط. ليدن ولندن ١٩٠٨.

ابن حوقل: **المسالك والممالك**، ليدن ١٨٧٣.

ابن خرداذبة: **كتاب المسالك والممالك** ، ليدن ١٨٨٩.

البغدادي، عبد اللطيف: **الافادة والاعبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**، أوروبا والقاهرة.

حسن، زكي محمد: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى** ـ القاهرة ١٩٤٥.

زيادة، نقولا: **رواد الشرق العربي في العصور الوسطى**، القاهرة ١٩٤٣.

سليمان التاجر: **نشرة لانجلس** سنة ١٨١١ **ونشرة رينو** مع ترجمة فرنسية في باريس سنة ١٨٤٥.

السرافي، أبو زيد: **ذيل لرحلة التاجر سليمان**. نشرة رينو ، باريس ١٨٤٥.

فوزي، الدكتور حسين: **حديث السندباد القديم** ، القاهرة ١٩٤٣.

القزويني، زكريا محمد بن محمود: **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، جونتجن ١٨٤٩.

المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي: **التنبيه والاشراف**، ط. ليدن ١٨٩٣.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ط. باريس ١٨٦١.

منقذ، أسامة بن: **كتاب الاعتبار** ـ نشرة فيليب حتي، جامعة برنستون ١٩٣٠.

المصادر الاجنبية

Beazley, C.R. *The Dawn of Modern Geography*, Vols. I & II, London, 1897-1901, Vol. III, Oxford, 1906.

Brunschwig, R. *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord*, Paris, 1940.

Della Vida, L. *Une nouvelle source pour l'histoire de l'Afrique du Nord,* Hesperis, t. XIX.

Edrisi, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, Leyden, 1866.

Gaudefroy-Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamelouks*, Paris, 1923.

Gibb, H.A.R., *Ibn Battuta, Travels in Asia and Africa* (translated and selected, with an introduction and notes by Gibb, London, 1929).

Heyd, A., *Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age*, Leipzig, 1923.

Hitti, P.K, *History of the Arabs*, London, 1937.

Miller, K , *Mappae Arabicae*, Vols. I-IV, Stuttgart, 1926-7.

Naisiri-Khosrau., *Sefer Nameh*, éd. Chefer, Paris, 1881.

Newton, P. (ed.), *Travels and Travellers in the Middle Ages*, London, 1926.

Rainaud, A., *Géographie d'Aboulfida*, Paris 1848.

Strange, G. Le, *Palestine under the Moslems*, London, 1890.

الأهلية للنشر والتوزيع